ترجمات عالمية | Journey to the end of the night | F. CÉLINE | من أبرز روايات الواقعية السريالية في تاريخ الأدب

فردناند سيلين

رواية



ترجمة: عاصم عبد ربه

المحروسة

الفصل 1


ترجمات عالمية
Journey to
the end of the night
F. CÉLINE
من أبرز روايات الواقعية
السريالية في تاريخ الأدب
فردينـانـد سيليــن
روايـــــة
رحلـة إلـى
آخـر الليـل
ترجمة: عاصـم عبـد ربــه
المحروسة


تليجرام مكتبة غواص في بحر الكتب

الفصل 2

رواية

رحلة إلى آخر الليل

فرديناند سيلين

الترجمة عن الفرنسية

عاصم عبد ربه



عنوان الكتاب: رحلة إلى آخر الليل
Voyage au bout de la nuit

المؤلف: فرديناند سيلين
by Louis-Ferdinand Céline

الترجمة عن الفرنسية: عاصم عبد ربه
مراجعة لغوية: محمد حمدي أبو السعود



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 – المقطم – القاهرة
ت، ف:-28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٥٠١١ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي: 978-977-313-774-8

رواية

رحلة إلى آخر الليل

فرديناند سيلين

الترجمة عن الفرنسية

عاصم عبد ربه

الطبعة الأولى 2019



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

سيلين، فرديناند، 1894-1961

رحلة إلى آخر الليل/فرديناند سيلين؛ ترجمة: عاصم عبد ربه.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

709ص؛ 14.5× 21.5 سم

تدمك 978-977-313-774-8

1 - القصص الفرنسية

أ - عبد ربه، عاصم (مترجم)

ب - العنوان

843

رقم الإيداع 15011/ 2019


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

الفصل 3

مقدمة المترجم

في ذلك اليوم من صيف عام 1961، الأول من يونيو، لم تذهب لوسيت المنذور (زوجة سيلين) إلى عملها كمدربة للرقص، وبقيت تعمل في غرفتها إلى قرب الظهر. في ذلك النهار كان سيلين المرهق دومًا وشبه الغائب -بسبب عقار "الجاردينال" الذي يتناول منه جرعات ثقيلة علاجًا لعدم القدرة على النوم - أكثر إرهاقًا وتهالكًا من المعتاد، حتى إنه رفض أن يرى أحدًا (تشي صوره الفوتوجرافية الأخيرة بما وصل إليه من الانحلال والبؤس، ملتفًّا في ثيابه الواسعة الثقيلة، كان يرتعد بردًا، رغم حرارة الجو). ناولته الدواء وسألته إن كان يود أن يرى طبيبه، لكنه أومأ لها بالرفض. طلب منها أن تكتب لناشره -وصديقه - جاليمار لتخبره بانتهاء رواية "ريجودون"، وتطلب منه أن يرسل مقدم العقد الجديد الذي يرغب في أن يرفع قيمته إلى 1500 فرنك بدلاً من 1000. ثم وعدها بأن يكون كتابه الجديد عن طريقتها في الرقص. عند السادسة، عندما دخلت إليه تخبره بإتمام المهمة، كان قد فارق الحياة. لم يمهله العمر الفرصة ليرد الجميل، على طريقته، إلى لوسيت التي أفنت شبابها إلى جواره، ورافقته في المهجر القسري، وانتظرته وراء جدران السجن، وعادت معه مكسورًا مريضًا إلى بلاده، وعانت مرارة الإذلال والإفقار والإنكار، رأت منزلها يحترق مرتين وعاشت تحت رعب رسائل التهديد ولكنها لم تفقد إيمانها به وبفنه وقضيته لحظة واحدة.

أي مفارقة أن تحمل روايته اسم موسيقى راقصة شهيرة، كأن حياته الأدبية التي بدأت رحلة إلى آخر الليل قد انتهت إلى رقصة.

بين اللهو بالكلمات والالتزام الجاد بالعمل وبمواقفه التي لم يغيرها يومًا، مضت حياته التي قضاها متراقصًا على السطور بين الحقيقة والخيال، بين التوق إلى البحار البعيدة الواسعة والالتصاق بالأرض بسبب العجز.

مضى سيلين ونصوصه ومواقفه.. أصبح كما يقولون في ذمة التاريخ أو بالتالي موضوعًا لمدرسي ومؤرخي الأدب، لكنه مضى بعد أن غيّر وجه الكتابة الروائية إلى الأبد. صبغ الجميع بأسلوبه فلم يفلت من التأثر بسحر كتابته أحد من معاصريه أو من أتوا بعده، فرض أسلوبه الصعب الذي يستعصي أحيانا على الفهم في القراءة الأولى، ليجبرك على إعادة القراءة بتمهل مُستحق، فظهرت الجمل "السيلينية" والأفعال "السيلينية" والصور بل وأسماء الناس والمدن والشوارع.

لكن من هو سيلين هذا؟

هل يستحق هذه المكانة؟

لماذا لا يعرفه الناس بقدر يناسب موهبته الفذة؟

وأخيرًا ماذا عن الرواية ذاتها؟

هذا ما سوف نحاول الإجابة عنه في إيجاز.

من هو سيلين؟

إنه لوي فردينان ديتوش، المولود في 27 مايو 1894 في ضاحية كوربفوا بشمال غرب باريس، والمتوفى في أول يوليو 1961 ببلدة مودون الصغيرة بجنوب غرب باريس. اختار لنفسه اسم سيلين، اسم جدته، فأصبح لوي فردينان سيلين، وسرعان ما أصبح يعرف عالميًا باسمه الأدبي فقط.. سيلين.

درس الطب، وخاض غمار الحرب العالمية الأولى وخرج منها عاجزًا مصابًا بالأرق والصمم، وقدم مع عمله طبيبًا بضاحية كليشي الفقيرة، ومع عجزه ومعاندة الظروف له، إنتاجًا غزيرًا سنعرض له لاحقًا.

قدم سيلين في أدبه صورة للإنسان مغرقة في التشاؤم، مؤمنًا بأن الحقيقة الوحيدة في هذا العالم هي الموت، ومن ثم يصير هدف الإنسان هو أن ينجو بجلده ليس أكثر، الوسائل كلها مشروعة ليحافظ على بقائه، بما في ذلك أكثر الوسائل خسة ولاأخلاقية: "الكذب والخيانة والجبن، ولأننا لم نختر أن نكون ما نحن عليه ولا كيف ما أصبحنا عليه، يتعين أن نقبل أنفسنا على علاتها، فاسدين، منافقين، ضعفاء، أنانيين وكاذبين، وفوق كل هذا جبناء بلا حدود".

خرج سيلين عن القواعد والخطوط العامة المعروفة لكتابة الرواية فلم يحفل بالمعايير ولا اللغة ولا الحبكة المتفق عليها، وضع لرواياته بنى جمالية خاصة بها ميزتها عن غيرها. أنزل الفرنسية من برجها العالي وجعلها تأكل الطعام وتمشي في الأسواق. طرح لغة مغايرة تفيض بمصطلحات العامة واللصوص والسوقة، لكنها تزخر بابتكارات لفظية مدهشة وكان بذلك أول من داس كما يقولون على المحرمات في التعبير. كان يكتب كما يتنفس.. بحرية وعلى هواه تمامًا يكتب كما يتكلم الناس مرتقيًا باللغة اليومية إلى المنزلة الأدبية. غير أن كتاباته لم تكن نسخًا للغة المحكية بل كان يخضعها للمعالجة والتفكيك، وعندما لا يجد ضالته يخترعها، كما كان يخترع أسماء البشر والشوارع والمدن. عن أسلوبه يقول الناقد الأدبي مارسيل إيميه إنه: "هز ياقة اللغة الفرنسية المنشاة.. بقوة".

صاحب موهبة حقيقية، لا بد لها مهما حوربت ونوصبت العداء، أن تظهر ولو بعد حين، لأنها نور لا يمكن حجبه. فلا عجب أن يصبح سيلين اليوم هو الكاتب الأكثر طلبًا من قِبَل القراء، بعد أن غزا قلوبهم وعقولهم. وأن يصبح في نظر النقاد، الكاتب الأكثر تجسيدًا لجمال الفن الروائي وتعبيرًا عنه.

لقد كانت الكتابة بالنسبة إلى سيلين كما يقول النقاد «موقفًا من الحياة ومن البشر ومن الأفكار والعلل المرضية الاجتماعية ولم تكن جمالية وحسب». ظل سيلين على موقفه الجاد والحازم من اليهود، وظل يراهم حتى آخر لحظة في حياته سبب الحروب بين فرنسا وألمانيا، التي ما كان يجب أن تقع، وكان يشبههم بفئران سد مأرب التي خربت الحياة الأوروبية وجمالها، وأفسدت القيم وزرعت جرثومة المغالبة والتحارب بين شعوب أوروبا. ودفع لقاء هذا ثمنًا باهظًا دون أن يتراجع، صُنِّف بأنه معاد للسامية، حوكم، سجن، عزل ومات مريضًا، مطاردًا في بلاده.

رغم الحرب الكلامية بينه وبين سارتر، والتي اتهمه الثاني فيها بالعمالة للنازي وذاك في مقالة بمجلته "الأزمنة الحديثة" الأمر الذي أنكره سيلين قطعيًا ورأى فيه دعوة إلى إعدامه (فرد له الصاع صاعين واتهمه بالجبن والخسة وبأن فلسفته ليست إلا تكرارًا لفلسفة هايدجر، ودعاه بسارتر الصغير) -فإن سارتر قد تأثر على نحو واضح بأسلوب سيلين في روايته "الغثيان". بل إنه ذهب إلى القول "إن سيلين هو روح المجتمع الفرنسي وصوته الحر".

وقال جابرييل جارسيا ماركيز "كنت سأفقد كثيرًا من ثقافتي الروائية لو أنني لم أقرأ سيلين".

أما ماريو فارجاس فكتب قائلاً "سيلين هو أحد مُعلمي الرواية العظام في القرن العشرين".

وكتبت سيمون دو بوافوار "لقد صاغ سيلين أداة جديدة.. كتابة لها حيوية الكلام العادي (...) هذه الكتابة هي التي جعلت سارتر يتخلى نهائيًّا عن اللغة المفخمة المنمقة التي كان يستخدمها من قبل".

لم يهاجم أحد فكر سيلين بقدر ما هاجمه الثلاثي الماسي في الفكر والأدب الفرنسي المعاصر: سارتر، سيمون دو بوافوار، آلبير كامو، فكانوا يرونه كاتبًا

ومفكرًا يمينيًّا فوضويًّا، لم يتورع عن مناصرة النازي في الثلاثينات والأربعينات بنحو أو بآخر، كان الرجل في نظر الثلاثي التقدمي اليساري إلى حد ما، قمة التخلف الفكري في المواقف السياسية. ومع هذا فلا ينكر سارتر شخصيًّا أنه كثيرًا ما فكر بشخصية سيلينية وهي شخصية "باردامو" حينما كان منكبًّا على كتابة روايته الغثيان. كما أن كامو لم يُخفِ قط أنه تأثر بالشخصية نفسها حين كتب روايته الأشهر، الغريب، أما سيمون دو بوافوار، فقد كتبت عنه في مذكراتها: كنا في ذلك الحين نقرأ كل ما يصدر من كتب، أما الكتاب الفرنسي الأكثر قيمة بالنسبة إلينا فقد كان رواية سيلين "رحلة إلى آخر الليل". حتى إننا كنا نحفظ بعض مقاطعها غيبًا".

كأنه أحد أبطال الأساطير الإغريقية، يعتبر سيلين كاتبًا مسكونًا بلعنة لم تفارقه، لم يكن حسن الحظ من نصيبه يومًا، باستثناء موهبة لا تضاهَى وأسلوب لا يضارَع. ربما كانت ابتسامة الحظ الوحيدة في حياته هي يوم تعرف إلى "لوسيت المنذور" التي تزوج بها عام 1943 وظلت إلى جواره حتى وافته المنية في مساء الأول من يونيه عام 1961. لوسيت الأولى على دفعة "الكونسرفاتوار دو باري" التي ظلت تفخر باسمها "المنذور" ذي الأصل الأندلسي العربي.

حبل من اللعنة أحاط بعنقه منذ شارك مرغمًا في الحرب العالمية الأولى، التي أصيب فيها وخرج منها عاجزًا بنسبة 75% مصابًا بأرق دائم وصمم كان يبعث في أذنيه طنينًا لا ينقطع. ثم امتد إلى روايته الأولى ذاتها، "رحلة إلى آخر الليل"، التي فُقدت مخطوطتها التي كان قد أودعها إحدى دور النشر، لكن العناية الآلهية تلطفت به وبنا، فعثرت على تلك المخطوطة، في أحد صناديق القمامة سيدة عجوز كريمة اتصلت به وأعادت إليه مخطوطة الرواية، بفضل بطاقة تحمل اسمه وعنوانه كانت ملصقة بها. ثم تعرض سيلين لمؤامرة دنيئة من لجنة تحكيم مسابقة "جونكور" للرواية، عام 1932، حرمته من الفوز بالجائزة. وعلى الرغم من حصوله على جائزة "رونودو" فإن ذلك الظلم ظل

جرحًا لم يندمل في نفس سيلين. وكان انسحاب أحد أعضاء اللجنة دليلاً على أحقية سيلين في الفوز بالجائزة. لقد انتصر الفن على السياسة فيما بعد وصارت "رحلة إلى آخر الليل" أشهر وأهم الأعمال الروائية في النصف الأول من القرن العشرين، وتربع سيلين على عرش الرواية سيدًا لا ينازع، في حين لم يعد أحد يتذكر عنوان الرواية الحائزة على جائزة جونكور عام 1932 ولا اسم مؤلفها (رواية الذئاب لمؤلفها جي مازلين).

امتد مسلسل اللعنات إلى مواقف الرجل من اليهود والصهيونية، التي جلبت له مشكلات لا حصر لها. وإلى الآن لا تزال الرقابة، التي يسيطر عليها اللوبي اليهودي في فرنسا، تصادر هذه الكتب (وليس لأن زوجته تعارض نشرها خوفًا على حياتها).

بعد انهيار النازية، اضطر سيلين إلى الهرب من فرنسا، فكانت لعنة إضافية، دفعته إلى أن يخترق ألمانيا متجهًا إلى الدنمارك، حيث أخفى بعض المال تحسبًا لساعة ضيق مادي. لكن المنفى لم يرحب به، فزج به إلى السجن الذي خرج منه أكثر اعتلالاً وهمًّا. لقد أوشك موقفه الموالي لحكومة فيشي أن يكلفه حياته، لاتهامه بالعمالة للنازية ولهتلر ومعاداة اليهود. ولولا وجوده في الدنمارك، بعد انتصار الحلفاء في 1945، لكان مصيره المشنقة، كما حدث مع الكاتب الفرنسي روبير برازيلاش Robert Brasillach. وفي هذا يبقى أن نقول إن سيلين قد رفض على نحو قاطع الخضوع للإملاءات النازية، ورفض تلقي أي رشوة منهم، ولم يتوان عن إدانتهم وانتقاد هتلر ووصفه باليهودي الجبان.

بعد الحصول على عفو الحكومة الفرنسية، باعتباره لوي فردينان ديتوش، الطبيب، المحارب القديم، ومصاب العمليات في الجيش الفرنسي في حرب 1914، وبفضل جهد مثابر بذله محامون مخلصون، ونخبة صغيرة من الكتاب الفرنسيين الذين ظلوا على وفائهم لسيلين، رغم الجو المشحون ضد كل من اعتبر مواليًا لحكومة فيشي وألمانيا النازية، عاد سيلين إلى فرنسا مع زوجته

لوسيت، وعاش في وطنه عيشة ضنكًا، واضطرت لوسيت إلى العمل كمدرّسة للرقص، في حين استمر سيلين في معاركه مع صديقه وناشره جاليمار. لكن المرض كان لعنته الكبرى إلى رافقته حتى النهاية، المرض الذي لا يرحم والذي تحمله سيلين بصبر نادر، يشهد على ذلك استمراره في الكتابة، وموته بعد يوم واحد من اختتام روايته الأخيرة ريجودون.

لقد صار سيلين اليوم أحد أشهر وأهم كتاب الرواية في العالم، ونقلت أعماله إلى الألمانية والإنجليزية والروسية، وأخيرًا العربية. صدرت عنه وعن أعماله عشرات الأطروحات الجامعية والسِّيَر التي تتناول حياته ومشواره الأدبي.

سكن قلوب القراء في فرنسا والعالم، ما جعل منه ابتدء من عام 1990 أكثر الكتاب في فرنسا موضوعًا للكتب ورسائل الدكتوراه والبورتريهات والبيوجرافيات، والكتب الهجائية والمعادية وغيرها.

لكن إن كان سيلين بهذه الموهبة التي يتحدث عنها العالم، والتي جعلته يزاحم بروست شخصيًا، كتفًا بكتف، على قمة أوليمب الرواية الفرنسية، من وجهة نظر النقاد المتخصصين، فلماذا لم يحظ الرجل بالمكانة والشهرة نفسهما لدى القارئ العاديّ، وخصوصًا القارئ العربي الذي لا يجد صعوبة في تذكر أعمال عدة لألبير كامو، أو أشهر أعمال سارتر وسيمون دو بوفوار أو فرانسواز ساجان، في حين يكاد يتعثر في نطق اسمه؟

حقيقة أنه لم يتمتع بوسامة كامو، معبود النساء، الكاتب النجم، المقاتل المنخرط في مقاومة النازي، ولم يحظ بمساندة الجميع له مثل سيمون دو بوافوار وصديقها الفيلسوف والكاتب التقدمي اليساري سارتر، اللذين نالا شهرة عالمية.

حقيقة أنه كان منطويًا، ساخطًا، ممرورًا، بسبب مرضه وعجزه وسجنه، لأنه كان يعرف قدر نفسه. لم يجامل ولم يدارِ، وجلبت له صراحته واعترافه

بضعفه البشري عداوة الكثيرين.

حقيقة أن سوء الحظ قد لاحقه طيلة حياته، قد يكون امتد إلى حرمانه من مجد ورَغَد كان يستحقهما في حياته.

في ما يخص القارئ العربي، يضاف إلى ما سبق وإلى ما سوف يلحق، العوار الذي أصاب الترجمة العربية (المصرية والسورية) لروايته الأولى التي سميت في النسخة المصرية "رحلة في آخر الليل" وفي النسخة السورية "سفر إلى آخر الليل". الحقيقة أن الترجمة العربية لم تكن في صالح الرواية، وإن لم تدخر، في نسختيها، جهدًا. بناءً على ما عاينّاه وعلى ما وجدنا عليه آراء كثير من القراء والمهتمين بالشأن الأدبي، ففي نظرنا أن الترجمتين ورغم الجهد الهائل المشكور من المترجمين الكريمين، لم تنجحا في جذب اهتمام القارئ العربي بالعمل، وبالتالي بصاحبه. بل كانتا في مواضع كثيرة سببًا في التوقف عن مواصلة القراءة والعزوف عنها. هنا لا بد أن نشير إلى صعوبة أسلوب سيلين، وإلى أنه لم يكن بكل تأكيد يفكر في نقل عمله إلى العربية، فضلاً عن الاختلاف الهائل في طبيعة اللغتين، دون أن يكون في ذلك مساسٌ بعلم وثقافة وتمكن المترجمين من ناصية اللغتين، ناهيك بخصوصية أسلوب سيلين في الكتابة التي تجعل من محاولة نقله، كما هو، إلى العربية، محفوفة بمخاطر الوقوع في الركاكة، وعسر الفهم، والتنافر والافتقار إلى السلاسة المطلوبة لعمل يمتد على مئات الصفحات. إنني شخصيًا قد أمضيت ليالي بيضاء أفكر في ما كان يقصده الرجل الذي يفكك اللغة ويلقي بها في وجه قارئه، مطالبًا إياه بأن يشاركه الحيرة والقلق والمشاعر المتنازعة وطنين الأذنين وشطحات الحمى.

لم تتوقف صعوبة ترجمة أعمال سيلين عند اللغة العربية، فها هو ستانفورد لوسي بإنجليزيته، الأقرب بالتأكيد إلى الفرنسية، يقول عن الصعوبات التي تقابل مترجمي سيلين إنها (تعود إلى قدرة سيلين على مزج الواقع بالهذيان، وإلى معجزة ربط الكوميديا بالبؤس، المبالغة بالواقع دون توقف، عبر

الانفعال، حيث يتم دفع القارئ إلى الوجهة المنشودة، وهذا التصوير المحموم للواقع وتحويل اللغة المحكية إلى صيغة كتابية، ما يخلق مشكلات عويصة لمترجم سيلين. فالمترجم غالبًا ما يحتار في كيفية تصوير زخم أسلوب سيلين مع الحفاظ على الرسالة التي يحملها. إن أنواع المشكلات جميعًا التي قد تواجه المترجم موجودة في أعمال سيلين. ويتفق معظم النقاد أن أسلوبه هو أسلوب شاعر، لذا لا يكفي أن ينقل المترجم المادة المكتوبة، بل عليه أن يعبر أيضًا عن الشعر والإيقاع واللمسة الموسيقية التي يسميها سيلين نفسه -لحنه الصغير الخاص، فضلاً عن لغته الشفهية المحوّلة وحيوية انفعالاته).

لكن كلمة السر الحقيقية وراء التعتيم المفروض على الرجل حتى الآن هي "اليهود"، أو بالأحرى مواقفه من اليهود. فقد تسببت كتاباته المعادية "للسامية"، التي أصدرها في السنوات التي سبقت الحرب العاملية الثانية، في إثارة غضب اللوبي اليهودي المسيطر في فرنسا، فشن عليه حربًا شعواء ولاحقه قضائيًّا وسد عليه منافذ النشر ووصمه بكل ما لا ليس فيه. جلبت له الروايات الثلاث التي سبقت الإشارة إليها، مشكلات لا حصر لها. وحتى يومنا هذا لا تزال الرقابة تصادر هذه الكتب، على الرغم من موافقة كثير من الكتاب الفرنسيين، حتى المتحدرين من أصول يهودية، على نشرها، بعد مرور كل هذه السنوات على رحيل صاحبها. هل كان موقفه الحاسم منهم سببًا في موقفه المهادن للاحتلال النازي لفرنسا عام 1940 والذي يقول البعض إنه تجاوز الالتباس إلى حد التعاون مع المحتل، وهو الأمر الذي أنكره سيلين تمامًا؟ لقد تجلى الحصار المقصود على سيلين وأعماله والحرب المستمرة ضده، منذ عقود وحتى اليوم، في نجاح اللوبي الصهيوني في منع الاحتفال الرسمي بمئوية مولده عام 2011، وعرقلة إعادة الاعتبار لهذا الكاتب العظيم. لقد نجحت جهود المحامي الصهيوني سيرچ كلارسفليد وعائلته النافذة في الضغط على وزير الثقافة آنذاك، فريدريك ميتران، ابن شقيق رئيس الجمهورية الأسبق فرانسوا ميتران، وإرغامه على إلغاء الطابع الرسمي للاحتفال بعلم من إعلام الثقافة الفرنسية، وثاني أهم روائي في القرن

العشرين. لقد اتخذت معاداة السامية مبررًا لمعاملته معاملة المجذومين، كما يقولون، فحوصر وعزل واستبعد وأحرق منزله مرتين.

في النهاية، سواء أأحب المرء كتابات سيلين، أم وقف مترددًا أمام موقفه من اليهود أم استنكر موقفه من المحتل النازي لبلاده عام 1940، فإن الكتابة عن عبقرية كهذه أمر صعب بلا شك، خاصة عندما تقترن الكتابة عنه بالكتابة عن عمله هذا، الذي يتداخل فيه المؤلِّف والمؤلَّف إلى حد بعيد، والذي سوف تتضح فيه ذاتية الكاتب في الكتابة، وتماهيه مع شخصية البطل الرواي.

أما عن الرواية ذاتها "رحلة إلى آخر الليل " أو "سفر إلى آخر الليل" فيمكننا أن نتردد، كما يقول كلود ليفي شتراوس، في إطلاق مسمى على هذا العمل الضخم، سفر يتجاوز الستمئة صفحة. هل هي رواية أم سيرة ذاتية أم حكاية أم رواية مسلسلة؟ لكن لا مجال للتردد مطلقًا حول المكانة التي يجب أن تمنح لها عن استحقاق في الأدب المعاصر. لنسمها إذًا رواية أوتوبيوجرافية، اعتُبِر المؤلف حين أصدرها كاتبًا يساريًا، بسبب أفكاره المعادية للعسكرتاريا والكولونيالية التي عبر عنها في الرواية. إنها بحق أهم عمل روائي صدر في فترة ما بين الحربين، تحديدًا في 1932، وسوف تظل كذلك حتى حين. لقد نالت نجاحًا مدويًا ترددت أصداؤه في أوروبا والأمريكتين. نالت جائزة "رينودو" لكنها لم تنل "الجونكور" لأسباب تقدم عرضها، استوحاها الكاتب، على الرغم من طابعها الروائي الخالص، من ذكريات حياته، بعض مغامراته خلال الحرب العالمية الأولى، مضيفًا إليها معرفته بالقارة الإفريقية حيث اكتشف مبكرًا وجه الكولونيالية القبيح، فضلاً عن نظرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها وجه الرأسمالية غير الإنساني، متأسيًا بنموذج مؤسسة "فورد"، وأخيرًا تجربته الخاصة كطبيب يعمل في ضواحي العاصمة الفرنسية، الأمر الذي يوضح ذاتية سيلين في الكتابة، التي تتضح في أعمال أخرى مثل روايته الثانية "موت بالتقسيط"، التي يتمثل في خلفيتها طفولة بطله باردامو، وكذلك رواية "عصابة المهرج" بجزأيها، ويتناول فيها فترة إقامته في إنجلترا 1915،

فضلاً عن أن رواية "الورطة" قد عالجت هزيمة فرنسا في 1939. الرواية مبنية أصلاً، في الجزء الأساسي منها على تجربته الخاصة، إذ عمل في القسم الطبي في مندوبية عصبة الأمم في ألمانيا لبعض الوقت، ما جره إلى التعاطف مع الألمان، الذي سبقت الإشارة إليه. وعندما عاد إلى فرنسا من ألمانيا عمل في حياته الخاصة كما في الرواية، في ضاحية كليشي التي كانت في ذلك الوقت، في الربع الأول من القرن العشرين، ضاحية البائسين. هناك اكتشف سيلين البؤس والظلم الاجتماعيين ليجعل منهما موضوع روايته الملحمية. ترتبط الرواية إذًا بسيرة كاتبها الذاتية بوجهيها الواقعي والنفسي، وبتجربته الشخصية في إدراك واقع عصره والانطلاق منه إلى تأمل وضع البشرية كلها. النزعة العدمية المتفشية في أعمال سيلين، الذي دشن ما أسماه النقاد "الأدب الأسود"، منحازة إلى الفقراء، رغم قسوة العبارات التي يصفهم بها. العالم الذي يصوره سيلين في هذا العمل يبدو دائمًا "قدرًا لا مهرب منه ولا يحمل بارقة أمل" كأنها مقولة دانتي على بوابة الجحيم، بوابة العالم بالنسبة إلى سيلين، "أيها الداخلون إلى هذا المكان.. اطرحوا عنكم كل أمل". المفارقة أن سيلين نفسه يقول إن خلفية هذه الحكاية كلها هي الحب.. نعم الحب، الذي لا نجرؤ على الحديث عنه وسط هذه الجحيم.

تتبدى عظمة هذه الرواية في أنها لا تستدعي مشاعر الشفقة الساذجة التي ربطها رجال الكنيسة بوعي البؤس، لقد ولى ذلك الزمن الذي كان الكاتب يستعير فيه عظمته من آلام البشر، في حين يظل هو بعيدًا عن هؤلاء البؤساء. إنه يتبادل الحياة المعيشية مع هؤلاء الذين يلقي بهم البؤس بعيدًا عن الإنسانية، وهذا هو ما يمنح هذه الرواية تفردها ويضفي عليها دلالتها الإنسانية.

إنها تصف، على نحو ما، العلاقات التي تربط كائنًا ما بموته الحاضر، في كل صور البؤس البشري التي تظهر من خلال مشاهد الحرب والمستعمرات الإفريقية وأمريكا وضواحي باريس الفقيرة، وجوه أطفالها وروائح بيوتها والأمراض والموت، شخوص الجنود، الضباط، العلماء، القساوسة، الرجال

البيض في المستعمرات والبرجوازيين الصغار، العاهرات والقوادات والعشيقات.. موازييك خرافي لعالم البؤس، يتبادل فيه الجميع مشاعر الخوف والكراهية والخسة والأنانية واليأس، لا خلاص منه إلا بالموت، ووسط كل هذا يمكننا بالكاد أن نلمح وميض أمل.

قسم سيلين روايته إلى مقاطع وفصول تتفاوت طولاً وكثافة، دون أن يمنحها ترقيمًا (قمت أنا بهذا، تخفيفًا على القارئ ولتسهيل عودته إلى القراءة عند الجزء الذي توقف فيه). كان هذا التقسيم جديدًا إلى حد ما على الرواية الفرنسية، تاركًا للزمن العابر، لا الرقم، تحديد مسار أحداث الرواية. يبدأ الفصل الأول عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، لينتهي بعد مُضِيّ عشر سنوات، 1928، على توقيع اتفاقية الهدنة التي أنهت الحرب. كما هي الحال في الروايات "البيكارية" لا توجد حبكة واحدة في الرواية، يدفع سيلين بطله، باردامو، طالب الطب، إلى التجول في أركان الأرض الأربعة، تقوده الصدف وحدها دون أي تخطيط مسبق. هكذا نلاحق باردامو في جبهة القتال حيث يترصده الموت ليلاً ونهارًا من كل جانب. في هذا الجزء يقدم سيلين وصف رجل عاش الحرب بنفسه وأزت الرصاصات بجانب أذنيه. تكاد تشاركه الخوف، رغم السخرية المرة، وهو يشق طريقه، في مهمة استطلاعية، على ظهر حصانه العجوز المريض المنهك في الليل البارد المخيف، وحيدًا إلا من الضجيج المعدني الذي يبعثه عتاده الفولاذي الثقيل، في سكون ليل المدن التي أحرقتها الحرب، متجهًا إلى بلدة "نوارسور سور سين" –أي سواد على نهر السين– المخترعة بالكامل، لكن الإشارة السيلينية الرمزية الساخرة لا تخطئ مقصدها. ثم نتبعه إلى المستعمرات الفرنسية في قلب إفريقيا، الكونجو تحديدًا، لنرى الوجه الحقيقي للرجل الأبيض الأكثر توحشًا من الهمج أكلة لحوم البشر، قبل أن ننتقل معه إلى أمريكا على ظهر السفينة الشراعية التي بيع لربانها عبدًا، باعه القس الإسباني الذي لجأ إليه هاربًا من جحيم الغابة الاستوائية. في قسم آخر بعد العودة من أمريكا، التي انتقد قسوة رأسماليتها متخذًا مؤسسة فورد كمثال لاستغلال البشر، نجده وقد انصرف

إلى ممارسة الطب في ضاحية كليشي الصغيرة، في الحي الذي اخترع اسمه، رانسي – لاجارين، هناك، وفي انتظار نضوج وجبة العشاء الخشنة، قد تجد نفسك واقفًا بجواره في مطبخه الصغير، مطلاً معه على الفناء الداخلي لمنزله، الملاصق للفناء الداخلي للبيت المقابل، اللذين يشكلان صندوقًا رنانًا تتجمع فيه الأصوات والروائح الصادرة من غرف النوم، الطعام، المطابخ، دورات المياه، التي تضج كلها بأصوات ساكنيها البائسين، بعد وجبة عشاء السبت المترعة بالنبيذ الأسود الرخيص والشجار، والمروادات وصراخ الصغار وعواء الكلاب المذعورة التي يصب عليها أصحابها غضبهم لأنها تشعر مثلهم بالجوع. قد تمد عينيك في هذه العتمة الدائمة بحثًا عن أقفاص الطيور التي تعلقها البوّابات على جدران ناشعة بالرطوبة، بالقرب من دورات المياه مخلعة الأبواب وصفائح القمامة... الطيور البائسة التي فقدت الأمل في أن ترى الربيع ثانية وأن تطلق أجنحتها للريح فصمتت هي الأخرى إلى الأبد، في انتظار موت آتٍ محتوم. قد تسأل نفسك: هل هذه الأفنية المعتمة الرطبة الآسنة هي نفوسنا؟ هل العصافير السجينة اليائسة التي تنتظر الموت راضية هي أرواحنا؟ هكذا يلهو سيلين أو باردامو بمشاعرنا. راقصًا على الحبل الذي يربط الحقيقة بالخيال. بعدها نراه، باردامو، يقوم بدور ممثل صامت في أحد ملاهي العاصمة، حيث كانت المسارح وأماكن اللهو تصطخب في ذلك الوقت، لينضم بعدها إلى طاقم العمل الطبي في إحدى المصحات العقلية التي يديرها طبيب مخضرم، دكتور باريتون، بعد أن زكّاه للعمل معرفة قديمة، دكتور بارابين. في خضم هذا كله ابتكر سيلين لبطله شخصية أخرى غارقة في بؤسها، روبنسون، الذي لا يكف عن التقائه، في لحظات فارقة في الرواية، في الحرب، بعد الحرب، في إفريقيا، في أمريكا، في باريس ثانية، ليتحول بين الحين والآخر إلى شبه قرين له، يرعبه مصيره ويبدو غير راغب في أن يعيشه بنفسه. لن نفسد عليكم متعة القراءة، لكن باردامو الذي كانت حياته كلها هروبًا إلى الأمام، أراد أن ينحيه عن طريقة آخر الأمر ليروي لنا أحداث الرواية بنفسه.

وأخيرًا، لئن كان سيلين قد لقي من كتاب فرنسا التقدميين في ذلك الوقت ما لقيه من سب وتنديد بسبب مواقفه السياسية، فإن هذا لم يمنعهم من أن يضعوا "الرحلة" في مكانها الصحيح، كرواية رائدة ينظر إليها الجميع الآن على أنها واحدة من أروع الروايات الفرنسية التي كتبت في النصف الأول من القرن العشرين، بل واحدة من أعظم الروايات الأوروبية إلى جانب "يوليس" لجويس، و"الرجل عديم المزايا" لروبرت موتسيل، وحتى "البحث عن الزمن الضائع" لبروست. لقد كانت ضمن القائمة التي وضعتها صحيفة لوموند الفرنسية مع الروائي الفرنسي الشهير فناك، لأفضل مئة كتاب في القرن العشرين. كما وردت في قائمة أفضل مئة كتاب في كل العصور –مكتبة بوكلوبن العالمية– التي وضعها نادي الكتاب النرويجي عام 2002، وشارك فيها مئة كاتب من 54 دولة مختلفة، وجاء ترتيب الكتب فيها هجائيًّا بحسب اسم المؤلف. (باستثناء دون كيخوتي التي جاءت على رأس القائمة).

هذه الكلمات التي تمتدح الرواية لا تنكر وجود مقالات سلبية بشأنها. فها هو الكاتب الروسي الشهير "مكسيم جوركي" يقول: "إن الأديب المعاصر في أوروبا الغربية فقد اليوم ظله حين هاجر من الواقع إلى العدمية، كما يظهر جليًّا في رواية (رحلة إلى آخر الليل). إن باردامو بطل الرواية فقد وطنه وراح يحتقر البشر ويصف عشيقاته بالمومسات. إنه كاتب لا يمكن أن ينضم إلى البروليتاريا الثورية، بل إنه مهيأ تمامًا لتقبل الفاشية". أما "تروتسكي" فيقول: "لقد دخل سيلين إلى الأدب الحقيقي كما يدخل الآخرون إلى بيوتهم. إنه رجل ناضج مسلح بمعارف واسعة من ملاحظات الطبيب والفنان مع لامبالاة كبيرة بكل ما هو أكاديمي، لديه حس استثنائي تجاه الحياة واللغة. لقد وضع سيلين مؤلفًا سوف يصمد. رواية التشاؤم هذه قد أملاها الإحساس بالرعب أمام الحياة والإعياء والسأم الذي تتسبب فيه، أكثر من التمرد على هذه الأوضاع. التمرد الفعال النشط يرتبط بالأمل، أما في كتاب سيلين فليس هناك أي أمل".

أخشى أن أكون قد أطلت عليكم، لكني أتمنى أن أكون شجعتكم على الدخول في عوالم سيلين، والغوص في بحاره العميقة، لتعرفوا أن سيرته قد تكون سيرتنا ومعاناتنا التي نخاف أن نجاهر بها لشدة قربها منا، وسطوة آلامها وحرارة صدقها.

وقبل أن نختتم بقائمة أعمال سيلين، نود أن ننسب الفضل إلى أصحابه، وأن نشير إلى أننا قد اعتمدنا في الصفحات السابقة -إضافة إلى جهدنا المتواضع - على أعمال من سبقونا في هذا الصدد، ونذكر منهم:

الموسوعة العربية - حسن حميد.

مقالة إبراهيم العريس في جريدة الحياة اللندنية، عدد 12/11/2010

مقالة غازي أبو عقل في الملحق الثقافي، جريدة الثورة، 25/8/2009

كتاب "من سيلين إلى آخر" الذي يستوحي عنوان رواية "من قصر إلى آخر"، والذي أصدرته دار لافون، عام 2011، المكرس للكاتب والذي يقع في 1171 صفحة، وأفسح المجال لمئتي شهادة عن سيلين. فضلاً عن مصادر الإنترنت.

قائمة أعمال سيلين

الروايات

1 - رحلة إلى آخر الليل Voyage au bout de la nuit – منشورات دونويل وستيل -باريس - 1932 2 - موت بالتقسيط Mort á credit -منشورات دونويل وستيل -باريس-1936 3 - عصابة المهرج Guignol`s band -منشورات دونويل وستيل -باريس-1944 4 - الحرب Casse-pipe -منشورات دونويل -باريس-1944 5 - فتنة من أجل مرة أخرى Une ferrie pour une autre fois، منشورات جاليمار - باريس – 1952 6 - فتنة من أجل مرة أخرى –الجزء الثاني –Normance منشورات جاليمار - باريس-1954 7 - من قصر إلى آخر

D`chateau á L`autre -منشورات جاليمار -باريس - 1957 8 - شمال Nord (آخر ما صدر له في حياته) -منشورات جاليمار -باريس - 1960 9 - جسر لندن Le Pont de Londres، الجزء الثاني من "عصابة المهرج" -منشورات جاليمار -باريس - 1946 10 - ريجودون Rigodon (اسم موسيقى راقصة) -منشورات جاليمار -باريس - 1969

الكتب الهجائية

1 - ميا كولبا Mea culpa - خطئي - منشورات دونويل وستيل -باريس - 1936 2 - ثمن بخس لمجزرة – Bagatelle pour un massacre -منشورات دونويل وستيل -باريس-1937 3 - مدرسة الجثث – L`Ecole des cadavers- منشورات دونويل -باريس-1938 4 - الورطة - Les beaux draps - دار المنشورات الفرنسية الحديثة – باريس - 1941

الكتب الثلاثة الأخيرة هي التي أظهر فيها تعاطفًا متزايدًا تجاه الألمان، ومعاداة متزايدة لليهود، وأعلن صراحة أنه العدو رقم واحد لليهود. كتاب مدرسة الجثث كان السبب وراء صدور مرسوم مارشاندو decret-loi Marchandeau في 21 أبريل 1939 الذي يجرم الاعتداء أو الإساءة إلى الأقليات العرقية، ويحذر من الأعمال المعادية للسامية –بسبب هذا المرسوم حذفت ست صفحات من كتاب مدرسة الجثث، في حين مر الأمر بسلام بالنسبة إلى كتاب bagatelle pour un massacre. أما الكتاب الأخير الورطة les Beaux draps، فقد صدر بعد الهزيمة والاحتلال النازي لفرنسا، وقد انتقد فيه سيلين بمرارةٍ اليهود والماسونية وغالبية الشعب الفرنسي وحكومة فيش، ما دعاها إلى مصادرة الكتاب وحظر نشره، في منطقته الحرة، لم يمنع تداوله في المنطقة المحتلة. في فترة الاحتلال لم يوقع سيلين مقالاً واحدًا باسمه، لكنه كان يراسل بعض الصحف المتعاونة مع المحتل، والتي نشرت له بعضها.

أعمال أخرى

5 - الرد، على الاتهامات الموجهة ضده من القضاء الفرنسي بتهمة الخيانة، والتى أعادها القضاء الدنماركي في أثناء سجنه، 1946 6 - مسرحية الكنيسة، منشورات دونيل وستيل، باريس1955 7 - مفكرة الفارسي المدرع ديتوش، جاليمار، باريس 1970 8 - أمواج، قصة قصيرة كتبت 1917، وصدرت عن جاليمار 1977. 9 - حياة وأعمال فيليب إيانس سيموليس، منشورات سيمون رين 1924 10 - فضلاً عن العديد من الكتب والمقالات الطبية، ومئات بل آلاف المراسلات التي بدأ نشرُها منذ عام 1990.

عاصم عبد ربه

إلى إليزابيث كريج(1)..

حياتنا رحلة..

في الشتاء وفي الليل،

نبحث عن طريقنا..

في السماء حيث لا يلوح شيء.

أغنية الحرس السويسري(2)

1793

السفر مفيد بالطبع، إنه يحرك الخيال، كل الباقي ليس إلا خيبات أمل ومتاعب. رحلتنا هذه خيالية تمامًا. هذه هي حيويتها.

إنها تمضي من الحياة إلى الموت. بشر، وحيوانات، ومدن وأشياء، من نسج الخيال. إنها رواية، ليست سوى حكاية وهمية. ليتريه Littré يقول هذا، ليتريه

الذي لا ينخدع أبدًا.

فضلاً عن ذلك يستطيع كل الناس أن يفعلوا الشيء نفسه. يكفي أن نغلق العينين.

إنها في الجهة الأخرى من الحياة.

(1) Elisabeth Craig (1902 - 1989)

راقصة أمريكية تعرف إليها سيلين في جنيف عام 1926، وعاش معها في باريس حتى عام 1933. (المترجم)

(2) أغنية الحرس السويسري Gardes Suisses، 1793: سرية من الضباط التابعة لإحدى الكتائب السويسرية– الألمانية في جيش نابليون. على وشك مقابلة الموت، أنشدها ضباط الحرس أمام نهر La Berezina. كان ذلك في أثناء الانسحاب من روسيا عام 1812. لا يتعلق الأمر إذًا بالحرس السويسري لقصر ملك فرنسا في عهد النظام القديم، الذي تعرض لمجزرة أتت عليه في أثناء معركة التويليري، عام 1792. (المترجم)

الفصل 4

المقطع الأول

هكذا بدأ الأمر. أنا، لم أكن قد قلت شيئًا. لا شيء. لقد كان هو، آرتور جرانت، من حملني على الكلام. آرتور، أحد الأصدقاء، طالب، يدرس الطب مثلي هو الآخر. باختصار، كنا قد تقابلنا في ميدان كليشي(3)، وكان ذلك بعد الغداء. كان آرتور يريد أن يتحدث إليّ، وقد أصغيت إليه. قال: "علينا ألا نبقى بالخارج! لندخل". دخلت معه. آه، هنا أفضل. ثم بادرني بالقول: "هذه الشرفة لمحبي الظهور! تعالَ هنا". ساعتها، لاحظنا أن الشوارع أيضًا كانت خالية، بسبب الحر؛ لا سيارات، لا شيء. كذلك الحال عندما يكون البرد شديدًا، لا يوجد أحد في الشوارع، وعلى ما أذكر، فقد كان هو شخصيًّا من قال لي بهذا الخصوص: "يبدو أهل باريس منشغلين دائمًا، غير أنهم في الواقع، يتسكعون من الصباح إلى المساء، والدليل، أنه عندما يكون الجو غير مناسب للتجوال، شديد الحرارة أو قارس البرودة، فإننا أيضًا لا نعود نراهم، يكون الجميع داخل المقاهي، يتناولون القهوة بالحليب ويحتسون كؤوس الجعة. هذه هي الحال! قرن السرعة! كما يقولون. أين هي؟ تلك التحولات الكبرى التي يتحدثون عنها! كيف تم ذلك؟ الحقيقة أن شيئًا لم يتغير. إنهم يواصلون الإعجاب بأنفسهم، هذا هو كل ما في الأمر. وهذا، هو الآخر، ليس بالأمر الجديد. أقاويل، بل إن قليلاً من بين هذه الأقوال هو ما تغير! اثنان أو ثلاثة من هنا ومن هناك، مجرد كلام". فخوران، أنا وآرتور، لأننا أعلنا هذه الحقائق واعترفنا بها. ظللنا جالسين، نتطلع إلى رواد المقهى من السيدات.

(3) كليشي: ميدان صغير– بالدائرة الثامنة عشرة– باريس. (المترجم)

بعد ذلك، عاد الحوار ليدور حول الرئيس بوانكاريه، الذي كان قد ذهب، في ذلك الصباح تحديدًا، ليفتتح معرضًا للكلاب. ثم من موضوع إلى آخر، عاد لينصب على جريدة الوقت Le temps(4) التي نُشر فيها هذا الخبر. "انظر يا عزيزي.. ها هي سيدة الجرائد.. Le temps" قال آرتور ليثير غيظي، بهذا الخصوص. "لا مثيل لها في الدفاع عن الجنس الفرنسي! بالفعل، إنه يحتاج إلى ذلك، الجنس الفرنسي.. نظرًا إلى أنه لا يوجد أصلاً". كان ذلك هو ردي، لأظهر له أني كنت أدرك حقيقة الأمر، ولكي أرد له صاعًا بصاع.

(4) Le Temps، لم تكن لتلك الصحيفة، المعادلة لصحيفة Le monde لو موند، الميول العنصرية والرجعية التي ينسبها إليها آرتور جانات Arthur Ganate.

"بلى يا عزيزي، إنه جنس موجود! وجنس رائع". قال في إصرار، "بل إنه أرقى أجناس الأرض، ومن يتشكك في ذلك فإنه مخدوع بكل تأكيد!" ثم، ها هو يشرع في توبيخي لكني صمدت أمامه بطبيعة الحال.

"غير صحيح! الجنس أو ما تسميه أنت كذلك، ليس سوى هذا الحشد الكبير من البؤساء على شاكلتي، مرتعدين، تمتلئ ثيابهم بالبراغيث وعيونهم بالقذى، هؤلاء الذين ألقت بهم الأقدار هنا، يطاردهم الجوع، الطاعون، الأورام، البرد. جاؤوا مهزومين من جهات الدنيا الأربع. لم يكن بإمكانهم الذهاب إلى أبعد من ذلك، بسبب البحر. هذه هي فرنسا، ومن ثم ها هم الفرنسيون". قال آرتور برصانة وبشيء من الحزن:

"باردامو، Bardamu، نحن نعتز بآبائنا، لا تتناولهم بسوء!"

"أنت محق، يا آرتور، أنت محق في هذا! حاقدون ومذعنون، مغتصَبون، مسلوبون، ساقطو الهمة وحمقى على الدوام. إنهم يستحقون فخرنا بالفعل! بإمكانك أن تقول هذا، نحن قوم لا يغيرون شيئًا! لا جواربنا ولا ساداتنا ولا

أفكارنا، أو نغيرها بعد فوات الأوان، عندما لا يستحق الأمر عناء القيام به. لقد ولدنا أوفياء ولسوف نموت لهذا السبب نحن أيضًا! جنود مجانيون، أبطال لكل الناس وقرود ناطقة، أقوال ملتبسة، نحن غلمان مولانا، صاحب جلالة الفقر، إنه هو من يمتلكنا.. يتحكم فينا! وعندما نخرج عن طور الحكمة يضغط، إن أصابعه تطوق أعناقنا، باستمرار، تمنعنا من الكلام، عيلنا أن نحترس جيدًا، إن كنا نتمسك بإمكانية البقاء على قيد الحياة.. إنه يطبق على أنفاسك لأتفه الأسباب.. تعسًا لها من حياة".

"هناك الحب، يا بارادمو".

"آرتور، إن الحب هو تلك العاطفة المطلقة التي تنعم بها كلاب الكانيش، أما أنا فلي كرامتي!

هكذا أجبته".

"لنتحدث عنك إذًا! أنت فوضوي وهذا كل ما في الأمر".

مخادع صغير، على أي حال، أنتم ترون ذلك بكل وضوح، وترون كل ما يدعيه من أفكار تقدمية في آرائه.

"ها قد قلتها بنفسك، أيها المختال، أنا رجل فوضوي، والدليل على ذلك، أفضل دليل، أنني قد وضعت ما يشبه نصًّا لصلاة ثأرية واشتراكية، وسوف تخبرني برأيك فيها فورًا: الأجنحة الذهبية! هذا هو العنوان!" وشرعت حينها في التلاوة:

"رب يعد الدقائق ويحصي النقود، معبود يائس، شهواني يدمدم كالخنزير. خنزير له أجنحة من الذهب، يستلقي في كل مكان على ظهره ويتوق بطنه العاري إلى المداعبة، إنه هو. مولانا. فلنتعانق إذًا!"

"أغنيتك الصغيرة هذه لا يمكن أن تواجه الحياة. أنا لا أحب الخوض في السياسة ومن أنصار استقرار النظام. ومن ثم، ففي اليوم الذي سوف يطلب

فيه الوطن أن أريق دمي في سبيله، سوف يجدني رهن إشارته، مستعدًا لبذله بلا توانٍ". هكذا كان رد آرتور.

وبالفعل، كانت الحرب تقترب منا نحن الاثنين، دون أن ننتبه لذلك، إضافة إلى أني لم أعد في كامل تركيزى. كان هذا الحوار القصير، وإن كان محتدمًا، قد أرهقني، فضلاً عن أني كنت منفعلاً كذلك، لأن الساقي كان قد تعامل معي بشيء من الخِسة.. بسبب البقشيش. في آخر المطاف، تصالحنا، أنا وآرتور، حتى نفرغ تمامًا من تلك القصة. صرنا متفقين تقريبًا في كل شيء.

"هذا صحيح، أنت محق"، أقنعت نفسي بذلك لأسترضيه. "لكننا في نهاية الأمر جالسون جميعًا في سفينة كبيرة. نجدف بأقصى ما في وسعنا. لا يمكنك الآن أن تأتي وتقول لي عكس ذلك! نحن جالسون فوق المسامير رأسًا، يتجاذب بعضنا بعضًا، وما الذي نجنيه من وراء ذلك؟ لا شيء، ضرب السياط فقط، الأجور التافهة، الأكاذيب والمهانة واللعنات أيضًا. إننا نعمل، كما يقولون. إنه ألعن من كل ما عداه.. عملهم هذا. نحن هنا في عنبر التجديف في قاع السفينة، نلهج من أفواهنا، ترشح أعضاؤنا بالعرق وتفوح بالعفن! وهكذا دواليك! أما على السطح، في الأعلى، في الهواء الطلق، فهناك السادة غير المكترثين، ونساؤهم الجميلات المتوردات المفعمات عطرًا، يجلسن في حجورهم. يُطلب إلينا الصعود إلى السطح، حينها، يضعون قبعاتهم العالية ثم يصرخون فينا، يسمعوننا لغوهم الفارغ.. من قبيل: (إنها الحرب.. أيها الأنذال المتصنعون. إننا سوف نهاجمهم هؤلاء الأوغاد في الوطن الثاني، وسوف نحطم رؤوسهم! هيا! هيا! لدينا هنا على السفينة كل ما نحتاج إليه! هيا كلكم معًا! هيا اهتفوا أولاً هتافًا مدويًّا وليكن مزلزلاً: عاش الوطن الأول.. الوطن رقم واحد. ليسمعوكم من بعيد! من سيكون الأعلى منكم صوتًا، سيحصل على وسام يسوع وثوابه وحبة من حلواه! يا ويلكم! ثم إن من يريد منكم أن يهلك في البحر، يمكنه دائمًا أن يمضي ليموت على الأرض، حيث يجري ذلك بأسرع مما يجري هنا!)"

"الأمر كما قلت تمامًا!"

وافقني آرتور، وقد صار بالفعل سهل الإقناع.

لكن، لم تلبث أن بدأت كتيبة من الجنود في المرور أمام المقهى الذي كنا نجلس في داخله، يتقدمها الكولونيل ممتطيًا جواده! بل إنه بدا لطيفًا بالفعل، مترعًا بالعافية والمرح، الكولونيل، أما أنا، فلم تصدر عني سوى وثبة حماس واندفاع.

"أنا ذاهب لأرى إن كان الأمر كذلك!" صرخت ناحية آرتور، ومضيت لألتحق بهم، وبالخطوة السريعة أيضًا.

"فردينان.. لست سوى..."

رد آرتور بدوره، مغتاظًا دون شك، من أثر شجاعتي وحماسي على كل من كان يشاهدنا.

تضايقت قليلاً لأنه أخذ الأمر على هذا المحمل، لكن هذا لم يجعلني أتوقف. تابعت سيري. " أنا الآن هنا، وهنا سوف أبقى" قلت لنفسي.

"سيكون الأمر على ما يرام، أيها الغبي!" وفوق ذلك أيضًا كان لدي الوقت لأقول له ذلك صارخًا، قبل أن أنعطف في الشارع مع الكتيبة، خلف الكولونيل وموسيقاه. جرى الأمر على هذا النحو تمامًا.

مشينا طويلاً حينها، في شوارع من بعدها شوارع أكثر منها، تمتلئ بمدنيين ونسائهم، وكانوا يطلقون صيحات التشجيع وينثرون علينا الزهور، من الشرفات، أمام المحطات، من الكنائس المزدحمة. كان هناك الكثير من المواطنين! وبعد ذلك بدأت أعدادهم في التناقص.. شيئًا فشيئًا.. هطل المطر، ومن بعدها صارت هتافات التشجيع أقل.. فأقل.. ثم لم يعد هناك منها أى شيء. ولا هتاف واحد، على الطريق.

ألم يتبقَ إذًا أحد غيرنا؟ بعضنا خلف بعض؟ توقفت الموسيقى. "خلاصة القول، أن الأمر لم يعد مسليًا!" هذا ما دار بخاطري، عندما رأيت كيف تغيرت الحال! علينا أن نبدأ كل شيء من جديد! كنت على وشك الانصراف. لكن أوان ذلك كان قد فات! كانوا قد أغلقوا الباب خلفنا خلسة.. نحن المدنيين. لقد أُوقع بنا.. كالجرذان.

الفصل 5

المقطع الثاني

إن ذهبت إلى هناك مرة، فسوف تبقى. جعلونا نمتطي الخيول، ثم توقف ذلك بعد أن مضى على وجودنا شهران. أخيرًا، وذات صباح، بينما يبحث الكولونيل عن حصانه، الذي مضى به مرافقه العسكري إلى حيث لا ندري، بلا شك إلى موضع لا تمرق فيه الرصاصات بالسهولة نفسها التي تعبر بها وسط الطريق. وقد كان هذا بالتحديد، هو المكان الذي انتهينا إلى الوجود فيه، الكولونيل وأنا، في وسط الطريق تمامًا، وأنا أمسك بالدفتر الذي يسجل فيه أوامره.

على طريق ما بعيد، أبعد مما يمكن للبصر أن يصل، كانت هناك نقطتان سوداوان، في وسط الطريق، مثلنا نحن الاثنين، لكنهما كانا من الألمان، منهمكين تمامًا في إطلاق النيران منذ أكثر من ربع ساعة.

الكولونيل، ربما كان يعرف لماذا يطلق هذان الألمانيان النار. الألمانيان أيضًا ربما كانا يعرفان، لكن أنا، بالفعل، لم أكن أعرف. وبقدر ما بحثت عميقًا في ذاكرتي، لم أجد أنني قد آذيت الألمان في شيء. دائمًا كنت ودودًا معهم ومهذبًا. كنت أعرف الألمان قليلاً، بل إنني قد التحقت بالمدرسة في بلادهم، بالقرب من هانوفر. كنت أتكلم لغتهم. كانوا آنذاك جماعة من الأغبياء الصغار الصاخبين، وكانت عيونهم باهتة، تختلس النظر، كعيون الذئاب، كنا نذهب معًا لنتحسس أجساد الفتيات في الغابات القريبة، بعد انتهاء اليوم الدراسي. وهناك كنا نصوب بالنبال أو بالمسدسات التي كنا نشتريها بأربعة فرنكات للواحد. كنا نشرب الجعة المحلاة. لكن من هذا، إلى أن يطلقوا النار على رؤوسنا الآن، حتى من دون أن يأتوا ليتكلموا معنا أولاً، وفي عرض الطريق تمامًا، كان هناك فارق، بل وهوة عميقة. فارق لا يقاس.

كانت الحرب باختصار هي كل ما لا نفهمه. لم يكن من الممكن لذلك أن يستمر.

هل جرى لهؤلاء الناس إذًا شيء غير عادي؟ شيء لم أشعر به أنا مطلقًا. شيء لم يكن من الواجب أن أشعر به..

لم تكن مشاعري قد تغيرت نحوهم قط، على الرغم من كل هذا، كان لدي ما يشبه الرغبة في أن أتفهم قسوتهم، لكن فضلاً عن ذلك، كنت أشعر بالرغبة في الرحيل، رغبة هائلة، مُلحة، قاطعة، بقدر ما بدا لي فجأة أن كل هذا كان نتيجة غلطة مريعة.

"في ورطة كهذه، ليس هناك ما يمكن عمله، لا يبقى أمامك سوى الفرار". هذا ما كان يدور بخاطري. على كل حال..

فوق رؤوسنا بملليمترين اثنين، وربما على بُعد ملليمتر واحد من الأصداغ، كانت خيوط الصلب الطويلة المخاتلة التي تخلفها الطلقات التي تريد اغتيالنا، واحدًا تلو الآخر، تهتز في هواء الصيف القائظ.

لم أشعر مطلقًا بأني عديم الفائدة إلى هذا الحد، وسط كل هذه الطلقات وأنوار هذه الشمس. مهزلة كونية لا حد لها.

في ذلك الحين، لم أكن إلا في العشرين من عمرى. على البُعد مزارع مهجورة، كنائس خالية ومفتوحة، كما لو كان الفلاحون قد غادروا تلك الضياع ليقضوا سحابة النهار معًا، في احتفال يقام في الناحية الأخرى من المقاطعة، وأنهم قد عهدوا إلينا، بكل ثقة بنا، بكل ما يمتلكونه، ريفهم، عرباتهم، معلقة الأذرع في الهواء، حقولهم، حظائرهم المفتوحة، الطريق، الأشجار، وحتى الأبقار، كلب وسلسلته، كل شيء. لنكن على سجيتنا في أن نفعل كل ما يحلو لنا في أثناء غيبتهم. وبدا هذا شعورًا رقيقًا من جانبهم. "إن لم يكونوا في مكان آخر"، قلت لنفسي، "لو أن الناس ما زالوا هنا، لم يكن من الممكن،

بكل تأكيد، أن نتصرف على هذا النحو الشائن! بهذا القدر من السوء! لم نكن لنجرؤ على القيام بمثل هذه الأمور أمامهم! لكن، لم يعد هناك الآن أحد ليراقبنا! لم يعد سوانا، مثل المتزوجين الذين يأتون الفاحشة عندما لا يكون هناك أحد ليراهم".

جال بخاطري أيضًا (مختبئًا خلف شجرة) أنني ربما وددت أن أراه معنا هنا، السيد ديروليد Déroulède، الذي حدثوني عنه كثيرًا، حتى يشرح لي كيف كان سيفعل، سيادته، عندما يتلقى رصاصة في وسط بطنه.

هؤلاء الألمان المقرفصون على قارعة الطريق، مشاكسون، معاندون، لا يجيدون التصويب، لكن من الظاهر أن لديهم ما يفيض عن حاجتهم من الطلقات، ما يملأ، بلا شك، مخازن برمتها. لم تكن الحرب قد انتهت بالتأكيد! الكولونيل، يجب أن نقول الحقيقة، كان قد أبدى بسالة مذهلة! كان يجول في وسط الطريق تمامًا، ثم يقطعه طولاً فعرضًا وسط مسارات القذائف، بكل بساطة، كما لو كان ينتظر صديقًا على رصيف المحطة، وقد بدا عليه بعض الضيق فقط.

بالنسبة إلى الريف أولاً، عليّ أن أقول لكم فورًا، إنني لم أتمكن قط من تحمله. كنت أراه دائمًا حزينًا، بمستنقعاته التي لا تنتهي، بمنازله التي لا يوجد فيها أحد مطلقًا ودروبه التي لا تفضي إلى أي مكان. لكن عندما تضيف الحرب إلى كل هذا، يصير من المستحيل أن تطيق البقاء فيه. كانت أشجار الحور تمزج عواصف من أوراقها مع الأصوات الخافتة المكتومة التي كانت تأتي من هنا نحونا. كان هؤلاء الجنود المجهولون يخطئوننا باستمرار، لكنهم كانوا يطوقوننا في الوقت نفسه بآلاف من القتلى، يحيطون بنا كالثياب. لم أعد أجرؤ على القيام بأية حركة.

لقد كان إذًا وحشًا كاسرًا، هذا الكولونيل! تأكدت من ذلك الآن، ألعن من الكلب، لم يكن يتخيل موته! أدركت في الوقت نفسه أنه لا بد أن هناك في

جيشنا كثيرًا من أمثاله، الشجعان، ثم لا بد أن هناك وبالقدر نفسه مثلهم في الجيش المقابل. من يعرف عددهم؟ مليون، مليونان، عدة ملايين ربما في مجموعهم؟ من وقتها صار خوفي هلعًا. مع كائنات كهذه، كان من الممكن لهذه الحماقة الجهنمية أن تستمر إلى ما لا نهاية.. لماذا كانوا سوف يتوقفون؟ لم أكن قد شعرت مطلقًا بأن حكم البشر والأشياء يمكن أن يكون أكثر قسوة مما رأيت.

هل كنت الجبان الوحيد على ظهر هذه الأرض؟ فكرت في ذلك. لكن بأي رعب! ضائع بين مليونين من الأبطال المجانين والمهتاجين والمسلحين حتى شعورهم؟ يضعون خوذاتهم أو بلا خوذ، بلا خيول، على الدراجات النارية، يصرخون، في العربات، يصفرون، رماة، متآمرون، متطايرون، راكعون، يحفرون، يستترون، يتقافزون عبر الدروب الضيقة، يفجرون، محبوسون فوق الأرض، كما لو كانوا في زنزانة، ليدمروا كل شيء فيها، ألمانيا، فرنسا والقارات، كل ما يتنفس، يدمرون، أكثر سعارًا من الكلاب، معجبون بسعارهم (وهو ما لا تفعله الكلاب)، مئة، ألف مرة أكثر هياجًا من ألف كلب وأكثر منها لؤمًا! يا لروعتنا! بالفعل، وأنا أعي ما أقول، لقد تورطت في حرب لا تُبقي ولا تذر كأننا في يوم القيامة.

لم نكن قد عرفنا الخوف من قبل، مثل الذي لم يكن قد عرف اللذة. كيف كان لي أن أستطيع تصور هذا الرعب عند مغادرتي ميدان كليشي؟ من كان بإمكانه أن يتخيل، قبل أن يدخل الحرب فعلاً، كل ما تكنه الروح البشرية الآثمة البطولية والبليدة؟ والآن، متورط أنا في هذا الفرار الجماعي، نحو هلاك مشترك، نحو النار.. كان هذا يأتي من الأعماق.. ولقد حدث فعلاً.

كان الكولونيل ثابت الجَنان دائمًا. كنت أراه يتلقى، أعلى المنحدر، رسائل قصيرة من الچنرال، وكان يمزقها بعد ذلك، بعد أن يكون قد قرأها متمهلاً، بين رشقات الرصاص. ألم يكن في أي من هذه الرسائل أمر بإيقاف هذه البشاعة على نحو قاطع؟ ألم تخبره جهات عليا أن هناك ظلمًا واقعًا، غلطة

بشعة، سوء فهم وفوضى؟ أننا قد خُدعنا؟ أنها كانت مناورات على سبيل المزاح، تلك التي أردنا القيام بها، وأنها لم تكن محاولات للقتل! لكن لا! "تقدم، أيها الكولونيل، أنت على الطريق الصحيح!" هذا بلا شك، ما كان يكتبه الچنرال ديزانتراي des Entrayes، قائد الفرقة، قائدنا جميعًا، الذي كان الكولونيل يتلقى منه مظروفًا كل خمس دقائق، بواسطة جندي المراسلة، الذي كان الخوف يزيد وجهه امتقاعًا وجبنًا في كل مرة. وددت لو اتخذت من هذا الصبي المذعور أخًا لي! غير أنه لم يعد هناك وقت للتآخي أيضًا.

إذًا، لم تعد هناك أي أخطاء؟ ما كنا نقوم به من تراشق بالنيران، هكذا، دون حتى أن يرى أحدنا الآخر، لم يكن أمرًا محرمًا! كان ذلك يمثل جانبًا من الأشياء التي يمكن أن تقوم بها دون أن تلقى زجرًا جادًّا من أحد. بل إنه كان أمرًا معترفًا به وقد يشجعك عليه الجادون من الناس، مثل عمليات الاقتراع والخطوبة والصيد بالكلاب المدربة! ليس هناك ما يقال. كنت قد اكتشفت لتوي، فجأة، الحرب بكل جوانبها. استلبت بكارتي. يجب أن تكون وحيدًا تقريبًا في مواجهتها، كما كنت أنا في تلك اللحظة، حتى تراها جيدًا تلك العاهرة اللعينة، من الوجه ومن الجانب. لقد اشتعلت الحرب الآن بيننا وبين من هم في مواجهتنا وها هي تضطرم وتتوهج. كالتيار الكهربى الذي يمر بين قطبَي الكربون في المصباح القوسي. ولم يكن الكربون قريبًا من الانطفاء! سوف نهلك جميعًا. الكولونيل مثله مثل الآخرين، مهما بدا مراوغًا، ولحمه القذر لن يصنع من الشواء أكثر من لحمي، عندما يخترقه التيار الآتى من أمامه، بين كتفيه.

هناك كثير من الطرائق التي يُحكم على المرء بالإعدام بواسطتها! كم كنت مستعدًّا لأقدم كل ما أستطيع في تلك اللحظة لأكون في السجن، بدلاً من أن أكون هنا، أنا.. ذلك الغبي! لأني، على سبيل المثال، وعندما كان ذلك سهلاً للغاية، قد سَرقتُ، احتياطًا، شيئًا ما، في مكان ما، عندما كان لا يزال لدي

الوقت. لا يحتاط المرء لشيء مطلقًا! من السجن يمكنك أن تخرج حيًّا، أما في الحرب.. فلا. كل ما عدا ذلك، محض هراء.

لو أن أمامي فقط مزيدًا من الوقت. لكن لم يعد لدي منه شيء! لم يعد هناك شيء تمكن سرقته! قلت لنفسي.. ما أجمل العيش في سجن صغير هادئ، لا يخترق أجواءه الرصاص، لا يخترقه أبدًا، أعرف واحدًا من تلك السجون، يفي بهذا الغرض تمامًا، في الشمس، في الدفء! في الحلم، سجن سان چيرمان بالتحديد، القريب جدًّا من الغابة، كنت أمر كثيرًا بتلك الجهة، في ما مضى. آه كم نتغير. آنذاك كنت لا أزال طفلاً، كان السجن يخيفني، ذلك لأني لم أكن قد عرفت البشر بعد. لن أصدق ما يقولونه بعد الآن ولن أومن بما يؤمنون به. من البشر، منهم فقط، عليك أن تخاف دائمًا.

كم من الوقت ينبغي أن يستمر جنونهم، إلى أن يتوقفوا عنه، مستنزفين، في آخر المطاف، هؤلاء الوحوش؟ كم من الوقت يمكن لنوبة جنون كهذه أن تستمر؟ شهور؟ سنوات؟ كم؟ ربما إلى أن يفنى البشر، كل الحمقى؟ عن آخرهم؟ ونظرًا إلى أن الأحداث كانت قد اتخذت هذا المنحنى المخيب للآمال، فقد قررت مغامرًا بكل شيء، أن أجرب المسعى الأخير، الأخير، أن أحاول، بمفردي، أن أوقف الحرب! على الأقل في تلك الجهة المنعزلة التي كنت فيها.

كان الكولونيل يطوف على بُعد خطوتين مني. كنت على وشك أن أتحدث إليه. لم أكن قد فعلت ذلك من قبل مطلقًا. اللحظة التي تستلزم الجرأة، فهناك، حيث كنا، لم يعد يوجد تقريبًا ما يمكن أن نخسره. "ما الذي تريده؟" تصورت أنه كان سيسألني، مذهولاً بكل تأكيد من مقاطعتي الجريئة له. ساعتها، كنت سأشرح له الأمور كما أراها. كنت سأعرف رأيه فيها. أهم شيء في الحياة أن نتفاهم، وعندما نكون اثنين فإننا نصل إلى ذلك بأفضل مما يصل إليه شخص بمفرده.

كنت على وشك القيام بهذه الخطوة الحاسمة عندما توجه نحونا، في اللحظة نفسها، بخطوات رياضية، منهكًا، متخلعًا، فارسًا مترجلاً (كما كان يقول حينها) وفي يده خوذته مقلوبة، كأنه بليزيرBélisaire(5)، مرتعدًا، ملطخًا بالوحل، الوجه أكثر اخضرارًا من جندي المراسلة الآخر. كان يهمهم وبدا كأنه خارج من قبر، هذا الفارس، كأنه قد عانى في سبيل ذلك أهوالاً، انفطر من جرائها قلبه. ألم يكن هذا الشبح يحب الرصاص هو الآخر؟ هل كان يتوقعه ويحتاط منه مثلي؟

(5) بليزير Bélisaire، چنرال بيزنطي، كان، بعد أن أنقذ القسطنطينية، ضحية فتنة ونكران جميل من الإمبراطور. (المترجم)

"ما هذا؟" أوقفه الكولونيل على الفور، عنيفًا، متبرمًا، ضجرًا، ملقيًا على هذا العائد من الموت نظرة كأنها من الفولاذ.

من رؤيته على هذه الصورة، هذا الفارس المُخزي في لباسه الخارج عن أصول العسكرية، كان الكولونيل يزمجر انفعالاً، أغضبه هذا جدًّا. لم يكن يطيق هذا الخوف أبدًا. كان هذا بديهيًّا. ثم إن هذه الخوذة بالذات التي يحملها في يده كالقبعة، كانت تسيء كثيرًا إلى كتيبتنا الهجومية، كتيبة كانت تتهيأ للحرب. الحرب التي يبدو أنه كان يحييها، ذلك الفارس المترجل، عند دخوله.

تحت وقع نظرة العار هذه، استعاد الرسول المترنح وضع "الانتباه"، أصابع يده خلف خياطة البنطلون، كما يجب أن تكون في هذا الوضع. هكذا كان يتأرجح، منتصبًا، فوق المنحدر، يسيل العرق على أوداجه، فكاه يصطكان بشدة لدرجة أن آهات صغيرة مكتومة كانت تخرج عنه، كما يفعل الكلب الصغير عندما يحلم. لم يكن من الممكن أن نميز إن كان يريد أن يكلمنا أم كان يبكي.

أصدقاؤنا الألمان، مقرفصون في نهاية الطرف الآخر من الطريق، كانوا قد انتهوا للتو من تغيير أسلحتهم. إنهم يواصلون الآن حماقتهم ولكن باستخدام

الرشاشات، يقرقعون بها، كما لو كانت علب ثقاب كبيرة، ومن حولنا، من كل مكان، كانت أسراب من الطلقات الغاضبة تأتينا طائرة، ثاقبة، كأسراب الزنابير.

مع هذا، فقد تمكن الرجل من أن يُخرج من فمه شيئًا مفهومًا.

"إن الرقيب بارووس Barousse قد قُتل للتو، سيدي الكولونيل". قال عبارته في نفَس واحد.

"وماذا إذًا؟"

"لقد قُتل في أثناء ذهابه لاصطحاب عربة الخبز على طريق إيتراب Etrapes، سيدي الكولونيل!"

"ثم ماذا؟"

"لقد مزقته قذيفة يا سيدي!"

"ثم ماذا؟ تبًّا لك! أهذا كل شيء؟"

"نعم، كل شيء، سيدي الكولونيل".

"والخبز؟" سأله الكولونيل.

كانت ذلك نهاية الحوار لأني أذكر جيدًا أنه كان قد تمكن فقط من أن يقول "والخبز؟" كان ذلك كل شيء. بعدها لم تكن هناك سوى نيران يصحبها دوي انفجارات. لكن ساعتها، كان دويًّا من تلك التي لا يعتقد المرء إطلاقًا في وجودها. ضجيج امتلأت به على الفور العيون والآذان والأنوف والأفواه، لدرجة أنني قد ظننت أن الأمر بالنسبة إلينا قد انتهى، ولدرجة أنني شخصيًّا قد صرت نارًا وهديرًا.

ثم لا شيء. راحت النار، ظل الضجيج يملأ رأسي وقتًا طويلاً، فضلاً عن أن ذراعيّ وساقيّ كانت ترتجف كما لو كان شخص ما يهزها من الخلف. كانت تبدو كأنها ستنفصل عن جسدي، لكنها مع ذلك بقيت في مكانها، وسط الدخان الذي ظل يحرق العيون لمدة طويلة، بقيت رائحة البارود والكبريت النفاذة عالقة بنا كأنها ستقضي على كل ما في الأرض من بق وبراغيث.

بعد ذلك مباشرةً تذكرت الرقيب باroووس، الذي مات لتوه نسفًا، كما كان الآخر قد أخبرنا. كان ذلك نبأ سارًّا. نِعْمَ الأمر! هكذا فكرت في الأمر مباشرةً: "لقد نقصت الكتيبة واحدًا من أنذالها الكبار!" لقد أراد أن يحيلني إلى محاكمة عسكرية بسبب علبة طعام محفوظ. "لكل منا حربه" قلت لنفسي. من هذه الناحية، ينبغي أن نتفق أن الحرب، من حين إلى آخر، تبدو مفيدة على نحو ما! كنت لا أزال أعرف ثلاثة أو أربعة في الكتيبة، من النفايات الحقيرة، التي ربما عاونتها عن طيب خاطر في أن تحظى بقذيفة.. مثلما فعل باroووس.

أما بالنسبة إلى الكولونيل، فلم أكن أرغب في أن يصيبه مكروه. ومع ذلك، فقد كان هو الآخر ميتًا. في البداية، لم أرَه. ذلك لأنه قد أطيح به بعيدًا على المنحدر، ممددًا على جانبه بفعل الانفجار، الذي ألقى به في أحضان الفارس المترجل، جندي المراسلة الذي كان قد هلك هو الآخر. كانا يتعانقان، كلاهما، من الآن وإلى الأبد. غير أن الفارس كان بلا رأس حينها، لم تكن هناك سوى فتحة فوق عنقه، يفور داخلها الدم، مقبقبًا كالمربى في القدر. الكولونيل، كان مبقور البطن، وقد تقطب لذلك وجهه امتعاضًا. لا بد أن تلك الضربة قد آلمته كثيرًا عندما جاءته. تبًّا له! لو كان قد رحل منذ انطلقت الرصاصات الأولى، لما جرى له ما جرى.

كل تلك اللحوم، كانت تنزف معًا بغزارة.

كانت القذائف لا تزال تنفجر ذات اليمين وذات الشمال من ذلك المشهد.

غادرت تلك المواقع، بلا إصرار، سعيدًا للغاية، بعثوري على مثل هذه الذريعة الرائعة للفرار من ذلك المكان. بل إن ذلك جعلني أغني متمايلاً، كما تكون الحال، عندما ينتهي المرء من مباراة تجديف ممتعة، وعندما يسري في ساقيه إحساس غريب. "قذيفة واحدة! لقد انصلحت الأحوال سريعًا على أي حال، بقذيفة واحدة" كنت أقول لنفسي. "آه! يا للعجب!" كنت أردد بيني وبين نفسي طوال الوقت. "آه. يا للعجب!"

في نهاية الطريق، لم يعد هناك أحد. كان الألمان قد رحلوا. إلا أني كنت قد تعلمت، بسرعة، تلك الحيلة، وهي ألا أمشي من الآن فصاعدًا إلا بمحاذاة الأشجار. كنت أتعجل الوصول إلى المعسكر، لأعرف إن كان آخرون من أفراد الكتيبة قد لقوا حتفهم في الاستطلاع. لا بد أن هناك أيضًا حيلاً جيدة، كانت نفسي لا تزال تحدثني، ليوقع الإنسان نفسه في الأسر! هنا وهناك كانت سحابات صغيرة من الدخان الحارق، تتعلق بسفوح التلال. "هل من المحتمل أنهم قد صاروا جميعًا من الأموات الآن؟" كنت أتساءل. ما داموا لم يريدوا أن يفهموا شيئًا عن أي شيء، فسيكون مفيدًا وعمليًّا أن يموتوا جميعًا وبمنتهى السرعة. هكذا سوف ننتهي فورًا من تلك القصة.. يعود المرء إلى بلاده.. ربما نعبر ميدان كليشي منتصرين.. واحد أو اثنان فقط من سوف يبقى على قيد الحياة -كما أتمنى - من الشبان الظرفاء، متناسقي الأجسام، خلف الچنرال، كل الآخرين سيكون من الموتى، مثل الكولونيل، مثل بارووس، مثل ڤاناي vanaille (وغد آخر).. إلخ. سوف نُغطَّى بالأوسمة، بالزهور، سوف نمر تحت قوس النصر، سندخل إلى المطاعم، سيُقدَّم إلينا الطعام بلا مقابل، لن ندفع شيئًا بعد الآن أبدًا، طوال حياتنا. نحن الأبطال! ماذا سيقال ساعة دفع الحساب؟ حماة الوطن! سيكون ذلك كافيًا! سوف ندفع الحساب بأعلام فرنسية صغيرة. حتى إن عاملة الخزينة سوف ترفض أن تأخذ نقود الأبطال، بل إنها سوف تقدمها إليكم، مصحوبة بقبلاتها عندما تمرون أمام صندوقها.

ستكون الحياة جديرة بأن تعاش.

لاحظت، في أثناء فراري، أن ذراعي كانت تنزف، لكن قليلاً فقط، جرح لم يكن كافيًا على الإطلاق، مجرد خدش. ينبغي لي أن أبدأ كل شيء من جديد.

عادت تمطر، كانت حقول اللاقندر تنضح ماءً عكرًا. مرة أخرى ولوقت طويل لم أقابل أحدًا، لم تكن هناك سوى الرياح ثم الشمس بعدها بقليل. من حين إلى آخر، لا أعرف من أين، كانت رصاصة تمرق، عبر الشمس والهواء، باحثةً عنى، مصممة، سريعة، عازمة على قتلي، في هذه العزلة. أنا، لماذا؟ لن يحدث بعد الآن أبدًا، حتى لو عشت مئة عام أخرى، لن أجول بالريف. لقد أقسمت على ذلك.

مضيت في طريقي مسترجعًا احتفال الليلة الماضية، على ظهر تلة. دار هذا الاحتفال، كان الكولونيل بصوته الأجش يخطب في الكتيبة: تشجعوا.. تشجعوا! ولتحْيَ فرنسا! عندما نفقد الخيال يهون الموت، وعندما يوجد يصبح الموت فوق الاحتمال. هذا ما أراه. لكني لم أكن قد فهمت كل هذه الأشياء مرة واحدة.

لم يكن الكولونيل قد حظي يومًا بأي قدر من الخيال. من هنا جاءت كل مصيبة الرجل، ومصيبتنا نحن على وجه الخصوص. أكنت إذًا الرجل الوحيد الذي يتوقع مجيء الموت في هذه الكتيبة؟ كنت أفضِّل تصوري عن الموت، فيما بعد، بعد عشرين عامًا.. ثلاثين عامًا.. ربما أكثر من ذلك، عن ذلك الموت الذي يراد لي الآن، آكلاً، من وحل الفلاندر، بملء فمي، بل أكثر من فمي، وقد شقته من أذن إلى أخرى، إحدى الشظايا. من المؤكد أن للمرء كل الحق في أن يكون له رأيه الخاص بشأن موته. لكن إلى أين أتوجه الآن؟ هل أتقدم إلى الأمام وظهري للعدو؟ لو قبض الدرك عليّ وأنا أجول هكذا فأعتقد يقينًا أن حسابي سيكون عسيرًا. ربما حوكمت في مساء اليوم ذاته. بمنتهى السرعة، بكل بساطة، في أحد فصول مدرسة حكومية. هناك الكثير من الفصول الخالية، في كل مكان نمر به. ربما لعبوا المحكمة التي كنا نلعبها عندما يغيب المدرس. أصحاب الرتب على المنصة، جالسين، وأنا واقف، أمام مقاعد

التلاميذ الصغيرة والأصفاد في يدي. في الصباح، ربما أطلقوا عليّ الرصاص: اثنتي عشرة طلقة، ثم طلقة أخرى. ماذا يهم؟

ثم عاودت التفكير في الكولونيل مرة أخرى، مقدامًا، كما كان، هذا الرجل، بدرعه وخوذته وشاربيه، يصلح لأن يعرض، كما رأيته أنا يجول، تحت الرصاص ودانات المدافع، في إحدى قاعات الموسيقى، عرضًا كهذا كان يمكن أن تمتلئ له قاعة "الهمبرا القديمة(6)". ربما غطى الكولونيل ساعتها على "فراجسون(7)" الذي كان في الفترة التي أحكي لكم عنها نجمًا شهيرًا، ومع هذا، فهاكم ما أراه أنا. تراجعوا أيها الفتيان! هذا ما كنت أراه.

(6) الهمبرا L'Ahambra، إحدى القاعات الموسيقية الكبرى. (المترجم)

(7) Fragson، واحدة من كبريات القاعات الموسيقية في بداية القرن الماضي. (المترجم)

بعد ساعات وساعات من المشي المتخفي الحذر، أخيرًا لمحت جنودًا أمام ضيعة ريفية. كان هذا أحد مواقعنا الأمامية. موقع كتيبة سُكِّنت في هذا المكان. لم يُقتل منهم أحد، هذا ما أخبروني به. الجميع أحياء! أما أنا فقد كان عندي النبأ الرهيب: "لقد مات الكولونيل!" صحت، بمجرد أن اقتربت من الموقع بمسافة كافية. "ليس الكولونيلات ما ينقصنا!" هكذا رد عليَّ، مباشرةً، العريف بيستيل Pistil، الذي كان يتولى وقتها نوبة الحراسة هو الآخر وقد استولى عليه الإعياء. "وفي انتظار أن يحل أحد محل الكولونيل. لتذهب، أيها الأبله إلى مكان توزيع اللحم مع أمبوي Empouille وكيردنكوف Kerdoncuff ثم، ليأخذ كل منكم جوالين، يجري هذا خلف الكنيسة، تلك التي تراها هناك، ثم لا تجعلوهم يخدعونكم ويعطونكم العظام فقط كما حدث بالأمس، ثم حاولوا أن تتدبروا أمركم لتعودوا إلى السرية قبل حلول الليل، أيها السفلة!"

وعليه، شرعنا في المسير، نحن الثلاثة.

"لن أخبرهم بشيء بعد الآن!" قلت لنفسي، مغتاظًا. أدركت بالفعل أنه أمر لا يستحق العناء أن أقول لهم شيئًا. إن مأساة مثل التي رأيتها، كانت لا تعني لأوغاد كهؤلاء شيئًا! فات الأوان ولم تعد تثير اهتمام أحد. لكني أقول لكم، لو أن كولونيلاً كان قد مات على نحو ما جرى، قبل ذلك بثمانية أيام، لاحتل الخبر، مع صورتي، أربعة أعمدة في كل الجرائد. أيها المخابيل.

كان توزيع اللحم للكتيبة كلها يجري في واحد من المروج التي تنمو في شهر أغسطس، تظلله أشجاء الكرز ويحرقه قيظ آخر الصيف. فوق أجولة القنب وأقمشة الخيام المفروشة في مساحات واسعة، وفوق العشب رأسًا، كانت هناك كيلوجرامات وكيلوجرامات من الأحشاء المكومة، شحوم في ندف صفراء شاحبة متناثرة، خراف مفتوحة البطون، مبعثرة الأمعاء والحوايا، تنزف دماءها في جداول صغيرة تشق طريقها بدهاء في الخضرة التي تحيط بها. ثور كامل، مشقوق إلى نصفين، معلق على شجرة، وما زال قصابو الكتيبة الأربعة، منكبين عليه، لينتزعوا قطعًا من لحمه وأحشائه. وممثلو السرايا يتناوبون الصراخ والسباب بسبب رغبتهم في شحومه، وفي الكُلى على نحو خاص، وسط حشود من الذباب، مثل التي لا نراها إلا في هذه الأوقات، كبيرة الحجم وطنانة كأنها أسراب من الطيور الصغيرة.

من جهة أخرى، كان هناك مزيد من الدم، وفي كل مكان، يتناثر عبر العشب.. مزيد من الدم، في برك صغيرة، تتواصل باحثةً عن منحدر مناسب لتنساب فيه. كان آخر خنزير يُذبح على مقربة. وكان هناك أربعة رجال وقصاب يتناوشون منذ الآن حول قطع معينة من حواياه المنتظَرَة.

"أنت الذي أخفيته بالأمس، رأس الورك، أيها الوغد".

كان أمامي الوقت أيضًا لألقي نظرتين أو ثلاثًا على هذا الصراع الغذائي، وأنا مستند إلى إحدى الأشجار، وكان لا بد أن أخضع لرغبتي العنيفة في التقيؤ، ليست رغبة هينة، بل إلى حد الإغماء.

أرجعوني بالفعل إلى المعسكر محمولاً على محفة، لكن ليس من دون اغتنام الفرصة لسارقي الجوالين المصنوعين من الخيش.

أفقت على صرخة توبيخ أخرى من العريف. لم تكن الحرب قد انتهت.

الفصل 6

المقطع الثالث

كل شيء جائز وكان عليَّ أن أصبح بدوري عريفًا قرب نهاية شهر أغسطس ذاته. كثيرًا ما أُرسلت مع خمسة من الرجال، في سرية اتصالات، تحت إمرة الچنرال ديزانتراي. كان هذا القائد ضئيل القد، هادئًا، صموتًا، ولم يكن يبدو للوهلة الأولى قاسيًا ولا شجاعًا. لكن كان من الواجب أن يأخذ المرء حذره.. ويبدو أنه كان يفضِّل راحته ورفاهيته على أي شيء. حتى إنها كانت اهتمامه الأول، على الرغم من أننا كنا مشغولين، منذ أكثر من شهر، بالتقهقر، فقد كان يصرخ في وجوه الجميع معنفًا، إذا لم يوفر له مرافقه العسكري، بمجرد الوصول إلى نقطة التوقف، في كل معسكر جديد، فراشًا نظيفًا ومطبخًا مجهزًا بالمعدات الحديثة.

ألقى هاجس الرفاهية هذا على رئيس الأركان، بشرائطه الأربع، كثيرًا من الأعباء. كانت متطلبات إعاشة الچنرال ديزانتراي تزعجه. خصوصًا أنه، ببشرته المصفرة ومعدته المتقرحة وبالإمساك الذي يلازمه، لم يكن ميالاً إلى الطعام إطلاقًا. ومع ذلك كان عليه أن يتناول بيضة "البرشت" على مائدة الچنرال وأن يتلقى بمناسبة ذلك شكاواه وتذمراته. يكون المرء عسكريًّا بطبعه.. أو لا يكون كذلك. غير أني لم أستطِع أن أشفق عليه، لأنه كضابط، لم يكن إلا نذلاً كبيرًا. لا بد من الإقرار بذلك. عندما كنا نتسكع، والحال كذلك، إلى أن يحل المساء، من درب إلى تلة ومن حقول البرسيم إلى زراعات الجزر، كان الأمر ينتهي بنا على كل حال بالتوقف، حتى يتمكن الچنرال من أن ينام في مكان ما. كنا نبحث له، وكنا نجد له قرية هادئة، مؤمَّنة جيدًا، لم تعسكر بها

القوات من قبل، وإن وُجد بها بعض القوات، كان يُطرد منها، بكل بساطة، إلى العراء، حتى وإن كان قد شك أسلحته بالفعل.

كانت القرية تُخصص بالكامل لأركان الحرب فقط، خيولهم وتموينهم وأمتعتهم وحقائبهم وأيضًا من أجل ذلك السافل، الرائد بانسون pinçon. الذي آمل أن يكون قد هلك تمامًا (ليس بميتة هادئة). لكن في تلك اللحظة، التي أتكلم عنها، كان البانسون على قيد حياته النجسة. كان يجمعنا كل مساء، نحن رجال الإشارة، يصرخ فينا موبخًا، حتى يعيدنا إلى الانضباط وليحاول استنهاض حماستنا. كان يرسلنا إلى كل شياطين الأرض، يسبنا بأقذع السباب، نحن الذين أمضينا النهار نلهث خلف الچنرال. انتباه! اركبوا الخيول! انتباه! هكذا.. حتى ننقل أوامره. انزلوا سريعًا! من هنا، ومن هناك. وعندما ينتهي الأمر كنا نتمنى لو كنا قد أغرقنا أنفسنا. ربما كان هذا هو الحل الأمثل للجميع.

"هيا اغربوا عن وجهي جميعًا! هيا الحقوا بكتائبكم! وبسرعة!" قال صارخًا.

"أين الكتيبة، سيدي الرائد؟" سألناه نحن.

"إنها في بارباني Barbagny".

"أين توجد بارباني؟"

"إنها من هناك!"

هناك، حيث أشار، لم يكن شيء سوى الليل. كما كان في كل مكان. ليل شاسع يبتلع الطريق على بُعد خطوتين منا، حتى إنه لم يكن يخرج من هذا السواد سوى طرف صغير من الطريق بطول اللسان.

لنذهب إذًا للبحث عن بارباني التي يقول عنها في آخر الدنيا! ربما كان ينبغي أن يُضحي بسرية كاملة على الأقل حتى نعثر على هذه البارباني! فضلاً عن أن تكون سرية من الشجعان! وأنا الذي لم أكن شجاعًا قط، والذي لم يكن يرى

لماذا يجب على المرء أن يكون شجاعًا، كنت بالتأكيد أيضًا أقل الناس رغبةً في العثور على بارباني، تلك التي حدثنا عنها الرائد نفسه بمحض الصدفة. بدا الأمر كأن شخصًا قد حاول أن يدفعني إلى الانتحار من خلال توبيخي بشدة. مثل هذه الأشياء إما أن تكون موجودة في الشخص وإما أنه لا يملكها.

من كل هذه الظلمة الكثيفة، لحد أن يخيل إليك أن المرء لن يرى يده إذا مدها أبعد من كتفه قليلاً، لم أكن متيقنًا إلا من شيء واحد، هو أن هذه الظلمة تُكِنّ رغبات هائلة ولا حصر لها في القتل.

لم يكن رئيس الأركان القذر يكف، متى حل المساء، عن إرسالنا إلى الهلاك، وكان ذلك ينتابه متى غربت الشمس. كنا نقاومه قليلاً بالتكاسل والسلبية، كنا نصر على عدم استيعاب ما يقول، كنا نتشبث بالمعسكر، الآمن إلى حدٍّ ما، بقدر المستطاع، وفي النهاية، عندما كنا لا نعود نرى الأشجار، كان علينا أن نقبل بالذهاب لملاقاة الموت قليلاً؛ لقد صارت وجبة عشاء الچنرال جاهزة.

بدءًا من هذه اللحظة، كان كل شيء يجري وفقًا للمصادفات. تارة كنا نجدها وتارة لا نعثر لها على أثر، تلك الكتيبة وقريتها. بوجه خاص، كنا نعثر عليها بطريق الخطأ، لأن خفراء سرية الحراسة كانوا يطلقون النار علينا عند وصولنا، وهكذا كان علينا أن نعرف بأنفسنا مرغمين. وكنا تقريبًا نقضي الليل مسخرين دومًا في القيام بكل أشكال العمل، نقل الكثير من أحمال الشوفان ودلاء الماء، في التعرض للتوبيخ والصراخ حتى ينتابنا الدوار والصمم، فضلاً عن الرغبة في النعاس.

عند الصباح كنا نعود نحن الخمسة، مجموعة الاتصال، إلى مركز قيادة الچنرال دايزانتراي، لنواصل الحرب.

غير أننا غالبًا لم نكن نعثر على الكتيبة وكنا ننتظر طلوع النهار فقط، بالدوران حول القرى على طرقات لا نعرفها، على أطراف ضياع أُخليت من سكانها،

الغابات مقصوصة الأشجار المخادعة، كنا نتجنب كل هذا بقدر المستطاع بسبب الدوريات الألمانية. ومع ذلك كان علينا أن نوجد في مكان ما في انتظار الصباح.. في مكان ما، في جوف الليل. لم يكن ممكنًا أن نتجنب كل شيء. منذ ذلك الوقت، صرت أعرف الشعور الذي لا بد أن تشعر به الأرانب في البرية. بغير الطرق المألوفة، تأتي الرحمة. لو كنا قد أخبرنا الرائد بانسون بأنه ليس إلا قاتلاً غادرًا وجبانًا، لكنا قد أسعدناه كثيرًا، سعادة إعدامنا رميًا بالرصاص، في التو واللحظة، على يد نقيب الدرك، الذي كان يلازمه كظله دائمًا والذي لم يكن يفكر إلا في هذا تحديدًا. لم يكن ما يضمره رائد الدرك من شر موجه إلى الألمان.

كان علينا إذًا أن نركض بين الأكمنة طوال ليالٍ وليالٍ حمقاء متتابعة، لا يحدونا سوى الأمل الذي تتلاشى معقوليته شيئًا فشيئًا، في أن نخرج منها أحياءً، والأمل في ألا ننسى فقط، وإلى الأبد أننا قد اكتشفنا على ظهر الأرض رجلاً من جنسنا أنا وأنت، لكنه أكثر افتراسًا وشراهةً للدم من التماسيح وأسماك القرش التي تدور في المياه، فاغرة الأفواه، حول السفن المحملة بالنفايات واللحوم المتعفنة التي سوف يُلقى بها إليها في عرض البحر، قبالة سواحل هافانا.

إن الهزيمة الكبرى، في كل الأحوال، هي أن تنسى من تسبب في موتك على نحو خاص، وأن تموت من دون أن تعرف أبدًا إلى أي حد يمكن للبشر أن يكونوا أنذالاً. عندما نصبح على حافة القبر، ينبغي علينا ألا نتذاكى نحن أيضًا، لكن سيكون من الواجب كذلك ألا ننسى، سيكون علينا أن نروي كل شيء دون أن نبدّل كلمة واحدة، عما رأيناه في البشر من أبشع صور الحقارة، ثم يلفظ المرء منا أنفاسه ويهبط إلى حفرته. مهمة كهذه، تبدو جديرة بأن تستغرق حياة بكاملها.

كنت أتمنى فعلاً أن ألقي به إلى أسماك القرش لتلتهمه، الرائد بانسون، ثم رئيس دركه معه، لأعاقبهما على ما فعلاه؛ ثم ألقي به، بحصاني، في الوقت

نفسه حتى يتخلص من عذاباته، لأن ظهره كان قد تآكل، هذا التعس الأكبر، ولشدة ما عانى، لم يعد يبقى على صهوته إلا شريحتان من اللحم، تحت السرج، بعرض راحتَي اليد، تنضحان، باستمرار، قطرات كبيرة من الصديد، كانت تسيل عليه من أطراف غطاء السرج حتى عرقوبيه. ومع هذا فقد كان عليَّ أن أخب على ظهره واحد، اثنان.. كان يتلوى من العَدْو. غير أن الخيول تظل بالتأكيد أكثر صبرًا من البشر. كان يتماوج عرجًا في عَدْوه. لم يعد بالإمكان تركه في العراء. وفي الحظائر، بسبب الرائحة الكريهة المنبعثة من جراحه، يكاد المرء يصاب بالاختناق. عند الركوب على ظهره، كان هذا يؤلمه جدًّا لدرجة أنه كان ينحني كما لو كان ذلك لطفًا، وساعتها كان بطنه، من جراء ذلك، يصل إلى ركبتيه. هكذا يخيل إليك أنك تعتلي ظهر حمار. لكنه على هذه الصورة كان أكثر راحةً في الركوب، علينا أن نعترف بهذا. ونحن أنفسنا كنا مرهقين تمامًا، بكل ما نحمله فوق الرأس والأكتاف من فولاذ.

كان الچنرال ديزانتراي، في المنزل المخصص له، ينتظر عشاءه. كانت المائدة قد أُعدت، المصباح في مكانه الصحيح.

"اغربوا عن وجهي جميعًا، عليكم اللعنة" صرخ الـ"بانسون" فينا منذرًا مرة أخرى وهو يؤرجح مصباحه أمام أنوفنا. "سوف نجلس إلى المائدة! لن أكرر لكم ذلك بعد الآن! ألن ينقلع هؤلاء الأوغاد من هنا؟" قال بانسون زاعقًا. وبسبب هياجه وهو يرسل بنا إلى الموت هكذا، استرد ذلك الشاحب بعض اللون في وجنتيه.

أحيانًا، كان طاهي الچنرال يسرب إلينا قبل أن نرحل بعض الطعام. لقد كان لديه أكثر مما يلزمه من الطعام، الچنرال، لأنه كان يحصل وحده فقط، طبقًا للوائح، على أربعين تعيينًا.(8) إنه لم يعد شابًّا ذلك الرجل. بل لا بد أنه كان قريبًا من الإحالة إلى التقاعد. لقد كان يثني ركبتيه أيضًا عند السير. لا بد أنه كان يصبغ شاربيه.

(8) التعيين – هو نصيب الجندي من الطعام والشراب ومستلزمات الإعاشة. (المترجم)

كانت شرايينه، عند الصدغين، ترسم مسارات متعرجة تشبه تعرجات نهر السين عند خروجه من باريس. كان ذلك يُرى بوضوح في ضوء المصباح، لقد رأيناها عند ذهابنا. كانت بناته قد كبرن، كما يقال، غير متزوجات، ومثله لم يكنَّ يتمتعْنَ بالثراء. ربما، وبسبب هذه الذكريات القديمة، كان يبدو مماحكًا مزمجرًا إلى ذلك الحد، ككلب عجوز أزعجه أن تتغير عاداته ويحاول أن يجد سلته ذات الوسادة. في أي مكان يريد أحدهم أن يفتح له الباب فيه.

كان يحب الحدائق الجميلة وشجيرات الورد، لم يكن ليفوته أي من أحواض الورد، في أي مكان نمر به. لا أحد يفوق الـچنرالات حبًّا لشجيرات الورد. هذا أمر معروف.

مع كل ذلك شرعنا في المسير. كانت مهمتنا أن نحمل خيولنا التعسة على أن تعدو. كانت تخاف من الحركة أولاً بسبب جراحها، إضافة إلى أنها كانت تخاف منا ومن ظلام الليل أيضًا، كانت تخاف من كل شيء، كل شيء! ونحن أيضًا! عشر مرات رجعنا إلى الوراء لنسأل الرائد عن الطريق. عشر مرات رمانا فيها بالتخاذل والبلادة وبأننا جبناء وسفلة أوساخ يريدون الفرار من الزحف. بضربات المهاميز اجتزنا في نهاية المطاف آخر نقاط الحراسة، همسنا بكلمة السر لحراس الليل ثم غصنا مرة واحدة في المغامرة اللعينة، في ظلمات هذه البلاد المشاع الخالية من أصحابها.

لكثرة ما جولنا من جهة إلى أخرى في هذه الظلمات، انتهينا إلى أن صرنا عالمين بأسرارها، أو هذا ما اعتقدناه.. على الأقل.. ما إن تبدو سحابة أفتح لونًا من أخرى حتى نظن أننا قد رأينا شيئًا ما.. لكن لم يكن أمامنا شيء مؤكد سوى الصدى، الرائح والغادي، صدى الأصوات التي تصدر عن الخيل في عدوها. ضجة هائلة خانقة حتى إن المرء يتمنى أن تتوقف. كانت تبدو كأنها

تعدو حتى تبلغ السماء، كأنها تستدعي كل ما فوق الأرض، الخيول، ليفتك بنا أو يهلكنا.

مع أن ذلك يمكن تحقيقه بيد واحدة، ببندقية، يكفي أن تضغط زنادها وأنت تترصدنا خلف شجرة. كانت نفسي تحدثني دومًا بأن أول ضوء نراه سيكون ذلك الصادر عن طلقة من بندقية. طلقة النهاية.

بعد أربعة أسابيع استمرت فيها الحرب، صرنا متعبين للغاية، تعساء للغاية، لدرجة أني قد فقدت في أثناء السير، من فرط التعب، بعضًا من خوفي. العذاب في أن تكون محاصرًا ليل نهار بمضايقات هؤلاء الناس، ضباط الصف، وخصوصًا صغارهم، الأكثر غباءً، الأكثر وضاعة والأكثر بغضًا مما هو معتاد، وانتهى ذلك بأن دفع أكثرنا عنادًا.. إلى التردد في مواصلة الحياة.

آه. الرغبة في الرحيل من هنا! حتى ننام! أولاً! وإن لم تعد هناك حقًّا وسيلة للرحيل من هنا حتى ننام، فإن الرغبة في الحياة ذاتها تتبدد حينذاك من تلقاء نفسها. وما دمنا بقينا على قيد الحياة هنا، فيجب أن نتظاهر بالبحث عن الكتيبة.

حتى تدور الفكرة برأس أحد الحمقى، لا بد أن تمر به أشياء كثيرة وعنيفة حقًّا. ما جعلني أفكر في شؤون حياتي، للمرة الأولى، أن أفكر فعلاً، أفكارًا عملية، خاصة بي، كالرائد بانسون بكل تأكيد، سحنة العذاب تلك. كنت أفكر فيه بأقصى ما أستطيع وأنا أتأرجح متمايلاً، محملاً بالعتاد، متهاويًا تحت دروعي، ممثلاً صامتًا بلا وزن، في هذه الورطة العالمية المذهلة التي تورطت فيها بدافع الحماسة.. أعترف بهذا.

كل متر من العتمة أمامنا كان وعدًا جديدًا بالخلاص من كل هذا.. والموت، لكن بأية طريقة سوف يحدث ذلك؟ لم يكن هناك شيء لا يمكن توقعه في

هذه القصة سوى لون ثياب القاتل المنفذ. هل سيكون واحدًا من هنا؟ أم من الجهة المقابلة؟

لم أكن قد أسأت إليه، أنا، بانسون هذا! لا إليه ولا إلى الألمان أيضًا من جهة أخرى! بانسون، بوجهه الذي يشبه خوخة مهترئة، بشرائطه الأربع التي تلمع في كل مكان من رأسه حتى سُرته، بشاربه الخشن وركبتيه البارزتين ومنظاره المقرّب الذي يتدلى حول عنقه كجرس البقرة، وخريطته ذات مقياس الرسم واحد إلى ألف، لماذا إذًا؟ كنت أتساءل أي رغبة مجنونة في إرسال الآخرين ليلقوا حتوفهم قد تسلطت على هذا الرجل؟ الآخرين.. الذين لم تكن لديهم خريطة.

نحن، الفرسان الأربعة السائرين على الطريق، كنا نثير من الضوضاء ما يثيره نصف الكتيبة. لا بد أنهم كانوا يسمعوننا قادمين على بُعد أربع ساعات من مكاننا، أو أنهم كانوا لا يرغبون في سماعنا. ظل هذا الأمر محتملاً.. ربما كانوا يخافون منا.. هؤلاء الألمان؟ من يدري؟

شهر من النعاس يثقل على كل جفن، هذا ما كنا نحمله، والقدر نفسه خلف الرأس، فضلاً عن كل هذه الكيلوجرامات من الحديد.

لم يكن فرساني المرافقون يجيدون التعبير بالكلام لكي يقولوا كل ما لديهم، لم يكونوا يتكلمون كثيرًا. كانوا فتية قادمين من أعماق مقاطعة "برتانْي" لأداء الخدمة العسكرية. لم تكن المدرسة مصدر كل ما يعرفونه.. بل الكتيبة. في ذلك المساء، كنت قد حاولت أن أتكلم قليلاً عن قرية بارباني مع مَن كان بجانبي منهم، وكان يدعى كيرسوزون.

"قل لي، يا كيرسوزون، نحن هنا في مقاطعة ليزآردين Les Ardennes.. كما تعرف.. ألا ترى أمامنا شيئًا على البُعد؟ أنا لا أرى شيئًا على الإطلاق".

"كل شيء حالك السواد.. كفتحة الشرج". هكذا أجابني كيرسوزون. كان ذلك كافيًا.

"قل لي، ألم تسمع ببارباني خلال النهار؟ أين تقع؟" سألته مرة أخرى.

"كلا".

وهكذا.

لم نقع لها على أثر قط هذه الـ"بارباني"، ظللنا ندور حول أنفسنا فقط حتى الصباح، حتى وصلنا إلى قرية أخرى، حيث كان بانتظارنا الرجل ذو المنظار المقرب. كان چنراله يتناول قهوته تحت العريشة أمام دار العمدة، عندما وصلنا.

"آه! ما أروع الشبان يا بانسون". هذا ما لفت العجوز إليه نظر قائد أركانه بصوت عالٍ جدًّا، عندما رآنا نمر أمامه. بعد أن قال هذا، نهض ثم مضى ليبول، ثم قام بدورة أخرى وقد شبك يديه خلف ظهره، منحنيًا، "لقد كان مرهقًا للغاية هذا الصباح"، همس لي مرافقه العسكري، "لقد نام نومًا قلقلاً، الـچنرال، شيء ما كان يزعجه، كما يقال، في المثانة".

كان كيروسوزون يرد عليَّ دائمًا بالطريقة نفسها، عندما كنت أسأله في الليل، وانتهى الأمر بأن صار ذلك يسرّي عني كأنه عادة. كرر عليَّ هذا مرتين أو ثلاثًا في ما يتعلق بالظلام وبالمؤخرات، ثم مات، قُتل بعدها بقليل عند خروجه من إحدى القرى.. إنني تذكر هذا جيدًا، كانت قرية غير تلك التي كنا نقصدها، قتله فرنسيون ظنوا أننا قوم آخرون.

حدث بعد عدة أيام من موت كيروسوزون أن فكَّرنا مليًّا واهتدينا إلى وسيلة بسيطة، سعدنا بها جدًّا، حتى لا نتوه في الليل.

الحل أن نُطرد من المعسكر. لا بأس، لن نقول شيئًا بعد ذلك. لن نتذمر بعد ذلك. "هيا انقلعوا من هنا!" صاح فينا كعادته، وجه الشمع.

سمعًا وطاعة يا سيدي الرائد.

وها نحن ماضون في التو صوب المدفع من دون أن يحتج أحد منا نحن الخمسة. ربما ظن البعض أننا ذاهبون كي نجمع الكرز. كانت تلك البقعة تمتلئ بالوهاد. لقد كنا في لاموز La Meuse، بتلالها، بالكروم التي تعلوها، الأعناب التي لم تنضج بعد، وفصل الخريف وقرى بيوتها مصنوعة من الخشب الذي جففته جيدًا أشهر الصيف الثلاثة، ولذا كانت قابلة بسهولة لأن تحترق. كنا بدورنا قد لاحظنا ذلك أيضًا. ذات ليلة لم نعد نعرف فيها أين نذهب على الإطلاق، كانت هناك قرية لا تزال تحترق، ناحية المدفع. لم نكن قد اقتربنا منها كثيرًا، ليس بأكثر مما يجب، كنا نتطلع إليها فقط من بُعد كافٍ، كمشاهدين يمكننا أن نقول إن ذلك كان يجري على بُعد عشرة، اثني عشر كيلومترًا، مثلاً. في كل مساء بعدها خلال تلك الفترة، أخذ كثير من القرى في الاشتعال على الأفق، تكرر الأمر كثيرًا، كنا محاطين بما يشبه دائرة واسعة جدًّا في حفل غريب يجري في كل هذه البلاد التي كانت تشتعل، أمام عيوننا وعلى جانبينا، بألسنة من اللهب كانت تتصاعد نحو السماء وتلعق السحب.

كنا نرى النار تلتهم كل شيء، الكنائس، الحظائر، بعضها إثر بعض، أكوام القش التي تنتج عنها نار أكثر تأججًا، أكثر ارتفاعًا من البقية، ثم العوارض الخشبية التي كانت تنتصب قائمة تمامًا في الليل يحوطها الشرر قبل أن تهوي ساقطة في النور.

كيف تحترق قرية؟ هذا أمر يستلفت النظر حقًّا، حتى من بُعد عشرين كيلومترًا، كان أمرًا مبهجًا، ضيعة صغيرة لا تساوي شيئًا على الإطلاق، لا تكاد تُرَى، حتى في أثناء النهار، في جوف بقعة بائسة من الريف، الآن، لا يمكنك تخيل الأثر الذي تُحدثه في الليل، عندما تشتعل! كأنها كنيسة نوتردام!(9)

يستمر اشتعال قرية ليلة بكاملها، حتى إن كانت قرية صغيرة، في النهاية تبدو كأنها زهرة عملاقة، ثم، مجرد حبة صغيرة، ثم لا نعود نرى شيئًا.

(9) نوتردام.. كنيسة السيدة العذراء، باريس. (المترجم)

يتصاعد الدخان وساعتها يكون الصبح قد حل.

الجياد التي تُركت مسرجة بالكامل، في الحقول المجاورة لنا، لم تتحرك من مكانها. أما نحن، فقد كنا نذهب لنغفو فوق العشب، ما عدا واحدًا، من كان يتولى الحراسة، عندما يحين دوره بالطبع. لكن عندما تكون هنا نيران نحظى بالتطلع إليها، كان الليل يمضي على نحو أفضل، ليس ثمة ما نعاني منه، ليس ثمة ما يبعث على الوحشة. تعسة تلك القرى التي زالت من الوجود.. خلال شهر واحد. لم يكن قد تبقى منها شيء، في هذه المقاطعة. الغابات أيضًا قُصفت بالمدافع. بعد ثمانية أيام، لم يعد لها وجود، الغابات. إنها أيضًا تصنع حرائق رائعة.. تلك الغابات، لكنها لا تدوم طويلاً.

بعد ذلك الوقت، قطعت أرتال المدفعية كل الطرق في اتجاه واحد، واتخذ المدنيون الساعون إلى النجاة الاتجاه الآخر.

باختصار لم يعد بإمكاننا أن نتقدم ولا أن نتراجع، كان علينا أن نبقى حيث كنا.

انتظم الجمع في طابور لنمضي نحو الموت. الـچنرال ذاته لم يعد يجد معسكرات خالية من الجنود. انتهى بنا الأمر كلنا إلى النوم وسط الحقول، چنرال أو غير چنرال. هؤلاء الذين كانوا يمتلكون بعض الشجاعة.. فقدوها. ابتداءً من ذلك الشهر، كانوا قد شرعوا في إعدام بعض الجنود لرفع روحهم المعنوية، سرية بسرية، بدأ اسم قائد الدرك يُذكر في نشرة الأوامر اليومية، تقديرًا للطريقة التي كان يدير بها حربه الصغيرة، العميقة، الحقيقية بالفعل.

الفصل 7

المقطع الرابع

بعد وقفة استراحة، وكانت بضعة أسابيع قد مرت، امتطينا الخيل مرة أخرى وعاودنا الرحيل صوب الشمال. كان البرد هو الآخر قد جاء معنا. لم يعد المدفع يفارقنا. غير أننا لم نتلاقَ مع الألمان قط إلا عن طريق الصدفة، واحد من الخيالة، أو جماعة من الرماة، هنا وهناك، يرتدون الأصفر والأخضر.. لونان رائعان. كنا نبحث عنهم في الظاهر، لكن بمجرد أن نلمحهم، كنا نبتعد عنهم. في كل مواجهة، يسقط فارسان أو ثلاثة، تارة منا وتارة منهم. وكانت خيولهم التي تحررت من فرسانها، بركاباتها الهوجاء المصلصلة، تركض وحدها وتنحدر ناحيتنا من بعيد، بسروجها ذات الظهور الغريبة وجلودها الندية التي تشبه جلود المحافظ التي نتهاداها بمناسبة رأس العام. كانت تأتي لتلحق بخيولنا، أصدقاء من اللحظة الأولى. كم هي محظوظة هذه الخيول! لسنا نحن من يمكنه أن يفعل مثلها.

ذات صباح، لدى عودته من جولة استطلاع، كان الملازم دو سانت آنجنص قد دعا الضباط الآخرين للتحقق من أنه لا يروي لهم الأكاذيب.. "لقد قتلت اثنين منهم بسيفي!" قال مؤكدًا لمن أحاط به، وفي الوقت نفسه كان يعرض أمامهم سيفه الذي كان الدم المتخثر، بالفعل، يملأ الأخدود الصغير على نصله والمحفور خصوصًا لهذا الغرض.

"لقد كان رائعًا! أحسنت يا سانت آنجنص! لو أنكم قد رأيتموه أيضًا أيها السادة! أي مبارزة!" قال النقيب Ortolan أورتولان مؤيدًا.

لقد كان في سرية أورتولان، ما حدث للتو.

"لم يفتني من الموضوع شيء! لم أكن بعيدًا عمّا دار. ضربة في العنق، بحد السيف.. من الأمام وعلى اليمين! توك! وسقط الأول! رشقة أخرى في منتصف الصدر! إلى اليسار! اختراق! كان استعراضًا حقيقيًّا يليق بمبارزات المسابقات، أيها السادة! أحسنت مرة أخرى، سانت آنجنص! اثنان من حملة الرمح! على بُعد كيلومتر من هنا، ما زال الشابان هناك، مطروحين في قلب الحقول المحروثة! لقد انتهت الحرب بالنسبة إليهما. أليس كذلك يا سانت آنجنص؟ يا لها من ضربة مزدوجة! لا بد أنهما قد نزفا كل دمائهما.. كالأرانب!"

تلقى الملازم دو سانت آنجنص، الذي كان حصانه قد ركض كثيرًا، عبارات التقدير والثناء من الزملاء في تواضع.

الآن، وقد ضمن أورتولان أثر إنجازه الباهر، هدأ باله، انتفخ خيلاءً، ابتعد قليلاً شارعًا في تجفيف فرسه، بجعلها تدور ببطء في دائرة واسعة حول السرية المتجمعة كما لو كان الأمر يتعلق بما يجري في أعقاب مباراة في سباق للحواجز.

"يجب أن نرسل إلى هناك حالاً مجموعة استطلاع أخرى ومن الجهة نفسها! حالاً!" سيطرت الفكرة على النقيب أورتولان الذي كان الأمر قد استثاره دون شك. لا بد أن هذين التعسين قد ضلا الطريق في هذه الناحية، لكن لا بد أن هنا آخرين منهم خلفهما. "هاك، أنت، أيها العريف باردامو، هلم إذًا مع رجالك الأربعة"..

إليّ. -كان النقيب يتوجه بالحديث.

"وعندما يطلقون النار عليكم، حاولوا أن تحددوا مواقعهم وتعالوا لتخبروني فورًا أين هم! لا بد أنهم من سكان براندبورچوا!"

يروي رجال الجيش العامل، أن النقيب أورتولان لم يكن يظهر تقريبًا في مقر القيادة في أوقات السلم. بعكس الآن، في زمن الحرب، كان الرجل يعوّض ما

فاته على نحو حاسم. حقيقة الأمر أنه كان رجلاً لا يعرف التعب، كان حماسه، حتى في وجود الكثير من المتهورين، قد صار أكثر لفتًا للأنظار ويزداد ذلك يومًا بعد يوم. يقال إنه كان أيضًا يتعاطى الكوكايين. ما إن تلمس قدماه الأرض، شاحبًا دائمًا، تحوط عينيه الهالات الزرق، منفعلاً، مترنحًا فوق ساقيه الواهيتين، كان النقيب يتأرجح قليلاً ثم يتماسك، ثم يجول غاضبًا بين الخطوط بخطوات واسعة، باحثًا عن مغامرة يُظهر فيها شجاعته. ربما أرسلنا لنأتي ببعض النار من فوهات المدافع المواجهة لنا. كان يتعاون مع الموت، قد يمكننا أن نقسم إن الموت قد عقد اتفاقًا معه، النقيب أورتورلان.

كان الشطر الأول من حياته قد انقضى -كما استعلمت - في منافسات الفروسية التي تكسرت فيها أضلاعه، مرات عدة في كل عام. ولكثرة ما هشم ساقيه، ولأنه لم يكن يستخدمهما كثيرًا في المشي، فقد فقدتا سمّانتيهما. لم يعد أورتولان يسير إلا بخطوات عصبية، مندفعة، حادة كأنه يدب على دبوسين. من يراه واقفًا، في عباءته الفضفاضة، محني الظهر تحت المطر، يظنه شبحًا لواحد من جياد السباق، وقد بدا من الخلف.

لنسجل أنه في بداية هذه المغامرة الوحشية، أي في شهر أغسطس وحتى خلال شهر سبتمبر، خلال ساعات معينة، أحيانًا في أيام بطولها، ظل بعض أطراف الطرق، بعض الجهات المنعزلة في الغابات، أماكن مفضلة للمحكوم عليهم بالموت من أمثالنا.. كان من الممكن أن نسمح لأنفسنا بالاقتراب منها، توهمًا أننا سننعم فيها ببعض الأمن ونلتهم علبة من الطعام المحفوظ وما معها من الخبز، حتى آخرها، دون أن يلاحقنا كثيرًا هاجس أنها قد تكون الأخيرة. لكن بدءًا من أكتوبر، كانت لحظات الهدوء القصيرة هذه قد راحت تمامًا. صار البَرَد أكثر غزارة، أكثر كثافة، أكبر حجمًا، على نحو متزايد، تتخلله طلقات الرصاص والقذائف. بعد حين سوف نكون في قلب الإعصار، وما تحاشينا أن نراه سيصير ساعتها أمامنا تمامًا ولن نستطيع بعدها أن نرى شيئًا سواه: مـوتـنـا.

الليل، الذي كنا نخشاه كثيرًا في الأيام الأولى، صار مقارنةً بالآن وديعًا آمنًا إلى حد كبير. انتهت بنا الحال إلى أننا كنا نتنظره ونتمناه.. ذلك الليل. إطلاق النار علينا في الليل، كان أصعب منه في النهار، ولم يعد يهمنا غير هذا الفارق.

من الصعب التوصل إلى ما هو جوهري، حتى في ما يتعلق بالحرب، الوهم يصمد طويلاً.

القطط التي تهددها النار بأكثر مما تحتمل، تنتهي على أي حال بأن تلقي بنفسها في الماء.

في الليل، كنا نبحث هنا وهناك عن تلك السويعات التي كانت تشبه زمن السلم الرائع، إلى حد بعيد، تلك الأوقات التي صارت مستحيلة، حين كان كل شيء يسيرًا ممكنًا، حين لم تكن لأي شيء في الواقع أي عواقب وخيمة، حين كان يجري الكثير من الأشياء، صارت كلها الآن ممتعة، بهيجة على نحو مذهل واستثنائي. قطعة من المخمل الحي، كان زمن السلم ذلك.

لكن عما قليل سوف تُحاصر الليالي بدورها بلا رحمة. كان علينا أن نتحدى إعياءنا على نحو دائم تقريبًا، أن نتحمل مزيدًا من المعاناة، لنتمكن فقط من تناول الطعام، ولنحصل على ذلك القدر الضئيل المختلَس من النوم في الظلام. كانت المؤونة تصل إلى الخطوط الأمامية، زاحفة متثاقلة على نحو مهين، في قوافل طويلة عرجاء من عربات النقل الصغيرة المتهالكة، مكتظة باللحوم والأسرى والجرحى والشوفان والأرز ورجال الدرك والنبيذ أيضًا، في قوارير كبيرة، مترجرجة، منتفخة مذكِّرة بأيام اللهو والمجون.

مشيًا على الأقدام، يسير المتخلفون من الجنود، خلف عربات الخبز والحديد، ومساجين من جانبنا ومن جانبهم، مقيدين في الأغلال، مختلطين، مشدودين من معاصمهم إلى ركابات أحصنة الدرك، محكوم عليهم بكذا أو كذا، بعضهم

ممن سيجري إعدامهم غدًا، لم يكن أكثر تعاسة من الآخرين. كان هؤلاء أيضًا سيأكلون جرايتهم من هذه التونة عسيرة الهضم (قد لا يسعهم الوقت)، في انتظار أن تعاود القافلة الرحيل، على حافة الطريق -ورغيف الخبز الأخير نفسه مع مدني مقيد في السلاسل معهم، يقال إنه جاسوس، ولم يكن يدري شيئًا عن هذا، ولا نحن أيضًا.

كان عذاب الكتيبة يستمر في نسخته الليلية، تخبطًا على غير هدى، في دورب غير ممهدة في قرية معتمة، لا وجه لها. يرزحون تحت أحمال أثقل من الرجال، من مستودع غلال مجهول إلى آخر، مذعورين، مُعنفين، مهددين، من واحد إلى آخر، بلا أمل حقًّا في أن ينتهي هذا إلا بالتهديد، ماء الزرائب، والاشمئزاز والنفور من خضوعهم لهذا التعذيب، مخدوعين إلى حد أن تسيل دماؤهم من جانب حفنة من المخابيل الأشرار، صاروا فجأة غير قادرين على القيام بأي شيء آخر، بقدر ما كانوا كذلك، إلا أن يقتلوا أو أن تُفرغ أحشاؤهم دون أن يعرفوا السبب.

منطرحين أرضًا بين كومتين من السباخ، سرعان ما كانوا يجدون أنفسهم وقد نهضوا بسبب صراخ الضباط أو ركلات أحذيتهم، لينطلقوا مرة أخرى لتحميل القافلة بحمولات جديدة.

كانت القرية تعج بالمؤن والسرايا في الليل المكتظ، شحم وتفاح وشوفان وسكر، وكان من الواجب تحميلها وتوزيعها في الطريق، على السرايا، كيفما اتفق. كانت القافلة تجلب كل شيء، ما عدا الراحة.

يتهاوى جنود السخرة حول العربة إعياءً، وحينذاك، يصل فجأة محاسب القافلة بمشعله ليلقي نظرة إلى هذه الديدان، هذا القرد ذو اللغد، الذي كان لا بد أن يجد في كل مصيبة موردًا ليسقي الخيل. فلتشرب الخيل! بل إني قد رأيت أربعة من الرجال، يغفون في وسط الماء وقد خاضوا فيه حتى الأعناق، بعد أن غلبهم النعاس.

بعد أن تشرب الخيل، كان علينا أن نعثر على الضيعة من جديد، وكذلك على الدرب الذي جئنا منه، حيث كنا نعتقد بالفعل أننا قد تركنا السرية. فإن لم نجد شيئًا، كنا نُترك وشأننا لننطرح مرة أخرى إلى جوار الحائط، لمدة ساعة واحدة، إن بقيت من الليل واحدة نغفو خلالها. في تلك المهنة التي نقتل فيها، لا يجب أن يكون المرء مشاكسًا، يجب أن نتظاهر بأن الحياة مستمرة، وكان هذا ما أقسى ما في الأمر، هذه الكذبة.

بعد ذلك تراجعت الشاحنات مرة أخرى. قبيل الفجر، استأنفت القافلة طريقها، وعجلات عرباتها المعوجة تصر بكل ما فيها، كانت تمضي ومعها أمنيتي أن تُهاجَم في طريقها، أن تتمزق إربًا وأن تحترق آخر الأمر في اليوم نفسه كما نشاهد في نقوش المعارك الحربية، أن تختفي إلى الأبد، بكل طاقمها من غوريللات الدرك وحدوات خيولها والمتطوعين للخدمة من جديد بمصابيحهم، وكل ما تضمه من جنود السخرة والعدس أيضًا وأجولة الطحين التي لن يعود بالإمكان خبزها، ألا نعود نراها، تلك القافلة، بعد الآن أبدًا. ذلك لأن الموت هو الموت دائمًا سواء أكان تعبًا أم لسبب آخر، لكن أكثر طرق الموت إيلامًا وقسوة هي أن تصل إليه محملاً بأكياس ثقيلة لتحشو بها الليل.

دار في خاطري أنه في اليوم الذي يقتل به هؤلاء الأوغاد ويمثل بهم، فإننا على الأقل سوف نُترك فيه وشأننا، وحتى لو كان ذلك لليلة واحدة بكاملها، لاستطعنا على الأقل أن ننعم مرة واحدة بالنوم بكل كياننا، جسدًا وروحًا.

التموين، كابوس إضافي، وحش مزعج صغير، يضاف إلى وحش الحرب الكبير. كائنات ضارية أمامك وخلفك وإلى جوارك، موجودة في كل مكان. محكوم علينا بالموت المؤجل، لم يعد بإمكاننا التخلص من الرغبة الطاغية في النوم، وصار كل شيء عذابًا مضافًا إليها، تلك الرغبة، حتى الوقت والمجهود الذي نبذله في الأكل. نهاية ترعة هنا، جزء من جدار هناك، كنا نظن أننا نعرفه.. كنا نستعين بالروائح، حتى نعثر على الضيعة التي تعسكر فيها

السرية، صرنا كلابًا في ليل حرب القرى التي هجرها أهلها. كان أفضل ما يرشدنا رائحة الغائط.

صول التموين، راعي الأحقاد بالكتيبة، كان الآن سيد العالم. من يتحدث عن المستقبل.. مخادع، ما يهم هو الوقت الحالي. أن تبتهل وتتضرع من أجل أن يمتد بك الأجل.. مثل أن تنعق على من لا يسمع. في جوف ليل القرى في أثناء الحرب، كان الصول يحتفظ بالحيوانات الآدمية، من أجل السلخانات الكبرى التي افتُتحت لتوها. إنه ملك هنا.. الصول! ملك الموت! الصول كرتيل Cretelle! بالطبع! ليس هناك من هو أقوى منه. ليس هناك من هو أقوى منه إلا صول آخر، في الجهة المقابلة.

لم يبقَ في القرية شيء من الأحياء، سوى القطط المذعورة. قطع الأثاث المهشمة جيدًا، أولاً، كانت تُستخدم وقودًا لنيران الطهو، أما الكراسي والمقاعد وخزائن الصحون، من أخفها إلى أكثرها ثقلاً، وكل ما يمكن حمله على الظهر، أخذوه معهم، زملائي. أمشاط، مصابيح صغيرة، أقداح، أشياء صغيرة تافهة، بل وحتى تيجان العرائس، لم يُستثنَ شيء. كما لو كنا سوف نعيش سنوات طويلة، كانوا يسرقون للترفيه عن أنفسهم، للتظاهر بأن العمر ما زال يمتد أمامهم طويلاً. رغبات أزلية.

لم يكن المدفع بالنسبة إليهم إلا هديرًا. ولهذا السبب يمكن للحروب أن تدوم طويلاً. حتى هؤلاء الذين قاموا بها، مَن يخوضون غمارها الآن، لم يكونوا يتخيلون ذلك. ربما استمروا، في طريقهم، ذلك الذي ما زال من الممكن "استعماله". مثل الخراف الملقاة على جنوبها، في المراعي، تحتضر، ولكنها لا تزال تقضم الأعشاب. لا يموت غالب الناس إلا.. في اللحظة الأخيرة، ويبدأ آخرون في ذلك قبلها بعشرين عامًا.. وأحيانًا أكثر. هؤلاء.. هم تعساء هذه الأرض.

عن نفسي، لم أكن قط رجلاً بالغ الحكمة. لكني مع ذلك، أصبحت عمليًّا بما يكفي لأكون جبانًا.. على نحو نهائي. وربما كنت أترك بسبب هذا القرار انطباعًا بالكياسة والهدوء الشديد. على كل حال، كنت أوحي، وأنا على هذه الحال، بثقة لا تخلو من مفارقة إلى نقيبنا، آرتور شخصيًّا، الذي قرر في تلك الليلة أن يعهد إليّ بمهمة دقيقة. قال لي، بينى وبينه، إن الأمر يتعلق بأن أتوجه، ركضًا على حصاني، إلى نوارسور - سور - لا - لي noirceur-sur-la-lys، وذلك قبل طلوع النهار - وهي مدينة يقطنها النساجون، تقع على بُعد أربعة عشر كيلومترًا من القرية التي كنا قد أقمنا معسكرنا فيها. كان عليَّ التأكد من وجود العدو في ذلك المكان بالذات. بهذا الخصوص، لم يتوصل المراسلون إلا إلى أقوال متناقضة، كان صبر الجنرال دينوانتراي قد نفد بسبب ذلك. وبمناسبة مهمة الاستطلاع تلك، فقد وعدت بأن أختار لنفسي حصانًا من بين أقل أحصنة الفصيلة تقيحًا. منذ زمن طويل، لم أكن قد انفردت بنفسي. فجأة، بدا لي كأني ماضٍ إلى نزهة. لكن الخلاص كان وهميًّا.

ما إن شرعت في المسير، وبسبب التعب، لم أتمكن من أن أتخيل مصرعي، مهما حاولت، بما يكفي من الدقة والتفاصيل. كنت أتقدم من شجرة إلى شجرة، في ضوضاء عتادي المعدني، سيفي الجميل.. وحده..كان يصدر من الصوت.. ما يصدره بيانو. ربما كنت في حال يرثى لها، لكنني كنت بالتأكيد.. وعلى أي حال مثيرًا للسخرية.

فيمَ كان الجنرال دايزانتراي يفكر إذًا وهو يرسلني في ذلك السكون؟ أنا على تلك الصورة، مغطى تمامًا بكل تلك "الصاجات"! إنه لم يكن يفكر فيّ.. بكل تأكيد.

كان "الآزتك" بحسب ما يُروى، يبقرون بانتظام، في معابدهم المكرسة للشمس، بطون ثمانين ألفًا من المؤمنين بعقيدتهم كل أسبوع، يقدمونهم قربانًا إلى إله السحاب، لكي يرسل عليهم المطر. تلك أمور يصعب تصديقها قبل الدخول في حرب، لكن عندما تكون فيها بالفعل، يتضح كل شيء، يكون

الآزتك وامتهانهم لأجساد الآخرين، هو الشيء نفسه الذي لا بد أن يشعر به نحو أحشائي الحقيرة، قائدنا الجنرال دايزانتراي، المذكور أعلاه، الذي صار بفعل الترقيات إلى ما يشبه إلهًا حقيقيًّا، هو الآخر، ما يشبه شمسًا صغيرة شديدة القسوة.

لم يكن قد تبقى لي إلا القليل من الأمل، الأمل في أن أقع في الأسر. كان ضئيلاً، ذلك الأمل، كالخيط، خيط في قلب الليل، لأن الظروف لم تكن تسمح إطلاقًا بالمجاملات التمهيدية. طلقة تلك البندقية تصل إليك، في تلك اللحظات، بأسرع من تحية برفع القبعة. ومن جهة أخرى، ما كان عساي أن أجد لأقوله لجندي العدو، أساسًا، القادم خصوصًا، كي يقتلني، من الطرف الآخر من أوروبا؟ إذا تردد ثانية واحدة -وهو ما كان يكفيني - ماذا عساي أن أقول له؟ مَن سيكون هو أولاً في الحقيقة؟ مستخدمًا في أحد المتاجر؟ جنديًّا محترفًا جدّد تطوعه في الخدمة؟ حفار قبور مثلاً؟ في الحياة المدنية؟ طاهيًا؟ الخيول، من جانبها، كانت محظوظة حقًّا، لأنها وإن كانت تكابد الحرب هي الأخرى، مثلنا، فإننا لا نطلب منها أن توافق عليها، أن تبدو مؤمنة بها. تعسة تلك الخيول.. لكنها كانت حرة. أما الحماس، للأسف، لم يكن إلا من نصيبنا، ذلك الداعر!

صرت أتبين ملامح الطريق جيدًا، في تلك الساعة، ثم بعدها وعلى جانبيه، ميزت مربعات وكتل المنازل الكبيرة، منصوبة فوق طين الأرض، البيوت، ذات الجدران التي بيّضها ضوء القمر، كأنها قطع كبيرة وغير متساوية من الثلج، الصمت الشامل في كتل شاحبة. هل ستكون هنا نهاية كل شيء؟ كم من الوقت سأقضيه في هذه العزلة بعد أن يتخلصوا مني؟ قبل أن ينتهوا من ذلك؟ في أي حفرة؟ إلى جوار أي من هذه الحوائط؟ أيقتلونني.. ربما؟ بطعنة سكين؟ كانوا أحيانًا يقطعون الأيدي! ينتزعون الأعين وبقية الأعضاء.. هناك الكثير مما يُروَى بهذا الشأن.. أشياء لا تسر! من يدري؟ خطوة واحدة من الحصان.. واحدة أخرى.. هل ستكون كافية؟ إن هذه الحيوانات تعدو بخطوات

رياضية غريبة وغير منسجمة إطلاقًا كأن كلاً منها رِجلان في نعال من حديد، قد التصقتا معًا.

قابع قلبي في الدفء، ذلك الأرنب، خلف أضلاعي في قفصه الصغير، مضطربًا، منكمشًا، غبيًّا.

عندما يلقي المرء بنفسه دفعة واحدة من أعلى برج إيفل، فلا بد أن يشعر بأشياء كتلك. يود لو استدرك ما فعله في الفضاء.

كتمت هذه القرية تهديدها لي سرًّا، لكن على نحو غير كامل على أي حال. في قلب إحدى الساحات، كانت نافورة ماء، صغيرة للغاية، تزغرد لي وحدي.

كنت أملك كل شيء، لي وحدي، في تلك الليلة! أخيرًا صرت مالكًا، للقمر، وللقرية، ولذعر هائل. كنت على وشك أن أدعو حصاني للركض. لا بد أن مدينة "نوارسور - سور - لا - لي(10)" كانت على بُعد ساعة من المسير على الأقل، عندما لمحت فوق أحد الأبواب بصيصًا شاحبًا غائمًا من النور، اتجهت مباشرةً صوب ذلك الوميض، مكتشفًا في نفسي ما يشبه الشجاعة، طارئة، في حقيقة الأمر، لكن لا شك في وجودها. اختفى الضوء بسرعة، لكنني كنت قد رأيته حقًّا. دققت الباب، بإصرار، دققت مرة أخرى، ناديت بصوت عالٍ جدًّا، مرة بالألمانية، مرة بالفرنسية، هكذا بالتناوب، تحسبًا لكل الأوضاع، على هؤلاء الأغراب، المحبوسين في قلب تلك العتمة.

(10) مدينة غير حقيقية اسمها من ابتكار الكاتب. جدير بالذكر أن كلمة نوارسور تعني بالعربية: سواد. (المترجم)

أخيرًا انفتح الباب.. قليلاً، مصراع واحد.

"من أنت؟" قال صوت. آه لقد نجوت.

"أنا أحد رجال الخيالة".

"فرنسي؟" سألتني امرأة، كنت قد تمكنت من أن ألمحها.

"نعم، فرنسي".

ذلك لأنه قد مر من هنا بعد الظهر بعض الخيالة الألمان.. وقد كانوا يتحدثون الفرنسية.. هؤلاء أيضًا.

"نعم، ولكني فرنسي حقًّا".

"آه!"

بدا لي أنها تشك في ذلك.

"أين هم الآن؟" سألتها.

"لقد استأنفوا سيرهم باتجاه نوارسور.. في الثامنة تقريبًا".

وأشارت بإصبعها ناحية الشمال.

فتاة شابة، تضع شالاً ومئزرًا أبيض، كانت تنسل الآن من العمق إلى عتبة الدار.

"ماذا فعل بكم هؤلاء الألمان؟" سألتها.

"لقد أحرقوا منزلاً بالقرب من دار العمودية، وبعد ذلك قتلوا أخي الصغير.. هنا، بطعنة رمح في بطنه.. عندما رآهم يعبرون، وهو يلهو فوق الجسر الأحمر(11).. انظر! ها هو". وأشارت إليه.

(11) Le pont rouge، مكان معروف في ضواحي آرمنتيير Armentières، عبرت منه كتيبة الفرسان المدرعة رقم 12 التي انتمى إليها سيلين. (المترجم)

لم تكن تبكي. أعادت إيقاد تلك الشمعة التي كنت قد رأيت نورها. لمحت بالداخل، فعلاً، الجثمان الصغير، مسجى فوق إحدى الحشيات، مرتديًا حلة بحار، كان العنق والرأس الشاحبان شحوب نور الشمعة ذاته، يبرزان من ياقة الثوب الكبيرة المربعة زرقاء اللون. كان الطفل منكمشًا.. مطويًّا على نفسه، محني الظهر والساقين والذراعين. كانت طعنة الرمح قد شقت فيه ما يشبه طريقًا للموت في وسط البطن. أما أمه، فكانت تبكي بحرقة، راكعة في أحد الأركان، والأب كذلك. ثم أخذوا ينتحبون كلهم. أما أنا، فقد كنت أشعر بظمأ شديد.

"أليست لديكم زجاجة من النبيذ لتبيعوها لي؟" سألتُ الفتاة.

"يجب أن تسأل الأم.. ربما كانت تعرف إن كان قد تبقى شيء.. لقد سلبنا الألمان الكثير منه بعد الظهر".

آنذاك، وعقب سؤالي، أخذت الفتاة وأمها في الحديث معًا، بصوت خفيض للغاية.

"لم يعد هناك شيء منه"، عادت الفتاة لتخبرني.. "لقد أخذ الألمان كل شيء.. مع أننا قد أعطيناهم من تلقاء أنفسنا، بل والكثير منه".

"نعم، لقد شربوا منه"، عقبت الأم التي كانت قد توقفت عن البكاء، مرة واحدة، "لقد أحبوا ذلك".

"وأكثر من مئة زجاجة، بكل تأكيد". أضاف الأب الذي كان لا يزال راكعًا على ركبيته.

"ألم تتبقَ إذًا ولو زجاجة واحدة؟" قلت في إلحاح وما زال الأمل يراودني، لشدة ما عانيت من ظمأ، خصوصًا لو كانت من النبيذ الأبيض، المر فعلاً، الذي ينبه المرء قليلاً، إنني أرغب في أن أدفع ثمنها.

"لم يتبقَ إلا النبيذ الفاخر، وتساوي الزجاجة منه خمسة فرنكات." قالت الأم موافقة حينذاك.

"حسنًا.." وأخرجت من جيبي الفرنكات الخمسة، قطعة كبيرة من النقد.

"اذهبي لتحضري واحدة!" طلبت الأم من أخت الفتى بكل هدوء.

أخذت الفتاة الشمعة وأخرجت لترًا من المخبأ بعدها بلحظة واحدة. لقد حصلت على ما كنت أبغي، ولم يبقَ لي سوى أن أنصرف.

"هل سيعودون؟" سألتُ، وقد ساورني القلق من جديد.

"ممكن"، قالوا جميعًا في نَفَس واحد، "لكنهم حينئذٍ سوف يحرقون كل شيء.. لقد توعدونا بذلك عند رحيلهم".

"سأذهب لأتحقق من ذلك".

"أنت شجاع حقًّا.. من هذه الناحية" قال الأب مشيرًا ناحية الشمال، صوب "نوراسور - سور - لا - لي".. بل إنه خرج إلى الطريق ليشاهدني وأنا أرحل من عندهم. بقيت الأم والأخت متوجستين بالقرب من الجثمان الصغير، ساهرتين إلى جواره.

"هيا، فلتعد"، قالتا من الداخل، "لتدخل.. هيا يا جوزيف، ليس هناك ما تفعله على الطريق".

"أنت شجاع حقًّا". قال الأب مرة أخرى وشد على يدي.

استأنفت مسيري، ركضًا بالحصان، في طريق الشمال.

"لا تخبرهم، على الأقل، أننا ما زلنا هنا!" كانت الفتاة قد خرجت لتصرخ لي بذلك.

"سوف يتحققون من هذا، غدًا، إن كنتم لا تزالون هنا!"

لم أكن أشعر بالرضا، لأني دفعت قروشي المئة، كانت هناك تلك القروش المئة بيني وبينهم. كان ذلك كافيًا لكي أكرههم وأن أتمنى أن يهلكوا جميعًا بسببها. لا يهمني أن أضحي بأي حب في هذا العالم، ما دامت هناك مئة قرش في الموضوع.

"غدًا!" قالوا جميعًا، مرة أخرى، مرتابين.

غدًا، بالنسبة إليهم أيضًا، كان لا يزال بعيدًا. غد كهذا لم يكن يعني هنا شيئًا كثيرًا. الحقيقة أن الأمر كان بالنسبة إلينا جميعًا يتعلق بأن نحيا ساعة إضافية، ساعة واحدة في عالم يتقلص كل ما فيه.. إلى القتل، كانت بالفعل أمرًا مدهشًا.

لم يعد يتبقى أمامي الكثير، كنت أركض بحصاني من شجرة إلى شجرة وقد توقعت أن يناديني أحد أو أن يطلق عليَّ الرصاص ما بين لحظة وأخرى. لم يحدث شيء بعد.

لا بد أنها كانت قد قاربت الثانية بعد منتصف الليل على الأكثر عندما وصلت إلى قمة تلة صغيرة، وقد أبطأت خطوات الحصان. من ذلك المكان، فجأة، شاهدت بالأسفل صفوفًا ثم صفوفًا أخرى من مصابيح الغاز الموقدة، ثم، في صدارة المشهد، محطة قطار مضاءة بالكامل بعرباتها ومقصفها ولم يكن يصدر عنها على الرغم من ذلك أي صوت.. لا شيء.

شوارع، طرق واسعة، مصابيح شوارع، ثم أخرى موازية لها، تشع بالنور، أحياء بكاملها، ثم، في بقية ما حولها، لم يكن هناك سوى الظلام، الفراغ، نهمًا، شبقًا يحيط بالمدينة، التي كانت كلها منبسطة أمامي، مكشوفة، كما لو كانت قد فُقدت، تلك المدينة، مضاءة بالكامل، منثورة في قلب الليل.

ترجلت عن حصاني وجلست على تل صغير لأتطلع إلى هذا المشهد، بعض الوقت.

لم يدلني ذلك المشهد على ما إذا كان الألمان قد دخلوا نوارسور، لكن بما أني أعرف أنهم كانوا، في حالات كهذه، يشعلون النار عادةً في المكان، إن كانوا قد دخلوه، وإن لم يكونوا قد أشعلوا النار في المدينة فورًا، فلا شك إذًا في أن لديهم أفكارًا وأهدافًا تخرج عن المألوف.

كما لم تكن هناك مدافع أيضًا، كان الأمر مريبًا.

كان حصاني هو الآخر يريد أن ينام، فراح يشد على لجامه وجعلني هذا ألتفت. وعندما نظرت ثانيةً صوب المدينة، كان شيء قد تغير في شكل التلة أمامي، لم يكن تغيرًا كبيرًا، بكل تأكيد، لكنه كان كافيًا لكي أصرخ، "إيه! من القادم هناك؟" كان هذا التغير في شكل الظلال قد وقع على بُعد خطوات مني.. لا بد أنه كان شخصًا ما.

"لا تصرخ عاليًا هكذا!" أجاب صوت رجل، صوت ثقيل ومبحوح، صوت بدا عليه أنه فرنسي قُح.

"هل أنت من جنود المؤخرة، أنت أيضًا؟" سألني على النحو ذاته. كنت أستطيع الآن.. أن أراه. كان أحد جنود المشاه، كان واقي الوجه في خوذته محطمًا تمامًا (استهتارًا، وفقًا للأسلوب العسكري). وبعد سنوات وسنوات من تلك الواقعة، ما زلت أتذكر جيدًا تلك اللحظة، شبحه الخارج من بين الأعشاب، كالشخوص التي كان الجنود يتخذونها في الماضي أهدافًا للتصويب في الأعياد.

اقترب كل منا من الآخر. كنت أمسك بمسدسي في يدي. كنت سأطلق النار دون أن أعرف لماذا، إن كان قد اقترب أكثر.

"اسمع، هل رأيتهم أنت؟" سألني.

"لا، لكني جئت إلى هنا لكي أراهم".

"هل أنت من الكتيبة 145 - خيالة؟"

"نعم، وأنت؟"

"أنا؟ أنا جندي احتياط".

"آه!" هذا ما صدر عني. أدهشني ذلك، جندي احتياط.

كان الرجل أول جندي احتياط أصادفه في الحرب. لقد كنت دائمًا مع الجنود العاملين. لم أكن أرى وجهه، لكن صوته كان مختلفًا بالفعل عن أصواتنا، بدا كأنه أكثر حزنًا، وبالتالي فقد كان أكثر صدقًا من أصواتنا. لهذا السبب، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أثق به قليلاً. كان ما جرى، حدثًا صغيرًا جديرًا بالاهتمام.

"لقد فاض بي الكيل"، كان يردد ذلك، "سوف أذهب ليعتقلني الألمان".

لم يكن يخفي شيئًا.

"كيف تفعل ذلك؟"

راقتني فكرته على الفور، أكثر من كل ما عداها، ماذا كان سوف يفعل ليفلح في أن يقع أسيرًا؟

"ما زلت لا أعرف".

"ماذا فعلت كي تنجو بنفسك دائمًا؟ ليس من السهل أن يوقع المرء بنفسه في الأسر!"

"لا يهمني هذا، سأسلم نفسي".

"أنت خائف إذًا؟"

"أنا خائف. ثم إني أجد هذا شيئًا غبيًّا، إن أردت أن تعرف رأيي، أنا عن نفسي لا أعبأ بالألمان، إنهم لم يسيئوا إليَّ".

"اصمت"، قلت له، "قد يكونون يسمعوننا".

راودني ما يشبه الرغبة في أن أكون مهذبًا مع الألمان. كم تمنيت لو فسر لي هذا الرجل، عندما كان موجودًا معي، جندي الاحتياط ذلك، لماذا لم أكن، أنا الآخر، أملك الشجاعة، كي أحارب مثل الآخرين.. لكنه لم يفسر لي شيئًا، كان يردد فقط أن الكيل قد فاض به.

روى لي ساعتها، كيف تبددت فرقته، الليلة الماضية، قبيل الفجر، بسبب قناصة مرتجلين من جيشنا، كانوا قد فتحوا النار على فرقته، بالخطأ، عبر الحقول. لم يكن من المنتظر وصولهم ذلك الوقت. كانوا قد وصلوا مبكرين عن الموعد المقرر بثلاث ساعات. وعليه فقد أمطرهم القناصة، مجهدين، مأخوذين، بوابل من الرصاص. أنا أعرف هذا اللحن، لقد عُزف لي من قبل.

"أنت تمزح، إن ظننت أني لم أستغل الفرصة!" أضاف جندي الاحتياط روبنسون Robinson.. قلت لنفسي: "روبنسون هذا هو اسمي! روبنسون ليون!"، "إما الآن وإما أن تنسى ذلك، عليك الآن أن تطلق ساقيك للريح أو لن تتاح لك الفرصة بعد ذلك أبدًا" هذا ما قلت لنفسي! أليس كذلك؟ وعليه فقط سرت بمحاذاة غابة صغيرة، هناك، لك أن تتخيل، قابلت نقيبنا.. كان مستندًا إلى شجرة، مثخنًا بالجراح، ذلك السافل! في طريقه إلى الهلاك.. كان.. كان يقبض على سراويله بكلتا يديه، يبصق.. ينزف من كل مكان في جسده وهو يدور بعينيه.. لم يكن هناك أحد إلى جانبه. كان أمره قد انتهى.. أمي! أمي! ظل ينتحب، محتضرًا، كما كان يبول دمًا.

"كف عن هذا!" قلت له، "أمي! إنها تلعنك، أمك!"

هكذا، بلا اهتمام، من طرف الفم! لا بد أنك تمزح، لا شك في أن هذا قد أسعده حتمًا، ذلك النذل! إيه يا صديقي! لا يحدث ذلك كثيرًا، إيه، أن يتاح لك أن تخبر النقيب بما تظنه فيه.. يجب انتهاز هذه الفرصة، فنادرًا ما يحدث هذا! ولكي أفر من ذلك المكان بسرعة، ألقيت بأمتعتي ثم بالأسلحة أيضًا في بركة للبط كانت بالجوار.. ليكن في علمك، أنني كما تراني، لا أرغب في أن أقتل أحدًا، لم أتعود ذلك.. لم أكن أصلاً أحب حكايات العراك، من قبل في زمن السلم.. كنت أتركها وأنصرف.. ألا تلاحظ هذا؟ في الحياة المدنية، حاولت أن أذهب إلى المصنع بانتظام.. بل إنني عملت بالطباعة بعض الوقت، لكني لم أحب ذلك، بسبب المناقشات والشجار، كنت أفضِّل أن أبيع الصحف المسائية، وفي حي هادئ حيث كنت معروفًا، بجوار بنك فرنسا، ميدان ديه ڤيكتوار Des victories إن أردت أن تعرف.. شارع ديه بتي شان Des petits champs كانت هذه منطقتي.. لم أكن أتجاوز شارع اللوڤر مطلقًا ولا شارع الباليه رويال Palais Royal من أي جهة، كما ترى.. في الصباح كنت أقضي للتجار بعض الحاجات.. بعد الظهر.. أسلِّم أحيانًا بعض البضائع، أي عمل.. أناوش هنا وهناك.. ولكني لا أريد أسلحة.. أنا! إن رآك الألمان وأنت تحمل سلاحًا فقد انقضى أمرك! أما عندما تكون متحررًا منه، مثلي أنا الآن، لا شيء في يديك.. لا شيء في جيوبك.. فإنهم سوف يشعرون بأنهم سيبذلون عنتًا أقل في الإيقاع بك أسيرًا، هل تفهمني؟ إنهم يعرفون مع من يتعاملون.. إن أمكن أن تصل إلى الألمان عاريًا، كالحصان، فسوف يكون ذلك أفضل.. لأنهم لن يتمكنوا ساعتها من أن يعرفوا إلى أي جيش تنتمي.

"هذا صحيح!"

أدركت أن تقدُّم عمر الإنسان يُنضج أفكاره. يصير عمليًّا.

"إنهم هنا، يا هذا، أليس كذلك؟" كنا نتداول، ونقرر معًا الفرص المتاحة ونتلمس مستقبلنا في تلك الخريطة الكبيرة المضيئة التي تقدمها إلينا المدينة المضاءة الصامتة كأننا نقرأ الطالع في أوراق اللعب.

"هل نمضي؟"

كان الأمر يتعلق بأن نعبر خط السكة الحديد أولاً. إن كان هناك حراس فسوف نكون هدفًا لهم، أو لا، علينا أن نرى ذلك. علينا أن نمر سواء من فوق أم من تحت الأرض عبر النفق.

"علينا أن نسرع"، أضاف هذا الـ"روبنسون"، "ينبغي أن يتم ذلك في أثناء الليل، ففي أثناء النهار لا يعود هناك أصدقاء، يتظاهر الجميع بإتقان العمل بالنهار، كما ترى، حتى في الحرب لدينا عادات السوق.. هل ستأخذ بطتك (حصانك) معك؟"

اصطحبت الحصان معي من باب الحذر ليكون فرارنا أسرع إذا ما أُسيء استقبالنا. وصلنا إلى المزلقان، وكانت ذراعاه الكبيرتان الملونتان بالأبيض والأحمر، مرفوعتين. لم أكن قد رأيت قبل ذلك حواجز على هذه الصورة، لم يكن هناك مثلها في ضواحي باريس.

"أتظن أنهم قد دخلوا المدينة بالفعل؟" سألته.

"هذا مؤكد!" أجابني، "لنواصل التقدم".

صرنا الآن مرغمين على أن نكون شجاعين كما يكون الشجعان، بسبب الحصان الذي كان يمضي قدمًا في هدوء خلفنا، كما لو كان يشجعنا بوقع خطواته. لم نكن نسمع سواه، توك.. توك. كان يدب بحدواته الحديدية في قلب الصدى، غير عابئ بما يدور.

هل كان روبنسون هذا يعتمد حينها على الليل في إخراجنا من هناك؟ سرنا الهوينى.. كلانا.. في وسط الشارع الخالي، من دون أي مواربة، بخطوات متوازنة منسجمة كأننا في تدريب.

على حق كان، روبنسون.. كان النهار قاسيًا لا يعرف الرحمة، من الأرض وحتى السماء. على نحو ما كنا نمضي على الطريق، لا بد أننا قد بدونا مسالمين تمامًا، نحن الاثنين، بل بريئين جدًّا، كأننا عائدان من إجازة.

"هل سمعت أن الفرقة الأولى خيالة قد وقعت بكاملها في الأسر؟ في مدينة ليل؟ لقد دخلوها هكذا.. دون استطلاع، كما يقال، لم يكونوا يعرفون، هه، الكولونيل في المقدمة.. في شارع رئيس.. يا صديقي! انغلق الشارع.. من الأمام.. من الخلف.. وقع المحذور.. انتهى الأمر.. كالجرذان.. تم الإيقاع بهم.. يا لها من طريقة عبقرية".

"آه! الأنذال".

"ما قولك في هذا؟ ما قولك؟ إننا لم نفق بعد نحن أيضًا من عملية الاصطياد الرائعة هذه.. منتهى الدقة.. منتهى الحسم.. لقد أصابتنا بالذهول". كانت الحوانيت قد أبقت مصاريع نوافذها مغلقة، البيوت السكنية أيضًا، بحدائقها الأمامية الصغيرة، كان كل هذا ينضح بالنظافة، لكن بعد مكتب البريد، رأينا واحدًا من هذه البيوت، أكثر بياضًا من البيوت الأخرى، يتألق بكل أنواره في كل النوافذ، في الطابق الأول، كما في الطابق المسروق. ذهبنا لندق الباب، حصاننا خلفنا دائمًا. فتح لنا الباب رجل سمين وملتح.

"أنا عمدة نوارسور"، قال الرجل على الفور، دون أن نسأله، "وأنا أنتظر الألمان!" وخرج إلى ضوء القمر حتى يتعرف إلينا.. العمدة عندما أدرك أننا لم نكن من الألمان، بل وأيضًا من الفرنسيين حقًّا، لم يعد رسميًّا إلى ذلك الحد.. كما كان، صار ودودًا فقط. ثم محرجًا كذلك. بالتأكيد لم يعد ينتظر فرنسيين،

لقد جئنا على نحو عارض قليلاً عن الاستعدادت التي كان لا بد أنه اتخذها، قرارات محددة. كان من المقرر أن يدخل الألمان نوارسور في تلك الليلة. لقد أُخطر بذلك، وكان قد أعدّ لكل شيء مع البلدية؛ الكولونيل الألماني هنا، وعربات الإسعاف هنا... إلخ، وإن دخلوا الآن، ونحن هنا؟ سوف يتسبب ذلك في كثير من المشكلات بكل تأكيد! سوف يؤدي بلا شك إلى بعض المضاعفات.. لم يقل لنا هذا بوضوح، لكنا كنا ندرك جيدًا أنه كان يفكر في ذلك.

آنذاك، شرع يحدثنا عن الصالح العام. في ذلك الليل، وسط ذلك الصمت الذي كنا ضائعين فيه. الصالح العام ليس إلا.. المصالح المادية لأهل المدينة.. عن التراث الفني لنوارسور، الذي عُهد به إليه، مسؤولية مقدسة، إن كان هناك ما يستحق هذا الوصف.. عن الكنيسة التي تعود إلى القرن الرابع عشر بوجه خاص.. ماذا لو أقدموا على إحراقها.. كنيسة القرن الرابع عشر؟ كما أحرقوا كنيسة كونديه - سور إيزير القريبة! هه؟ مجرد أن مزاجهم قد تعكر.. غضبًا من وجودنا هنا.. جعلنا نشعر بجسامة المسؤولية التي نتحملها.. جنود صغار متهورون.. كما كنا نحن الاثنين! إن الألمان لا يحبون مثل هذه المدينة المريبة التي ما زال عساكر الأعداء يتسكعون فيها. لقد كان أمرًا معروفًا للكافة.

بينما راح يحدثنا على هذا النحو، وبصوت خفيض، كانت زوجته وابنتاه الاثنتان، الشقراوان الممتلئتان المثيرتان، يؤيدنه بقوة في ما يقول. بكلمة من هنا.. وكلمة من هناك.. كانوا يطردوننا.. باختصار. في ما بيننا، راحت القيم العاطفية والأثرية، تطفو، التي دبت فيها الحياة على حين غرة.. قوية غامرة، بما أن أحدًا لم يعد موجودًا في نوارسور حتى يجادل بشأنها.. في هذا الليل.. قيم وطنية، أخلاقية، مدعومة بعبارات، أشباح، كان يحاول أن يتعلق بها العمدة، لكنها سرعان ما تبددت وقد تغلب عليها خوفنا وأنانيتنا وكذلك الحقيقة المجردة والعارية.

ظل ينهك نفسه في جهود مثيرة للشفقة، عمدة نوارسور، متحرقًا إلى إقناعنا بأن واجبنا بالفعل هو أن ننقلع من هنا فورًا إلى أي جحيم. كان أقل عنقًا، بكل تأكيد، لكنه كان حاسمًا، على طريقته تمامًا، بقدر ما كان الرائد بانسون.

يقينًا، لم يكن هناك ما نستطيعه في مواجهة كل هؤلاء الأقوياء، سوى رغبتنا الصغيرة، نحن الاثنين، في ألا نموت وألا نحترق. لم تكن تلك الرغبة ذات شأن، خصوصًا أن أمورًا كهذه لا يمكن البوح بها في أثناء الحرب، وعليه فقد عدنا صوب شوارع خالية أخرى، الحقيقة، أن كل الناس الذين صادفتهم في تلك الليلة قد أطلعوني على ما في نفوسهم.

"هكذا هو حظي دائمًا!" عقب روبنسون ونحن نغادر المكان، "أرأيت؟ لو أنك فقط كنت ألمانيًّا، لكنت قد أسرتني، بما أنك فتى طيب أيضًا، ولكان ذلك معروفًا كبيرًا في الواقع، في الحرب.. يصعب على المرء التخلص من نفسه!"

"وأنت؟" سألته، "لو كنت ألمانيًّا، ألم تكن لتأخذني أسيرًا كذلك؟ ربما نلتَ حينها وسامهم العسكري، لا بد أن له اسمًا غريبًا بالألمانية، وسامهم العسكري! هيه؟"

بما أنه لم يكن هناك أحد في طريقنا يريد أن يأخذنا أسرى، فقد انتهت بنا الحال إلى الذهاب للجلوس على مقعد في إحدى الساحات الصغيرة، وساعتها أكلنا علبة التونة التي كان روبنسون ليون يطوف بها ويدفئها في جيبه منذ الصباح. من بعيد جدًّا، سمعنا المدفع، في تلك الساعة، لكن من بعيد جدًّا.. بالفعل، لو كان بإمكانهم أن يظل كلٌّ منهم في مكانه، الأعداء، وأن يتركونا هنا.. في سلام! بعدها، كان ما سرنا بمحاذاته هو أحد أرصفة الميناء، وبجانب الزوارق التي أُفرغت من نصف حمولاتها، تبولنا في الماء، في دفقات طويلة. كنا نسحب الحصان من لجامه، دائمًا، خلفنا، كأنه كلب هائل الحجم، لكن قرب الجسر، في منزل القس ذي الغرفة الواحدة، فوق حشية أيضًا،

كان رجل ميت مسجى هو الآخر، وحيدًا، كان فرنسيًّا، رائد القناصة الراكبين، الذي كان من جهة أخرى يشبه هذا الـ"روبنسون" كثيرًا، في ملامح الوجه.

"لا شك أنه كان رجلاً خبيثًا"، قال روبنسون محاولاً لفت نظري، "أنا لا أحب الموتى".

"الأكثر غرابة"، أجبته، "أنه يشبهك إلى حدٍّ ما. إن له أنفًا طويلاً كأنفك، كما أنك لا تصغره كثيرًا".

"إن ما تراه هو أثر الإعياء، وبالتأكيد لا بد أن نتشابه كلنا بعض الشيء، ولكنك لو كنت قد رأيتني من قبل، عندما كنت أقود الدراجة في كل يوم أحد! لقد كنت فتى وسيمًا! كانت لي سمانتان. آه يا عزيزي! الرياضة! كما تعرف! إنها تقوي الفخذين أيضًا".

خرجنا من الغرفة، كان عود الثقاب الذي أشعلناه لنرى الرجل قد انطفأ.

"انظر، لقد تأخر الوقت، كما ترى!"

كان هناك خط رمادي مخضر قد بدأ على البُعد في تحديد رأس التلة، على حدود المدينة، في الليل، أو النهار، اليوم أو غدًا! كان علينا أن نحاول أن نجتاز هذا النهار أيضًا، كما اجتزنا الأيام الأخرى، التي صارت تشبه أطواقًا تزداد ضيقًا شيئًا فشيئًا وتمتلئ تمامًا بمسارات القذائف ووميض الشظايا المتطايرة.

"قل، ألن تعود إلى هنا في الليلة المقبلة؟" سألني وهو يفارقني.

"ليست هناك ليلة مقبلة، يا عزيزي، لا بد أنك تظن نفسك چنرالاً!"

"أنا لم أعد أفكر في شيء". قال منهيًا حديثه. "أي شيء. هل تسمعني؟ أنا أفكر فقط في ألا أموت.. يكفيني هذا. أقول لنفسي إن يومًا أفوز به، هو دائمًا

يوم إضافي في عمري".

"أنت محق. إلى اللقاء، أيها العزيز، وحظًّا سعيدًا".

"حظًّا سعيدًا لك أيضًا! قد نلتقي".

لقد عاد كل منا إلى الحرب. وبعد ذلك جرت أمور وبعدها أمور أخرى، ليس من المتيسر أن أرويها حاليًا، بسبب أن من ينتمون إلى عالم اليوم ما كانوا ليفهموها فعلاً.

الفصل 8

المقطع الخامس

لكي نحظى بالتقدير والاعتبار، كان علينا أن نسارع بعقد صداقات قوية مع المدنيين، لأنهم، في المواقع الخلفية، قد صاروا أكثر لؤمًا، وكان ذلك يتزايد كلما تقدمت الحرب. أدركت ذلك فورًا عند عودتي إلى باريس، كما أدركت أن نساءهم كن يشتعلن بالرغبة، وأن العجائز مجرد أفواه كبيرة فارغة زاعقة، وأن الأيدي في كل مكان، تمتد إلى الجيوب، إلى المؤخرات.

حللنا محل مقاتلي الخطوط الخلفية، وسرعان ما تعودنا المجد والشهرة وأسلم الطرق في تحملها بشجاعة وبلا ألم.

الأمهات، ممرضات تارة، وشهيدات تارة أخرى، لم يعدن يتخلين عن غلالاتهن السابغة الداكنة ولا عن الشهادة التي يحرص الوزير على أمر موظف البلدية بتسليمها إليهن في الموعد المقرر. إجمالاً، كانت الأمور تنتظم.

في أثناء الجنازات المُعدة بعناية، يكون المرء حزينًا بالفعل أيضًا، لكن مع ذلك يظل يفكر في الميراث، في الإجازات المقبلة، في الأرملة الجميلة، الراغبة، كما يقال، وفي أن تستمر حياته، هو شخصيًّا، بالتناقض، زمنًا طويلاً، ربما إلى الأبد. من يدري؟

عندما يشيع المرء جنازة، يرفع لك الجميع أيضًا القبعات عاليًا. أمر يبعث على السرور. تلك هي اللحظة التي يجب أن يتماسك فيها المرء، أن يبدو رصينًا، ألا يضحك بصوتٍ عالٍ، أن يفرح من داخله فقط. هذا أمر مسموح به. كل شيء مباح في السر.

في زمن الحرب، يرقص الناس في القبو، بدلاً من الرقص في الدور المسروق. يتغاضى المقاتلون عن ذلك، بل والأفضل، إنهم كانوا يحبونه، يسعون إليه بمجرد وصولهم، ولم يكن أحد يرى في تلك التصرفات أي غضاضة أو ريبة. واقع الأمر أن ما كان يريب حقًّا هو الشجاعة. هل يكون المرء شجاعًا بجسده؟ لتطلبوا إذًا من الدودة أن تكون شجاعة، فهي وردية اللون، شاحبة ورخوة، مثلنا تمامًا.

من ناحيتي، لم يعد هناك ما أشكو منه، بل إنني كنت في طريقي إلى التحرر والخلاص بفضل الوسام العسكري الذي نلته، والجراح وكل شيء. في أثناء فترة النقاهة، حملوا إليَّ الوسام في المستشفى. وفي اليوم نفسه ذهبت إلى المسرح حتى يراه المدنيون في فترات الاستراحة. أثر هائل. كان من أوائل الأوسمة العسكرية التي رآها الناس في باريس. صفقة رابحة!

بل إنني وبهذه المناسبة قد قابلت في دار "أوبرا كوميك" لولا، الأمريكية الصغيرة، التي تخلصت بفضلها من حيائي تمامًا.

وهكذا توجد تواريخ بعينها، هي التي تهمنا من بين كثير من الشهور التي ربما كان من الممكن الاستغناء تمامًا عن معيشتها. كان يوم الوسام العسكري هذا في "أوبرا كوميك" حاسمًا في حياتي.

بسببها، لولا، صرت شغوفًا تمامًا بالولايات المتحدة، بسبب الأسئلة التي طرحتها عليها مباشرةً والتي لم تجب عنها هي، لولا، إلا بالكاد. عندما ينطلق المرء في رحلات بهذه الطريقة، فإنه يعود منها عندما يستطيع وكيفما يستطيع.

في الوقت الذي أتحدث عنه، كان الكل في باريس يود لو أن له زيه الرسمي الخاص به. لم يكن هناك كثير من غير المحايدين والجواسيس لا يملكون واحدًا، وهؤلاء كانوا تقريبًا الشيء نفسه. كان لـ"لولا" زيها الخاص، الذي كان

بالفعل زيًّا أنيقًا، مزدانًا بالصلبان الحمراء الصغيرة في كل مكان، على الأكمام، فوق غطاء الرأس الصغير، الخاص بالشرطة العسكرية، الذي كانت تضعه دائمًا مائلاً بدلال على شعرها المتماوج. كانت قد جاءت لتساعدنا في إنقاذ فرنسا، كما أسرَّت إلى مدير الفندق، في حدود طاقتها المتواضعة، لكن بكل قلبها! تفاهمنا على الفور، لكن على نحو غير كامل، لأن نزوات القلب صارت مكدّرة بالنسبة إليَّ. كنت أوثر نزوات الجسد، بكل بساطة، عليك أن تحاذر من القلب جدًّا، تعلمت ذلك في الحرب، وبأية طريقة! ولم أكن قريبًا من نسيانه.

كان قلب لولا رقيقًا، رهيفًا، متحمسًا. أما الجسد فكان رشيقًا، ناعمًا، ودودًا للغاية، وكان عليَّ أن أقبل بها كما هي إجمالاً. كانت فتاة لطيفة على أي حال.. لولا، إلا أن الحرب كانت تقف بيننا، تلك الرغبة الغاضبة العارمة المجنونة التي كانت تدفع بنصف البشر، سواء أكانوا من العاشقين أم لا، إلى أن يرسلوا النصف الآخر إلى المذابح. وعليه فقد كان هوس كهذا مربكًا حتمًا للعلاقات بين البشر. بالنسبة إليَّ، أنا الذي كنت أميل إلى مد فترة نقاهتي بقدر المستطاع وكنت غير متمسك على الإطلاق باستعادة دوري في مقبرة المعارك المحتدمة، كانت عبثية مذبحتنا هذه تبدو لي براقةً زائفةً، في كل خطوة أخطوها في المدينة. خدعة بديلة تمتد في كل مكان.

مع ذلك لم يكن لي إلا حظ ضئيل في النجاة منها، لم تكن لديَّ أي من العلاقات اللازمة للتملص منها. لم أكن أعرف إلا الفقراء، أي هؤلاء الناس الذين لا يكترث أحد لموتهم. أما بالنسبة إلى لولا، فلم يكن من الواجب الاعتماد عليها في البقاء في المستشفى. ممرضة كما كانت، لم يكن ممكنًا تصور كائن محب للقتال، ربما في ما عدا أورتولان، أكثر من تلك الطفلة الساحرة. ربما أثارني، كرجل مؤمن، مظهر چان دارك الذي كانت تحمله، قبل أن أمر بورطة البطولات الموحلة، لكن الآن، ومنذ تجنيدي في ميدان كليشي،

صرت أتجهم خوفًا، بصورة مرضية، أمام أي عمل بطولي شفويًّا كان أم حقيقيًّا. لقد شفيت من البطولة، برئت تمامًا.

من أجل راحة سيدات "هيئة الحملة الأمريكية" أقامت مجموعة الممرضات التي تنتمي إليها لولا في فندق باريتز، وحتى تروقها الأمور أكثر، عُهد إليها على نحو خاص -كانت لديها شبكة علاقات - في الفندق نفسه بالإشراف على نشاط قسم خاص، إدارة توزيع فطائر التفاح على مستشفيات باريس. هكذا كان يجري توزيع آلاف الدزينات منها كل صباح. قامت لولا بهذا العمل الخيري بنوع من الحماس الزائد الذي كان لا بد أن يؤدي من جهة أخرى إلى عواقب وخيمة فيما بعد.

لولا، يجب الاعتراف بذلك، لم تكن قد أعدت أي فطائر في حياتها قط، وعليه، فقد وظفت عددًا معينًا من الطاهيات، وصارت الفطائر، بعد بعض التجارب، جاهزة للتوريد بانتظام، رَيّانة تقطر بالعصير، ذهبية، مسكرة حتى لتأخذ العقل! باختصار، لم يعد على لولا سوى أن تتذوقها قبل أن يجري إرسالها إلى مختلف الأقسام بالمستشفيات. كل صباح كانت لولا تنهض، ابتداءً من العاشرة، ثم تهبط، بعد أن تأخذ حمامها، إلى المطابخ الموجودة بالأسفل، قرب الأقبية. يجري هذا كل صباح، أؤكد لكم، ولم تكن ترتدي سوى كيمونو ياباني أسود وأصفر كان أحد الأصدقاء في سان فرانسيسكو قد أهداها إياه عشية سفرها.

باختصار، كان كل شيء يجري على نحو رائع، وكنا فعلاً في طريقنا إلى أن نربح الحرب، إلى أن وجدتها، ذات يوم، مرتبكة، في ساعة الغداء، رافضة أن تلمس طبقًا واحدًا من وجبتها. تملكني الخوف من أن تكون مصيبة ما قد ألمّت بها أو أن مرضًا مفاجئًا قد أصابها.

توسلت إليها أن تثق بمودتي وعاطفتي الحانية المراعية.

لأنها تذوقت الفطائر طوال شهر كامل بانتظام، كان وزنها قد ازداد رطلين وأكثر! وكان حزامها الصغير يشهد من جهة أخرى، بثقب زائد، على تلك الكارثة. ثم جاءت الدموع. محاولاً أن أواسيها، بأقصى ما أستطيع، مررنا، تحت تأثير الصدمة، في سيارة أجرة، بالعديد من الصيادلة، في أماكن عديدة مختلفة تمامًا. بالمصادفة، وبلا شفقة، أكدت كل الموازين أن الرطلين قد اكتُسبا فعلاً، لم يعد من الممكن إنكارهما. اقترحت عليها حينذاك أن تتخلى عن هذه المهمة لزميلة ما، تكون، على العكس منها، راغبة في الحصول على بعض "المزايا". لم ترد لولا سماع شيء عن هذه التسوية، التي كانت تعدها عارًا وهروبًا حقيقيًّا في حد ذاته من الجندية. بل إنها أخبرتني بهذه المناسبة أن أحد أسلافها كان هو الآخر من بين طاقم سفينة المجد، "ماي فلور(12)"، خالدة الذكر إلى الأبد، التي حطت رحالها في بوسطون، عام 1677، وأنها اعتبارًا لذكرى كهذه لا يمكن أن يخطر على بالها أن تتنصل من واجب الفطائر، المتواضع بكل تأكيد، لكنه مع ذلك يظل مقدسًا.

(12) May Flower، السـفينة التي نقلت الإنجليز الذين اسـتقروا للمرة الأولى في أمريكا الشـــمالية عام 1620. لم يهبط هؤلاء الأوائل في بوسطن poston ولكن في ميناء بلايموث Plymouth. (المترجم)

على أي حال، لم تعد لولا، ابتداءً من ذلك اليوم، تتذوق الفطائر إلا بأطراف أسنانها، التي كانت تحتفظ بها بالكامل، جميلة متناسقة. كان هذا القلق من "السمنة" قد تمكن من إفساد أي متعة لها. أصابها السقم. في وقت قصير صارت تخاف من الفطائر بقدر ما كنت أنا أخاف من القذائف. في ذلك الحين، كنا نذهب في غالب الأحيان للتنزه لدواعٍ صحية، في كل الجهات، بسبب الفطائر، على أرصفة النهر، في الشوارع الكبرى، لكننا لم نعد ندخل محل "النابوليتاني"، بسبب "الآيس كريم"، الذي يتسبب هو الآخر في بدانة السيدات.

لم أكن قد حلمت مطلقًا بمكان للإقامة أكثر راحة من غرفتها، التي يغلفها اللون الأزرق الباهت بالكامل، مع حمام مجاور. صور أصدقائها في كل مكان، إهداءات، قليل من النساء، كثير من الرجال، فتية يتمتعون بالوسامة، سمر مجعدو الشعور، نوعها المفضل، كانت تحدثني عن ألوان أعينهم، ثم عن تلك الإهداءات الرقيقة، الرسمية، التي تحمل كلها عبارة "إلى الأبد". في البداية، ومن باب التأدب، كان ذلك يُشعرني بالحرج، وسط كل هذه الصور، ثم تعودت الأمر.

بمجرد أن أتوقف عن تقبيلها، كانت تعود، دون أن أستطيع فكاكًا، إلى موضوعات الحرب أو إلى الفطائر. احتلت فرنسا مساحة واسعة في حواراتنا. بالنسبة إليها، لولا، ظلت فرنسا تشبه كيانًا نبيلاً، بلا ملامح واضحة، لا في الزمان ولا في المكان، غير أنه كان في ذلك الوقت مصابًا بجرح خطير، ولهذا السبب ذاته كان مثيرًا للغاية. أما أنا، وعند الحديث عن فرنسا، فكنت أفكر حينها على نحو لا يمكن تجنبه في أحشائي، وبالتالي، رغمًا عني، كنت أكثر تحفظًا بكثير في كل ما يتعلق بالحماس الوطني. لكل منا خوفه الخاص. ومع هذا، ونظرًا إلى أنها كانت مُرضية في الجنس فقد كنت أستمع إليها دون أن أعارضها مطلقًا. أما في ما يتعلق بالروح، فلم أكن أقنعها كثيرًا. كانت تريدني متهللاً، متأجج المشاعر، ومن ناحيتي، لم أكن أتصور إطلاقًا، لماذا كان عليَّ أن أكون في تلك الحالة السامية، على العكس كنت أجد ألف سبب، كلها غير قابلة للدحض، للبقاء في حالة مزاجية مناقضة فعلاً.

على أي حال، لم تكن لولا تفعل شيئًا سوى الهذيان بالسعادة والتفاؤل، شأن كل من يعيش على الجانب الآخر من الحياة، جانب الامتيازات، الصحة، الأمان، ومن ما زال أمامهم وقت طويل ليعيشوه.

كانت ترهقني بأمور الروح، تسهب في الحديث عنها. الروح، إنها الاعتداد بالنفس، متعة الجسد ما دام يتمتع بالصحة، لكنها أيضًا الرغبة في الخلاص من الجسد بمجرد أن يصيبه المرض أو أن تسوء الأمور. من بين هذين الوضعين

يتخذ المرء الوضع الذي يسعده أكثر في اللحظة الراهنة، وهذا هو كل ما في الأمر! ما دام المرء يستطيع الاختيار بين الاثنين، لا بأس. لكن بالنسبة إليَّ، لم يعد بإمكانى الاختيار، انتهى الرهان، كنت قد وصلت إلى لب الحقيقة، حتى إن موتي كان يتبعني إن جاز القول، خطوة بخطوة. كان من الصعب فعلاً أن أفكر في شيء آخر غير مصيري كقتيل مع إيقاف التنفيذ، الذي كان الجميع يرونه مع ذلك طبيعيًّا تمامًا بالنسبة إليَّ.

حالة الاحتضار المؤجلة هذه، التي يكون المرء فيها واعيًا وفي صحة جيدة، والتي يكون من المستحيل خلالها استيعاب أي شيء آخر غير الحقائق المطلقة، لا بد أن يكون المرء قد مر بها وتحمّلها حتى يعرف، وإلى الأبد، حقيقة ما يقال عنها.

كان ما توصلت إليه هو أن الألمان بوسعهم الوصول إلى هنا، ليبيدوا، يدمروا، يحرقوا كل شيء، الفندق، فطائر التفاح، لولا، حدائق التوليري، الوزراء، رفاقهم الصغار، متحف اللوفر، المحلات الكبرى، ينهالون على المدينة، يصبون عليها صواعق الرعب، نار الجحيم، في هذه الفوضى اللعينة، التي فعلاً لا يمكن أن يضاف إليها شيء أكثر حقارة، وأني لم يكن لديَّ مع ذلك ما أخسره، لا شيء، وأن بإمكاني أن أربح كل شيء.

لا يفقد المرء شيئًا هامًّا عندما يحترق منزل المالك، سيأتي دائمًا واحد آخر، إن لم يكن دائمًا الشخص نفسه، ألمانيًّا أو فرنسيًّا، إنجليزيًّا أو صينيًّا، ليبرز إيصاله، أليس كذلك؟ وبالمناسبة قد يكون بالماركات، أو الفرانكات؟ ما دام الدفع واجبًا.

باختصار، كانت الروح المعنوية منحطة إلى حد مرعب. لو كنت أخبرتها، لولا، ما أظنه بشأن الحرب، لعدَّتني وحشًا بكل بساطة، وحرمتني هبات مودتها الرقيقة، وعليه فقد صرت أحاذر من ذلك، من الاعتراف لها بذلك. من ناحية أخرى، فقد مررت ببعض المصاعب، كما عانيت أيضًا من بعض المنافسات.

ظل بعض الضباط يحاولون استلابها، لولا. كانت منافستهم رهيبة، متسلحين، كما كانوا، بإغراءات أوسمة "جوقة الشرف" التي كانوا يحملونها، إذ أُخذ في الحديث كثيرًا عن وسام الشرف الشهير في الجرائد الأمريكية، بل إنني قد ظننت أن علاقتنا كانت قد تهددت جدًّا، في المرتين أو الثلاث التي خانتني فيها، إن لم تكن تلك الطائشة قد اكتشفت في شخصي فجأة وفي الوقت نفسه ميزة إضافية، تلك المتمثلة في تذوقي للفطائر بدلاً منها في كل صباح.

أنقذني تخصص اللحظة الأخيرة هذا. من جهتها، كانت قد قبلت بالاستبدال. ألم أكن أنا أيضًا مناضلاً شجاعًا، وبالتالي جديرًا بهذه المهمة التي تقتضي الثقة؟ من ذلك، لم نعد عاشقين فقط، إنما شريكين. هكذا ابتدأت الأزمنة الحديثة.

بالنسبة إليَّ، كان جسدها متعة لا تنتهي. لم أكن أكتفي قط من قطعه مرارًا ذلك الجسد الأمريكي. كنت بالفعل خنزيرًا فاسقًا. وظللت كذلك.

بل إنني دربت نفسي على هذه القناعة المبهجة جدًّا والمحفزة بأن بلدًا قادرًا على إنتاج أجساد بمثل هذه الجرأة في رشاقتها، سمو روحي بهذا الإغواء، لا بد أنه يتيح كثيرًا من التجليات الجوهرية الأخرى بالمعنى البيولوچي الذي يبرع فيه.

قررت، لطول ما داعبت جسد لولا، القيام عاجلاً أو آجلاً بزيارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، كرحلة حج حقيقية، بمجرد أن يمكن ذلك. في الواقع، لم أكن قد حظيت بأية رحلة أو هدنة (عبر حياة كانت مع ذلك معاكسة ومضنية بلا رحمة) قبل قيامي بهذه المغامرة العميقة، التشريحية على نحو صوفي.

هكذا تلقيت مستلقيًا بالقرب جدًّا من مؤخرة لولا رسالة من عالم جديد. لم تكن لولا تمتلك فقط جسدًا جميلاً، لنتفق في هذا، كانت تزدان أيضًا بوجه

جميل، لطيف، وقاسٍ بعض الشيء بسبب عينيها الزرقاوين الرماديتين اللتين كانتا ترتفعان قليلاً عند زاويتيهما، كعيون القطط البرية.

مجرد رؤيتها أمامي كانت تتسبب في أن يتحلب ريقي في فمي كما يفعل طعم النبيذ، حجر الصوان. عينان قاسيتان، باختصار، لا تأتلقان أبدًا بذلك المرح التجاري البشوش، الذي نراه في لوحات الشرقيين ولوحات فراجونارد، الذي تتوقد به تقريبًا أعين كل من يعيشون هنا.

في غالب الأحيان كنا نلتقي في مقهى قريب. كان الجرحى، الذين تتزايد أعدادهم شيئًا فشيئًا، يجرجرون أقدامهم في الشوارع، في ثيابهم المهلهلة غالبًا. نُظمت لصالحهم حملات جمع تبرعات -"أيام" - من أجل هؤلاء هنا وهناك، وخصوصًا لصالح منظمي تلك "الأيام". الكذب، المضاجعة، الموت.. صار القيام بشيء غير ذلك ممنوعًا، يُمارَس الكذب برغبة مسعورة تتجاوز الخيال، تتجاوز العبث والسخرية بكثير، على صفحات الجرائد، في لوحات الإعلان، مشيًا، على صهوات الجياد، في العربات. انغمس فيه الجميع. الجائزة لمن كان يكذب أكثر من الآخر. بعد قليل، لم تعد هناك حقيقة في المدينة.

القليل الذي كنا نراه فيها عام 1914، صرنا نخجل منه الآن. كل ما كنا نلمسه كان مغشوشًا، السكر، الطائرات، النعال، المربيات، الصور الفوتوغرافية، كل ما كنا نقرؤه، نأكله، نمتصه، نعجب به، نلعنه، نطالب به، ندحضه، ندافع عنه، لم يكن كل هذا سوى أشباح حاقدة، خدع، مظاهر كاذبة. حتى الخونة أنفسهم كانوا زائفين. صار الكذب وتصديقه معديًا مثل الجرب. لم تكن لولا الجميلة تعرف من الفرنسية إلا بعض العبارات، غير أنها كانت عبارات وطنية: "سوف ننال منهم"، "أقبل ياماديلون"، أمر يستدعي البكاء.

هكذا راحت تنكب على موتنا بعناد، بوقاحة، مثل كل النساء على أي حال، منذ أن حلت صرعة أن تكون شجاعًا من أجل الآخرين.

ثم إني كنت تحديدًا الذي اكتشفت في نفسي ميلاً كبيرًا إلى كل الأشياء التي كانت تبعدني عن الحرب! كنت أسألها في مرات عديدة عن بعض المعلومات عن أمريكا التي تنتمي إليها، لولا، لكنها لم تكن تجيب حينذاك إلا بتعليقات غامضة تمامًا، متكلفة، وملتبسة على نحو ملحوظ.

غير أني كنت أحاذر آنذاك من الانطباعات. لقد خدعني الانطباع مرة، لن ينال مني أحد بعد ذلك بمعسول الكلام. لا أحد.

كنت أصدق جسدها، لم أكن أصدق روحها. كنت أعدها فخًّا ساحرًا، بعكس الحرب، بعكس الحياة.

اجتازت لولا فترة ضيقي بعقلية جرائد تلك الأيام: لو بُتي چورنال(13) Le petit Journal: بومبون Pompon، فانفار Fanfare، ما لُورين ma Lorraine، والقفازات البيضاء gants blancs. في غضون ذلك كنت أقدم إليها مجاملاتي الحسية في أوقات أكثر تقاربًا، لأني كنت قد أكدت لها أن هذا سوف يمنحها النحافة، غير أنها كانت تعتمد في الوصول إلى ذلك بالأحرى على جولاتنا الطويلة. في ما يخصني، كنت أكرهها، تلك الجولات الطويلة. لكنها كانت تصر.

(13) Le petit Journal، جريدة عنصرية و رجعية كانت واسعة الانتشار قبل الحرب. (المترجم)

على نحو رياضي للغاية، كنا نرتاد غابة "بولونيا"، عدة ساعات، بعد ظهر كل يوم "طواف البحيرات".

الطبيعة شيء مرعب، حتى عندما يجري ترويضها بقوة، كما هي الحال في الغابة، فإنها تظل تسبب لأهل المدن الحقيقيين نوعًا من الضيق، فيستسلمون عندئذٍ للبوح بسهولة كبيرة. لا يضاهي غابة بولونيا شيء -رطبة تمامًا، محاطة بالأسوار، جرداء، متسخة كما هي - في حمل الذكريات على التدفق بنحو لا يمكن إيقافه، عند أهل المدن المتنزهين بين الأشجار. لم تفلت لولا من

هاجس البوح المحزن هذا، روت لي ألف شيء.. صادقًا تقريبًا، ونحن نجول هكذا، عن حياتها في نيويورك، وعن صديقاتها المقربات هناك.

لم أتمكن من تمييز ما يمكن تصديقه تمامًا، وسط هذه اللُّحمة المتداخلة المعقدة من الدولارات، حالات الخطوبة، الانفصال، شراء الأثواب والمجوهرات التي بدا لي أن حياتها تفيض بها.

كنا قد انطلقنا في ذلك اليوم صوب حلبة السباق. أيامها، كنا لا نزال نصادف في تلك الأنحاء كثيرًا من عربات الحنطور وأطفالاً على ظهور الحمير وأطفالاً آخرين يثيرون الغبار، سيارات تغص بجنود في إجازة، لا يتوقفون عن البحث، في الممرات الضيقة، عن نساء شاردات، بين ميعاد قطارين، مثيرين مزيدًا من الغبار، مُتعجلين الذهاب لتناول العشاء وممارسة الحب، مهتاجين، لزجين، مترصدين، يضغط على أعصابهم الوقت الذي لا يرحم والرغبة في الحياة. يتصببون عرقًا من الشوق ومن حرارة الجو أيضًا.

كان الاعتناء بالغابة أقل مما هو معتاد. مهملة، معطلة إداريًّا.

"لا بد أن هذا المكان كان جميلاً جدًّا قبل الحرب. أشارت لولا. لا بد أنه كان أنيقًا. أخبرني يا فردينان.. السباقات هنا، هل كانت مثل عندنا في نيويورك؟"

الحقيقة أني لم أكن قد ذهبت إلى سباقات الخيل، قبل الحرب، غير أني ابتكرت لها على الفور -حتى أبهجها - مئات التفاصيل التصويرية حول هذا الموضوع، مستعينًا بما روي لي من هنا وهناك. أثواب السيدات، الأنيقات، السيارات الكوبيه -ذات المقعدين - اللامعة، انطلاق السباقات، الأبواق المبتهجة المقصودة، قفزة النهر، رئيس الجمهورية، نوبات حمى الرهانات، إلخ.

راقها بشدة وصفي المثالي لدرجة أن تلك الرواية قد قربت بيننا. منذ تلك اللحظة اعتقدت أنها قد اكتشفت على الأقل أن هناك ميلاً مشتركًا بيننا،

مستترًا تمامًا عندي، الميل إلى حب الاحتفالات الاجتماعية. لدرجة أنها قد قبَّلتني تلقائيًّا من شدة انفعالها، وهو ما كان يحدث نادرًا لها، يجب عليّ الاعتراف بذلك، ثم مستها أحزان الأشياء التي ولت أيامها. كلٌّ يبكي الوقت الذي انقضى على طريقته. كانت لولا تشعر بمضي السنين من خلال الموضات التي انتهت.

سألتني: "فردينان، هل تعتقد أن سباقات آتية سوف تقام في هذه الحلبة؟"

"عندما تنتهي الحرب، بلا شك.. لولا".

"لكن ذلك ليس مؤكدًا. أليس كذلك؟"

"نعم، غير مؤكد".

هذا الاحتمال بألا تعود هناك أبدًا أي سباقات أخرى في حلبة "لونشان" كان يربك لولا. إن حزن العالم يتملك الكائنات كيفما استطاع، لكن يبدو أنه يتوصل إلى تملكهم على نحو دائم تقريبًا.

"تخيل أن الحرب ستدوم طويلاً، فردينان، سنوات مثلاً، ساعتها سيكون الأوان قد فات لأعود إلى هنا. هل تفهمني يا فردينان؟ إنني أعشق، كما تعلم، الأماكن الجميلة مثل هذه، الاجتماعية جدًّا، الأنيقة جدًّا. سيكون الأوان قد فات، ربما للأبد. سوف أكون عجوزًا آنذاك يا فردينان. عندما تُستأنَف السباقات سأكون قد صرت عجوزًا بالفعل، سوف ترى، أشعر أن الوقت سيكون قد فات".

ها هي تعود إلى حزنها، كما كانت بسبب الرطلين الزائدين. سقت إليها، حتى أطمئنها، كل ما استطعت تخيله من الآمال. قلت لها إنها ليست إلا في الثالثة والعشرين ليس أكثر، إن الحرب ستنقضي سريعًا، إن الأيام البهيجة سوف تعود -مثلما كانت في الماضي - أجمل مما كانت، على الأقل بالنسبة إليها،

فجميلة مثلها سوف تعوضه بلا خسائر ذلك الوقت الضائع. عبارات الإعجاب والإطراء والغزل لن تنقصها قريبًا. وحتى ترضيني تظاهرت بأنها لم تعد تشعر بالأسى.

سألتني: "هل نواصل السير؟"

"من أجل التخسيس؟"

"آه، هذا صحيح، لقد نسيت ذلك".

غادرنا لونشان، كان الصغار قد غادروا الجوار. لم يعد هناك سوى الغبار. ما زال الجنود (في عطلاتهم القصيرة) يسعون خلف السعادة، يطاردونها، لكن خارج الغابات الآن، يلاحقونها بين شرفات مقاهي (بورت مايوه).

سرنا باتجاه سان كلو، بمحاذاة الضفاف التي غشيتها هالة متراقصة من الضباب المتصاعد من قلب الخريف.

قرب الجسر، كانت مقدمات بعض صنادل النقل تكاد تلامس القناطر، وقد غاصت عميقًا في المياه، حتى سطوح ظهورها، بفعل حمولات الفحم.

خضرة المتنزه تنشر مروحتها الهائلة فوق الأسيجة. كان لتلك الأشجار أثر الأحلام الكبيرة ورحابتها العذبة، غير أني كنت أحاذر من الأشجار منذ عرفت مكائدها ووقعت في شراكها. خلف كل شجرة قتيل. كان الممشى الطويل يصعد بين صفين من أشجار الورد، نحو النوافير. إلى جوار "الكشك"، بدت بائعة المشروبات الغازية العجوز كأنها تجمع كل ظلال المساء حول تنورتها. على البعد تماوجت فوق دروب الجوار تلك المكعبات الكبيرة والمستطيلات المغلفة بأقمشة داكنة، أكواخ عيد باغتته الحرب هنا فغرق في الصمت فجأة.

قالت لنا العجوز (بائعة مشروبات الصودا): "ها هو عام قد مضى منذ أن رحلوا! الآن لم يعد يمر من هنا شخصان في النهار. أنا ما زلت أحضر بحكم

العادة. كنا نرى كثيرًا من الناس هنا".

لم تكن العجوز تدرك شيئًا عن بقية كل ما جرى، لا شيء غير ما روته. أرادت لولا أن نمر بتلك الخيام الخاوية، غريبة كانت تلك الرغبة الأسيانة التي اعترتها.

أحصينا منها قرابة العشرين، كانت خيامًا مستطيلة تزدان بالمرايا، أخرى صغيرة أكثر منها عددًا، معامل حلوى موسمية صغيرة مغلقة، يانصيب، بل كان هناك مسرح صغير تخترقه تيارات الهواء من كل جانب، أكواخ بين الأشجار، في كل مكان، كان أحدها، بالقرب من الممشى الكبير، قد فقد حتى ستائره، مكشوفًا كسرٍّ قديم.

كانت الخيام تميل بالفعل نحو الأغصان والطين. توقفنا طويلاً أمام الأخيرة، تلك التي كانت تميل أكثر من الأخرى وتتأرجح على أوتادها في الريح، كمركب نزق الأشرعة، على وشك أن يقطع آخر حباله. كانت تترنح، يهتز قماش حاجزها الأوسط في الريح الثائرة، يهتز نحو السماء، فوق السقف. على الواجهة قرأنا اسمها القديم مكتوبًا باللونين الأخضر والأحمر، كانت خيمة للرماية. (منصة الأمم)، كان ذلك اسمها.

لم يعد هناك أيضًا من يحرسها الآن. ربما كان صاحبها يطلق النار الآن مع الزبائن.

كم تلقت هذه الأهداف الصغيرة في تلك الخيمة من طلقات! كانت مغطاة كلها بالنقاط البيضاء الصغيرة! من قبيل المزاح، كانت الأهداف تمثل حفل عرس: في الصف الأمامي، كان هناك شخوص من الزنك، العروس بزهورها، ابن العم، الجندي، الخطيب بوجهه الأحمر السمين، ثم في الصف الثاني يوجد المدعوون أيضًا، الذين كان لا بد من قتلهم عدة مرات عندما كان العيد لا يزال قائمًا.

"أنا متأكدة من أنك لا بد أن تجيد الرمية، فردينان".

"كلا، أنا لا أحسن التصويب تمامًا".

في الصف الأخير خلف حفل الزفاف، كان هناك صف آخر من الشخوص ملطخة الألوان، دار العمودية وفوقها سارية العلم. عندما كانت الخيمة تعمل، كان لا بد أيضًا من إطلاق النار على دار العمودية، على النوافذ التي كانت تُفتح حينذاك تصاحبها صلصلة جرس صغير، بل كان التصويب يجري صوب العلم الصغير المصنوع من الزنك، ثم على الكتيبة التي تستعرض منحدرة على جانب المشهد، مثل كتيبتي في ميدان كليشي، لكن تلك الأخيرة كانت تمر وسط الصفير والبالونات الصغيرة. على كل هذا كان الرصاص يطلق قدر المستطاع، أما الآن فيطلق عليَّ، أمس، غدًا.

"عليَّ أيضًا أطلقت النيران يا لولا!" لم أستطع منع نفسي من الصراخ فيها.

"تعالَ". أشارت إليَّ. "أنت تقول كلامًا فارغًا، فردينان، سوف يصيبنا البرد".

انحدرنا ناحية سان كلو عبر الممشى الملكي، الكبير، محاولين تفادي وحل الطريق، كانت تمسك بيدي، كفها كانت صغيرة للغاية، غير أني لم أعد قادرًا على التفكير في شيء آخر سوى عرس الزنك في منصة الرماية في الأعلى، الذي تركناه في عتمة الممشى. كنت قد نسيت حتى أن أقبّلها، لولا، كان الأمر أقوى مني. شعرت بغرابة شديدة، بل ظننت أن رأسي، منذ الآن فصاعدًا، قد فقد سكينته، بتلك الأفكار التي تسكنه.

عندما وصلنا إلى جسر سان كلون كانت العتمة قد أطبقت تمامًا.

"فردينان، أتود أن تتناول العشاء في مطعم دوڤال(14)؟ أنت تحبه كثيرًا. مطعم دوڤال.. ربما يغير ذلك أفكارك، دائمًا ما يصادف المرء هناك كثيرًا من

الناس، إلا إذا كنت تفضِّل أن تتناوله في غرفتي؟" عمومًا، كانت لولا ودودًا للغاية في ذلك المساء.

(14) Duval، وُجد العديد من مطاعم "دوڤال" الشعبية التي تقدم طعامًا لائقًا لقاء سعر مناسب. (المترجم)

في النهاية وقع اختيارنا على مطعم دوڤال، لكن ما إن جلسنا إلى المائدة حتى بدا لي المكان جنونيًّا. كل الجالسين في الصفوف حولنا تركوا لدي الانطباع بأنهم كانوا يتوقعون هم أيضًا أن تنقض الطلقات عليهم من كل مكان وهم يتناولون طعامهم.

"اذهبوا من هنا جميعًا!" قلت لهم محذرًا. "اهربوا! سوف يطلقون عليكم النار! يقتلونكم! يقتلوننا جميعًا!"

أُخذت إلى الفندق الذي تقيم فيه لولا، بسرعة. كنت أرى الشيء نفسه في كل مكان. بدا كل من يتدفقون في أروقة فندق باريتز كأنهم ماضون إلى حيث تُطلَق عليهم النار، والموظفون خلف الخزينة الكبيرة هم أيضًا قد خُلقوا من أجل هذا، حتى ذلك الرجل بالأسفل، أمام مدخل الباريتز، بزيه الأزرق بلون السماء والذهبي كالشمس، البواب، كما يُطلَق عليه، ثم بعض العسكريين، ضباط يجولون، چنرالات، أقل منه وسامةً بكل تأكيد، لكنهم في زيهم الرسمي على أي حال، إطلاق نار كثيف، لن ينجو منه أحد، لا من هؤلاء ولا من الآخرين. لم يعد الأمر مزحة.

"سوف يطلقون النار!" صرخت فيهم بأقوى ما استطعت، وسط قاعة الاستقبال الكبرى. "سوف يطلقون النار! لتهربوا إذًا جميعًا". ثم صرخت بذلك أيضًا عبر النافذة. تسلّط ذلك عليَّ. كانت فضيحة حقيقية. قيل: "جندي مسكين!" بكل رفق، رافقني البواب إلى المشرب (البار)، ودعاني للشراب فشربت كثيرًا، ثم جاء رجال الدرك في نهاية الأمر لاصطحابي، كان هؤلاء

أكثر عنفًا. في منصة الأمم أيضًا كان هناك رجال درك. لقد رأيتهم. قبَّلتني لولا وساعدتهم على اقتيادي وقيودهم في يدَي.

ساعتها سقطت مريضًا، محمومًا، مصابًا بالجنون، هذا ما قالوه في المستشفى، بسبب الخوف. كان ذلك جائزًا. أفضل ما يمكن عمله عندما نكون في هذا العالم أن نخرج منه.. أليس كذلك؟ مجنونًا أولاً، خائفًا أو غير خائف.

الفصل 9

المقطع السادس

إنه يثير بعض المشكلات. قال البعض: "هذا الفتى، إنه من الفوضويين، ولذا سوف يُعدَم رميًا بالرصاص، هذا هو الوقت المناسب، فورًا، ليس هناك ما يدعو إلى التردد، لا يجب أن نتلكأ ما دمنا في الحرب". لكن من بينهم كان هناك آخرون، أكثر صبرًا، كانوا يتمنون فقط أن أكون مصابًا بالزهري ومجنونًا بالحق فعلاً وأن أُسجن بناءً على ذلك حتى يحل السلام، أو على الأقل طوال بضعة أشهر، لأنهم، هؤلاء غير المجانين، المتمتعين بكل صوابهم، كما يقولون، يريدون علاجي، ما داموا وحدهم فقط من يحاربون.

هذا يثبت أنه من أجل أن تُعد عاقلاً لا بد أن تكون على قدر هائل من الوقاحة. عندما يكون المرء صفيقًا بحق، يكون ذلك كافيًا ليصبح كل شيء تقريبًا متاحًا له، كل شيء على الإطلاق، الغالبية في صالحه، والغالبية هي من تقرر من المجنون ومن غير ذلك.

غير أن تشخيص حالتي ظل ملتبسًا للغاية، وعليه قررت السلطات وضعي تحت المراقبة خلال بعض الوقت. حصلت صديقتي الصغيرة لولا على الإذن بزيارتي عدة مرات، وأمي أيضًا. هذا كل ما جرى.

جرى تسكيننا، نحن الجرحى المشوشين، في إحدى المدارس الثانوية بضاحية إسي لييه مُولينوIssy-les-Moulineaux، التي أُعدت خصوصًا لاستقبال من هم على شاكلتي من الجنود، الذين كان مثالهم الأعلى مشوشًا فقط أو فاسدًا تمامًا، ودفعهم برفق أو بعنف، وفق ما تقتضي الحالة، إلى الاعتراف. لم نكن نلقى معاملة سيئة على الإطلاق، لكننا مع ذلك كنا نشعر طوال الوقت بأننا

مراقبون من قِبل طاقم من الممرضين الصامتين أو أصحاب الآذان الكبيرة المرهفة. بعد فترة من الخضوع لهذه المراقبة، كنا نخرج سرًّا، لنمضي، سواء إلى مستشفى المجاذيب أو إلى الجبهة أو، في كثير من الأحيان أيضًا، إلى منصة الإعدام.

من بين الرفاق المتجمعين في هذه المراكز المشبوهة، كنت أتساءل دومًا: أي من هؤلاء المتهامسين في قاعة الطعام كان في طريقه إلى الاختفاء؟

بالقرب من السياج، عند المدخل، تقطن البوابة في مسكنها الصغير، التي كانت تبيعنا سكر النبات، حلوى الشعير والبرتقال، وفي الوقت نفسه كل ما يلزم لحياكة الأزرار. فضلاً عن ذلك، كانت تبيعنا المتعة. بالنسبة إلى ضباط الصف، كانت ممارسة الحب لقاء عشرة فرنكات. كان ذلك في متناول الجميع. لكن مع الحذر من الأسرار التي يباح بها بسهولة جدًّا في تلك اللحظات. كان من الممكن أن تكلف تلك المكاشفات غاليًا. ما كان يقال لها سرًّا، كانت تعيده أمام كبير الأطباء، بمنتهى الدقة والتفصيل، كان ذلك ينتقل إلى ملفك، لتمثل أمام محاكمة عسكرية. يبدو أنه كان من المؤكد فعلاً أنها قد تسببت هكذا، بفضل تلك الاعترافات، في إعدام عريف من سلاح الفرسان (في شمال إفريقيا)، لم يكن قد بلغ العشرين من عمره، إضافة إلى أحد جنود الاحتياط في سلاح المهندسين، الذي كان قد ابتلع عدة مسامير ليؤذي معدته، ثم مهووس آخر أيضًا، كان قد روى لها كيف يدبر نوبات الشلل التي كانت تصيبه في الجبهة. أما أنا، وحتى تختبرني، فقد عرضت عليَّ ذات مساء دفتر رب أسرة له ستة من الأبناء، كان قد مات، كما قالت، وذلك قد يفيدني في الانتقال إلى الخطوط الخلفية. باختصار، كانت تعشق الجنس. في الفراش مثلاً، كان الأمر صفقة رابحة، كنا نعود إليها وكانت تغدق علينا البهجة فعلاً. كعاهرة، كانت عاهرة حقيقة، فضلاً عن أن ذلك كان ضروريًّا لبلوغ ذروة النشوة، في طبخة الجنس تلك، كان التهتك، على أي حال، كالفلفل في الحساء الجيد، أمرًا لا غنى عنه، كما يحسن من قوامه.

تنفتح مباني المدرسة الثانوية على شرفة واسعة جدًّا، تبدو ذهبية في الصيف، وسط الأشجار، وتبدو باريس منها رائعة الجمال في ما يشبه مشهدًا بديعًا. هناك، كان زائرونا ينتظروننا كل خميس، لولا من بينهم، آتية لتحمل إليَّ بانتظام حلوى ونصائح وسجائر.

أطباؤنا، كنا نراهم في الصباح. يسألوننا في رفق، لكننا لم نكن نعرف قط ما كان يدور في رؤوسهم بالضبط. كانوا يجولون حولنا في هيئات بادية البشاشة دائمًا، يصدرون أحكام إعدامنا.

كثير من المرضى، من بين مَن كانوا تحت الملاحظة هناك، كانوا قد وصلوا، لأنهم أكثر عاطفية من الآخرين، في ذلك المكان متكلف الرقة، إلى حالة من السخط الشديد، حتى إنهم كانوا يقومون في الليل، بدلاً من النوم، يذرعون عنبر النوم طولاً وعرضًا، معترضين بصوتٍ عالٍ على وساوسهم، موزعين بين اليأس والرجاء، كما لو كانوا على جرف جبلي مشرف على السقوط. كانوا يتألمون أيامًا وأيامًا على هذا النحو ثم يتهاوون، ينهارون ذات مساء مرة واحدة إلى أسفل سافلين ويهرعون إلى كبير الأطباء معترفين له بكل ما يخفونه من أمور. أنا الآخر أيضًا، لم أكن مطمئنًا. لكن عندما يكون المرء ضعيفًا، فإن ما يمنحه القوة هو أن يجرد أكثر مَن يخافهم من الرجال من أي خوف أو نفوذ ما زال يميل إلى إضفائه عليهم. يجب أن يتعود أن يراهم كما هم، أي أسوأ مما هم عليه، من جميع الوجوه. هذا الفعل يحرركم، يعتقكم، يحميكم إلى حد يتجاوز كل ما يمكن تصوره. يمنحكم ذاتًا أخرى. يصبح الشخص اثنين.

أفعالهم، منذ تلك اللحظة، لا تعود لها عليكم تلك الجاذبية الباطنية الحقيرة التي تضعفكم وتجعلكم تفقدون أوقاتكم، ولا يعود نفاقهم حينذاك أكثر من ترضية لكم وأكثر نفعًا في شفائكم من نفاق أحقر خنزير.

إلى جانبي، في السرير المجاور، يرقد عريف، متطوع هو الآخر، قبل شهر أغسطس، كان معلمًا في إحدى المدارس الثانوية في مدينة تورين، حيث كان يدرِّس -كما أخبرني - التاريخ والجغرافيا. بعد عدة أسابيع من الحرب، تكشف هذا المعلم عن لص لا مثيل له. لم يعد من الممكن منعه من سرقة علب الطعام المحفوظ من قافلة تموين كتيبته، من شاحنات القيادة، من احتياطات مؤن الفرقة، ومن أي مكان آخر يجدها فيه.

لذلك، انتهت به الحال إلى هناك.. معنا، شاردًا قيد نظر المحكمة العسكرية، لكن، بينما كانت أسرته تسعى جاهدة لإثبات أن القذائف قد أفقدته صوابه، أصابته بالخبل وحطمت معنوياته، كانت التحقيقات تؤجل محاكمته من شهر إلى آخر. لم يكن يتحدث معي كثيرًا. كان يمضي الساعات في تمشيط لحيته، لكن عندما كان يكلمني، كان الحديث يبدو تقريبًا حول شيء واحد باستمرار، عن الطريقة التي اكتشفها حتى لا تحمل منه زوجته بعد ذلك. هل كان مجنونًا حقًّا؟ عندما يأتي زمن العالم المختل ويكون من الجنون أن تسأل لماذا تُقتَل، يصبح من البدهي أن يعد المرء مجنونًا دون عناء كبير. فضلاً عن ذلك، فلا بد أن يفلح ذلك، لكن عندما يتعلق الأمر بتفادي حالة التمزق الكبرى، تجري في عقول البعض محاولات رائعة للتخيل.

كل الأشياء الهامة تجري في الظل، في الخفاء، بالتأكيد. إننا لا نعرف شيئًا عن التاريخ الحقيقي للبشر.

برانشار Princhard، كان يسمى (ذلك المعلم). ماذا يمكن أن يكون ما قرره، برانشار، لينقذ أوداجه ورئتيه وأعصابه البصرية؟ هذا هو السؤال الجوهري، السؤال الذي كان ربما من الواجب أن يُطرح في ما بيننا نحن البشر لنظل بشرًا وعمليين بمعنى الكلمة. لكننا كنا بعيدين عن ذلك، مترنحين في مثل أعلى للحماقة، تحكمنا تقاليد عدوانية ومختلة، فئرانًا مختنقة بالدخان، كنا نحاول، بجنون، الخروج من سفينة النار، لكنا لا نمتلك أي خطة للعمل معًا، أي

ثقة للواحد بالآخر. خبّلتنا الحرب، صرنا مجانين، من نوع آخر: إنه جنون الخوف. ظاهر الحرب وباطنها.

على أي حال، ظل برانشار هذا يُظهر نحوي، في ظل ذلك الهذيان المشترك، تعاطفًا ما، مع احتراسه مني في الوقت نفسه، بكل تأكيد.

أينما وُجدنا، في أي مكان كنا نقيم فيه معًا، لم يكن ممكنًا أن توجد صداقة ولا ثقة. لم يكن أحد ينطق إلا بما يعتقد أنه صالحه، نظرًا إلى أن الوشاة المترصدين كانوا سينقلون كل شيء، أو "تقريبًا" كل شيء.

من حين إلى آخر، كان أحدنا يختفي، ذلك لأن تحقيقات قضيته تكون قد اكتملت وانتهت إلى المحكمة العسكرية، في "بيربي Biribi" أو إلى الجبهة، وبالنسبة إلى الأوفر حظًّا إلى مصحة كلامار Clamar.

ظل مقاتلون مريبون يتوافدون أيضًا، باستمرار، من كل الأسلحة، شبان يافعون ورجال على أعتاب الكهولة، يغمرهم الخوف أو الغرور، كانت نساؤهم وآباؤهم يأتون لزيارتهم، أبناؤهم أيضًا، محملقي العيون، يوم الخميس.

كل هؤلاء الناس كانوا يبكون بحرقة، في قاعة الاستقبال، خصوصًا مع حلول المساء. عجز العالم في الحرب، كان يأتي لينتحب هناك، عندما تغادر النساء والصغار، عبر الرواق شاحب الضوء بمصابيحه الغازية، بانتهاء الزيارات، وهم يجرجرون أقدامهم، مكونين قطيعًا كبيرًا من المنتحبين المقززين، ليس أكثر.

بالنسبة إلى لولا، كان المجيء لزيارتي في ذلك المكان الذي يشبه السجن مغامرة أيضًا، نحن الاثنان، لم نكن نبكي، لم يكن لدينا أي مكان نغترف منه بعض الدموع.

"هل صحيح أنك صرت مجنونًا بحق يا فردينان؟" سألتني ذات خميس.

"أنا كذلك بالفعل!" اعترفت لها.

"إذًا، هل سيعالجونك هنا؟"

"الخوف لا يعالج يا لولا".

"أخائف أنت إلى هذا الحد؟"

"وأكثر من هذا أيضًا يا لولا، خائف، لو تعرفين، إلى حد أنني إذا مت موتًا طبيعيًّا، فيما بعد، فإني لا أريد على وجه الخصوص أن يحرقوني! أريد أن يتركوني في الأرض، أتحلل في قبري، في سلام، هناك، مستعدًّا للبعث ربما من جديد. من يدري! بينما لو أُحرقت وصرت رمادًا يا لولا، سيكون الأمر قد انتهى تمامًا، كما تعرفين، تمامًا، الهيكل العظمي، على أيه حال، يظل يشبه الشخص قليلاً.. إنه أكثر استعدادًا للعودة إلى الحياة من الرماد.. الرماد يعني أن كل شيء قد انتهى! ما رأيك في هذا إذًا؟ أليس كذلك؟ الحرب.."

"أوه، أنت جبان تمامًا إذًا، فردينان، أنت مقزز كفأر".

"نعم، جبان تمامًا يا لولا، أنا أكره الحرب وكل ما فيها.. أنا لا أرثى لها، أنا لا أستسلم لها، لا أتباكى عليها، أنا أرفضها بكل صراحة ووضوح، مع كل الرجال الذين تضمهم، لا أريد أن تكون لي أي صلة بهم، بها. ولو كانوا تسعمئة وخمسة وتسعين مليونًا وأنا وحدي. إنهم هم المخطئون يا لولا، وأنا على صواب، لأني الوحيد الذي يعرف ما أريد: لم أعد أريد أن أموت".

"لكن من المستحيل رفض الحرب يا فردينان! فليس هناك سوى المجانين والجبناء الذين يرفضون الحرب عندما يكون الوطن في خطر".

"ليحي المجانين والجبناء إذًا. أو بالأحرى فليبقَ المجانين والجبناء على قيد الحياة! هل تتذكرين اسمًا واحدًا على سبيل المثال من هؤلاء الجنود الذين قُتلوا في أثناء حرب المئة عام؟ هل سعيتِ مرة إلى معرفة واحد فقط من هذه الأسماء؟ كلا، أليس كذلك؟ أنتِ لم تحاولي مطلقًا؟ إنهم مجهولون

بالنسبة إليكِ، تافهون، وأقل شأنًا من آخر ذرة في ثقالة الورق الموجودة أمامك هذه، من حاجتك التي تقضينها في الصبح.. أنتِ ترين جيدًا أنهم قد ماتوا مجانًا يا لولا! من أجل لا شيء على الإطلاق، هؤلاء الحمقى! أؤكد لكِ ذلك! لقد أقيم الدليل! ليس هناك ما يعتد به سوى الحياة. بعد عشرة آلاف عام من الآن، أراهنك أن هذه الحرب، بقدر ما تبدو الآن باهرة في أعيننا، سوف تُنسى تمامًا.. ستظل هناك بالكاد حفنة من العلماء المتخصصيين يتشاجرون هنا وهناك بشأن مناسبتها وحول تواريخ المجازر الرئيسة التي اشتهرت بها. إن هذا هو كل ما نجح البشر حتى الآن في أن يجدوه جديرًا بالذكر بشأن بعضهم على بُعد عدة قرون، عدة سنوات بل وحتى عدة ساعات. أنا لا أومن بالمستقبل يا لولا".

عندما اكتشفت إلى أي حد صرت متبجحًا بحالتي المزرية، كفت عن أن تراني مستحقًّا للشفقة على الإطلاق.. عدتني شخصًا حقيرًا.. حكم نهائي.

قررت أن تفارقني على الفور.. بلا تردد. كان ذلك يفوق احتمالها. عندما رافقتني حتى بوابة ملجأنا في ذلك المساء.

يقينًا، كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تتقبل أن محكومًا عليه بالموت لم يكن قد تلقى في الوقت نفسه الدعوة الإلهية. عندما سألتها عن أخبار علاقتنا الخاصة، لم تجبني أيضًا.

لدى عودتي إلى العنبر، وجدت برانشار واقفًا أمام النافذة يجرب نظارة أمام ضوء الغاز وسط حلقة من الجنود. كانت تلك، فكرة قد واتته، كما قال لنا، على شاطئ البحر، في أثناء الإجازة، ونظرًا إلى أننا كنا في الصيف حاليًا، فقد كان ينوي أن يضعها خلال النهار، في المتنزه. كان هذا المتنزه شاسعًا ومراقبًا بصرامة من الجهة أخرى، من قِبل جماعة من الممرضين المنتبهين. في الغد، أصر برانشار وقتها على أن أرافقه إلى الشرفة لتجربة نظارته الجميلة. تألقت شمس بعد الظهر رائعة على برانشار، المحتمي خلف زجاج نظارته

المعتم.. لاحظت أن أنفه كان شفافًا تقريبًا عند فتحتيه وأنه كان يتنفس بسرعة واضطراب.

قال مكاشفًا: "يا صديقي، إن الوقت يمر ولا يعمل لصالحي. ضميري مغلق أمام التأنيب والندم، لقد تحررت، لله الحمد، من أشكال الحياء هذه.. ليست الجرائم هي ما يهم في هذا العالم.. لقد عُدل عنها منذ وقت طويل.. إن ما يهم هو الهفوات الصغيرة.. وأنا أعتقد أني قد ارتكبت واحدة.. لا سبيل إلى إصلاحها.. مطلقًا".

"بسرقة علب الطعام المحفوظ؟"

"نعم، كنت أظن ذلك ذكاءً، تصور! حتى أتملص من هذه المعركة بهذه الطريقة، مكللاً بالعار، لكن على قيد الحياة أيضًا. لأعود إلى حياة السلم كما يعود المرء، منهكًا، إلى سطح البحر بعد غوص طويل. لقد كدت أنجح بالفعل.. لكن الحرب تدوم أكثر مما يُحتمل.. لا نعود ندرك أنها تمتد بأشخاص منفرين إلى حد إثارة اشمئزاز الوطن.. لقد أخذ الوطن في تقبُّل كل القرابين، أينما جاءت، الأجساد كلها يقبلها الوطن.. لقد صار متهاونًا إلى ما لا نهاية في اختيار شهدائه، هذا الوطن. حاليًا، لم يعد هناك جنود جديرون بحمل السلاح، وخصوصًا بالموت تحت السلاح وبالسلاح.. سوف تجعل، آخر الأخبار، مني بطلاً! لا بد أن جنون المذابح قد صار قاهرًا ملحًّا على نحو استثنائي حتى يُشرع في الصفح عن سرقة علبة من الطعام المحفوظ! ماذا أقول؟ حتى أنسى ذلك! من المؤكد، أننا قد اعتدنا الإعجاب دائمًا بعتاة اللصوص، الذين يقدس العالم كله معًا ثراءهم والذين يبدو وجودهم مع ذلك، بمجرد تفحصه عن قُرب، كجريمة مستمرة تتجدد كل يوم، غير أن هؤلاء الناس يتمتعون بالمجد، الفخار والنفوذ، وتقر القوانين جرائمهم، أما نحن، وبقدر ما نبعد في رجوعنا إلى التاريخ -وأنت تعلم أني أتقاضى أجرًا لأعرف ذلك - فإن كل شيء يظهر لنا أن سرقة عارضة يمكن اغتفارها، خصوصًا سرقة أطعمة زهيدة، كالخبز ولحم الخنزير المملح أو الجبن، تجلب لمن قام بها العار الدامغ،

استنكار المجتمع القاطع، أقصى العقوبات، العار التلقائي، فضيحة لا يمكن التكفير عنها، وذلك لسببين، أولاً لأن من يقوم بمثل هذه الجرائم يكون في العادة شخصًا فقيرًا وأن هذه الحالة تفترض فيه شخصيًّا عوارًا جوهريًّا، ثم لأن فعلته تنطوي على ما يشبه التأنيب الضمني للمجتمع. السرقة التي يقوم بها الفقير تصبح استيلاءً فرديًّا خبيثًا، هل تفهمني؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ لذلك لعل ردع السرقات الصغيرة يجري، لاحظ ذلك، تحت كل الظروف، بكل صرامة، ليس فقط كوسيلة للدفاع الاجتماعي، لكن أيضًا وعلى نحو خاص كتوجيه حاسم صارم لكل الأشقياء بأن عليهم الالتزام بالبقاء في أماكنهم وفي طبقاتهم، هادئين، مستسلمين للموت، بسعادة، على مر القرون وإلى ما لا نهاية، فقرًا وجوعًا. ومع هذا فحتى الآن يتبقى لصغار اللصوص ميزة ما في الجمهورية، ميزة أن يُحرموا من شرف حمل السلاح الوطني. لكن ابتداءً من الغد، سوف تتغير هذه الأحوال، سوف أمضي ابتداءً من الغد، أنا.. اللص، لأستعيد مكاني في صفوف الجيش.. هذه هي الأوامر.. فلديَّ المراجع العليا، تقرر الصفح عما أسموه (لحظة جنوحي)، وهذا، تذكَّر جيدًا، مراعاةً لما أسموه أيضًا (شرف عائلتي). يا للسماحة! دعني أسألك أيضًا أيها الرفيق.. أهي عائلتي التي سوف تمضي بناءً على ذلك لتكون مصفاة وغربالاً للرصاصات الفرنسية والألمانية معًا؟ سأكون وحدي فقط، أليس كذلك؟ وعندما أموت، هل سيكون شرف عائلتي هو ما يبعثني من جديد؟ انظر، إني أراها من هنا في أيام الآحاد الصافية السعيدة.. بينما أرقد أنا تحت أقدامها لثلاثة أيام، أنا الوالد، يغمرني الدود، أكثر نتنًا بكثير من كيلوجرام من الغائط البشري ليوم الرابع عشر من يوليو، سوف يتعفن تمامًا بكل ما فيه من لحم.. إن تسميد خطوط محراث الفلاح المجهول هي المستقبل الحقيقي للجندي الحقيقي! آه، يا صاحبي! أؤكد لك أن هذا العالم ما هو إلا محاولة كبرى للاستهزاء بالناس. أنت ما زلت شابًّا. دقائق الحكمة هذه تعد سنوات بالنسبة إليك! اسمعني جيدًا، أيها الرفيق، لا تدع تلك الدلالة الجوهرية تمر دون أن تستوعب أهميتها جيدًا، تلك الدلالة التي تبرز منها كل صور النفاق الآثمة لمجتمعنا: (الشفقة على مصير ووضع البؤساء). أقول لكم ذلك، أيها السذج،

حمقى هذه الحياة، المسحوقون، المبتزون، الكادحون منذ الأزل، إني أحذركم، عندما يبدأ كبار هذا العالم في حبكم، فإن ذلك يعني أنهم سوف يحولونكم إلى وقود المعركة.. هذه هي الإشارة.. الأكيدة.. يبدأ الأمر بالعطف، لويس الرابع عشر Louis X IV على الأقل، كما نذكر، لم يعبأ بقطع كل صلة بعامة الشعب. أما لويس الخامس عشر، الشيء نفسه هو الآخر، كان يمسح بهم مؤخرته. لم نعش حياة طيبة في ذلك الوقت، بالتأكيد، لم يعش الفقراء قط حياة طيبة، لكننا لم نكن ننتزع أحشاءهم بهذا الإصرار وهذه القسوة التي نجدها لدى طغاتنا الآن. ليست هناك راحة للصغار، أؤكد لكم، إلا في احتقار الكبار الذين لا يمكن أن يفكروا في الشعب إلا من خلال مصالحهم أو من خلال التلذذ بتعذيبه. الفلاسفة، قد كانوا هم، لنتذكر هذا أيضًا ما دمنا في هذا الصدد، أول من بدأ في رواية الأكاذيب للشعب الساذج، الشعب الذي لم يكن يعرف تعاليم المسيحية! لقد شرعوا، كما أشاعوا، في تعليمه وتهذيبه. كم كان لديهم من حقائق يكشفونها له! كم كانت رائعة، وغير مستهلكة، حقائق متألقة، كم وقفنا عندها منبهرين تمامًا! نعم هذا هو المطلوب، هذا ما قاله الشعب أولاً، الشعب الساذج، هذا هو المطلوب حقًّا، هذا هو المطلوب تمامًا! لنمُت في سبيل ذلك! لم يسعَ قط إلا إلى الموت، هذا الشعب! هكذا كان الأمر (عاش ديدرو Diderot(15))! هتفوا أولاً ثم (براڤو ڤولتير Voltaire(16))! هاكم على الأقل ما يكفي من فلاسفة! (ليحي كارنو Carnot(17)) أيضًا الذي كان يجيد الاستعداد للانتصارات. ليحي الجميع! ها هم على الأقل رجال لا يتركونه يهلك في الجهالة والخرافة، الشعب الطيب، يرشدونه إلى سبل الحرية! يحررونه! لم يطل الأمر، ليتعلم الجميع أولاً قراءة الصحف! هذا هو طريق النجاة! ويحكم! وبكل سرعة! لا أميين بعد اليوم، لا يجب أن يبقى منهم أحد! لا أحد سوى جنود مواطنين! يدلون بأصواتهم، يقرؤون! يقاتلون! ويمضون قدمًا! يرسلون القبلات! لقد صار الشعب الطيب نتاجًا مدروسًا لهذا النظام السياسي. ألا يجدي التحمس للحرية إذًا نفعًا في شيء ما؟ دانتون Danton (18) لم يكن بليغًا سدى، ببعض الهتافات المؤثرة جدًّا، حتى إننا ما زلنا نسمعها، استنفره لكم بكل مهارة، الشعب الطيب! وسبب ذلك التحرك

الأول لأولى كتائب المتحررين المسعورين! أوائل المصوتين الحمقى وحملة الرايات الذين قادهم دومرييه (19) Dumouriez ليثقب الرصاص صدورهم في الفلاندر(20)Flandres! أما بالنسبة إلى دمورييه نفسه، القادم بعد فوات الأوان إلى تمثيلية المثالية الرخيصة هذه، المستحدثة بالكامل، الذي كان يؤثر المال عمومًا، فقد فر من الزحف. لقد كان آخر مرتزقتنا.. كان الجندي المجاني هذا أمرًا جديدًا. جديدًا تمامًا لدرجة أن جوتهGeothe وهو من هو، قد بهت لرؤيتهم، عند وصوله إلى ڤالمي Valmy.

(15) دوني ديدرو (5 أكتوبر 1713 - 13 يوليو 1784) فيلسوف وكاتب فرنسي اهتم بالمسرح والمقالات الفنية والكتابة الموسوعية (المترجم)

(16) فرانسو ماري آروييه الشهير بفولتير (31 نوفمير 1694 – 30 مايو 1778)، كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير. دافع عن الحريات المدنية خصوصًا حرية العقيدة والتعبير. نادى بالمساواة وكرامة الإنسان. (المترجم)

(17) سادي كارنو (1 يونيو 1796 – 24 أغسطس 1883) عالم فيزيائي ومهندس عسكري فرنسي. (المترجم)

(18) جورج دانتون (26 أكتوبر 1759 – 5 أبريل 1794) محامٍ وخطيب بارع من أهم زعماء الثورة الفرنسية. (المترجم)

(19) شارل فرانسو دومورييه (26 يناير 1739 فرنسا – 14 مارس 1823 بريطانيا) جنرال فرنسي شارك مع الجنرال فرانسو كرستوف كيلر مان في انتصار فالمي في أثناء حروب الثورة الفرنسية، انشق عن الجيش الثوري في أثناء حكم نابليون وأصبح ملكيًّا. اسمه مكتوب على قوس النصر في باريس. (المترجم)

(20) مقاطعة في بلجيكا دارت فيها معارك بين الجيش النابليوني وجيش ملك بلجيكا في أثناء حروب الثورة الفرنسية. (المترجم)

أمام هذه الحشود رثة الثياب وشديدة الحماس التي جاءت اليوم؛ ليقوم ملك بروسيا تلقائيًّا بنزع أحشائهم دفاعًا عن الوهم الوطني المستحدث، انتاب جوته الشعور بأن هناك كثيرًا من الأشياء التي يجب عليه تعلمها. هتف، بجلال، وفقًا للمأثور عن شخصه العبقري: (من هذا اليوم، يبدأ عصر جديد(21)!) لا ريب في ما يقول! فيما بعد! نظرًا إلى أن النظام كان رائعًا، فقد شرع في إنتاج أبطال بالجملة، كانت تكلفة إنتاجهم تقل شيئًا فشيئًا، بسبب كمال النظام. وجد الجميع لنفسه مكانًا فيه. بسمارك Bismarck، النابوليونان Napoléon، بَاريس Barrès، والفارسة إلزا Elsa(22)12 كذلك. حلت ديانة العَلم الأرضية محل الديانة السماوية، تلك السحابة القديمة التي أفرغها الإصلاح البروتستانتي والتي تكثفت منذ زمن طويل في حصّالات نقود الأساقفة، في ما مضى كان هتاف المتعصبين الرائج هو (المجد ليسوع)! إلى المحرقة، أيها الهراطقة! غير أنهم كانوا قلة ومتطوعين على أي حال، المهرطقين.. في حين أنه منذ الآن فصاعدًا، أينما كنا، فإن هتاف حشود هائلة: (إلى الموت، الخضراوات عديمة الألياف، الليمون الخالي من العصارة، القراء الأبرياء، بالملايين.. إلى اليمين انظر!) صارت هي التي تستثير البشر وميولهم. أما الرجال الذين لا يريدون تمزيق بطن أحد ولا اغتياله، المسالمون الأبالسة، فليقبض عليهم! ولتقطع أوصالهم! وليقتلوا أيضًا بثلاث عشرة طريقة ولتكن بطيئة وناجعة ومهينة! وحتى يتعلموا الحياة لننزع الأحشاء من أجسادهم أولاً، العيون من المحاجر، السنوات من حياتهم القذرة الحقيرة البلهاء! لنجلعهم يهلكون جماعة بعد أخرى، ينزفون دماءهم، يتبخرون في الأحماض، وكل هذا من أجل أن يصير الوطن بذلك محبوبًا أكثر، سعيدًا أكثر، لطيفًا أكثر! وإذا وُجد فيه بعض الأنجاس الذين يرفضون استيعاب مثل هذه الأشياء السامية، فليس أمامهم سوى أن يذهبوا ليُدفنوا بجوار الآخرين، لكن ليس إلى جوارهم تمامًا، ولكن في أقصى أطراف الجبّانة، تحت شاهدة قبور الجبناء عديمي المُثل

العليا، المشينة، لأنهم كانوا سوف يفقدون، هؤلاء الأنذال، الحق الجليل في جزء صغير من ظل النصب التذكاري الذي رست عليه المناقصة، الذي أقامته البلدية من أجل الموتى اللائقين به، في الممشى الأوسط، كما كانوا سوف يفقدون أيضًا الحق في التقاط شيء من صدى كلمة المدير الذي سوف يأتي في ذلك الأحد أيضًا ليبول عند المحافظ ويلقي خطبته فوق القبور بعد الغداء".

(21) اقتباس، محور، مأخوذ من كتاب (حملة فرنسا Campagne de France).

(22) La Cavalère Elsa، رواية لبيير ماك أوران Pierre Mac Oran، 1921، نُقلت بتصرف إلى المسرح. (المترجم)

لكن من أعماق الحديقة، نودي عليه، برانشار. أمر كبير الأطباء ممرضه المناوب باستدعائه على وجه السرعة.

"أنا قادم". أجابه برنشار، ولم يكن لديه الوقت إلا ليناولني مسودة الخطاب الذي كان قد فرغ هكذا لتوه من تجريبه عليَّ. حيلة مخادع.

بالنسبة إليه، برانشار، فأنا لم أره ثانيةً أبدًا. كان مصابًا بآفة المثقفين، كان تافهًا بلا قيمة. كان يعرف كثيرًا جدًّا من الأمور ذلك الصبي، أكثر مما يجب، وكانت تلك الأمور تشوش أفكاره. كان يحتاج إلى كثير من الأشياء حتى يُستثار، حتى يحسم أمره. كان ذلك المساء الذي رحل فيه برنشار يبدو الآن بعيدًا عنا، عندما يخطر ببالي. ورغم ذلك فإني أتذكره جيدًا. تبرز مرة أخرى منازل الحي قبل أن يداهمها المساء. تكبر الأشجار في الظلمة وتتصاعد نحو السماء لتلحق بالليل.

لم أقم بأي شيء مطلقًا لأعرف أخباره، لمعرفة ما إذا كان حقًّا "مفقودًا"، برنشار هذا، كما تردد ذلك. لكن من الأفضل أن يكون قد مات.

الفصل 10

المقطع السابع

كان سلمنا المشاكس النزق قد ألقى بذوره خلال الحرب ذاتها.

كان من الممكن أن نتنبأ بما ستكون عليه حال من أصابته تلك الهيستريا بمجرد رؤيته يتمايل إثارةً في حانة الأوليمبيا. في الأسفل، في ذلك القبو -المرقص المستطيل المتعرج بمراياه المئة - كان يتقافز وسط الغبار والخيبة الثقيلة على وقع موسيقى زنجية يهودية ساكسونية بريطانيون وزنوج معًا، مشرقيون وروس، كنا نراهم، هنا وهناك، مدخنين، صارخين، مكتئبين وجنودًا، متناثرين بامتداد الأرائك القرمزية. تلك البزات العسكرية التي لم نعد نتذكرها الآن إلا بكثير من الأسى. كانت بذور يومنا الحالي، هذا الشيء الذي ما زال يكبر، والذي لن يكون حقيرًا تمامًا، إلا فيما بعد، بمرور الوقت.

بضع ساعات في الأوليمبيا تدفعنا إلى الرغبة في النساء، كنا نذهب بعدها جماعة لنزور مدام "إيروت" Herote، صاحبة محل البياضات والقفازات والكتب، في زقاق "بريزناس" Peresinas، خلف ملهى "الفولي-بيرچير" Folies-Bregères، حيث تأتي الكلاب الصغيرة مع صويحباتها، في السلاسل، لقضاء حاجتها.

كنا نذهب إلى هناك، محاذرين، بحثًا عن سعادتنا، تلك التي يتهددها العالم بأسره في سعار. كنا نشعر بالخزي من تلك الرغبة، لكن كان علينا مع ذلك أن نلبيها! الإقلاع عن الحب أصعب من التخلي عن الحياة. في هذا العالم، يقضي المرء وقته في القتل أو في العشق، ويجري هذا في الوقت نفسه. "أنا أكرهك! أنا أهواك!" ندافع عن أنفسنا، نتحادث، يستعرض المرء حياته في

القرن التالي، بجنون، بأي ثمن، كما لو كان من الممتع إلى أبعد حد الاستمرار في الحياة، كما لو كان ذلك سوف يجعلنا، آخر الأمر، خالدين. رغبة في العناق رغم كل شيء، مثل الرغبة في حك جلودنا.

تحسنت حالتي الذهنية، لكن موقفي العسكري ظل مجهول المصير إلى حد كبير. سُمِحَ لي بالتنزه في المدينة من وقت إلى آخر. كانت صاحبتنا تاجرة الملاءات تسمى مدام "إيروت". جبينها كان منخفضًا ضيقًا لدرجة أن المرء كان يشعر بالحرج في بداية الأمر في مواجهتها، لكن شفتيها، على العكس، كانتا باسمتين للغاية، شهوانيتين للغاية، حتى إن المرء لا يعود يعرف بعدها كيف يتصرف حتى يفلت من براثنها. تحت حماية طلاقة لغوية بارعة، طبيعة جنسية لا تُنسى، كانت تخفي سلسلة نوايا بسيطة، جشعة، تجارية بكل ورع.

الثروة، شرعت في تكوينها خلال عدة أشهر، بفضل الحلفاء وبفضل بطنها على وجه الخصوص. علينا أن نقول إنها قد خضعت لاستئصال مبيضيها في أثناء عملية جراحية لإزالة التهاب رحمي أُجريت لها العام الماضي. ذلك الإخصاء المُخلص كان مصدر ثروتها. من بين تلك الإفرازات النسائية، هناك ما يثبت أنه من تدابير العناية الآلهية. إن امرأة تقضي وقتها في الخوف من الحمل ليست سوى كائن عاجز ولن تمضي بعيدًا في طريق النجاح.

الشيوخ والشبان أيضًا يعتقدون -كما كنت أعتقد - أن من الممكن ممارسة الحب بكل سهولة وبسعر زهيد في الملحق الخلفي لبعض متاجر الكتب - الملاءات. كان ذلك الأمر لا يزال صحيحًا منذ عشرين عامًا مضت، لكن بعدها، توقف كثير من الأمور، من بين أمتعها، كان ممارسة الحب على ذلك النحو، التزمّت الأنجلو - ساكسوني يجفف مشاعرنا شهرًا بعد آخر، أكثر فأكثر، لقد مضى بالفعل إلى غير رجعة ذلك المجون العفوي لمخازن المتاجر الخلفية. يتجه الجميع إلى الزواج وإلى الأخلاق الحميدة.

أحسنت مدام "إيروت" الاستفادة من آخر التراخيص التي ما زالت سارية بممارسة الجنس وقوفًا وبأسعار رخيصة. ذات يوم أحد، مرّ من أمام متجرها أحد الدلالين العاطلين، دلف إلى الداخل وبقي هناك. خرقًا بعض الشيء، كان الرجل، وسوف يظل، لا أكثر. لم يثر توافقهما أي ضجة. في ظل جرائد تهذي بدعوات إلى التضحية العظمى والوطنية، استمرت الحياة، محسوبة، منتظمة بكل صرامة، محشوة بالحيطة والحذر، بل وأكثر براعةً ودهاءً من أي وقت مضى. هكذا كان الوجه والظهر، كالنور والظل، للميدالية نفسها.

استثمر دلّال مدام "إيروت" في هولندا بعض الأموال لصالح أصدقائه، الأكثر دراية، ولصالح مدام "إيروت" بدورها، بمجرد أن تبادلا بينهما الثقة. ربطات العنق، حمّالات الصدر، وما يشبه القمصان التي كانت مدام "إيروت" تبيعها، كانت تستبقي العملاء والعميلات بداخل الحانوت، وشجعتهم على وجه الخصوص على العودة كثيرًا إليه.

في الظلال الوردية لتلك الستائر، جرى عدد كبير من اللقاءات الأجنبية والوطنية، وسط عبارات صاحبة المكان التي لا تتوقف، والتي كانت شخصيتها الغنية الثرثارة والمعطرة إلى حد الإصابة بالإغماء قادرة على إثارة مشاعر أشد مصابي الكبد مرضًا. وسط تلك العلاقات المتنوعة، ومن دون أن تفقد رشدها، وجدت مدام "إيروت" ضالتها من الأموال جيدًا، لأنها كانت تستقطع حصتها من ضريبة مبيعات المشاعر، ثم لأن كثيرًا من علاقات الحب كانت تجري حولها. كانت تجمع بين رجل وامرأة أو تفرق بينهما بالقدر نفسه على الأقل من السعادة، مستعينة بالقيل والقال، التلميحات، الخيانات.

دون أن تبارح مكانها كانت تخلق السعادة والأسى، دون أن تعتريها الحيرة.

بروست Proust، نصف الشبح شخصيًّا، ضاع في اللامتناهي ماضيًا فيه بعناد خارق، ضاع في تفاهة الطقوس، الأعراف، المساعي التي تلتف وتلتوي حول أبناء هذا العالم، أهل الفراغ، أطياف الشهوة، راغبي الجنس الجماعي

المترددين المنتظرين رسامهم واتو (23)Watteau*، الباحثين بحماس عن جزر Cythères (كيثيرا) التي لا يُحتمل وجودها. لكن مدام "إيروت" الشعبية والجوهرية في الأساس، كانت تتعلق بالحياة بكل قوة عبر شهوات جامحة، بهيمية وقاطعة.

(23) رسام فرنسي. ولد فلانسين في 10 أكتوبر 1684 وتوفي بنوجن سور مارن في 18 يوليو 1721. حصل على جائزة روما في الفنون. (المترجم)

إن كان الناس أشرارًا إلى هذا الحد، ربما كان مرد هذا إلى أنهم كانوا يعانون فقط، لكن الوقت الذي يفصل بين اللحظة التي يتوقفون فيها عن المعاناة، واللحظة التي يصيرون فيها إلى حال أفضل، يظل طويلاً. لم يكن نجاح مدام "إيروت" المادي والعاطفي الباهر قد أُتيح له الوقت بعد ليخفف من جموح تصرفاتها وميولها الآسرة.

لم تكن أقل حقدًا من غالبية صاحبات المتاجر في الجوار، غير أنها كان تجتهد في إظهار العكس، لذلك ما زلنا نتذكر قصتها. لم يكن متجرها مجرد مكان للقاءات، بل كان مدخلاً خفيًّا إلى عالم من الثراء والترف لم أكن قد دخلته مطلقًا، رغم رغبتي الشديدة، وقد طُردت منه بسرعة وبصورة جارحة إثر غزوة خاطفة، كانت الأولى والوحيدة.

يسكن أثرياء باريس معًا في منطقة واحدة، تضم أحياؤهم، في مجملها، شريحة من تلك الكعكة الحضرية التي يلامس طرفها منطقة اللوڤر Le Louvre، بينما ينتهي طرفها الآخر المستدير عند تلك الأشجار القائمة بين جسر "أوتوي" Auteuil وبوابة "تيرن" Ternes.

هكذا الأمر. إنها أفضل بقعة في المدينة. كل ما عداها ليس إلا العناء والقذى، مرابض النفايات والشقاء.

عندما ننتقل من ناحية الأغنياء فإننا لا نلاحظ، في البداية، فرقًا كبيرًا بينها وبين الأحياء الأخرى، إن لم يكن أن شوارعها أنظف قليلاً، ليس إلا. للقيام برحلة في داخل هؤلاء الناس، هذه الأشياء، علينا أن نعتمد على الحظ أو على الصداقة.

من خلال متجر مدام "إيروت"، كان من الممكن، في الماضى القريب، الدخول إلى تلك المحمية بسبب الأرجنتينيين الذين كانوا يهبطون من أحيائهم الراقية ليتزودوا من عندها بالقمصان والسراويلات الداخلية، وليغازلوا أيضًا تشكيلته البديعة من الصاحبات الطموحات، ممثلات المسرح، العازفات، الفاتنات، اللاتي كانت مدام إيروت تجتذبهن عمدًا.

كنت قد أخذت، أنا، الذي لم يكن لديه ما يقدمه سوى شبابه، كما يقال، في التعلق بواحدة من بينهن، بأكثر مما يجب. في ذلك الوسط، كانوا يدعونها "ميوزين Musine" الصغيرة.

في ممر "برزناس" كان الجميع، من حانوت إلى آخر، يعرف الجميع، كما لو كنا في قرية صغيرة حقيقية، محصورة منذ سنين بين شارعين من شوارع باريس، أي أننا كنا نتبادل فيه التلصص والنميمة على نحو إنساني إلى حد الجنون.

بشأن أمور المعيشة المادية، كان الحديث في الزقاق، قبل الحرب، يدور حول حياة تقوم على التقاط الرزق من هنا وهناك، حياة بائسة وضنينة بصورة يائسة. من بين محنهم التعيسة الأخرى، كان الهم المقيم لأصحاب المتاجر هؤلاء هو اضطرارهم في ظل عتمتهم إلى اللجوء إلى الغاز متى حلت الساعة الرابعة مساءً، بسبب معروضاتهم. غير أنهم كانو يؤمِّنون لأنفسهم بذلك جوًّا مواتيًا للمراودات الرقيقة الناعمة.

رغم كل شيء، كان كثير من المتاجر في طريقه إلى الإفلاس بسبب الحرب، بينما كان حانوت مدام إيروت، لكثرة الشبان الأرجنتينيين والضباط أصحاب مكافآت نهاية الخدمة وإرشادات الصديق الدلَّال، يزدهر ازدهارًا أثار تعليقات الجميع، في الجوار، كما يمكن أن نتصور، بعبارات شنيعة.

لنسجل على سبيل المثال أن الحلواني الشهير القائم في رقم 112 قد فَقَد فجأة، في تلك الفترة، عميلاته الجميلات بسبب حالة التعبئة. لم تعد المترددات على المحل على نحو معتاد، ذوات القفازات الطويلة، يرجعن إليه، لأنهن اضطررن إلى الذهاب مشيًا لفرط ما صودر من الخيول وكان عليهن ألا يعدن إليه أبدًا. أما "سامبانيه" Sambanet مُجلّد النوتات الموسيقية فلم ينجح في مقاومة الرغبة التي سيطرت عليه دومًا في ممارسة اللواط مع أحد الجنود. سببت له تلك الجسارة الماجنة ذات مساء، سيئ التوقيت، ضررًا لا يمكن إصلاحه لدى مواطنيه الذين اتهموه، مرة واحدة، بالجاسوسية. كان لا بد أن يغلق حانوته.

بعكس ذلك، فإن الآنسة "إيرمانس" Hermance الموجودة في رقم 26 من الزقاق، التي كانت متخصصة حتى ذلك اليوم في تلك السلعة المصنوعة من المطاط، سواء أجُهِر باسمها أم لا، ربما كانت لتتدبر أمورها جيدًا، بفضل الظروف، لو لم تكن قد واجهت تحديدًا كل صعوبات العالم في التزود بـ"الواقيات الذكرية" التي كانت ترِد إليها من ألمانيا.

باختصار، كانت مدام "إيروت" وحدها، في مطلع الحقبة الجديدة للملاءات والملبوسات الداخلية الفاخرة والديمقراطية، التي دلفت بسهولة إلى عالم من الثراء والازدهار.

تبادلت متاجر الزقاق عددًا من الرسائل مجهولة المصدر، وقد كانت رسائل لاذعة. مدام "إيروت" عن نفسها، كانت تفضِّل، من باب التسرية عن نفسها توجيه رسائلها إلى شخصيات بارزة، وفي ذلك تحديدًا كشفت عن طموحها

القوي الذي كان يشكل جوهر طبيعتها. أرسلت إلى رئيس مجلس الوزراء، مثلاً، لتؤكد له أن زوجته تخونه، وإلى المارشال بيتان Petain، بالإنجليزية، مستعينة بالقاموس، لإثارة غضبه. الرسالة مجهولة المصدر؟ حمام برشاش الحبر! في كل صباح كانت مدام إيروت تتلقى رزمة صغيرة من تلك الرسائل التي لا تحمل توقيعًا، والتي لم تكن تشي بخير. بسببها، كانت تظل مشغولة البال لمدة عشر دقائق تقريبًا، غير أنها سرعان ما كانت تستعيد كل توازنها، كيفما اتفق، بواسطة أي شيء، لكنها كانت تستعيده دومًا، بل وبكل قوة حيث لم يكن في حياتها الباطنية أي مكان للشك، بل وأقل من ذلك، للحقيقة.

من بين عميلاتها ومحاسبيها، كانت بعض الفاتنات تصل إليها حاملة من الديون أكثر مما كانت تحمل من ثياب.

كانت مدام إيروت تسدي إليهن النصح، كلهن، وكان ذلك يروقهن، من بينهن، كانت ميوزين هي التي بدت أكثر جاذبية ولطفًا. ملاك حقيقي صغير يعزف الموسيقى، عاشقة للكمان، شديدة الإصرار على تحقيق النجاح في الأرض، لا في السماء، كانت تتدبر أمورها، في الوقت الذي عرفتها فيه، بتقديم فاصل صغير من أروع ما يكون، باريسي جدًّا، ومهمل تمامًا، على مسرح المنوعات "لاڤاريتيه" La Variété.

كانت تظهر على المسرح بكمانها في ما يشبه مقدمة موسيقية، مرتجلة، شعرية، شجية. صورة فنية لطيفة ومعقدة.

بهذه العاطفة التي شعرت بها نحوها، صارت أيامي مجنونة وانقضت في ركض قافز من المستشفى إلى باب الخروج من مسرحها. مع ذلك لم أكن قط الوحيد الذي ينتظرها تقريبًا. كان جنود القوات البرية يتخاطفونها بقوة، الطيارون أيضًا ولكن بسهولة أكثر، لكن قصب السباق كان يعود إلى الأرجنتينيين بلا نزاع. كانت تجارة هؤلاء في اللحوم المجمدة قد اتخذت، بفضل تزايد عدد الجنود الجدد، أبعاد إحدى قوى الطبيعة. استفادت ميوزين

الجميلة من تلك الأيام الرائجة، وقد أحسنت صنعًا، فلم يعد هناك أرجنتينيون اليوم.

بقيت لا أفهم ما يجري. كنت مخدوعًا في كل شيء، وكان الجميع كذلك، مخدوعًا في النساء، المال، الأفكار.. مخدوعًا غير سعيد. في الوقت الحالى، يحدث أن أقابلها –ميوزين– صدفة، مرة كل سنتين، أو تقريبًا كذلك، مثلما أقابل غالب الذين أعرفهم جيدًا. إنها المدة اللازمة، سنتان، حتى نتبين، من نظرة واحدة، لا يمكن خداعها، كالغريزة، ألوان القبح التي صار يحملها وجه ما، حتى في أجمل سنين عمره.

أمام ذلك، يظل المرء لحظة كالمتردد، ثم ينتهي الأمر بتقبل ذلك الوجه بحالته التي صار إليها، بحالة عدم التناسق المتزايد والمشين، الشخص بكامله. من الواجب بالفعل أن نقول نعم لذلك الشخص المتأنق، بطيء الفهم، المثير للسخرية وقد غطاه رذاذ السنين. تقبل الزمن، اللوحة التي تمثلنا. يمكننا أن نقول حينها إننا قد استعدنا الوعي تمامًا (مثل ورقة نقد أجنبية نتردد في أن نأخذها عند الوهلة الأولى) وإننا لم نكن قد ضللنا الطريق، وإننا قد سلكنا الطريق الحقيقي فعلاً، دون أن نتواطأ، الطريق المحتوم طوال عامين آخرين، طريق التحلل والفناء. هذا كل ما في الأمر.

عندما كانت ميوزين تلقاني بالطريقة نفسها، صدفة، ولشدة ما كان وجهي المرهق يفزعها، كانت تبدو عليها رغبة في الهروب مني بأية وسيلة، الرغبة في تجنبي، في الانصراف عني، أي شيء يمكنها فعله. كنت أحمل لها بكل تأكيد رائحة ماضٍ بعيد بغيض، غير أني كنت الشخص الذي يعرف عمرها، منذ سنوات طويلة، لذلك لم يكن بوسعها الإفلات مني بعد ذلك أبدًا، مهما حاولت. كانت تظل واقفة في مكانها أمامي، بادية الحرج، كأنها قد رأت مسخًا. كانت تعتقد، لمّاحة للغاية، أن عليها أن تلقي عليَّ بعض الأسئلة الحمقاء، الفارغة، مثل التي تلقيها خادمة ضُبطت متلبسة بذنب. للنساء طبائع الخدم. لكنها ربما تتخيل فقط ذلك النفور، بأكثر مما تشعر به؛ ذلك هو العزاء الوحيد الباقي لي.

ربما أوحيت إليها فقط أنني شخص منفِّر. ربما كنت بارعًا في هذا اللون. على أي حال، لماذا قد لا يكون هناك قدر من الفن في القبح بقدر ما هو موجود في الجمال؟ فن جديد علينا فقط أن نرعاه، هذا كل ما في الأمر.

طالما اعتقدت أنها حمقاء.. تلك الصغيرة ميوزين، لكن ذلك لم يكن سوى رأي رجل مغرور رفضته الحبيبة. تعرفون، إننا جميعًا كنا، قبل الحرب، أكثر جهلاً وغرورًا منا الآن. على نحو عام، كنا تقريبًا لا نعرف عن أمور العالم شيئًا. باختصار.. كنا في غفلة. العامة من أمثالي كانوا ينخدعون آنذاك بالمظاهر بأسهل مما يحدث الآن بكثير. كنت أظن أن ولعي بميوزين الخلّابة سوف يمنحني كل القوى التي أحتاج إليها، وأولاً وعلى وجه الخصوص الشجاعة التي كانت تنقصني، كل هذا لأنها كانت امرأة جميلة جدًّا وموسيقية بارعة جدًّا، عشيقتي الصغيرة. الحب كالخمر، كلما كان المرء ثملاً وعاجزًا، ظن نفسه ماكرًا وقويًّا، وواثقًا بحقوقه.

لم تعد مدام إيروت، قريبة الكثير من الأبطال الذين قضوا في الحرب، تخرج من زقاقها إلا في حِداد كبير، فضلاً عن أنها لم تقصد المدينة إلا فيما ندر، لأن صديقها الدلّال قد بدا غيورًا إلى حد كبير. كنا نتجمع في غرفة الطعام، في مؤخرة الحانوت التي اتخذت، عندما حل الرخاء، كل مظاهر صالون وثير بالفعل. كنا نأتي إليه لنتجاذب أطراف الحديث، نتسلى، بلطف، على نحو لائق تحت مصابيح الغاز. ميوزين الجميلة على البيانو، تشجينا وتطربنا بالمقطوعات الكلاسيكية، لا شيء سوى الموسيقية الكلاسيكية، بسبب قواعد اللياقة في تلك الأيام العصيبة. كنا نظل هناك في فترات ما بعد الظهر، متجاورين، الدلّال في الوسط، نهدهد معًا أسرارنا، مخاوفنا، آمالنا.

كانت خادمة مدام إيروت، المعيَّنة حديثًا، تحرص كثيرًا على معرفة متى سوف يقرر البعض أخيرًا الزواج بالآخرين. في ريفها الذي جاءت منه، لم يكن أحد يتصور فكرة المعاشرة. كل هؤلاء الأرجنتينيين، هؤلاء الضباط، هؤلاء المتفحصين كانوا يصيبونها بفزع شبه غريزي.

وجدت ميوزين نفسها وقد استأثر بها عملاؤها الجنوب أمريكيين أكثر فأكثر. وهكذا انتهت بي الحال إلى معرفة كل مطابخ وخدم هؤلاء السادة، معرفة تامة، لطول ما ذهبت أنتظر حبيبتي في غرفة الخدم. كان خدم هؤلاء السادة يظنونني قوادها. من جهة أخرى، انتهى الأمر بالجميع إلى اعتباري قوادًا، بمن في هؤلاء ميوزين نفسها، وفي الوقت نفسه كنت أظن أن كل المترددين على محل مدام إيروت كانوا كذلك. حيال هذا لم يكن بوسعي أي شيء. من جهة أخرى، كان لا بد لهذا أن يحدث عاجلاً أم آجلاً، أن يجري تصنيفك.

حصلت من السلطات العسكرية على فترة نقاهة أخرى لمدة شهرين مقبلين، بل دار حوار بشأن تسريحي. قررنا، أنا وميوزين، أن نسكن معًا في بيلانكور. الواقع أن تلك الحيلة كانت للتملص مني، لأنها استغلت أننا نسكن بعيدًا، لتندر مرات مجيئها إلى البيت أكثر فأكثر. دائمًا ما كانت تجد ذرائع جديدة للبقاء بباريس.

كانت ليالي بيلانكو هادئة، تثيرها أحيانًا تلك الإنذارات غير الجادة بغارات الطائرات والمناطيد، التي تمكن السكان بفضلها من الشعور بقشعريرة فزع لها ما يبررها. في انتظار معشوقتي، كنت أمضي للتجوال عندما يهبط الليل، حتى أصل إلى جسر جرينل، هناك حيث تصعد العتمة من النهر حتى حاجز مدخل المترو، بأعمدة إنارته الرصاصية، منتصبًا في قلب الظلام، بقرقعة حديده الهائلة أيضًا التي كانت تندفع كالصاعقة وسط أحشاء عمائر الرصيف "باسي" الضخمة.

يوجد بالمدينة بعض الجهات التي تشبه هذا المكان، القبيحة بشكل غبي، حتى إن المرء يكاد يكون وحيدًا فيها دائمًا.

انتهى الأمر بميوزين إلى التوقف عن العودة إلى ما نقول عنه بيتنا إلا مرة واحدة في الأسبوع. كانت تصاحب المغنيات إلى منازل الأرجنتينيين بوتيرة متزايدة. ربما كان بإمكانها أن تعزف وأن تكسب قوتها في دور السينما، حيث

كان من الأيسر بالنسبة إليَّ أن أذهب لإحضارها، لكن الأرجنتينيين كانوا يحبون المرح ويدفعون بسخاء، بينما كانت السينمات كئيبة وشحيحة. هذه الأولويات هي كل ما في الحياة.

زيادة في سوء طالعي طرأ علينا "المسرح العسكري". على الفور أوجدت ميوزين لنفسها مئة علاقة صداقة مع العسكريين في الوزارة، وبتواتر مطرد كانت تسافر وقتها لتسري عن جنودنا الأغرّاء في الجبهة، وذلك طوال أسابيع بكاملها. هناك، كانت تعزف مقاطع السوناتا والآداجيو، مبرزة جمال ألحانها أمام المشاهدين من ضباط الأركان العامة، الذين كانوا في موضع يمكِّنهم من رؤية فخذيها. أما الجنود المحتجزون في صفوف المقاعد المدرجة خلف قادتهم فلم يستمتعوا إلا بصدى الألحان. بعد ذلك كانت مضطرة إلى قضاء ليالٍ حافلة للغاية في فنادق المنطقة العسكرية. ذات يوم عادت إليَّ من تلك المنطقة ممتلئة بهجة حاملةً شهادة البطولة موقَّعة من قِبل أحد كبار چنرالاتنا. نعم يا سادة، كانت تلك الشهادة بداية نجاحها الحاسم.

داخل الجالية الأرجنتينية عرفت ميوزين كيف تصبح مرة واحدة غاية في الشعبية. احتفوا بها، هاموا بها.. بميوزين، حبيبتي، عازفة الكمان، في زمن الحرب.. بارعة الجمال! النضرة تمامًا والجعداء، ومن جهة أخرى، فوق كل هذا، البطلة. كان هؤلاء الأرجنتينيون يعرفون القدر الحقيقي للأشخاص، يكنون لقادتنا الكبار إعجابًا ظاهرًا، وعندما عادت إليهم صغيرتي ميوزين، بوثيقتها الصحيحة، بوجهها الصبوح، أصابعها الرشيقة المتباهية، أخذوا يزايدون في التنافس في حبها، إن جاز التعبير. بلا مقاومة، يتملك الشعور البطولي من هؤلاء الذين لا يذهبون إلى الحرب، بل ومن هؤلاء الذين كانت الحرب تغدق عليهم الآن بالثراء الواسع. أمر طبيعي.

آه، هذه البطولة المرحة المبهجة، كانت تجتاح الجميع، صدقوني! كان تجار البحر من "ريو" يقدمون أسماءهم وأسهمهم على ميوزين اللطيفة التي قدمت إليهم نموذجًا أنثويًّا للبطولة الفرنسية والحربية.

لا بد أن نعترف أن ميوزين قد استطاعت أن تخترع لنفسها رصيدًا طيبًا من ذكريات حوادث الحرب، كان يناسبها على نحو مدهش، كقبعة مثيرة. غالبًا ما كانت تدهشني أنا شخصيًّا بلباقتها وحسن تصرفها، وعليَّ أن اعترف أني عند سماعها لم أكن إلى جانبها سوى مقلد مبتدئ جلف، في مجال التلفيق والاختلاق. كانت تمتلك موهبة صياغة عباراتها الموفقة في سياق درامي ما، يصير فيه كل شيء -ويظل أيضًا - مؤثرًا وعظيمًا. أما نحن، الجنود المحاربين، فقد كنا دومًا، في ما يتعلق بأحاديث الهراء، كما تبينت ذلك فجأة، ضعافًا ومحدودي الخيال. كانت جميلتي تستثمر في ما هو أزلي. يجب أن نصدق المصور "كلود لوران" في أن ما يأتي في صدر اللوحة دائمًا ما يكون فقيرًا، وأن الفن يشترط أن تكون جماليات العمل الفني في خلفيات اللوحات، في ما لا يمكن الإمساك به، هناك حيث يلجأ الوهم، ذلك الحلم المضبوط ملتبسًا وغرام البشر الوحيد. المرأة التي تستطيع إدراك طبيعتنا البائسة تصير معشوقتنا بكل سهولة، أملنا الأغلى الذي لا يمكن الاستغناء عنه. ننتظر بقربها، لتحفظ لنا مبرر وجودنا المخادع، لكنها تستطيع، فيما تنتظر، من خلال القيام بهذه المهمة الساحرة، أن تكسب عيشها بكل سعة. وبهذا الخصوص، لم تكن ميوزين تفتقر إلى الغريزة.

يوجد هؤلاء الأرجنتينيون ناحية منطقة "دي تيرن"، فضلاً عن جوار غابة بولونيا، في فنادق صغيرة خاصة، معزولة، متلألئة، حيث يسود في مثل هذه الأوقات من الشتاء دفء ممتع للغاية لدرجة أن مجرى أفكاركم يتبدل فجأة ليصير متفائلاً بمجرد الدخول إليها من الشارع، رغمًا عنكم.

في يأسي المرتعش، كنت قد أخذت على نفسي، زيادة في الخطأ، أن أذهب بأكثر ما أستطيع، كما قلت، لانتظار رفيقتي في غرفة الخدم. أحيانًا كنت أصبر حتى الصباح، كنت أشعر بالنعاس، لكن الغيرة مع ذلك كانت تبقيني يقظًا تمامًا والنبيذ الأبيض أيضًا الذي كان الخدم يقدمونه إليَّ بسخاء. أما السادة الأرجنتينيون، فلم أكن أراهم إلا نادرًا جدًّا، كنت أسمع أغانيهم ولغتهم

الإسبانية الهادرة، البيانو الذي لم يكن يتوقف، الذي كانت تعزف عليه في الأغلب أيادٍ أخرى غير يدَي ميوزين. تُرى ماذا كانت تفعل إذًا في ذلك الوقت، تلك العاهرة، بيديها؟

عندما كنا نتلاقى في الصباح أمام البيت كانت تمتعض لرؤيتي. في ذلك الوقت، كنت لا أزال طبيعيًّا كحيوان، لم أكن أريد أن أفلتها، جميلتي، هذا كل ما في الأمر، كما لو كانت عظمة.

يضيع المرء أهم فترة في شبابه في تصرفات طائشة. كان من الواضح أنها سوف تهجرني تمامًا وعما قريب، محبوبتي الصغيرة. لم أكن قد أدركت بعد أن هناك نوعين من الإنسانية، إنسانية الأغنياء وإنسانية الفقراء. لقد اقتضى الأمر مني، كما اقتضى من كثيرين غيري، عشرين عامًا فضلاً عن الحرب، لأتعود، لأتعلم البقاء في الفئة التي أنتمي إليها، أن أسأل عن ثمن الأشياء والأشخاص قبل أن ألمسهم، وخصوصًا قبل أن أتعلق بهم.

متلمسًا الدفء إذًا في غرفة الخدم مع رفاقي الشغالين، لم أكن أدرك أن الآلهة الأرجنتينية كانوا يرقصون فوق رأسي، ربما أمكن أن يكونوا ألمانًا، فرنسيين، صينيين، ليس لذلك أي أهمية، لكنهم كانوا آلهة، أغنياء، هذا ما كان يجب إدراكه. إنهم في الأعلى مع ميوزين، وأنا بالأسفل، لا شيء معي. ميوزين تفكر في مستقبلها بكل جدية، وقتها كانت تفضِّل أن تقضيه مع أحد الآلهة. أنا أيضًا كنت أفكر فيه بكل تأكيد، مستقبلي، لكن في ما يشبه الهذيان، لأني طيلة الوقت كنت أخشى، بيني وبين نفسي، أن أُقتل في الحرب، وأخاف أيضًا من الموت جوعًا في وقت السلم. عاشقًا كنت وميتًا مع إيقاف التنفيذ. لم يكن ذلك مجرد كابوس، فغير بعيد عنا فعلاً، على بعد أقل من مئة كيلومتر، كان ملايين الرجال، الشجعان، المسلحين جيدًا، المتعلمين جيدًا، ينتظرونني ليقتلوني، وفرنسيون أيضًا كانوا ينتظرونني للنيل مني، إن لم أرغب في أن أحول جسدي إلى مزق دامية على أيدي من يواجهوننا.

أمام الفقير في هذا العالم طريقتان أساسيتان للموت، سواء بالتجاهل التام ممن هم على شاكلته في زمن السلم، أو بالرغبة في القتل من جانب الأشخاص أنفسهم عندما تقوم الحرب. لو شرع الآخرون في التفكير فيك، فسوف يفكرون على الفور في تعذيبك، ولا شيء غير ذلك. إننا لا نثير اهتمامهم إلا إذا كنا نقطر دمًا، هؤلاء الأوغاد. بخصوص هذا، كان برانشار على حق بالفعل. عندما يصير الموت وشيكًا، يتوقف المرء عن الانشغال بأمور مستقبله، لا يفكر إلا في ممارسة الحب خلال الأيام التي تبقت له، نظرًا إلى أنها الوسيلة الوحيدة لينسى المرء جسده قليلاً، جسده الذي سوف يُسلخ قريبًا من أعلى إلى أسفل.

عندما كانت تتهرب مني، ميوزين، كنت أعد نفسي مثاليًّا، هكذا يستدعي المرء غرائزه الخاصة الصغيرة مكسوة بالكلمات الطنانة. كان تصريحي يوشك على الانتهاء. أطلقت الصحف نفير الاستدعاء لكل المقاتلين المحتملين، وقبل الجميع بالطبع مَن لم تكن له أية صلات بأصحاب النفوذ. رسميًّا، لم يعد من الواجب التفكير إلا في الانتصار في الحرب.

كانت ميوزين أيضًا تتمنى وبقوة، مثلها مثل لولا، أن أعود إلى الجبهة بأسرع ما يمكن، وأن أظل هناك. ولما كان من الواضح أني أتباطأ في تسليم نفسي، قررت أن تتعجل الأمور، مع أن ذلك لم يكن من عادتها.

ذات مساء، عدنا فيه معًا، على سبيل الاستثناء، إلى بيلانكور. مر رجال الأطفاء مطلقين أبواقهم، وإذا بكل سكان منزلنا يسارعون بالنزول إلى القبو ترقبًا لا أدري لأي منطاد كان.

أظهرت أوقات الفزع القصيرة هذه، التي يتوارى خلالها حي بكامله في ملابس نومه، متضاحكًا، في الأقبية خلف الشموع، حتى ينجو من خطر يكاد يكون وهميًّا من أوله إلى آخره - مدى التفاهة الخانقة لتلك الكائنات التي كانت تارة دجاجات مذعورة وأخرى خرافًا مزهوة وقانعة. إن تقلبات كبيرة

كهذه في سلوك البشر تكفي لإثارة نفور أكثر محبي علم الاجتماع صبرًا ومثابرةً.

مع الدقة الأولى من نفير الإنذار، كانت ميوزين قد نسيت أننا قد انتهينا للتو من اكتشاف جانب البطولة فيها في مسرح القوات المسلحة. أصرت على أن أهرع معها على الفور إلى سراديب باطن الأرض، في المترو، في البالوعات، إلى أي مكان كان، شريطة أن يكون آمنًا وفي أقصى أعماق الأرض. رؤية المستأجرين كلهم، يهبطون مسرعين، مستهترين كانوا أم أجلاء محترمين، أربعة أربعة، نحو ثقب النجاة، منحتني، أنا شخصيًّا، شعورًا باللامبالاة. جبان أو شجاع لا يعني ذلك شيئًا ذا قيمة. أرنب هنا، بطل هناك، يظل الرجل نفسه، لا يفكر هناك بأكثر مما يفعل هنا. كل ما لا يتعلق باكتساب المال كان يتجاوز إدراكه فعلاً، إلى أقصى حد. كل ما يتعلق بالحياة أو الموت كان لا يعنيه، لا يفهمه. حتى موته هو شخصيًّا، لم يتأمل فيه جيدًا أو على نحو صحيح. لم يكن يفهم إلا المال والمسرح.

أمام ممانعتي، تظاهرت ميوزين بالبكاء. ألح علينا مستأجرون آخرون لنرافقهم، انتهى ذلك برضوخي لهم. في ما يتعلق بالاختيار، كان لا بد من استعراض مجموعة من الاقتراحات المختلفة. أخيرًا فاز قبو الجزار بغالبية الموافقات، زعموا أنه كان أكثر أقبية البناية عمقًا في الأرض. ما إن تجتاز العتبة حتى تصلك هبات من رائحة لاذعة كانت معروفة جدًّا بالنسبة إلي، كانت على الفور غير محتملة.

سألتها: "هل ستهبطين إلى ذلك المكان، مع اللحم المتدلي من الخطاطيف؟"

"ولمَ لا؟" أجابت باندهاش كبير.

"إيه، أما أنا، فلدّيَ ذكريات ما، وأفضِّل أن أصعد إلى الأعلى".

"هل ستذهب إذًا؟"

"سوف تأتين لملاقاتي بمجرد أن ينتهي هذا!"

"لكن ذلك قد يستمر وقتًا طويلاً".

"أنا أفضِّل أن أنتظركِ بالأعلى، أنا لا أحب اللحم، وسوف ينتهي هذا سريعًا".

في أثناء الغارة، محتمين في حصونهم، تبادل بعض المستأجرين بعض المجاملات المرحة. تدافعت بعض السيدات، في ملابس الحمام، بأناقة ورصانة، نحو القبو الفوّاح برائحة اللحم، كن آخر من حضر، حيث كان الجزار وزوجته يرحبان بهن وهما يعتذران في الوقت نفسه بسبب التبريد الصناعي الضروري لحفظ البضاعة جيدًا.

اختفت ميوزين مع الآخرين، انتظرتها، في بيتنا، في الأعلى، ليلة، نهارًا بكامله، عامًا.. لم تعد لرؤيتي أبدًا.

من جهتي، صرت منذ ذلك الوقت صعب الإرضاء على نحو متزايدة، لم يعد لدي سوى خاطرين يدوران في رأسي: أن أنجو بجلدي وأن أرحل إلى أمريكا، لكن الإفلات من الحرب كان يمثل بالفعل إنجازًا جوهريًّا أمسك بخناقي وجعلني ألهث خلفه طوال شهور وشهور. "مدافع! رجال! ذخائر!" هذا ما طالب به الوطنيون دون أن يبدو عليهم السأم من ذلك مطلقًا. بدا كأننا لم يعد بوسعنا أن ننعم بالنوم ما دمنا لم ننتشل بلـچيكا المسكينة والألزاس الصغيرة العزيزة البريئة من نير الاستعباد الجرماني. كان ذلك هاجسًا يمنع، كما تأكد لنا، أفضل من فينا من التنفس، من الأكل، من التزاوج. مع ذلك، فلم يبدُ أنه قد منع الناجين من الحرب من إبرام الصفقات.

كانت الروح المعنوية عالية في المؤخرة، يمكننا أن نقول هذا. كان علينا أن نعود إلى كتائبنا على وجه السرعة. لكنهم ومنذ الزيارة الأولى قد وجدوا أني لا أزال أدنى من المتوسط ولا أصلح إلا للتوجه إلى مستشفى آخر مخصص للمصابين بالهزال والأمراض العصبية. ذات صباح خرجنا من مركز الإيداع، كنا

ستة أفراد، ثلاثة من المدفعجية وثلاثة من الخيّالة، مرضى وجرحى، بحثًا عن ذلك المكان الذي يجري فيه ترميم الشجاعة المفقودة، علاج الأعصاب الميتة وتُداوَى فيه الأذرع المكسورة. مررنا أولاً، مثل كل الجرحى في ذلك الوقت، للفحص، بمستشفى "ڤال دو جراس"، قلعة ضخمة، مهيبة للغاية ومحاطة تمامًا بالأشجار التي كانت تفوح بقوة من أوراقها رائحة الحافلات التي تجرها الخيول، رائحة اختفت الآن وبلا شك إلى الأبد، خليط من رائحة الأقدام والقش ومصابيح الزيت. لم نبقَ طويلاً في "ڤال دو جراس"، ما إن جرت المقابلة، حتى وبخنا، كما يجب، ضابطان إداريان مرهقان تغطي القشور رأسيهما، هددنا هذان الضابطان بالمثول أمام المحكمة العسكرية، ليلقينا إداريون آخرون بعد ذلك في الشارع. لم يكن لديهم مكان لنا، حسب ما قالوا، وهم يدلوننا على وجهة غامضة: برج حراسة صغير، في جهة ما، في الضواحي المحيطة بالمدينة.

من حانات إلى أبراج حراسة صغيرة، من مشروبات روحية إلى قهوة بالحليب، انطلقنا إذًا نحن الستةـ مع مجازفات الاتجاهات الخاطئة، بحثًا عن ذلك الملجأ الجديد الذي بدا متخصصًا في شفاء الأبطال المعاقين من أمثالنا.

واحد منا فقط كان يملك من متاع الدنيا، الذي وسعته بالكامل، علبة صغيرة من الصفيح، علبة بسكويت "بيرنو" قديمة، علينا أن نعترف بذلك، نوع شهير آنذاك، ولم أعد أسمع به. في تلك العلبة أخفى صاحبنا بعض السجائر وفرشة أسنان. كانت تلك العناية غير الشائعة حينذاك التي كان يوليها أسنانه، مصدر سخرية الجميع، حتى إننا نعتناه، بسبب ذلك التكلف غير المألوف، بالشاذ.

أخيرًا، وصلنا نحو منتصف الليل، بعد كثير من التخبط، إلى أكوام الردم الضخمة المعتمة لحصن "بيستر" هذا، البرج الثالث والأربعين، كما أطلقوا عليه. كان هو الجهة المقصودة.

لقد فرغوا للتو من تجديده لاستقبال العُرج المسنين. بل إن حديقته لم تكن قد اكتملت بعد.

عندما وصلنا، لم يكن هناك أحد يقيم بالفعل، في القطاع العسكري، سوى البوابة. كان المطر يهطل بغزارة. عندما سمعتنا، اعتراها الخوف منا، البوابة، غير أننا أضحكناها عندما مددنا أيدينا مباشرةً إلى المكان المناسب.

قالت: "ظننت أنكم من الألمان". أجبناها: "إنهم بعيدون". سألت منزعجة: "أين تشعرون بالألم؟" رد عليها أحد المدفعيين: "في كل مكان.. لكن ليس في.." يمكننا القول إن ذلك كان من حسن البديهة، فضلاً عن أن البوابة قد راقها ما قيل. بعد ذلك، أقام معنا في الحصن نفسه، بعض عجائز المعونة العامة. شُيدت لهم على وجه السرعة مبانٍ جديدة مغطاة بكيلومترات من الزجاج، جرى احتجازهم فيها حتى نهاية العمليات الحربية كأنهم حشرات. على التلال المحيطة بالمكان كانت هناك حركة سريعة مندفعة لتقسيم الأرض إلى قطع صغيرة، جرت على أكوام من الطين المتدفق غير المتماسك، بين سلاسل من أكواخ بائسة متهاوية. في مواضع آمنة من تلك القطع، نمت من مكان إلى آخر نبتة خس، أو ثلاث فجلات، لا يدري أحد لماذا، رضيت البزاقات المتعبة بتركها إكرامًا لصاحب الأرض.

كان مستشفانا نظيفًا، بما أنه يجب الإسراع برؤية مثل هذه المنشآت في بدايتها، لأننا لا نميل مطلقًا إلى صيانة تلك الأشياء في بلادنا، بل إننا كنا بهذا الشأن مقززين حقيقيين. رقدنا، كما أقول لكم، كيفما اتفق فوق أسرّتنا المعدنية، في ضوء القمر، فقد كانت تلك العنابر جديدة تمامًا لدرجة أن الكهرباء لم تكن قد دخلتها بعد.

عندما استيقظنا، جاء كبير أطبائنا الجديد ليعرِّفنا بنفسه. بدا سعيدًا جدًّا برؤيتنا، مُظهرًا كل مودة. من جانبه، كانت هناك أسباب لسعادته هذه، لقد رُقي للتو إلى رتبة تزين ذراعه بأربع أشرطة. فضلاً عن ذلك، تمتع الرجل

بأجمل عينين في الدنيا، مخمليتين، فاتنتين، كان يستخدمهما كثيرًا في إثارة أربع ممرضات، متطوعات، كن يحطنه بالرعاية والإيماءات، اللاتي لم يكنَّ يفلتنه لحظة واحدة، كبير أطبائهن. منذ لقائنا الأول سيطر الرجل على أرواحنا، كما أخبرنا بذلك. بلا تكلف، ممسكًا بكتف أحدنا في ألفة، يهزها بحنو أبوي، بصوت مطمئن، كان يحدد لنا القواعد التي يجب التقيد بها، وأقصر الطرق حتى نتمكن من المضي بشجاعة، وفي أقرب وقت لملاقاة الموت من جديد.

من حيث أتوا، لم يكونوا يفكرون حقيقةً إلا في هذا. وكان ذلك يسعدهم. كانت تلك هي الآفة الجديدة. "إن فرنسا، يا أصدقائي، أحبتي، قد أولتكم ثقتها، إنها امرأة، إنها أجمل النساء، فرنسا! –قال محاولاً إبهارنا– إنها تعتمد على بطولتكم، فرنسا! ضحية أحقر، أجبن عدوان، إن لها الحق في أن تطلب من أبنائها أن يثأروا لها بكل قوة! لها الحق في استعادة سيادتها على كل أراضيها ولو بأغلى التضحيات! وفي ما يخصنا كلنا هنا، فسوف نقوم بواجبنا، أحبائي، لتقوموا بواجبكم! عِلمُنا ملك لكم، إنه عِلمكم أنتم! كل مصادره مسخَّرة لشفائكم! لتساعدونا بدوركم بقدر عزيمتكم الصادقة! إنني أعرف ذلك، أعرف أن عزيمتكم الصادقة أكبر عون لنا! سوف يُمكنكم قريبًا أن تأخذوا أماكنكم من جديد، إلى جوار رفاقكم الأعزاء في الخنادق! أماكنكم المقدسة! للدفاع عن أرضنا الغالية. عاشت فرنسا! إلى الأمام!" كان يعرف كيف يتحدث إلى الجنود، كبير الأطباء.

كان كل منا أسفل سريره، واقفًا يستمع إليه، في وضع الانتباه. خلفه، لم تستطع واحدة من ممرضاته الجميلات، سمراء كانت، السيطرة على عاطفتها الجياشة التي تخفيها والتي كشفتها دموعها للعيان. سرعان ما هرعن إليها رفيقاتها من الممرضات الأخريات: "آه، لا عليكِ يا عزيزتي! عزيزتي! أؤكد لكِ.. أنه سوف يعود، لا تخافي".

كانت إحدى قريباتها، الشقراء القصيرة الممتلئة، أفضل مَن ظلت تواسيها. عند مرورها بالقرب منا، أسرَّت إليَّ السمينة، آخذة بالسمراء بين ذراعيها، بأن قريبتها الجميلة قد انهارت على هذا النحو بسبب سفر خطيبها المجند في البحرية الذي جرى مؤخرًا مرتبكًا. حاول معلمهن المتحمس أن يخفف من أثر الانفعال المأساوي والجميل الذي أشاعته كلمته الموجزة المؤثرة. ظل أمامها مرتبكًا وحزينًا بسبب ذلك، يقظة ضمير، جزع شديد الإيلام في قلب رجل خيّر، حساس، مثير للشجن، رقيق. واصلت الشقراء همسها: "لو كنا ندري، سيدي، لكنا أخبرناك.. كانا يتبادلان الحب بمنتهى الرقة.. لو كنت تعرف سيدي!" اختفت زمرة الممرضات ومعهن كبير الأطباء ذاته، مستمرات في الثرثرة وإثارة الضجة عبر الرواق. لم يعد أحد يلقي إلينا بالاً.

حاولت أن أتذكر وأن أفهم معنى تلك الخطبة القصيرة التي فرغ لتوه من إلقائها، الرجل صاحب العينين الفاتنتين، لكنها بدلاً من أن تثير أشجاني، تلك العبارات، بدت لي عند تأملها قد قيلت، خلافًا للمألوف، خصوصًا لتنفرني من الموت. كان ذلك أيضًا رأي الرفاق الآخرين، لكنهم لم يجدوا فيها، فضلاً عن ذلك، مثلما وجدت أنا، شكلاً من أشكال التحدي والإساءة. لم يحاولوا قط أن يفهموا ما يدور حولهم، في الدنيا، أحسوا فقط، وبالكاد أيضًا، أن جنون العالم قد تزايد منذ بضعة أشهر، إلى حدود لم يعد المرء فيها قادرًا حقًّا على أن يسند حياته إلى شيء ثابت.

هنا في المستشفى، كما هي الحال في ليل "الفلاندر"، كان الموت هو ما يشغلنا دومًا؛ وإن كان هنا، يتهددنا من مكان أبعد، ذلك الموت المحتوم، مثل هناك تمامًا، تلك هي الحقيقة، متى أطلق نحو أجسادنا المرتعدة، تحت إشراف الحكومة.

هنا لا يوبخنا أحد، بالطبع، بل إنهم كانوا يتحدثون إلينا برفق، كانوا يحدثوننا عن أشياء أخرى غير الموت، لكن الحكم بموتنا كان يظهر بكل وضوح في طرف كل ورقة يُطلب منا توقيعها، في كل تدبير احتياطي يُتخذ بشأننا: النياشين،

أساور المعصم، أقل تصريح بالخروج، أية نصيحة.. كنا نشعر أننا مراقبون، معدودون، مرقّمون في ذلك المستودع الكبير للراحلين غدًا.

مقارنةً بنا، كان من المحتم إذًا أن يبدو كل من يحيط بنا من المدنيين والأطقم الطبية أكثر نشاطًا وحيوية. الممرضات، هؤلاء العاهرات، لم يكنّ يشاركننا مصيرنا، بالعكس، لم يكنّ يفكرن إلا في العيش طويلاً، أكثر من مجرد حياة طويلة، الوقوع في الحب، كان ذلك واضحًا، في التنزه، في ممارسة الجنس وإعادة ممارسته ألف مرة، عشرة الآف مرة. كانت كل واحدة من هاتيك الملائكيات تتمسك بخطتها الصغيرة، في مكان حميم، كما يفعل السجناء، إلى فيما بعد، خطة الحب الصغيرة، عندما نهلك نحن في أي وحل كان وكيف يحدث ذلك! الله وحده يعلم.

قد يمنحنك حينذاك بعض التنهدات التذكارية الاستثنائية في رقتها التي تضفي عليهن كذلك مزيدًا من الجاذبية، قد يذكرن في صمت الشجن مآسي زمن الحرب، العائدين.. "هل تتذكرن باردامو العزيز؟ -لعلهن يقلن ذلك وهن يفكرن فيَّ، في ساعة الغسق - ذلك الجندي الذي عانينا كثيرًا لمنعه من السعال؟ كانت معنوياته في الحضيض، ذلك الشخص، الشاب المسكين.. ما صارت إليه حاله الآن؟"

بعض الندم الشاعري يليق بالمرأة إن جاء في حينه، كما تليق بها خصلة شعر تهف على جبينها تحت أشعة نور القمر.

وراء كل كلمة وكل بادرة لطف منهن، كان علينا أن نتفهم منذ الآن: "سوف تهلك أيها المقاتل الطيب.. سوف تهلك.. إنها الحرب.. لكل منا حياته.. دوره.. موته.. إننا نبدو كأننا نقاسمك الضنى والقلق، لكننا لا نتقاسم الموت مع أحد.. على الجميع أن يكون في صحة جيدة جسدًا وروحًا، على سبيل التسلية، لا أكثر ولا أقل، ونحن.. نحن فتيات صحيحات البدن، جميلات، محترمات، مهذبات.. بالنسبة إلينا يصبح كل شيء آلية للحياة، استعراضًا مبهجًا، يتحول

إلى حالة من الفرح! صحتنا تقتضي هذا! تلك الكآبة الكريهة أمر مستحيل بالنسبة إلينا.. نحن نحتاج إلى ما يثيرنا، ما يثيرنا.. ليس إلا أنتم.. أيها الجنود الصغار، سوف تنسون سريعًا.. كونوا ظرفاء، موتوا سريعًا ولتنتهِ الحرب، ولتتمكن كل منا من الزواج بواحد من ضباطكم المحبوبين.. خصوصًا السمر منهم! عاش الوطن الذي يتحدث عنه أبي باستمرار! كم يجب أن يكون الحب رائعًا عندما يعود من الحرب! سوف يمنح الزوج العزيز أوسمة! سيُكَرَّم.. سيمكنك أن تلمع حذاءه العسكري البديع في يوم زفافنا الرائع، لو بقيت حيًّا حتى ذلك الوقت، أيها الجندي الصغير.. ألن تكون سعيدًا بسعادتنا آنذاك، أيها الجندي الصغير؟"

كنا نراه كل صباح، ثم نراه من جديد، كبير الأطباء، وفي أثره ممرضاته. كان عالمًا في مجاله، هكذا أخبرنا. حول العنابر المخصصة لنا، كان نزلاء دار العجزة المجاورة يأتون للتجول في زيارات خاطفة متقطعة لا طائل من ورائها. كانوا يمضون من قاعة إلى أخرى، يبصقون نميمتهم ونتن أسنانهم، ناقلين أراجيفهم المبتذلة، معزولين هنا في بؤسهم الرسمي، كما لو كانوا داخل حظيرة قذرة عالية الأسوار، يظل هؤلاء العمال المسنون يجتزون كل القذر المترسب حول أرواحهم بعد انتهاء سنوات طويلة من العبودية. أحقاد عنينة، تهترئ في بطالة العنابر العامة التي تفوح برائحة البول. لم يكونوا يستخدمون قواهم الأخيرة والمتهدجة! لا لمزيد من الإضرار بأنفسهم وتدمير ذواتهم في ما تبقى لهم من متع ومن رمق. متعة أخيرة! لم تعد تتبقى في أجسادهم المتيبسة ذرة واحدة لم تكن شرًّا مستطيرًا.

ما إن عرف أننا، نحن الجنود، سوف نتقاسم براح العيش النسبي في الحصن مع هؤلاء العجائز، حتى اتفقوا جميعًا على كراهيتنا. دون أن يمنعهم ذلك من المجيء ليتسولوا، بلا انقطاع، بقايا تبغنا المتناثر عبر النوافذ، وفتات الخبز البائت الواقعة تحت مقاعدنا. كانت وجوههم المتغضنة الممصوصة تنسحق

في أوقات الوجبات على زجاج نوافذ قاعة طعامنا. من بين ثنايا إفرازات أنوفهم، تمرق نظرات خاطفة نهمة لفئران عجوز طماعة.

بدا واحد من هؤلاء العجزة أكثر براعةً ودهاءً من الآخرين، كان يأتي ليغني لنا بعض الأغنيات القصيرة التي كانت شائعة في أيامه، ليسري عنا، كنا قد أطلقنا عليه اسم "الأب بيرويت". كان يوافق على القيام بكل ما نريد شريطة أن نقدم إليه التبغ، كل ما نريد، ما عدا المرور أمام مشرحة الحصن التي لم تكن تتعطل كثيرًا عن العمل على أي حال.

كانت إحدى المُزح حمله على الذهاب إلى تلك الجهة، بحجة التنزه. "ألا تريد الدخول؟" كنا نسأله عندما نكون أمام الباب مباشرةً. عندها كان يفر غاضبًا بالفعل، لكن بمنتهى السرعة، إلى أبعد نقطة ممكنة حتى إننا لم نكن نراه بعدها من جديد إلا بعد يومين على الأقل، الأب بيرويت. كان يلمح الموت.

أمر البروفيسور "بيستومب"، كبير أطبائنا ذو العينين الفاتنتين، ليحيي فينا الروح، بإقامة نظام كامل شديد التعقيد من الأجهزة الكهربائية البراقة، التي كنا نخضع لتفريغ شحناتها الدورية المتدفقة في أجسادنا، التي كان يُزعم أنها تقوينا وأن علينا تقبلها، وإلا تعرضنا للطرد. من الواضح أن بيستومب كان واسع الثراء، من الضروري أن يكون كذلك حتى يمكنه شراء كل هذه "الكراكيب" المكهربة الغالية. أتاح له والد زوجته، سياسى بارز، تلاعب في أسعار شراء الأراضي التابعة للحكومة مستخدمًا سلطته، توفير هذه العطايا السخية.

كان لا بد من اغتنام الفرصة. كل شيء ينتظم. جرائم وعقوبات. ما كان لنا أن نكره بيستومب، بالوضع الذي كان عليه. كان يفحص أجهزتنا العصبية بعناية فائقة، وعندما يستجوبنا، كان ذلك يجري بنبرة مودة مهذبة. كانت تلك الطيبة المصنوعة بكل عناية تسري على نحو محبب عن الممرضات المتأنقات، العاملات في قسمه.

كل صباح، كانت هاتيك الجميلات ينتظرن اللحظة التي يستمتعن فيها بتجليات لطفه السامي، كان ذلك أمرًا ممتعًا. باختصار، كنا نلعب جميعًا في مسرحية ما، اختار فيها بيستومب أن يلعب دور العالم الخيِّر وبكل عمق، الإنسان المحبوب، كان المهم أن نتفاهم في ما بيننا، ليلعب كل منا دوره.

في المستشفى الجديد تقاسمت الغرفة مع الشاويش "برانليدور" المتطوع لفترة ثانية. كان نزيلاً قديمًا على المستشفيات، برانليدور هذا، ظل يجرجر أمعاءه المثقوبة، طوال شهور، في أربعة أقسام مختلفة من المستشفى.

كان قد تعلم خلال فترات إقامته في المستشفى أن يجتذب عطف الممرضات النافع، فضلاً عن أن يحافظ عليه. كثيرًا ما كان يقيء، يتبول، يتغوط دمًا، برانليدور، كما كان يجد صعوبة في التنفس، غير أن ذلك لم يكن كافيًا تمامًا ليفوز برضا واهتمام الفريق المعالج على نحو خاص، الذي كان قد شهد حالات أخرى مشابهة كثيرة. لذلك، كان برانليدور يصيح، بين نوبتَي اختناق، لو مر بجوار طبيب أو حتى ممرضة: "النصر! النصر! سوف ننتصر!" أو يغمغم بذلك من طرف وبكل رئتيه، حسب الحالة. هكذا حظي الرجل بأعلى تقدير أخلاقي بفضل تصرفاته المسرحية التي كانت تصدر في وقتها المناسب، المطابقة للغو الحماسة العدائي السائد. كانت لديه تلك المهارة، برانليدور.

لأن المسرح كان منصوبًا في كل مكان، كان من الضروري أن يلعب كلٌّ منا دوره، ولقد كان على صواب بالفعل، برانليدور؛ فليس هناك أيضًا ما يبدو أكثر حمقًا وإثارةً للغيظ، بالفعل، من متفرج بليد اعتلى خشبة المسرح صدفة. أليس من الواجب علينا، عندما نكون فوقها، أن نتحرك، نتوقد، نلائم نبرات أصواتنا، أن نعلن موقفنا أو أن نختفي؟ النساء، على وجه الخصوص، يحتجن إلى هذا العرض، هؤلاء العاهرات، وأمام الهواة المرتبكين، كنّ بلا رحمة. للحرب، بلا جدال، علاقة المبايض، النساء يطالبنها بأبطال، ومن لم يكونوا من

الأبطال عليهم أن يبدوا كذلك أو أن يعدوا أنفسهم لتحمل أكثر النكبات خزيًا وعارًا.

بعد ثمانية أيام مضت في هذا القسم الجديد، أدركنا الحاجة إلى ضرورة تغيير موقفنا النزري، بفضل برانليدور (بائع دانتيلا متجول في حياته المدنية)، وكان الرجال أنفسهم المذعورين والباحثين عن الظل والدعة، الذين سيطرت عليهم الذكريات المخزية للمجازر التي خاضوها، الذين كنّاهم عند وصولنا، قد تحولوا إلى زمرة شيطانية من الرجال الأشداء، مصممين كلهم على الانتصار، مدججين بشعارات الثأر والعبارات الرائعة. صارت لغتنا في الواقع لغة ثقيلة وفاحشة للغاية إلى حد أن هاتيك السيدات كن يخجلن منها أحيانًا، ولكنهن لم يشتكين أبدًا من ذلك، لأنه من المعروف أن الجندي يكون شجاعًا بقدر ما يكون مستهترًا، وغالبًا ما يكون جلفًا بدوره، وأنه كلما كان فظًّا، كان شجاعًا.

في البداية، ومع محاولاتنا تقليد برانليدور بأفضل ما يمكننا، لم يكن مظهرنا الوطني قد وصل بعد إلى حد الكمال تمامًا، لم يكن مقنعًا جدًّا. كنا نحتاج إلى أسبوع، بل حتى إلى أسبوعين من التدريبات المكثفة لنصل إلى المستوى المطلوب.

بمجرد أن لاحظ طبيبنا، البروفيسور بيستومب، التقدم الباهر في معنوياتنا، حتى قرر، من باب التشجيع، أن يسمح لنا ببعض الزيارات، بدءًا بزيارات أقاربنا.

يشعر بعض الجنود الموهوبين حقًّا، بحسب ما سمعت، عندما يخوضون المعارك بنوع من النشوة وحتى اللذة الطاغية. وما إن حاولت من جهتي تخيل لذة من هذا النوع شديد التفرد، حتى سقطت مريضًا طوال ثمانية أيام على الأقل، شعرت أني عاجز تمامًا عن قتل أي إنسان، لدرجة أنه كان من الأفضل أن أتخلى عن هذه الفكرة وأن أقطع صلتي بها على الفور. ليس لأن الخبرة

كانت تنقصني، فقد قاموا بأقصى ما في وسعهم لتشجيعي، لكن الموهبة هي التي خذلتني. لعله من الضروري أن أحظى بتأهيل أكثر تمهلاً.

يومًا ما قررت أن أُطلع بيستومب على المصاعب التي أعاني منها جسدًا وروحًا لأكون شجاعًا بقدر ما كنت أتمنى، وبقدر ما كانت الظروف، النبيلة بكل تأكيد، تقتضيه. تخوفت قليلاً من أن يبدأ في عدي صفيقًا ثرثارًا وقحًا.. لكن لا شيء من هذا على الإطلاق. على العكس! أعلن الأستاذ أنه سعيد لأنني في نوبة الصراحة هذه قد جئت أطلعه على ما كنت أشعر به يجيش في نفسي من ألم.

"إنك تتحسن، يا صديقي! ببساطة! أنت تتعافى!" هذا ما توصل إليه.

"هذا السر الذي بحت به، بمنتهى العفوية، أعده أنا، يا سيد باردامو، الدليل المشجع للغاية على تحسن ملحوظ في حالتك الذهنية. فضلاً عن أن ڤوديسكان، هذا المراقب المتواضع، لكن كم كان ثاقب النظر في ما يخص حالات العجز النفسي لجنود الإمبراطورية، كان قد سجل، منذ عام 1802، ملاحظات من هذا النوع في رسالة علمية صارت اليوم مرجعًا تعليميًّا، على الرغم من كونه مُهملاً ظلمًا من جانب طلابنا الحاليين، وقد رصد فيها، بحسب ما أرى، بكثير من الصحة والدقة بعض النوبات، التي يطلق عليها "اعترافات"، التي تطرأ فجأة على من يمرون بفترة نقاهة نفسية، وتعد علامة طيبة جدًّا من بين علامات أخرى. وقد استطاع أستاذنا الكبير دوبريه(24)، بعد قرابة قرن من الزمان، أن يضع بشأن هذه الأعراض نفسها، قائمة مصطلحاته، التي أصبحت شهيرة منذ ذلك الوقت فصاعدًا، والتي تظهر فيها هذه النوبة المماثلة تمامًا تحت اسم نوبة (استجماع الذكريات)، أزمة يجب أن تسبق بقليل، بحسب ما يقول المؤلف نفسه، عندما يسير العلاج على نحو سليم، الانكسار واسع النطاق لصور التفكير القلق والتحرير النهائي لمجال الوعي، ظاهرة ثابتة تسير عمومًا في مسار الشقاء النفسي. من ناحية أخرى، يطلق دوبريه في قائمة مصطلحاته المزدانة بالصور والاستعارات، التي استأثر بها وحده،

على هذه النوبة اسم (إسهال فكري مُجرد)، ويصاحبها لدى المريض إحساس شديد الإيجابية بالارتياح، استئناف ملحوظ جدًّا في نشاط الاتصالات مع الغير، استئناف ملحوظ جدًّا أيضًا لنشاط النوم، من بين أنشطة أخرى، حتى إننا نراه يمتد فجأة طوال أيام بكاملها، وأخيرًا تأتي مرحلة أخرى: نشاط ملحوظ للوظائف الجنسية، إلى حد أنه ليس من النادر أن نلاحظ لدى المرضى أنفسهم، الذين كانوا يعانون من برودة جنسية، رغبات جنسية شديدة. من هنا جاء تعبير: (إن المريض لا يدخل إلى مرحلة الشفاء، إنه يندفع إليها!) مثل ذلك المصطلح الذي يصف على نحو رائع، أليس كذلك، تلك النجاحات الاسترجاعية، والذي يميز به أحد كبار علماء النفس الفرنسيين في القرن الماضي، فيليبر مارجيتون. الاستئناف الناجح فعلاً للأنشطة العادية لدى المريض المتماثل للشفاء من مرض الخوف.. في ما يخصك يا باردامو، فأنا أعدك إذًا ومنذ الآن، متماثلاً للشفاء حقًّا، لعلك ترغب، باردامو، بما أننا قد وصلنا إلى هذه النتيجة المرضية، أن تعرف أني ومن الغد، تحديدًا، سوف أقدم إلى جمعية علم النفس العسكري بحثًا حول الصفات الأساسية للنفس البشرية.. إنه بحث قيم، أعتقد ذلك".

(24) Dupré، يمكن أن يكون الفيزيائي الفرنسي إرنست دوبريه Ernest Dupré. (المترجم)

"بالتأكيد يا أستاذ، هذه الموضوعات تستهويني".

"حسنًا، لتعلم، باختصار أنني أدافع في هذا البحث عن الأطروحة التالية: إن الإنسان، قبل الحرب، قد ظل بالنسبة إلى عالم النفس كائنًا مجهولاً مغلقًا، ووسائل علاج نفسه كانت لغزًا.."

"هذا هو بالضبط، رأيي المتواضع.. سيدي".

"الحرب، كما ترى يا باردامو، ومن خلال الوسائل الفريدة التي تتيحها لاختبار الأجهزة العصبية، تلعب دورها لمستكشف رائع لنفس البشرية! كان علينا، لنصل إلى ذلك، أن ننكب قرونًا، متأملين، على هذه الاكتشافات المرضية الحديثة. قرنًا من الدراسة المتأنية الشغوف.. لنعترف بذلك صراحةً.. إننا لم نكف حتى اليوم عن التشكيك في ثراء طاقات الإنسان العاطفية والروحية! لكن الآن، وبفضل الحرب، فقد تم الأمر.. لقد نفذنا، عبر اختراق، مؤلم بالتأكيد، لكنه حاسم وحتمي، إلى أعماق أرواحهم! ومع المكاشفات الأولى، لا يعود الدور لعلم النفس والباحث الأخلاقي العصريين، بالنسبة إليَّ أنا، بيستومب، لا يحتمل أي شك! إن إصلاحًا شاملاً لمفاهيمنا النفسية يفرض الآن نفسه!

لقد كان هذا هو رأيي أيضًا، الخاص، يا باردامو".

"إنني أعتقد، في الواقع يا سيدي، أنه يحسن لنا.."

"آه، أنت تعتقد ذلك أيضًا، باردامو، إنني لم أرغمك على أن تقول ذلك! هل ترى أن الخير والشر يتوزانان لدى الإنسان، أنانية من جهة وإيثار من أخرى.. ولدى النخبة يغلب الإيثار على الأنانية. أصحيح هذا؟ هل الأمر كذلك؟"

"هذا صحيح، يا سيدي، بل هو عين الحقيقة".

"ولدى أفراد النخبة، دعني أسألك، ماذا يمكن أن تكون أسمى المشاعر المعروفة التي يمكن أن تستنهض نزعتهم إلى إيثار الغير وتدفعها إلى التجلي على نحو لا ينازع، تلك النزعة الإيثارية؟"

"الوطنية يا سيدي!"

"آه، هل ترى، أنك أنت من قلت بنفسك! أنت تفهمني تمامًا.. باردامو! الوطنية ونتيجتها الطبيعية، المجد، بكل بساطة، الدليل عليها".

"هذا صحيح".

"آه، إن جنودنا الأعزاء، انتبه لهذا، ومنذ اختبارات النار الأولى قد تمكنوا من تحرير أنفسهم تلقائيًّا من كل السفسطات والمفاهيم غير الجوهرية، خصوصًا تلك المغالطات المتعلقة بحب البقاء. لقد انطلقوا غريزيًّا وعلى الفور لينصهروا في مبرر وجودنا الحقيقي، وطننا. للنفاذ إلى تلك الحقيقة، لا يكون العقل شيئًا زائدًا لا طائل منه فقط، باردامو، بل شيئًا مزعجًا ضارًّا! إنه حقيقة وجدانية، الوطن، حقيقة نابعة من القلب، مثل كل الحقائق الجوهرية. الناس لا يخطئون في هذا! وهنا بالتحديد يخطئ العالم السيئ".

"هذا رائع يا سيدي، رائع تمامًا! إنه من التراث!"

شد على يدي بما يشبه المودة، بيستومب.

بصوت صار أبويًّا، تكرّم مضيفًا بشأني: "هكذا كنت أنوي معالجة مرضاي، يا باردامو، بالكهرباء من أجل الجسد ومن أجل الروح، بواسطة جرعات قرية من الأخلاقيات الوطنية، بواسطة الحقن الحقيقية المقوية للأخلاق!"

"إنني أفهمك جيدًا يا سيدي".

الحقيقة أني كنت أفهم أفضل فأفضل.

ما إن غادرته، حتى توجهت بلا إبطاء مع رفاقي الذين استردوا عافيتهم إلى القداس في الكنيسة الصغيرة الجديدة، لمحت برانليدور، الذي كان يستعرض معنوياته العالية خلف الباب الكبير، حيث كان يلقي على ابنة البواب الصغيرة دروسًا في الحماس والمرح. كنت على وشك اللحاق به من فوري، عندما أشار إليَّ بذلك.

بعد الظهر، جاء بعض الأقرباء من باريس للمرة الأولى منذ كنا هنا، وبعد ذلك تكرر الأمر أسبوعيًّا.

كتبتُ إلى أمي مؤخرًا. كانت سعيدة برؤيتي من جديد وصارت تنهنه ككلبة أعادوا إليها أخيرًا جروها الصغير. بلا شك أنها كانت تعتقد أنها تساعدني بتقبيلها لي، لكنها ظلت مع ذلك أقل من الكلبة لأنها كانت تصدق ما قيل لها من أجل انتزاعي منها. فالكلبة على الأقل لا تصدق إلا ما تحسه. قمنا، أنا وأمي، بجولة كبيرة في الشوارع القريبة من المستشفى، بعد ظهر، مضينا متسكعين في الشوارع البدائية الموجودة هناك، شوارع لم تكن أعمدة الإنارة فيها قد طُليت بعد، بين الواجهات المستطيلة الراشحة ذات النوافذ المبرقشة بمئات الخرق المتدلية، قمصان الفقراء، نستمع إلى الجلبة الخافتة لموائد الطعام الفقيرة المنبعثة في الظهيرة، عاصفة من روائح الشحوم الرخيصة البائسة. في الإهمال الرخو الشامل الذي يطوق المدينة، هناك، حيث يرشح ترفها الكاذب وينتهي إلى عفن، تبدي المدينة لمن يريد أن يرى مؤخرتها الكبيرة في شكل صناديق القمامة. توجد مصانع يتفادى المرء المرور بها، تفوح بأنواع الروائح البغيضة شتى، بعضها لا يمكن تصور وجوده، حيث يرفض هواء الجوار أن يفوح بمزيد من العفن. على مقربة، تتعفن السوق المؤقتة، بين مدخنتين عاليتين غير متساويتين، بأحصنتها الخشبية التي بهتت ألوانها، المكلفة بأكثر مما يتحمله من قد يرغب في ركوبها، طوال أسابيع بكاملها، غالبًا يظل بعض الصغار الضامرين يتسكعون حولها، يسيل المخاط من أنوفهم، منجذبين، متدافعين، مطرودين ومتمسكين بالمكان في الوقت نفسه، أصابعهم في أنوفهم، وسط إهمال أهاليهم، وسط الفقر والموسيقى.

تُبذل كل الجهود لإخفاء حقيقة هذه الأماكن، التي كانت تعود لتبكي العالم بأسره، مهما حاولنا أن نفعل، مهما شربنا، حتى إن كان نبيذًا أحمر، كثيفًا كالحبر، تظل السماء هناك كما هي، منطبقة فوقها مثل بركة هائلة لأدخنة الضاحية. على الأرض، يدفعك الوحل إلى التعب، تصبح آفاق العيش مغلقة، مغلقة تمامًا بفنادق ومصانع أيضًا. صارت حوائط تلك الجهة نعوشًا بالفعل. لولا رحلت إلى الأبد، وميوزين كذلك، لم يبقَ لي أحد. بسبب كل هذا، انتهى الأمر بي بالكتابة إلى أمي حتى يمكن أن أرى أحدًا. في العشرين من عمري

لم يعد لديّ سوى ماضٍ. معًا كنت أنا وأمي نجوب شوارع وأخرى في يوم الأحد. روت لي أشياء تافهة عن تجارتها، عما كان يقال حولها في المدينة، وقت الحرب، كم كانت حزينة تلك الحرب، بل "مخيفة"، لكن بكثير من الشجاعة، سوف ننتهي جميعًا إلى الخروج منها سالمين. بالنسبة إليها، لم يكن القتل سوى حوادث، كما يجري في السباقات، إن انتبه المرء جيدًا، فإنه لا يسقط. عن نفسها، لم تجد في الحرب سوى شجن هائل جديد حاولت ألا تثيره كثيرًا، كأن هذا الشجن يخيفها، تكتنفه أشياء مرعبة لم تكن تفهمها. كانت تعتقد، في قرارة نفسها، أن البسطاء من شاكلتها قد خُلقوا ليكابدوا كل شيء، كان هذا فقط دورهم فوق الأرض، وأنه إذا كانت الأمور قد جرت بهذا السوء مؤخرًا، فلا بد أن ذلك يرجع أيضًا، في جانب كبير منه، إلى ما اقترفوه من آثام متراكمة، هؤلاء البسطاء.. لا بد أنهم قد ارتكبوا بعض الهفوات، دون أن ينتبهوا، بكل تأكيد، لكنهم مع ذلك كانوا مذنبين وقد كان من اللطيف جدًّا بالفعل أن يُمنحوا فرصة التكفير عن سيئاتهم عبر تلك المعاناة.. لقد كانت واحدة من طائفة "المنبوذين"، أمي.

كان هذا التفاؤل المستسلم والمأساوي بمثابة العقيدة بالنسبة إليها وشكَّل جوهر طبيعتها.

رحنا، نحن الاثنين، نسلك الشوارع الجاري تقسيمها، تحت المطر، كانت الأرصفة تغور في الأرض وتضيع حدودها، وأشجار الدردار الصغيرة على جانبها، التي كانت تحتفظ بقطرات الماء طويلاً على فروعها في الشتاء، كانت ترتعش تحت الريح.. مشهد فاتن رقيق. يمر طريق المستشفى أمام العديد من الفنادق الجديدة، بعضها كان يحمل اسمًا وآخرون لم يكلفوا أنفسهم حتى عناء ذلك. "للإيجار.. أسبوعيًّا"، هذا ما كان مكتوبًا، بكل بساطة. كانت الحرب قد أفرغتها بقسوة ممن كانت تضم من العمال المؤقتين والعمال الدائمين. لم يكن النزلاء ليعودوا إليها كي يموتوا فيها. هذا الموت، كان مهمة أيضًا غير أنهم كانوا يؤدونها في مكان آخر.

أعادتني أمي إلى المستشفى متباكية، كانت قد تقبلت حادث موتي، لم تكن قد رضيت به من قبل، لكنها كانت تتساءل إذا ما كان لديَّ التسليم نفسه الذي لديها. كانت تؤمن بالقضاء والقدر، بقدر ما كانت تؤمن بمترها الخشبي البديع في مدرسة الفنون والصنائع، الذي طالما حدثتني عنه في شبابها.. إن هذا المتر الذي كانت تستخدمه في متجرها الصغير للوازم الملابس والخياطة كان نسخة طبق الأصل من ذلك النموذج الرسمي الرائع.

وسط تقسيمات ذلك الريف المتردي، ما زال بعض الحقول وبعض الزراعات موجودًا هنا وهناك، بل هناك بعض الفلاحين من كبار السن، يتشبثون بهذه البقايا، محاصرين بين البيوت الجديدة. عندما كان يتبقى لنا بعض الوقت قبل العودة في المساء، كنا نذهب لنشاهد، أنا وأمي، هؤلاء الفلاحين غريبي الأطوار المنهمكين بكل جدية في نبش هذا الشيء الرخو الذي يطرح الحبوب، تلك الأرض، حيث يُدفن الموتى ليتحللوا ومن حيث يأتي الخبز مع ذلك أيضًا. "لا بد أنها شاقة، أعمال الأرض!" هذا ما كانت تقوله أمي، مرتبكة في كل مرة كانت تراهم فيها. واقع الحال أنها لم تكن تعرف من صور البؤس إلا تلك التي تشبه عذاباتها، معاناة أهل المدن، كانت تحاول أن تتخيل ما يمكن أن تكونه عذابات الريف. كان ذلك هو الفضول الوحيد الذي عرفته لديها طوال عمري، وهو ما كان يكفيها، مصدرًا للسلوى، بالنسبة إلى يوم أحد. كان ذلك ما عادت به إلى المدينة.

لم أعد أتلقى أي أخبار عن لولا مطلقًا، ولا عن ميوزين هي الأخرى، لقد ظلت العاهرتان في الجانب الآمن والمريح من الموقف بكامله، حيث تسود تعليمات بشوش، لكنها صارمة، باستبعادنا نحن الآخرين، نحن الذبائح المكرسة للقرابين.

هكذا اقتادوني من جديد مرتين إلى المواقع التي يحتجز فيها الرهائن. مسألة وقت وانتظار ليس إلا. لقد قُضي الأمر.

الفصل 11

المقطع الثامن

تمتع "برانليدور"، جاري في المستشفى، كما قلت لكم، بشعبية دائمة لدى الممرضات. كان مغطى بالضمادات، بينما تفيض روحه بالتفاؤل. كان الجميع بالمستشفى يغبطه ويحاكي تصرفاته. بعد أن تحسن مظهرنا وصرنا لائقين نفسيًّا، بدأنا بدورنا في تلقي زيارات شخصيات بارزة من كل أنحاء العالم وأصحاب المناصب العليا في دوائر الحكومة في باريس. في لقاءات الصالونات هذه، كنا نكرر ما نقول، أن المركز الطبي - العصبي للبروفيسور "بيستومب" قد أصبح المعقل الحقيقي للنخوة الوطنية المتوقدة، المَحْج، إن جاز التعبير. منذ ذلك الوقت فصاعدًا لم نتلقَ زيارات أساقفة فقط، بل زارتنا دوقة إيطالية، واحدة من كبار موردي الذخائر، وبعدها بقليل الأوبرا شخصيًّا وأرباب المعاشات من ممثلي فرقة "المسرح - الفرنسي". جاؤوا جميعًا لرؤيتنا في المستشفى. بل إن إحداهن، شابة جميلة، عضو في فرقة "الكوميدي فرانسيز"، كانت تلقي الشعر ببراعة لا تُجارى، قد جاءت حتى سريري لتنشدني منه أبياتًا بطولية على نحو خاص. في أثناء ذلك الوقت، كانت موجات مذهلة تسري في شعرها الأصهب المثير (كان لون بشرتها يناسبه تمامًا)، موجات كانت تصلني مباشرةً عبر ارتعاشات كنت أحسها أسفل بطني. عندما كانت تلك المخلوقة الإلهية تسألني عما قمت به في الحرب، كنت أروي لها كثيرًا من التفاصيل وبعضها كان شديد الإثارة، بالغ الحدة، حتى إن عينيها لم تفارقاني بعد ذلك. متأثرة باستمرار، طلبت مني أن يصوغ أحد معجبيها من الشعراء أقوى المقاطع التي رويتها لها وأكثرها حماسة. وافقتُ على الفور. أعلن البروفيسور بيستومب، الذي وصله خبر هذا المشروع، موافقته وترحيبه الخاص. بل إنه أجرى في اليوم نفسه مقابلة مع

مراسلي صحيفة كبرى "المُصور الوطني" التي التقطت لنا جميعًا صورًا جماعية على درج مدخل المستشفى إلى جوار الشريكة الجميلة. قال البروفيسور بيستومب الذي لا يدع فرصة تمر دون أن يستغلها: "إن واجب الشعراء الأسمى، خلال هذه الأوقات المأساوية التي نجتازها، أن يعيدوا إلينا حب ملاحم البطولة! ليس هذا وقت المؤلفات التافهة البائسة! سحقًا للأدب عديم الحس! لقد بزغت فينا روح جديدة وسط صخب المعارك الهادر النبيل! إن انطلاقة البعث الوطني تقتضي ذلك من الآن فصاعدًا، ذرى مجدنا العالية المنشودة! إننا نطالب بإلهام القصائد الملحمية الرائع! ومن ناحيتي فإنني أعلن موافقتي وإعجابي بأن تقوم، في المستشفى الذي أديره، تحت أنظارنا، على نحو لا ينسى، إحدى صور التعاون السامي الخلاق بين الشاعر وأحد أبطالنا!"

برانليدور، رفيقي في الغرفة، الذي كان خياله في ذلك الوقت أبطأ من خيالي، والذي لم يظهر في الصورة أيضًا وأضمر جراء ذلك غيرة دفينة متأججة، أخذ منذ ذلك الوقت في منازعتي تلك البطولة بكل وحشية. اخترع حكايات جديدة، تفوّقَ عن ذي قبل، لم يعد من الممكن إيقافه، صارت أعماله البطولية تشبه الهذيان.

أصبح من الصعب أن أجد حكايات أقوى، أن أضيف شيئًا آخر إلى تلك المبالغات التي يرويها، ومع هذا فلم يستسلم أحد في المستشفى، كان لا بد لأي واحد منا، مدفوعًا بالمنافسة، أن يختلق "صفحات حرب جذابة" أكثر من غيرها، يظهر فيها نبيلاً وساميًا. عشنا رواية ملحمية، في إهاب شخصيات وهمية خارقة، لكننا في أعماقنا كنا نرتعد بكل ما فينا من جسد وروح. ربما ذهل الناس لو اكتشفوا حقيقتنا. كانت الحرب تبلغ أوجها.

ما زال بيستومب العظيم يتلقى إلى الآن زيارات العديد من كبار رجالات الدولة الأجانب، ورجال العلم، والمحايدين، ومتشككين وفضوليين. مفتشو عموم الوزارة يمرون متقلدين سيوفهم متألقين عبر عنابرنا، هؤلاء الذين

امتدت حياتهم العسكرية، فارتدوا شبانًا، انتفخت جيوبهم بعلاوات وبدلات جديدة. لهذا لم يبخل المفتشون قط بالأوسمة وعبارات المديح. سار كل شيء على ما يرام. أصبح بيستومب وجرحاه الرائعون فخر الإدارة الصحية.

عادت راعيتي الجميلة ممثلة المسرح الفرنسي لتزورني بعد قليل بنفسها مرة أخرى، على انفراد، بينما كان شاعرها المقرّب ينهي رواية أعمالي البطولية شعرًا مقفى. لقد قابلته أخيرًا، هذا الشاب، كان شاحبًا، قلقًا، في مكان ما، عند منعطف أحد الأروقة. كان ضعف أوتار قلبه، كما باح لي، بحسب رأي الأطباء ذاته، معجزة كونية، لهذا أبقاه هؤلاء الأطباء الحريصون على حياة المخلوقات الضعيفة بعيدًا عن ساحات القتال. في المقابل، كان هذا الشاعر البطولي الرهيف قد تعهد، مجازفًا بصحته ذاتها وبكل طاقته الروحية السامية، أن يصوغ، من أجلنا، "السلاح الأدبي لانتصارنا"، سلاح رائع، من أبيات خالدة، بالطبع، مثل كل الباقي.

ما كان لي أن أتذمر، لأنه اختارني من بين الشجعان الآخرين الذين لا تُنكَر شجاعتهم لأكون بطله! من جهة أخرى، فلقد عوملت، لنعترف بذلك، معاملة تليق بملوك، كان هذا أمرًا رائعًا بالفعل. جرت وقائع الحفل على مسرح الكوميدي فرانسيز نفسه، خلال أمسية يسمونها شعرية. دُعي المستشفى بكامله للحفل. عندما ظهرت جميلتي الصهباء على خشبة المسرح، منشدة، متهدجة، فاتنة اللفتات، ملفوفة بعناية في ثنيات الثوب التي صارت مثيرة وقد اكتست بألوان العلم الفرنسي، كان ذلك إشارة إلى كل مَن كان بالصالة، واقفين، مدهوشين، متشوقين، بالبدء في واحدة من تلك الهتافات التي لا تنقطع. كنت مهيئًا للأمر، بكل تأكيد، لكن دهشتي رغم ذلك كانت حقيقية، لم يعد بمقدوري أن أخفي اندهاشي عمن يجلسون بجواري عند سماعها تتهدج، وهي تحث الجمهور بهذه الطريقة، تلك الصديقة الرئعة، بل وتئن، لتجعل المأساة التي تضمنها الحادث الذي اختلقته من أجلها أكثر تأثيرًا. لقد تفوق شاعرها بكل يقين عليَّ في سعة الخيال، ضخَّم أيضًا خيالاتي بصورة هائلة،

مستعينًا بقوافٍ متوهجة براقة، أوصاف خلابة، كان لها وقع مهيب في صمت القاعة التام المُعجب بما يدور. عندما وصلت إلى مطلع أحد المقاطع، أكثرها حرارةً في القصيدة، توجهت الفاتنة نحو المقصورة التي كنا نجلس فيها، برانليدور وأنا شخصيًّا وبعض الجرحى الآخرين، مادة ذراعيها البديعتين، بدت كأنها تهب نفسها لأعظمنا بطولة. كان الشاعر يصوِّر في تلك اللحظة، بكل إجلال، ملمحًا بديعًا من شجاعة كنت قد نسبتها إلى نفسي. لم أعد أدري تمامًا ما الذي جرى، لكن ذلك لم يكن بفعل خمر رديئة. لحسن الحظ، ليس هناك ما يمكن تصديقه في مجال البطولة. أدرك الجمهور دلالة هذا القربان الفني وتحولت القاعة بكاملها نحونا، هادرة بصيحات الإعجاب، تدق الأرض بأرجلها، مأخوذة بالفرح، تستدعي البطل.

استأثر برانليدور بصدارة المقصورة، غطى علينا جميعًا، لأنه استطاع أن يخفينا بالكامل تقريبًا خلف ضمادته. لقد فعل ذلك عمدًا، ذلك النذل.

لكن اثنين من رفاقنا تسلقا المقاعد الخلفية، تمكنا رغم ذلك من أن ينالا تقدير وإعجاب الجمهور من فوق كتفيه ورأسه. صفق لهما الحضور بكل قوة.

"لكن المسألة تتعلق بي أنا.. تخصني أنا وحدي" كدت أصرخ ساعتها، كنت أعرف برانليدور جيدًا، كان من الممكن أن نتبادل السباب أمام الجميع، بل وربما تعاركنا. في النهاية، كان هو من خطف الأبصار. استطاع أن يفرض نفسه. منتصرًا، بقي وحده لينال التكريم العظيم، كما كان يريد. مهزومين، لم يعد متبقيًا أمامنا سوى أن نسرع إلى "الكواليس"، وهذا ما قمنا به، وهناك، ولحسن الحظ، احتفلوا بنا مرة أخرى من باب المواساة. غير أن ممثلتنا الملهمة لم تكن بمفردها في مقصورتها.. إلى جوارها، جلس الشاعر، شاعرنا، شاعرها. كان هو الآخر مثلها يحب الجنود صغار السن، بكل تهذيب. أفهماني ذلك بطريقة فنية. صفقة. كررا لي ذلك، لكني لم أعر أي انتباه إلى تلميحاتها الرقيقة. لكن سحقًا لي، لأن الأمور كان من الممكن أن تستقيم.

كان لهما نفوذ واسع. أَعفيت من الخدمة فجأة، ولغبائي غاظني ذلك. كنت غرًّا.

لنلخص المسألة: اختطف الطيارون لولا مني، الأرجنتينيون أخذوا ميوزين وأخيرًا كان هذا اللوطي المتناغم قد خطف مني للتو ممثلتي الفاتنة. منهارًا، بينما آخر أنوار الأورقة كانت تنطفئ، غادرت المسرح، عدت وحدي في الليل، بلا ترام، إلى مستشفانا، ذلك الفخ المنصوب في قلب الأوحال اللزجة والضواحي العاصية.

الفصل 12

المقطع التاسع

من دون تصنُّع، يجب أن أعترف أنني لم أكن قط شخصًا متزنًا وشديد الرصانة. لكن الآن، ولأتفه سبب صارت تنتابني حالات دوار، حتى تكاد السيارات تدهسني. كنت أترنح متعثرًا في وقت الحرب. بالنسبة إلى مصروف الجيب، لم يكن باستطاعتي أن أعتمد في أثناء إقامتي في المستشفى إلا على الفرنكات القليلة التي كانت أمي تعطيني إياها بمشقة كبيرة كل أسبوع. لهذا بدأت، بمجرد أن أصبح ذلك ممكنًا، في السعي وراء بعض الأموال الإضافية، من هنا وهناك، حيثما استطعتُ توقعها. في البداية، بدا لي أن أحد من عملت لديهم في ما مضى مناسب لهذا الغرض، وسرعان ما تلقّى زيارة مني.

تذكرت الأمر في حينه تمامًا، تذكرت أني قد عملت بعض الأوقات البائسة لدى المدعو روچية بوتا Roger Puta الصائغ بميدان "لامادلين" La Madeleineكموظف إضافي، قبل إعلان الحرب بوقت قصير. كانت مهمتي "الإضافية" لدى هذا الصائغ الحقير تنظيف مشغولات المحل الفضية، الكثيرة، المتنوعة، صعبة الصيانة، في أثناء الأعياد التي تقدم فيها الهدايا، بسب عبث الزبائن المستمر بها.

بمجرد أن تغلق الكلية أبوابها، تلك التي كنت أتابع فيها دراسات صعبة طويلة لا تكاد تنتهي (بسبب الامتحانات التي رسبت فيها)، كنت أمضي ركضًا لألحق بالمخزن الخلفي لحانوت السيد "بوتا"، وأجتهد لمدة ساعتين أو ثلاث في تنظيف علب "الشوكولاتة" المصنوعة من الفضة الإسبانية، وذلك حتى يحين موعد العشاء.

لقاء عملي، كانوا يطعمونني، بسخاء على أي حال، في المطبخ. كان من ضمن عملي أيضًا، من جانب آخر، أن أقوم بتمشية كلاب حراسة المحل وتمكينها من قضاء حاجتها، كان ذلك يجري قبل موعد المحاضرات. كل هذا مقابل أربعين فرنكًا في الشهر. كان محل مصوغات "بوتا" يتألق بآلاف الماسات، على ناصية شارع "ڤينيون" Vignon، وكل واحدة من تلك الماسات كانت تساوي مرتبي خلال بضع عشرات من السنين، فضلاً عن أنها ما زالت تلمع هناك دائمًا تلك الجواهر. عندما أُعلنت التعبئة العامة، أُحيل السيد "بوتا" إلى الاحتياط، وعلى نحو خاص، وُضع في خدمة أحد الوزراء، كان يقود له سيارته من حين إلى آخر، لكن من جهة أخرى، وهذه المرة على نحو غير رسمي تمامًا، صار "بوتا" أكثر نفعًا بتوريد مجوهرات الوزارة. كان كبار الموظفين يضاربون بنجاح كبير على الصفقات المعقودة أو التي يُنتظر إبرامها. كلما أوغل في الحرب، زادت الحاجة إلى المجوهرات، حتى إن السيد "بوتا" صادف بعض المشقة في تلبية الطلبات لكثرة ما تلقى منها.

عندما يكون مُجهدًا ينجح السيد "بوتا" في اتخاذ بعض مظاهر الفطنة، وفي تلك الأوقات فقط، بسبب الارهاق الذي يتملكه. أما عندما يكون مرتاحًا، فإن وجهه، ورغم دقة ملامحه التي لا يمكن الجدال بشأنها، كان يمثل تناسقًا ووداعةً بلهاء، من الصعب ألا يحتفظ المرء، إلى الأبد، بذكرى مزعجة عنه.

كانت زوجته، مدام "بوتا"، تمثل وخزينة المحل كيانًا واحدًا، لم تكن تفارقها، إن جاز القول، مطلقًا. لقد نشأت لتكون زوجة صائغ. طموح أبوي. كانت تعرف واجبها، كل واجبها. كان الزواج سعيدًا وفي الوقت نفسه كانت الخزينة عامرة. لم تكن السيدة بوتا قبيحة على الإطلاق، بل لعلها كانت جميلة إلى حد كافٍ، مثل كثير من الأخريات، لكنها كانت شديدة الحذر، شديدة التوجس، ولذا، توقفت عند حافة الجمال، كما توقفت عند حافة الحياة، بشعرها المُمَشط بأكثر قليلاً مما يجب، ابتسامتها المفاجئة القريبة بأكثر قليلاً مما يلزم، ببعض التصرفات والإيماءات السريعة أو الخفية بأكثر قليلاً مما يجب.

كنا نصاب بالضيق وينفد صبرنا عند التفكير في هذا الحرص الشديد في تلك المرأة وأسباب الانزعاج والحرج اللذين نشعر بهما، رغم كل شيء، عند الاقتراب منها. كان هذا النفور الغريزي الذي يوحي به التجار إلى من يقترب منهم ومن كان يعرفهم، إنه أحد أشكال العزاء النادرة التي يشعر بها مثل هؤلاء البؤساء الذين لا يبيعون شيئًا إلى أحد.

كانت مشاغل التجارة، ضيقة الأفق، تستحوذ إذًا على مدام بوتا بالكامل، مثلها مثل مدام إيروت تمامًا، لكن بصورة أخرى، ومثلما يتملك الرب راهباته، جسدًا وروحًا.

مع هذا، فمن وقت إلى آخر، كانت ربة عملنا تشعر بما يشبه همًّا صغيرًا تجره الظروف. وهكذا كان يصدف أن تستسلم للتفكير في آباء هؤلاء الجنود المحاربين. "يا لها من نكبة هذه الحرب على أي حال، لمن لديهم أطفال كبار!"

"فكري إذًا قبل أن تتكلمي!" سرعان ما كان زوجها يوبخها، الذي كان يرى في كلامها حساسية متكلفة، هو، ذلك المتأهب، الحاسم. "أليس من الواجب أن يُدافَع عن فرنسا؟"

هكذا، طيبا القلب، لكن وطنيان وفيان قبل كل شيء، كانا يرقدان للنعاس في كل أمسيات الحرب فوق ملايين محلهما، غير مبالين إجمالاً، موقف فرنسي.

في دور البغاء التي كان السيد بوتا يرتادها بين حين وآخر، كان الرجل يبدو حاسمًا وراغبًا في ألا يظنوه أحد المبذرين. "لست إنجليزيًّا، أنا، يا جميلتي. كان يقول محتاطًا منذ البداية. أنا أعرف كيف يجري العمل! أنا مجرد جندي فرنسي غير متعجل!" هكذا يكون تصريحه الافتتاحي. كانت النساء يقدرنه كثيرًا لطريقته الحكيمة في الاستمتاع بهن. رجل يعرف كيف يستمتع دون أن يكون مغفلاً. استفاد الرجل مما كان يعرفه عن عالم المجوهرات في إبرام

بعض الصفقات مع نائبة القوادة، التي لم تكن تؤمن بالاستثمار في البورصة. كان السيد بوتا يتقدم على نحو مذهل من وجهة النظر العسكرية. من تصاريح مؤقتة إلى تأجيلات نهائية. بعد قليل سُرِّح تمامًا، بعد عدد غير معروف من الزيارات الطبية المواتية. كان يعد تأمل ربلات السيقان الجميلة، تحسسها لو أمكن، واحدة من أسمى متع حياته. كان ذلك على الأقل، متعة يتفوق بها على زوجته، تلك المكرسة للتجارة وحدها. عندما تتساوى الخصال، فإننا نجد لدى الرجل، على ما يبدو، مهما كان بليدًا، قصير النظر، بعض القلق، بأكثر مما يوجد لدى المرأة. باختصار، كان بوتا هذا مشروع فنان صغير. وكثير من الرجال يكتفون في مجال الإعجاب بالفنون بالهوس بسمانات السيقان الجميلة. كانت مدام بوتا راضية تمامًا، لأنها لم تنجب أطفالاً. غالبًا ما كانت تُظهر رضاها عن كونها عقيمًا مثل زوجها هو الآخر، الذي انتهى به الحال إلى الإفصاح عن رأيه هذا إلى نائبة القوادة. "مع هذا، فمن الضروري أن يذهب أبناء شخص ما إلى الحرب، ما دام ذلك واجبًا!" هذا ما كانت ترد به تلك المرأة بدورها. حقًّا إن الحرب تقتضي بعض الواجب.

لم يكن للوزير الذي يقود بوتا سيارته أولاد هو الآخر، الوزراء لا ينجبون أطفالاً.

نحو عام 1913، كان هناك عامل مؤقت آخر يقوم في الوقت نفسه معي بأشغال المحل الصغيرة.. كان هذا "چان ڤواروز" Voireuse، الذي كان يعمل ليلاً في المسارح الصغيرة، ممثلاً صامتًا، بعد الظهر كان يوصل الطلبات لدى بوتا. كان هو الآخر يقنع بأقل راتب ممكن، لكنه كان يدبر أموره بفضل المترو. للقيام بمشاويره، كان يذهب على قدميه بسرعة المترو نفسها.. تقريبًا. وعليه كان يضع ثمن بطاقة المترو في جيبه. عمل إضافي. كانت قدماه تفوحان برائحة كريهة، حقًّا، بل تفوحان بشدة، لكنه كان يعرف هذا، وكان يطلب مني أن أنبهه عندما يخلو المحل من الزبائن حتى يتمكن من دخوله بلا أضرار وإنجاز معاملاته مع مدام بوتا بهدوء. بمجرد أن تُورد النقود، كان يُرسل فورًا إلى المخزن الخلفي ليلحق بي هناك. كانت قدماه قد أفادتاه كثيرًا في أثناء

الحرب أيضًا. لقد اشتهر بأنه أسرع "جندي اتصال" في كتيبته. كان چان قد جاء لزيارتي في أثناء فترة النقاهة في حصن "بيستر"، بل إننا كنا قد قررنا بمناسبة تلك الزيارة أن نذهب معًا للانقضاض على رب عملنا القديم. نفذنا ما اتفقنا عليه. في الساعة التي وصلنا فيها إلى جادة "لامادلين"، كانوا ينتهون من ترتيب المعروضات.

"عجبًا! آه! ها أنتما الاثنان! قالها بوتا مندهشًا قليلاً عند رؤيتنا. ادخلا! أنا سعيد بكما على كل حال. أنت، "فواروز" تبدو بصحة جيدة! حسنًا! أما أنت! باردامو، فتبدو مريضًا، يا صغيري! على أي حال! أنت ما زلت شابًّا! الصحة سوف تُسترد! أنتما محظوظان في ذلك، على الرغم من كل شيء، أنتما الاثنان! يمكن للمرء أن يقول ما يريده، أنتما تعيشان أيامًا رائعة، أليس كذلك؟ هناك؟ في الهواء الطلق؟ هذا جزء من التاريخ يا أصدقائي، وإلا فإني لا أعرف شيئًا! ويا له من تاريخ!"

لم نرد بشيء على السيد بوتا، تركناه يقول كل ما يريد قبل أن نباغته، وعليه، فقد واصل حديثه:

"آه، إنها حقًّا قاسية حياة الخنادق! تلك حقيقة! لكنها قاسية جدًّا هنا أيضًا، لو تعلمان! لقد سقطتما جرحى، أليس كذلك؟ عن نفسي، فأنا مرهق، منذ عامين وأنا أعمل في المدينة ليلاً، ألا تلاحظان ذلك؟ مرهق تمامًا! ميت! آه! شوارع باريس في الليل، أعزائي، دون أنوار.. أن تقود فيها سيارة، وغالبًا ما يكون الوزير داخلها! وبسرعة أيضًا! لا يمكنكما تصور ذلك! أن يتعرض المرء للقتل عشر مرات في كل ليلة!"

"آه نعم! الأمر لم ينتهِ".

"شيء فظيع". أردفنا معًا.

"والكلاب؟" سأل ڤواروز ليبدو مؤدبًا. "ماذا جرى لها؟ هل ما زالت تؤخذ للنزهة في حدائق التوليري؟"

"لقد أمرت بإعدامها، كانت تضر بي، لم يكن ذلك لائقًا في المحل. كلاب الچيرمن شيبرد!"

"كان ذلك أمرًا محزنًا!" قالت زوجته في أسف. "لكن الكلاب الموجودة لدينا الآن لطيفة جدًّا، إنها كلاب أسكتلندية.. إن لها بعض الرائحة.. بينما كلابنا الألمانية.. هل تذكر ڤواروز؟ لم تكن لها أية رائحة إن جاز القول. كان بإمكاننا إبقاؤها في المحل، حتى بعد المطر".

"أي نعم!" أضاف السيد بوتا، "إنها ليست مثل المسكين ڤواروز، بقدميه! أما زالتا تفوحان دائمًا، قدماك، چان، آه يا ڤواروز المسكين!"

"أظن أنها ما زالت تفوح.. قليلاً". رد ڤواروز. وفي تلك اللحظة دخل بعض الزبائن.

"لن أعطلكما أكثر من ذلك، يا أصدقائي"، قالها السيد بوتا مهتمًا بإبعاد ڤواروز عن المحل بأسرع ما يمكن. "أتمنى لكما على الأخص صحة طيبة! لن أسألكما من أين أتيتما! لا أبدًا! الدفاع عن الوطن يأتي قبل كل شيء، هذا هو رأيي!"

عند عبارة "الدفاع عن الوطن" غدا السيد بوتا في غاية الجدية، كما تكون حاله عندما يرد باقي النقود إلى عميل ما. هكذا أوحى إلينا بالانصراف. عند انصرافنا منحت مدام بوتا كل واحد منا عشرين فرنكًا. كان المحل لامعًا براقًا كأنه يخت، لم نعد نجرؤ على اجتيازه من جديد بسبب أحذيتنا التي بدت بشعة القبح فوق البساط الرقيق الأنيق.

"آه، انظر إليهما، روچيه، هما الاثنين! كم هما مضحكان! لم يعودا معتادين المكان، يبدو أنهما قد خاضا في شيء ما!" قالت مدام بوتا متعجبة.

"ستعود إليهما طبيعتهما!" قال بوتا مجاملاً، طيب القلب وسعيدًا بالتخلص منا بمثل هذه السرعة وبهذا القدر اليسير من الكلفة.

بعد أن صرنا بالشارع، فكرنا في أننا لن نمضي بعيدًا بهذه الفرنكات العشرين في جيب كل منا، غير أن ڤواروز، عن نفسه، كانت لديه فكرة تكميلية.

"لنذهب إلى أم صديق مات في الحرب، عندما كنا في لاموز، أنا أذهب إلى هناك مرة كل ثمانية أيام، إلى منزل والديه، لأروي لهما كيف لقي ابنهما مصرعه. إنهما من الأغنياء، أمه، تعطيني المئة فرنك في كل مرة.. إنهما يقولان إن ذلك يسعدهما.. هل تفهم؟"

"ماذا سأفعل هناك، في بيتهما؟ ماذا سأقول لأمه؟"

"حسنًا، ستقول لها إنك رأيته، أنت أيضًا.. سوف تمنحك مئة فرنك أنت أيضًا.. قلت لك إنهم أثرياء حقًّا هؤلاء الناس! وإنهم ليسوا مثل ذلك البخيل بوتا، إنهم لا ينظرون إلى مثل هذه الأشياء".

"أنا موافق، لكن ألن تسألني عن بعض التفاصيل؟ هل أنت متأكد؟ لأني لم أعرفه، أنا، ابنهما هذا.. سوف أرتبك إن سألتني عن ذلك".

"لا.. لا، لا تحمل همًّا، أنت ستقول مثلي تمامًا.. سوف تومئ برأسك.. نعم.. نعم.. لا تنشغل بهذا! إنها حزينة تلك المرأة.. هل تفهم؟ وما إن يحدثها أحد عن ابنها حتى تهدأ وتقر عينها. إنها لا تتمنى غير ذلك. قل لها أي شيء، ليس ذلك أمرًا عسيرًا".

"توصلت بصعوبة إلى اتخاذ قراري، كنت أرغب بشدة في المئة فرنك هذه التي كانت تبدو لي سهلة المنال على نحو استثنائي كأنها منحة آلهية".

"موافق، قررت أخيرًا. لكن يجب حينها ألا أخترع شيئًا، ها.. قد قلت لك! لقد وعدتني.. أليس كذلك؟ سأردد ما تقوله أنت، لا أكثر، لكن أخبرني أولاً كيف

مات الفتى؟"

"لقد تلقى قذيفة في أم رأسه، يا صاحبي، فضلاً عن أنها لم تكن صغيرة، كان ذلك في منطقة تسمى جارانس Garance في مقاطعة لاموز على ضفة نهر ما. لم نعثر على أي أثر من جثة الفتى، لا شيء يا عزيزي! لم تتبقَ منه سوى ذكرى.. مجرد ذكرى.. مع أنه، لو تعرف، كان طويلاً، متناسق التكوين، ذلك الفتى وقوي البنية، ورياضيًّا أيضًا. لكن أمام قنبلة؟ لا مجال للمقاومة!"

"حقًّا!"

"أزيل من الوجود، أقول لك إنه قد انمحى من الوجود. أمه ما زالت غير قادرة على تصديق الأمر حتى يومنا هذا! عبثًا حاولت أن أقول وأعيد القول في هذا الموضوع. إنها تريد أن يكون مفقودًا وحسب.. من الحمق أن تسيطر عليها فكرة كهذه.. مفقود! ليس هذا خطؤها، إنها لم ترَ قذيفة قط، إنها لا تستطيع أن تستوعب فكرة أن يتلاشى المرء في الهواء هكذا، كأنه (فسوة)، ثم ينتهي الأمر، خصوصًا أنه ابنها".

"بالطبع!"

"أولاً، أنا لم أذهب إلى هناك منذ خمسة عشر يومًا، لكنك سوف ترى عندما أصل إلى المنزل، سوف تستقبلنى الأم على الفور، في الصالون، فضلاً عن أن منزلهم، لو تعلم، جميل، إنه يشبه مسرحًا، لكثرة ما فيه من ستائر، سجاجيد، مرايا في كل مكان. مئة فرنك، لو تعلم، لا ينبغي أن تزعجهم كثيرًا.. إنها مثل مئة مليم بالنسبة إلي، أو هكذا تقريبًا.. بل إنها مستعدة أن تعطيني مئتين اليوم. إنها لم ترني منذ خمسة عشر يومًا. سوف ترى الخدم بأزرارهم الذهبية، يا صديقي".

في شارع "هنري مارتان" الواسع انعطفنا يسارًا ومن ثم تقدمنا أيضًا مسافة صغيرة، أخيرًا، وصلنا أمام سياج حديدي وسط أشجار ممشى خاص صغير.

"كما ترى! قال ڤواروز عندما صرنا أمام المنزل تمامًا، إنه يشبه قصرًا.. لقد قلت لك هذا من قبل.. الأب شخص نافذ في السكك الحديدية.. هذا ما قيل لي.. إنه أحد كبار رجال السلطة".

"ألا يكون ناظر محطة ما؟" قلت له مازحًا.

"لا تضحك. ها هو هناك.. ذلك الذي يهبط الطريق، إنه قادم نحونا".

غير أن الرجل العجوز الذي أشار إليه لم يأتِ إلينا مباشرةً، كان يمشي محني الظهر حول باحة منزله المغطاة بالعشب مع أحد الجنود. اقتربنا. عرفت الجندي، كان جندي الاحتياط نفسه الذي قابلته ليلاً في نوارسور– سور– لا - ليز، حيث كنت في مهمة استطلاع، بل إنني تذكرت في التو الاسم الذي كان قد أخبرني به: روبنسون.

"هل تعرفه، جندي المشاة هذا؟" سألني ڤواروز.

"نعم أعرفه".

"ربما كان أحد أصدقائهم. لا بد أنهما يتحدثان معًا عن الأم؛ لا أريد أن يعوقانا عن الذهاب لرؤيتها، لأنها بالأحرى هي التي تمنح النقود".

اقترب منا الرجل العجوز. كان متهدج الصوت.

قال موجهًا كلامه إلى ڤواروز: "صديقي العزيز، أخبرك ببالغ الأسى أن زوجتي المسكينة، منذ زيارتك الأخيرة، ولحزننا الشديد، قد توفيت. كنا قد تركناها وحدها لحظة واحدة يوم الخميس الماضي.. كانت قد طلبت منا.. وكانت تبكي".

لم يتمكن الرجل من إكمال عبارته. استدار فجأة وغادرنا.

قلت لروبنسون Robinson بمجرد أن ابتعد الرجل العجوز عنا بمسافة كافية: "أنا أعرفك جيدًا".

"أنا أيضًا أعرفك".

"ماذا جرى للمرأة العجوز؟" سألته.

"إيه، حسنًا، لقد شنقت نفسها أمس الأول، هذا كل ما في الأمر!" أجابني روبنسون. بل إنه أضاف بهذا الشأن: "يا لها من امرأة حمقاء. ألا ترى؟ وأنا الذي اتخذتها أمًّا بالعماد.. هذا هو حظي! أليس كذلك! يا له من نصيب! المرة الأولى التي جئت فيها في إجازة! وأنا الذي كنت أنتظر منذ ستة أشهر هذا اليوم!"

لم نستطع منع نفسينا من الضحك، ڤواروز وأنا، من السخرية من الحظ العاثر الذي أصاب روبنسون. كانت حقًّا مفاجأة لعينة. غير أن موت المرأة لم يكن ليرد إلينا أيضًا المئتي فرنك التي كنا نخطط للحصول عليها، نحن الذين كنا نختلق أكذوبة لهذه المناسبة. فجأة لم نكن سعداء، لا هو ولا نحن.

"جئت طامعًا أيها النذل، أليس كذلك؟" رحنا نسخر من روبنسون ونثير غيظه ونحبطه. "تصورت أنك سوف تفوز بها، أليس كذلك؟ الوليمة الفاخرة الهنيئة مع العجوزين؟ بل لعلك ظننت أيضًا أنك سوف تنالها.. أم العمادة؟ ها أنت قد نلت ما تريد".

ولما كان من غير الممكن البقاء هناك نتطلع إلى باحة المنزل المعشبة ضاحكين، انطلقنا نحن الثلاثة باتجاه حي "جرونل" Grenelle.

أحصينا ما معنا من نقود نحن الثلاثة، لم يكن مبلغًا كبيرًا. وبما أنه كان من الواجب أن نعود في الليلة نفسها إلى مستشفياتنا ومصحاتنا، وكنا نملك ما يكفي بالكاد لعشائنا نحن الثلاثة في الحانة، ثم قد يتبقى أيضًا قليل من المال،

لكن ليس ما يكفي للذهاب إلى الماخور. مع ذلك، إلى هناك على أي حال، لكن من أجل تناول كأس من الشراب فقط في البار بالأسفل.

"أنت، أنا سعيد برؤيتك من جديد"، قال روبنسون موجهًا حديثه إليَّ، "ولكنك كنت بصدد صفقة كبيرة على أي حال، أم الصبي! ورغم كل هذا فعندما أفكر فيها، التي سوف تشنق نفسها في اليوم نفسه الذي وصلت فيه.. يا إلهي! سأظل أذكر ذلك! قل لي هل أشنق نفسي؟ من الحزن؟ هكذا أمضي وقتي في شنق نفسي! وماذا عنك أنت؟"

"الأغنياء أكثر حساسية من غيرهم".

كان ڤواروز طيب القلب. ثم أضاف أيضًا: "لو كنت أملك ستة فرنكات، لصعدت مع تلك السمراء القصيرة التي تراها هناك، بالقرب من آلة القمار".

"هيا اذهب، وسوف تخبرنا إن كانت تجيد أداء عملها". كان هذا ردنا.

لكن عبثًا حاولنا تجميع المبلغ، لم نكن نملك ما يكفي لينال المرأة ولهبة الساقي. كنا نملك ما يكفي بالكاد لقدح من القهوة لكل منا وكأسين من "الكاسيس" Cassis. ما إن انتهينا من الشراب، حتى غادرنا المكان لنتجول!

عند ميدان "ڤاندوم" انتهينا بالافتراق. غادر كل منا صوب وجهته. عندما افترقنا لم يكن بعضنا يرى بعضًا، كما كنا نتكلم بصوت خفيض لشدة ما كان هناك من الصدى. لم تكن هناك أية أنوار، كان ذلك ممنوعًا.

چان ڤواروز، عن نفسه، لم أره ثانيةً مطلقًا. أما روبنسون، فقد قابلته كثيرًا بعد ذلك. چان ڤواروز، تمكنت منه غازات القنابل في معارك السوم La Somme. فمضى ليلقى حتفه على شاطئ البحر، في مقاطعة برتاني Bretagne، بعدها بعامين، في إحدى المصحات البحرية. كتب إليَّ مرتين في البداية، ثم انقطع تمامًا. لم يكن قد رأى البحر من قبل قط. "لا تتصور كم هو

جميل، أستحمُ فيه أحيانًا، هذا مفيد لقدمَي، لكن بالنسبة إلى صوتي، أعتقد أنه قد ضاع تمامًا". كان ذلك الأمر يزعجه، لأن طموحه، كان في الأساس، أن يستطيع أن يلتحق يومًا ما بكورال المسرح. الكورال أفضل أجرًا بكثير كما أنه أكثر فنًّا من الكومبارس.

الفصل 13

المقطع العاشر

انتهت الحال بأولي الأمر إلى إسقاطي من حساباتهم وهكذا تمكنت من النجاة بجلدي، لكن رأسي كانت قد تضرر، وإلى الأبد. ليس ثمة ما يقال. "اذهب إلى حال سبيلك.. لم تعد صالحًا لشيء". قالوا لي. قلت لنفسي "إلى إفريقيا! كلما ابتعدت، كان أفضل!" كانت سفينة مثلها مثل غيرها من سفن "شركة القراصنة المتحدين"، تلك التي حملتني. كانت تبحر متجهة نحو خط الاستواء، بحمولتها من المنسوجات القطنية والضباط والموظفين.

كانت قديمة جدًّا تلك السفينة، لدرجة أن لوحتها النحاسية كانت قد انتُزعت من سطحها العلوي، تلك التي كانت تحمل في ما مضى تاريخ بنائها، كان يعود إلى زمان بعيد، تاريخ بنائها، بعيد جدًّا، إلى حد ربما حمل بعض الركاب على التخوف والسخرية أيضًا.

حُمّلت فوقها إذًا، كي أحاول أن أسترد عافيتي وأعيد ترتيب أمور حياتي في المستعمرات. أصروا على ذلك، هؤلاء الذين يريدون بي خيرًا، أصروا أن أحقق ثروة.. أن أنجح. أما أنا، فلم أكن أرغب إلا في الرحيل، لكن ولأن من الواجب دائمًا أن يبدو المرء شخصًا نافعًا عندما لا يكون غنيًّا، ولأني من ناحية أخرى لم أكن قد انتهيت من دراساتي، فلم يكن من الممكن لهذا الوضع أن يستمر، كما لم أكن أملك أيضًا ما يكفي من المال للسفر إلى أمريكا. "لتذهب إلى إفريقيا" قلت لنفسي آنذاك واستسلمت لفكرة الانطلاق إلى البلاد الاستوائية، حيث يكفي المرء، كما أكدوا لي، شيء من الاتزان والسلوك المنضبط، ليخلق لنفسه سريعًا وضعًا مميزًا.

تركتني تلك التنبؤات غارقًا في أحلامي، لصالحي، لم أكن أملك الكثير، لكني بالتأكيد، كنت أحظى بحسن الهيئة، السلوك، يمكنا قول ذلك، المظهر المتواضع، الاحترام الظاهر للآخرين والخوف دائمًا من التخلف عن المواعيد والاهتمام بعدم تفضيل نفسي على الآخرين في كل أمور الحياة، وأخيرًا.. اللباقة.

عندما يتمكن المرء من الخروج حيًّا من مذبحة دولية هوجاء، فإن ذلك يُعد على أي حال شهادة توصية تُرفَق بتقرير اللباقة والحذر الخاص به. لكن، دعونا نرجع إلى تلك الرحلة. طوال بقائنا في المياه الأوروبية، لم يكن هناك ما ينذر بسوء. تكوّم الركاب، الذين لا يجدون ما يفعلونه، متوزعين في الظل بين سطوح السفينة، في دورات المياه، في قاعة التدخين، في جماعات صغيرة مرتابة وكريهة الرائحة. كل ذلك منقوع في شراب البيكون والنميمة، من الصباح إلى المساء. نتجشأ، ننعس، نصيح، بالتناوب وكما بدا، دون أن نأسف مطلقًا على شيء في أوروبا.

كان لسفينتنا اسم: الأميرال براجيتون Amiral Bragueton. لا بد أن بقاءها طافية على هذه المياه الدافئة لم يكن إلا بفضل طلائها. كثير من طبقات الطلاء المتراكمة على هيئة قشور، انتهت بأن كوَّنت ما يشبه هيكلاً ثانيًا للأميرال براجيتون على غرار البصلة. أقلعنا صوب إفريقيا، الحقيقة الكبرى؛ إفريقيا الغابات العميقة الشاسعة، الأبخرة العفنة السامة، أماكن العزلة التي لم تُنتهك، نحو كبار الطغاة الزنوج المستلقين في تراخٍ عند تقاطعات الأنهار التي لا تنتهي. في مقابل علبة من شفرات حلاقة "بيليت" سوف أحصل منهم على أنياب من العاج، بهذا الطول، طيور زاهية الألوان، جوارٍ قاصرات. كان ذلك أملاً. هكذا تكون الحياة! ما من شيء مشترك مع إفريقيا هذه، المنزوعة عنها قشرة الوكالات التجارية، الآثار، السكك الحديدية وحلوى النوجا. آه، كلا. سوف نراها على الطبيعة، إفريقيا الحقيقية! نحن ركاب الأميرال براجنيتون الذين تفوح منهم رائحة الشراب.

لكن ما إن غادرنا سواحل البرتغال، حتى بدأت الأمور في الانقلاب إلى الأسوأ. استيقظنا ذات صباح كأننا صرنا في جو حمام دافئ إلى أقصى حد، أحاط بنا، مزعج على نحو لا يقاوم. الماء في الأكواب، البحر، الهواء، الملاءات، عرقنا، كل شيء فاتر، ساخن. منذ ذلك الوقت فصاعدًا، صار من المستحيل، ليلاً نهارًا، أن تعثر على أي شيء بارد، في يدك، تحت مؤخرتك، في حلقك، إلا ثلج البار مع الويسكي. ساعتها حلت خيبة ثقيلة بركاب الأميرال براجنيتون الذين أُجبروا على عدم الابتعاد عن البار بعدها. مأخوذين، مُسمَّرين إلى المراوح الكهربائية، مشدودين إلى قطع الثلج الصغيرة، يتبادلون الوعيد وعبارات الأسف بعد جولات لعب الورق، بإيقاع متهافت.

لم يطل الأمر. في ظل تلك الحرارة الراسخة المُحبطة، تحول المحتوى البشري للسفينة إلى كتلة متخثرة من مدمني السكر. رحنا نتحرك بين سطوح السفينة بتراخٍ مثل الأخطبوط في قاع حوض ماء عكر بلا طعم. منذ تلك الحظة، رأينا عن قرب الطبيعة المزعجة للرجل الأبيض، وقد أسفرت عن نفسها، مُثارة، متحررة، تعرّت أخيرًا بلا حياء، طبيعته الحقيقية، مثلما يحدث في الحرب تمامًا. أتون استوائي للغرئز، كالضفادع والأفاعي التي كانت تأتي لتلهو مبتهجة في شهر أغسطس فوق أسوار السجون المتشققة. في برد أوروبا، تحت سماوات الشمال الرمادية الباعثة على العفة، فإننا باستثناء المجازر، لا نكف عن التشكك في القسوة التي تعج بها قلوب أشقائنا، غير أن فسادهم وانحلالهم كان يطفو على السطح بمجرد أن تثيرهم حمى البلاد الاستوائية. حينذاك يحلون أزارر ثيابهم كالمجانين، تتغلب السفالة وتغطينا بالكامل. إنه الاعتراف البيولوچى. ما إن نتحرر من العمل ومن البرد، ما إن ترتخى قبضاتهما عنا حتى يمكن أن نرى في الرجل الأبيض ما نكتفشه في الشاطئ البهيج بعد أن ينحسر البحر عنه: الحقيقة، مستنقعات تفوح برائحة عفن ثقيلة، السرطانات، الجيف، الغائط.

هكذا، بمجرد أن تجاوزنا البرتغال، شرع الجميع على ظهر السفينة في إطلاق غرائزهم بجنون، ساعد الكحول على ذلك، وأيضًا ذلك الشعور بالارتياح الباطني الذي تمنحه المجانية الكاملة لهذه الرحلة، خصوصًا بالنسبة إلى العسكريين والموظفين الموجودين في الخدمة. أن يشعر المرء بأنه يأكل ويشرب وينام دون أن يدفع شيئًا طوال أربعة أسابيع متتالية، فإن ذلك، لو تخيلناه، يكفي في حد ذاته لإصابته بالذهول الاقتصادي. أليس كذلك؟ أما أنا، الوحيد الذي دفع تكاليف هذه الرحلة، فقد وجدت نفسي في أعينهم، بناءً على ذلك، بمجرد أن عرفت تلك الصفة، صفيقًا على نحو خاص، مزعجًا على نحو واضح.

لو كان لي بعض الخبرة بأوساط المستعمرات، عند مغادرة مارسيليا، لربما جثوت، أنا رفيق السفر المُخزي، ملتمسًا عفو وحلم ضابط مشاة جيش الاستعمارات هذا، الذي كنت أصادفه في كل مكان، أعلى الضباط رتبة، وربما أهنت نفسي فوق ذلك، لمزيد من الحيطة، تحت قدمَي أكثر الموظفين أقدمية. ربما قبل حينذاك، هؤلاء المسافرون الرائعون، وجودي بينهم بلا تضرر؟ لكن طموحي المتهور، أنا الجاهل، أن أعيش حولهم بجوارهم كاد بالفعل يكلفني حياتي.

لا يكون المرء خوّافًا مطلقًا بما يكفي. بفضل بعض المهارة، لم أفقد إلا ما تبقى لي من حب الذات، الأنانية. إليكم كيف صارت الأمور. بعد أن تجاوزنا جزر الكناري بوقت طويل، علمت من أحد خدم القمرات أن القوم قد اتفقوا على أنهم يجدونني مُدعيًا، بل.. وقحًا؟ وأنهم يظنون أنني قواد ولوطي في الوقت نفسه، بل وأنني من مدمني الكوكايين، وإن كان ذلك على نحو ثانوي.. وأخيرًا جاءت فكرة أني قد فررت من فرنسا نتيجة لما اقترفته من جرائم من أبشع ما يكون. مع ذلك، لم أكن إلا في بدايات مصائبي. حينذاك أدركت العرف المتبع على هذا الخط الملاحي، عدم تقبُّل، إلا بمنتهى الحذر، المصحوب بالمناكدة من جهة أخرى، الركاب الذين يسددون تكاليف سفرتهم،

أي هؤلاء الذين لا يتمتعون بالمجانية العسكرية ولا بالامتيازات البيروقراطية، فالمستعمرات الفرنسية كانت مِلكًا -كما نعلم - لطبقة "نبلاء الجيش(25)".

(25) Annuaires، أدلة سنوية: تحصي الأشخاص من حملة الألقاب في الجيش والبحرية. المقصود ضباط الجيش الذين ترد أسماؤهم في هذه الأدلة السنوية. (المترجم)

في النهاية لم يكن هناك على أي حال إلا قليل جدًّا من الأسباب المعقولة لمدني مغمور مثلي ليقوم بمغامرة في تلك الأنحاء.. جاسوس، مشبوه، كان هناك ألف سبب لينظروا إليَّ شزرًا، الضباط، بمؤخرات أعينهم، النساء بابتسامات ماكرة. سرعان ما راح الخدم أنفسهم، متشجعين، يتبادلون وراء ظهري، تعليقات سخرية فظة. انتهى الحال إلى أنه لم يعد هناك شك في أنني كنت أفظع وأكثر شخص مزعج على سطح السفينة، وإن جاز القول، الوحيد.. ها هو ما بدا مبشرًا.

على مائدة الطعام كنت أجلس بجوار أربعة من موظفي البريد في الجابون، مصابين بالصفراء، عديمي الأسنان. أظهروا الود في بداية الرحلة، ولكنهم لم يوجهوا إليَّ بعد ذلك أقل كلمة. أي أني قد خضعت، باتفاق ضمني، لنظام المراقبة المشتركة. لم أعد أخرج من قمرتي إلا باحتياطات بلا حدود. كان الهواء المطبوخ الساخن جدًّا يُثقل على الروح، كأنه جماد. عاريًا تمامًا، الباب مغلق بالرتاج، لم أعد أغادر مكاني وحاولت تخيل أية خطة استطاع هؤلاء الركاب الجهنميين أن يضعوها ليتخلصوا مني. لم أكن أعرف أحدًا على سطح السفية، مع ذلك فقد بدا أن الجميع يعرفني، لا بد أن أوصافي قد صارت معروفة وتلقائية في أذهانهم، مثل أوصاف المجرم الشهير التي تُنشَر في الصحف.

قمت -دون الرغبة في ذلك - بدور "النذل الحقير المقزز"، عار الجنس البشري، الذي لا غنى عنه، والذي يُشار إليه في كل مكان وعلى امتداد

العصور، الذي سمع به الجميع مثلما سمعوا بالرب وبالشيطان، لكنه يظل مع ذلك متلونًا للغاية، مراوغًا للغاية، باختصار، لا يمكن الإمساك به. أخيرًا ومن أجل الانفراد به، ذلك "النذل"، تحديد هويته، الإمساك به، كان لا بد من هذه الظروف الاستثنائية التي لا يصادفها المرء إلا على هذا السطح الضيق.

تبدت على سطح الأميرال براجيتون مظاهر فرح عام حقيقي ومعنوي. هذا "الملعون" لن يفلت من مصيره المحتوم. كنت أنا المقصود.

وحده كان هذا الحدث يساوي تلك الرحلة. معزولاً وسط هؤلاء الأعداء التلقائيين، حاولت بقدر ما استطعت أن عرف هويتهم دون أن ينتبهوا. للتوصل إلى هذا، رحت أراقبهم، آمنًا من العقوبة، خصوصًا في الصبح، من كوة قمرتي. قبل وجبة الإفطار كانوا يأتون لاستنشاق الهواء البليل، كثيفي الشعر، من العانة حتى الحاجبين، ومن الشرج حتى أخمص القدم، يرتدون المنامات الشفافة في ضوء الشمس، مستلقين بطول درابزين السفينة، الكؤوس في أياديهم. كان أعدائي يأتون لكي يتجشؤوا هناك، ويكادون فعلاً يتقيؤون في جنبات المكان، خصوصًا ذلك النقيب ذا العينين الجاحظتين المحتقنتين، الذي كان كبده يشقى من انبلاج الفجر. بانتظام ومن ساعة استيقاظه، كان يتقصى أخباري لدى رفاق الشراب الآخرين، كان يسأل إن لم يكن أحد قد ألقى بي بعد "من فوق السفينة"، "كالبصقة"، وليتمثل الأمر كان يبصق في الوقت نفسه في البحر المزبد. يا له من مزاح لطيف.

لم تكن الأميرال تتقدم كثيرًا، كانت بالأحرى تزحف، مخرخرة، من ترنح إلى آخر. لم تعد تلك رحلة، صارت ضربًا من الهوس. بدا لي أعضاء هذا المجمع المسكوني الصباحي، عند تأملهم من ركني الخفي، مرضى إلى حد بعيد، مصابين بحمى المستنقعات، مدمني خمر وبلا شك مصابين بالسلفس، كان ضعفهم وبؤسهم البادي على بُعد عشرة أمتار يخفف قليلاً من متاعبي وآلامي الشخصية. على أي حال، كانوا رغم ذلك مثلي مقهورين، هؤلاء المتبجحين! فارق وحيد! أن البعوض قد تكفل بامتصاصهم ونفث سمومه تلك ملء

أوردتهم، ساعتها كانت خراطيمه اللولبية قد انتهكت بالفعل شرايينهم.. نهش الكحول أكبادهم.. شققت الشمس الكُلى.. التصق القمل بشعورهم والأكزيما بجلود بطونهم.. انتهى الضوء الباهر القاسي بتجفيف شبكيات أعينهم. ماذا سيتبقى لهم بعد قليل؟ شيء من العقل.. ما الذي يفعلون به؟ أسألكم، ماذا يفعلون به؟ هناك، إلى حيث يمضون؟ لينتحروا؟ إنه لا يمكن أن يفيدهم إلا في الانتحار، ذلك العقل، هناك إلى حيث يمضون. عبثًا حاولت أن أقول، ليس من الطريف أن يشيخ المرء في بلاد لا توجد فيها أية وسيلة للتسرية، حيث يكون المرء مرغمًا على أن يطالع وجهه في المرآة التي يتساقط قصديرها المخضوضر أكثر فأكثر، وتزداد بشاعته يومًا بعد يوم. سوف يهترئ المرء بسرعة، وسط تلك الخضرة، خصوصًا عندما يكون الجو شديد الحرارة.

يحفظ لكم الشمال على الأقل لحم أجسادكم، شاحبون هم أهل الشمال إلى الأبد. هناك فارق ضئيل بين رجل سويدي ميت وشاب لم ينم جيدًا. غير أن المستعمر، وبعد يوم واحد من وصوله، يصبح مملوء الجسد بالديدان. الديدان التي لم تكن تنتظر غيرهم.. تلك الديدان الصغيرة المثابرة إلى أبعد الحدود، والتي لم تكن لتغادر أجسامهم إلا بعد أن يغادروا، هم، الحياة. أجولة مملوءة بالديدان.

ما زالت لدينا ثمانية أيام من الإبحار، قبل أن نرسو قبالة "البراجمانس" La Bragamance، أول أرض موعودة. كنت أشعر أني قابع في صندوق متفجرات. لم أعد أتناول الطعام تقريبًا حتى أتفادى الذهاب إلى مائدتهم وعبور سطوح سفينتهم في وضح النهار. لم أعد أتفوه بكلمة. لم يرَني أحد مطلقًا أجول على ظهر السفينة. كان من الصعب أن تكون مثلي، بلا حول، على ظهر السفينة، وتظل رغم ذلك باقيًا فوقها.

تكرّم خادم قمرتي، كان رب أسرة، بأن أسرّ إليَّ بأن ضباط المستعمرات اللامعين قد أقسموا، الكأس في أياديهم، أن يضربوني في أول فرصة مواتية ثم يلقوا بي من فوق سطح السفينة بعد ذلك. وعندما سألته عن السبب، لم

يكن يدري عنه شيئًا، ثم سألني بدوره عما عساي أكون قد قمت به لتصل الأمور إلى هذا الحد. بقينا على حالة الشك هذه. كان من الممكن أن يدوم ذلك وقتًا طويلاً. كانت لي سحنة قذرة، كما يقولون، هذا كل ما في الأمر.

ما كنت لأقع ثانيةً في فخ السفر مع جماعة صعبة الإرضاء إلى هذا الحد. كانوا أيضًا يعانون بشدة من الفراغ، محبوسين، منفردين مع أنفسهم طوال ثلاثين يومًا لدرجة أنه لم يكن ينقصهم إلا أقل القليل لاستثارتهم. على أي حال، وحتى في حياتنا اليومية، تذكروا جيدًا أن هناك مئة شخص على الأقل يتمنون لك الموت، كل من تسبب لهم الضيق مثلاً، المتعجلون خلفك في طابور المترو، وكذلك كل من يمرون أمام منزلك ولا يملكون واحدًا مثله، كل من يرغبون في أن تنتهي من تبولك حتى يفعلوا الشيء نفسه، وأخيرًا، أولادك وكثيرون غيرهم. ظاهرة لا تتوقف. يتعودها المرء. تتضح أفضل تلك العجلة، على ظهر المركب، حينها تكون أكثر إزعاجًا.

في هذا الأتون الساخن على نار هادئة، يتركز عرق تلك الكائنات المغمورة بالماء المغلي، هواجس العزلة الرهيبة في المستعمرات التي سوف تجتاحهم بعد قليل هم ومصائرهم، تجعلهم يئنون كالمحتضرين. إنهم يتشبثون، يعضون، يمزقون، يعانون. كانت أهميتي على ظهر السفينة تزداد على نحو مذهل يومًا بعد يوم. اتخذ ترددي النادر على مائدة الطعام، الذي كان أيضًا صامتًا وخاطفًا، الذي كنت أجتهد في جعله كذلك، أهمية الحوادث الحقيقية. بمجرد دخولي إلى قاعة الطعام، كان الركاب المئة والعشرون يجفلون ويتهامسون.

من افتراضات خبيثة إلى استنتاجات فاضحة، انتهت الحال بضباط المستعمرات الطافحين بكؤوس الأبريتيف، كأسًا بعد أخرى، حول مائدة القبطان، جباة الحكومة، المدرسات الكونجوليات عمومًا، اللاتي حملت منهن الأميرال مجموعة منتقاة، إلى التهويل من شأني إلى حد الأهمية الجهنمية.

عند الإقلاع من مارسيليا، كنت شخصًا تافهًا سابحًا في أوهامه، لكن الآن، بفعل هذا الجمع المنزعج من مدمني الكحول والنسوة المتلهفات، فقد وجدت أني تغيرت، ومُنحت تلك الهيبة المُحيرة.

قبطان السفينة، مهرب بدين ماكر، مكسو بالبثور، الذي كان يصافحني بكل ترحاب في بداية الرحلة، في كل مرة نتلاقى فيها، بدا كأنه لم يعد يعرفني الآن، مثلما نتجنب رجلاً مطلوبًا في قضية مشينة. هل صرت متهمًا بالفعل؟ بماذا؟ عندما لا تنطوي كراهية البشر على أية مخاطرة، يتأكد غباؤهم، وتأتي المبررات من تلقاء نفسها بلا عناء.

وفقًا لما ظننت أني اكتشفته في كتلة العداء التي كنت أحاول التخلص منها، كانت آنسة من بين المعلمات هي التي بعثت الحياة في العنصر النسائي لجماعة الشر المحيطة. كانت في طريق عودتها إلى الكونجو، لتموت هناك، على الأقل كما كنت أتمنى، تلك العاهرة. لم تكن تبتعد كثيرًا عن ضباط المستعمرات ذوي الصدور المتناسقة المصبوبة في بزاتهم الزاهية والمتحلين فضلاً عن ذلك بالنياشين والقسم الذي أقسموه بسحقي لا أكثر ولا أقل كأني حلزون قذر، قبل محطة الرسو المقبلة. ظل السؤال يدور بينهم عما إذا ما كنت سأبدو مقززًا بعد موتي سحقًا كما أبدو كذلك حيًّا. كانوا باختصار، يتسلون. كانت تلك الآنسة تزكي قريحتهم، تستدعي العاصفة على سطح "الأميرال براجيتون"، لم تكن تريد أن تذوق الراحة إلا بعد أن يقوموا بلملمة أشلائي المختلجة، متخلصًا إلى الأبد من وقاحتي الوهمية، معاقبًا لأني جرؤت باختصار على إعلان وجودي، مضروبًا بجنون، داميًا، مُعذبًا، ملتمسًا الرحمة تحت حذاء وقبضة واحد من هؤلاء الأقوياء الذين كانت تلك الآنسة تشتعل إعجابًا بأدائهم العضلي، غضبهم الهائل. مشهد من مذبحة تفوق الخيال، كان مبيضاها المتجعدان يستشعران منه صحوة مقبلة، كأن ذكر غوريلا يغتصبها. كان الوقت يمضي وكان من الخطر أن نجعلهم ينتظرون المصارعة وقتًا

طويلاً. كنت أنا الثور. كل من كان على ظهر السفينة يطالب بذلك، مرتجفًا مهتاجًا حتى مستودعات الفحم في القاع.

كان البحر يحبسنا في هذا السيرك المطبق المحكم. عمال الماكينات أنفسهم كانوا على علم. وبما أنه لم تعد تتبقى لنا سوى ثلاثة أيام قبل الرسو، أيام حاسمة، قدم كثير من مصارعي الثيران أنفسهم. كلما تهربت من الشجار زاد عداؤهم وتهديدهم لي. كان كهنة القربان يستعدون. هكذا حوصرت بين قمرتين خلف أحد الحواجز. أفلت بالكاد من بين أيديهم، لكن صار من الخطر الصُراح أن أتوجه إلى دورات المياه. ولما لم تكن قد تبقت أمامنا إلا ثلاثة أيام في البحر، فقد انتهزتها للإقلاع نهائيًّا عن قضاء حاجتي الطبيعية. اكتفيت بكوة القمرة. كان كل ما يحيط بي محملاً بالعداء والضجر. علينا أن نقول أيضًا عن ذلك الضجر على ظهر السفينة أنه كان يفوق التصور، ضجرًا كونيًا لا يمكن تفاديه صراحةً. ضجرًا يغطي البحر، السفينة، السماوات. ضجرًا يُفقد الرزين اتزانه، فما بالك بهؤلاء المجانين الخرافيين.

ضحية، كنت أوشك أن أصير. ذات مساء، اتضحت الأمور، بعد العشاء الذي كنت قد توجهت إليه رغم كل ذلك، تضنيني شدة الجوع. ألصقت وجهي بصحني، غير متجاسر حتى على إخراج منديلي لأجفف عرقي. ما من أحد كان قادرًا على تناول الطعام بمثل احتراسي وتيقظي. كانت ماكينات السفينة تبعث في ظهرك، جالسًا على مقعدتك، ارتعاشًا خفيفًا لا يتوقف. لا بد أن جيراني على المائدة كانوا على علم بما تقرر بشأني، لأنهم، لدهشتي، قد أخذوا في الحديث معي بصراحة وتعاطف عن المبارزات والضربات القاضية في مصارعة الثيران، في إلقاء بعض الأسئلة.. وفي تلك اللحظة أيضًا كانت معلمة الكونجو، برائحة فمها الكريهة، البشعة، تتجه نحو الصالون. كان لديَّ متسع من الوقت كي ألاحظ أنها كانت ترتدي ثوبًا من "الجيبور" غالي الثمن، وتوجهت نحو البيانو بشيء من العجلة المتشنجة، لتعزف -إن جاز أن نقول

ذلك - بعض المقاطع التي كانت تطمس معالم نهايتها. صار الجو عصبيًّا للغاية ومليئًا بالتوقعات.

قمت بوثبة واحدة لأمضي محتميًا بقمرتي، كدت أصل إليها تقريبًا عندما قطع الطريق أمامي وبكل صراحة واحد من ضباط المستعمرات، أكثرهم ضخامةً وقوة، وبلا عنف ولكن بكل صرامة قال لي: "لنصعد إلى السطح". بعدة خطوات كنا هناك. لهذه المناسبة كان يعتمر قبعته العسكرية الأكثر تذهيبًا وزركشة، مغلقًا كل أزرار بزته، من الياقة حتى فتحة السراويل، وهو ما لم يكن قد قام به منذ رحيلنا. كنا إذًا في أوج الطقس الدرامي. كنت في حالة انزعاج شديدة، أحسست بقلبي يدق.. عند سُرتي.

هذه المقدمة، هذه الأناقة غير المعتادة، أنذراني بإعدام بطيء ومؤلم. بدا لي هذا الرجل كأنه مشهد من الحرب اعترض طريقي فجأة. عنيدًا، مستعصيًا، قاتلاً.

خلفه، انتصب، في الوقت نفسه، أربعة من الضباط أقل منه رتبة، مغلقين أمامي المدخل إلى السطح، منتبهين جدًّا، حراس القضاء المحتوم.

لم تكن هناك إذًا وسيلة للهرب. لا بد أن هذا الاستجواب قد رُتب بمنتهى الدقة. "أمامك النقيب فرميزون Fremizon من قوات المستعمرات! لي الشرف، باسم رفاقي وباسم ركاب هذه السفينة المستنكرين لسلوكك المشين، أن أسألك تبريرًا! إن بعض التعليقات التي صدرت منك بشأننا منذ مغادرتك مارسيليا غير مقبولة! ها قد حان الوقت سيدي لتبيّن لنا بكل صراحة مآخذك علينا! أن تعلن ما كنت تهمس به على نحو مخزٍ منذ واحد وعشرين يومًا! أن تخبرنا صراحةً ما تظنه عنا".

أحسست براحة هائلة عند سماعي هذه الكلمات. كنت أخشى إعدامًا سريعًا مريعًا، غير أنهم أتاحوا لي، بما أن النقيب قد تكلم، وسيلة للإفلات منهم.

انقضضت على تلك المنحة.. غير المتوقعة.

تصبح كل إمكانية للخِسة والجُبْن أملاً رائعًا لشخص خبير بتلك الأمور. هذا هو رأيي. لا يجب على المرء أن يبتعد مترددًا أمام وسيلة للنجاة من الموت مبقور البطن، ولا أن يضيع الوقت أيضًا في البحث عن أسباب الظلم الذي يتعرض له. يكفي العاقل أن يفر منه.

أجبته بكل ما استطعته ساعتها من صوت مقتنع بصدقه: "سيدي النقيب، أي خطأ فظيع كدت تقع فيه! سيادتك! أنا! كيف تنسبون إليّ أنا مشاعر خيانة مماثلة؟ الحقيقة أن هذا ظلم كبير لي! إن نفسي لتضيق منه. سيدي النقيب! كيف هذا؟ أنا، الذي امتزجت دماؤه بدمائكم طوال سنوات في أثناء معارك خالدة! بأي ظلم كدت تثقل كاهلي.. يا سيدي النقيب؟"

ثم وجهت كلامي للمجموعة بكاملها:

"لأية نميمة حقيرة آثمة صرتم ضحايا أيها السادة؟ أن يصل بكم الأمر إلى الظن بأني، أنا، أخوكم في نهاية الأمر، قد رحت أشيع افتراءات حقيرة تمس ضباطنا الأبطال! هذا أمر يفوق الاحتمال! حقًّا يفوق الاحتمال! وهذا في الوقت نفسه الذي يتأهب فيه هؤلاء البواسل، هؤلاء الشجعان الذين لا مثيل لهم، لاستئناف، وبأية بسالة، حماية إمبراطوريتنا الاستعمارية، المقدسة، إمبراطوريتنا الخالدة أبد الدهر! هناك، حيث يتلفع أعظم جنود جنسنا الفرنسي بمجد لا يزول. آل مانـچان، آل فيدرب، آل جاليني! آه! سيادة النقيب! أنا؟ هذا الرجل؟"

توقفت مترقبًا. كنت آمل أن أكون مؤثرًا بشدة. لحسن الحظ أني كنت كذلك لبرهة قصيرة. حينذاك، بلا إبطاء، منتهزًا هدنة التعتعة هذه، تقدمت نحوه رأسًا وشددت على يديه الاثنتين بضمة عاطفية.

اطمئننت قليلاً، وكفاي تطبقان على كفيه. واصلت تفسيري مستمتعًا وأنا لا أزال أقبض عليهما، وفي الوقت نفسه رحت أعطيه ألف حق في ما ذهب إليه، أكدت له أن علينا أن نبدأ كل شيء بيننا من جديد من نقطة البداية الصحيحة هذه المرة! وأن خجلي الطبيعي والأحمق وحده كان السبب وراء هذا الخطأ الرهيب! ربما أمكن تفسير سلوكي على أنه استخفاف غير مقبول ولا معقول بهذه الكوكبة من المسافرين والمسافرات "مزيج من البطولة والفتنة.. حشد سماوي من كبار الشخصيات والمواهب.. دون أن ننسى هاتيك السيدات الموسيقيات، المتفردات بلا نظير.. زينة هذا الركب!" وختامًا، رحت، مغرقًا في الإقرار بذنبي، ألتمس منهم أن يقبلوني وبلا تردد ولا إبطاء ودونما أي قيد وسط جمعهم السعيد.. الوطني والأخوي.. الذي أحرص، بدءًا من هذه اللحظة وإلى الأبد أن أبدو فيه شخصًا ودودًا مخلصًا.. جدًّا. ورحت، دون أن أطلق يديه بالطبع، أزيد من جرعة البلاغة.

يبقى العسكري طفلاً، ما دام لا يمارس القتل. يسهل إرضاؤه. ولأنه ليس من بين عاداته أن يفكر، فإنه يضطر بمجرد أن يحدثه أحد إلى بذل جهود مضنية ليحاول فهم محدثه. لم يكن النقيب فريميزون في طريقه لقتلي، لم يكن يشرب أيضًا، لم يكن يستخدم يديه، ولا قدميه، كان يحاول فقط.. أن يفكر. كان هذا يفوق قدراته بكثير. الحقيقة أني كنت أُمسك به.. من رأسه.

تدريجيًّا، وبينما استمرت تجربة الإذلال هذه، شعرت بأن حبي لذاتي، الذي كان على وشك أن يفارقني فعلاً، يتلاشى بأكثر مما كان، ثم يتخلى عني تمامًا، رسميًّا.. إن جاز القول. مهما قيل، كانت لحظة ممتعة تمامًا، فمنذ تلك الواقعة، أصبحت وإلى الأبد حرًّا ونشيطًا إلى أقصى حد، أقصد معنويًّا. ربما كان ذلك بسبب الخوف الذي نحتاج إليه غالبًا للتخلص من مآزق الحياة. عن نفسي، لم أحتَج قط إلى أسلحة أخرى منذ ذلك اليوم، أو إلى أية قوى أخرى.

رفاق النقيب المتحيرون، الذين كانوا قد أتوا إلى هنا أيضًا خصوصًا ليمسحوا دمي المراق وليلعبوا بأسناني المتناثرة لعبة "العظام الصغيرة"، كان عليهم

أن يكتفوا من الغنيمة بالتقاط بعض الكلمات المتطايرة في الهواء. أما المدنيون الذين أسرعوا متلهفين مرتعشين نشوةً عقب الإعلان عن حفلة الإعدام، فقد علا وجوههم الغم والكدر. ولأني لم أكن أدري ماذا كنت أقول بالضبط، في ما عدا الثبات بكل قوة على النغمة الغنائية، مستمرًا في الإمساك بكفي النقيب، فقد توجهت بناظري إلى نقطة وهمية وسط الضباب الناعم الذي كانت الأميرال براجيتون تتقدم خلاله وهي تنفث وتسعل من ضربة مروحة (محركاتها) إلى أخرى. أخيرًا، جازفت، للانتهاء من هذا العرض، بالتطويح بإحدى يدَي فوق رأسي ومطلقًا سراح إحدى يدَي النقيب، واحدة فقط، وانطلقت إلى خاتمة الخطبة: "سادتي الضباط، أليس من الواجب أن ينتهي الأمر دائمًا، بين الشجعان، بالاتفاق؟ لتحي فرنسا إذًا، لتحي فرنسا بحق السماء!" كانت تلك حيلة الرقيب برانليدور، ولقد أفلحت في هذه المرة أيضًا. كانت تلك المرة الأولى التي تنقذ فرنسا فيها حياتي، حتى تلك اللحظة كان ما يحدث بالأحرى هو العكس. رصدت لحظة تردد بين المستمعين، لكن ورغم كل شيء كان من الصعب بالفعل على ضابط مهما كان متعكر المزاج أن يصفع مدنيًّا على الملأ، في الوقت الذي كان فيه ذلك الرجل يهتف بمثل تلك القوة التي فرغت لتوي من الهتاف بها: "لتحي فرنسا!" لقد أنقذني هذا التردد.

أمسكت، عشوائيًّا، بيدَي اثنين من جماعة الضباط، ودعوت الجميع إلى الذهاب إلى البار لنستمتع بالشراب في صحتي ونخب تصالحنا. لم يقاوم الأبطال أكثر من دقيقة واحدة ثم شربنا بعدها لمدة ساعتين. غير أن سيدات السفينة كن يتابعننا بأعينهن، صامتات، وشيئًا فشيئًا محبطات. عبر نوافذ البار الصغيرة، لمحت، من بين أخريات، عازفة البيانو.. المدرسة العنيدة تروح وتغدو وسط حلقات من الراكبات، تلك الضبعة. ارتابت هؤلاء العاهرات في أني قد أفلت من الفخ بتلك الحيلة وعقدن العزم على الإيقاع بي.. بالحيلة. خلال ذلك الوقت، كنا، زمرة الرجال، نشرب بلا حدود تحت مروحة السقف عديمة الجدوى وإن كانت تصيب بالخبل، التي أهلكت نفسها منذ جزر الكناري في طحن قطن هذا الهواء الدافئ. كان عليَّ مع ذلك أن أعثر من جديد، من

القريحة ومن الطلاقة، على ما يمكن أن يروق لأصحابي الجدد، الطلاقة البسيطة. لم أتوقف، خوفًا من الخطأ، عن الإعجاب بالوطن، وطلبت من هؤلاء الأبطال وأعدت الطلب منهم -كل واحد بدوره - قصصًا ومزيدًا من قصص البطولة والشجاعة الاستعمارية. إنها مثل حكايات الجنس البذيئة، قصص البطولة، تروق دائمًا كل العسكريين في كل بلاد العالم. كان هذا ما يلزم في الواقع لتحقيق نوع من السلام مع البشر، ضباطًا كانوا أم لا. هدنات مؤقتة وهشة بالفعل.. لكنها مع ذلك في منتهى الأهمية، إن ذلك يسمح لهم في كل الظروف بأن يتباهوا بأنفسهم، أن يتمطعوا بين الإشادات السخيفة بذواتهم. ليس هناك غرور يتمتع بالذكاء. إنها غريزة. كما لا يوجد هنا أيضًا رجل غير مغرور، في المقام الأول. إن دور المتزلف المُعجب هو تقريبًا الدور الوحيد الذي يتقبل فيه بعض الآدميين بعضًا بشيء من الرضا. مع هؤلاء الجنود، لم يكن عليَّ أن أتكبد مشقة الابتكار، يكفي ألا أتوقف عن أن أبدو منبهرًا. من السهل أن تُطلب حكايات الحرب ويعاد طلبها. ولقد كان هؤلاء الرفاق محاطين بهذه الحكايات. كان بوسعي توهم أني قد عدت إلى أجمل أيام المستشفى. بعد كل حكاية من حكاياتهم، لم أكن أُغفل أن أسجل إعجابي كما تعلمته من برانليدور، بعبارة قوية: "آه، حسنًا هاكم صفحة ناصعة من صفحات التاريخ!" ليس هناك أفضل من هذه الصيغة. شيئًا فشيئًا بدأت الحلقة، التي فرغت لتوي من الالتحاق الخاطف بها، ترى أني قد صرت شخصًا مشوقًا. راح هؤلاء الرجال يحكون عن أمور الحرب كثيرًا من الهراء بقدر ما كنت قد سمعت في الماضي ثم رويتها أنا شخصيًّا بعد ذلك، عندما كنت أشارك في سباق الخيال مع رفاق المستشفى. غير أن الإطار الذي جرت فيه روايات هؤلاء كان مختلفًا، ودارت حكاياتهم الملفقة المثيرة عبر غابات الكونجو بدلاً من إقليم الـڤوج والفلاندر.

أما صديقي النقيب فريميزون الذي كان منذ لحظة واحدة مضت لا يزال ينبه إلى ضرورة تطهير السفينة من وجودي النجس، ومنذ أن رأى طريقتي في الإصغاء بانتباه يفوق انتباه أي شخص آخر، فقد راح يكتشف في شخصي ألف

صفة طيبة. بدا تدفق الدماء في شرايينه كأنه قد هدأ بفعل مدائحي المبتكرة، انجلت بصيرته، بل انتهت الحال بعينيه الحمراوين، عينَي مدمن الخمر العتيد، إلى التألق عبر نظراته الذاهلة والشكوك العميقة التي ربما تخيلها بشأن قيمته شخصيًّا، والتي كانت لا تزال تساوره في لحظات الإحباط الشديد، تلاشت مؤقتًا لبرهة، على نحو لطيف، بتأثير تعليقاتي الذكية الصائبة المواتية.

لقد أصبحت بالفعل صانعًا للبهجة! حتى إنهم راحوا يضربون أفخاذهم بكل قوة من السعادة! لم يكن هناك من يعرف كيف يجعل الحياة طيبة، سواي أنا، رغم كل هذه الرطوبة المزعجة! ومن جهة أخرى.. ألم أكن أصغي إليهم على نحو رائع؟

انتقلت "الأميرال براجيتون" إلى سرعة أقل، بينما كنا سادرين في هذياننا على ذلك النحو، أبطأت متعثرة في عَرقها، لم تعد هناك ذرة واحدة من الهواء تتحرك حولنا، لا بد أننا كنا نحاذي الشاطئ، بمنتهى المشقة، كأننا نسبح في عسل أسود.

كتفالة العسل الأسود أيضًا، كانت السماء فوق السفينة، لا شيء سوى لصقة سوداء كبيرة منصهرة، كنت أسترق النظر إليها في تلهف. العودة إلى الليل كانت أقصى ما أتمناه، حتى إن كنت أنضح بالعرق والأنين وفضلاً عن ذلك في أي حال كنت! لم يكف فريميزون عن الحديث عن نفسه. بدت لي الأرض قريبة للغاية، لكن خطتي للهرب أوحت إليَّ بكثير من المخاوف.. تدريجيًّا توقف حديثنا عن الخوض في أمور الحرب ليصير ماجنًا ثم إباحيًّا بكل صراحة، وأخيرًا، مبعثرًا.. بلا رابط، حتى إننا لم نعد ندري من أين نمسك به حتى نتمكن من استكماله. واحد بعد آخر زهَدَ ضيوفي في الكلام وغلبهم النعاس وغمرهم الغطيط، نعاس مقزز يحك أعماق رؤوسهم. كانت تلك لحظة الاختفاء وإلا فلا.. إلى الأبد. لم يكن من الواجب تفويت فرصة فترات هدنة القسوة البشرية هذه، التي تفرضها الطبيعة رغم كل شيء على أكثر الكائنات الحية خسة والأكثر عدوانية في هذا العالم.

في ذلك الوقت، كنا قد رسونا على مقربة من الساحل. لم نكن نرى منه سوى بعض أعمدة الإنارة مرتعشة الأضواء تمتد بطول الساحل. بطول جانبَي السفينة تزاحمت بسرعة شديدة عشرات القوارب المتأرجحة الممتلئة بزنوج صاخبين. حاصر هؤلاء السود كل أسطح السفينة ليعرضوا خدماتهم. في ظرف بضع ثوانٍ كنت قد نقلت إلى سلم النزول أغراضًا محزومة على عجل في طرود قليلة وانسللت خلف واحد من هؤلاء الملّاحين، كانت العتمة تخفي عني بالكامل تقريبًا كل ملامحه ومشيته المترنحة. أسفل سقالة النزول، بمحاذاة سطح الماء المتماوج، ساورني القلق بشأن وجهتنا.

سألته: "أين نحن؟"

جاوبني ذلك الشبح: "في بامبولا – فور – جونو Bambola-For-Gono".

انطلقنا فوق الماء بلا مانع يعوقنا. بفضل ضربات المجداف القوية، كنت أساعده بيدَي حتى نمضي بأسرع ما يمكن.

كان لا يزال لدي متسع من الوقت لألقي نظرة أخرى في أثناء هروبي على رفاقي الخطرين فوق سطح السفينة. على ضوء مصابيح السطوح، رازحين، آخر الأمر، تحت وطأة البلادة والحموضة، كانوا يواصلون الاختمار مغمغمين عبر نعاسهم. منبطحين، سكارى، يتشابهون الآن جميعًا. ضباط، موظفون، مهندسون، أطباء، تكسوهم البثور، بارزو البطون، مخضرو البشرة، مختلطون، تقريبًا متماثلين. عندما تنام، تشبه الكلاب الذئاب.

أدركت اليابسة بعد لحظات قليلة وكان الليل لا يزال أكثر ظلمة تحت الأشجار، وفوق وخلف هذا الليل كل ما كان يخفيه الصمت من تواطؤ.

الفصل 14

المقطع الحادي عشر

في مستعمرة بامبولا– براجامانس هذه، يتربع الحاكم سيدًا فوق الجميع، عسكريوه وموظفوه يتجاسرون بالكاد على التنفس عندما يتنازل ويغض بصره عن أشخاصهم.

تحت جماعة الأعيان تلك بكثير، بدا أن التجار المقيمين كانوا يغشون ويزدهرون بأسهل مما يجري في أوروبا. لم تعد ثمرة واحدة من ثمار جوز الهند ولا حبة واحدة من الفول السوداني، في كل أنحاء الأقليم، تفلت من براثنهم. كان الموظفون قد أدركوا أنهم كلما أصبحوا أكثر إرهاقًا ومرضًا، قد انخدعوا بالفعل حين جيئ بهم إلى هنا، لكيلا ينالوا في النهاية إلا شرائط الرتب وبعض الاستمارات الواجب ملؤها، ولا شيء من النقود تقريبًا مع ذلك. لهذا لعلهم كانوا يحسدون التجار. كان العنصر العسكري الأكثر حمقًا بكثير من الآخرين، يعيش على مجد المستعمرات، وحتى يهضمه كان يستعين بكثير من شراب الكينا وكيلومترات من اللوائح.

صار الجميع، هذا أمر مفهوم، لطول انتظار أن تنخفض درجات الحرارة، قساة، غلاظ القلوب أكثر فأكثر. استمرت أعمال العداء الفردية والجماعية بلا نهاية ولا مبرر بين العسكريين والتجار، ثم بين هذين الاثنين المتحالفين مؤقتًا وهؤلاء الآخرين، ثم بين الجميع والزنوج وبعضهم. هكذا راحت القوة النادرة الناجية من حمى المستعمرات، العطش، الشمس، تستهلك نفسها في أحقاد شديدة الضراوة، شديدة اللجاجة، حتى إن الأمر قد انتهى بكثير من مستوطني المستعمرات بالموت على أرضها، متأثرين بسمومهم شخصيًّا، كالعقارب.

مع هذا، فإن هذه الفوضى الميكروبية العارمة قد وجدت نفسها حبيسة نظام شرطي محكم، كالسرطانات في سلالها. سال لعاب الموظفين بلا طائل، على أي حال فإن الحاكم قد وجد مَن يجندهم لإخضاع مستعمرته وحفظ النظام فيها، كل جنود الجيش الأهلي البؤساء الذين كان يحتاج إليهم، قدر ما يريد من الزنوج المفلسين الغارقين في الديون الذين قذف بهم الفقر آلافًا نحو الساحل، مطرودين من جنة التجارة، قادمين بحثًا عن صحن من الحساء. كان هؤلاء المعدمون المنهكون يُلَقنون القانون وأسلوب تعظيم الحاكم. وبدا الحاكم كأنه يحمل فوق زيه الرسمي كل ما يملكه من ذهب، وبالشمس التي تبرق فوقه كان ذلك شيئًا يفوق التصور، ناهيك بالريش.

كان الحاكم يستمتع كل عام بقضاء بعض الوقت في "فيشي"، ولم يكن يطالع سوى الجريدة الرسمية. عاش بعض الموظفين على أمل أن يضاجع الحاكم زوجاتهم يومًا ما، غير أن الحاكم لم يكن يحب النساء. لم يكن يحب شيئًا. من وسط كل وباء جديد للحمى الصفراء، كان الحاكم يخرج سالمًا متمتعًا بصحة جيدة، بينما يسقط كثير ممن كانوا يرجون هلاكه صرعى كالذباب عند الهجمة الأولى للوباء.

ما زال يعلق بالذاكرة أنه ذات "عيد جمهورية"– رابع عشر من يوليو، وبينما كان يمر أمام طليعة قوات المستعمرة، متبخترًا بفرسه، وسط فرسان حرسه، وحيدًا أمام علم كبير للغاية، ألقى رقيب بنفسه أمام فرسه، مندفعًا بهوس الحمى بلا شك، صارخًا فيه: "إلى الخلف، أيها الديوث الأكبر!" يبدو أن الحاكم قد تأثر كثيرًا من جراء ذلك الاعتداء الذي ظل -على أي حال - بلا تفسير.

من الصعب التعرف إلى حقيقة الناس والأشياء في البلاد الاستوائية بسبب الألوان المنبعثة منها. إنها في حالة هياج دائم، الألوان والأشياء. علبة سردين صغيرة مفتوحة ملقاة وسط الطريق في قلب الظهيرة، تلقي من الأضواء المنعكسة المتباينة ما يأخذ في أعين المرء أهمية حدث ما. علينا الحذر،

فالهستيريا لا تصيب البشر وحدهم هنا، الأشياء أيضًا تقع في هذا. لا تصبح الحياة محتملة قليلاً إلا عند هبوط الليل، لكن الظلمة أيضًا تقع على الفور في قبضة أسراب الناموس، ليس واحدًا، اثنين أو مئة بل بلايين. يصبح خروج المرء سالمًا وسط هذه الظروف محاولة حقيقية لحفظ النوع. مهرجان بالنهار، زبد طافح بالليل، حرب خفية.

وأخيرًا عندما يسود الصمت الكوخ الذي يأوي إليه المرء، تأتي ديدان الأرض لتتولى أمر المكان. تلك الحشرات الخبيثة المنهمكة دومًا في التهام قوائم كوخك الخشبى. ليهُب إعصار إذًا على هذه الدانيلا المخادعة ولسوف تتبخر شوارع بكاملها.

هكذا كانت تبدو مدينة فور - جونو التي ألقيت فيها رحالي. عاصمة البراجامانس المؤقتة، معلقة بين البحر والغابة، وإن كانت مزودة، مجهزة بكل ما يلزم من بنوك، مواخير، مقاهٍ، شرفات، بل وحتى بمكتب للتجنيد، لنجعل منها حاضرة صغيرة، دون أن نغفل ميدان فيدرب وجادة بيجو للتنزه، مجموعة الأبنية القانية الزاهية وسط المنحدرات الصخرية الخشنة المحشوة بيرقات الديدان، التي وطئتها أقدام أجيال عديدة من العسكر ورجال الإدارة النشطاء.

نحو الخامسة، يروح العسكر يغمغمون حول كؤوس فواتح الشهية، التي كانت أسعارها قد ارتفعت في الوقت الذي وصلتُ فيه تحديدًا. ذهب وفد من زبائن الحانات ليلتمس من الحاكم إصدار قرار يمنع أصحابها من العبث بأسعار "المومينت" و"الكاسيس"، وفق هواهم. ووفقًا لما يقوله بعض المترددين على الحانات، فإن مشروعنا الاستعماري صار أكثر مشقة بصورة متزايدة، بسبب الثلج. إن إدخال الثلج إلى المستعمرات، تلك حقيقة، كان إشارة إلى فقدان المستعمر طابعه الرجولي. ملتحمًا، بحكم العادة، منذ الآن فصاعدًا، بكأسه من الأبريتيف المثلج، كان لزامًا على هذا المستعمر أن يتوقف عن التغلب على المناخ بهذه فقط. لم يكن آل فيدرب، آل ستانلي، آل مارشان، لنسجل

ذلك على نحو عابر، يظنون إلا الخير في الجعة، النبيذ والماء الفاتر العكر الذي كانوا يتجرعونه طوال سنوات دون أن يجأروا بالشكوى. هذا هو كل ما في الأمر. هكذا يفقد المرء مستعمراته.

تعلمت كثيرًا من الأشياء الأخرى، في حماية أشجار النخيل التي كانت تزدهر، في تناقض مع المكان، بحيوية مستفزة، على امتداد هذه الشوارع ذات البيوت الواهية. كان سطوع تلك الخضرة الفذة وحده هو ما منع المكان من التشابه التام مع منطقة لاجارين - بيزون. La Garenne-Bezons

بحلول الليل، تكون الدعارة الأهلية في أوجها، وسط سحابات صغيرة من البعوض الطنّان النهم المترع بالحمى الصفراء. يعرض مدد إضافي من السود على المارة كل ما يملكونه تحت الثياب من النِعم. بأسعار معقولة للغاية، يمكن للمرء أن يستمتع بأسرة كاملة لمدة ساعة أو ساعتين. كم كنت أتمنى أن أنتقل من جنس إلى آخر، لكن الضرورة اقتضت أن أبحث عن مكان ما قد يتيح لي فرصة الحصول على عمل.

أكد لي بعضهم أن مدير شركة "بوردوير دو بتي كونجو Porduriere du petit Congo كان يبحث عن موظف مبتدئ ليدير إحدى وكالاته في الأدغال. مضيت بلا إبطاء لأعرض عليه خدماتي العارية من الخبرة، لكنها جادة مخلصة. لم يكن بهيجًا، ذلك الاستقبال الذي أعده لي المدير. كان هذا المهووس –يجب أن نسميه باسمه– يسكن على مقربة من مقر الحكومة في استراحة - استراحة فسيحة، تعتلي الغابة وأكواخ القش. قبل حتى أن يراني، طرح عليَّ عدة أسئلة بالغة الفظاظة حول ماضيّ، ثم بعد أن هدأ قليلاً بفعل إجاباتي الساذجة، البريئة للغاية، اتخذ احتقاره لشخصي منحى متسامحًا إلى حد كبير. غير أنه رأى أنه ليس من المناسب إطلاقًا أن يدعوني بعد إلى الجلوس.

"وفقًا لأوراقك فإنك تعرف شيئًا عن الطب؟" قال ملاحظًا. أجبته بأني قد قمت في الواقع ببعض الدراسات في تلك الوجهة.

"سوف يفيدك هذا إذًا– هل تريد بعض الويسكي؟" أنا لا أشرب "هل تريد أن تدخن؟" رفضت مرة أخرى. أدهشه هذا الامتناع. بل إنه مط شفتيه ممتعضًا.

"أنا لا أحب كثيرًا الموظفين الذين لا يشربون ولا يدخنون.. ألست شاذًا بالمصادفة؟ كلا؟ بئس الأمر! أنت حر.. هؤلاء الناس يسرقوننا بأقل من الآخرين.. هذا ما لاحظته بالتجربة.. إنهم يرتبطون بالعمل". في النهاية أراد أن يتراجع عما قاله، أظن أني قد لاحظت عمومًا هذه الصفة لدى الشواذ.. هذه الميزة.. ربما تثبت لنا العكس! ثم واصل: "أنت تشعر بالحر، أليس كذلك؟ سوف تعتاد ذلك، سيكون عليك أن تتعود ذلك على أي حال! وماذا عن الرحلة؟"

"مملة، مزعجة". قلت له. "حسنًا، إنك لم ترَ بعد شيئًا يا صاحبي، سوف تنبئني بأخبار هذا البلد عندما تكون قد أمضيت عامًا في بيكو ميمبو، هناك حيث أرسلك لتحل محل ذلك المهرج الآخر".

راحت صاحبته الزنجية، المقعية إلى جوار الطاولة، تعبث بقدميها وتفركهما بقطعة من الخشب.

"اغربي عني.. يا سوداء!" صاح فيها سيدها. "اذهبي لتأتي بالصبي! فضلاً عن الثلج في الوقت نفسه".

وصل الصبي المطلوب ببطء شديد. نهض المدير ساعتها، مغتاظًا، وبتراخٍ، استقبل الصبي، بصفعتين هائلتين وبركلتين من قدمه أسفل بطنه، ركلتين مدويتين.

"هؤلاء الناس سوف يقضون عليَّ، هذا كل ما في الأمر!" تنبأ المدير متنهدًا. ترك نفسه ليهوي من جديد في مقعده المكسو بقماش أصفر قذر متهدل.

"اسمع يا عزيزي". قال فجأة وقد صار أليفًا ظريفًا كما لو كانت القسوة التي مارسها لتوه قد حررته إلى حين، "لتناولني إذًا سوطي وزجاجة الكينين.. فوق الطاولة.. لم يكن عليَّ أن أثور هكذا.. من الحماقة أن ينساق المرء وراء هواه".

من منزله كنا نطل على المرفأ النهري، الذي كان يتلألأ أسفل منا من خلال سحابة من غبار كثيف جدًّا، متضام للغاية حتى إننا كنا نسمع جلبة أنشطته المضطربة، بأفضل مما كنا نتبين تفاصيلها. على الشاطئ، صفوف من الزنوج، يكدحون تحت وقع السياط، منهمكين، من عنبر إلى آخر، في تفريغ السفن التي لا تفرغ مطلقًا، متسلقين المعابر المعلقة والسقالات المتأرجحة والواهية، يحملون سلالهم الكبيرة الممتلئة فوق رؤوسهم، متوازنين، وسط السباب، كأنهم نمال تسير على قدمين.

كانت تلك الحركة تغدو وتروح في أرتال متقطعة عبر بخار قرمزي. وسط أولئك الشخوص الغارقين في العمل، كان بعضهم يحمل فوق ما كان يحمله نقاطًا سوداء صغيرة فوق ظهره، إنهن الأمهات، اللاتي أتين هن أيضًا يطفن في المكان حاملات سلال من سعف النخيل تضم أطفالهن، كحمل إضافي. رحت أسأل نفسي إن كان بوسع النمل القيام بذلك.

"يظن المرء أن كل الأيام هنا أيام أحد.. أليس كذلك؟" استأنف المدير كلامه مازحًا "الجو هنا بهيج! الجو صافٍ! النساء عرايا. هل لاحظت؟ ونساء جميلات.. أليس كذلك؟ يبدو ذلك غريبًا لمن يصل من باريس، أليس كذلك؟ أما نحن! متدثرون دومًا بالكتان الأبيض! كما في حمامات البحر مثلما ترى! لا يكون المرء جميلاً هكذا؟ كأننا.. من عجب.. من متناولي القرابين! إننا في عيد دائم هنا.. أؤكد لك! احتفال حقيقي بعيد الخامس عشر من أغسطس! هكذا هي الحال دائمًا تصل إلى الصحراء! تأمل!"

ثم توقف عن الكلام، تنهد، تأوه، دمدم، كرر مرتين، ثلاث مرات كلمة "اللعنة"، جفف عرقه ثم استأنف الحديث.

"هناك، حيث ستذهب ممثلاً للشركة، في قلب الغابة، الجو رطب.. إنها على بُعد عشرة أيام من هنا.. البحر أولاً ثم النهر. نهر أحمر تمامًا.. سوف ترى، ومن الجهة الأخرى سوف ترى الإسبان. الشخص الذي سوف تحل محله في الوكالة، إنه نذل حقيقي.. تذكر هذا. وأقول لك، بيني وبينك، ليست هناك وسيلة ليرسل إلينا حساباته، هذا الحقير، ما من وسيلة! لقد حاولت عبثًا أن أرسل إليه استدعاءً بعد استدعاء. لا يظل الإنسان أمينًا لوقت طويل إذا تُرك وحده، اذهب! سوف ترى! سترى هذا أيضًا! إنه مريض، لقد كتب إلينا يقول ذلك.. أنا أود أن أصدقه! إنه مريض! أنا أيضًا مريض! ماذا يعني بقوله مريض؟ كلنا مرضى! أنت أيضًا سوف تصبح مريضًا، بل وفوق ذلك.. في وقت قصير! ليس هذا عذرًا في نظري! لا يعنينا أن يكون مريضًا.. الشركة أولاً! عندما تصل إلى الموقع، اجرد كل ما لديه قبل كل شيء. هناك في هذا الفرع مؤن إعاشة تكفي ثلاثة أشهر وبضائع تكفي لمدة عام على الأقل.. لن تحتاج إلى شيء. لا تسافر ليلاً بصفة خاصة. انتبه! فإن زنوجه الذين سوف يرسلهم ليأخذوك إلى البحر، إنهم هم الذين قد يلقون بك إلى الماء. لا بد أنه درّبهم! إنهم سفلة مثله تمامًا! أنا مستريح البال! لا بد أنه قد قال لهم كلمتين بخصوصك. هذا ما يحدث عادةً هنا! لتأخذ إذًا ما تحتاج إليه من شراب الكينا أيضًا، زجاجتك الخاصة، معك، قبل أن تسافر.. إنه قادر بالفعل على أن يدس لك شيئًا ما في زجاجته".

اكتفى المدير بما أسداه إليَّ من نصائح، نهض ليصرفني. بدا السقف الصفيحي من فوقنا كأنه يزن ألفَي طن على الأقل، لشدة ما اختزن فوق رؤوسنا من حرارة المعدن. ارتسم الامتعاض على وجهينا نحن الاثنين لشدة ما عانينا من الحر. حر قاتل لا يمهل.

ثم أضاف:

"ربما لا يكون هناك داعٍ لنلتقي قبل سفرك إلى باردامو! كل شيء متعب هنا! على أي حال، ربما جئت مع ذلك للاطلاع على أحوالك قبل سفرك.. سوف نكتب إليك عندما تكون هناك.. لدينا بريد شهري.. ينطلق مركب البريد من هنا. هيا، حظًّا سعيدًا".

ثم اختفى الرجل في ظله، بين قبعته وسرته. كانت أحبال أوتار رقبته تبدو للرائي بكل وضوح من الخلف، مقوسة، كأنها إصبعان يسندان رأسه. استدار نحوي مرة أخرى قائلاً:

"نبّه على المعتوه الآخر أن يهبط إلى هنا بمنتهى السرعة. قل له إن لديّ ما يجب أن أخبره به. قل له ألا يضيع الوقت في الطريق! آه هذا البغل، يجب أن يهلك، قبل كل شيء، في الطريق. ستكون هذه خسارة.. خسارة كبيرة. آه، يا له من وغد حقير".

تقدمني خادمه الأسود بالمصباح الكبير ليقودني إلى المكان الذي يجب أن أقيم فيه في انتظار سفري إلى قرية بيكوميمبو الوادعة الموعودة.

مضينا بطول الدروب التي لا بد أن كل الناس قد نزلوا للتنزه فيها بعد الغروب. الليل المترع بدقات الصنوج، في كل مكان، تقطعه أصوات غناء متنافرة كأنها "الزغطة"، الليل الأسود الثقيل، ليل البلاد الحارة، بقلبه الوحشي الصاخب الذي يدق دومًا بسرعة بالغة على وقع الطبول.

انسل مرشدي الشاب على قدميه العاريتين في خفة. لا بد أن تلك الأحراش كانت تضم بعض الأوروبيين، كنا نسمعهم هناك، يجولون، نسمع أصواتهم، أصوات البيض، التي يمكن التعرف إليها بسهولة، عدائية، زائفة مخاتلة. لم تكن الخفافيش تتوقف عن التوجه نحونا بطيرانها البهلواني، التحليق وسط أسراب الحشرات الطائرة التي اجتذبها نور المصباح حول طريقنا. تحت كل

ورقة من أوراق الشجر لا بد أن جُدجُدًا على الأقل كان يختبئ، لو حكمنا على ذلك من خلال اللغط المصم الصادر عنها كلها معًا.

في تقاطع طريقين، في منتصف أحد المرتفعات، استوقفتنا جماعة من القناصة من السكان الأصليين المنهمكين في نقاش بالقرب من تابوب مسجى على الأرض، يغطيه علم عريض متماوج ثلاثي الألوان. علم فرنسا.

كان أحد موتى المستشفى الذي لم يكونوا يعرفون على وجه الدقة أين يذهبون ليواروه التراب. الأوامر لم تكن واضحة. أراد البعض دفنه في أحد الحقول الموجودة بأسفل الطريق، أصر الآخرون على قطعة أرض مسيجة في أعلى الساحل. كان علينا الانتظار. هكذا صار لنا الحق، الفتى وأنا، في أن نبدي رأينا في تلك القضية.

أخيرًا، استقر الحمّالون على المقبرة الموجودة بالأسفل بدلاً من تلك الموجودة بالأعلى، لأن النزول أسهل. قابلنا في طريقنا أيضًا ثلاثة من الشبان البيض من نوعية هؤلاء الذين يترددون على مباريات الرجبي في أيام الأحد في أوروبا، مشجعون متحمسون، عدوانيون وشاحبون. موظفون مثلي، هنا، كانوا ينتمون إلى الشركة نفسها التي أعمل بها، أرشدوني بكل ود على الطريق إلى ذلك المنزل الذي لم يكتمل بناؤه والذي يوجد فيه سريري السفري القابل للفك والتركيب.

ذهبنا إلى هناك، كان ذلك المبنى خاليًا تمامًا، باستثناء بعض أوعية الطهو وما يمكن أن نسميه "سريري". ما إن استلقيت على هذا الشيء الخيطي والمتأرجح، حتى خرج من الأركان عشرون خفاشًا وانطلقوا في جولات صاخبة من الذهاب والإياب، كمروحة فوق مرقدي المذعور.

عاد مرشدي، الزنجي الصغير، أدراجه ليعرض عليَّ خدماته الحميمة.. ولأني لم أكن في حالة نفسية طيبة في تلك الليلة، فقد اقترح على الفور، خائب

الأمل، أن يعرفني إلى أخته. تمنيت لو كنت فضوليًا لأعرف كيف كان بإمكانه العثور عليها، أخته، في ليلة حالكة كهذه.

أصوات طبول القرية القريبة جدًّا تُفقدك الصواب، تقطع الصبر إربًا صغيرة. انقضت على فخذَي ألف بعوضة لحوح وسيطرت عليهما ولم أعد أجرؤ رغم ذلك على أن أضع قدمًا على الأرض بسبب العقارب والثعابين السامة التي أظن أن رحلات صيدها البشع كانت قد بدأت. الحقيقة أن الثعابين كان لديها خيار واسع من الفئران، الفئران التي كنت أسمعها تقرض أي شيء كان، كنت أسمعها من الجدران، فوق الأرضية، مرتجفة، في السقف.

أخيرًا بزغ القمر، صار الجو في الغرفة أكثر هدوءًا. باختصار، لم تكن أحوالنا طيبة في المستعمرات.

على أي حال جاء اليوم التالي، هذا المرجل. رغبة جامحة في العودة إلى أوروبا تملكتني روحًا وجسدًا. لم يكن ينقصني سوى المال لأهرب من هذا المكان. يكفي هذا. لم يتبقَ لي سوى أسبوع واحد عليَّ أن أقضيه في فور - جونو قبل أن أمضي لألتحق بموقعي في بيكوميمبو، ذات الوصف البهيج.

بعد قصر الحاكم، كان المستشفى أكبر مبنى في فور - جونو. كنت أجده في طريقي في كل مكان أذهب إليه. لم أكن أقطع مئة متر في المدينة دون أن أصادف واحدًا من أجنحته ذات الروائح القديمة الكريهة لحمض الفنيك. من حين إلى آخر كنت أجازف بالذهاب إلى أرصفة إقلاع السفن كي أشاهد زملائي الصفر المصابين بفقر الدم، الذين جلبتهم الشركة من فرنسا تحت رعايتها الشاملة، يعملون في المكان. بدا كأن عجلة حربية تتملكهم لينهمكوا بلا توقف في تفريغ وتحميل سفن الشحن واحدة بعد أخرى.

"السفينة الراسية في الميناء تكلف غاليًا جدًّا!" كانوا يكررون هذا آسفين بكل صدق، كما لو كان الأمر يتعلق بحُرّ أموالهم.

يناكدون الحمّالين السود بشغف شديد. متحمسين كانوا، بلا جدال، وسفلة جبناء وأشرار لِئام بقدر ما كانوا متحمسين. باختصار، موظفون من ذهب، لا مثيل لهم، مختارون بعناية، حماس تلقائي للإيذاء مثير للخيال. أبناء مثلما كانت أمي تتمنى أن يكون لها واحد منهم. هؤلاء المولعون بمخدوميهم، واحد لها وحدها، ابن يمكن المفاخرة به أمام كل الناس، ابن شرعي تمامًا.

لقد جاؤوا إلى إفريقيا الاستوائية، هؤلاء الأوائل، ليمنحوا أرباب أعمالهم لحوم أجسادهم، دماءهم، أعمارهم، شبابهم، شهداء لقاء اثنين وعشرين فرنكًا في اليوم (ناقص الاستقطاعات)، راضون، رغم كل شيء راضون، حتى كريّة الدم الحمراء الأخيرة التي تترقبها بعوضة من عشرة ملايين بعوضة.

تصيب المستعمرات هؤلاء الموظفين الصغار، المندوبين، بالبدانة أو بالهزال، لكنها تُبقي عليهم، ليس هناك سوى طريقين للهلاك تحت الشمس، طريق البدانة وطريق الهزال.. ما من طرق أخرى. يمكننا الاختيار، لكن ذلك يعتمد على الطبيعة، أن يصير المرء بدينًا أو يموت جلدًا على عظم.

المدير، على قمة المنحدر الصخري الأحمر، الذي راح يتقلب، كالشيطان، مع جاريته السوداء، تحت سقف الصفيح الذي ينوء بعشرة آلاف كيلوجرام من الشمس، لن ينجو هو الآخر من هذا الاستحقاق، إما عاجلاً أو آجلاً. كان من النوع الهزيل الضامر. كان يقاوم فحسب. كان يبدو كأنه يسيطر على هذا المناخ. ظاهريًّا فقط! لكنه في الحقيقة، كان يتفتت هو الآخر أكثر من كل الآخرين.

يزعم البعض أن لديه خطة خداع رائعة، ليكوّن ثروته في ظرف عامين. غير أنه لم يكن ليحظى مطلقًا بالوقت الكافي لتنفيذ مخططه، حتى إن عكف على خداع الشركة ليلاً ونهارًا. لقد حاول قبله اثنان وعشرون مديرًا تكوين ثروات خاصة، كلٌّ بطريقته، على طريقة لعبة الروليت. كل ذلك كان معروفًا تمامًا للمساهمين الذين كانوا يراقبونه، المدير، من هناك، من مكان أكثر

ارتفاعًا، من شارع "مونسي" في باريس، وكان ذلك يروقهم. كانت تلك بالنسبة إليهم، أمورًا صبيانية.. كلها.

كان أصحاب الأسهم هم الآخرون يعرفون ذلك جيدًا، وهم أكبر اللصوص، يعرفون أن مديرهم مصاب بالزهري وأنه كان شديد الاهتياج في هذه الأجواء الاستوائية، وأنه كان يعب من "الكينين" ومن البيسموت ما يفجر طبلات الأذن، ومن الزرنيخ ما يُسقط اللثة بكاملها.

في الحسابات العامة للشركة، كانت شهور المدير، معدودة، محسوبة مثل شهور عمر الخنزير.

لم يكن زملاء العمل يتبادلون أية خيالات.. محض صيغ ثابتة، محدودة، مكررة، مستهلكة. مثل: "لا يجب أن تحمل همًّا!"، "سوف نتغلب عليهم!"، "الوكيل العام رجل مخدوع، زوجته تخونه!"، "يجب أن نصنع من جلود الزنوج أكياسًا للتبغ"... إلخ.

في المساء، بعد الانتهاء من آخر أعمال السخرة، كنا نتلاقى حول كؤوس الأبريتيف مع وكيل مساعد من رجال الإدارة، كان يسمى السيد "تاندرنو" Tandernotمن مدينة "لاروشيل"La Rochelle في الأساس، وإذا كان تاندرنو يخالط التجار، فقد كان ذلك فقط من أجل أن يدفعوا له ثمن شرابه. كان ذلك ضروريًّا، فلم يكن يملك أية نقود. أي انحطاط! كان الرجل في أدنى مرتبة ممكنة في نظام العمل بالمستعمرات. كانت وظيفته إدارة أعمال تشييد الطرق في قلب الغابات. كان أهل البلاد يعملون في تلك المشروعات تحت هراوات رجال ميليشيته بطبيعة الحال. لكن نظرًا إلى أن الطرق الجديدة التي كان ينشئها "تاندرنو" لم يكن يسلكها أي رجل أبيض، ولأن السود من ناحية أخرى كان يفضلون عليها دروبهم التي تشق الغابات، حتى لا يستدل على أماكنهم إلا بأقل ما يمكن خوفًا من الضرائب، ونظرًا إلى أن طرق الإدارة التي يشيدها تاندرنو لم تكن تؤدي في الواقع إلى أي مكان، لذا كانت تختفي

تحت الخضرة، بالفعل، بمنتهى السرعة، من شهر إلى آخر، هذا ما كان يحدث باختصار.

"لقد فقدت منها، في العام الماضي، مئة واثنين وعشرين كيلومترًا! كان ممهد الطرق الخرافي هذا يذكِّرنا طواعيةً بما جرى في ما يتعلق بطرقه. بوسعكم أن تصدقوني لو أردتم".

لم أعرف لتاندرنو طيلة فترة إقامتي سوى مظهر وحيد من مظاهر التباهي، اعتزاز واهٍ بأنه كان الأوروبى الوحيد الذي يمكن أن يصاب بالزكام في البراجامانس عندما تصل درجة الحرارة إلى 44 مئوية في الظل.. كان ذلك التفرد يعوضه كثيرًا من الأشياء. "لقد أصبت مرة أخرى بالزكام! أنا الشخص الوحيد الذي يحدث له هذا". كان يردد هذا على أسماعنا بكثير من الفخر عند تناول الأبريتيف! يا له من رجل تاندرنو هذا! رغم هذا! حينذاك كان أفراد زمرتنا الهزيلة البائسة يتصايحون إعجابًا. كانت ترضية كهذه أفضل من لا شيء، أي شيء كان، يتعلق بالاعتزاز بالنفس، كان أفضل من لا شيء على الإطلاق.

إحدى صور التسلية الأخرى لمجموعة صغار العاملين لدى شركة لابوردوريير كانت تنظيم مسابقات الحمى. لم يكن الأمر صعبًا، لكن التحدي بيننا كان يستمر أيامًا، كان هذا يساعدنا على تمضية الوقت. بحلول الليل والحمى أيضًا، بصورة شبه يومية دائمًا، كنا نقيس درجات حرارتنا. "انظرا، لديَّ تسع وثلاثون مئوية!" فيرد الآخر: "مهلاً، هوّن عليك، فلديَّ أربعون مثلما أريد".

فضلاً عن ذلك، كانت تلك القياسات صحيحة حقيقية. كنا نقارن بين الترمومترات على ضوء الكشافات المثبتة فوق رؤوسنا. كان الفائز يحتفل بانتصاره مرتعدًا. "إنني لم أعد قادرًا على التبول لفرط ما تصببت عرقًا!" يقول بكل إخلاص أكثرهم هزالاً، كان زميلاً نحيفًا، من الآريج Arige، بطل

مسابقة الحمى الأول الذي جاء إلى هنا، كما أسر إليَّ، هربًا من المدرسة الأكليريكية حيث "لم يكن هناك ما يكفي من حرية".

غير أن الوقت كان يمضي ولم يكن بوسع هذا أو ذاك من الرفاق أن يخبرني إلى أي صنف من غريبي الأطوار بالضبط كان ينتمي ذلك الشخص الذي كنت على وشك أن أحل محله في بيكوميمبو.

"إنه شخص غريب الأطوار!" حذّرني الجميع. ليس أكثر.

راح رفيقي الشاب، بطل مسابقة الحمى الكبرى، القادم من آريج يقول: "في بداية العهد بالمستعمرة، يجب أن تبدي صفاتك الطيبة! ليست هناك حلول وسطى! ستكون في نظر المدير إما موظفًا مثاليًا تمامًا وإما لعينًا تمامًا. ولاحظ أن الحكم عليك سيكون فوريًا!"

انتابني خوف شديد من أن يكون الحكم بشأني بأني من فئة اللعين تمامًا. أو أسوأ من ذلك أيضًا.

اصطحبني أصدقائي من تجار العبيد الصغار هؤلاء لزيارة زميل آخر من العاملين بالشركة، الذي يستحق أن يُذكر على نحو خاص في هذه الرواية. مدير وكالة تجارية في وسط الحي الأوروبى، يكاد يهلك إعياءً، متداعٍ، يقطر عرقًا دهنيًّا، يخاف من أي ضوء بسبب عينيه اللتين أصابتهما سنتان من الشي الدائم تحت أسقف الصفيح المتماوج بجفاف شديد. كل صباح، كان يُمضي أكثر من نصف ساعة محاولاً فتحهما ونصف ساعة أخرى قبل أن يتمكن من الرؤية بشيء من الوضوح. أي شعاع ضوء كان يؤذي عينيه. حيوان "طوبين" taupe ضخم أجرب.

ضيق النفس والمعاناة صارا بالنسبة إليه طبيعة ثانية، والسرقة أيضًا. ربما أصابته الحيرة فعلاً، لو ارتد شريفًا صحيح البدن مرة واحدة. كانت كراهيته للوكيل العام المدير تبدو لي الآن أيضًا، رغم طول الوقت، واحدة من أكثر

المشاعر التي أتيحت لي ملاحظتها لدى البشر، حدة على الإطلاق. كانت حالة من الهياج العارم تجتاحه، تهزه كلما جاء ذكره، عبر آلامه ولأقل سبب كان يثور ثورة هائلة، فضلاً عن أنه كان يحك جلده من أعلى إلى أسفل في الوقت نفسه.

لم يكن يتوقف عن حك جسده من كل مكان، كان يدور حول محوره إن جاز القول، من الطرف الأسفل إلى عموده الفقري حتى بداية العنق. كان يخربش بشرته، بل وحتى جلده بأخاديد أظفاره الدامية، دون أن يكف بسبب ذلك عن خدمة عملائه، الكثيرين، من الزنوج شبه العراة دائمًا تقريبًا.

بيده الطليقة، كان يغوص، في الوقت نفسه، في المخابئ العديدة المتناثرة في حانوته المُعتم يمينًا ويسارًا. يروح يسحب منها، دون أن يخطئ مطلقًا، بمهارة وسرعة مذهلة، ما يريده الزبون بالضبط من أوراق التبغ عطنة الرائحة، أعواد ثقاب رطبة، علب سردين، العسل الأسود السائب، الجعة عالية الكحول في زجاجات مقلدة التي كان يتركها لتسقط من يده فجأة إذا انتابه، على سبيل المثال، سعار حك جلده من جديد، في مكان ما، داخل سراويله، حينها، كان يقحم فيه ذراعه بالكامل التي كانت سرعان ما تخرج من فتحة السراويل، التي كان يتركها دائمًا مفتوحة، من باب الاحتياط.

كان صاحبنا قد أطلق على هذا المرض الذي ينخر جلده اسمًا محليًّا "كوروكورو". عندما يخطر ببالى أن المدير، ذلك الوغد، لم يصب به بعد، "الكوروكورو"، تزداد آلام بطني أكثر! لن ينال منه الكوروكورو. إنه بالتأكيد أكثر تعفنًا من أن يؤثر فيه. إنه ليس من بني البشر، ذلك القواد، إنه وباء.. غائط بشري حقيقي.

فجأة ينفجر الجمع في المزاح، والعملاء الزنوج أيضًا من باب المنافسة. كان ذلك الزميل يخيفنا بعض الشيء. مع هذا كان يحظى بصديق ما، إنه ذلك الكائن القصير الأشيب المصاب بضيق النفس الذي يقود إحدى سيارات النقل

التابعة للشركة. كان يأتينا دائمًا بالثلج، المسروق بكل تأكيد، من هنا وهناك، من فوق السفن الراسية بالرصيف.

كنا نشرب نخب صحته متحلقين حول منضدة البيع وسط العملاء السود الذين يسيل لعابهم من الرغبة في الشرب. كان عملاء الحانوت من أهالي البلاد الأذكياء بما يكفي ليتجاسروا على الاقتراب منا نحن البيض. باختصار.. كانوا نخبتهم. أما الزنوج الآخرون، الأقل تفتحًا، فقد فضلوا البقاء على مبعدة. إنها الغريزة. لكن الأكثر نشاطًا والأفسد ضميرًا صاروا بائعين في المحل. داخل المحل، كان الموظفون السود يُعرفون من تعنيفهم للسود الآخرين وزجرهم بكل شغف. كان الزميل المصاب بالكوروكورو يشتري محصول المطاط الخام الذي يجُلب إليه من الأدغال في صورة كريّات رطبة داخل أجولة.

بينما كنا هناك، غير شاعرين بالملل إطلاقًا من الاستماع إليه، جاءت أسرة من جامعي المطاط، تسمّرت في حياء، على عتبة بابه. الأب في المقدمة، متغضن الوجه، يلف خصره مئزر قصير برتقالي اللون، وفأس الأدغال الطويلة في يده.

لم يجرؤ رجل الغابات على الدخول، لكن أحد الموظفين من الأهالي دعاه إلى الدخول قائلاً: "تعالَ أيها الزنجي! اقترب هنا لنرى! إننا لا نأكل الهمج هنا!" أدت تلك اللهجة إلى دفعهم إلى حسم أمرهم، ودخلوا إلى الكوخ الحارق الذي كان صاحبنا المصاب بالكوروكورو يعربد صاخبًا في مؤخرته.

كان من الواضح أن ذلك الأسود لم يكن قد رأى من قبل أي متجر مطلقًا، وربما ولا شخصًا من البيض أيضًا. تبعته واحدة من نسائه، غاضة البصر، حاملة فوق رأسها، بتوازن، السلة الكبيرة الممتلئة بالمطاط الخام.

دون استشارة يستولي الباعة الموظفون على سلتها ليزنوا محتواها على الميزان. لم يكن رجل الأدغال يعرف لعبة الميزان هذه ولا غيرها أيضًا. لم

تكن المرأة تجرؤ دومًا على رفع رأسها. راح باقي أفراد الأسرة ينتظرونهما بالخارج، محملقي الأعين عن آخرها. أُمِروا بالدخول هم الآخرون، ومعهم الأطفال أيضًا، حتى لا يفوتهم شيء من العرض.

كانت هي المرة الأولى التي يأتون فيها جميعًا هكذا من الأحراش، صوب البيض في المدينة. لا بد أنهم قد كدوا كثيرًا ومنذ وقت طويل، رجالاً ونساءً وأطفالاً، في جمع كل هذا المطاط، وعليه فقد كانت النتيجة حتمًا تهمهم جميعًا. يقطر المطاط ببطء في الأوعية الصغيرة المعلقة على جذوع الأشجار. غالبًا لا يجد المرء ملء قدح صغير منه طوال شهرين.

بعد إجراء الوزن، يسحب رجل الكوروكورو الأب، الذاهل، خلف طاولته، بقلمه الرصاص يجري له حسابه ثم يدس في راحة يده بعض العملات المعدنية، ثم يقول له: "هيا انقلع.. هذا هو حسابك!"

يتلوى كل الأصدقاء البيض من الضحك، من المهارة التي كان يدير بها أعماله. ظل الزنجي مزروعًا في مكانه، مرتبكًا من الخجل أمام الطاولة بسرواله البرتقالي القصير الذي يستر عورته. "أنت.. نقود.. ما في معرفة؟ همجي، ماذا تنتظر؟" صاح به لينبهه أحد موظفينا المتمرسين المهرة، المدرَّب بلا شك جيدًا على مثل هذه المعاملات الحاسمة. وأضاف: "أنت لا تتكلم فرنسا.. قل لي؟ أنت ما زلت قردًا كبيرًا يا هذا.. غوريلا. ماذا تتكلم يا هذا؟ كوس كوس؟ مابيليا؟ أنت يوجد غبي! بوشمان! غبي.. غبي تمامًا!"

لكن البربري ظل واقفًا أمامنا مطبق الكف على عملاته المعدنية. ربما كان قد أنقذ نفسه لو جرؤ، لكنه لم يجرؤ.

هنا وفي الوقت المناسب تدخل الحكّاك: "يا هذا ماذا تشتري إذًا بنقودك؟ إنني لم أرَ مثله على أي حال منذ وقت طويل. قال مبديًا ملاحظته. لا بد أنه قد جاء من بعيد هذا الشخص؟ ماذا تريد؟ هيا أعطني نقودك هذه!"

استرد منه النقود عنوةً دون أن يستشيره، ولقاء عملاته المعدنية جعّد له في راحة يده منديلاً كبيرًا أخضر اللون جدًّا، كان قد التقطه بخفة من أحد أدراج منضدته.

تردد الأب الزنجي في الذهاب بهذا المنديل. قام الحكّاك بأفضل من ذلك أيضًا. كان يعرف دون شك كل ألاعيب التجارة التي تفتن الزبائن. قال محركًا أمام عينَي واحد من أصغر الأطفال السود رقعة القماش الرقيق الخضراء الكبيرة: "قل لي: ألا تجده جميلاً أيها الصبي؟ هل رأيت كثيرًا مثله؟ قل لي يا صغيري الجميل، قل لي يا جيفتي الصغيرة، قل لي يا قطعة البودان الصغيرة، هل رأيت مثل هذه المناديل؟" ثم عقد المنديل حول عنق الصبي دون أن يسأله، كأنه يريه كيف يضعه.

في ذلك الوقت، كانت الأسرة الزنجية تتطلع إلى الصبي الصغير المزين بذلك الشيء الكبير المصنوع من القماش القطني الأخضر.. لم يعد بوسعهم فعل أي شيء لأن المنديل كان قد انضم لتوه إلى الأسرة. لم يبقَ لهم بعدها سوى القبول به، أخذه والرحيل من هناك.

بناءً عليه، أخذ الجميع في الانسحاب ببطء، اجتازوا الباب، وفي اللحظة التي استدار فيها الأب، وكان آخرهم، ليقول شيئًا ما، استحثه على الرحيل ذلك الموظف الأكثر نشاطًا وخسةً بركلة قوية بين إليتيه.

تجمعت القبيلة الصغيرة بالكامل، في صمت، في الجهة الأخرى من جادة فيدرب، تحت شجرة، تنظر إلينا ونحن ننتهي من احتساء الأبريتيف، كأنهم كانوا يحاولون فهم ما جرى لهم للتو.

كان رجل الكوروكورو لا يزال يتحفنا بالشراب، بل إنه قد أدار لنا الجرامافون. في متجره يجد المرء كل شيء. كان ذلك يذكِّرني بقوافل الإمدادات في الحرب.

الفصل 15

المقطع الثاني عشر

عمل معي في خدمة الشركة إذًا وفي الوقت نفسه، كما أخبرتكم، في مستودعاتها وفي مزارعها، عدد كبير من الزنوج وجماعات صغيرة من أمثالي. الزنوج، عن أنفسهم، كانوا لا يعملون، عمومًا، إلا تحت ضربات الهراوة، حافظوا على هذا الشرف، أما البيض، الذين هذبهم التعليم العام، فكانوا يمتثلون تلقائيًّا.

تنتهي الحال بالهراوات إلى إرهاق من يستخدمها، ما دام الأمل في التحول إلى الثراء والسلطة الذي تفيض به نفوس البيض لا يكلف شيئًا، لا شيء على الإطلاق، فلا يأتي أحد بعد الآن ليفاخرنا بمصر القديمة وطغاة التتار! لم يكن هؤلاء الهواة القدامى إلا مجرد مدعين في مجال الفن الأعظم، فن حمل الدابة الآدمية على بذل أقصى جهودها في العمل. لم يستطع هؤلاء البدائيون أن يطلقوا على العبد اسم السيد ولا أن يحملوه على التصويت من وقت إلى آخر، ولا على أن يدفع ثمن الجريدة اليومية، وخصوصًا أن يسوقوه إلى الحرب لينزعوا منه مشاعره. إن مسيحيًّا عمره عشرون قرنًا، وأنا أعرف شيئًا عن هذا، لا يستطيع أن يتمالك نفسه عندما تمر أمامه كتيبة من الجنود، يجعله ذلك يطلق كثيرًا جدًّا من الأفكار والخيالات.

لذلك، قررت في ما كان يخصني أن أنتبه، ابتداءً من ذلك الوقت فصاعدًا، لتصرفاتي بمنتهى الدقة، ثم أتعود أن ألتزم الصمت بمنتهى الحرص، أن أخفي رغبتى في مغادرة المكان، أن أنجح في نهاية المطاف وأغتني إذا كان ذلك ممكنًا وبرغم كل شيء في خدمة شركة البوردورييير. لم تعد أمامي دقيقة واحدة لأضيعها.

على امتداد عنابرنا، بمحاذاة الضفاف الموحلة، تعيش قطعان من التماسيح المترصدة، متماوجة ومخاتلة. تلك التماسيح، شبه المعدنية، كانت تستمتع بهذه الحرارة المجنونة، الزنوج أيضًا، على ما يبدو.

في قلب الظهيرة، كنا نتساءل إذا كانت كل ضجة هذه الكتلة الكادحة الفقيرة على امتداد الأرصفة ممكنة، هذه الفوضى الهائلة من الزنوج المهتاجين الناعقين.

حتى أتدرب على ترقيم الأجولة، قبل أن أتوجه إلى الأدغال، كان عليَّ أن أوطن نفسي على الاختناق تدريجيًّا في عنبر الشركة المركزي مع الموظفين الآخرين، بين ميزانين كبيرين، محاصرين وسط حشد الزنوج، رث الثياب، قلوي الرائحة، الطافح بالبثور والأغاني. كل واحد منهم كان يجر خلفه سحابته الصغيرة من الغبار ويهزها بانتظام. راحت ضربات مسؤولي التحميل المكتومة تنهال على تلك الظهور بديعة التكوين، دون أن تثير الاعتراض أو الشكوى. لامبالاة الذاهلين وسلبيتهم. الألم، كانوا يتحملونه بالبساطة التي يتحمّلون بها الجو الملتهب لهذا الفرن المعفر بالتراب.

من وقت إلى آخر، كان المدير يمر، عدوانيًّا باستمرار، ليتأكد من أني أحرز تقدمًا حقيقيًّا في تقنية الترقيم والأوزان المغشوشة.

بضربات قوية من سوطه كان يشق طريقه إلى الميزانين، عبر كتلة الأهالى المتماوجة. "باردامو"، قال لي ذات يوم جادت فيه القريحة عليه، "هؤلاء الزنوج، الذين يحيطون بنا، أنت تراهم، أليس كذلك؟ حسنًا، عندما وصلت أنا إلى توجو، بعد قليل سيكون قد مضى على ذلك ثلاثون عامًا، لم يكونوا يعيشون إلا على القنص، صيد الأسماك، وعلى المذابح التي تدور بين القبائل، هؤلاء السفلة! في بداياتي كنت وكيلاً صغيرًا، رأيتهم كما أحدثك الآن، يعودون إلى قراهم بعد انتصارهم، محمّلين بأكثر من مئة سلة من اللحم البشري النازف بغزارة ليملؤوا به بطونهم! هل تسمعني يا باردامو؟ النازف بغزارة!

لحم أعدائهم! أنت بصدد عشاء ليلة عيد الميلاد! أما اليوم، فلم تعد هناك انتصارات! نحن هنا! لا قبائل بعد اليوم! لا تباهي! لا تصنُّع! لكن اليد العاملة وحبوب الفول السوداني! هيا إلى العمل! لا صيد بعد اليوم! لا بنادق! فول سوداني ومطاط! من أجل رفع الضرائب، الضرائب لحَمْلِهم على أن يأتونا بالمزيد من المطاط والفول السوداني، إنها الحياة باردامو! فول سوداني! فول سوداني ومطاط! ثم، انظر ها هو الجنرال تومبا Tomba قادم لتوه نحونا".

كان هذا الأخير آتيًا بالفعل لملاقاتنا، عجوزًا، متداعيًا، وتحت وطأة الشمس الرهيبة.

لم يعد الجنرال عسكريًّا تمامًا، مع ذلك لم يكن قد صار مدنيًّا بعد. موضعًا لثقة الشركة، كان يربط بين الإدارة والتجّار على الرغم من أن هذين الطرفين كانا دومًا في تنافس وعداء مستمر. غير أن الجنرال كان يناور على نحو رائع. كان الرجل قد خرج مؤخرًا، من بين آخرين، من صفقة قذرة لبيع أملاك تعود للأعداء، كانت دوائر السلطة العليا تراها مشكلة غير قابلة للحل.

في بداية الحرب، أصيب الجنرال بجرح صغير في أذنه، وهو ما كان لازمًا تحديدًا لإحالة مشرفة إلى الاستيداع عقب موقعه "شارل روا"، سرعان ما استثمرها في خدمة "فرنسا العظمى" تلك الإحالة إلى الاستيداع. لكن معركة "فردان" التي انقضى عليها زمن طويل كانت مع ذلك لا تزال تنكد عيشه. راح يفتش في عدة صور بالأشعة كان يضعها في راحته. "سوف يصمد صغارنا الشجعان! إنهم يؤدون دورهم!" كان الجو شديد القيظ داخل العنبر، وكان ما يتحدث عنه يدور بعيدًا جدًّا عنا، في فرنسا، حتى إننا أعفينا الجنرال تومبا من مزيد من التوقعات. وعلى أي حال فقد رحنا نردد مع ذلك ومن باب المجاملة والمدير معنا: "إنهم رائعون!" وإثر تلك الكلمات غادرنا تومبا.

بعد لحظات، شق المدير لنفسه، بالقوة، طريقًا آخر وسط الصدور المتراصة المتدافعة واختفى بدوره وسط الغبار اللاذع.

عيون متقدة، فحمية. كانت رغبة هذا الرجل في امتلاك الشركة تستنزفه، كانت نظرته تفزعني قليلاً. كنت أجد صعوبة في التعود على مجرد حضوره. لم أكن أصدق مطلقًا أن هناك في هذا العالم جسدًا بشريًّا قادرًا على هذا التوتر الأقصى للطمع. تقريبًا، لم يحدثنا مطلقًا بصوت مرتفع، بكلام مبطن فقط، قد يظن المرء أنه لم يكن يعيش، لم يكن يفكر إلا كي يتآمر، يترصد، يغش بكل شغف. يؤكد الناس أنه كان يسرق، يغش، يخصم لنفسه فقط أكثر من كل الموظفين الآخرين مجتمعين، الذين لم يكونوا مع هذا متكاسلين في سعيهم، أؤكد لكم ذلك. لكني كنت أصدق ما يقال بلا عناء.

في الفترة التي استمر فيها تدريبي في فورـــ جونو، كان لا يزال لديّ بعض أوقات الفراغ لأتنزه في شبه المدينة هذه، حيث لم أجد حقًّا إلا مكانًا وحيدًا مرغوبًا فيه آخر الأمر: المستشفى.

ما إن يصل المرء إلى جهة ما، حتى تتكشف فيه بعض الرغبات. عن نفسي، كنت ميالاً بطبعي إلى أن أكون مريضًا. مريضًا ليس إلا. لكل واحد نمطه الخاص. كنت لأطوف حول هذه الأجنحة المضيافة والواعدة، الحزينة، المنعزلة، المصونة، ولم أكن أغادرها إلا آسفًا، تلك الأجنحة ورائحة مطهراتها. تحيط بهذا المقر مروج خضراء بهيجة بطيورها الصغيرة الخفية السريعة وبسحالٍ قلقة متعددة الألوان، كأنها –على نحو ما - فردوس أرضي.

أما الزنوج فسرعان ما يتعود المرء عليهم، يعتاد تكاسلهم المرح وتحركاتهم البطيئة بأكثر من اللازم، يعتاد رؤية بطون نسائهم المتدلية. ينشر العرِق الأسود رائحة بؤسه، أباطيله التي لا تنتهي، خضوعه المشين، باختصار مثل فقرائنا تمامًا ولكن أيضًا مع أطفال أكثر وغسيل متسخ أقل ونبيذ أحمر أقل من حولهم.

عندما كنت أنتهي من تنشق رائحة المستشفى، من تشممها بعمق هكذا، كنت أمضي، متعقبًا جماهير الأهالي، لأتوقف برهة أمام ما يشبه الباجودا(26) التي أقامها أحد أصحاب المطاعم للترفيه عن رجال المستعمرة المحبين للجنس والمرح.

(26) معبد برجي الشكل في بلاد الهند والصين واليابان. (المترجم)

كان رجال فور ــــ جونو البيض ميسورو الحال يظهرون فيها ليلاً، يتبارون في عناد حول ألعاب القمار، ويعبون في الوقت نفسه الخمر بغزارة ثم يتثاءبون ويتجشؤون على مهل. لقاء مئتي فرنك ينال من يريد منهم صاحبة المحل الجميلة. كانت سراويلات هؤلاء الماجنين تسبب لهم ضيقًا شديدًا ليتمكنوا من حك جلودهم، كانت حمّالاتها لا تتوقف عن الانزلاق من أماكنها.

بحلول الليل، يخرج شعب بكامله من أكواخ مدينة الأهالي ويتجمع أمام الباجودا، لا يملون مطلقًا من رؤية وسماع البيض يتمايلون حول البيانو الميكانيكي، بأوتاره الصدئة، يعانون من فالساته النشاز. كانت صاحبة المحل تبدو عند سماع الموسيقى كأنها ترغب في الرقص وقد استخفها الفرح.

توصلتُ بعد محاولات استغرقت عدة أيام إلى بعض اللقاءات الخاطفة معها. أسرت إليَّ بأن دورتها الشهرية تستمر ما لا يقل عن ثلاثة أسابيع. تأثير الأجواء الاستوائية. فضلاً عن أن عملاءها كانوا يرهقونها.. ليس لأنهم يمارسون معها الجنس طويلاً، لكن لأن أسعار المقبلات في الباجودا كانت باهظة، فقد كانوا يحاولون أن يحصلوا منها على شيء مقابل أموالهم، في الوقت نفسه، فكانوا يقرصون أردافها كثيرًا، قبل رحيلهم. من هذا خصوصًا كان التعب يصيبها.

كانت تلك التاجرة تعرف جيدًا كل حكايات المستعمرة وعلاقات الحب التي انعقدت، يائسة، بين الضباط الذين نغصت حياتهم الحمى وزوجات الموظفين

النادرات، المنصهرات، هن أيضًا، الغارقات في دورات شهرية لا تنتهي، الجالسات حزانى تحت سقوف الشرفات في جوف المقاعد المائلة محنية الظهور إلى ما لا نهاية.

تنضح دروب فورـــــ جونو، مكاتبها وحوانيتها برغبات مبتورة شوهاء.

بدا أن القيام بكل ما يجري في أوروبا، السرور، العبوس، كان الهاجس الأساسي لهؤلاء المجانين الهائجين، مهما كان الثمن، على الرغم من الحرارة الشنيعة، الخمول المتزايد، الذي لا يقاوم.

الحدائق المزهوة الخضرة، العدوانية، العنيدة تحتل بشق الأنفس المكان بين الأسيجة، زاهية الأوراق، التي تنتج خسًّا متباهيًا نشوانًا حول كل البيوت، بياض بيضة كبير جامد متغضن يحتضر داخله أوروبى من جراء داء الصفراء. لهذا كان هناك من صحاف السلطة المترعة بقدر ما كان هناك موظفون بامتداد جادة "فاشودا"، الأكثر ازدحامًا وحركة وأفضل ما يتردد عليه المارة في فورــــ جونو.

كل مساء، كنت أعود إلى مسكني، غير القابل للاكتمال بلا شك، حيث يكون الخادم الخليع قد سوّى لي سريري الهزيل، كان ينصب لي فخاخًا ذلك الصبي، كان شهوانيًّا كقطة، وكان يرغب في أن ينضم إلى عائلتي. غير أني كنت مسكونًا باهتمامات أخرى وأكثر إلحاحًا من ذلك بكثير، وخصوصًا بفكرة الاعتصام لبعض الوقت بالمستشفى مرة أخرى، الهدنة الوحيدة الممكنة في مهرجان القيظ هذا.

في أوقات السلم كما في زمن الحرب لم أكن مستعدًا قط للانشغال بتوافه الأمور. بل إن بعض المراودات التي وصلتني من جهة أخرى، عبر طاهي صاحب العمل، بريئة جدًّا ومؤخرًا فاحشة جدًّا، بدت لي غير جذابة.

طفت للمرة الأخيرة على زملاء العمل في الشركة محاولاً الاستفسار عن أجر ذلك الموظف غير الأمين، الذي يتعيّن عليَّ الذهاب، مهما كلف الأمر، طبقًا للتعليمات، كي أحل محله في غابته. ثرثرة بلا طائل.

مقهى فيدرب، الواقع في آخر جادة فاشودا، الذي يضج قرب ساعة المغيب بكثير من أحاديث النميمة والأقاويل والوشايات، لم يكن هو الآخر يلهمني شيئًا ذا قيمة. محض انطباعات. في تلك العتمة المرصعة بقناديل متعددة الألوان، تتحطم صناديق قمامة ملأى بالانطباعات. الريح التي تهز دانتيلا النخيل السامق، كانت تدفع إلى صحون الفناجين بسحب بعوضها. في الأحاديث الدائرة، كان المحافظ يأخذ نصيبه بما يليق بمكانته الرفيعة. كانت فظاظته التي لا تُغتفر تمثل خلفية المحادثة الكبرى الفاتحة للشهية، التي يُسرّي فيها ضمير المستعمرين، المثير جدًّا للغثيان، عن نفسه قبيل وجبة العشاء.

كل السيارات الموجودة في فور ـــــ جونو، كانت عشرًا، كانت في تلك الساعة تغدو وتروح مرارًا أمام رصيف المقهى. لم يبدُ مطلقًا أنها كانت تذهب بعيدًا.. تلك السيارات. كان ميدان فيدرب يحظى بجو مرح قوي، تنميق وزينة مبالغ فيها، فيض زائد عن الحاجة من النباتات والكلام الذي يكون لمقاطعة صغيرة ماجنة رعناء من مقاطعات جنوب فرنسا. لم تكن السيارات العشر تبارح الميدان إلا لكي تعود إليه بعد خمس دقائق، لتقوم بالرحلة نفسها بحمولتها من أمراض الأنيميا الأوروبية الشاحبة الملفوفة بالقماش الرمادي، كائنات هشة مؤقتة وسريعة العطب، كالعصائر الموشكة على التلف.

على هذا النحو ظل المستعمرون طوال أسابيع وسنين يمر بعضهم أمام البعض، حتى جاء الوقت الذي توقفوا فيه حتى عن تبادل النظر، لطول ما أعياهم تبادل العداء. كان بعض الضباط يصطحبون أسرهم للتنزه، حريصين على تبادل التحيات العسكرية والمدنية، الزوجة ملفوفة في فوطها الصحية المخصوصة، أما الأطفال، الذين يشبهون نوعًا مزعجًا من الديدان الأوروبية البدينة، فكانوا من جهتهم، يذوبون بفعل الحرارة، في إسهال لا يتوقف.

لا يكفي المرء أن يضع قبعة عسكرية ليمارس السلطة، ينبغي أيضًا أن يكون له جنوده. في جو فورـــــ جونو كانت القيادات الأوروبية تذوب بأسوأ مما يذوب الزبد. تصبح الكتيبة فيه مثل قطعة من السكر في القهوة. كلما نظرت إليه أكثر، رأيت منه أقل. غالبية المجندين كانت دائمًا في المستشفى، تُخمّر حمى المستنقعات في أجسادها المحشوة بالطفيليات من كل نوع وداخل كل عضو من أعضائها. فصائل بكاملها راحت ترقد مسترخية بين دخان السجائر والذباب، تستمني فوق الملاءات العفنة، تنتحل أعذارًا لا تنتهي، نوبات حمى مصطنعة ومراعاة بكل دقة. كان هؤلاء الأنذال البائسون، تلك الكوكبة المخزية، يعانون في ظل المصاريع الخشبية الخضراء الناعمة، متطوعين مرة أخرى سقطوا مبكرًا في فخ الإعلان، مختلطين -كان المستشفى مختلطًا - بصغار مستخدمي المتاجر، هاربين جميعهم من جحيم الأدغال والسادة، مطاردين.

في ساعات قيلولة حمى المستنقعات، الطويلة المعتادة، يكون الجو شديد الحرارة لدرجة أن الذباب كان يخلد هو الآخر للراحة.

من أطراف الأذرع المُشعرة المصابة بفقر الدم، تتدلى الروايات الخليعة، على جوانب الأسرّة، دائمًا ما تكون تلك الروايات غير مكتملةـ ينقصها نصف صفحاتها بسبب المصابين بالدوسنتاريا، الذين لا يجدون دائمًا ما يكفيهم من الورق، ثم بسبب الراهبات الغاضبات اللواتي كن يفرضن، بطريقتهن الخاصة، الرقابة على المطبوعات التي لا توقر الرب. قمل العانة الذي يصيب الجنود كان ينكد أيضًا عيش الراهبات، مثل الجميع تمامًا. حتى يتمكّن من حك جلودهن بصورة أفضل، كن يرفعن أثوابهن في حماية السواتر التي كان جسد من مات في الصباح خلفها لا يتمكن من الابتراد لشدة ما يقاسي من الحر هو الآخر.

بقدر ما كان المستشفى كئيبًا، فقد كان رغم ذلك المكان الوحيد في المستعمرة الذي يشعر المرء فيه أنه منسي قليلاً، في مأمن من الرجال

خارجه، من الرؤساء. إجازات من العبودية، باختصار، كان هذا هو المهم والسعادة الوحيدة المتاحة.

استفسرت عن شروط الدخول، عن عادات الأطباء وميولهم الغريبة. أما رحيلي إلى الغابة، فلم أعد أفكر فيه إلا يائسًا متمردًا، وعزمت بالفعل على أن ألتقط كل أنواع الحمى التي تمر بمتناول يدي بأسرع ما يمكن، حتى أعود إلى فور ـــ جونو، مريضًا، هزيلاً للغاية، مقززًا للغاية حتى يكون من الواجب عليهم أن يقرروا ليس فقط أن يقبلوني، بل وأن يعيدوني إلى الوطن. كنت أعرف مسبقًا بعض الحيل وخصوصًا الشهيرة منها ليغدو المرء مريضًا، وتعلمت أيضًا حيلاً جديدةً، خاصة، من أجل المستعمرات.

هيأت نفسي للتغلب على كثير جدًّا من المتاعب، لأنه، لا مدير الشركة ولا قادة الكتائب كانوا يملون بسهولة من مطاردة فرائسهم النحيلة التي كانت تلعب الورق مرتجفة خوفًا وحمى بين الأسرة المبتلة بالبول.

قد يرون أني قد عقدت العزم على أن أهلك نفسي واستعنت بكل ما يلزم لتحقيق ذلك. فضلاً عن أننا، بصفة عامة، لا نقيم بالمستشفى إلا وقتًا قصيرًا، إلا إذا أنهى المرء فيه مشوار حياته في المستعمرات بصفة نهائية. أحيانًا قد يتمكن الأذكى، الأخبث والأقوى عزيمةً من بين المرضى بالحمى من التسلل خلسة إلى وسيلة تنقله إلى الوطن الأم.

تلك هي المعجزة الخفية. يقر غالبية المرضى الذين قُبلوا بالمستشفى بأن الحيل قد أعيتهم، انتصرت عليهم اللوائح، فيعودون مرة أخرى إلى الأدغال ليتخففوا من لحوم أجسادهم حتى آخر كيلوجرامات. وإذا أسلمهم الكينيون نهائيًّا إلى الديدان وكانوا لا يزالون بالمستشفى، فإن الراهب يغلق لهم أعينهم بكل بساطة، عند السادسة مساءً تقريبًا، ثم يلف أربعة من السنغاليين المناوبين هذه الأشلاء المفتقرة إلى الدم ويحملونها إلى تلك البقعة المسورة بالطَّفْلة الحمراء، بالقرب من كنيسة فور ـــ جونو، شديدة السخونة، تحت

الصفيح المموج، لدرجة أن أحدًا لم يدخلها قط مرتين متتاليتين، التي كانت أكثر استوائية من البلاد الاستوائية. وقد يكون على المرء أن يلهث متعبًا ككلب حتى يمكنه أن يظل واقفًا بها بعض الوقت.

هكذا يمضي الرجال الذين يشق عليهم حقيقةً أن يقوموا بكل ما يُطلب منهم: دور الفراشة في أثناء فترة الشباب والدودة للتخلص منه.

ما زلت أحاول الحصول على بعض التفاصيل من هنا ومن هناك، بعض المعلومات لأكوِّن فكرة ما. مع ذلك، بدا لي أن وصف المدير لبيكوميمبو كان يفوق التصور. خلاصة ما قيل أن الأمر كان يتعلق بوكالة اختبارية للشركة، محاولة للتوغل بعيدًا في الساحل، على مسيرة عشرة أيام على الأقل، معزولة وسط سكان البلاد، في قلب غابتهم، التي صُورت لي كمحمية تعج بالحيوانات والأمراض.

رحت أتساءل، إذا لم يكن الآخرون يغارون من وضعي فقط ليس أكثر، زملاء العمل في لابوردويير هؤلاء الذين يمرون بنوبات من حالات الإحساس والعدوانية. كانت حماقتهم (لم يكن لهم شيء سواها) رَهْنًا بنوعية الكحول الذي فرغوا لتوهم من ملء بطونهم به، بالخطابات التي تسلموها، بقدر الأمل، الكبير نوعًا ما، الذي فقدوه في نهارهم. وكقاعدة عامة أنهم كلما ضعفوا وأشرفوا على الهلاك زاد تباهيهم وكِبرهم. أشباح (مثل أورتولان) تملؤها الوقاحة جميعًا.

يستغرق منا تناول الأبريتيف ثلاث ساعات. نتحدث في أثنائها دائمًا عن المدير، محور كل الأحاديث، ثم عن الأشياء الممكنة والمستحيلة وأخيرًا عن الجنس: الألوان الثلاثة لعلم المستعمرات. يتهم الموظفون الموجودون العسكريين صراحةً وبلا مواربة بالتمرغ في الفساد وإساءة استخدام السلطة، غير أن العسكريين كانوا يردون لهم الصاع صاعين. من جانبهم، يعد التجار كل أصحاب الدخول الثابتة هؤلاء محض منافقين، محتالين ولصوص.

في ما يخص الحاكم، فإن شائعة استدعائه إلى فرنسا كانت تسري كل صباح منذ أكثر من عشرة أعوام، ومع ذلك فإن البرقية المرتقبة التي تحمل نبأ تلك المصيبة لم تصل قط، وهذا رغم الرسالتين مجهولتَي المصدر، اللتين كانتا تطيران أسبوعيًّا، على الأقل، منذ البداية، إلى عنوان الوزير، تحمل كل منها وابلاً من الفظائع المحددة للغاية التي يرتكبها ذلك الطاغية المحلي.

للزنوج، لحسن حظهم، جلود تشبه قشور البصل، أما الرجل الأبيض، فيتسمم، محصورًا بين عصارة جسده الحامضة وجلده. قميصه الخلوى. لهذا فيا ويل من يقترب منه. كنت قد تدربت على ذلك منذ أيام الأميرال براجيتون.

في ظرف عدة أيام كنت قد عرفت عن مديري أشياء مذهلة! عن ماضيه الطافح بسفالات لا يحتويها سجن من سجون ميناء حربي. يكتشف المرء فيه كل أنواع الرزايا، بل وحتى كما أظن، بعض المخالفات القانونية الجسيمة. صحيح أن سحنته لم تكن في صالحه، بلا جدال، صورة قاتل مثيرة للانقباض، أو بالأحرى، وحتى لا نتهم أحدًا، وجه رجل متهور، يتعجل تحقيق ذاته بكل قوة، ما يعود بنا إلى الشيء نفسه.

بالمرور، في ساعة القيلولة، يمكن للمرء أن يلمح بعض الشقراوات، هنا وهناك مستلقيات بتراخٍ في ظلال مساكنهن في جادة فيدرب، زوجات ضباط، مستعمرين، يحل الطقس الحار أبدانهن بأكثر مما يفعل الرجال كثيرًا، أصوات مترددة وودود، ابتسامات متسامحة جدًّا، وجوه شاحبة تغطيها المساحيق كأنهن محتضرات قانعات بأحوالهن. تبدي هاتيك البرجوازيات، المغروسات في غير أرضهن، قدرًا من الشجاعة والانضباط أقل من صاحبة الباجودا، التي لم يكن أمامها إلا الاعتماد على نفسها فقط.

أما شركة لابوردويير فقد كانت تستهلك من جهتها كثيرًا من صغار الموظفين البيض من أمثالي، كانت تفقد عشرات منهم كل موسم، من هؤلاء الرجال

الثانويين، في وكالاتها المتناثرة في الغابات، بجوار المستنقعات. كانت تعدهم من الرواد.

كل صباح، يأتي رجال الجيش والتجار إلى مكاتب المستشفى ذاتها ليتباكوا على حصصهم من الأفراد. لم يكن يمر يوم دون أن يتوعد نقيب ما مدير المستشفى ويستنزل عليه صواعق الرب، إن لم يرد له على الفور رقباءه الثلاثة، المشغولين بلعب الورق والمصابين بالحمى، وعريفيه الاثنين المصابين بالزهري، ضباط صف كان يحتاج إليهم تحديدًا لينتظم تشكيل سريته. لو أجيب النقيب بأن هؤلاء "الهاربين" قد ماتوا، حينذاك، كان يدع الإداريين وشأنهم، يعود أدراجه، ليحتسي مزيدًا من الشراب في الباجودا.

كان لدينا الوقت بالكاد لنراها تختفي وسط هذه الخضرة، الرجال، الأيام وجرعات الكينين، وسط هذا الجو، القيظ والبعوض. كل شيء يذوب فيه، وكان هذا هو ما يبعث على التقزز، جزء بجزء، عضو بعضو، العبارات، مشاعر الأسف، كرات الدم الحمراء، كلها تتلاشى تحت الشمس، تذوب في فيض النور والألوان، والوقت والمذاق معها، الكل يذوي. لم يكن هناك سوى الضجر المتوقد في الهواء.

أخيرًا، رسا مركب الشحن الصغير بالقرب من فور - جونو، المركب الذي كان عليَّ أن أبحر فوقه بمحاذاة الساحل لأصل إلى نقطة قريبة من موقع عملي، "البابواوتا"، كان اسمه. مركب صغير الهيكل، مسطح تمامًا، صُمم بناؤه لعبور مصبات الأنهار. كانت ماكيناته تعمل بالحطب. كنت الرجل الأبيض الوحيد على ظهره، مُنحت ركنًا بين المطبخ ودورة المياة. كنا نمضي فوق الأمواج ببطء شديد، حتى إنني ظننت في البداية أن ذلك من قبيل الاحتياط حتى نخرج من منطقة المرسى. غير أننا لم نسر قط بأسرع من ذلك. كان "البابواوتا" يفتقر إلى القوة بصور لا تصدق.

هكذا شققنا طريقنا صوب الساحل، شريط رمادي لا نهاية له وكثيف الأشجار القصيرة غارق في قيظ الأبخرة المتراقصة. يا لها من نزهة! "البباوتا" يشق الماء متألمًا كأنه هو الذي نضح به بنفسه. راح يشق مويجة بعد أخرى بحذر من ينتزع ضمادة عن جرح. من بعيد بدا لي أن الربان لا بد أن يكون خلاسيًّا.. أقول "بدا" لأني لم أجد مطلقًا الحماس اللازم كي أصعد إلى جسر الملاحة هناك لأتحقق بنفسي. كنت أظل قابعًا مع الزنوج، الركاب الوحيدين، في ظل الممشى الجانبي، ما دامت الشمس تغمر السطح، حتى الخامسة بعد الظهر. حتى لا تحرق الشمس رأسك من خلال عينيك يجب أن تطرف عينيك كفأر. بعد الخامسة، يمكنك أن تمنح نفسك في جولة في الأفق، الحياة الطيبة. ذلك البلد الغامض المحاذي لسطح المياه، الحر الرمادي غير الواضح، الذي يشبه رقعة قماش ممزقة، لم يكن يعني لي شيئًا ذا قيمة. كان تنفس هذا الهواء يثير الاشمئزاز، حتى في الليل، من فرط ما يظل فاترًا، بحر عفن. كل هذه الأشياء الباهتة كانت تثقل القلب مع رائحة ماكينة المركب فوقها ورائحة النهار والمياه الحمراء الموحلة من هنا وشديدة الزرقة من الجهة الأخرى. كنا في حال أسوأ مما كنا عليها على ظهر الأميرال براجيتون دون العسكريين القتلة، بالطبع.

أخبرنا، اقتربنا من المرفأ المقصود. ذكرّوني باسمه: "توبو"، ولكثرة ما سعل "البباوتا" وبصق وارتجف، خلال ثلاثة أمثال الوقت الذي استغرقته أربع وجبات من علب الطعام المحفوظ، انتهت به الحال إلى الاستعداد للرسو فوق مياه غسيل الأواني الدهنية هذه.

فوق الضفة المعشبة تبرز ثلاثة أكواخ كبيرة مسقوفة بالقش. من بعيد، وللوهلة الأولى يباغتك هذا، مظهر لطيف جذاب إلى حد كبير. مصب نهر كبير غزير الرمال، نهري، كما شرحوا لي، الذي كان عليَّ أن أبحر فيه صاعدًا، على ظهر قارب، حتى أصل إلى قلب الغابة تمامًا. في "توبو"، تلك المحطة

الموجودة على شاطئ البحر، لم يكن من الواجب أن أبقى إلا بضعة أيام، كما كان مقررًا، الوقت اللازم لاتخاذ قراراتي الاستعمارية الأخيرة.

رسونا على رصيف سطحي بسيط، كان البابوتا قد أزاح، ببطنه الكبير، جرفه الرملي قبل أن يصل إليه. كان ذلك الرصيف، كما أتذكر جيدًا، مبنيًّا من أعواد البامبو. كانت له حكايته، فبناؤه يعاد كل شهر، كما عرفت، بسبب تلك الرخويات الماهرة السريعة التي كانت تأتي بالآلاف لتلتهمه شيئًا فشيئًا. حتى إن عملية البناء هذه، التي لا تنتهي مطلقًا، كانت واحدة من الواجبات المحبطة التي يعاني منها الملازم "جرابا Grappa"، قائد مخفر "توبو" والنواحي المجاورة. لم يكن البابوتا يقوم برحلته التجارية هذه سوى مرة واحدة في الشهر، غير أن تلك الرخويات لم يكن يستغرقها التهام رصيفه أكثر من شهر.

عند الوصول، استولى "جرابا" على أوراقي، تحقق من صحتها، ثم نسخها في دفتر جديد، بعدها قدم إليَّ الشراب. أخبرني أنني كنت أول مسافر يصل إلى توبو منذ أكثر من عامين. لم يكن أحد يأتي إلى توبو. ليس هناك أي مبرر للقدوم إلى توبو. تحت إمرة الملازم جرابا يخدم الرقيب "آلسيد Alcide"، وفي عزلتهما هذه لم يكن أحدهما يحب الآخر. "لا بد أن أحترس دومًا من معاوني هذا".. أفضى إليَّ الملازم جرابا منذ لقائنا الأول. كان يميل قليلاً إلى رفع الكلفة.

عندما يكون من الضروري أن يبتكر المرء أحداثًا تجري في هذه الأرض الخراب، فلا بد من أن تكون شديدة الغرابة، البيئة لا تسمح بذلك، يُعِد الرقيب آلسيد مُقدَّمًا كثيرًا من التقارير التي تشبه "العدم"، ويوقعها الملازم جرابا بلا إبطاء ويحملها البابوتا بانتظام إلى الحاكم العام.

بين الأهوار المحيطة بالمكان وفي الغابات الخفية تعيش خامدة بعض القبائل البائسة، التي هلك معظم أفرادها، وأنهكتها، إلى حد الجنون، الطفيليات

الثاقبة والفقر المزمن، مع كل هذا، كانت تلك القبائل تدفع ضريبة ضئيلة، باستخدام الهراوات، بطبيعة الحال. من بين شبانهم، يجري تجنيد البعض في الحرس الوطني، الميليشيا، ليستخدموا هذه الهراوات نفسها. كان عدد رجال هذه الميليشيا يصل إلى اثني عشر نفرًا.

بوسعي أن أتحدث عنهم، فقد عرفتهم جيدًا. كان الملازم جرابا يُسلح هؤلاء المحظوظين على طريقته ويطعمهم الأرز بانتظام. بندقية واحدة لاثني عشر رجلاً، هذا هو المُعدل! وعَلَمٌ واحد للجميع. ما من أحذية. لكن بما أن كل شيء في هذا العالم نسبي وقابل للمقارنة، فإن المجندين من سكان البلاد الأصليين كانوا يرون أن جرابا يحسن تسيير الأمور. بل إنه كان يرفض يوميًّا بعض المتطوعين، المتحمسين أيضًا، أبناء الأدغال المتعبين.

لم يكن الصيد في محيط القرية يأتي بالكثير، لذا كان أهلها يلتهمون أحد العجائز على الأقل كل أسبوع، لنقص الغزلان. منذ السابعة صباحًا، كل صباح، يذهب رجال حرس ميليشيا آلسيد إلى التدريب، وبما أني كنت أقيم في أحد أركان كوخه، تنازل لي عنه، فقد كنت في مُقدمة مشاهدي ألعاب الفروسية هذه. لا يوجد في أي جيش من جيوش العالم جنود أقوى منهم عزيمة. عند نداء آلسيد، يروح هؤلاء البدائيون يندفعون للركض، بمنتهى الجدية، بخطوات واسعة فوق الرمل، أربعة رجال، ثمانية، ثم اثنا عشر رجلاً، متخيلين حقائب ظهر، أردية، أحذية، بل وحرابًا، والأدهى أنهم كانوا يتظاهرون باستخدامها. خارجين لتوهم من الطبيعة القوية الغنية والقريبة جدًّا، لم يكونوا يرتدون سوى شبه سراويل قصير كاكي اللون. ما عدا ذلك، كان عليهم أن يتخيلوه.. وقد كان. بأمر حاسم من آلسيد، كان هؤلاء المقاتلون العباقرة يضعون حقائبهم الوهمية على الأرض، ينطلقون في الفراغ ليطعنوا ويصرعوا أعداءً وهميين، بسيوف وهمية. يشكلون، بعد أن يتظاهروا بفك أزرار ستراتهم، صفوفًا خفية للرماية وبإشارة أخرى يبدؤون بكل حماس في الرشق بالبنادق الخفية. ثم يختفون في دانتيلا الحركات المتقطعة واللا مجدية إلى حد الجنون،

يظل المرء محبطًا بسببها حتى الانهيار. في توبو، على وجه الخصوص، حيث يركز الرمل القيظ الخام القاسي والاختناق إلى أقصى حد بين مرايا البحر والنهر، المصقولة والمترافقة، تدفعكم إلى القسم بمؤخراتكم أنكم قد أُجلستم عنوة فوق قطعة من الشمس سقطت حديثًا على الأرض.

غير أن هذه الظروف التي لا ترحم لم تكن لتمنع آلسيد من الصراخ، بل على العكس. كان زعيقه يتدفق متلاطمًا فوق مكان تدريبه الخيالي ويصل بعيدًا بعيدًا حتى قمم أشجار الأرز السامقة المهيبة عند خط الاستواء. بل وإلى أبعد من ذلك أيضًا، كان صدى صيحاته: "انتباه"، يظل يتردد داويًا.

في أثناء ذلك الوقت، كان الملازم جرابا يرتب لمحكمته الخاصة. سنعود إلى ذلك لاحقًا. كان يراقب أيضًا وعن بُعد دائمًا، من ظل كوخه، بناء رصيف مرساه اللعين الذي لا ينتهي. في كل مرة يصل فيها الباباوتا، كان يذهب لملاقاته، متفائلاً ومرتابًا، متوقعًا عتادًا كاملاً لجنوده. عتاده الكامل الذي يطالب به دون جدوى منذ عامين. ولأنه كورسيكي(27)، كان جرابا يشعر ربما بمهانة أكثر، من غيره، لرؤية رجال جيشه عراة تمامًا.

(27) من أبناء جزيرة كورسيكا، جنوب فرنسا. (المترجم)

في كوخنا، كوخ آلسيد، مُورست، على نحو بالكاد سري، تجارة بسيطة لأشياء بلا قيمة ونفايات عديدة. من جهة أخرى كانت كل صور التجارة تمر من خلال آلسيد لأنه كان يمتلك مخزونًا صغيرًا، وحيدًا، من التبغ الخام أو المُعلب، عدة لترات من الكحول وبضعة أمتار من الأقمشة القطنية. كان رجال جيش "توبو" الشعبي يشعرون تجاه "جرابا"، كان ذلك واضحًا، بعاطفة حقيقية، وذلك رغم أنه كان ينهرهم بلا حدود ويركل مؤخراتهم ظلمًا بلا داعٍ. غير أنهم قد رأوا لديه، هؤلاء الجنود العراة، دلائل لا يمكن إنكارها عن قرابة كبرى تجمعهم، أبوة الفقر المُدقع العُضال، والفطري. كان التبغ يقرّب بينهم، مع كل السواد الذي كانوا عليه، بحكم الواقع. كنت قد أحضرت معي من أوروبا بعض

الصحف. طالعها "جرابا" بشوق من يهتم بالأخبار، لكن رغم أنه قد حاول في ثلاث مرات أن يركز انتباهه على هذه الأعمدة المتباينة، فإنه لم يتمكن من إكمال قراءتها. بعد هذه المحاولة الخائبة أسر لي قائلاً: "إنني الآن، في الواقع، لا أبالي بالأنباء! إنني هنا منذ ثلاث سنوات!" لم يكن ذلك يعني مطلقًا أن آلسيد حاول أن يدهشني بلعب دور الناسك الحبيس، لا، لكن القسوة واللامبالاة اللتين أظهرهما تجاهه العالم بأسره دفعاه هو الآخر وبوصفه رقيبًا متطوعًا ثانيةً إلى أن يعد العالم بأسره، ما عدا توبو، شيئًا يشبه القمر.

عدا ذلك، كان آلسيد طيب الطبع، خدومًا وسخيًّا وكل هذا. فهمت ذلك فيما بعد، متأخرًا جدًّا بعض الشيء. كان خضوعه المذهل يضنيه، تلك الصفة الأساسية التي تجعل قتل الفقراء من رجال الجيش أو غيرهم بسهولة تركهم يعيشون نفسها. إنهم لا يسألون مطلقًا أو تقريبًا كذلك، هؤلاء البسطاء، عن السبب، في كل ما يعانون. إنهم يتبادلون الكراهية، وهذا يكفي.

حول كوخنا، تنمو متناثرة، وسط بحيرة الرمل الساخن، عديم الرحمة، تلك الزهور الغريبة الصغيرة، طازجة ومختصرة، خضراء، وردية أو أرجوانية، كما لا نراها في أوروبا! لا مرسومة في اللوحات أو على بعض أواني الخزف، مجرد نباتات معترشة بدائية، بلا خزعبلات. كانت تكابد النهار الطويل البشع، مغلقة فوق سوقها، ثم تتفتح بحلول الليل، متأرجحة بلطف تحت أولى النسمات الدافئة.

ذات يوم رآني آلسيد أقطف باقة صغيرة منها. حذّرني قائلاً: "اقطفها لو أردت، لكن لا تروِها، هذه الزهور الصغيرة اللعينة، يهلكها الماء.. إنها شديدة الرهافة، إنها ليست مثل زهور الشمس، التي كنا نحث أطفال الجنود على تربيتها في لارمبوربيه! كان من الممكن أن تبول عليها، تلك الشموس! كانت ترتوي بكل شيء! عدا ذلك، فإن الزهور مثل الرجال، كلما زاد الواحد بدانةً، ازداد غباءً!"

كان المقصود بهذا هو الملازم جرابا بكل تأكيد، الذي كان جسده متراميًا طافحًا بالبلايا، بيديه القصيرتين، الأرجوانيتين، المربعتين. يدان لم يُقَدر لهما أن يستوعبا شيئًا إطلاقًا. فضلاً عن أن جرابا لم يكن يحاول أن يستوعب.

أمضيت في توبو أسبوعين لم أشارك خلالهما آلسيد معيشته ومطبخه فقط، وبراغيث الفراش والرمل (نوعان مختلفان)، لكن أيضًا شراب الكينين الخاص به وماء البئر القريبة، الفاتر بقسوة والمسبب للإسهال.

ذات يوم كان فيه الملازم جرابا ميالاً إلى اللطف، دعاني، استثناءً، إلى تناول القهوة في منزله. كان جرابا غيورًا ولم يكن يُظهر رفيقته الزنجية أمام أحد. لهذا، اختار يومًا لدعوتي تكون فيه محظيته السوداء قد مضت لزيارة أبويها في القرية. كان ذلك اليوم أيضًا هو اليوم الذي يقيم فيه جلسة محكمته، كان يريد أن يدهشني.

حول كوخه، يتدافع أصحاب الشكاوى، الوافدون منذ الصباح، كتله متباينة، ملونة المآزر، يختلط فيها الشهود الزاعقون المتناقضون والجمهور العادي وقوفًا، مختلطين في الدائرة نفسها، تفوح من الجميع، بقوة، رائحة الثوم، الصندل، الزبد الحامض، وعرق الزعفران. مثل أفراد ميليشيا آلسيد، كانت كل تلك المخلوقات تصر قبل كل شيء على أن تثور وتهتز بجنون في الخيال، ينشرون من حولهم ضجيج لغة تشبه دقات الصنوج مُلَوحين فوق رؤوسهم بأيد متشنجة في عاصفة من الحجج والأدلة.

مبتسمًا أمام كل هذه الحشود المتجمعة المتنافرة، كان الملازم جرابا يغوص في مقعده الخيزراني، الذي يصُر وينوح تحته، لإدارة جلسته، كان جرابا يعتمد على مترجم المخفر الذي كان يفسر له في المقابل، متلعثمًا، على طريقته وبملء صوته، طلبات غير معقولة.

ربما تعلق الأمر بخروف أعور كان والدا إحدى العرائس قد رفضوا أن يعيدوه في حين أن ابنتهما، التي بيعت على نحو صحيح، لم تُسلَّم قط إلى الزوج، بسبب جريمة قتل تمكن شقيق العروس من اقترافها، في أثناء ذلك، بحق شخص أخت من كان يحتفظ بالخروف، وكثير من الدعاوى الأخرى والأعقد من ذلك.

في مواجهتنا، مئات الوجوه المتحمسة بشدة، المنفعلة بهذه المشكلات التي تمس مصالحها وأعرافها، تكشف على أسنانها في نوبات قصيرة خاطفة أو في قرقرات طويلة خشنة، عبارات زنجية.

يصل القيظ إلى منتهاه. رحنا نفتش في السماء بأعيننا من خلال زاوية السقف لنتساءل إن لم تكن كارثة تلك التي تجري. لا يحدث شيء.. ولا حتى زوبعة.

"سوف أُوَفّقُ بينهم جميعًا على الفور. قرر جرابا أخيرًا، الذي حملته الحرارة والثرثرات المملة على الحسم. أين هو والد الزوجة؟ لتأتوني به!"

"ها هو". أجاب عشرون متواطئًا، يدفعون أمامهم عجوزًا زنجيًّا مترهلاً إلى حد كبير ملفوفًا في مئزر أصفر كان يسدله فوق كتفه مرسلاً، على الطريقة الرومانية. شدد العجوز على كل ما قيل حوله، بقبضة يده المطبقة. لم يكن يبدو عليه مطلقًا أنه قد جاء إلى هنا ليشكو، لكن حتى يتسلى بالأحرى قليلاً بمناسبة دعوى لم يعد يتوقع منها منذ وقت طويل مضى نتيجة إيجابية بالفعل.

"هيا!" صاح جرابا آمرًا "عشرون ضربة! لننتهِ من هذا الأمر! عشرون ضربة عصا لهذا القواد العجوز. سيعلمه ذلك المجيء إلى هنا ليزعجني كل خميس منذ شهرين بحكايته التافهة عن الخراف!"

رأى العجوز أربعة من رجال الميليشيا مفتولي العضلات يتوجهون نحوه. لم يفهم أولاً ماذا يريدون منه، ثم أخذ يدير عينيه المحتقنتين بالدم كعينَي حيوان

عجوز مرتعب لم يكن قد تعرض للضرب من قبل قط. لم يحاول الرجل المقاومة حقيقةً، لكنه لم يكن يعرف كذلك كيف يجلس أو يقف ليتلقى بأقل قدر ممكن من الألم ضربات العدالة المتتالية هذه.

جرّه الشرطيون من قماش مئزره. أراد اثنان منهم أن يركع الرجل حتمًا، أما الآخران فقد طالباه على العكس بأن ينبطح على بطنه. أخيرًا اتُّفِقَ على طرحه ببساطة، كما هو، على الأرض، مطوي المئزر، ثم تلقى على الفور على ظهره وإليتيه المترهلتين دفعة من ضربات العصي اللدنة، تلك التي تجعل بغلاً قويًّا يزعق لمدة ثمانية أيام. متلويًّا، كان الرمل الناعم ينضح بالدم، حول بطنه بالكامل، كان يبصق رملاً وهو يعوي من جرائها، كأنه كلبة حامل من نوع "الباسيه"، ضخمة، يجري تعذيبها بلا سبب.

صمتَ الحضور فيما استمر ذلك. لم يعد يُسمع سوى أصوات تنفيذ العقوبة. بعد تنفيذ الأمر، حاول العجوز المترنح الذي أُبرِحَ ضربًا أن ينهض وأن يلملم حوله رداءه الرومانى. كان ينزف بغزارة من فمه، من أنفه، وخصوصًا بطول ظهره. ابتعد الحشد حاملاً إياه ومدمدمًا، بنبرة حزينة، بسيل من التعليقات والانتقادات والسباب.

أعاد الملازم جرابا إشعال سيجاره. أمامي، حرص على أن يبقى بعيدًا عن هذه الأشياء. ليس لأني أعتقد أنه كان نيرونيًّا أكثر من غيره، بل لأنه لم يكن يحب أيضًا أن نضطره إلى التفكير. كان ذلك يزعجه. كانت الأسئلة التي تُطرح عليه هي ما تجعله حاد الطباع في أثناء تنفيذ مهامه القضائية.

شهدنا في ذلك اليوم نفسه أيضًا جلستَي تأديب تاريخيتين، مترتبتين على حكايات مربكة أخرى، عن مهور مرتجعة، محاولات تسميم، وعود مريبة، أطفال مشكوك في نسبهم.

قال جرابا معلقًا: "آه. لو كانوا يعرفون كم كانت خلافاتهم لا تعنيني ما كانوا ليغادروها، غابتهم هذه، ليأتوا كي يقصوا عليَّ حماقاتهم ويزعجوني هنا! هل أخبرهم أنا بمشكلاتي الصغيرة؟ غير أنه استطرد، قد تنتهي بي الحال إلى الاعتقاد بأن هؤلاء الأوغاد يستطيبون أحكامي. إنني أحاول منذ عامين أن أنفرهم منها ومع ذلك فإنهم يعودون كل خميس. صدقني إن أردت، أيها الشاب، إنهم تقريبًا الأشخاص أنفسهم الذين يحضرون دائمًا. أراذل فاسدون، وإلا ماذا!"

ثم انتقل الحديث إلى "تولوز" حيث اعتاد جرابا أن يقضي عطلاته بانتظام وحيث كان ينوي أن يعود، بعد ست سنوات، عندما يتقاعد. كان أمرًا مفروغًا منه إذًا! كنا نتناول كؤوس "الكلفادوس" بهدوء عندما أزعجنا من جديد زنجي محكوم عليه لست أدري بأية عقوبة، وتأخر عن قضائها. جاء من تلقاء نفسه بعد ساعتين من انصراف الآخرين مقدمًا نفسه لتلقي العصا. ولأنه كان قد قطع تلك المسيرة طوال يومين وليلتين انطلاقًا من قريته عبر الأدغال من أجل هذا الغرض فلم يكن يتوقع أن يعود منها مخفقًا.

غير أنه كان متأخرًا وكان جرابا لا يتساهل في مسألة الدقة في مواعيد تنفيذ العقوبات. "ويل له! كان عليه ألا ينصرف في المرة السابقة. لقد كان خميس الأسبوع الماضي هو الذي حكمت فيه بخمسين ضربة عصا على هذا القذر!"

احتج الزبون رغم ذلك لأن لديه عذرًا وجيهًا: كان لا بد له من العودة إلى القرية بسرعة ليواري أمه التراب.كان يحظى وحده بثلاث أو أربع أمهات. يا لها من منازعات.. "سيكون هذا في المرة المقبلة".

لكن الزبون كان لديه من الوقت ما يكاد يسمح له بالذهاب إلى قريته والعودة إلى هنا في الخميس المقبل. اعترض. أصر ملحًّا في طلبه. كان لا بد من إلقائه خارج المعسكر، ذلك المازوكي، دفعًا بركلات قوية في إليتيه. أرضاه ذلك على أي حال لكن ليس بما يكفي. أخيرًا، انتهت به الحال إلى كوخ آلسيد

الذي انتهز ذلك ليبيع المازوكي تشكيلة من أنواع التبغ، أوراقًا، أكياسًا وسعوطًا.

بعد أن روّحت عني تلك الأحداث العديدة جيدًا، استأذنت من جرابا الذي انسحب من أجل قيلولته تحديدًا، إلى جوف كوخه، حيث كانت ترتاح من قبل خادمته الزنجية العائدة من قريتها. لها زوج من النهود الرائعة هذه الزنجية، التي أحسنت راهبات الجابون تربيتها. لم تكن هذه الشابة النضرة تتحدث الفرنسية بلثغة فقط، لكنها كانت تعرف أيضًا تقديم الكينين في المربى وكيف تطرد عنك البراغيث "الخاشفة" من أعماق باطن القدم. كانت تعرف مئة طريقة لإرضاء العقيد، دون أن ترهقه، أو بإرهاقه، حسبما يريد.

كان آلسيد ينتظرني. ممتعضًا بعض الشيء. كانت هذه الدعوى التي شرّفني لتوه بها الملازم جرابا هي ما حملته على البوح بهذه الأسرار الكبرى، وقد كانت مثيرة تلك الأسرار. رسم لي، دون أن أطلب منه ذلك، صورة سريعة لجرابا مرسومة بغائط يتصاعد منه الدخان. أجبته بأن ذلك بحذافيره كان رأيي فيه.كانت نقطة ضعف آلسيد، أنه كان يتاجر خلافًا للقوانين العسكرية، المعارضة تمامًا، مع زنوج الأدغال المجاورة وكذلك مع رماة ميليشياه الاثني عشر. كان يمد هذا العالم الصغير بالتبغ على الحساب، بلا رحمة. عندما يتلقى رجال الميليشيا حصتهم من التبغ لا يتبقى لهم شيء من المال بعدها، يكونون قد دخنوا كل شيء. بل إنهم كانوا يدخنون مقدمًا. ونظرًا إلى ندرة العملة النقدية في هذه المنطقة، فإن تلك المعاملات الهزيلة كانت تضر بعائد الضريبة، كما يزعم جرابا.

لم يرغب الملازم جرابا، الحذر، في أن يثير فضيحة في "توبو" في فترة حكمه، ومع ذلك وربما بدافع الغيرة، كانت تصرفات آلسيد تزعجه. ربما كان يرغب في أن تظل الأموال السائلة الضئيلة الخاصة بالأهالي خاضعة للضرائب.. هذا أمر يمكن فهمه. لكلٍّ طريقته وطموحاته الصغيرة.

في البداية بدا أسلوب البيع بالآجل بضمان المرتب عجيبًا بعض الشيء في أعين قناصة آلسيد، بل وصعب التصديق، هؤلاء القناصة الذين كانوا يعملون من أجل تدخين تبغ آلسيد فقط لا غير، غير أنهم قد اعتادوا في ذلك ركلاته في مؤخراتهم. الآن، لم يعودوا يحاولون حتى الذهاب لتسلم رواتبهم، لقد دخنوها مقدمًا، بطمأنينة، بجوار كوخ آلسيد، وسط الزهور الصغيرة الزاهية، بين فترتَي تدريب وهمي.

خالص القول أنه في "توبو"، ومع كل صغر تلك الناحية، كان هناك مع ذلك مكان لقيام نظامين من نظم الحضارة، نظام الملازم جرابا، الأقرب بالأحرى إلى النظام الروماني، الذي كان يجلد الخاضع للضريبة ببساطة ليستخلصها منه، الضريبة، التي كان جرابا يحتجز منها، وفقًا لتأكيد آلسيد، نصيبًا مُخزيًا وشخصيًّا، من جهة أخرى كان هناك نظام آلسيد بكل ما في الكلمة من معنى، الأكثر تعقيدًا، الذي تكشفت فيه بالفعل سمات المرحلة الثانية المُنشِئة للمدينة، ميلاد زبون من كل مقاتل، باختصار.. تركيبة تجارية عسكرية، أكثر عنصرية، أكثر نفاقًا، تركيبتنا.

في ما يتعلق بجغرافيا المكان لم يكن الملازم جرابا قد عاين الأراضي الشاسعة الموكَلة إليه حراستها، إلا بواسطة بعض الخرائط التقريبية جدًّا التي كان يحتفظ بها في المخفر. كما لم يكن أيضًا شديد الرغبة في معرفة المزيد بشأن هذه الأراضي. على أي حال، نحن نعرف كيف تكون، الأشجار، الغابات، إننا نراها جيدًا من بعيد.

مختبئة في ثنايا تلك الخضرة الشاسعة المنقوعة في الماء المغلي وبين أوراقها، مبعثرة تمامًا، كانت بعض القبائل تعيش راكدة هنا وهناك بين براغيثها وذبابها، مخبولة بطواطمها، مكتظة دومًا بجذور "المانيهوت" العفنة. أقوام ساذجون تمامًا ومتوحشون بكل براءة، أذهلهم البؤس، وفتك بهم ألف طاعون وطاعون. لا شيء فيهم يستحق عناء الاقتراب منهم. لا شيء يبرر القيام بحملة إدارية متعبة وبلا جدوى. عندما كان ينتهي من إقامة عدالته، كان

بالأحرى يلتفت نحو البحر ويتأمل هذا الأفق الذي ظهر منه ذات يوم وذات يوم سوف يمضي عبره، إن سار كل شيء على ما يرام.

بقدر ما صارت هذه الأماكن أليفة ومؤخرًا محببة إليَّ، كان عليَّ رغم ذلك أن أفكر في مغادرة "توبو" على أي حال إلى متجري الموعود بعد عدة أيام من الملاحة النهرية والتنقل وسط الأدغال.

توصلنا، آلسيد وأنا، إلى تفاهم تام. حاولنا معًا صيد أسماك المنشار، ذلك النوع من أسماك القرش التي كانت تنتشر بكثرة قبالة الكوخ. كان أخرق بقدر ما كنت أنا في هذه اللعبة. لم نكن نلتقط شيئًا.

لم يكن كوخه مؤثثًا إلا بسريره القابل للفك، سريري أنا الآخر وبعض الصناديق الفارغة أو الملآنة. بدا لي أنه لا بد قد ادخر قدرًا لابأس به من النقود بفضل تجارته الصغيرة.

"أين تضعه؟" سألته عدة مرات "أين تخبئ مالك القذر؟" كان سؤالي من أجل استفزازه. "هل ستستخدمه لتلهو على هواك عندما تعود؟" كنت أسأله لأثير غيظه. وعشرين مرة خلال ما كنا نلتَهم علب الطماطم المحفوظة المحتومة كنت أتخيل من أجل إسعاده وقائع النزهة المذهلة التي سيقوم بها عند عودته إلى بوردو، من مقهى مشبوه إلى ماخور. لم يكن يجيبني بشيء. كان يضحك فقط، كما لو كان يسعده أن أروي له أشياء كهذه.

بخلاف التدريب وجلسات القضاء، لم يكن شيء يجري في توبو، وعليه فقد كنت مضطرًا إلى ترديد مزاحي نفسه أكثر ما يمكن من المرات، لقلة الموضوعات الأخرى.

في الأوقات الأخيرة، راودتني مرة الرغبة في الكتابة إلى آلسيد "بوتا"، لأبتزه. تعهد آلسيد بإرسال خطابي في بريد "البباباوتا" المقبل. كان آلسيد يحتفظ بأدوات الكتابة في علبة بسكويت صغيرة مثل التي شاهدتها عند "برانليدور"

تمامًا، العلبة نفسها بالضبط. كانت لكل الرقباء المعاد تجنيدهم إذًا العادة نفسها. لكن عندما رآني آلسيد أفتح علبته باغتني بحركة ليمنعني من ذلك. شعرت بالحرج. لم أعرف لماذا منعني من فتح العلبة، ولذلك وضعتها فوق المنضدة من جديد. "آه! افتحها. هيا! هيا لا بأس" قال آلسيد بعدها. فتحتها، على الفور رأيت صورة فتاة صغيرة ملصقة على ظهر غطائها. الرأس فقط، وجه جميل بالغ الوداعة تحيط به فوق ذلك خصلات شعر طويلة معقوصة مثل التي كانت الفتيات يسدلنها في ذلك الوقت. أخذت الورق وقلم الحبر وأغلقت العلبة بسرعة. شعرت بحرج شديد من جراء تطفلي هذا، لكني تساءلت أيضًا لماذا كدّره ذلك إلى هذا الحد.

تصورت على الفور أن الأمر يتعلق بطفلة، طفلة له، كان يتفادى أن يحدثني عنها حتى الآن. لم أستفسر عنها أكثر من ذلك، غير أني سمعته خلف ظهري يحاول أن يحكي لي شيئًا ما بشأن هذه الصورة، بصوت غريب لم أعرفه عنه قبلاً. كان يغمغم متلعثمًا. أما أنا، فقد شعرت بمزيد من الحيرة. كان لا بد أن أساعده على أن يبوح لي بسره. لم أعد أعرف كيف أتصرف كي تمر هذه اللحظة. سيكون سرًّا محزنًا سماعه تمامًا، كنت متأكدًا من ذلك. لم أكن أرغب في ذلك حقًّا.

"لابأس!" سمعته أخيرًا "إنها ابنة أخي.. لقد ماتا.. كلاهما".

"أبواها؟"

"نعم، أبواها".

"من يعتني بها الآن إذًا؟ أمك؟"

سألته، هكذا، لإظهار الاهتمام.

"أمي، لم تعد هناك هي الأخرى".

"من إذًا؟"

"حسنًا، أنا!"

ضحك آلسيد استهزاءً واحمر وجهه، كما لو كان قد جاء لتوه بفعل غير لائق إطلاقًا. ثم أردف متعجلاً:

"أقصد.. سوف أشرح لك. أردتُ أن تنشأ في بوردو لدى الراهبات، لكن ليس عند راهبات الفقراء، أنت تفهمني بالطبع! عند راهبات راقيات. وبما أني أنا الذي يهتم بذلك، يمكنك إذًا أن تطمئن. أريد ألا ينقصها شيء! جانيت.. إنها تسمى جانيت.. إنها فتاة صغيرة لطيفة، مثل أمها أيضًا. إنها تكتب إليَّ، إنها تحرز تقدمًا في دراستها، لكن، المدارس الداخلية، من هذا المستوى، كما تعلم، باهظة التكاليف، خصوصًا أنها الآن في العاشرة. إنني أود أن تتعلم البيانو في الوقت نفسه. ما رأيك أنت في البيانو؟ البيانو مفيد للبنات، أليس كذلك؟ ألا ترى ذلك؟ والإنجليزية؟ تعلُّم الإنجليزية مفيد أيضًا؟ هل تعرف أنت الإنجليزية؟"

رحت أنظر إليه عن قرب أكثر بكثير، آلسيد، بينما كان يعترف بذنب أنه لم يكن سخيًّا بما يكفي، آلسيد، بشاربه الصغير المضمخ، حاجبيه اللذين يليقان برجل غريب الأطوار، بشرته المحترقة. آلسيد الطاهر العفيف! كم كان مضطرًا إلى أن يدخر من راتبه المحدود.. من علاوته التي لا تغني من جوع ومن تجارته السرية الهزيلة، طوال شهور، سنوات، في توبو الجهنمية هذه! لم أكن أدري ماذا أقول له، لم أكن مؤهلاً لذلك، غير أنه تجاوزني تمامًا بقلبه الكبير حتى إنني احمررت خجلاً. مقارنةً بآلسيد لم أكن سوى شخص فظ عاجز غليظ وبلا جدوى. لم يكن هناك ما يقال. كان الفرق واضحًا.

لم أعد أجرؤ على الحديث إليه، شعرت فجأة بأني لست جديرًا مطلقًا بالحديث إليه. أنا الذي كنت لا أزال أتجاهله بالأمس بل وأحتقره قليلاً أيضًا،

آلسيد.

ثم تابع دون أن يدرك أنه كان يربكني باعترافاته: "لم أكن محظوظًا، تصور أنها قد أصيبت بشلل الأطفال، منذ عامين.. تصور.. أتعرف أنت ما هو شلل الأطفال؟"

أخبرني ساعتها أن ساق الطفلة اليسرى ظلت ضامرة وأنها كانت تتابع علاجًا كهربائيًّا في بوردو، عند طبيب اختصاصي.

"هل يشفى هذا؟ هل تعتقد؟" سألني قلقًا.

أكدت له أنه يشفى جيدًا، تمام الشفاء مع الوقت والكهرباء. تكَلم عن أمه المتوفاة وعن عجز الصغيرة بكثير من الحرص. كان يخشى أن يصيبها بأذى، حتى عن بُعد.

"هل ذهبت لرؤيتها بعد أن أصابها المرض؟"

"لا.. لقد كنت هنا".

"هل ستذهب قريبًا؟"

"لا أظن أنني سوف أستطيع ذلك قبل ثلاثة أعوام.. أنت تعرف، أنا أقوم هنا ببعض أعمال التجارة.. هذا يفيدها كثيرًا. لو ذهبت الآن في إجازة، ستكون وظيفتي قد شُغلت عند عودتي.. خصوصًا مع هذا الجلف الآخر".

لهذا، كان آلسيد قد التمس أن تُضاعف فترة إقامته، أن يقضي ستة أعوام متتالية في توبو، بدلاً من ثلاثة، من أجل ابنة أخيه الصغيرة التي لم يكن لديه منها سوى بضع خطابات وتلك الصورة الصغيرة. استأنف آلسيد عندما رقدنا للنوم: "المسألة أنها لا تعرف أحدًا هناك لتبقى معه في الإجازة.. هذا أمر مؤلم بالنسبة إلى طفلة صغيرة".

على نحو واضح كان آلسيد يرتقي في السمو والعظمة على هواه وبلا تكلف إن جاز التعبير، كان يخاطب الملائكة بالكاف (دليلاً على رفع الكلفة بينه وبينهم)، هذا الفتى، دون أن يبدو عليه شيء. لقد وهب دون أن يقصد تقريبًا إلى فتاة صغيرة تجمعه بها قرابة أبوية مبهمة، سنوات من العذاب والمعاناة، شلل حياته البائسة في هذا الجحيم الرتيب، بلا شروط، بلا مساومة، بلا منفعة سوى تلك التي تعود إلى قلبه الطيب. لقد وهب هذه الفتاة الصغيرة البعيدة من الحنان ما يكفي لإصلاح عالم بكامله، ولم يكن ذلك ظاهرًا لأحد.

راح في النعاس مرة واحدة، على ضوء الشمعة الوحيدة. نهضت بعدها لأتمعن في ملامح وجهه في النور. كان ينام مثلما ينام الجميع. كان يبدو مألوفًا تمامًا. مع هذا فربما لا يكون بهذا القدر من الغباء إن وُجد شيء ما لتمييز الأخيار من الأشرار.

الفصل 16

المقطع الثالث عشر

يمكن للمرء أن يلجأ إلى طريقتين لدخول الغابة، إما أن يشق لنفسه فيها نفقًا على طريقة الفئران في أكوام القش، وهذه هي الوسيلة المزعجة الخانقة. وإما أن يتحمّل ركوب النهر، محشورًا في جوف جذع شجرة، تدفعه المجاديف من منعطف إلى غابة ومترقبًا هكذا انقضاء أيام وأيام متعرضًا بالكامل لأقصى ما يمكن من الضياء، بلا ملاذ. ومذهولاً فوق ذلك بصراخ هؤلاء الزنوج، ليصل في النهاية إلى حيث يجب أن يصل بأية حال ممكنة.

في كل مرة، عند الرحيل، يلزم الملاحين بعض الوقت، حتى يلتزموا بالإيقاع. الشجار الحتمي. ضربة مجداف صغيرة في المياه أولاً، ثم صيحتان منسجمتان أو ثلاث تردد في الغابة، دوامات، ينساب القارب، ضربتان بالمجداف، ثم ثلاث، ما زال الانسجام مفقودًا، أمواج، غمغمات، نظرة إلى الوراء تحملك إلى البحر الذي ينبسط هناك، يبتعد، وأمامنا ذلك الامتداد الرحيب المصقول الذي لا نهاية له.. النهر الذي كنا نمضي لنشقه بعكس تياره، ثم آلسيد الذي ما زال واقفًا فوق مرساته التي ألمحها بعيدًا، تكاد أبخرة النهر تخفيه، تحت قبعته الضخمة التي تشبه الناقوس، لا نرى سوى جزء من رأسه، والباقي من آلسيد في الأسفل يتراقص طافيًا في سترته كطيف تائه منذ الآن في ذكرى غريبة، يضع بنطالاً أبيض.

هذا هو كل ما تبقى لي من هذا المكان.. من توبو هذه.

هل ما زال من الممكن حمايتها طويلاً هذه القرية الصغيرة الملتهبة من المنجل المخاتل الكبير، منجل النهر ذي المياه الرمادية الضاربة للحمرة؟

وأكواخها الثلاثة الملأى بالبراغيث.. ألا تزال صامدة على الدوام؟ أشخاص جدد من أمثال جرابا ومجهولون من أمثال آلسيد هل لا يزالون يدربون قناصة مستجدين في تلك المعارك الوهمية؟ ألا تزال تقام فيها هذه العدالة الفظة؟ الماء الذي كنا نحاول أن نشربه فيها أما زال دائمًا على القدر نفسه من الزناخة؟ السخونة نفسها؟ إلى حد إثارة اشمئزازك من فمك شخصيًّا طوال ثمانية أيام بعد كل جرعة منها. وهل ما زالت تخلو دائمًا من المبردات؟ ومعارك الآذان هذه التي يشنها على الذباب نحل الكينين الضخم الذي لا يكل؟ السلفا؟ الكولوهيدرات؟ لكن قبل كل شيء ألا يزال هناك في هذا الأتون زنوج تجف أجسادهم وتغطيها البثور في ناره؟ ربما كانت الإجابة لا.

ربما لم يعد كل هذا موجودًا، ربما لعق توبو عرضًا نهر الكونجو بضربة قوية من لسانه الموحل في ليلة عاصفة وأن يكون الأمر قد انتهى.. انتهى تمامًا، ربما اختفى الاسم ذاته من الخرائط، ربما لم يعد غيري يتذكر آلسيد في آخر الأمر.. ربما نسيته ابنة أخيه هي الأخرى. ربما لم يرَ جرابا موعودته تولوز مطلقًا، ربما كانت الغابة، التي تترصد التل منذ الأزل، عند موسم الأمطار، قد استولت على كل شيء، سحقت كل شيء تحت ظل أشجار الآكاچو السامقة، كل شيء، حتى زهور الرمل الصغيرة غير المتوقعة التي لم يرد آلسيد أن أرويها.. ربما لم يعد هناك أي شيء.

سوف أتذكر طويلاً كيف كانت تلك الأيام العشرة التي استغرقها صعود النهر.. الأيام التي أمضيتها في مراقبة دوامات الطمي، قابعًا في جوف القارب، في اختيار ممر خفي بعد آخر، بين الأغصان الهائلة التي تتلاعب بها الرياح، تفاديها بمرونة. أشغال شاقة متقطعة.

بعد كل غسق، كنا نتوقف فوق أحد الرؤوس الصخرية العالية. ذات صباح، غادرنا أخيرًا ذلك القارب البدائي القذر لندخل إلى الغابة عبر أحد الدروب المتوارية، كان يتسلل إلى تلك العتمة الخضراء والرطبة، التي لم يكن ينيرها من مكان إلى آخر إلا شعاع شمس ساقط من أعلى أعالي كاتدرائية الأوراق

الخضراء مترامية الأطراف هذه. أجبرت بعض الأشجار المقطوعة الهائلة مجموعتنا إلى الانعطاف عن طريقها مرات عديدة. في التجاويف التي خلفتها في الأرض، ربما كان بوسع قطار مترو كامل أن يناور بكل حرية.

في لحظة ما، عاد النور الساطع، كنا قد وصلنا قبالة مساحة مقطوعة الأشجار، كان علينا أيضًا أن نتسلق إليها صعودًا، مشقة أخرى. كانت الربوة التي وصلنا إليها تتوج الغابة اللا متناهية، المتماوجة بقمم الأشجار الصفراء، الحمراء والخضراء، المتكاثرة، التي تعتصر جبالاً وأوديةً، وهائلة الاتساع والوفرة والخصب.. كالماء والسماء. أما الرجل الذي كنا نسعى وراءه، فقد أشاروا إليَّ بأن مسكنه ما زال بعيدًا بعض الشيء.. في وادٍ صغير آخر. كان ينتظرنا هناك. ذلك الرجل.

بين صخرتين كبيرتين، كان قد أقام لنفسه ما يشبه كوخًا صغيرًا، في مأمن، كما لفت نظري، من أعاصير الشرق، الأسوأ والأكثر جنونًا. اعترف بكل رضا أن ذلك كان أحد المزايا، أما عن المسكن ذاته فقد كان ينتمي بكل تأكيد إلى أحط فئة بائسة، كان مسكنًا من الناحية النظرية فقط تقريبًا، باليًا متصدعًا من كل مكان. في ما يتعلق بالسكن، كنت أتوقع بالطبع شيئًا من هذا القبيل، غير أن الحقيقة مع كل ذلك قد تجاوزت توقعاتي.

لا بد أني قد بدوت لزميلي حزينًا بالغ الأسى، لأنه صاح بي مباغتًا إلى حد كبير ليخرجني من أفكاري. "هيا.. دعك من هذا، ستكون هنا أقل سوءًا من حالك في الحرب! هنا، يمكنك على أي حال أن تتدبر أمورك. الطعام سيئ، هذا صحيح، وبالنسبة إلى الشرب، فهو وحل حقيقي، لكن بوسع المرء أن ينام بقدر ما يريد.. لا مدافع هنا يا صديقي! ولا رصاص أيضًا! باختصار إنها صفقة رابحة!" كان يتحدث بلهجة الوكيل العام نفسها تقريبًا لكن عينيه كانتا باهتتين مثل عيني آلسيد.

لا بد أنه كان يقارب الثلاثين، ملتحيًا.. لم أكن قد تطلعت فيه جيدًا عند وصولي، لفرط ما أربكني بؤس مسكنه، الذي كان عليه أن يورثه لي والذي كان يجب أن يؤويني ربما طوال سنوات.. لكني وجدته، عندما تفرست فيه، فيما بعد، شخصية مغامرة جريئة بالفعل، وجهًا محدد الزوايا جدًّا بل وحتى واحد من هؤلاء المتمردين الذين ينخرطون في الحياة بكل قوة بدلاً من مسايرتها، كان له مثلاً أنف ضخم مستدير ووجنتان ممتلئتان، مسطحتان، واحد من هؤلاء الذين سوف يصطدمون بأقدراهم في صخب. كان ذلك الرجل تعيسًا سيئ الحظ.

قلت له: "حقًّا، ليس هناك أسوأ من الحرب!"

في ما يتعلق بالمكاشفات، كان لدينا ما يكفي الآن، لم أكن أرغب في أن أخبره بالمزيد. لكنه هو الذي واصل الحديث حول الموضوع نفسه، مضيفًا: "خصوصًا الآن وقد خضنا الحروب زمنًا طويلاً.. على أي حال سوف ترى أن الوضع هنا لا يبعث كثيرًا على السرور، هذا كل ما في الأمر، لا يوجد هنا ما نعمله، عبثًا تحاول، كأنك في إجازة ما لكنها الآن إجازة هنا! أليس كذلك.. على أي حال، ربما تعلق هذا بطبائع البشر. ليس بمقدوري أن أقول شيئًا حيال هذا".

"والماء؟"

سألته بعدها، هذا الذي أراه في قدحي، والذي صببته لنفسي.. يزعجني، لقد شربت منه، مُصفرًّا، مقززًا وساخنًا مثل الماء في توبو تمامًا. كالماء في قاع إناء بعد مرور ثلاثة أيام.

"أهذا هو الماء؟" عذابات الماء توشك أن تبدأ من جديد. "نعم، لا يوجد هنا غير هذا الماء إضافة إلى المطر. غير أن الكوخ لن يستطيع المقاومة طويلاً عندما تسقط الأمطار. أرأيت في أي حال هو.. هذا الكوخ؟" كنت أرى.

"أما عن الطعام"، قال مستطردًا، "فليس هنا سوى علب الطعام المحفوظ، عن نفسي.. فأنا أزدرده منذ عام.. ولم أمت بسببه! من جهة ما فإنه مريح وملائم، لكنه لا يصمد طويلاً في الجسم، أما الزنوج فهم يعيشون على جذور الماهينوك العفنة، هذا شأنهم، إنهم يحبون ذلك. منذ ثلاثة أشهر وأنا ألفظ كل شيء.. الإسهال، ربما كان هذا بسبب الحمى أيضًا، أنا أعاني من كليهما.. بل حتى إنني لا أعود أرى بوضوح نحو الخامسة مساءً.. هذا ما يجعلني أعرف أني مصاب بالحمى، لأنه بالنسبة إلى السخونة، فإنه من الصعب أن يشعر الإنسان بسخونة أشد من هنا، بسبب درجة الحرارة في البلاد وحدها، أليس كذلك! الحاصل، أن نوبات القشعريرة هي التي بالأحرى تنبهك إلى أنك مصاب بالحمى.. وما يجعلك تعرف أيضًا أنك مصاب بالحمى أنك تشعر بسأم أقل.. لكن هذا قد يعتمد على الطبائع.. ربما يمكنك أن تشرب الكحول لتسترد قواك، لكني لا أحب هذا.. الكحول.. أنا لا أتحمله". بدا أنه يولي اهتمامًا كبيرًا لما يسميه "الطبائع".

فضلاً عن ذلك، فإنه، بينما هو موجود، قد أمدني ببعض المعلومات المشوّقة الأخرى: "النهار يعني الحر، لكن في الليل فإن الضجيج هو أصعب ما يمكن تحمله.. ضجة غير معقولة، إنها حيوانات هذه الناحية، التي تتسابق نحو الطعام، الجنس، الشجار، لا أعرف شيئًا عن هذا، لكن هذا ما قيل لي. على أي حال فإننا نتحدث إذًا عن ضجة كبيرة، والأكثر جلبة من بين تلك الحيوانات أيضًا هي الضباع! إنها تأتي إلى هنا.. بالقرب من الكوخ.. حينذاك تسمعها، لن تخطئها.. إنها ليست مثل ضجيج الكينين. يمكن أن نخطئ أحيانًا فنخلط بين أصوات بعض الطيور، الذباب الضخم وطنين الكينين.. يحدث هذا أحيانًا.. بينما تضحك منك الضباع.. إنها تتشمم لحمك أنت، إن هذا يضحكها! إنها تتعجل رؤيتك هالكًا تلك الحيوانات! يقال إننا يمكننا أن نرى أعينها تلمع! إنها تحب أكل الجيف.. أنا لم أرَها وجهًا لوجه.. هذا يؤسفني بوجه ما".

"الأمر مسلٍّ هنا!" أجبته.

غير أن هذا لم يكن كل شيء بالنسبة إلى جاذبية الليالي.

فقد أضاف: "هناك القرية أيضًا، لا يوجد فيها أكثر من مئة زنجي لكنهم يصخبون كأنهم عشرة آلاف، هؤلاء الأوغاد المتهتكون! سوف تنبئني بأخبارهم.. هؤلاء أيضًا! آه! لو كنت جئت من أجل الطبول، فأنت لم تخطئ المستعمرة.. ذلك لأنهم يقرعون طبولهم هنا تارة لاكتمال القمر وتارة لاختفاء القمر إضافة إل قرعها انتظارًا لمقدم القمر. على أي حال، فهناك دائمًا سبب لهذا! يخيل للمرء أن هؤلاء اللئام قد اتفقوا مع الحيوانات من أجل إزعاجك! حتى الموت.. كما قلت لك! لو لم أكن منهكًا إلى هذا الحد، أنا، لقتلتهم جميعًا بضربة واحدة قاضية.. لكني ما زلت أفضل أن أضع قطنًا في أذنَي. في ما مضى، عندما كان لدي بعض "الـڤازلين" في صيدليتي، كنت أضع منه فيهما، فوق القطن، أما الآن فأنا أضع دهن الموز بدلاً منه. إنه مفيد أيضًا، دهن الموز.. بهذا الدهن، يمكنهم دائمًا الغرغرة بصاعقة الرب إن كان ذلك يثيرهم، هؤلاء الزنوج! أما أنا، فلا أبالي بهذا مطلقًا ما دمت أضع القطن المشبع بالدهن! لا أسمع شيئًا بعدها! سوف تعاين بنفسك على الفور أن الزنوج منهكون تمامًا، فاسدون تمامًا.. ترى الواحد منهم مقعيًا طوال النهار، تظن أنه غير قادر على مجرد النهوض ليتبول بجوار إحدى الأشجار، ثم بمجرد أن يحل الليل، ولترَ بنفسك! يصير فاسقًا تمامًا! مستثارًا تماما! هستيريًّا بالكامل. قطع من الليل انتابتها الهستيريا. هكذا هم الزنوج، أذكرك بهذا! على أي حال، حثالة.. منحطون وإلا فماذا!"

"هل يأتون كثيرًا ليبتاعوا منك؟"

"يشترون؟ آه! أتعرف؟ يجب أن تسرقهم قبل أن يسرقوك، هذه هي التجارة، هذا كل ما في الأمر! في أثناء الليل وعندما أكون ساهيًا عنهم، فإنهم لا يتورعون عن شيء، حتمًا يا هذا، لكل هذا القطن المشبع بالدهن في كل أُذن! سيكونون مخطئين إن لم يفعلوا، أليس هذا صحيحًا؟ وفوق هذا، كما ترى،

فكوخي بلا أبواب أيضًا وعليه فإنهم يحصلون بأنفسهم على ما يريدون، إذًا يمكنك أن تقول ذلك.. إنها الحياة السعيدة هنا.. بالنسبة إليهم".

"لكن، ومسألة الجرد؟" سألته وقد أذهلتني تمامًا هذه الإيضاحات. كان المدير العام قد أوصاني كثيرًا بأن أقوم بالجرد بمجرد وصولي، وبكل دقة!

"في ما يخصني"، أجابني بمنتهى الهدوء، "فإن المدير العام، يمكنه أن يذهب إلى الجحيم.. مثلما يشرفني أن أخبرك بهذا".

"لكن ألن تراه مع ذلك في فور-جونو، في طريق العودة؟"

"لن أرى أبدًا، لا فور-جونو، ولا المدير العام.. إن الغابة واسعة يا صديقي العزيز".

"لكن، إلى أين سوف تذهب إذًا؟"

"إن سئلت عن ذلك، فلتجب بأنك لا تعلم شيئًا! لكن بما أنك تبدو فضوليًّا، فدعني، ما دام الوقت لا يزال مناسبًا، أسدي إليك نصيحة غالية ومفيدة! لا تبالِ كثيرًا بشؤون شركة لابوردورير كما لا تبالي هي بشؤونك. وإذا عدوت بالسرعة نفسها التي تطاردك بها الشركة، فإني أستطيع أن أخبرك من الآن أنك سوف تربح الجائزة الكبرى بكل تأكيد. لتهنأ إذًا لأني تركت لك قليلاً من المال ولا تسألني مزيدًا منه! بالنسبة إلى البضائع، إن كان صحيحًا أنه قد أوصاك أن تتحمل مسؤوليتها، فسوف تجيبه، المدير، بأنه لم يعد يتبقى منها شيء، هذا كل ما في الأمر.. إذا رفض أن يصدقك، فلن تكون لذلك أيضًا أهمية كبرى، فهو، على أي حال، يعُدّنا جميعًا، وبكل يقين، من اللصوص! لن يغير هذا إذًا أي شيء في الرأي العام، ولمرة واحد سوف نستفيد قليلاً من هذا الأمر.. فضلاً عن ذلك فإن المدير، وليطمئن قلبك، أكثر خبرة بالحيل من أي شخص آخر. ولا داعي لمعارضته! هذا هو رأيي! هل هو رأيك أيضًا؟ من

المعروف جيدًا أنك كي تأتي إلى هنا، لا بد أن تكون مستعدًا لقتل أبيك وأمك، أليس كذلك! ما الداعي للدهشة إذًا؟"

لم أكن متأكدًا تمامًا من أن كل ما رواه لي كان حقيقيًّا، لكن هذا السافل وعلى كل حال قد بدا لي ساعتها كأنه ابن آوى حقيقي.

لم أكن مطمئنًا على الإطلاق. "ها هي ورطة أخرى تحط عليَّ" اعترفت لنفسي، وزاد هذا الشعور قوة بالتدريج. كففت عن الكلام مع هذا القرصان الجاحد. في أحد الأركان، اكتشفت صدفة البضائع التي تكرم بالتنازل عنها، مختلطة بلا ترتيب، أقمشة قطنية، بلا قيمة.. لكن في المقابل كانت هناك دزينات من المآزر والأحذية، فلفل أسود مُعلب، فوانيس، محقنة، وخصوصًا كمية مذهلة من علب الفاصوليا البيضاء المحفوظة والمطهوة على طريقة أهل "بوردو"، وأخيرًا بطاقة بريد ملونة: "ميدان كليشي".

"بجوار العمود، ستجد المطاط والعاج الذي اشتريته من الزنوج. في البداية، كنت أجهد نفسي، وبعد ذلك، هاك، خذ، ثلاثمئة فرنك.. هذا هو حسابك".

لم أدرِ أي حساب كان يقصد، غير أني تراجعت عن سؤاله عن ذلك.

"قد تقوم أيضًا ببعض المقايضات بين السلع" قال لي منبهًا "لأن النقود، لو تعلم، لا حاجة لنا إليها هنا، إنها لا تُستخدم إلا في الهروب من هنا".

وانخرط في الضحك. ولأني لم أكن أرغب في معارضته أيضًا في الوقت الحالي، فقد قلدته وبادلته المزاح، كما لو كنت سعيدًا، بالفعل.

على الرغم من هذه الفاقة التي ظل فيها منذ شهور، كان محاطًا بطاقم متنوع من الخدم يتكون على وجه الخصوص من صبية، متلهفين إلى أن يحملوا إليه سواء ملعقة الدار الوحيدة أو القدح منقطع النظير، أو أن يقتلعوا أيضًا من باطن قدمه، بمهارة، البراغيث الخاشفة العادية اللابدة فيها دومًا.

مقابل ذلك، كان يمرر يده، متطوعًا، بين أفخاذهم، في كل حين. الجهد الوحيد الذي رأيته يقوم به، كان حك جلده بنفسه، لكنه حينذاك كان ينكب على ذلك، مثل صاحب الحانوت في "فور-جونو"، برشاقة مدهشة، لا ترى فعلاً إلا لدى المستعمرين.

كشف لي الأثاث الذي أورثنى أياه كل ما يمكن للعبقرية أن تصنع بصناديق صابون مهشمة، في شأن الكراسي والطاولات والمقاعد. علمني هذا الشيطان أيضًا كيف أقذف بعيدًا، بضربة وحيدة خاطفة، رشيقة من طرف القدم، على سبيل التسلية، بهذه الديدان الثقيلة مزكرشة الجلد التي كانت تقتحم كوخنا القابع في الأدغال بلا انقطاع، مدهشة، مرتجفة، سائلة اللعاب. لكن لو سحقها أحد، عن طيش، فويل له! فإنه يعاقب على ذلك برائحة شديدة الخبث، تنبعث ببطء من عجينة أجسامها التي لا يمكن نسيانها.كان قد قرأ في الكتب أن هذه المخلوقات البشعة تمثل أحد أقدم الكائنات في العالم. إنها تعود، كما يزعم، إلى الحقبة الجيولوجية الثانية! "عندما سنعود نحن الآخرون إلى ماضٍ سحيق مثلها ألن نبعث هذه الرائحة الخبيثة؟" مثلها.

تتجلى ساعات الغسق في هذا الجحيم الإفريقي رائعة الجمال. لا ينجو المرء من أسرها. درامية في كل مرة كأنها محاولات اغتيال صارخة للشمس. استعراض باذخ. لكن ذلك كان مبعث إعجاب يفوق طاقة رجل واحد. طوال ساعات تتباهى السماء ناضحة من طرف إلى آخر بأطياف قرمزية نشوانة، تتفجر الخضرة وسط الأشجار وتصعد من الأرض في سحابات مرتعشة نحو أولَى الأنجم الطالعة. بعدها يستولي اللون الرمادي على الأفق بكامله وبعده الأحمر مرة أخرى، غير أنه ساعتها يكون باهتًا لا يدوم سوى برهة قصيرة. هكذا كان الأمر ينتهي. تنسدل الألوان كلها على الغابة شذرات، بالية، كأنها أستار لامعة استُعملت مئة مرة. هذا ما يحدث نحو السادسة تمامًا من كل يوم.

ثم يشارك الليل بكل كائناته الخرافية في الرقصة وسط آلاف وآلاف الأصوات الصادرة عن أفواه الضفادع.

لا تنتظر الغابة سوى إشارتها حتى تشرع في الارتعاش، الصفير، العجيج من كل أعماقها. محطة قطار شاسعة ولهانة وبلا أنوار، تكتظ بساكنيها. أشجار بكاملها تزهو بولائمها الحية العامرة، أفرعها المنتصبة المشوهة، بالرعب. انتهت بنا الحال إلى أننا لم نعد نسمع أحدنا الآخر داخل الكوخ. كان عليَّ أن أزعق بدوري من فوق المنضدة مثل بومة سمراء حتى يفهمني صاحبي. لقد نلت مرادي، أنا الذي لم أكن أحب الريف!

"ما اسمك أنت؟ ألم تخبرني للتو أنه روبنسون؟"

كان الزميل منهمكًا في تكرار أن الأهالي في هذه الأنحاء يعانون إلى حد الضنى من كل الأمراض التي يمكن الإصابة بها، وأن هؤلاء البؤساء لم يكونوا قط في حال تسمح لهم بالتفرغ لأية تجارة كانت. وبينما نحن نتحدث عن الزنوج، أقبلت جحافل الذباب والحشرات، الكبيرة جدًّا والغزيرة جدًّا تتدافع وتتهاوى حول الفانوس، في هبات كثيفة إلى حد أننا اضطررنا إلى إطفائه.

بدا لي وجه روبنسون هذا مرة أخرى قبل أن أطفئ المصباح، وقد حجبته شبكة الحشرات هذه. وربما لهذا السبب كانت ملامحه قد فرضت نفسها بدقة أكثر على ذاكرتي، في حين كانت لا تذكّرني بشيء محدد في ما سبق. ظل يحدثني في العتمة بينما كنت أعود إلى ذكريات الماضي مع نبرة صوته كأنه نداء أمام أبواب السنين، ثم الشهور، وبعدها أيامي لأتساءل أين تمكن من مصادفة هذا الكائن. لكني لم أعثر على شيء. لم يجبني أحد. يمكن أن يضل الإنسان إن ضرب على غير هدى بين صور الماضي. مفزِع ما في ماضينا من أشياء وأشخاص صاروا بلا حراك. الأحياء الذين أضعناهم في سراديب الزمن ينامون مع الموتى حتى إن المرء يخلط بينهم.

لم نعد نعرف من نوقظ في مشيبنا. الأحياء أم الأموات.

بينما أنا أحاول التعرف إلى شخص "روبنسون" هذا، دوّت بالقرب منا في قلب الظلمة، أصوات تشبه ضحكات مبالغًا فيها جدًّا، جعلتني أنتفض. ثم سكتت. كان قد حذرني. الضباع بلا شك.

ثم لا شيء بعد ذلك إلا زنوج القرية وطبولهم، هذه الآلة الخرقاء المصنوعة من الخشب الأجوف، أرضّات الريح.

كان اسم روبنسون هو ما يغيظني على وجه الخصوص بصراحة أكثر فأكثر. أخذنا نتحدث في عتمتنا هذه عن أوروبا، عن الوجبات التي يمكن أن نقدمها لأنفسنا هناك عندما يكون لدينا مال، وأيضًا عن المشروبات بالطبع! عندما تكون باردة جدًّا! لم نتكلم عن الغد الذي يجب عليَّ فيه أن أبقى وحيدًا، هنا، ربما لسنوات، هنا، مع كل علب الفاصوليا المحفوظة هذه. أكان عليَّ أيضًا إيثار الحرب؟ لقد كانت ألعن بكل تأكيد. كانت أسوأ! هو نفسه اعترف بذلك.. لقد مر بها هو الآخر.. الحرب.. ومع ذلك، فهو يمضي من هنا.. كان قد ضاق ذرعًا بالغابة، رغم كل شيء.. حاولت أن أعيده إلى موضوع الحرب. لكنه صار يتهرب الآن.

وأخيرًا، في الوقت الذي رقدنا فيه لننام كلٌّ في ركن من أركان ركام أوراق الأشجار والقواطع هذه، اعترف لي دون تصنع أنه قد فكر مليًّا في كل شيء وأنه ما زال يفضل المجازفة بالقبض عليه والمثول أمام محكمة مدنية بتهمة الاحتيال، على أن يقاسي أطول من ذلك حياة "الفاصوليا" التي يحياها هنا منذ عام تقريبًا. كنت قد اتخذت قراري.

"أليس لديك قطن لأذنيك؟" سألني مرة أخرى.. "إذا لم يكن لديك منه، فلتصنعه بنفسك من وبر البطانية ودهن الموز. بهذا يمكن الحصول على سدادات جيدة جدًّا.. عن نفسي.. أنا لا أريد أن أسمعها تخور هذه الأبقار!"

ومع أنه كان هناك من كل الأنواع في هذه الزوبعة، ما عدا البقر، لكنه أصرّ على هذا التعبير غير المناسب والدال على الجنس.

أخافتني بغتة حيلة القطن كأنها تخفي خدعة كريهة من جانبه. لم أتمكن من أن أمنع نفسي من فزع هائل تملكني.. من أنه سوف يشرع في قتلي هنا، على سريري القابل "للفك" قبل أن يمضي حاملاً ما تبقى في الخزينة.. أصابتني هذه الفكرة بالدوار. لكن ما العمل؟ الاستنجاد؟ بمن؟ بآكلي لحوم البشر من أهل القرية؟ أصبحت مفقودًا؟ كنت كذلك بالفعل في الحقيقة! في باريس، بلا وظيفة، بلا ديون، بلا ميراث، يعيش المرء الآن بالكاد، يجد كثيرًا من الصعوبة في البقاء حيًّا.. فما الحال هنا إذًا؟ من كان سيجشم نفسه مجرد عناء القدوم إلى "بيكوميمبو" ليبصق في الماء من أجل التفضل فقط بإحياء ذكراي؟ لا أحد بكل تأكيد.

مرت ساعات تخللتها فترات راحة وضيق. لم يكن روبنسون يشخر. كل هذه الجلبة، هذه النداءات الآتية من الغابة أعاقتني عن سماعه يتنفس. لا حاجة إلى القطن. ومع ذلك فقد انتهى اسم روبنسون هذا، لفرط عنادي، بأن كشف لي عن هيئة ما، مشية ما، بل عن صوت ما كنت قد عرفته من قبل.. ثم في اللحظة التي كنت فيها على وشك الاستسلام نهائيًّا للنعاس انتصب أمام سريري الشخص كاملاً، أمسكت بذكراه، ليس هو بكل تأكيد، لكن ذكرى ذلك الـ"روبنسون"، رجل "نورسور - سور - لا - لي"، هو، هناك في الفلاندر، روبنسون الذي كنت رافقته على تخوم تلك الليلة التي كنا نبحث فيها معًا عن ثقب للنجاة من الحرب، ثم هو ذاته أيضًا في باريس بعد ذلك.. لقد عاد إليَّ كل شيء.. في التو انقضت سنوات دفعة واحدة.

تشوشت أفكاري، انتابني الشجن.. الآن وقد علمت، وقد كشفت أمره، لم يعد بمقدوري أن أمنع نفسي من الشعور بالخوف الشديد. هل تعرّف هو إليَّ؟ على كل حال يمكنه الاتكال على صمتي وعلى تواطؤي.

ناديته: "روبنسون! روبنسون!" مرحًا كأني أزف إليه بشرى، "إيه.. صاحبي العزيز! هيه روبنسون!" ما من رد.

نهضت، وقلبي يدق بقوة، متأهبًا لتلقي ضربة غادرة في بطني.. لا شيء. بجرأة كبيرة، جازفت حينها بالمضي إلى الناحية الأخرى من الكوخ، كالأعمى، حيث كنت قد رأيته يرقد. كان قد رحل.

انتظرت النهار، مشعلاً عود ثقاب من حين إلى آخر. جاء الصباح في إعصار من الضياء وبعده وصل الخدم الزنوج ليعرضوا عليَّ، مبتهجين، عدم جدواهم الهائل، إلا أنهم كانوا منتشين في هذه الأثناء. سعوا منذ اللحظة الأولى إلى تعويدي على اللامبالاة. عبثًا حاولت، بسلسلة من الإشارت المعبرة جدًّا، أن أفهمهم كم كان اختفاء روبنسون يقلقني، ولم يبد أن هذا قد منعهم من الاستهتار تمامًا بما أفعل. هناك كثير من الغباء، وهذا حقيقي، في أن يهتم المرء بشيء آخر غير الذي يراه. وفي النهاية، فإن ما كان يؤسفني، على وجه الخصوص، في هذه القصة.. هو الخزينة. غير أنه ليس من المعتاد كثيرًا أن نرى مرة أخرى من يستولون على الخزائن. جعلني هذا الموقف أفترض أن روبنسون سوف يعدل عن العودة لمجرد اغتيالي. كان ذلك وحده مكسبًا كبيرًا.

إذًا، صار المشهد لي وحدي! من الآن فصاعدًا سيكون أمامي الوقت.. كل الوقت كي أعود إليه، خطر ذلك ببالي، أعود إلى سطح وأعماق هذا الامتداد الشاسع من أوراق الشجر، هذا المحيط من الحمرة، من الأصفر الرخامي المجزع، من المشهيات الزاهية الرائعة بكل تأكيد في أعين من يحبون الطبيعة. أنا لم أكن أحبها حقًّا. كانت شاعرية المناطق الاستوائية تثير اشمئزازي. نظرتي إلى هذه الأشياء الموحدة وفكرتي عنها كانت تحضرني.. ثقيلة على نفسي.. كسمك التونة. عبثًا كل ما سوف يقال، سيكون هذا دائمًا موطنًا للبعوض والفهود. لكل مكانه.

كنت لا أزال أفضل العودة إلى كوخي وتدعيم أركانه تحسبًا للإعصار، الذي لا يمكن تأخيره. لكن هنا أيضًا، كان لا بد لي أن أتراجع عن محاولتي لتدعيمه، فما كان ممكنًا لهذا البناء المتداعي إلا أن يزداد تداعيًا لكنه لم يكن لينتصب من جديد أبدًا، قش السقف الذي أتلفته الحشرات الطفيلية، كان مهترئًا، في الحقيقة، لم يكن ممكنًا أن نجعل من مسكني، مبولة عامة لائقة.

بعد أن رسمت بخطوات خائرة عدة دوائر في الدغل المحيط بالكوخ، كان لا بد من العودة إليه لأتهاوى فوق المقعد.. وأهدأ، بسبب الشمس. دائمًا هي. يصمت الجميع، الكل يخشى الاحتراق في ساعات الظهر. ومن جهة أخرى، لم يكن ينقص ذلك أي شيء، فالأعشاب، الحيوانات، البشر كانت ساخنة.. ملتهبة كما يجب. إنها سكتة الظهيرة.

حتى دجاجتي، الوحيدة، كانت تخاف هي الأخرى من تلك الساعة، وتعود معي، الدجاجة، الوحيدة، التي أورثنيها روبنسون. لقد عاشت معي على هذه الوتيرة طوال ثلاثة أسابيع، متجولة، مرافقة لي ككلب، قائقة في كل حين، مكتشفة للثعابين في كل مكان. ذات يوم شديد السأم، أكلتها، لم يكن لها أي طعم، حال لون لحمها في الشمس أيضًا..كقماش قطني خشن. ربما كانت هي من أمرضتني إلى هذا الحد، على أي حال، فالحاصل أني غداة تلك الوجبة، لم أستطع النهوض قط، قرب الظهيرة، جرجرت نفسي، هاذيًا، إلى علبة الأدوية. لم يكن داخلها، إلا صبغة اليود وخريطة لخط المترو شمال– جنوب(28). بالنسبة إلى العملاء، لم أرَ، حتى اللحظة، أيًّا منهم في الوكالة، إلا قليلاً، زنوج متسكعين فقط، عددًا لا نهاية له ممن يشيرون بأيديهم ويهزون رؤوسهم، ويمضغون الكولا، غارقين في الشبق وفي حمى المستنقعات. الآن، عاد الزنوج للتحلق حولي، بدا أنهم يتجادلون بشأن هيئتي المزرية. مريضًا، كنت مريضًا. تمامًا إلى حد أني بدوت كأني لم أعد في حاجة إلى ساقاي، كانتا تتدليان ببساطة من حافة سريري كأنهما أشياء مهملة ومضحكة بعض الشيء.

(28) خريطة شمال – جنوب: خريطة خط المترو العامل بين محطتي مونمارتر Montmartre ومونبارناس Montparnasse. (المترجم)

من "فور– جونو" لم يصلني من المدير، مع السعاة، إلا رسائل مزعجة، كريهة تعج بالتوبيخ، والشتائم والسخافات والتهديدات أيضًا. اتضح أن أهل التجارة الذين يعدون أنفسهم -كبارًا وصغارًا - من دهاة المهنة، يصبحون في أغلب الأحيان عند الممارسة حمقى لا يزيد عنهم في الرعونة أحد. من فرنسا، كانت أمي تحثني على الاهتمام بصحتي، كما كان الحال في الحرب. حتى تحت شفرة المقصلة، كانت أمي سوف توبخني لأني نسيت منديل عنقي. لم تكن أمي لتفلت فرصة لتحاول إقناعي بأن العالم مكان لطيف وطيب وأنها قد أحسنت صنعًا أن حملت بي. تلك العناية المفترضة هي الذريعة الكبرى في تهاون الأمهات. من جهة أخرى كان من السهل عليَّ بالفعل ألا أرد على كل ترهات المدير وأمي هذه، ولم أكن أجيب عليها مطلقًا. غير أن هذا المسلك لم يكن ليؤدي أيضًا إلى تحسن الوضع.

سرق روبنسون تقريبًا كل ما كانت تحتويه هذه المؤسسة الواهية، ومن كان سوف يصدقني إن كنت أنوي أن أخبر عن ذلك؟ أن أكتبه؟ ما الفائدة؟ إلى من أكتب؟ إلى المدير؟ كل مساء نحو الخامسة، كنت أرتعد بدوري من الحمى، الحمى العنيفة، حتى إن سريري الزائف كان يهتز بسبب ذلك، كما يهتز لو كان عليه رجل يستمني حقيقةً. كان بعض زنوج القرية قد استولوا، بلا تكليف، على عملي، وكوخي، لم أكن قد استدعيتهم، لكن إبعادهم كان يتطلب بالفعل جهودًا طائلة. تشاجروا حول ما تبقى من الوكالة، عابثين بثقة ببراميل التبغ، مجربين قياس المآزر الأخيرة، يقدرون أثمانها، يخلعونها، مضيفين المزيد، لو أمكن، إلى الفوضى الشاملة في مسكني. عصارة المطاط المبعثر الذي يغطي الأرض تختلط بشمام الدغل، بثمار البابااظ المائعة هذه التي لها طعم الكمثرى المعجونة بالبول، والتي ما زالت ذكراها، بعد مرور خمسة عشر عامًا، تصيبني بالغثيان، لكثرة ما تناولت منها بدلاً من الفاصوليا.

حاولت أن أتصور إلى أي مستوى من العجز كنت قد هويت لكني لم أتوصل إلى ذلك. "الكل يسرق!" أعادها عليَّ روبنسون ثلاث مرات قبل أن يختفي. كان هذا أيضًا رأي الوكيل العام. خلال نوبات الحمى، كانت تلك الكلمات تتسلط عليَّ.. تعذبني. "عليك أن تتدبر أمورك!" هذا ما أوصاني به كذلك. حاولت النهوض. لم أتمكن من ذلك أيضًا. وبالنسبة إلى الماء الذي كان لا مفر من تجرعه، كان روبنسون على صواب، فقد كان موحلاً، بل أسوأ، من طين قاع الإناء الراكد. كان بعض الزنوج الصغار يحضرون إليَّ كثيرًا من حبات الموز، كبيرة الحجم، صغيرة الحجم، حمراء اللون، ودائمًا ثمار البباباظ هذه، لكني كنت أشعر بألم شديد في بطني بسبب كل هذا ومن كل شيء! تمنيت لو تقيأت الأرض بكاملها.

بمجرد أن شعرت أن شيئًا من التحسن قد لاح أمامي، ما إن صرت أقل ذهولاً، حتى عاد الخوف الكريه ليسيطر على كل جوارحي، الخوف من ضرورة تقديم كشف حساباتي إلى شركة "بوردوبير". ما عساي أن أقول لهؤلاء الملاعين؟ كيف سيصدقونني؟ بالتأكيد سوف يأمرون بالقبض عليَّ! من سوف يحاكمني ساعتها؟ رجال متخصصون مسلحون بقوانين رهيبة لا نعرف من أين يأتون بها، مثل قوانين المحكمة العسكرية، لكنهم لا يكشفون لك مطلقًا عن مقاصدها الحقيقية، ويستمتعون بحملك على أن تصعد بها، نازفًا، الدرب شديد الانحدار المشرف على الجحيم، الطريق الذي يقود الفقراء إلى الهلاك. القانون، هو "لونا بارك" الأحزان -(مدينة الملاهي) - الكبرى. عندما يستسلم لسطوته البؤساء، فإن صراخهم سيظل مسموعًا لقرون وقرون بعدها.

كنت أفضل أن أظل مخدَّرًا هنا، مرتعدًا، غارقًا في عرق الأربعين درجة مئوية، على أن أجبر، واعيًا، على تصور ما كان ينتظرني في "فور– جونو". انتهى بي الأمر إلى الإقلاع تمامًا عن تناول الكينين حتى أترك الحمى تحجب عني الحياة. يثمل المرء بما يجده. بينما كنت أطبخ على نار هادئة، أيامًا وأسابيع،

نفدت مني أعواد الثقاب. كنا نعاني من نقصها. لم يكن روبنسون قد ترك خلفه إلا علب الكاسوليه (الفاصوليا المحفوظة المطهوة) على طريقة أهل بوردو. لكن من هذه "الفاصوليا" بوسعي أن أقول إن روبنسون قد ترك الكثير حقًّا. لقد تقيأت منها علبًا. ولكي أصل إلى هذه النتيجة، كان عليَّ أيضًا أن أعيد تسخينها.

كان هذا النقص في الثقاب بالنسبة إليَّ فرصة لتسلية خفيفة، فرصة مشاهدة الطاهي يشعل ناره بين حجرين يقدحهما بين الأعشاب الجافة. وقد واتتني الفكرة في أثناء مشاهدتي له. كثير من الحمى فوق ذلك ثم تماسكت الفكرة التي جاءتني على نحو غريب. وعلى الرغم من أني كنت أخرق بالطبيعة، فبعد أسبوع من التطبيق العملي، كنت أنا أيضًا قد عرفت كيف أشعل، مثل أي زنجي تمامًا، نارًا بين حجرين مدببين. باختصار، بدأت في تدبر أموري في الحالة البدائية. النار، هي الأساس، يتبقى الصيد بالطبع، لكني لم أكن طموحًا. كانت نار أحجار الصوان تكفيني. كنت أتدرب على ذلك بمثابرة وضمير. لم يكن لديَّ ما أفعله سوى محاولة إشعال النار، يومًا بعد آخر. في لعبة ركل الديدان التي تأتي في المرتبة الثانية، صرت أقل مهارة بكثير. لم أكن قد استوعبت الحيلة بعد. سحقت كثيرًا من الديدان. لم أعد أعبأ بها. تركتها تدخل إلى كوخي كأصدقاء بكل حرية. قام فجأة إعصاران كبيران متتاليان، استمر الثاني ثلاثة أيام كاملة وخصوصًا ثلاث ليالٍ. شربنا أخيرًا من ماء المطر من الصفائح. فاتر، هذا صحيح، لكنه كان أفضل على أي حال.. أخذت أقمشة المخزون البسيط في الامتزاج، طوعًا، تحت زخات المطر، بعضها في بعض، بضاعة حقيرة.

جلب لي بعض الزنوج الطيبين من أعماق الغابة بعض حزم من الأعشاب والنباتات المتسلقة لأثبت كوخي بالأرض، لكن سدى، فإن أوراق الشجر التي صنعت منها الجدران أخذت تصطفق بجنون فوق السقف، عند أقل ريح، كأجنحة جريحة. عبثًا نحاول. باختصار كان الكل يلهو.

قرر الزنوج صغارًا وكبارًا العيش في الفوضى التي أعيشها بألفة تامة. كانوا سعداء. كانوا يدخلون ويخرجون من عندي (إن جاز قول ذلك) على هواهم. حرية. صرنا نتبادل بعض الإشارات علامة على التفاهم الكبير بيننا. دون هذه الحمى، ربما كنت شرعت في تعلم لغتهم. كنت أحتاج إلى مزيد من الوقت. أما عن نار الأحجار، ورغم تقدمي، فإنى لم أكن قد اكتسبت بعد طريقتهم المثلى في إشعالها، السريعة. كثير من الشرر ما زال يصيبني في عينَي وكان هذا يُضحك الزنوج كثيرًا.

عندما لا أكون مستلقيًا فوق سريري النقّال متهالكًا من الحمى، أو مشغولاً بقدح أحجار قداحتي البدائية، لم أكن أفكر إلا في حسابات الشركة. غريب ما يجده المرء من صعوبة في التخلص من رعب الحسابات المزورة. بالتأكيد، كان لا بد أن آخذ هذا الرعب عن أمي، التي أصابتني بعدوى مأثورتها: "يسرق المرء البيضة ثم ثورًا وبعدها ينتهي الأمر بقتله لأمه." مثل هذه الأشياء، عانينا كلنا كثيرًا للتخلص منها. لقد تعلمنا صغارًا جدًّا وها هي تأتي لترعبنا، دون أن تترك لنا مهربًا، فيما بعد، في أوقات الشدة. يا له من ضعف. وللتخلص منها لا يمكننا كثيرًا الاعتماد إلا على حكم الواقع. من حسن الحظ أنه هائل الاتساع، حكم الواقع. في الانتظار، كنا، أنا والوكالة، ننهار، نغوص. كنا نكاد نغيب في الوحل بعد كل وابل من المطر، أكثر لزوجة، أكثر كثافة من سابقه. إنه موسم المطر. ما كان لا يزال يبدو بالأمس كصخرة، لم يعد اليوم إلا مصاصة قصب رخوة. ومن الأغصان المتهدلة تلاحقك شلالات الماء الفاتر، تنتشر داخل الكوخ وفي كل مكان حوله كما لو كنا في حوض نهر قديم مهجور. اختلط كل شيء في عجينة من البضائع، الآمال، والحسابات وامتزج بالحمى أيضًا، الرطبة هي الأخرى. كان هذا المطر شديدًا إلى درجة اضطرارنا إلى إغلاق أفواهنا في مواجهته عندما يهاجمنا كأنه يكممنا بكمامة دافئة. لم يمنع هذا الطوفان الحيوانات من البحث عن بعضها بعضًا، أخذت العنادل في إصدار أصواتها مثلها مثل بنات آوى. الفوضى في كل مكان وفي السفينة، وأنا نوح، أهذي. بدا لي أن لحظة الخلاص قد حانت. لم تكن أمي تعرف أمثالاً عن الأمانة

والشرف فقط، كانت تقول أيضًا، وأتذكر ذلك بكل وضوح، عندما كانت تحرق الضمادات القديمة في البيت: "النار تطهر كل شيء!" يجد المرء كل ما يجب عند أمه، لكل مناسبات القدر. يكفي أن تعرف كيف تنتقي.

حانت اللحظة. لم تكن أحجار الصوان مختارة بعناية كبيرة، غير حادة بما يكفي، ظل الشرر يتطاير، على الأخص، بين يدي. وأخيرًا، ورغم كل هذا، اشتعلت السلع الأولى رغم ابتلالها. كانت مخزونًا من الجوارب الغارقة في الماء تمامًا. حدث ذلك بعد غروب الشمس. ارتفعت ألسنة النيران سريعة، جامحة. حضر أهالي القرية ليتجمعوا حول بيت النار، صاخبين بشدة. كان المطاط الطبيعي الذي اشتراه روبنسون يئز ويتصلب في وسط الكوخ، وذكرتني رائحته على نحو لا يقاوم بحريق شركة التليفونات الشهير، برصيف "جرينل"، الذي كنت قد شاهدته مع العم "شارل"، الذي كان يغني "الرومانس" على نحو رائع. جرى ذلك في العام السابق لمعرض باريس الكبير، عندما كنت لا أزال صغيرًا. لا شيء يدفع الذكريات إلى إظهار نفسها مثل الروائح وألسنة اللهب. كان كوخي يفوح برائحة مماثلة. رغم ابتلاله، احترق عن آخره، بمنتهى الصراحة والسلع أيضًا وكل شيء. سُوِّيت الحسابات. لمرة واحدة هدأت الغابة. صمت شامل. لا بد أن البوم والفهود والضفادع والببغاوات(29) قد انبهرت بما رأت. كان يلزمها ذلك لإثارة دهشتها، كما كانت الحرب بالنسبة إلينا. الآن، يمكن للغابة أن تعود لتطوي البقايا تحت عاصفة أوراقها. أما أنا، فلم أنقذ سوى متاعي التافة، السرير القابل للطي والثلاثمئة فرنك وبالطبع بعض علب الفاصوليا.. مع الأسف! من أجل الطريق.

(29) Papagaies – الاسم القديم للببغاوات. (المترجم)

بعد ساعة من الحريق، لم يكن قد تبقى من مثواي أي شيء تقريبًا. بعض الشرر تحت المطر وبعض الزنوج المتناثرين الذين كانوا ينبشون الرماد بأطراف حرابهم وسط هبات تلك الرائحة المصاحبة بإخلاص لكل النكبات،

رائحة لا مبالية بكل صور الاضطراب والحيرة في هذا العالم، رائحة الرماد التي ينبعث من الدخان.

حان وقت فراري.. سريعًا. هل أعود أدراجي إلى فور– جونو؟ هل أحاول الذهاب إلى هناك لتبرير سلوكي وإيضاح الظروف التي صاحبت هذه المغامرة؟ ترددت.. ليس طويلاً. لا تبرير لأي شيء. لا يعرف العالم إلا قتلك. كنائم يتقلب فوقك، هذا العالم، يقتلك كما يقتل نائم براغيثه. هذا هو ما سوف يكون الموت بحماقة بالغة، قلت لنفسي، أي مثلما يموت الجميع. إن الوثوق بالبشر شروع في الانتحار، على نحو ما.

قررت، رغم الحال التي كنت عليها، أن أقطع الغابة، أمامي في الاتجاه الذي اتخذه من قبل روبنسون هذا، أصل كل المصائب.

الفصل 17

المقطع الرابع عشر

في طريقي، كنت لا أزال أسمع جيدًا وكثيرًا حيوانات الغابة المفترسة بنواحها وارتجافاتها ونداءاتها، لكني لم أرها تقريبًا قط، ولا أضع في حسباني ذلك الخنزير البري الصغير الذي كدت أدهسه بقدمي مرة بجوار ملجئي. وبسبب هذه العواصف من الصراخ والعويل والمناداة، ربما ظن المرء أنها هنا قريبة جدًّا، تزمجر بالمئات والآلاف، تلك الحيوانات. إلا أنه بمجرد أن يقترب الواحد من موضع ضجيجها، لا يعود هناك شيء، في ما عدا تلك الدجاجات البرية الزرقاء السمينة، المرتبكة في ريشها، معربدة كأنها في حفلة عرس وشديدة الرعونة عندما تقفز وهي تسعل من غصن إلى آخر، حتى ليظن المرء أن حادثة قد وقعت لها توًّا.

أحط منها، في عطن الأعشاب النامية تحت الأشجار، فراشات بليدة وعريضة يحوطها السواد مثل بطاقات التعازي، ترتجف من مشقة فتح أجنحتها، وأهون من ذلك.. كنا نحن، ماضين في خوض الوحل الأصفر. لم نكن نتقدم إلا بشق الأنفس، خصوصًا أنهم كانوا يحملونني على نقالة، الزنوج، مصنوعة من أجولة خيطت من أطرافها.

بالطبع كان بإمكان الحمالين أن يلقوا بي إلى الماء بينما نجتاز أي موقع تتجمع فيه الأمطار. لماذا لم يقوموا بهذا أبدًا؟ أدركت السبب فيما بعد. أو لماذا لم يفعلوا أيضًا أن يلتهموني بما أن ذلك من عادتهم؟

من وقت إلى آخر، كنت أسألهم بلسان ثقيل، رفاقي هؤلاء، ودائمًا ما كانوا يجيبونني: نعم، نعم. باختصار لم يكون معارضين. رجال طيبون. عندما كان

الإسهال يمنحني فترة استراحة قصيرة، كانت الحمى تعاودني على الفور من جديد. كان أمرًا غير معقول كم صرت مريضًا على هذا النحو.

بل وبدأت بعدها لا أرى بوضوح تام، أو بالأحرى كنت أرى كل شيء باللون الأخضر. في الليل كانت كل وحوش الأرض تأتي لتحاصر مخيمنا، وكنا ساعتها نوقد نارًا. ومن هنا ومن هناك كانت صرخة تخترق رغم كل شيء خيمتنا السوداء الهائلة التي تخنقنا. إنه حيوان ذبيح تمكن رغم خوفه من البشر ومن النار من أن يشكو إلينا، هناك بالقرب منه جدًّا.

ابتداءً من اليوم الرابع لم أعد حتى أحاول تمييز الحقيقي من بين الأشياء العبثية التي تصورها الحمى والتي كان يتداخل بعضها في بعض برأسي في الوقت نفسه، مزقًا آدمية، شظايا وأطراف قرارات وإحباطات لا تنتهي.

لكن مع كل ذلك، فلا بد أنه كان موجودًا، ذلك الرجل الأبيض الملتحي الذي قابلناه ذات صباح فوق تلة من الأحجار عند ملتقى نهرين. هذا ما أقوله لنفسي اليوم عندما أتذكر ذلك. بل إني أذكر أن دويًّا هائلاً سُمع بالقرب من أحد الشلالات. كان رجلاً على شاكلة آلسيد، لكن في صورة رقيب إسباني. كنا قد مررنا منذ قليل، لكثرة ما مضينا من درب إلى آخر هكذا، كيفما اتفق، بمستعمرة "ريو ديل ريو"، ملكية قديمة من أملاك تاج قشتالة. كان هذا الإسباني عسكريًّا بائسًا يمتلك كوخًا أيضًا. لقد ضحك كثيرًا، على ما يبدو لي، عندما رويت له كل مصائبي وما فعلته بكوخي! أما كوخه، وهذا حقيقي، فقد بدا أفضل إلى حد ما، لكن ليس كثيرًا. أما عذابه الخاص، فقد كان النمل الأحمر. كانت أسرابه قد اختارت أن تمر، في هجرتها السنوية، عبر كوخه تحديدًا، تلك الحشرات اللعينة، ولم تتوقف عن المرور منذ شهرين بالفعل.

كانت تحتل المكان بأسره تقريبًا. وجدنا صعوبة في العودة، وفوق ذلك، كانت تقرص بقسوة إن أُزعجت.

كان سعيدًا للغاية لأني قدمت إليه بعض علب الفاصوليا لأنه كان لا يأكل سوى الطماطم منذ ثلاث سنوات. لم يكن لديّ ما أقوله. كان قد استهلك منها حتى الآن، كما قال لي، أكثر من ثلاثة آلاف علبة بمفرده. ولأنه قد سئم تحضيرها بطرق مختلفة، أصبح يزدردها الآن بأبسط الطرق، عبر ثقبين صغيرين يفتحهما في غطاء العلبة، على طريقة تناول البيض.

ما إن علم النمل الأحمر بالأمر، مسألة وجود علب طعام جديدة، حتى قام بحراسة علب الفاصوليا "الكاسوليه". كان من الضروري ألا نترك منها علبة واحدة مفتوحة، بلا حماية، فربما أدخل ساعتها جنس النمل الأحمر بكامله إلى الكوخ. ليس هناك أكثر منه شيوعية. ثم إنه ربما التهم الإسباني أيضًا.

علمت من مضيفي أن عاصمة "ريو ديل ريو" تسمى "سان تابيتا"، مدينة ومرفأ شهير على الساحل كله وحتى ما وراء ذلك، لتسليح وتموين السفن الشراعية ذات خطوط السير الطويلة.

كان الدرب الذي نسلكه يفضي إليها تحديدًا، كان هو الطريق إليها، يكفينا أن نواصل هكذا طوال ثلاثة أيام أخرى وثلاث ليالٍ. بغية علاجي من الهذيان، سألت هذا الإسباني إن كان لا يعرف عرضًا دواءً شعبيًّا ناجحًا قد يشفيني. كان رأسي يؤلمني.. يعذبني بفظاعة، غير أنه لم يرغب في سماع أي حديث يتعلق بهذه المخلوقات. بالنسبة إلى إسباني مستعمر كان الرجل كارهًا للأفارقة على نحو غير مألوف، إلى حد أنه كان يرفض استعمال أوراق شجر الموز في المرحاض وكان يحتفظ تحت يمينه بكومة كاملة من جريدة "أخبار استورياس" مقصوصة لهذا الغرض، خصوصًا. لم يعد يقرأ الجريدة هو الآخر، مثل آلسيد، تمامًا.

كان يعيش هنا منذ ثلاثة أعوام، وحيدًا مع النمل، بعض العادات البسيطة الغريبة وجرائده القديمة وفوق ذلك أيضًا مع لكنته الإسبانية المريعة هذه التي تجعله يبدو كأنه شخص آخر من فرط حدتها، كان من الصعب جدًّا إثارته.

عندما كان ينهر خدمه الزنوج مثلاً كان كالإعصار، بخصوص الصراخ لم يكن لآلسيد أي وجود مقارنةً به. انتهى بي الأمر إلى أن تنازلت لهذا الإسباني عن كل ما أملكه من "الكاسوليه". لشدة إعجابي به. عرفانًا بالجميل حرر لي جواز سفر رائعًا على ورق مبرغل خاص بجيش قشتالة يحمل توقيعًا رشيقًا متأنقًا جدًّا، حتى إن تنفيذه المتقن استغرق أكثر من عشر دقائق.

بالنسبة إلى "سان تابيتا"، كان ما قاله حقيقيًّا، كانت أمامنا على خط مستقيم، ولذا.. فلم يكن من الممكن أن نخطئها. لم أعد أعرف كيف وصلنا إليها، لكني متأكد من شيء واحد، هو أني قد وُضعتُ فور وصولي بين يدي قس بدا لي خَرِفًا هو الآخر، حتى إن إحساسي بوجوده إلى جواري قد رد لي نوعًا من الشجاعة النسبية. ليس لمدة طويلة.

كانت مدينة سان تابيتا تمتد بمحاذاة سفح مرتفع صخري في مواجهة البحر، وكانت خضراء بصورة مذهلة.. لا بد أن تراها لتدرك كيف. مشهد رائع، بلا شك، لو رأيتها من المرفأ. شيء باذخ مترف، من بعيد، لكن عن قرب لم تكن هناك إلا أجساد مرهقة، مثل الحال في "فور - جونو"، لا تنتهي هي الأخرى من التقيح والاحتراق. أما بالنسبة إلى زنوج قافلتي الصغيرة، فقد صرفتهم في أثناء فترة وعي قصيرة. كانوا قد قطعوا جانبًا كبيرًا من الغابة وكانوا يخشون على حياتهم عند العودة، كما قالوا لي. أبكاهم ذلك سلفًا عند وداعي، لكن القدرة على الرثاء لحالهم كانت تنقصني. كنت قد عانيت بأكثر مما يحتمل وتعرقت بأكثر مما يجب. لم يتوقف ذلك.

بقدر ما أتذكر، فإن كثيرًا من الكائنات الناعقة التي كانت تلك المنطقة تعج بها فعلاً، كانت تأتي ليلاً ونهارًا ابتداءً من ذلك الوقت لتتدافع متخبطة حول فراشي الذي نُصب خصوصًا في بيت القس، كانت وسائل الترفيه نادرة في "سان تابيتا". كان القس يحشوني بسوائل منقوع الأعشاب، صليب مذهب طويل يتأرجح فوق بطنه، ومن ثنايا ردائه كانت تتصاعد خشخشة قطع النقد

المعدنية، عالية، عندما يقترب من سريري. لكن لم يكن هناك مجال بعد ذلك للتحاور مع الناس، صارت التعتعة تستنزفني الآن بما يفوق احتمالي.

ظننت بالفعل أن الأمر قد انتهى، حاولت أن أرى مرة أخرى ما يمكن أن يراه المرء من هذا العالم عبر نافذة القس. إنني لا أجرؤ على الجزم بأني قد أستطيع اليوم أن أصف تلك الحدائق دون أن أقع في أخطاء فاحشة لا يمكن تصديقها. من الشمس، كان هناك الكثير، بكل تأكيد، بالمقدار نفسه، كل يوم، كأن مرجلاً كبيرًا كان مفتوحًا دائمًا أمام وجهك، ومن جهة أخرى كان هناك مزيد من الشمس أسفل منك، وهذه الأشجار الرعناء غريبة الشكل وممرات أيضًا، كثير من الممرات، وهذه الأنواع من الخس، الباهرة السامقة كأشجار البلوط، هذه الأنواع من الهندباء التي تكفي ثلاثة أو أربعة منها لتعادل شجرة كستناء جميلة من الأشجار المألوفة في بلدنا. أضف إلى ذلك ضفدعًا أو اثنين ثقيلي الحركة كالكلاب الإسبانيولية التي تجول يائسة من أجمة إلى أخرى.

تنتهي الكائنات والأوطان والأشياء إلى روائح. كل المغامرات تنطلق عن طريق الأنف. أغلقت عيني لأني لم أعد قادرًا فعلاً على فتحهما. حين ذاك، صارت رائحة إفريقيا الحادة، تخفت ليلة بعد أخرى. صار من الصعب عليَّ أكثر فأكثر أن أتعرف إلى مزيجها الثقيل من الأرض الميتة، رائحة ما بين السيقان والزعفران المسحوق.

الوقت يمر، يصبح ماضيًا، ثم مزيد من الوقت ثم جاء وقت تعرضت فيه لعدد من الصدمات والتحولات الجديدة ثم لهزات أكثر انتظامًا، كأنها هدهدات.

راقدًا، كنت لا أزال بالتأكيد، لكني حينذاك كنت راقدًا فوق شيء غير ثابت. استسلمت لحالة تراخٍ، وبعدها رحت أتقيأ ثم أستيقظ من جديد ثم أعاودُ النعاس. كنت في البحر. كنت أشعر بأني منهكٌ للغاية حتى إني وجدت بالكاد القدرة على تمييز الرائحة الجديدة للأحبال والقطران. كان الجو باردًا قليلاً في الركن المتأرجح الذي كنت مُكَومًا فيه تحت كوة مفتوحة على وسعها،

بالضبط. كنت متروكًا وحدي. الرحلة تتواصل بالطبع.. لكن أية رحلة؟ كنت أسمع وقع خطوات على السطح، سطح خشبي، فوق رأسي وبعض الأصوات والأمواج التي كانت تأتي لترتطم بجسم السفينة برفق ويذوب بعضها في بعض.

من النادر جدًّا أن تعود الحياة إلى سرير رجل مريض أينما كان، إلا في صورة خدعة قذرة. تُعد الخدعة التي دبرها لي أهل "سان تابيتا" واحدة منها. ألم يستغلوا حالتي ليبيعوني هاذيًا، كما كنت، إلى طاقم سفينة شراعية؟ سفينة جميلة، كانت حقًّا، أعترف بذلك، متعددة الأسطح، جيدة التسليح، تتوجها أشرعة أرجوانية بديعة، ذات مقدمة مذهبة، كل أماكنها المخصصة للضباط كانت مبطنة الجدران، سفينة كما يجب، تحمل مقدمتها لوحة رائعة مرسومة بزيت كبد سمك المورة تمثل الأميرة "كومبيتا" في زي رياضة البولو. كانت هذه الأميرة الملكية تشمل برعايتها، كما أفهموني بعد ذلك، باسمها، بنهديها، وبشرفها الملكي، السفينة التي كانت تقلنا. كان ذلك مثيرًا للزهو.

على أي حال، فكرت مليًّا في مغامرتي هذه، لو بقيت في "سان تابيتا"، لظللت مريضًا مثل كلب، وفسد كل شيء ولهلكت بالتأكيد لدى ذلك القس حيث تركني الزنوج.. هل أعود إلى "فور - جونو"؟ لم أكن لأفلت حينذاك من عقوبة "الخمسة عشر عامًا" المتعلقة بالحسابات.. على الأقل كان ثمة ما يتحرك هنا، وكان هذا يدعو إلى الأمل.. لنفكر في الأمر، كان قبطان "لانفانتا كومبيتا" هذا قد تجاسر قليلاً بشرائي، حتى بثمن بخس من كاهني عند إقلاع السفينة. لقد جازف بكل نقوده في تلك الصفقة، القبطان. كان من الممكن أن يفقد كل شيء.. كان قد راهن على الأثر الطيب النافع لهواء البحر في إنعاشي. كان يستحق مكافأته. كان سوف يربح، لأني كنت أتحسن بالفعل، ولقد وجدته سعيدًا بذلك جدًّا. كنت لا أزال أهذي كثيرًا، لكن بشيء من المنطق.. ابتداءً من الوقت الذي بدأت فيه أفتح عيني كان القبطان يأتي كثيرًا

ليزورني في ركني القذر بنفسه ومتحليًّا بقبعته ذات الريش. هكذا كان يبدو لي.

كان يستمتع كثيرًا برؤيتي أحاول النهوض قليلاً عن حصير فرشتي رغم الحمى التي ظلت تلازمني. ظللت أتقيأ. "هيا، تشجع، عما قليل، سوف يمكنك أن تجدف مع الآخرين، أيها الحقير!" قال لي متنبئًا. كان ذلك لطفًا منه، كان يقهقه ضاحكًا وهو يكيل لي ضربات خفيفة من عصاه، لكن بود كبير كان يفعل آنذاك، وعلى العنق، لا على الأرداف. كان يريد أن أستمتع أنا الآخر، أن أفرح معه بالصفقة الرابحة التي أبرمها بشرائي.

بدا لي طعام السفينة مقبولاً تمامًا. لم أتوقف عن التعتعة. سريعًا، استعدت ما يكفي من القوة كي أمضي لأجدف من وقت إلى آخر مع الرفاق، كما كان قد توقع القبطان. لكن حيثما كان هناك عشرة من الأصحاب كنت أرى مئة: غشاوة البصر.

لم نكن نتعب كثيرًا خلال هذه الرحلة البحرية، لأننا كنا نبحر معظم الوقت بالأشرعة. لم تكن حالنا في قاع السفينة أكثر بؤسًا وإرهاقًا من حال المسافرين العاديين في الدرجات الرخيصة في أحد القطارات يوم الأحد وأقل خطورة مما كابدته على ظهر "الأميرال براجيتون" عند قدومي. كنا نتعرض دومًا لرياح شديدة في ذلك العبور من شرق إلى غرب الأطلنطي. انخفضت درجة الحرارة. لم نشك من ذلك كثيرًا في باطن السفينة. وجدنا فقط أن الرحلة كانت طويلة قليلاً. بالنسبة إليَّ، كنت قد حظيت بما يكفي من مشاهد البحر والغابة إلى الأبد.

كنت أود لو سألت القبطان عن بعض التفاصيل بشأن مقاصد رحلتنا وأمور أخرى، لكن ما كدت أتحسن فعلاً حتى كف عن الاهتمام بأمر مستقبلي، فضلاً عن أني كنت لا أزال أهذي كثيرًا في حديثي رغم هذا، لم أعد أراه إلا عن بُعد، مثل أي صاحب عمل حقيقي.

على ظهر السفينة، شرعت أبحث بين العبيد المُجدفين عن روبنسون، وفي عديد من المرات، في قلب الصمت، كنت أناديه بصوت عالٍ. ما من أحد رد عليَّ إلا ببعض الشتائم والتهديدات: مجدفو السفينة.

مع هذا، فكلما تفكرت في تفاصيل وملابسات مغامرتي هذه، بدا لي محتملاً أنه قد تعرض هو الآخر لخديعة "سان تابيتا". غير أن روبنسون لا بد أنه كان الآن يجدف على ظهر سفينة أخرى. لا بد أن زنوج الأدغال كلهم كانوا ضالعين في التجارة والحيلة. "كلٌّ بدوره"، كان هذا هو النظام. لا بد أن يعيشوا ولا بد أن يأخذوا الأشياء والناس، الذين لا يأكلونهم مباشرةً، ليبيعوهم فيما بعد. كان لطف الزنوج النسبي تجاهي يتضح بأحط الطرق.

أبحرت "لانفانتا كومبيتا" طوال أسابيع وأسابيع أخرى بين أمواج الأطلنطي الهائجة ومن دوار بحر إلى نوبة حمى، ثم ذات مساء، هدأ كل شيء من حولنا. لم أعد أهذي. كنا ندور ببطء حول المرساة. في صبيحة اليوم التالي، أدركنا عندما فتحنا الكوى أننا قد وصلنا للتو إلى مقصدنا. كان مشهدًا فذًّا.

الفصل 18

المقطع الخامس عشر

كمفاجأة، كانت تلك واحدة بحق. عبر الضباب كان ما اكتشفناه بغتة مذهلاً تمامًا إلى حد أننا رفضنا أن نصدقه في البداية، ثم عندما كنا في مواجهة الأشياء تمامًا، رغم كل شيء، ومع كل العبودية التي كنا عليها فقد شرعنا في الضحك عاليًا، برؤية هذا، قائمًا أمامنا.

تصوروا، لقد كانت واقفة مدينتهم، واقفة بالفعل. نيويورك مدينة واقفة.. منتصبة. لقد رأينا مدنًا من قبل بكل تأكيد، ومدنًا جميلة أيضًا، وموانى. وحتى موانى شهيرة أيضًا. لكن في بلادنا، تكون هذه المدن مستلقية، على شاطئ البحر أو على الأنهار، ممتدة على المشهد الطبيعي، تنتظر المسافر، بينما كانت هذه المدينة، الأمريكية، غير غافية، غير مغشي عليها، مطلقًا، كانت تنتصب قائمة بصلابة، هنا، غير منحنية.. غير متدنية على الإطلاق، شامخة على نحو يدعو إلى الخوف.

ضحكنا إذًا من الموقف كالحمقى، كان ما نراه غريبًا بالطبع، مدينة مشيدة بعناد.. إلى الأعلى. لكن لم نكن نستطيع أن نضحك من هذا المشهد إلا ابتداءً من أعناقنا، بسبب البرد الآتي من عرض البحر في أثناء ذلك الوقت عبر ضباب كثيف رمادي ووردي وخاطف وقارس ينقض على سراويلاتنا وعلى شقوق هذا السور، على شوارع المدينة، حيث تغرق السحب أيضًا في مهب الريح. أبقت سفينتنا على أثر سيرها الناحل بمحاذاة الأرصفة تمامًا، هناك، حيث يأتي ماء أخضر مُصفر ليموت، يضج متخبطًا في رتل من الزوارق الصغيرة والقاطرات النهمة الزاعقة.

بالنسبة إلى شخص بائس رث الهيئة، لا يكون من السهل الوصول فجأة إلى أي مكان كان، غير أن الأمر يكون أكثر سوءًا بالنسبة إلى عبدٍ مُسخَّرٍ، خصوصًا أن أهل أمريكا لا يحبون مطلقًا عبيد السخرة القادمين من أوروبا. "كلهم فوضويون".. كما يقولون. باختصار، لم يرغبوا في أن يستقبلوا في بلادهم إلا غريبي الأطوار الذين يجيئونهم بالمال، لأن كل نقود أوروبا كانت من أبناء الدولار.

ربما كان بمقدوري أن أحاول اجتياز الميناء سباحةً، كما نجح في ذلك آخرون، وبمجرد وصولي إلى الرصيف أشرع في الهتاف: "عاش الدولار! عاش الدولار!" إنها حيلة مُجَربة. هناك كثير من الناس الذين وصلوا بهذه الطريقة وبعد ذلك كوّنوا بعض الثروات. هذا ليس مؤكدًا، هذا ما يُروى فقط. تحدث في الأحلام أشياء أسوأ بكثير من ذلك. عن نفسي، كان لدي تدبير آخر في رأسي والوقت نفسه بخلاف الحمى.

بما أنني كنت قد تعلمت أن أحصي بدقة عدد البراغيث (ليس الإمساك بها فقط، بل وأن أجري بها عمليات جمع وطرح، إحصاءات باختصار) حرفة دقيقة، تبدو بلا أهمية، لكنها تنطوي حقًّا على تقنية ما، أردت أن أستفيد منها. يمكن أن نقول بشأن الأمريكيين ما نشاء، لكن في ما يتعلق بالتقنية فإنهم من الخبراء. كانوا سيحبون طريقتي في عد البراغيث إلى حد الجنون، كنت متأكدًا من ذلك سلفًا. لم يكن ظني هذا ليخيب.. بحسب ما أرى.

كنت على وشك أن أقدم إليهم خدماتي، عندما صدر الأمر لسفينتنا فجأة بالتحرك لقضاء فترة الحجر الصحي في شرم مجاور، آمن، على مرمى السمع من قرية صغيرة مخصصة، في قلب خليج هادئ، على بعد ميلين إلى الشرق من نيويورك.

بقينا جميعًا هناك تحت الملاحظة طوال أسابيع وأسابيع، حتى إننا تعودنا بعض العادات. هكذا كان فريق التزود بالمياه يغادر السفينة كل مساء بعد وجبة

العشاء للذهاب إلى القرية. كان عليَّ أن أنضم إلى هذا الفريق لتحقيق أهدافي.

كان الرفاق يدركون جيدًا ماذا كنت أقصد من وراء ذلك، لكن هذه المغامرة لم تكن تستهويهم، رفاقي. "إنه مجنون، غير أنه ليس خطيرًا". هكذا كانوا يقولون عني. على ظهر "لانفانتا كومبيتا" لم يكن الطعام سيئًا، كانوا يتعرضون للضرب بالهراوة.. قليلاً، الرفاق. لكن ليس قليلاً جدًّا، وإجمالاً كانت الأمور مُحتملة. كان عملاً وسطًا. وفوق ذلك ميزة هائلة، لم يكن أحد ليصرفهم من السفينة أبدًا، بل إن الملك كان قد وعدهم بما يشبه معاشًا صغيرًا عندما يبلغون الثانية والستين. جعلهم هذا الأمل سعداء، أعطاهم شيئًا ليحلموا به، وفي أيام الأحد وحتى يشعروا بأنهم أحرار، كانوا يلعبون لعبة التصويت.

خلال الأسابيع التي فُرض فيها علينا الحجر الصحي، ظلوا يزمجرون كلهم معًا في قاع السفينة، يتشاجرون، ويتسافدون أيضًا بالتناوب. وأخيرًا فإن ما كان يمنعهم من الفرار معي، هو أنهم، بالأخص لم يرغبوا في أن يعرفوا أو يسمعوا شيئًا عن أمريكا هذه، التي كنت مولعًا بها، أنا. لكلٍّ وحوشه المرعبة.. بالنسبة إليهم كانت أمريكا عدوهم اللدود. بل إنهم حاولوا أن ينفروني منها تمامًا. وعبثًا أخبرتهم أني أعرف أشخاصًا في هذا البلد، جميلتي لولا من بين آخرين، التي لا بد قد صارت الآن بالغة الثراء، فضلاً عن الـ"روبنسون" بكل تأكيد، الذي لا بد أن يكون قد صنع لنفسه فيه مركزًا مرموقًا في دنيا الأعمال، لم يكونوا يرغبون في الرجوع عن كراهيتهم للولايات المتحدة، عن نفورهم، عن مقتهم: "إنك لن تتوقف أبدًا عن تلقي الصفعات" هكذا ردوا عليَّ. يومًا ما، تظاهرت بأني ذاهب معهم إلى صنبور القرية ثم أخبرتهم بأني لن أعود معهم إلى السفينة.. سلامًا!

الحقيقة أنهم كانوا فتية طيبين، شغيلة مُجدّين، كرروا عليَّ ثانيةً أنهم لا يوافقونني مطلقًا على تصرفي هذا، لكنهم يتمنون لي رغم ذلك، أن أتحلى بالشجاعة، الحظ الطيب والكثير من السعادة فوق ذلك، لكن على طريقتهم.

"هيا اذهب.. اذهب!" لكننا نحذرك مرة أخرى: "بالنسبة إلى شخص بائس مُقمل مثلك، فأنت مسكون بآراء خائبة! الحمى هي التي تخبلك وتجعل منك كلبًا وحشيًّا! لسوف تعود من أمريكتك وفي حالة أسوأ من حالتنا! إن أفكارك هي التي ستودي بك! أتريد أن تتعلم؟ أنت تعلم بالفعل أكثر بكثير مما يجب بالنسبة إلى من في وضعك!"

دونما جدوى حاولت أن أجيبهم بأن لديّ أصدقاء في هذا المكان، وأنهم كانوا ينتظرونني. كنت أتتعتع هاذيًا.

"أصدقاء؟" قالوا مستنكرين، "أصدقاء؟ لكنهم لا يأبهون بك أصدقاؤك هؤلاء! لقد نسوك منذ زمن طويل.. أصدقاؤك!"

"لكني، أريد أن أرى الأمريكيين!" أصررت بلا جدوى. "ثم إنهم يحظون بنساء لا توجد أمثالهن بأي مكان آخر".

"بل، لتعُدْ معنا إذًا أيها المغفل!" كان هذا ردهم "قلنا لك لا داعي للذهاب إلى هناك! سوف تصيب نفسك بالمرض بأسوأ مما أنت عليه الآن! سوف نخبرك نحن في الحال من هم الأمريكان! الأمريكي إما أن يكون مليونيرًا بحق أو جيفة قذرة بحق! لا يوجد وسط! المليونيرات، أنت لن تراهم بكل تأكيد، عند وصولك بحالتك هذه! لكن بالنسبة إلى الجيفة، فيمكنك أن تتوقع أنهم سوف يجعلونك تأكل منها! من هذه الجهة يمكنك أن تطمئن! وسوف يحدث هذا فورًا ولن يتأخر أبدًا".

هاكم كيف عاملني الرفاق. أغاظوني كلهم في النهاية هؤلاء الفشلة، هؤلاء الشواذ، أشباه الرجال. "اذهبوا عني جميعًا! إنها الغيرة التي تُسيل لعابكم وهذا كل ما في الأمر! لو تسبب الأمريكان في هلاكي، فسوف نرى ذلك! لكن من المؤكد أنهم مثلكم، إن ما بين أفخاذكم ليس سوى قطعة من الحلوى، وفوق هذا رخوة جدًّا!"

كان ردًّا صارمًا! أسعدني ذلك!

لأن الليل كان قد حل، فقد نودي عليهم بالصفير من السفينة. فأخذوا جميعًا في التجديف بانتظام، إلا واحد، أنا. انتظرت حتى لم أعد أسمعهم، على الإطلاق، ثم عددت حتى المئة وحينها عدوت نحو القرية بأقصى ما أستطيع. كانت مكانًا صغيرًا متأنقًا تلك القرية، جيدة الإضاءة، بيوتها الخشبية، التي كانت تنتظر أن يجري استخدامها، تصطف عن يمين وعن يسار كنيسة صغيرة هادئة تمامًا هي الأخرى، لكنني كنت أرتعد، حمى المستنقعات فضلاً عن الخوف. من هنا ومن هناك كان المرء يصادف بحارًا من هذا المعسكر الذي لم يكن يبدو أنه يبالي، بل وحتى بعض الأطفال ثم صبية جميلة مفتولة العضلات تمامًا: أمريكا! لقد وصلت. هذا ما يبهج الإنسان رؤيته بعد هذا القدر من المغامرات القاسية الخشنة. هذا ما يعيد إليّ الحياة مثل حبة فاكهة. كنت قد انتهيت إلى القرية الوحيدة التي لا فائدة من ورائها. حامية صغيرة من عائلات البحارة، تحافظ عليها وعلى كل منشآتها في حالة طيبة تحسبًا لليوم المحتمل الذي يصل فيه طاعون فاتك مسعور بواسطة سفينة مثل سفينتنا ويهدد الميناء الكبير.

عندئذٍ كان من المقرر أن يجري في هذه المنشآت التخلص من أكبر عدد ممكن من الأجانب حتى لا يصاب سكان المدينة الآخرون بأي شيء. بل لقد كانت لديهم مقبرة لطيفة جاهزة قريبة ومزروعة بالزهور في كل أنحائها. كانوا ينتظرون.. منذ ستين عامًا كانوا ينتظرون، كانوا لا يفعلون شيئًا سوى الانتظار.

ما إن عثرت على كوخ صغير خالٍ حتى انسللت إليه ونمت على الفور. وعندما طلع النهار لم يكن هناك في الأزقة إلا بحارة يرتدون سراويلات قصيرة، يتمايلون بأجساد رشيقة متناسقة، إلى حد مذهل، يكنسون ويرشون دلاء المياه حول مخبئي وفي كل مفارق طرق هذه المدينة النظرية. حاولت

عبثًا أن أحتفظ بمظهر بسيط لا مبالٍ، كنت أشعر بجوع شديد حتى إنني اقتربت رغم كل شيء من مكان ما كانت تفوح منه رائحة طهو الطعام.

في هذا المكان اكتُشِفَ وجودي ثم حوصرت بين جماعتين من الحراس مصممين تمامًا على التحقق من هويتي. كان من الوارد جدًّا أن يُلقى بي في الماء على الفور. مقتادًا على وجه السرعة أمام مدير الحجر الصحي، شعرت بأني لا أزال مشبعًا بالحمى حتى أجازف بارتجال بارع. ظللت بالأحرى أهذي، والقلب غائب.

كان من الأفضل أن أفقد الوعي. هذا ما حدث لي. وفي مكتبه الذي استعدت فيه وعيي بعد ذلك كانت بعض السيدات اللاتي يرتدين ملابس فاتحة قد حلت محل الرجال من حولي، تعرضت من ناحيتهن لمجموعة من الأسئلة الغامضة والمتسامحة التي أشاعت في نفسي الرضا. غير أن أي تسامح لا يدوم طويلاً في هذا العالم، وابتداءً من اليوم التالي شرع الرجال مرة أخرى في الحديث معي عن السجن. انتهزت أنا هذه الفرصة لأحدثهم عن البراغيث، هكذا، دون أن يبدو عليَّ ذلك.. أني كنت أجيد الإمساك بها.. أعدها.. أن تلك كانت حِرفتي وأني أعرف أيضًا كيف أجمع هذه الطفيليات في إحصاءات حقيقية. تأكدت من أن تصرفاتي كانت تثير اهتمامهم، تزعجهم.. حُراسي. كانوا يصغون إليَّ، لكن بشأن تصديقي فشتان بين هذا وذاك.

أخيرًا ظهر فجأة قائد المركز بنفسه. كان يدعى چنرال "سيرچيون"، وهو ما يمكن أن يكون اسمًا مناسبًا لنوع من السمك. بدا الرجل فظًّا، لكن أكثر حزمًا من الآخرين. "ماذا تقول لنا يا بني؟" سألني، "أتقول إنك تجيد إحصاء عدد البراغيث؟ آه." كان ينتظر أكذوبة كهذه حتى يربكني. غير أني بالمثل رحت أتلو عليه مرافعتي الصغيرة الخاصة التي كنت أعددتها لهذا الغرض. "أنا أومن بأهمية تعداد البراغيث! إنه أحد عناصر الحضارة، لأن معرفة عدد البراغيث هي أساس أهم البيانات الإحصائية. إن بلدًا تقدميًّا لا بد أن يعرف عدد براغيثه، موزعةً حسب الجنس، الفئة العمرية، السنوات والفصول".

"هيا، دعك من هذا! كفاك كلامًا أيها الشاب" قاطعني المدعو چنرال "سيرچيون"، "لقد جاءنا هنا من أوروبا قبلك كثير من أولئك المتجاسرين الذين حكوا لنا أكاذيب من هذا النوع، لكنهم في النهاية كانوا فوضويين مثل الآخرين، بل أسوأ من الآخرين، بل إنهم لم يعودوا يؤمنون حتى بالفوضوية! كفى مباهاة بنفسك! غدًا سيجري اختبارك على المهاجرين على جزيرة إيليس المواجهة لنا في إدارة الحمامات! ضابطي المرافق السيد ميستشيف، مساعدي، سوف يخبرني لو كنت قد كذبت عليَّ. منذ شهرين، يطالبني السيد ميستشيف بمساعد عدّاد براغيث. سوف تذهب إليه على سبيل التجربة! انصراف! وإن كنت قد خدعتنا سوف نلقي بك في الماء! انصراف! والويل لك إذًا".

تمكنت من الانصراف من أمام هذه السلطة الأمريكية كما كنت قد انصرفت من أمام كثير من السلطات الأخرى، مبرزًا له أسفل بطني ثم مؤخرتي، من خلال نصف دورة رشيقة، كل ذلك مصحوبًا بالتحية العسكرية.

فكرت في أن وسيلة الإحصاءات هذه لا بد أن تكون صالحة لتقريبي من نيويورك كأية طريقة أخرى. منذ اليوم التالي، أطلعني ميستشيف، الرائد المذكور، باختصار، على طبيعة عملي، سمينًا مصفر اللون، كان الرجل، وقصير البصر، بقدر ما أمكنه، ومع هذا كان يضع نظارة سوداء ضخمة. لا بد أنه عرفني بالطريقة التي تتعرف بها الحيوانات المفترسة إلى فرائسها، من المظهر العام، لأن التعرف إلى التفاصيل كان مستحيلاً بنظارة مثل التي يضعها.

تفاهمنا بلا عناء في ما يخص العمل، بل إنني أعتقد أن ميستشيف بات يُكن لي، قرب نهاية فترة تدريبي، كثيرًا من الود. إن عدم معاشرة الشخص تعد أولاً سببًا وجيهًا بالفعل للتعاطف معه، فضلاً عن أن طريقتي اللافتة للنظر في الإمساك بالبراغيث كانت تستهويه بصورة خاصة. في المحطة كلها لم يكن هناك من يناظرني، في وضع أكثرها جموحًا، أكثرها تسلحًا بالكيراتين، أكثرها تبرمًا، في العلب. كنت قادرًا على تصنيفها من حيث الجنس بالنسبة إلى

المهاجر نفسه. كان عملاً رائعًا، بوسعي أن أقول ذلك بالتأكيد. انتهت الحال بميستشيف إلى الاطمئنان تمامًا إلى براعتي.

قرب المساء، ولكثرة ما كنت قد سحقت من براغيث، تصير أظفار الإبهام والسبابة دامية، ولا أكون مع ذلك قد انتهيت من مهمتي، إذ يتبقى لي أيضًا شقها الأهم، أن أملأ أعمدة كشف التوصيف اليومي: براغيث بولندا في جانب، يوجوسلافيا، إسبانيا، قُمَّل العانة القادم من القِرم، جرب البيرو، كل ما يسافر خفية وكل ما يتطفل على البشرية الحائرة كان يمر بين أظفاري. كانت هذه، كما نرى، حِرفة دقيقة وعظيمة الشأن وقديمة في الوقت نفسه. كانت حساباتنا تجري في نيويورك، في إدارة خاصة مزودة بآلات كهربائية لعد البراغيث. كل يوم تعبر قاطرة الحجر الصحي المرسى بكامل عرضه لتحمل إلى هناك حساباتنا الواجب إجراؤها أو التحقق منها.

هكذا مضت أيام وأيام، استعدت شيئًا من الصحة، لكن كلما زايلتني الحمى وقل هذياني في أجواء الرفاهية هذه، عاودتني رغبة ملحة في المغامرة وفي تصرفات خرقاء جديدة. عند درجة 37 مئوية يصير كل شيء مملاً.

مع هذا، فقد تمنيت لو استطعت البقاء هنا، مطمئنًا إلى الأبد، مستمتعًا بالأكل في مطعم المركز، لا سيما أن ابنة الرائد ميستشيف، مزهوة بربيعها الخامس عشر، ما زلت أذكر ذلك، كانت تأتي بعد الخامسة لتلعب التنس، مرتدية تنورة قصيرة للغاية، أمام شباك مكتبنا. وفي ما يتعلق بالسيقان فنادرًا ما رأيت الأفضل.. لا تزالان ذكوريتين قليلاً، ومع هذا فمنذ الآن كانتا أكثر نحافة ورقة، جمالاً جسديًّا يتفتح.. تحريضًا حقيقيًّا على السعادة، على الصراخ من الفرح الموعود. لم يكن بعض فتيان مفرزة المركز يفارقونها إلا قليلاً.

لم يكن عليهم مطلقًا أن يبرروا مثلي سلوكهم بممارسة أعمال مفيدة هؤلاء الأنذال. لم يفتني أي من تفاصيل مناورتهم حول معبودتي الصغيرة. كان الامتقاع يصيبني عدة مرات في اليوم الواحد بسبب ذلك. انتهت بي الحال إلى

أن قلت لنفسي إني أنا الآخر قد أستطيع أن أبدو كبحار في الليل. كنت أداعب هذه الآمال عندما تلاحقت الأحداث ذات يوم سبت في الأسبوع الثالث والعشرين. كان الزميل المكلف برحلات الإحصاءات المكوكية، أرميني الأصل، قد رُقي فجأة إلى موظف "عداد البراغيث" في آلاسكا، مختص بكلاب المستكشفين والمنقبين عن المعادن.

من ناحية كونها ترقية مهمة، كانت بالفعل ترقية مهمة وقد أبدى سعادته بها. إن كلاب آلاسكا، في الحقيقة، كلاب ثمينة. هناك حاجة دائمة إليها. تجري العناية بها جيدًا. بينما لا يؤبه بالمهاجرين. هناك دائمًا فائض منهم.

بما أننا لم يعد لدينا أحد، ابتداءً من الآن فصاعدًا، تحت تصرفنا لنقل الإحصاءات إلى نيويورك، فإنهم لم يُبدوا الكثير من الممانعة في المكتب بشأن اختياري لتلك الوظيفة. رئيسي في العمل، ميستشيف، صافحني عند رحيلي وهو ينصحني بأن أكون عاقلاً تمامًا وأن أتصرف على نحو لائق في المدينة. كانت تلك آخر النصائح التي يسديها إليَّ هذا الرجل، ونظرًا إلى أنه لم يكن قد رآني مطلقًا فإنه لن يراني أبدًا. بمجرد أن لامسنا الرصيف انهمر فوقنا مطر كالإعصار ثم اخترق سترتي الخفيفة وفوق إحصاءاتي أيضًا التي أخذت في الذوبان تدريجيًّا في يدي. مع ذلك فقد احتفظت ببعضها في صورة ملف سميك يبرز من جيبي، لأبدو بقدر الممكن بمظهر رجل أعمال في المدينة، واندفعت نحو مغامرات جديدة يملؤني الخوف والانفعال.

عندما رفعت رأسي ناحية هذا الجدار الهائل كله، شعرت بنوع من الدوار المقلوب، بسبب النوافذ الكثيرة جدًّا بالفعل والمتشابهة جدًّا في كل مكان إلى حد يبعث على الغثيان.

مرتديًا ثيابًا لا تناسب الحال، أسرعت، مرتعدًا، نحو أكثر الشقوق التي يمكن تبيّنها في عتمة هذه الواجهة العملاقة، آملاً ألا يراني المارة وسطهم إلا بالكاد. خجل لا داعي له. لم يكن هناك ما يخيف. في الشارع الذي اخترته، الأكثر

ضيقًا من كل الشوارع الأخرى حقًّا، ليس أكثر اتساعًا من جدول كبير من جداول بلادنا شديدة القذارة في الحقيقة، شديد الرطوبة، تملأ جنباته الظلمة ويسلكه منذ تلك الساعة كثير من الآخرين، صغارًا وكبارًا، حتى إنهم جرفوني معهم كأني ظل، كانوا يصعدون مثلي إلى المدينة، ذاهبين إلى العمل دون شك، منكسي الرؤوس. هكذا هم الفقراء في كل مكان.

الفصل 19

المقطع السادس عشر

كما لو كنت أعرف إلى أين سوف أمضي، تظاهرت بأني ما زلت أختار وغيّرت طريقي، دخلت في شارع آخر على يميني، أفضل إضاءةً، "برودواي"، كان اسمه. قرأت الاسم على لوحة معدنية. فوق الطوابق الأخيرة بكثير، إلى الأعلى، تبقى بعض ضوء النهار ومعه بعض النوارس وقطع من السماء. كنا نتقدم نحو الضوء الذي يتراءى في الأسفل، ضوء عليل مثل ضوء الغابة ورمادي إلى حد أن الشارع كان يغص به كأنه خليط هائل من القطن القذر.

كان يبدو كجرح حزين، ذلك الشارع الذي لا ينتهي، ونحن في قلبه، نحن أيضًا، من جانب إلى آخر، من حزن إلى آخر، نسعى إلى نهايته التي لا تُرى مطلقًا، نهاية كل شوارع الدنيا.

لم تكن السيارات تمر فيه، لا شيء سوى الناس ومزيد من الناس.

كان هذا هو الحي الأهم، كما شرحوا لي فيما بعد، حي الذهب: مانهاتن. لا يدخله المرء إلا مشيًا على قدميه، كما في الكنيسة،كان قلب عالم اليوم الحنون.. في صورة بنك. ومع ذلك فد كان هناك من يبصقون على الأرصفة عند مرورهم فيه. يجب أن يكون المرء جريئًا ليُقدم على هذا.

إنه حي مليء بالذهب، معجزة حقيقية، بل ومعجزة يمكن سماعها من خلال الأبواب، عبر حفيف الدولارات التي تتداولها الأيدي، الدولار الرقيق دومًا بأكثر مما يجب، الروح القدس، الأغلى من الدم.

رغم كل ذلك، كان لدي الوقت للذهاب لرؤيتهم، بل إنني قد دخلت للتحدث مع هؤلاء الموظفين الذين كانوا يحرسون النقود. كانوا بائسين وهزيلي الأجور.

عندما يدخل المؤمنون إلى "بنكهم"، لا يجب أن نظن أنهم يستطيعون أن يغترفوا منه هكذا.. على هواهم. كلا إطلاقًا. إنهم يتحدثون إليه همسًا عبر حاجز شبكي، كأنهم يعترفون. ما من ضجة عالية، مصابيح ناعمة الإضاءة.. جدًّا، شباك صغير.. جدًّا بين قناطر عالية من الحجر، وهذا كل شيء. إنهم لا يتناولون القربان بأفواههم. إنهم يضعونه فوق قلوبهم. لم أستطع البقاء طويلاً متطلعًا إليهم في إعجاب. كان عليَّ أن ألحق بالمارة في الشارع بين جدران الظل الناعم.

فجأة، اتسع شارعنا مثل شق انتهى إلى غدير من النور. كنا هنا أمام بركة واسعة من ضوء النهار الأزرق الضارب للخضرة محاصرة بين بيوت وبيوت هائلة مخيفة. في قلب هذا البراح تمامًا، مبنى ريفي الطابع إلى حد ما، تحيطه مروج تعِسة.

سألت العديد ممن كانوا بجانبي في الحشد عما كان هذا المبنى الذي نراه، غير أن غالبهم تظاهر بأنه لا يسمعني. لم يكن لديهم وقت ليهدروه. على أي حال، تكرّم شاب كان يمر بالقرب مني جدًّا بتنبيهي لأن ذلك مبنى البلدية، أثر قديم من عهد الاستعمار، أضاف الفتى، كل ما كان هناك من معالم تاريخية.. كل ما تبقى هنا.. اتجه محيط هذه الواحة إلى الميدان، كانت هناك مقاعد، بل وكنا في وضع مناسب إلى حد بعيد للتطلع إلى دار العمودية جالسين. تقريبًا لم يكن هناك شيء آخر لنشاهده في ذلك الوقت الذي وصلت فيه.

انتظرت في المكان نفسه لأكثر من ساعة ثم لاح من شبه العتمة هذه، من هذا الحشد السائر، كئيبًا، متقطعًا، سيل مندفع من النسوة الفاتنات.

يا له من اكتشاف! أي أمريكا! أي فتنة هذه! تذكار من لولا! لم يكن مثالها قد خدعني! لقد كان حقيقيًّا.

كنت قد أصبت الصميم من رحلتي. ولو لم أكن قد عانيت في الوقت نفسه من نداءات أمعائي التي لا تنقطع لظننت أني قد بلغت واحدة من لحظات تجلّي الجمال الخارقة هذه. كانت الأشياء الجميلة، المتواصلة، التي اكتشفتها قد جعلتني، بشيء من الثقة ومن الراحة، راضيًا بوضعي الإنساني المزري. باختصار لم يكن ينقصني إلا "ساندويتش" حتى أومن بالمعجزة الكاملة. آه.. كم كنت أحتاج إلى هذا "الساندويتش".

يا لها من انعطافات رشيقة! يا لها من رقة لا تُصَدَّق! أية تجليات للتناغم! نجاح في النجاة من كل الأخطار! من كل الوعود الممكنة للوجه والجسد وسط هذا الكم من الشقراوات! هؤلاء السمراوات وهؤلاء الصهباوات كنساء لوحات تيتان! اللاتي كن يتدفقن على الساحة بأكثر مما كان أيضًا! قلت لنفسي إنها ربما بلاد الإغريق تُبعث من جديد! لقد وصلت في اللحظة المناسبة!

بدت لي هذه الأطياف إلهية بأكثر مما تكون النساء، حتى إنه لم يظهر عليها مطلقًا أنها قد لاحظت وجودي، أنا، هنا، بجوار هذا المقعد، هاذيًا تمامًا، يسيل لعابي من الإعجاب الغزالي - الصوفي الذي يبعثه الكينيون، ومن الجوع أيضًا.. ينبغي أن أعترف بذلك. لو كان ممكنًا أن يخرج المرء من جلده لخرجت أنا في تلك اللحظة تمامًا، مرة واحدة وإلى الأبد. ما كان لشيء أن يمنعني عن ذلك بعدها.

كان بوسعهن أن يذهبن بي، يسمون بي، بنات المدينة البسيطات الطائشات الخياليات هؤلاء، لم يكن عليهن إلا أن يأتين بحركة، أن يقلن أية كلمة، حتى أدخل في اللحظة نفسها وبكليتي عالم الأحلام، غير أن مهامًّا أخرى كانت لديهن بغير شك.

هكذا مرت عليَّ ساعة، ساعتان، في هذا الذهول. لم أعد آمل في شيء.

إنها حيلة الأمعاء، هل رأيتم في الأرياف كيف يجري الاستهزاء بالمتسولين؟ كيف يُملأ لهم كيس نقود قديم بأمعاء دجاجة متعفنة؟ حسنًا، فإن الإنسان، كما أقول لكم، مثل هذا الكيس تمامًا، أكبر حجمًا وقادر على الحركة، كما أنه طمّاع، ثم إن داخله حلمًا.

كان عليَّ أن أفكر في الأشياء الجادة، ألا أمس رصيدي النقدي الضئيل على الفور. لم يكن لديّ كثير من النقود. إنني لم أجرؤ حتى على إحصائها. كما أن ذلك لم يكن بمقدوري لو أردت، كنت أرى الأشياء مزدوجة. كنت أشعر بها فقط.. الأوراق المالية المذعورة.. هزيلة عبر القماش، قريبة جدًّا في جيبي مع إحصاءاتي التافهة.

كان بعض الرجال يمرون من هناك أيضًا، خصوصًا من الشبان، رؤوسهم كأنها من الخشب الوردي، نظرات جافة ورتيبة، فكوك سفلية لا يمكن أن يراها المرء مألوفة، عريضة جدًّا، خشنة جدًّا.. على أي حال، هكذا كانت نساؤهم يفضِّلنها بلا شك، الفكوك. بدا أن الجنسين كانا يمضيان كلٌّ من جهته في الشارع. لم تكن النساء ينظرن إلا إلى واجهات الحوانيت، مأخوذات بسحر حقائب اليد، الأوشحة، الأشياء الحريرية الصغيرة، المعروضة بأعداد قليلة جدًّا في كل الواجهات لكن بطريقة أنيقة، واضحة، في الوقت نفسه. لم يكن هناك كثير من كبار السن في هذا الحشد. قليل من الأزواج أيضًا. لم يكن يبدو على أحد أنه يجد غرابة في أن أظل أنا هنا، طوال ساعات، جالسًا بلا حراك فوق هذا المقعد مشاهدًا كل الناس يمرون أمامي. لكن في وقت ما أخذ الشرطي الواقف في وسط الطريق ثابتًا، كالمحبرة، في الاشتباه في أن لي نوايا غريبة. كان ذلك واضحًا.

أينما وُجد المرء، فالأفضل له أن يختفي وعلى وجه السرعة، بمجرد أن يلفت نظر السلطات إلى شخصه. قلت لنفسي: إلى المغارة!

إلى اليمين من مقعدي انكشفت تحديدًا فتحة، واسعة، فوق الرصيف رأسًا مثل فتحة المترو ببلادنا. بدت لي هذه الفتحة مناسبة، متسعة كانت، داخلها درج مصنوع بكامله من الرخام الوردي. كنت قد رأيت الآن كثيرًا من المارة يختفون داخلها ثم يخرجون منها. كان هذا هو السرداب الذي يذهب إليه الناس ليقضوا حاجتهم فيه. اتخذت قراري على الفور. من الرخام أيضًا كانت القاعة التي يجري فيها الأمر. شيء يشبه حوض السباحة، لكنه فارغ من الماء تمامًا، حوض سباحة عفن، مملوء فقط بنور متسرب خفيف، محتضر، كان يأتي ليموت هنا على ظهور الرجال المحلولة أزرار ثيابهم وسط روائحهم والمحمرة وجوههم جدًّا من جراء الدفع بقاذوراتهم أمام كل الناس، وما يصاحب ذلك من أصوات همجية.

هكذا يدور الأمر بين الرجال، بلا تكلف، وسط ضحكات كل المحيطين بالمكان، تصحبها هتافات تشجيع يتبادلونها كما هي الحال في كرة القدم. يخلع المرء سترته أولاً، عند وصوله، كأنه يقوم باختبار قوة. باختصار، كان المرء يضع الزي الرسمي، كان هذا هو الطقس المتبع.

ثم يجلسون في كهف البراز هذا، بلا أي احتشام، يتجشؤون ويفعلون ما هو ألعن، يشيرون كما لو كانوا في ساحة مجانين. وعلى القادمين الجدد بينما يهبطون درجات سلم الشارع أن يردوا على آلاف الدعابات الفاحشة، غير أنهم كانوا يبدون جميعًا مغتبطين على أي حال.

بقدر ما سلك الرجال، فوق الرصيف، بالأعلى، مسلكًا طيبًا بل وصارمًا وحزينًا، بقدر ما بدت فكرة حاجتهم إلى إفراغ أمعائهم في صحبةٍ صاخبة مُحرِّرة ًومُبهِجَةً بشدة.

كانت أبواب الكبائن الملطخة جدًّا تتدلى معلقة مخلوعة عن مفصلاتها. يمر المرء من كابينة إلى أخرى ليثرثر قليلاً، أما الذين كانوا ينتظرون مقعدًا خاليًا فكانوا يدخنون أنواعًا من السيجار الثقيل مربتين على أكتاف شاغله المنهمك

في مهمته، متشبثًا، متشنج الرأس، قابضًا عليه بين يديه. يتأوه كثير منهم، كالجرحى والنسوة في ساعات الولادة. أما المصابون بالإمساك، فكان ينتظرهم عذاب وأَيُّ عذاب.

عندما كان دفق الماء يعلن عن خلو مقعد ما، يتضاعف الصخب حول التجويف المتاح، الذي يجري الاقتراع عليه بلعبة "مَلك أم كتابة" في أغلب الأحيان. أما الجرائد، فما إن تُقرأ، ورغم أنها كانت في سُمك الوسائد الصغيرة، حتى يتقاسمها في التو رهط الكادحين بفتحات شروجهم هذه. يصعب تمييز الملامح بسبب الدخان. لم أجرؤ على الاقتراب منهم كثيرًا بسبب روائحهم.

كانت تلك المفارقة درسًا مفيدًا لإصابة أجنبي مثلي بالارتباك والذهول. كل هذا الابتذال الحميم، هذه الألفة المعوية الرائعة في الأسفل، وفي الشارع ذلك التكلف، هذه الصرامة التامة! أصابني ذلك بالدوار وظللت كذلك.

صعدت إلى النور على الدرج نفسه لأستريح على المقعد نفسه. قصف مفاجئ من نواتج الهضم ومن السوقية. اكتشاف شيوعية الغائط الراضية. أبقيتُ الجوانب المحيرة جدًّا لهذه المغامرة كلاً في مكانه.

لم تكن لديَّ القدرة على تحليلها ولا معرفة تركيبها. النوم هو ما كنت أرغب فيه بإلحاح. شغف عذب عزيز المنال!

وبناءً عليه، لحقت بصف من المارة الذين انخرطوا في واحد من الشوارع المفضية إلى الميدان ومضينا فيه قدمًا على نحو متقطع. بسبب المتاجر التي كانت كل واجهة عرض منها تستقطع جزءًا من الجمع. هناك انفتح باب أحد الفنادق محدثًا دوامة كبيرة. اندفع بعض الأشخاص إلى الرصيف من خلال الباب الدوار الواسع، أما أنا فقد انخطفت في الاتجاه المعاكس، إلى قلب البهو الفسيح داخل الفندق.

مذهل في البداية.. عليَّ أن أخمن ماهية كل شيء، أتخيل عظمة البناء، اتساع أبعاده، لأن الأمر كان يجري حول مصابيح شديدة الشحوب حتى إن المرء لا يعتادها إلا بعد فترة ما.

في هذه العتمة، كان كثير من الشابات، يغوص في أعماق مقاعد وثيرة، كأنهن جواهر في علب الحلي. على مقربة كان بعض الرجال اليقظين الصامتين يمرون على مسافة معينة منهن، فضوليين، متوجسين، قبالة صف السيقان المتربعة على مرتفعات حريرية خلابة. بدا لي أن هاتيك الفاتنات ينتظرن أحداثًا بالغة الأهمية وباهظة الكلفة. بالتأكيد لم أكن أنا الذي قد يهتممن به. هكذا مررت بدوري أمام هذا الصف الطويل من الغواية الحسية المتجسدة، بصورة خاطفة تمامًا.

وبما أنهن كن مئة على الأقل هاتيك الفاتنات الكاشفات عن سيقانهن وأذرعهن، منتظمات في صف واحد من المقاعد، فقد بلغت مكتب الدخول شاردًا للغاية، غارقًا في أحلامي، لكوني قد تشربت جرعة من الجمال تفوق احتمال طبيعتي الواهنة لدرجة أني كنت أترنح من وطئتها.

في المكتب، عرض عليَّ موظف مضمخ الشعر، بصفاقة، إحدى الغرف. كنت قد عزمت على اختيار أصغر غرفة بالفندق. لا بد أني لم أكن أملك في تلك اللحظة سوى نحو خمسين دولارًا، ولا مزيد من الأفكار تقريبًا ولا ثقة على الإطلاق.

تمنيت أن تكون الغرفة التي عرضها عليَّ الموظف أصغر غرفة بالفندق حقًّا، لأن فندقه "لاف كالفان"، كان يُرَوَّج له في الإعلانات بوصفه الأفضل تجهيزًا من بين أكثر الفنادق المفروشة فخامةً وترفًا بالقارة بكاملها.

أي عدد لا نهائي من الغرف المفروشة كان فوق رأسي! وبالقرب مني جدًّا، في تلك المقاعد، أية إغراءات متوالية بالاغتصاب! أية مهالك! أية مخاطر!

أيكون الجمال إذًا عذابًا لا ينتهي بالنسبة إلى الفقير؟ أكثر قسوة من جوعه؟ لكن ما من وقت للاستسلام له، كان موظفو المكتب، متعجلين، قد سلّموني بالفعل مفتاحًا ثقيلاً في يدي. لم أعد أجرؤ على الحركة.

خرج من الظل أمام عيني صبي يقظ نشيط، يرتدي زيًّا يجعل منه عميدًا صغير السن جدًّا، قائدًا آمرًا. دق الموظف الناعم ناقوسه المعدنى ثلاث مرات وأخذ صبينا المذكور في الصفير، تم التخلص مني. كان ذلك إيذانًا بالرحيل. انطلقنا.

عبر أحد الأروقة أولاً، مضينا مسرعين، حاسمين في الظلام كالمترو. كان الصبي يتولى القيادة. زاوية أخرى، منعطف ثم منعطف آخر. لم يطل الأمر. انعطفنا قليلاً في مسارنا. انتهى المشوار. ها هو المصعد. تعب مفاجئ. هل وصلنا؟ لا. رواق آخر. أكثر عتمة من سابقه، بدا لي أن جدران جانبيه كلها مكسوة بالأبنوس. لم يكن لديّ الوقت للتفحص. الصغير يصفر، حاملاً حقيبتي الهزيلة. لم أجرؤ على أن أسأله شيئًا. كان الواجب أن نمضي قدمًا، تأكدت من ذلك تمامًا. في طريقنا، وسط الظلمة هنا وهناك، كان مصباح أحمر أو أخضر يوصينا بشيء ما. خطوط ذهبية طويلة تزين الأبواب.

كنا قد تجاوزنا منذ وقت طويل رقم 1800 ثم الغرفة 3000، ونحن نمضي مع ذلك يجرفنا دومًا المصير المحتوم نفسه. كان الخادم الصغير المزين بالشرائط يلاحق المجهول في العتمة، كأنه مفطور على ذلك، لم يبدُ أن هناك شيئًا في هذه المغارة قد يداهمه بغتةً. عندما كنا نتجاوز واحدًا من الزنوج، إحدى خادمات الغرف، السوداء هي الأخرى، كان صفيره يرنم نغمة حزينة. هذا كل ما في الأمر.

بالمجهود الذي بذلته للإسراع في سيري، بامتداد هذه الأروقة المتماثلة، كنت قد فقدت القليل من رباطة الجأش التي تبقت لي عند هروبي من الحجر الصحي. تهرّأت، كما رأيت كوخي يتهرّأ من قبل تحت رياح إفريقيا وسط

سيول المياه الفاترة. من ناحيتي، كنت هنا في صراع مع طوفان من المشاعر غير المعهودة. هناك لحظة تقع بين طورين من أطوار الطبيعة البشرية، عندما يصل المرء إليها، فإنه يتخبط في الفراغ.

بغتةً، دار الفتى على عقبيه، دون سابق إنذار، كنا قد وصلنا للتو. ارتطمتُ بأحد الأبواب، كانت تلك حجرتي، علبة كبيرة جدرانها من الأبنوس، فوق المنضدة وحدها، قليل من الضوء يطوق مصباحًا مذعورًا مخضر اللون. "مدير فندق لاف كالفان يحيط النزيل علمًا بأنه يحظى بخالص مودته وأنه يأخذ على عاتقه، المدير، شخصيًّا، مسؤولية أن يظل النزيل سعيدًا مبتهجًا طوال مدة إقامته في نيويورك" لا بد أن قراءة هذا الإعلان، الموضوع بشكل لافت للنظر، قد أضيفت، إن كان ذلك ما زال ممكنًا، إلى قائمة أشجاني.

ما إن صرت بمفردي حتى بات الأمر أسوأ، جاءت أمريكا هذه كلها لتقض مضجعي، لتطرح عليَّ أسئلة عويصة هائلة، ولتطاردني هواجس سوداء، هنا في هذه الغرفة تحديدًا.

في الفراش، قلقًا، حاولت التآلف بدايةً مع شبه العتمة التي تسود المكان. كانت الحوائط ترتعد في زمجرة دورية من ناحية نافذتي، بسبب مرور المترو المعلق. كان ينقض في مواجهتي، بين شارعين، كالقذيفة، محشوًّا بأجساد مرتجفة، ومفرومة، متقافزًا عبر المدينة غريبة الأطوار من حي إلى آخر. كان يُرى من هناك ماضيًا ليهز هيكله فوق طوفان من الأعضاء البشرية، يظل صداه يتردد مدوّيًا بعيدًا خلفه من جدار إلى آخر، بعدما يكون قد أوصله بسرعة مئة كيلومتر في الساعة. وسط حالة الانحطاط الجسدي هذه، حانت ساعة العشاء ومن ثم ساعة النوم أيضًا.

كان هذا المترو الأهوج هو ما أذهلني على نحو خاص. على الجانب الآخر من تلك الحفرة التي تتوسط باحة صغيرة، أضاء الحائط بغرفة واحدة، ثم بغرفتين، ثم بعشرات الغرف. كان بإمكاني أن ألمح ما يجري بداخل بعضها..

أزواج يتأهبون للنوم.. يبدون متهالكين مثل الناس في بلادنا، الأمريكان، بعد ساعات الوقوف. للنساء أفخاذ مكتنزة للغاية، شاحبة للغاية، على الأقل مَنْ تمكنت من رؤيتهن بوضوح. أغلب الرجال يحلقون ذقونهم وهم يدخنون السيجار قبل النوم.

في الفراش كانوا، يخلعون نظاراتهم الطبية أولاً ثم أطقم أسنانهم ويضعونها في أحد الأكواب ثم يضعون الكل في مكان ظاهر. لم يظهر أنهم كانوا يتبادلون الحديث في ما بينهم، بين الرجال والنساء، مثلما يجري في الشارع تمامًا. يخالهم المرء حيوانات ضخمة مستأنسة جدًّا، معتادة جدًّا على الملل. من بين الجميع لم ألمح سوى زوجين يمارسان في النور ماكنت أتوقعه، وبلا شغف على الإطلاق. أما النساء الأخريات فكن يتناولن الحلوى (البونبون) في الفراش في انتظار أن يكمل الزوج هندامه. ثم يطفئ الجميع الأنوار.

منظر النائمين يبعث على الأسى، من الواضح أنهم لا يبالون بأن تجري الأمور على نحو ما يريدون، من الواضح أنهم لا يسعون إلى إدراك السبب في وجودنا في هذا العالم. الأمر سواء تمامًا بالنسبة إليهم. إنهم ينامون كيفما اتفق، إنهم شجعان، حمقى، وقحون، فاقدو الحساسية، أمريكان كانوا أم غير ذلك. إنهم مرتاحو الضمير دائمًا.

كنت قد رأيت من الأشياء غير الواضحة أكثر مما يجب حتى يشعر المرء بالرضا. كنت أعرف الكثير جدًّا منها ولم أكن أعرف بما يكفي. يجب أن أخرج، قلت لنفسي، الخروج مرة أخرى. ربما قابلته، "روبنسون". كانت فكرة حمقاء بالتأكيد لكني اتخذتها ذريعة لأخرج من جديد، فضلاً عن أني كنت أتقلب من جديد فوق سريري الصغير بلا جدوى، لكني لم أتمكن من اقتناص أصغر قسط من النعاس. حتى بالاستمناء، في حالات كهذه، لا يشعر المرء لا بالراحة ولا بالتسلية. حينذاك يكون اليأس حقيقيًّا.

الأسوأ من هذا هو أن نتساءل كيف سنجد في اليوم التالي ما يكفي من قوة لنواصل القيام بما قمنا به البارحة ومنذ زمن طويل جدًّا من قبل، وأين سوف نجد القوة لهذه التصرفات الحمقاء، هذه المشروعات الألف التي لا تسفر عن شيء، محاولات الخروج من هذا الاحتياج المُضني، محاولات مجهضة باستمرار، وتؤدي كلها إلى الاقتناع مرة أخرى بأن القدر غلَّاب، وأنه لا مفر من السقوط ثانيةً أسفل الجدار، كل ليلة، تحت وطأة كآبة ذلك الغد، الأكثر خسة دومًا والأقل أمانًا.

ربما كان العمر أيضًا هو الذي يتقدم، ذلك الغادر، ويتوعدنا بالأسوأ. لم يعد لدى المرء في داخله الكثير من الموسيقى ليجعل الحياة ترقص من حوله، هذا هو الأمر. ذهب كل الشباب ليموتوا الآن في آخر العالم وسط صمت الحقيقة. ثم إلى أين نمضي، أسألكم، بعدما لا يتبقى للواحد منا القدر الكافي من الجنون داخله؟ الحقيقة، إنها حالة احتضار لا تنتهي. حقيقة هذا العالم هي الموت. علينا أن نختار، الموت أو الكذب. أنا لم أستطع مطلقًا أن أقتل نفسي.

كان الأفضل والحال كذلك الخروج إلى الشارع، هذا الانتحار الصغير. لكلٍّ مواهبه الخاصة، طريقته في اجتذاب النعاس والحصول على الطعام. كان لا بد أن أتوصل إلى النوم حتى أستعيد ما يكفي من قوة لأكسب عيشي في الغد. استعادة النشاط، بقدر ما يلزم فقط للعثور على عمل ما في الغد ولأن أجتاز على الفور، في انتظار ذلك، ما يأتي به النوم من المجهول. لا يجب أن يُظن أن من السهل على الشخص أن ينام عندما يأخذ في الارتياب في كل شيء، خصوصًا بسبب كم المخاوف التي يتعرض لها.

ارتديت ملابسي، وكيفما اتفق وصلت إلى المصعد، لكني كنت أهذي قليلاً. كان عليَّ أن أعبر الردهة من جديد أمام صفوف أخرى، أمام ألغاز فاتنة أخرى ذات سيقان مغرية، ووجوه رقيقة وقاسية. باختصار كن إلهات، إلهات عاهرات مراودات. تمنيت لو أمكن أن نتفاهم، غير أني خفت أن يُقبض عليَّ.

مضاعفات لا أحتملها. رغبات الفقير كلها يمكن أن يُعاقَب عليها بالسجن تقريبًا. واستردني الشارع. لم يعد هناك الجمهور نفسه الذي كان موجودًا قبل قليل. هؤلاء الناس يبدون جريئين أكثر قليلاً وهم يموجون بطول الأرصفة، كما لو كانوا قد جاؤوا إلى بلاد أخرى أقل قحطًا، بلاد المرح، بلاد المساء.

كان الناس يمضون نحو الأضواء المعلقة على البُعد في الليل، ثعابين هائجة متعددة الألوان. يتدفقون من كل الشوارع المجاورة. جال بخاطري أنهم يأتون بكثير من الدولارات، جماهير كهؤلاء، لقاء المناديل فقط، مثلاً، أو الجوارب الحريرية! بل وحتى لقاء السجائر وحدها! ثم إن القول بأن الشخص بنفسه يمكنه أن يجول وسط كل هذه النقود، لا يعود عليك بقرش إضافي واحد، حتى من أجل الأكل! أمر محبط عندما نفكر فيه، إلى أي مدى حرَّمَ البشر بعضهم على بعض. كما حرّموا البيوت. أنا أيضًا كنت قد انجررت ناحية الأضواء، سينما، ثم أخرى إلى جوارها، ثم أخرى وهكذا على امتداد الشارع. كنا نفقد طرفًا كبيرًا من الناس أمام كل واحدة منها. اخترت عن نفسي إحدى دور السينما تحمل صورة نساء في ملابس داخلية، وسيقان.. أية سيقان! أفخاذ مكتنزة، يا سادة! مترعة! دقيقة! وفوق ذلك وجوه لطيفة كأنها مرسومة بالتباين بالقلم الرصاص، رقيقة، نحيلة، لا تحتاج إلى "رتوش"، رائعة، ما من خطأ، ما من إهمال، كاملة الجمال أقول لكم، وجوه لطيفة لكنها حازمة ومقتضبة في الوقت نفسه. كل ما يمكن للحياة أن تنشر من مباهج خطيرة، رعونة حقيقية للجمال، هذه التطفلات على المخلوقات الإلهية والتناغمات العميقة الممكنة.

كان الجو لطيفًا في هذه السينما، معتدلاً ودافئًا. أراغن ضخمة ناعمة عذبة الأنغام كأننا في كاتدرائية، لكنها ستكون حينذاك مُدفئة، أراغن كالأفخاذ. ما من لحظة ضائعة. نغوص تمامًا في الغفران الدافئ. ما كان علينا سوى أن نستسلم للاعتقاد بأن العالم ربما تحول أخيرًا لتوه إلى التسامح. كان هذا على وشك التحقق الآن.

عندئذٍ تصعد الأحلام في الليل لتمضي كي تتوهج في سراب الضوء المتغير. ما يدور على شاشة العرض، لم يكن حيًّا تمامًا، يظل فيه مكان كبير غامض، من أجل الفقراء، ومن أجل الأحلام ومن أجل الموتى. يجب الإسراع في التزود بالأحلام كي نتجاوز الحياة التي تنتظرنا في الخارج، عندما نخرج من السينما، لنستمر عدة أيام أخرى وسط بشاعة الأشياء والبشر هذه. من بين الأحلام يختار المرء أفضل ما يدفئ الروح. بالنسبة إليَّ، أعترف بذلك، كانت الأحلام الخليعة. لا يجب أن يفخر المرء بذلك، يأخذ المرء من المعجزة ما يستطيع أن يعيه منها في ذاكرته. على الشاشة رأيت شقراء كانت تحظى بنهدين وعنق لا يمكن نسيانها تأتي لتقطع صمت الشاشة بأغنية تتعلق بوحشتها. كدنا نبكي معها.

هذا هو المفيد! أية حيوية تمنحك! كان لديَّ بعد ذلك، كنت أشعر به منذ الآن، ما يكفي يومين على الأقل من الحيوية في جسدي. لم أنتظر حتى إلى أن تضاء القاعة من جديد. كنت مستعدًا لكل حلول مشكلات النوم الآن وقد تشربت قليلاً من نشوة الروح الرائعة هذه. عند عودتي إلى "لاف كالفان"، على الرغم من أني قد حييته، تجاهل البوّاب أن يتمنى لي مساءً طيبًا، كما يفعل البوابون في بلادنا، لكني لم أكن أبالي الآن باحتقاره. إن حياة داخلية قوية تكتفي بذاتها وسوف تذيب عشرين عامًا من الجليد الطافي على السطح. هكذا يكون الأمر.

في غرفتي، وما كدت أغلق عينَي حتى جاءت شقراء السينما لتغني لي من جديد وعلى الفور ولي وحدي ساعتها كل أغاني أشجانها. وقد ساعدتها، إن جاز التعبير، في تهدئتي، في تهيئتي للنعاس، ولقد نجحت في ذلك إلى حدٍّ كافٍ، فلم أعد بمفردي تمامًا.. مستحيل أن ينام المرء وحيدًا.

الفصل 20

المقطع السابع عشر

ليأكل المرء في أمريكا طعامًا رخيصًا، يمكنه أن يبتاع لنفسه رغيفًا صغيرًا ساخنًا وبداخله قطعة من النقانق، إنه يفي بالحاجة، ويباع على نواصي الشوارع الصغيرة، وغير مكلف على الإطلاق. تناول الطعام في أحياء الفقراء لم يكن يزعجني مطلقًا بكل تأكيد، لكن ألّا أصادف قط تلك المخلوقات البديعة المخصصة للأغنياء، فهذا ما صار محزنًا بالفعل. لا يستحق الأمر حينذاك حتى عناء الأكل.

في "لاف كالفان" كان لا يزال بإمكاني أن أتظاهر، فوق هذه السجاجيد السميكة، بالبحث عن شخص ما وسط سيدات البهو رائعات الجمال، بالتجاسر شيئًا فشيئًا على جوهن المرح المريب. عندما أفكر في الأمر أعترف لنفسي بأن الآخرين، ركاب "لانفانتا كومبيتا"، كانوا على حق، أدركت هذا، بالتجربة، أدركت أني كرجل بائس، لم تكن لدي طباع جادة. حسنًا فعلوا زملاء السفينة بتوبيخي. مع هذا فلم تعاودني الشجاعة أبدًا. صحيح أني كنت أمضي لأتزود بجرعات وجرعات من السينما، من هنا وهناك، لكن ذلك يكفي بالكاد لأسترد ما يلزمني من حيوية لنزهة أو نزهتين لا أكثر. في إفريقيا كنت قد عرفت بالتأكيد نوعًا من الوحشة القاسية إلى حد كبير، لكن العزلة في خلية النحل الأمريكية هذه كانت تأخذ منحنى أشد وطأة أيضًا.

كنت أخشى دائمًا أن أكون خاويًا تقريبًا، ألا يكون لديَّ إجمالاً أي مبرر قويّ للوجود. صرت الآن متأكدًا، أمام الحقائق، من ضعتي وعدميتي كشخص. في هذا الوسط المختلف إلى أبعد الحدود عن الوسط الذي كانت لي فيه عادات حقيرة، كنت أشعر بأني أذوب. شعرت بأني قريب جدًّا من العدم، بكل

بساطة. هكذا، اكتشفت الأمر، بمجرد التوقف عن التحدث معي بشأن الأشياء المألوفة، لا يعود هناك ما يمنعني من الغرق في حالة لا تقاوم من السأم، نمط متكلف اللطف، في كارثة روحية مروعة. حالة تثير الاشمئزاز.

على وشك أن أفقد دولاري الأخير في هذه المغامرة، كنت لا أزال أشعر بالضيق، وذلك على نحو عميق حتى إني رفضت مراجعة أكثر التدابير إلحاحًا. إننا، بالطبيعة، في غاية التفاهة، حتى إن الغفلة واللهو والتسلية وحدها التي تستطيع حقًّا أن تحول بيننا وبين الموت. وعن نفسي فقد تعلقت بالسينما بولع يائس.

عند خروجي من ظلمات فندقي المجنونة، كان من عاداتي أن أقوم أيضًا ببعض الجولات بين شوارع الجوار الراقية، مهرجان ساخر ممل من بيوت تعاني الدوار. تفاقم إعيائي وسأمي أمام جسامة الواجهات هذه، هذه الرتابة التي تفيض ببلاط الشوارع، بالطوب الأحمر بالقرميد وبالمقاعد إلى ما لا نهاية وبالمتاجر ثم متاجر أخرى، آفة العالم هذه، التي تسطع بالإعلانات المغرية والمتقيحة. مئة ألف أكذوبة خرفة.

من جهة النهر، جُلت بأزقّة أخرى، ثم مزيد من الأزقة، التي صارت أبعادها متواضعة إلى حد كبير، أي أنه ربما كان بالإمكان مثلاً، من فوق الرصيف الذي كنت أقف فوقه، تكسير كل ألواح الزجاج في البناية المواجهة له.

كانت روائح قلي مستمر تسيطر على هذه الأحياء، لم تعد الحوانيت تعرض بضائعها في الخارج بسبب السرقات. كل شيء يذكِّرني بالمناطق المحيطة بالمستشفى الذي كنت فيه بمنطقة "ڤيل جويف"، حتى الأطفال الصغار ذوي الركب الضخمة الملتوية المتسكعين بامتداد الأرصفة وعازفي الأرغن الجوالين أيضًا، كان بإمكاني طبعًا أن أبقى هناك معهم، غير أنهم لم يكونوا ليطعموني أيضًا هؤلاء الفقراء الذين عرفتهم دومًا، ثم إن بؤسهم الشديد كان يخيفني. وبناءً عليه عدت أدراجي في نهاية الأمر إلى الحي الراقي. "يا لك من

نذل! قلت لنفسي ساعتها. الحقيقة أنك رجل بلا نخوة!" يجب أن يسلّم المرء بأنه يعرف نفسه أفضل قليلاً يومًا بعد آخر، منذ اللحظة التي تنقصك فيها الشجاعة للتخلص مما تتباكى عليه نهائيًّا.

هناك خط ترام يمتد بمحاذاة ضفة نهر "الهدسون" ماضيًا نحو وسط المدينة، مركبة قديمة ترتجف بكل عجلاتها وهيكلها المذعور. تستغرق أكثر من ساعة لتكمل مسار رحلتها. يخضع ركابها بلا تبرم لطقس معقد لدفع النقود من خلال آلة تشبه مطحنة بن تعمل بالعملة النقدية، موضوعة في مدخل العربة تمامًا. المفتش يراقبهم وهم ينفذون التعليمات مرتديًا زيًّا خاصًّا مثل أحد مفتشينا، زي "أسرى رجال الميليشيا البلقانيين".

أخيرًا، كنت أصل، مرهقًا، كنت أمر ثانيةً في طريق عودتي من جولاتي الشعبية هذه أمام صف مزدوج ولا ينضب من فاتنات بهو الإغراء المُعَذِّب، ثم أعود فأمر من جديد متشوقًا، غارقًا بأحلامي باستمرار.

بلغت فاقتي حدًّا لم أعد أجرؤ معه على تفتيش جيوبي كي أتحقق. عسى ألّا تكون لولا قد اختارت هذه اللحظة لتغيب! قلت هذا لنفسي.. وفضلاً عن ذلك، هل ترغب في استقبالي أولاً؟ هل أذهب لأقترض منها خمسين أو حتى مئة دولار كبداية؟ ترددت، شعرت بأني لن أتمالك كل قواي وحيويتي إلا بعد أن أكون قد أكلت ونمت جيدًا، مرة أخيرة.

بعد ذلك، إذا نجحت في عملية الابتزاز الأولى هذه، سوف أشرع من فوري في البحث عن روبنسون، أي منذ اللحظة التي أكون قد استعدت فيها ما يكفي من قوة. لم يكن شخصًا من نوعي.. روبنسون هذا! لقد كان حازمًا، على الأقل! رجلاً شجاعًا! آه! لا بد أنه قد عرف أسرارًا وأشياء عن أمريكا! ربما كان يمتلك وسيلة ما ليكتسب هذا اليقين، هذه الطمأنينة التي كانت تنقصني كثيرًا.

لو كان قد وصل إلى هنا في سفينة شراعية هو الآخر، كما أتصور، ووطئ هذا الشاطئ قبلي بكثير، فمن المؤكد أنه في هذه الساعة كان قد أوجد لنفسه مكانة أمريكية! لم يكن لضجيج هؤلاء الحمقى اللامبالي ليزعجه.. روبنسون! وبالتفكير في الأمر جيدًا، ربما استطعت أنا أيضًا البحث عن وظيفة ما في واحد من هذه المكاتب التي كنت أقرأ لافتاتها البراقة بالخارج.. غير أن فكرة أن عليَّ الدخول في إحدى هذه الدور كانت تصيبني بالرعب وتذيبني خجلاً. فندقي كان يكفيني. هذه المقبرة هائلة الحجم والمزدحمة الصاخبة على نحو مبالغ فيه.

قد لا يكون لهذا التكدس من المادة ومن التجاويف التجارية على المترددين على المكان الأثر نفسه على الإطلاق الذي يتركه عليَّ؟ هذه التنظيمات الهيكلية التي لا نهاية لها؟ ربما كان يعني لهم الأمن كل هذا الطوفان المؤجَّل في حين لم يكن بالنسبة إليَّ سوى منظومة تعسة من القيود، من الطوب الأحمر، من الردهات، الأروقة، الأقفال، شبابيك العمل، آلة تعذيب معمارية ضخمة لا يمكن التكفير عنها.

التفلسف ليس إلا طريقة أخرى للشعور بالخوف، وهو لا يؤدي إلا إلى أوهام خادعة.

عندما لم أعد أملك سوى ثلاثة دولارات في جيبي، مضيت لأشاهدها تتململ في راحة يدي، دولاراتي الثلاثة، في ضوء أحد إعلانات "تايمز سكوير"، هذه الساحة الصغيرة المدهشة حيث تنضح أنوار الدعاية فوق الجموع المشغولة باختيار إحدى دور السينما. بحثت لنفسي عن مطعم رخيص بالفعل وقد وصلت إلى إحدى قاعات الطعام العامة التي تقتصر فيها الخدمة على الحد الأدنى والتي يبسط فيها العرف الغذائي ليوافق الاحتياج الطبيعي ليس أكثر.

بدايةً من المدخل، توضع صحفة بين يديك وتمضي لتأخذ دورك في الصف. انتظر. جاراتي، شديدات اللطف المتقدمات مثلي للعشاء لا ينبسن لي

بكلمة.. "لا بد أن لهذا أثرًا غريبًا" قلت لنفسي، عندما يمكنك أن تقترب هكذا من إحدى هاتيك الآنسات ذوات الأنوف الدقيقة والأنيقة وتقول لها: "آنستي، أنا رجل ثري، ثري جدًّا.. أخبريني بما يرضيكِ أن تقبليه مني".

حينئذٍ يصبح كل شيء سهلاً على الفور، ربانيًّا، بلا شك، كل ما كان شديد التعقيد من قبل.. يتغير كل شيء والعالم المعادي بضراوة يأتي فورًا ليتدحرج عند قدميك كقطة مداهنة مخادعة، طيعة وناعمة كالمخمل. قد نتخلى ساعتها عن عادتنا المرهقة في التهويم بأفكارنا حول الأشخاص الناجحين، الحظوظ السعيدة، ما دام يمكننا أن نلمس بأيدينا كل هذا. إن حياة المحتاجين ليست سوى حالة حرمان مستمر داخل حالة جنون مستمر ولا يعرف المرء حقًّا، كما لا يتخلص إلا مما يملكه. بالنسبة إليَّ، ولكثرة ما أخذت وتخليت عن أحلام، فقد كان وعيي في مهب الريح، متصدعًا بألف شق، مضطربًا على نحو مثير للاشمئزاز.

في أثناء ذلك، لم أجرؤ على أن أبدأ مع شابات المطعم هاتيك أبسط الحوارات وأكثرها براءة. كنت أمسك بصحفتي، صامتًا، شديد الرزانة. وعندما جاء دوري في المرور أمام الإناء الخزفي العميق المملوء بالبودان(30) والفاصوليا أخذت كل ما قدموه إليَّ. كانت قاعة الطعام هذه نظيفة للغاية، جيدة الإضاءة للغاية، إلى حد أن المرء ليشعر كأنه يطفو فوق سطح بلاطها الفسيفسائي، كذبابة على سطح اللبن.

(30) نوع من السجق. (المترجم)

عاملات الخدمة، اللاتي يشبهن الممرضات، يقفن خلف أواني المعكرونة، الأرز، الفاكهة المسكرة. لكل منهن تخصصها. ملأت الصحفة بما كنَّ يوزعنه الأكثر لطفًا من بينهن. مع الأسف لم يكنَّ يبتسمن للزبائن. ما إن يحصل المرء على وجبته كان عليه أن يذهب ليجلس في هدوء وأن يترك المكان لشخص آخر. كنا نمشي عبر قاعة عمليات جراحية. كان الأمر بالنسبة إليَّ

تغييرًا عن أجواء فندق "لاف كالڤان" وغرفتي الصغيرة المكسوة بالأبنوس المؤطر بالذهب. لكن إذا كانوا يحتفون بالزبائن هكذا بكل هذه الأنوار الغامرة، إذا كانوا يقتلعوننا لمدة ساعة من الليل المعتاد لطبقتنا، فقد كان ذلك جزءًا من خطة ما.. لغاية في نفس المالك. ساورتني الريبة. بعد كل هذه الأيام من العتمة، يكون لذلك وقع غريب عليك، أن تغمرك فجأة سيول من الضياء.

عن نفسي، سبب لي ذلك نوعًا لطيفًا من الهذيان الإضافي. لم أكن أحتاج إلى الكثير منه، هذا حقيقي.

لم أتمكن من إخفاء قدميّ، تحت الطاولة الصغيرة التي رسوت عليها؛ امتدتا رغمًا عني في جميع الاتجاهات. تمنيت كثيرًا أن تكون قدمَيّ الآن في مكان آخر، لأننا كنا مراقبين، من الجهة الأخرى للواجهة الزجاجية، من قِبل الناس المصطفين الذين كنا قد تركناهم لتوّنا في الشارع. كانوا ينتظرون أن ننتهي، نحن، من طعامنا، حتى يأتوا ليجلسوا بدورهم إلى الموائد. بل إنه لهذا الغرض ولأجل الإبقاء على شهيتهم مفتوحة كنا قد وُضعنا تحت كل هذه الأضواء وأُظهرنا بهذا الشكل، بوصفنا دعاية حية. استأثرت حبات الفراولة التي كانت تكسو فطيرتي بكثير من انعكاسات النور البراقة، حتى إني لم أتمكن من أن أقرر التهامها.

لا يمكن النجاة من التجار الأمريكان.

من وسط دوار هذه النيران المتأججة وهذا الإحراج، لمحت رغم كل شيء، في جوارنا المباشر، كل روحات وغدوات خادمة ظريفة جدًّا، وعزمت على ألا تفوتني لفتة واحدة من لفتاتها الأخاذة.

عندما حان دوري لتبدل صحني، تعرفت بوضوح إلى شكل عينيها اللتين كانت زاويتاهما الخارجيتان أكثر حدة بكثير، أكثر صعودًا من مثيلاتهما لدى النساء

في بلادنا. الجفنان أيضًا كانا يتماوجان نحو الحاجبين من جهة الأصداغ، على نحو طفيف جدًّا. إنها القسوة باختصار، لكن بالقدر اللازم فقط، قسوة يمكن احتواؤها، مرارة دفينة خلابة مثل مرارة أنبذة نهر الراين، ممتعة رغمًا عنها.

عندما صارت على مقربة مني، أخذت أومئ إليها ببعض إشارات التواصل، إن جاز لي القول، كما لو أني كنت أعرفها. تأملتني دون أي تعاطف كما تفعل البهائم وإن كان ذلك بشيء من الفضول على أي حال. قلت لنفسي: "ها هي، أول أمريكية تجد نفسها مضطرة إلى التطلع إليَّ".

بعد أن أتيت على فطيرتي البراقة، كان عليَّ بالطبع أن أتخلى عن مكاني لشخص آخر. حينها، وبدلاً من أن أتبع الطريق المحدد بدقة الذي يفضي إلى الخارج مباشرةً، تجرأت، مترنحًا بعض الشيء، وتجاهلت الرجل الجالس إلى الخزينة الذي كان ينتظرنا جميعًا ومعنا مالنا، توجهت ناحية الشقراء، مبتعدًا، بكل غرابة، وسط شلالات الضوء المُسيطر.

أشارت إليَّ الخمس والعشرون نادلة في مواقعهن خلف الأشياء التي تُطهَى على نار هادئة، كلهن في الوقت نفسه، بأني قد أخطأت الطريق، بأني قد ضللت. في الواجهة الزجاجية، لمحت هياجًا كبيرًا لأشباح الناس الذين كانوا ينتظرون خلفي وهؤلاء الذين عليهم أن يشرعوا في تناول الطعام والمترددين في الجلوس. كنت قد خرقت لتوي نظام العمل. تعجب كل من حولي من تصرفي علانيةً: "إنه أجنبي آخر على الأقل!" هكذا كانوا يرددون.

لكن، كانت لدي فكرتي، مهما كلفت، لم أعد أرغب في الافتراق عن الجميلة التي كانت تخدمني. لقد نظرت إليَّ، هذه الجميلة، تبًّا لها. لقد مللت الوحدة! لا أحلام! لا تعاطف! لا تواصل! "آنستي، أنتِ لا تعرفينني إلا بأقل القليل، غير أني أحبك منذ الآن بالفعل، هل تريدين أن نتزوج؟" بهذه الطريقة ناديتها متسائلاً، أكثر الطرق تهذيبًا.

لم يصلني ردها أبدًا، لأن عملاقًا من الحراس، يرتدي زيًّا أبيض هو الآخر، ظهر في هذه اللحظة تحديدًا ودفعني خارجًا، عن حق، ببساطة، بلا سباب، بلا عنف، في الليل، ككلب نسي للتو نفسه.

جرى كل شيء على نحو معتاد، لم يكن لديَّ ما أقوله.

توجهت ثانيةً إلى "لاڤ كالڤان".

في غرفتي كانت الصواعق نفسها تأتي دائمًا لتحطم الصدى، مندفعة كالأعاصير، صواعق المترو أولاً الذي يبدو كأنه انطلق نحونا من بعيد جدًّا، وفي كل مرور له كان يحمل كل قناطره ليحطم بها المدينة، فضلاً عن أنه في غضون ذلك، كانت أصوات نفير متنافرة لبعض الآلات تصعد من الشارع.. من أسفل سافلين، ثم هذه الضجة الرخوة أيضًا للجماهير المضطربة، المترددة، الرتيبة دائمًا، الآخذة دائمًا في رحيل جديد، ثم في التردد مرة أخرى، وفي العودة. هشيم البشر المهروس في المدينة.

من الأعلى حيث كنت، كان بالإمكان طبعًا الصراخ عليهم وتعنيفهم بكل ما نريد. حاولت ذلك. كانوا جميعًا يثيرون اشمئزازي. لم أكن أملك جرأة أن أقول لهم ذلك في أثناء النهار، عندما كنت في مواجهتهم، لكن من هنا، حيث كنت، صحت فيهم، غير مجازف بشيء: "النجدة! النجدة!" لا لشيء إلا لأرى إن كان ذلك يؤثر فيهم. ما من أثر. كان الناس يدفعون الحياة أمامهم والليل والنهار. الحياة تخفي عن الناس كل شيء. وسط ضجيجهم لم يكونوا يسمعون شيئًا. لا يبالون. وكلما كانت المدينة كبيرة ومرتفعة زادت لامبالاتهم. لقد حاولت. أؤكد لكم. لا داعي.. فلا جدوى.

الفصل 21

المقطع الثامن عشر

من أجل أسباب مالية فقط، لكن كم كانت ماسة وملحة، كنت قد أخذت في البحث عن لولا! لولا هذه الحاجة الداعية إلى الرثاء، كم كنت تركتها لتشيخ وتختفي دون أن أراها مجددًا أبدًا صديقتي العاهرة الصغيرة! خلاصة القول أنها قد تصرفت تجاهي بأكثر الأساليب الوقحة خِسة، وعند التفكير في الأمر، لم يعد ذلك يبدو لي موضع شك.

إن أنانية الأشخاص الذين تدخلوا في حياتنا، عندما نفكر فيهم، حين يتقدم بنا العمر، تبدو أمرًا لا جدال فيه، على نحو ما كانت، أقسى من الفولاذ ومن البلاتين وأكثر ثباتًا ودوامًا أيضًا من الزمن نفسه بكثير.

في فترة الشباب يمكن أن نجد، لأكثر صور عدم الاكتراث جفاءً، لأكثر صور الفظاظة وقاحةً، أعذارًا من النزوات العاطفية فضلاً عما لا أعرفه أيضًا من إشارات رومانطيقية تفتقر إلى الخبرة. لكن فيما بعد، عندما تكون الحياة قد أظهرت لك بوضوح كل ما يمكن أن تتطلبه من مراوغة ودهاء، من شراسة، من خبث لمجرد أن تُحفظ تقريبًا عند درجة 37 مئوية، يعاين المرء بنفسه، يتبين، يكون في وضع يمكِّنه من إدراك كل السفالات التي يضمها ماضٍ ما. يكفي أولاً وأخيرًا أن يتأمل المرء ذاته بدقة وما آل إليه من جهة السفالة والتدني. لا ألغاز بعد اليوم، لا أسرار، لا بلاهة، لقد استهلك كل شاعريته بما أنه قد عاش حتى ذلك الحين يدرك أنها لا تساوي شيئًا هذه الحياة، لا شيء.

بكثير من العناء انتهت بي الحال إلى العثور عليها، صديقتي الفظة الصغيرة، في الطابق الثالث والعشرين من بناية تقع في شارع اسمه السابع والسبعين.

أمر لا يصدق. ما يستطيع أن يصيبك به من إحباط هؤلاء الذين يتأهب المرء ليسألهم معروفًا. فاخر الأثاث كان مسكنها وعلى المستوى الذي تخيلته تمامًا.

لأني كنت مشرَّبًا بجرعات من السينما فقد وجدت نفسي متيقظ الذهن تقريبًا، خارجًا من حالة التهالك الشديد التي كنت أتخبط فيها منذ هبوطي نيويورك، وكان اللقاء الأول أقل مما توقعته، بل إنها لم تبدُ مطلقًا أنها شعرت بدهشة شديدة لأنها رأتني من جديد، لولا، بعض الضيق فقط عندما تعرّفت إليَّ.

حاولت على سبيل التمهيد أن أبدأ ما يشبه حديثًا غير هادف مستعينًا بموضوعات من ماضينا المشترك، وذلك بالطبع في عبارات حذرة بقدر الممكن، مشيرًا من بين موضوعات أخرى، لكن دونما إلحاح، إلى الحرب بوصفها حدثًا عَرَضِيًّا. هنا كنت قد ارتكبت خطأ فادحًا. لم تعد لولا تريد أن تسمع شيئًا عن الحرب إطلاقًا. ذلك يزيد في عمرها. ممتعضة، صاعًا بصاع، أخبرتني بأنها لم تكن لتعرفني مطلقًا في الشارع، لشدة ما جعّدني العمر بالفعل، ورّمني، شوهني. كنا قادرين على الإتيان بمثل هذه المجاملات. إذا كانت تلك السافلة الصغيرة تتصور النيل مني بترهات كهذه، فإنني لم أكن حتى لأتنازل بتصويب تلك الوقاحات الدنيئة.

لم يكن أثاث بيتها يحظى بأية أناقة لافتة غير متوقعة، لكنه مع ذلك كان مبهجًا، مقبولاً، على الأقل قد بدا لي كذلك عند الخروج من "لاق كالقان".

الوسيلة، تفاصيل تكوين ثروة سريعة، تعطيك دومًا انطباعًا ساحرًا. منذ صعود "ميوزين" والسيدة "هيروت"، كنت أعرف أن المؤخرة هي منجم الذهب الصغير بالنسبة إلى الفقير. هذه التغيرات النسوية المفاجئة كانت تخلب لبي ولربما منحت دولاري الأخير مثلاً لبوّابة منزل لولا لمجرد أن أحملها على الثرثرة.

غير أن منزلها كان بلا بوّابة. المدينة بأسرها كانت تفتقر إلى البوّابات. مدينة بلا بوّابات هي مدينة بلا ماضٍ، بلا مذاق، مدينة ماسخة مملة، مثل حساء بلا ملح ولا فلفل، طعام رديء لا شكل له. أوه! فتات أحاديث شهية! فضلات! خبث راشح من مخادع النوم، من المطابخ، من العلّيات، تتقاطر في شلالات عبر غرفة البوابة، في صميم الحياة، أي جحيم ممتع! تُستَهلك بعض البوابات في بلادنا في وظيفتهن، نراهن شبه صامتات، ساعلات، شهيات الحديث، ذاهلات، ذلك لأن الحقيقة قد أصابتهن بالخبل هاتيك الضحايا، أنهكتهن.

في مواجهة فظاعة كون الواحد فقيرًا، من الواجب، لنعترف بذلك، هذا فرض، أن نجرب كل شيء، السُّكر بأي شيء كان، بالنبيذ، بالنبيذ الرخيص، بالاستمناء، بالسينما. لا يسع المرء أن يتمتَّع، أن يكون "شخصًا خاصًّا" كما يقال في أمريكا. بواباتنا يمنحْن، ولنتفق على ذلك، لمن يعرف كيف يستقبلها ويدفئها بالقرب من قلبه، كراهيةً لكل شيء ومجانًا، كافيةً لنسف عالم بكامله. بنيويورك، يجد المرء نفسه محرومًا بشدة من هذه التوابل الحيوية، الحقيرة والحية، التي لا يمكن ردّها، ودونها تختنق الروح ويُقضى عليها بعدم النم إلا على نحو مبهم وألا يغمغم إلا بوشايات لا رونق لها. من دون بوّابة، ليس هناك ما يلدغ، يجرح، يشق، يشغل البال، يتسلط. ويأتي ليضيف إلى الكراهية الكونية بكل يقين، يشعلها بآلاف التفاصيل التي لا يمكن إنكارها.

كانت حيرة لولا، التي بوغتت في عقر دارها، هي ما جعلني بالأحرى أشعر حقًّا بنفور جديد منها، انتابتني الرغبة في التقيؤ على سوقية نجاحها، على عجرفتها، المبتذلة والبغيضة فقط لكن بماذا؟ بتأثير عدوى فورية، صارت ذكرى "ميوزين" في اللحظة نفسها عدائية تمامًا وبغيضة هي الأخرى. تولدت داخلي كراهية سريعة لهاتين المرأتين، لا تزال باقية، وامتزجت بمبرر وجودي. كنت أحتاج إلى عملية توثيق كاملة حتى أتخلص في الوقت المناسب وإلى الأبد من أي تسامح حالي أو تالٍ مع لولا. لا يعيد المرء صنع حياته.

لا تقوم الشجاعة على الغفران، إننا نصفح دائمًا بأكثر مما يجب! ولا فائدة من هذا، لقد أقيم الدليل على ذلك. إذا كنا نضع الخادمة في آخر الصف (تعني الطيبة أو الخيِّرة في الفرنسية)، بعد كل البشر! فلأن لذلك سببًا. علينا ألا ننسى ذلك أبدًا. سيكون من الواجب تخديرهم فعلاً، ذات مساء، الناس السعداء، في أثناء نومهم، صدقوني، والخلاص منهم ومن سعادتهم مرة واحدة وإلى الأبد. في اليوم التالي لن نعود للكلام عن سعادتهم وسوف نكون أحرارًا في أن نكون تعساء بقدر ما سوف نريد في الوقت نفسه مثل "الخادمة". لكن، لنعد إلى لولا. كانت تروح وتغدو إذًا عبر الغرفة، شبه عارية، بدا لي أن جسدها ما زال رغم كل شيء مرغوبًا إلى حد كبير. إن جسدًا مترفًا يظل دومًا مشروع اغتصاب محتملاً، اقتحامًا ثمينًا، مباشرًا، حميمًا لصميم الروعة، الترف، وبلا كرة أخرى يُخشى منها.

ربما لم تكن تنتظر إلا بادرة مني حتى تصرفني. على كل حال فقد كان ذلك الجوع الكافر هو ما ألهمني الاحتراس. الأكل أولاً. فضلاً عن أنها لم تكن لتنتهي من رواية تفاهات حياتها. لو لم تعد هناك أكاذيب لنرويها، لكان من الضروري أن نوقف العالم خلال جيلين أو ثلاثة على الأقل. لن يكون لدينا ما نقوله لبعضنا، أو تقريبًا كذلك. لجأت إلى سؤالي عن رأيي في بلادها.. أمريكا. أخبرتها أني قد وصلت فيها إلى هذا الحد من الوهن والانقباض الذي أصبح فيه كل شيء وكل شخص تقريبًا مخيفًا بالنسبة إليَّ، وفي ما يخص بلادها فإنها بكل بساطة كانت ترعبني أكثر من جميع الأخطار المباشرة، الخفية وغير المتوقعة التي واجهتها فيها، خصوصًا باللامبالاة الهائلة تجاه شخصي التي تعبِّر عنها بإيجاز من وجهة نظري.

كان عليَّ أن أكسب قوت يومي، أخبرتها مرة أخرى، وأنه لا بد لي إذًا أن أتغلب في فترة قصيرة على كل هذه العواطف المتكلفة. بل إنني كنت في هذا الشأن متأخرًا إلى حد كبير، وأكدت لها امتناني العميق إن تفضلت بالتوصية عليَّ عند أحد أصحاب الأعمال المحتملين من معارفها، لكن على أن

يكون ذلك في أقرب وقت. إن راتبًا شديد التواضع سيكفيني تمامًا، وكثير أيضًا من العبارات الرقيقة والحماقات الأخرى التي رويتها لها. لم تتلقَّ لولا بترحاب الاقتراح المتواضع وإن بدا مع ذلك متطفلاً. على الفور بدت لولا باعثة على الإحباط. لم تكن تعرف إطلاقًا أي شخص يمكنه أن يوفر لي عملاً أو يقدم إليَّ أية خدمة. هكذا كان ردها. وأعدنا، كرهًا، الحديث عن الحياة على نحو عام ومن ثم الحديث عن حياتها على نحو خاص.

كنا منصرفين إلى مراقبة بعضنا هكذا نفسيًّا وجسديًّا عندما رن جرس الباب، ثم بلا تمهيد تقريبًا ولا تمهل دخل إلى الغرفة أربع سيدات، متبرجات، ناضجات، لحيمات، مكسوات بالعضلات والحلي، مألوفات كثيرًا من صاحبة البيت. باقتضاب شديد قُدمت إليهن، حاولت لولا، محرجة جدًّا (كان ذلك واضحًا)، أن تسحبهن إلى مكان آخر، لكنهن أخذن، منزعجات، في الاستحواذ على انتباهي كلهن معًا، ليروين لي كل ما كن يعرفنه عن أوروبا. أوروبا، الحديقة القديمة المكتظة بمجانين عفا عليهم الزمن، شهوانيين وجشعين. ورحن يُعدن غيبًا رواية كل ما يعرفنه عن ملهى "الشابانيه(31)" ومقابر "ليزانڤاليد(32)".

(31) Le Chabanais، ماخور شهير يقع بالبناية رقم 12 في شارع يحمل الاسم نفسه. (سيرد ذكره لاحقًا قرب نهاية الرواية). (المترجم)

(32) Les invalids الجنود المتقاعدون (المترجم).

عن نفسي لم أكن قد زرت هذين المكانين. الأول باهظ أكثر من اللازم، الآخر بعيد أكثر من اللازم. على سبيل الرد انتابتني نوبة وطنية تلقائية مضجرة، أكثر غباءً أيضًا مما يحضرك في مناسبات كهذه. أجبتهن منفعلاً أن مدينتهن كانت تثير أعصابي، وأنها عبارة عن سوق، معرض فاشل، قلت لهن، ومع ذلك فإنهم كانوا يكابرون ويعاندون لإنجاحه.

فيما كنت سادرًا هكذا في خطابتي المُسهِبَة في الحيلة والمصطلحات، لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أُدرك بوضوح أكثر أن هناك أسبابًا أخرى غير حمى المستنقعات لحالة الانهيار البدني والنفسي التي شعرت أنها تثقل كاهلي. كان الأمر يتعلق فضلاً عن ذلك بتغير في العادات، كان لا بد أن أتعود من جديد التعرف إلى وجوه جديدة في وسط جديد، طرقًا أخرى للحديث والكذب. يكاد الكسل يكون في مثل قوة الحياة. سخافة المسرحية الهزلية التي يجب أن تلعبها تستحقك وباختصار، كي تبدأ من جديد، فإن ما يلزمك من الجبن يفوق ما يلزمك من الشجاعة. هذا هو المنفى، البلد الأجنبي، هذه المراقبة الصارمة للوجود الإنساني كما هي فعلاً خلال تلك الساعات التي يصفو فيها الذهن، الاستثنائية في مجرى الزمن البشري، التي تنسحب منك فيها عادات البلد السابق، دون أن تكون العادات الأخرى، الجديدة، قد خبّلتك بعد بما يكفي.

في هذه الأوقات يأتي كل شيء ليضاف إلى بؤسك النَكِد ليرغمك، واهنًا، على تبين الأشياء والأشخاص والمستقبل كما هي، أي هياكل عظمية، هباء لا غير، لا بد لك مع ذلك من أن تحبها، تتمسك بها، تدافع عنها، تبعث فيها الروح كما لو كانت موجودة.

بلد آخر، أناس آخرون حول المرء، مضطربون بطريقة غريبة بعض الشيء، تتبدد لديك بعض الأباطيل الصغيرة الطائشة، بعض الزهو الذي لم يعد يجد مبررًا لوجوده، أكاذيبه، صداه المألوف، والذي لا تحتاج إلى المزيد منه، رأسك يدور والشك يغريك، وينفتح اللانهائي لك وحدك فقط، لا منتهى تافهًا يدعو للسخرية وتسقط أنت داخله.

السفر هو السعي وراء ذلك اللاشيء على الإطلاق، ذلك الدوار الخفيف الذي ينشده الحمقى.

ضحكن كثيرًا، زائرات لولا الأربع عند سماعي أعترف هكذا في صخب عالٍ وأمثل دور "چان چاك روسو" أمامهن. أوسعنني سبابًا فهمته بالكاد بسبب التشوهات الأمريكية، في لهجتهن العذبة والفاحشة.

قطط مثيرات للعواطف.

عندما دخل الخادم الزنجي ليقدم الشاي توقفنا عن الحديث.

لا بد أن واحدة من هاتيك الزائرات كانت لديها مع ذلك قدرة على التمييز أكثر من الأخريات، لأنها أعلنت بكل صراحة أني كنت أرتجف من الحمى وأني لا بد أعاني عطشًا غير عادي. رغم ارتجافي فقد راقتني تمامًا تلك الوجبة الخفيفة التي قُدمت إليَّ. تلك الشطائر أنقذت حياتي، يمكنني أن أقول ذلك.

تلا هذا حديث عن المزايا المقارنة لبيوت المتعة الباريسية دون أن أكلف نفسي عناء الانخراط فيه. كانت هؤلاء الفاتنات لا يزلن يتذوقن الكثير من أنواع المشروبات الكحولية معقدة الأسماء، ثم أصبحن تحت تأثيرها متحمسات تمامًا وراغبات في البوح، واحمرَّ لونهن عند الحديث عن بعض "الزيجات". رغم أني كنت مأخوذًا للغاية بالمأدبة فإني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن ألاحظ على نحو عابر أن الأمر كان يتعلق بحالات زواج شديدة الخصوصية، بل لا بد أنه كان يتعلق بحالات اقتران بين أشخاص صغار السن جدًّا، بين أطفال كن ينلن عمولات عليها.

لاحظت لولا أن تلك الموضوعات قد جعلتني شديد الانتباه والفضول. تفرست في وجهي بقسوة. توقفت عن الشراب.

الرجال الذين عرفتهم لولا هنا، الأمريكان، لم يكونوا يرتكبون الخطايا مثلي بدافع الفضول، مطلقًا. ظللت بشيء من العناء في حدود مراقبتها. كنت أرغب في أن أطرح على هاتيك السيدات ألف سؤال وسؤال.

أخيرًا انتهى الأمر بالمدعوات إلى مغادرتنا، ثقيلات الحركة، منتشيات بالكحول ومنتعشات جنسيًّا. امتلأن بهجة في حين كن يسهبن في حديث جنسي أنيق وغير محتشم على نحو غريب. استشعرت هنا شيئًا ما يعود إلى العصر الإليزابيثي(33)، وتمنيت أنا أيضًا لو شعرت باهتزازاته، المتكلفة والمركزة بالتأكيد، في طرف عضوي. غير أن الاتحاد البيولوچي، الحاسم خلال سفرة ما، تلك الرسالة الحيوية، ظل أمرًا راود قلبي فقط، مع الأسف الشديد طبعًا والأسى المتزايد. كآبة لا شفاء منها. ما إن اجتزن الباب، الصديقات، حتى بدت لولا، منهكة بالفعل. لم يرقها ذلك الفاصل الترفيهي على الإطلاق.

(33) نسبةً إلى الملكة إليزابيث الأولى ملكة المملكة المتحدة. (المترجم)

"يا لهن من خبيثات!" قالت متبرمة بعد عدة دقائق.

"من أين تعرفتِ إليهن؟" سألتها.

"إنهن صديقات العمر".

لم تكن مستعدة لمزيد من البوح في الوقت الحاضر.

بناءً على أسلوبهن المتعجرف إلى حد كبير تجاهها، بدا لي أن هاتيك السيدات كن يتقدمنها في مجال بعينه بل وسلطة كبيرة بما يكفي، سلطة لا جدال بشأنها. لم يكن ينبغي لي أن أعرف المزيد بشأن ذلك.

تحدثت لولا عن الذهاب إلى المدينة، لكنها عرضت عليَّ أيضًا البقاء بمسكنها في انتظارها وأن آكل في الوقت نفسه قليلاً إن كنت لا أزال أشعر بالجوع. ولأني كنت قد غادرت "لاڤ كالڤان" دون أن أسوّي حسابي ودون نية العودة إليها أيضًا، لأسباب وجيهة، كنت راضيًا تمامًا بالتصريح الذي منحتني إياه، ما زال أمامي بضع ساعات من الدفء قبل أن أمضي لأواجه الشارع، وأي شارع يا أصدقائي.

ما إن صرت بمفردي حتى توجهت عبر طرقة صغيرة إلى المكان الذي رأيت خادمها الزنجي يخرج منه. في منتصف الطريق إلى المطبخ تقابلنا وصافحته. قادني إلى مطبخه، مطمئنًا، مكان جميل منظم جيدًا، أكثر تناسقًا وأناقة عما كان الصالون.

على الفور، أخذ في البصق أمامي على بلاط المطبخ الرائع، وفي البصق كما يعرف الزنوج وحدهم كيف يبصقون، بعيدًا، غزيرًا، وبإتقان. بصقت أنا أيضًا، من باب المجاملة، لكن كيفما استطعت. ومباشرةً دخلنا في أحاديث البوح. كانت لولا -كما علمت منه - تملك عوامة على النهر، سيارتين على الطريق، قبوًا وداخله مشروبات كحولية من كل بلاد العالم. إنها كانت تتلقى "كتالوجات" من متاجر باريس الكبرى. وهكذا.. طفق يكرر عليَّ بلا توقف هذه المعلومات السريعة الموجزة نفسها. توقفت عن الإصغاء إليه.

غافيًا إلى جواره، عاودتني ذكريات الأوقات الماضية، تلك الأوقات التي فارقتني فيها لولا بباريس زمن الحرب. تلك المطاردة، التطويق، الفخ، ميوزين، كثيرة الكلام، الكاذبة، المراوغة، الأرجنتينيون، سفنهم الملأى باللحوم. "توبو"، الحشود المرسلة للموت بميدان كليشي، روبنسون، الأمواج، البحر، البؤس، مطبخ لولا ناصع البياض، خادمها الزنجي، واللاشيء، وأنا بداخله مثل لا شيء آخر. يمكن لكل شيء أن يستمر. كانت الحرب قد أحرقت البعض، وأدفأت آخرين، مثل نار عذاب أو راحة، بحسب موقعك منها داخلها أو أمامها. على المرء أن يتدبر أموره بنفسه. هذا كل ما في الموضوع.

من الحقيقي أيضًا ما قالته عن كوني تغيرت كثيرًا. الحياة، تعصرك، تكسرك وتسحق كرامتك. لقد سحقت كرامتها هي الأخرى ولكن بدرجة أقل، أقل بكثير. الفقراء متفوقون. الفقر عملاق، يستخدمك ليمسح بكرامتك أوساخ العالم كما لو كانت خرقة للغسيل.

تظل الأوساخ باقية.

أظن مع ذلك أني قد لاحظت شيئًا جديدًا في لولا. لحظات انقباض، كآبة، فجوات في غبائها المتفائل، لحظات يجب على المرء أن يتمالك نفسه فيها لينقل خبرته في الحياة إلى موقع أبعد قليلاً، من سنواته الخانقة الآن رغمًا عنه للبهجة التي ما زال يحملها داخله، شاعريته اللعينة.

فجأة أخذ خادمها الزنجي في التقلقل في مكانه. عاوده الأمر. بوصفي صديقًا جديدًا، كان ينوي أن يشبعني حتى الكِظّة بالحلوى ويغمرني بالسيجار. لينهي وصلة الكرم، أخرج من أحد الأدراج، باحتراس شديد، كتلة مستديرة من الرصاص.

"القنبلة!" نعق في وجهي صارخًا. تراجعت. صاح في جذل "ليبرتا! ليبرتا!"

أعاد كل شيء إلى مكانه وبصق بزهو من جديد. يا للتأثر! كان مغتبطًا. أصابتني عدوى ضحكه، تلك الأحاسيس القولونية. قلت لنفسي إن حركة بالزيادة أو بالنقصان لا تهم بالمرة. عندما عادت لولا من مشاويرها أخيرًا وجدتنا في الصالون معًا، غارقين في الضحك ودخان السيجار. تظاهرت بأنها لم ترَ شيئًا.

هرب الزنجي بسرعة، أما أنا، فصحبتني إلى غرفتها. وجدتها حزينة، شاحبة ومرتجفة. ترى أين كانت؟ صار الوقت متأخرًا جدًّا بالفعل. إنها الساعة التي يفقد فيها الأمريكان القدرة على الحركة لأن الحياة لا تعود تتحرك من حولهم فيها إلا على مهل. نصف السيارات يأوي إلى مرآبه. إنها ساعة المكاشفات غير الكاملة. لكن ينبغي الإسراع في استغلالها. هيأتني لها لولا بمساءلتي، لكن اللهجة التي اختارتها لتطرح عليَّ بعض الأسئلة حول حياتي في أوروبا أغاظتني كثيرًا.

لم تُخفِ قط أنها تراني قادرًا على الإتيان بأخس الأفعال. لم يضايقني هذا الافتراض، أصابني بالحرج فقط. كانت تستشعر بالطبع أني قد جئت لرؤيتها

كي أطلب منها بعض النقود، وكان ذلك وحده كفيلاً بأن يخلق بيننا عداءً طبيعيًّا. مشاعر تلامس كلها حدود القتل. بقينا وسط هذه التفاهات وحاولت المستحيل حتى لا يقع بيننا فجأة شجار حاسم. استفسرت من بين أشياء أخرى عن تفاصيل مغامراتي الجنسية الطائشة، إن لم أكن قد تركت في مكان ما في أثناء صعلكتي طفلاً صغيرًا يمكنها أن تتبناه. فكرة غريبة واتتها. صار تبني طفل ما الفكرة المتسلطة عليها. كانت تظن بكل بساطة أن فاشلاً على شاكلتي لا بد أنه ترك أطفالاً غير شرعيين في كل مكان في الأرض ذهب إليه. أسرت إليَّ بأنها ثرية وأنها تشرف على الانهيار لأنها لم تستطع أن تكرس حياتها لطفل صغير، وأنها قرأت كل مؤلفات العناية بالأطفال وخصوصًا تلك التي تتغنى بعمليات الولادة إلى حد الإصابة بالإغماء، هذه الكتب التي تحررك إن استوعبتها تمامًا من الرغبة في التزاوج، إلى الأبد. لكل فضيلة أدبياتها الخبيثة.

بما أنها كانت ترغب في أن تضحي بنفسها من أجل "شخص صغير" فقط لا غير، فقد كان سوء الحظ يلازمني إذًا. لم يكن لديَّ ما أقدمه إليها سوى شخصي الكبير الذي كانت تراه مقززًا تمامًا. وعلى كل حال ليست هناك إلا المصائب المعروضة بإتقان لتحقيق النجاح واستخلاص النقود، المصائب التي يخرجها الخيال جيدًا. فتر حديثنا.

اقترحت عليَّ في النهاية: "اسمع يا فردينان، كفانا ثرثرة، دعني أصحبك إلى الناحية الأخرى من نيويورك لنقوم بزيارة الصغير الذي أعوله، إنني أرعاه بكل الرضا، غير أن أمه تزعجني". كانت ساعة غير معتادة. في السيارة، في الطريق، تكلمنا عن خادمها الزنجي الكارثي.

سألتني: "هل أراك قنابله؟" اعترفت لها بأنه عرَّضني لهذه المحنة.

"لعلمك، إنه ليس خطرًا، يا فردينان، هذا المهووس. إنه يحشو قنابله بفواتيري القديمة. في ما مضى، بشيكاجو، كانت له أيام مجده، كان ينتمي حينذاك إلى

جماعة سرية مخيفة جدًّا لتحرير السود. كانوا، بحسب ما قيل لي، أشخاصًا مرعبين. حلت السلطات الجماعة، لكن أسودي ظل محتفظًا بهذا الميل إلى صنع القنابل. إنه لا يضع فيها بارودًا على الإطلاق، تكفيه الروح. الحقيقة أنه فنان، ليس إلا، ولن يقطع صلته بالثورة أبدًا. لكني أحتفظ به، إنه خادم منزل ممتاز! وعلى العموم، ربما كان أكثر أمانة من الآخرين الذين لا يقومون بالثورة".

ثم عادت إلى هوسها بالتبني.

"مع ذلك، فمن المحزن ألا تكون لك ابنة في مكان ما، فردينان، إن سلوكًا مستغرقًا في الأحلام مثل سلوكك يناسب امرأة تمامًا بينما لا يليق بالرجال على الإطلاق."

أعادت الأمطار الهاطلة بشدة إطباق الليل على سيارتنا التي كانت تنساب على شريط الأسمنت الناعم الطويل.

كان كل شيء معاديًا وباردًا، حتى يدها، التي كنت أمسك بها مع ذلك مطبقة تمامًا في يدي. كنا متباعدين في كل شيء. وصلنا إلى أحد المنازل التي يختلف مظهرها جدًّا عن مظهر المنزل الذي غادرناه لتونا. في إحدى شقق الطابق الأول، كان ينتظرنا بجوار أمه، صبي صغير في العاشرة من عمره تقريبًا. كان أثاث هذه الغرف يؤكد انتماءه إلى طراز لويس الخامس عشر، شممنا فيه رائحة إنضاج وجبة طازجة. جاء الصبي ليجلس فوق ركبتَي لولا ويقبِّلها بكل رقة. بدت لي الأم هي الأخرى رقيقة تمامًا مع لولا وقد دبرتُ لأحمل المرأة على الانتقال إلى الغرفة المجاورة في حين كانت لولا تتبادل الحديث مع الصغير.

عندما عدنا، كان الصبي يعيد أمام لولا إحدى خطوات الرقص التي تعلمها لتوه في دروس الكونسرڤتوار. قالت لولا معقبة: "ما زال من الضروري أن نعمل

على أن ينال عدة ساعات من الدروس الخصوصية، وربما استطعت بعدها أن أقدمه إلى صديقتي ڤيرا(34) في مسرح الجلوب Le Globe! ربما كان لهذا الطفل مستقبل لامع!" بعد هذه العبارات اللطيفة المشجعة أفاضت الأم في عبارات الشكر وفي الدموع. وتلقت في الوقت نفسه رزمة صغيرة من الدولارات الخضراء دستها في صدر فستانها كأنها رسالة غرام.

(34) Vera Stern، مديرة أحد المسارح بمدينة نيويورك، وإحدى شخصيات مسرحية سيلين "الكنيسة L’Eglise". (المترجم)

"إن هذا الصغير يروقني كثيرًا، عقبت لولا، عندما صرنا في الخارج من جديد، لكن عليَّ أن أتحمل الأم في الوقت نفسه مع الابن، ثم إني لا أحب الأمهات الماكرات بأكثر مما يجب. فضلاً عن أن هذا الصغير مع ذلك خبيث للغاية.. ليس هذا هو شكل العلاقة الذي أرغب فيه. أود أن أشعر بعاطفة أمومة خالصة. هل تفهمني يا فردينان؟ وحتى آكُل، عن نفسي، كنت مستعدًّا لأن أفهم كل ما يراد، لم يعد الأمر متعلقًا بالعقل، بل بالمعدة".

لم تقلع عن رغبتها في التطهر. عندما وصلنا بعد أن قطعنا عدة شوارع بعيدة، سألتني أين أنوي أن أنام في تلك الليلة، ومشت معي بضع خطوات فوق الرصيف. أجبتها بأني لن أنعس في أي مكان كان، إن لم أعثر في التو واللحظة على عدة دولارات.

قالت: "حسنًا، رافقني حتى المنزل وهناك سوف أعطيك بعض النقود ثم تمضي بعدها إلى حيث تريد".

أصرّت على أن تتملص مني في هذا الليل، بأسرع ما يمكن. هكذا تقتضي الأصول. لكثرة ما يُلقى بالمرء هكذا في الليل، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى الوصول إلى مكان ما. هذا ما كنت أقوله لنفسي.

هذا هو العزاء. "تشجع، فردينان، قلت لنفسي مرارًا، حتى أثبت على حالي، لكثرة ما تتعرض للطرد، في كل مكان، سوف ينتهي بك الأمر بالتأكيد إلى اكتشاف السر الذي يخيفهم جميعًا إلى هذا الحد، كل هؤلاء الأوغاد بقدر ما يكونون، والذي لا بد أن يكون في آخر الليل. ولهذا فإنهم لا يمضون أبدًا إلى آخر الليل!"

بعد ذلك، في سيارتها، صار كل شيء بيننا باردًا نحن الاثنين. بدت الشوارع التي نقطعها، كأنها تهددنا بكل صمتها المسلح، بالأحجار حتى عنان السماء وإلى ما لا نهاية، بما يشبه طوفانًا في حالة ترقب. مدينة تترصد، وحش يضمر المباغتة، وحش لزج من القار والأمطار. أخيرًا، أبطأنا السير، تقدمتني لولا نحو مدخل بيتها.

"لتصعد، اتبعني!" دعتني إلى مرافقتها.

صالونها من جديد. سألت نفسي كم سوف تعطيني لتنتهي من الأمر وتتخلص مني. فتشت في حقيبة صغيرة ملقاة على إحدى قطع الأثاث عن بعض الأوراق المالية. كنت أسمع حفيف الأوراق المالية المكرمشة.. الرائع. يا لها من ثوانٍ! لم يعد هناك في المدينة سوى هذا الصوت. مع ذلك، كنت لا أزال أشعر بحرج شديد حتى إني سألتها، لا أدري السبب، في وقت غير مناسب وبلا داعي، عن أخبار والدتها التي كنت قد نسيتها.

قالت وهي تستدير لتمعن النظر إليَّ وجهًا لوجه: "إن أمي مريضة".

"أين هي الآن إذًا؟"

"في شيكاجو".

"ممَ تشكو والدتك؟"

"من سرطان في الكبد. أنا أشرف على علاجها لدى كبار الاختصاصيين بالمدينة. إن علاجها يكلفني غاليًا جدًّا، لكنهم سوف ينقذون حياتها، لقد وعدوني بذلك. بتهور، قدمت إليَّ أيضًا الكثير من التفاصيل المتعلقة بحالة أمها في شيكاجو. لم تعد تستطيع وقد صارت فجأة شديدة الرقة والألفة أن تمنع نفسها من أن تلتمس عندي بعض السلوى الحميمة. كنت أمسك بها وأسيطر عليها".

"وأنت يا فردينان، أتعتقد أنت أيضًا أنهم سوف يشفونها، أليس كذلك؟ أمي".

أجبتها بكل وضوح، بكل حسم:

"كلا، فسرطانات الكبد غير قابلة للشفاء مطلقًا".

على الفور، امتقع لونها، أصاب الشحوب حتى بياض عينيها، كانت تلك بالفعل هي المرة الأولى التي أراها فيها، تلك العاهرة، وقد حيرها شيء ما.

"لكنهم أكدوا لي، على الرغم من ذلك، أنها سوف تشفى يا فردينان، هؤلاء الاختصاصيون! لقد أثبتوا ذلك لي.. لقد كتبوا ذلك لي.. أتعرف أنهم من أكبر الأطباء؟"

"من أجل المال، سيكون هناك دائمًا، لحسن الحظ، أطباء كبار جدًّا، يا لولا، لو كنت مكانهم لفعلت بكِ مثلما فعلوا.. وأنتِ أيضًا يا لولا كنت ستفعلين الشيء نفسه".

فجأة، بدا لها ما كنت أقوله قاطعًا للغاية، بديهيًّا للغاية، حتى إنها لم تعد تجرؤ على المقاومة.

لمرة واحدة، للمرة الأولى في حياتها كانت على وشك أن تفقد وقاحتها.

"اسمع، فردينان، لقد سببت لي ألمًا لا حد له.. هل تدرك ذلك؟ إنني أحبها كثيرًا، أمي، أنت تعرف ذلك.. تعرف أنني أحبها كثيرًا. أليس كذلك؟

لقد وقع ذلك في الوقت المناسب إذًا، ويحَكُم! ما الذي يمكن أن يسببه ذلك للعالم، أن يحب أحد أمه أو لا يحبها؟"

كانت لولا تنتحب في فراغها الموحش.

"فردينان، أنت فاشل مخيف، استأنفت حديثها غاضبة، ولست إلا شريرًا بغيضًا! أنت تثأر بكل ما يمكن من خسة لوضعك المهين بمجيئك إلى هنا لتقول لي أشياء مخيفة.. بل إنني متأكدة من أنك تسيء إلى أمي كثيرًا حين تتحدث على هذا النحو".

كانت تتجاذبها في يأسها هذا بعض آثار منهج الدكتور كويه(35).

(35) إميل كويه E.Coue، طبيب ومعالج نفسي فرنسي، بدأ حياته العملية صيدليًّا، طوَّر طرق العلاج بالإيحاء والتفكير الإيجابي. (المترجم)

لم يخِفني هياجها بقدر ما أخافني هياج ضباط الأميرال براجيتون، هؤلاء الذين حاولوا القضاء عليَّ من أجل إسعاد بعض السيدات اللاتي يعانين الفراغ.

تطلعت إليها بانتباه، لولا، بينما كانت تسبني بأقذع الشتائم، وشعرت بشيء من الفخر عندما لاحظت أن لامبالاتي للمفارقة كانت تتزايد، وقد أسعدني ذلك، كلما زادت من سبابها. في أعماق كل منا شخص لطيف.

للتخلص مني، قدرت أن سيكون عليها بالتأكيد أن تعطيني الآن على الأقل عشرين دولارًا.. بل ربما أكثر من ذلك.

بادرت بالهجوم: "لولا، أرجوكِ أقرضيني النقود التي وعدتني بها أو سوف أبيت هنا وسوف تسمعينني أعيد على مسامعك كل ما أعرفه عن السرطان،

مضاعفاته، عوامله الوراثية، لأنه مرض وراثي، يا لولا، السرطان. علينا ألا ننسى ذلك!"

بقدر ما كنت أمعن في لامبالاتي، أتقن في تفاصيل حالة أمها الصحية، كنت أرى لولا تشحب أمامي، تضعف، تتراخى. "آه، العاهرة! أحكم قبضتك عليها يا فردينان" هكذا كنت أقول لنفسي. لمرة وحيدة أراك تمسك بزمام الأمور، "لا ترخِ الحبل.. لن تجد واحدًا بهذه المتانة قبل زمان طويل".

قالت: "أمسك! خذ، ها هي دولاراتك المئة واغرب عن وجهي ولا تعد إلى هنا أبدًا، هل تسمعني؟ أبدًا. اخرج! اخرج! اخرج! أيها الخنزير القذر".

" قبليني على أي حال يا لولا. هيا.. لا تخافي.. لسنا متخاصمين!" قلت لها مقترحًا حتى أعرف إلى أي مدى يمكنني أن أثير نفورها. حينذاك أخرجت مسدسًا من أحد الأدراج، لم تكن تهزل.

مع ذلك، كان هذا التوبيخ العنيف قد أعاد إليَّ الرغبة في العمل والكثير من الشجاعة. ومنذ اليوم التالي استقللت القطار متجهًا إلى مدينة ديترويت التي أكدوا لي أن من السهل فيها الحصول على عمل في كثير من الأشغال البسيطة غير الشاقة ومجزية الراتب.

الفصل 22

المقطع التاسع عشر

تحدث إليَّ المارة في الشارع كما كان الرقيب قد تحدث إليَّ في الغابة. قالوا لي: "ها هو! لا يمكنك أن تخطئ، إنه أمامك مباشرةً".

بالفعل رأيت المباني الضخمة المكتنزة ذات الواجهات الزجاجية، أشكالاً من أقفاص زجاجية بلا نهاية، يمكن أن نميز بداخلها رجالاً يتحركون، لكنهم يتحركون بالكاد كأنهم لم يعودوا يقاومون إلا بفتور شيئًا خارقًا لا أدري ما هو. أكانت هذه مؤسسة فورد؟ ثم حول تلك المباني ومن فوقها حتى عنان السماء ضجة ثقيلة خانقة متعددة صماء لسيل من الآلات، صارم، إصرار الآلات على اللف والدوران والأنين، المهيأة دومًا للتحطم التي لا تتحطم أبدًا.

قلت لنفسي: "إنه هنا إذًا، فورد.. هذا أمر لا يشجع". بل إنه كان أسوأ من كل الباقي. اقتربت أكثر، حتى الباب الذي كان يحمل لوحة من الإردواز مكتوب عليها أنهم يطلبون عمالاً.

لم أكن وحدي الذي ينتظر. أخبرني واحد ممن كانوا يتجادلون هناك أنه كان موجودًا منذ يومين وما زال في المكان نفسه. لقد جاء من يوجوسلافيا، هذا البائس الساذج، ليجد لنفسه عملاً. تحدث مع تعس آخر، جاء ليعمل كما زعم، من أجل متعة العمل ليس إلا، مهووس، مخادع.

في هذا الحشد، لم يكن أحد يتكلم الإنجليزية تقريبًا.

كان بعضهم يتربص ببعض كحيوانات مفترسة مرتابة، منكسرة في غالب الأحوال. من وسط جماعتهم، تصاعدت رائحة ما بين السيقان الناضحة بالبول

كما كانت الحال في المستشفى. عندما يتحدثون كان المرء يتحاشى رائحة أفواههم لأن أجواف الفقراء تفوح برائحة الموت من قبل أن يموتوا.

هطلت الأمطار على جمعنا الصغير. تقاربت الصفوف الواقفة منضغطة تحت المزاريب. إنهم قابلون للانضغاط جدًّا هؤلاء الباحثون عن عمل. أخبرني الروسي العجوز هاوي الاعترافات أن ما يراه جيدًا لدى فورد هو أنهم يوظفون أيًّا من كان وأيًّا ما كان. ثم أضاف، لعلمي الخاص: "لكن احترس، يجب ألا تتبجح عندهم، لأنك لو تبجحت فسوف تُطرد في لمح البصر، وفي لمح البصر أيضًا ستحل محلك واحدة من تلك الآلات الميكانيكية المتأهبة دائمًا ولن تستطيع العودة أبدًا إلى هناك مهما حاولت". كان هذا الروسي يتحدث الفرنسية باللهجة الباريسية جدًّا لأنه قد عمل هناك خلال عدة سنوات سائقًا لسيارة أجرة، وقد طُرد بعد تورطه في قضية كوكايين بمدينة بيزون Bizone، فضلاً عن أنه قد قامر في نهاية الأمر بسيارته، في لعبة الزانزي، مع أحد الزبائن، في بياريتس Biarritz، وخسرها.

كان حقيقيًّا ما أخبرني به من أنهم كانوا يوظفون أي شخص كان لدى فورد. لم يكذب. ومع ذلك فقد توخيت الحذر لأن البؤساء يهذون بسهولة. هناك لحظة في حياة البؤس لا تعود الروح ابتداءً منها تلازم البدن طيلة الوقت. لحظة غير مسؤولة يشعر المرء فيها حقًّا بالوهن.

بالطبع أمرنا بدايةً بخلع ملابسنا. جرى الكشف الطبي في ما يشبه معملاً. تتابعنا ببطء. "حالتك الصحية مزرية تمامًا، لكن لا بأس". هكذا لاحظ الممرض بمجرد أن رآني.

وأنا الذي خفت أن يرفضوني في العمل بسبب الحمى الإفريقية، بمجرد أن يدركوا ذلك إذا ما تحسسوا أحشائي مصادفةً! لكن على العكس، فقد بدوا بالغي الرضا لأنهم وجدوا في الوارد الذي يضمنا بعض من يتميزون بالدمامة وبعض ذوي العاهات.

"في ما يتعلق بما سوف تقوم به هنا، فليست للحالة الرثة التي أنت عليها أي أهمية!" طمأنني الطبيب المُعاين على الفور.

"نعم الأمر، لكن لعلمك يا سيدي، أنا رجل متعلم، وقد قمت في ما مضى بدراسات في مجال الطب".

وعلى الفور نظر إليَّ شزرًا، شعرت بأني قد أخطأت مرة أخرى، وفي حق نفسي. "لن تفيدك دراساتك بشيء هنا يا بني! إنك لم تأتِ إلى هنا كي تفكر، لكن لتقوم بالحركات التي سوف يُطلب منك القيام بها. إننا لا نحتاج إلى مبتكرين في مصنعنا. إننا نحتاج إلى قردة ماهرة. ونصيحة أخرى. لا تتحدث بعد الآن أبدًا عن عقلك. سيكون هناك من يفكر لك يا صديقي! اعتبر ذلك حكمةً وتمسك بها".

كان الرجل محقًّا في تحذيري، من الأفضل أن أتعرف إلى الأعراف المعمول بها في المؤسسة. من الحماقات كان لدي في رصيدي على علاته ما يكفي لعشرة أعوام مقبلة. حرصت منذ ذلك الوقت فصاعدًا على أن أشتهر بينهم بأني عامل صغير هادئ. ما إن ارتدينا ملابسنا من جديد حتى وُزِّعنا في صفوف بطيئة الحركة تتجه في مجموعات مترددة نحو المواقع التي كانت تصلنا منها أصوات الضجة الميكانيكية الهادرة. كان كل شيء يرتج داخل المبنى الشاسع، الإنسان نفسه من قدميه وحتى أذنيه وقد أخذته الرعدة، من زجاج النوافذ، ومن الأرضية، ومن نفايات الحديد، جاءت الاهتزازات. كنا نهتز من أعلى إلى أسفل. لفرط ما يتعرض المرء لها يصبح هو نفسه أيضًا آلة، وبكل لحمنا المهتز أيضًا في ضجة هذا السعار الهائل التي تستولي على ما في داخلنا وعلى اتجاه تفكيرنا وفي الأسفل يرج أحشاءنا وتصعد إلى عيوننا في ومضات صغيرة متسارعة، لا نهائية، لا تكل ولا تمل. كلما تقدمنا فقدنا بعض الرفاق. كنا نبتسم ابتسامات صغيرة لهؤلاء عند افتراقنا كأن كل ما جرى كان شيئًا بالغ اللطف. لم يعد بالإمكان أن نتكلم معًا أو أن يسمع بعضنا بعضًا. في كل مرة كان يتوقف منا حول كل آلة ثلاثة أو أربعة.

مع كل ذلك قاومنا، يجد المرء صعوبة في النفور من ماهية وجوده، يتمنى أن يتوقف كل هذا حتى يتأمله وأن يسمع قلبه يدق في صدره بسهولة، لكن هذا لم يعد ممكنًا. لم يعد من الممكن أن يتوقف هذا. إنها تعيش كارثة علبة الفولاذ مترامية الأطراف هذه ونحن ندور داخلها، مع الآلات، ومع الأرض. الكل معًا! ثم آلاف العجلات والمطارق التي لا تتعطل مطلقًا في الوقت نفسه بأصواتها التي يكسر بعضها بعضًا، وكان بعضها بالغ العنف لدرجة أنها كانت تطلق في ما حولها ما يشبه فترات صمت خاطفة تمنحك شيئًا من الراحة.

تكافح العربة الصغيرة الدوارة الممتلئة بالخردة المعدنية لتمر وسط الآلات. فلنصطف! فلننتفض حتى تتمكن من الانطلاق مرة أخرى العربة الصغيرة المصابة بالهستيريا. هيا انطلقي! إنها سوف تهتز متوقفة في نقطة أبعد هذه المجنونة البراقة وسط السيور وعجلات القيادة، حاملة للرجال حصصهم المقطوعة من العناء والضجر.

العمال المنحنون المهتمون بإرضاء الآلات بأقصى ما يمكن يصيبونك بالغثيان، عندما تُناوِلهم المسامير بالأقطار المطلوبة، ثم المزيد من المسامير، بدلاً من أن تفرغ منها مرة واحدة، ورائحة الزيت هذه، البخار الذي يحرق طبلة الأذن والأذن من الداخل عندما يتسلل إليها عبر الحلق. ليس الخجل هو ما يدفعهم لإحناء رؤوسهم.

يستسلم المرء للضوضاء، كما يستسلم للحرب. نستسلم للآلات بالأفكار الثلاثة التي تظل تتردد في الأعلى خلف مقدمة الرأس. انتهى الأمر. كل ما يقع عليه بصرك في كل مكان، كل ما تلمسه يدك، يصبح الآن صلبًا قاسيًا وكل ما نستطيع تذكره قليلاً إلى الآن يصبح هو الآخر صلبًا كالحديد ولم يعد له طعم.

صار المرء عجوزًا مرة واحدة بكل خسة.

لا بد من نسيان حياة الخارج، أن نجعلها هي الأخرى من الصلب، نجعل منها شيئًا نافعًا. لهذا السبب لم نكن نحبها كما كانت بالقدر الذي يكفي. لا بد إذًا أن نجعل منها شيئًا، شيئًا صلبًا ملموسًا، هذه هي القاعدة.

حاولت أن أتحدث إلى رئيس العمال في أذنه، رد عليَّ، زمجر كخنزير، وأوضح لي، بالإشارات وحدها، بصبر شديد، المناورة البسيطة للغاية التي كان عليَّ أن أقوم بها من الآن فصاعدًا وإلى الأبد. دقائقي، ساعاتي، المتبقية من وقتي سوف تنقضي، مثل من يعملون هنا، في مناولة الرجل الأعمى الموجود إلى جواري بعض المسامير واللوالب ليعايرها، لسنوات طويلة كان يعاير المسامير واللوالب، دائمًا المسامير نفسها. أما أنا فقد قمت بهذا للتو على نحو بالغ السوء. لم يوجه إليَّ أي لوم، لكنهم بعد ثلاثة أيام من هذا العمل الأولي، نقلوني، بعدما ثبت فشلي، إلى سحب عربة الجر الصغيرة المملوءة بالحلقات المعدنية، التي كانت تنتقل من آلة إلى أخرى. هنا، أترك ثلاث قطع، أترك اثنتي عشرة قطعة، هناك خمس فقط. لا يكلمني أحد. لم نعد نحيا إلا بضرب من التردد بين البلادة والهذيان. لم يكن شيء يهم إلا استمرار الدوران الهادر لآلاف الآلات التي تتحكم في البشر.

عندما يتوقف كل شيء في السادسة مساءً يحمل المرء الضجيج في رأسه ويذهب به، كان لديّ أنا الآخر منه ما يكفي الليل بكامله ومن رائحة الزيت أيضًا كما لو كانوا قد وضعوا لي أنفًا جديدًا، عقلاً جديدًا.. وإلى الأبد.

وحينذاك، ولكثرة ما تنازلت، شيئًا فشيئًا، صرت كأني شخص آخر.. فردينان آخر.. جديد. بعد عدة أسابيع. ومع ذلك فقد عاودتني الرغبة في رؤية أناس من الخارج غير عمال الورشة بكل تأكيد، فهؤلاء لم يكونوا سوى أصداء وروائح ماكينات مثلي، لحوم تهتز إلى ما لا نهاية، زملائي في العمل، كنت أريد أن ألمس جسدًا حقيقيًّا، جسدًاورديًّا يحيا حياة حقيقية هادئة ورخيّة.

لم أكن أعرف أحدًا في هذه المدينة وخصوصًا من النساء. بكثير من العناء، انتهيت إلى الحصول على عنوان "بيت" ما، ماخور سري، يقع بأحد أحياء شمال المدينة. مضيت لأطوف بتلك الجهة أمسيات عدة متتالية، بعد المصنع، لاستكشافه. شارع يشبه غيره من الشوارع، إلا أنه ربما كان منظمًا بأفضل مما كان عليه الشارع الذي أسكن فيه.

اكتشفت المبنى الصغير الذي كان يجري فيه الأمر، المحاط بالأشجار. للدخول، كان لا بد من الإسراع حتى لا يتمكن الشرطي الذي يقوم بالحراسة قرب الباب من رؤية أي شيء. كان ذلك أول مكان بأمريكا يتم فيه استقبالي بلا جفاء، بل بترحاب لقاء دولاراتي الخمسة، وشابات جميلات، مكتنزات، ممتلئات بالصحة والطاقة المبهجة، كن على أي حال في مثل جمال فتيات "لاڤ كالڤان" تقريبًا.

فضلاً عن أن المرء كان بإمكانه أن يلمسهن، فتيات الماخور، صراحةً. لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أكون أحد المترددين على ذلك المكان. ذهب إليه كل راتبي. بحلول الليل، كان لا بد لي من اللقاء الجنسي بهاتيك المضيفات المرحبات الرائعات لأخلق لنفسي روحًا من جديد. لم تعد السينما تكفيني، علاج ملطف، دون تأثير حقيقي في مواجهة بشاعة المصنع المادية. لتستمر الحياة فترة أطول، كان لا بد من اللجوء إلى المقويات الجسدية الكبرى، المنشطات الحيوية شديدة الأثر. لم أطالَب في تلك الدار إلا بدفع أجور زهيدة، تسويات بين الأصدقاء، لأني كنت أجلب لهن من فرنسا بعض الأشياء، الألاعيب، لكن في ليلة السبت، حين تجري الأعمال على أشدها، لا يعود هناك مجال للمزاح، كنت أترك المكان بكامله لفرق البيسبول المتوافدة كالطوفان، وافرة النشاط، رجال أقوياء يبدو أن السعادة كانت تأتيهم بمثل السهولة التي يتنفسون بها.

بينما كان رجال تلك الفرق يستمتعون، كنت أنتحي جانبًا في المطبخ، أكتب، لنفسي فقط، ما تجود به القريحة من قصص قصيرة. لم يكن تحمس هؤلاء

الرياضيين بكل تأكيد لكائنات المكان يصل إلى حرارة حماسي لهن، العِنِّين على نحو ما. كان هؤلاء الأبطال المطمئنون إلى قواهم غير مبالين بما يعزى إلى إتقان الأداء الجسدي، الجمال مثله مثل الكحول، أو وسائل الراحة، أمر يعتاده المرء، لا يعود يلقي بالاً له.

كانوا يأتون -خصوصًا هؤلاء - إلى المكان، ليمرحوا. كثيرًا ما انتهت بهم الحال إلى العراك، بشدة، ساعتها كانت الشرطة تصل كالإعصار وتحمل الجميع في شاحنات صغيرة.

بعد قليل، خالجني تجاه إحدى فتيات المكان، مولّي، شعور استثنائي بالثقة، التي تحل عند الكائنات الخائفة محل الحب. تحضرني -كأنها قد كانت بالأمس - ذكريات كلامها الحلو، ساقيها الطويلتين، الشقراوين، رائعتَي الرشاقة والتكوين العضلي، كساقَي نبيلة. ومهما قيل، فإن السيقان هي ما يمنح الأرستقراطية الإنسانية الحقيقية.. بلا جدال.

صرنا حميمين بالجسد وبالروح، كنا نذهب معًا لنجول في المدينة بضع ساعات كل أسبوع. كانت تمتلك موارد وفيرة، تلك الصديقة، لأنها كانت تجني نحو مئة دولار يوميًّا من عملها في الدار، في حين كنت أنا، لدى فورد، أجني منها ستة فقط. لم يكن الحب الذي تمارسه من أجل الحياة يتعبها كثيرًا، فالأمريكيون يفعلون ذلك كالعصافير. قرب المساء، بعد أن أكون قد جررت عربتي الجوّالة الصغيرة، كنت أجبر نفسي رغم ذلك على أن أبدو بشوشًا لأقابلها بعد العشاء. يجب أن يكون المرء مرحًا مع النساء على الأقل في البدايات. رغبة عارمة مبهمة تدفعني إلى أن أقترح عليها أشياء، لكني لم أعد أمتلك القوة. كانت تتفهم جيدًا حالة الخرف الصناعي، كانت معتادة على العمال، مولّي.

ذات مساء، هكذا، بلا داعٍ، منحتني خمسين دولارًا. تطلعت إليها أولاً. لم أجرؤ. فكرت في ما كان ممكنًا أن تقوله أمي في حالة مشابهة. ثم تذكرت أن أمي، المسكينة، لم تمنحني قط مبلغًا مساويًا. لإرضاء مولّي، اشتريت على الفور،

حلة كاملة جميلة، لونها رصاصي مائل إلى الحمرة، كما كانت الموضة في ربيع ذلك العام. لم يرني أحد مطلقًا أصل إلى الماخور بمثل هذه الأناقة. أدارت صاحبة الدار "فونوجرافها" الضخم، لمجرد أن تعلمني الرقص.

بعد ذلك، ذهبت إلى السينما مع مولّي لأدشن حلتي الكاملة الجديدة. في الطريق سألتني إن لم أكن أشعر بالغيرة، لأن الحلة كانت تضفي عليَّ مظهرًا حزينًا، والرغبة أيضًا في عدم العودة إلى المصنع. إن حلة كاملة تقلب أفكارك رأسًا على عقب، كانت تقبِّل حلتي قبلات سريعة مشبوبة، عندما نكون بعيدين عن أعين الناس. حاولت أن أفكر في شيء آخر.

مولّي هذه، رغم كل ذلك، أي امرأة كانت؟ أي امرأة سخية كانت؟ أي لون كان لبشرتها؟ أي اكتمال للشباب؟ مأدبة رغبات عامرة. عاودني القلق من جديد. هل صرت قوّادًا؟ دار ذلك بخاطري.

فضلاً عن ذلك، قالت مولّي لإثنائي: "لا تذهب إذًا بعد الآن عند فورد! ابحث بالأحرى عن وظيفة صغيرة في أحد المكاتب.. كمترجم على سبيل المثال، هذا ما يناسب شخصك.. الكتب تلائمك". ظلت تنصحني هكذا بلطف كبير، أرادت أن أكون سعيدًا. للمرة الأولى يهتم كائن بشريّ بأمري، من الداخل إن سمحت لنفسي بقول ذلك، بأنانيتي، يضع نفسه في مكاني ولا يكتفي فقط بالحكم عليَّ من مكانه هو، مثل كل الآخرين.

آه! لو كنت قد قابلتها قبل ذلك، مولّى عندما كان الوقت لا يزال متاحًا أمامي لأتخذ طريقًا بدلاً من آخر! قبل أن أضيع حيويتي على ميوزين الداعرة وعلى لولا.. كومة الروث.. الحقيرة هذه! لكن فات أوان اصطناع فترة شباب جديدة. لم أعد أعتقد في ذلك! يصير المرء عجوزًا بسرعة وبطريقة لا يمكن تلافيها أيضًا. يدرك المرء ذلك من الطريقة التي يحب بها بؤسه رغمًا عنه. إنها الطبيعة.. التي هي أقوى منك، هذا هو كل شيء. إنها تجربنا في نمط ما، ولا يعود في إمكاننا بعدها الخروج من هذا النمط. مضيت أنا في طريق القلق.

شيئًا فشيئًا يأخذ المرء دوره وقدره مأخذ الجد دون أن يعي ذلك جيدًا، وبعد ذلك، عندما يلتفت يكون أوان التغيير قد ولى إلى غير رجعة. يصير المرء قلقًا تمامًا ويصير ذلك أمرًا مفروغًا منه إلى الأبد.

حاولت مولّي بلطف بالغ أن تبقيني إلى جوارها، أن تثنيني عما أعتزمه.. "إن الحياة تمضي هنا مثلما تمضي في أوروبا، كما تعرف يا فردينان! إننا لن نكون تعساء معًا". بوجه ما، كانت محقة. "سوف نوظف مدخراتنا.. سوف نشتري متجرًا.. سنصبح مثل كل الناس" قالت هذا لتهدئة وساوسي. مشروعات. كنت أوافقها الرأي، بل إنني شعرت بالخجل لفرط ما أجهدت نفسها في محاولة الإبقاء عليَّ، كنت أحبها كثيرًا، بكل تأكيد، لكنني كنت أحب هوسي أكثر، تلك الرغبة في الهروب من أي مكان، بحثًا عن ماذا.. لا أعرف، مدفوعًا بكبرياء حمقاء بلا شك، مقتنعًا بتفوق ما.

أردتُ تجنب مضايقتها، أدركت هي ذلك واستبقت مخاوفي وأشجاني. انتهت بي الحال، نظرًا إلى لطفها البالغ، إلى الاعتراف لها بالهوس الغريب الذي كان يشقيني، هوس الفرار من أي مكان. أصغت إليَّ طوال أيام وأيام، وأنا أتباهى وأروي عن نفسي باشمئزاز، آخذًا في التخبط وسط الأوهام وخيالات الغطرسة ولم تبدِ تبرمها بذلك، بل على العكس كانت تحاول فقط أن تساعدني في التغلب على هذا الانقباض الأحمق والكاذب. لم تدرك تمامًا إلى ما كنت أرمي بتهويماتي، لكن مع ذلك كانت تراني محقًّا سواء ضد الأشباح أو مع الأشباح، كما يطيب لي. لفرط رقتها المُقنِعة، صارت طيبتها مألوفة لي وشخصية تقريبًا. لكن يبدو لي أني قد شرعت حينذاك في مخاتلة قدري المحتوم، مبرر وجودي كما كنت أسميه وتوقفت فور ذلك فجأةً عن إخبارها بكل ما يدور برأسي. رجعت وحدي إلى نفسي، سعيدًا لأني ما زلت أكثر بؤسًا عن ذي قبل لأني جلبت إلى عزلتي وجهًا جديدًا للأسى وشيئًا ما كان يشبه عاطفة حقيقية.

كان كل ذلك مألوفًا ومملاً. لكن مولّي التي وُهبت قلبًا ملائكيًّا، كانت تؤمن إيمانًا صلبًا كالحديد بالمواهب. كانت أختها الصغرى، على سبيل المثال، الطالبة بجامعة أريزونا، قد أصيبت بهوس تصوير الطيور في أعشاشها والجوارح في أوكارها.. لذلك، وحتى تتمكن من متابعة الدروس الغريبة لتلك التقنية الخاصة، كانت مولّي ترسل بانتظام، إلى أختها المصورة، خمسين دولارًا كل شهر.

قلب لا حدود لطيبته حقًّا، بداخله سمو حقيقي، يمكن أن يتحول إلى نقود، ليس قلبًا متصنّعًا مثل قلبي ومثل كثير من القلوب الأخرى. بشأن ما يخصني، لم تكن غاية مولّي سوى أن تهتم ماليًّا بمغامرتي الغامضة المربكة. رغم أني قد بدوت لها فتى ذاهلاً في بعض الأحيان، فإن قناعتي بدت لها حقيقية وجديرة بالتشجيع. دعتني فقط إلى أن أقدم إليها ما يشبه ميزانية بسيطة لمعاش مالي كانت تنوي أن تخصصه لي. لم أستطع أن أحمل نفسي على قبول تلك الهبة. شيء أخير من اللياقة منعني من اقتطاع المزيد، من استمرار المضاربة على هذه الطبيعة الروحية جدًّا والرقيقة جدًّا بالفعل. هكذا وضعت نفسي وعن عمد في خلاف مع العناية الإلهية.

بل إنني بذلت، خجلاً، في ذلك الوقت، بعض الجهود أيضًا للعودة إلى العمل لدى فورد. بطولات تافهة لم يكن لها أي عائد على أي حال. وصلت حتى أمام باب المصنع مباشرةً، لكن ظللت متجمدًا في ذلك الموضع الابتدائي، وقضى تصوري لكل هذه الآلات التي كانت تنتظرني دائرةً على كل صور ضعف الإرادة العمالي تلك في نفسي ونهائيًا.

توقفت جامدًا أمام واجهة المولد الكهربائي المركزي الزجاجية الكبيرة، هذا العملاق متعدد الأشكال الذي كان يزأر وهو يمتص ثم يدفع لا أعرف من أين، لا أعرف ماذا، عبر آلاف الأنابيب البراقة، المتشابكة والماكرة كالنباتات المتسلقة. ذات صباح بينما كنت مسمرًا على ذلك النحو في تأمل أحمق، مر بجانبي ذلك الروسي، سائق التاكسي، قال لي: "انتبه.. لقد فُصلت أيها

الوغد.. أنت لم تأتِ منذ ثلاثة أسابيع.. لقد حلت محلك بالفعل آلة ميكانيكية.. مع أنني قد حذرتك كثيرًا".

قلت لنفسي حينها: "هو كذلك إذًا، لقد انتهى الأمر على الأقل.. ما من عودة إلى هناك". عدت أدراجي نحو المدينة. في طريق العودة، مررت ثانيةً بالقنصلية، للسؤال عما لو كانوا قد سمعوا شيئًا عن رجل فرنسي يدعى "روبنسون". أجابني رجال القنصلية: "طبعًا، بكل تأكيد. بل إنه قد أتى لزيارتنا هنا مرتين، وقد كان يحمل أوراقًا مزورةً أيضًا.. الشرطة تبحث عنه على أي حال! هل تعرفه؟" لم أُلحّ في سؤالي.

منذ ذلك الحين، توقعت أن أقابله في كل لحظة، روبنسون هذا. شعرت باقتراب ذلك. ظلت مولّي رقيقة وحانية. بل إنها صارت أكثر لطفًا عن ذي قبل منذ تيقنت أني كنت أرغب في الرحيل من هنا على نحو نهائي. لم تكن رقتها معي تجدي شيئًا. كنت ومولّي كثيرًا ما نطوف معًا بضواحي المدينة في أثناء أمسيات عطلاتها.

تلال صغيرة جرداء، خمائل من أشجار البلوط تحوط ببحيرات صغيرة، هنا وهناك أناس يقرؤون، مجلات رمادية تحت السماء المثقلة بسحاب رصاصي. تعمدنا أنا ومولّي تجنب المكاشفات المعقدة العويصة. فضلاً عن ذلك كانت مولّي قد اتخذت قرارها. كانت صادقة بأكثر مما يجعلها قادرة على البوح بالكثير عن أشجانها. يكفيها ما يدور بداخلها، في قلبها. كنا نتبادل القبل. لكني لم أكن أقبِّلها جيدًا، كما كان يجب، راكعًا في الواقع. دائمًا كنت أفكر في شيء آخر في الوقت نفسه، في عدم إضاعة الوقت والعاطفة، كما لو كنت أريد أن أحتفظ بكل شيء لحدث رائع لا أدري عنه شيئًا، شيء سامٍ، سوف يحدث فيما بعد، لكن ليس من أجل مولّي، وليس من أجل هذا. كما لو كانت الحياة سوف تمضي، تخفي عني ما كنت أريد معرفته عنها، عن الحياة في قلب الظلام، في حين كنت أفقد حماسي وشغفي بتقبيل مولّي وعندها لن يعود لي منه ما يكفي وسوف أكون في نهاية الأمر قد فقدت كل شيء

لافتقاري إلى القوة، وتكون الحياة قد خدعتني كما خدعت كل الآخرين، الحياة، العشيقة الحقيقية للرجال الحقيقيين.

عدنا صوب الناس، ثم تركتها أمام منزلها، لأنها تكون مشغولة في المساء بعملائها وحتى مطلع الفجر. في أثناء انشغالها مع الزبائن، كنت أشعر بالأسى، على الرغم من كل شيء، كان ذلك الأسى يحدثني عنها جيدًا حتى إني كنت أشعر بها معي بأفضل مما كان يجري في الحقيقة. لتمضية الوقت، كنت أدخل إحدى دور السينما. عند خروجي من السينما كنت أركب أحد قطارات الترام، من حين إلى آخر، وأتنزه في الليل. بعد أن تدق الساعة الثانية يصعد ركاب خجولون من نوعية لا نقابلها كثيرًا قبل أو بعد ذلك الوقت، شديدو الشحوب دائمًا، يغالبون النعاس، في موجات هادئة مذعنة، حتى يصل الترام إلى الضواحي.

معهم كنت أذهب بعيدًا، إلى أبعد من المصانع بكثير، صوب قطع الأرض المقسمة كيفما اتفق، الأزقة ذات البيوت الغامضة. فوق بلاط الأزقة اللزج بأمطار الفجر الخفيفة، تلمع زرقة النهار الآتي. يختفي رفاقي في الترام وتختفي ظلالهم في الوقت نفسه. كانوا يغمضون أعينهم عن النور. يصعب على المرء حملهم على الكلام رجال الظل هؤلاء. كثير من التعب. إنهم لا يتذمرون. لا. إنهم من يقومون بتنظيف المتاجر في أثناء الليل، المزيد من المتاجر، ومكاتب المدينة بأسرها، بعد إغلاقها. إنهم يَبدون أقل قلقًا منا نحن الآخرين، ناس النهار. ربما لأنهم قد وصلوا إلى مرتبة أدنى من كل الناس والأشياء.

في إحدى تلك الليالي، عندما كنت قد أخذت ترامًا آخر أيضًا، وعند نهاية الخط، وبينما كنت أهبط محاذرًا، بدا لي أن هناك من يناديني باسمي "فردينان! إيه فردينان!" حتمًا، كان لذلك وقع الفضيحة في تلك العتمة. لم أحب ذلك. فوق الأسطح، عادت السماء الآن من جديد، في كتل صغيرة شديدة البرودة تقطعها المزاريب. كنت متأكدًا من أن أحدًا قد ناداني. عندما

التفت، عرفته على الفور.. "ليون" Leon. قال لي هامسًا إنه قد تعرف إليَّ، وبدأنا عندئذٍ الحديث معًا.

هو الآخر كان عائدًا مع الآخرين من تنظيف أحد المكاتب. كان هذا هو كل ما توصل إليه. كان يسير برزانة، بشيء من العظمة الحقيقية، كما لو كان قد فرغ من أداء مهام خطيرة، ومقدسة إن جاز التعبير. كان ذلك هو السمت الذي يتخذه كل منظفي الليل على كل حال. من خلال التعب والوحشة يبرز الجانب الإلهي في البشر. كان لليون ملء عينيه منه هو الآخر، عندما كان يفتحهما واسعتين، أوسع مما تكون عليه الأعين في العادة، في تلك العتمة المزرقة حيث كنا. كان قد نظف الآن أعدادًا لانهائية من أحواض الغسيل ولمع جبالاً حقيقية من طوابق وطوابق غارقة في الصمت. أضاف: "لقد عرفتك على الفور يا فردينان! من الطريقة التي صعدت بها إلى الترام.. لعلمك، من طريقتك فقط، من حالة الأسى التي انتابتك عندما لم تجد فيه امرأة واحدة. أليس هذا صحيحًا؟ أليست تلك طريقتك؟" كان حقيقيًّا أن تلك هي طريقتي. حقًّا إن لي روحًا خليعة مبتذلة مثل فتحة مقدمة السراويل. ليس هناك إذًا ما يدهشني في تلك الملاحظة الصائبة. لكن ما أدهشني بالأصح أنه لم يفلح هو الآخر بأمريكا. لم يكن ذلك ما توقعته إطلاقًا.

حدثته عن واقعة السفينة في "سان تابتيا"، غير أنه لم يدرك ما كنت أقصد. أجابني ببساطة: "أنت مصاب بالحمى!" عن نفسه، كان قد وصل في أحد مراكب الشحن. كان يرغب بالفعل في محاولة الالتحاق بالعمل لدى فورد، لكن أوراقه التي كانت واضحة التزييف فعلاً لدرجة أنه لا يجرؤ على إظهارها، منعته من ذلك. "إنها صالحة فقط للاحتفاظ بها في الجيب" قال لافتًا. بالنسبة إلى فرق التنظيف، لم يكن القائمون عليها متشددين في ما يتعلق بأوراق الهوية، كما أنهم لم يكونوا يدفعون كثيرًا أيضًا. كان الأمر يشبه فرقة حربية أجنبية تعمل في الليل. سألني حينذاك: "وأنت ماذا تفعل؟ هل ما زلت مخبولاً

إذًا؟ ألم تكتفِ بعد من الحيل والألاعيب؟ أما زلت ترغب في مزيد من السفر؟"

قلت له:

"أريد أن أعود إلى فرنسا، لقد قاسيت بما فيه الكفاية هكذا، أنت على حق، هذا يكفي".

قال لي:

"حسنًا تفعل، لأن الأمر قد قُضي بالنسبة إلينا. شِخنا دون أن ندرك ذلك، أنا أعرف ماذا يعني ذلك.. أنا أيضًا أريد الرجوع، لكن الأوراق تعوقنى دائمًا، سوف أنتظر قليلاً لأتدبر أوراقًا سليمة.. لا يمكنا أن نقول إن العمل الذي نقوم به عمل رديء، هناك أسوأ منه. لكني لم أتعلم الإنجليزية.. هناك من يعمل في ذلك المجال منذ ثلاثين عامًا ولم يتعلم سوى كلمتَي (مخرج) Exite لأنها مكتوبة على الأبواب التي يلمعونها، وكلمة (دورة مياه) Lavattory. هل تفهم؟"

كنت أفهم. إذا ما افتقدت مولّي مستقبلاً سوف أضطر إلى أن ألتحق بأعمال الليل. ليس هناك سبب لينتهي ذلك.

باختصار، كان يقال لنا، ما دمنا في الحرب، إن الأمور سوف تتحسن عندما يحل السلام، من ثم كنا نلتهم هذا الأمل كأنه من الحلوى، بونبون، ثم لا تجد بعد ذلك إلا.. "البراز". لكنا لا نجرؤ على قول ذلك أولاً حتى لا يتقزز أحد. باختصار نحن طيبون.

ثم ذات يوم ننتهي رغم ذلك إلى الاعتراف بالحقيقة أمام الجميع. لا نعود نحتمل التقلب في الفقر المدقع. لكن فجأة يرى الجميع أننا سيئو التربية فعلاً. هذا كل شيء.

بعد تلك المقابلة تواعدت مع روبنسون مرتين أو ثلاثة. كان يبدو عليلاً شاحبًا. كان فرنسي هارب، واحدًا من مصنّعي الخمور بطريق غير شرعي لحساب بعض رجال عصابات ديترويت، قد باعه أو تنازل له عن جانب صغير من أعماله. كان هذا يستهوي روبنسون. قال لي مكاشفًا: "ربما أستفيد أنا أيضًا من الخمر (الغشيمة) التي أصنعها لتلك الوجوه اللعينة. لكني، لو تعرف، فقدت جرأتي، أشعر بعزيمتي تخور، بالارتباك، مع أول شرطي يلاحقني بشكوكه.. لقد قاسيت كثيرًا.. وفضلاً عن ذلك فإني أشعر دائمًا بالرغبة في النعاس.. حتمًا، فالنوم بالنهار لا يعد نومًا.. فضلاً عن غبار المكاتب الذي نهيج به صدورنا الطافحة به.. ألا تلاحظ ذلك؟ هنا ينهك الرجل منا.. يُقضَى عليه".

تواعدنا على اللقاء في ليلة أخرى. عدت لأرى مولّي وحكيت لها كل شيء. أجهدت نفسها كثيرًا لتخفي عني الأسى الذي أسببه لها، لكن لم يكن من الصعب مع ذلك أن نرى ما كانت تعانيه. صرت أقبِّلها الآن أكثر لكن شجنها كان عميقًا، أكثر صدقًا مما لدينا نحن الآخرين لأننا بالأحرى قد اعتدنا -نحن الآخرين - أن نبالغ في الحديث عنه. والعكس عند الأمريكيين، لا يجرؤ المرء على فهمه، على الاعتراف به وقبوله. إنه مخزٍ قليلاً، لكن رغم كل ذلك، يظل شجنًا حقيقيًّا، ليس الكبرياء، ولا الغيرة أيضًا، ولا مشاحنات بين رجل وامرأة، ليس سوى أسى القلب الحقيقي، وأن ما علينا أن نصارح أنفسنا أننا نفتقد كل هذا في داخلنا وأننا نشعر بالجفاف لأننا نجد السعادة في الأسى. نشعر بالخجل لأننا لسنا أغنياء بالقلب وبكل شيء ولأننا قد رأينا الإنسانية أيضًا أكثر انحطاطًا مما هي عليه في الحقيقة.

من حين إلى آخر، كانت مولّي تسمح لنفسها بالانجرار، رغم كل شيء، إلى تأنيبي قليلاً، لكن دائمًا بعبارات معتدلة، ودية تمامًا.

كانت تقول لي: "أنت لطيف للغاية يا فردينان، وأنا أعرف أنك تجاهد حتى لا تصير شريرًا كالآخرين، لكني، أنا لا أعرف إذا ما كنت تعرف جيدًا ما تريده حقًّا.. فكر في ذلك جيدًا! لا بد أن تجد ما تأكله عندما تعود إلى هناك،

فردينان.. لن تستطيع في مكان آخر أن تجول كما تفعل هنا سادرًا في أحلامك ليالي وليالي.. كما كنت تحب القيام بذلك كثيرًا.. بينما أقوم أنا بعملي.. هل فكرت في ذلك يا فردينان؟"

بوجه ما، كانت على حق.. ألف مرة، لكن لكل منا طبيعته، كنت أخشى أن أجرحها، خصوصًا أنها كانت تُجرح بكل سهولة.

"مولّي أوكد لكِ أني أحبكِ كثيرًا، وسوف أحبكِ دائمًا.. كما أستطيع.. على طريقتي".

طريقتي، لم تكن تعني الكثير. مع أنها كانت مكتنزة الجسد، مثيرة، مولّي، غير أني كنت أميل أيضًا ذلك الميل اللعين إلى الأشباح. ربما لم أكن أنا السبب في ذلك تمامًا. غالبًا ما ترغمك الحياة على البقاء مع الأشباح بأكثر مما ينبغي.

قالت لي مطمئنة: "أنت شخص عطوف للغاية يا فردينان، لا تبتئس لحالي، أنت مثل مريض بذلك، برغبتك في أن تعرف المزيد.. هذا كل ما في الأمر.. على أي حال فلا بد أن هذا هو طريقك المكتوب لك.. من هناك، وحيدًا.. إن المسافر الوحيد هو من يصل إلى أبعد الحدود.. هل سترحل قريبًا إذًا؟"

"نعم". قلت لها مؤكدًا في صفاقة "سوف أنهي دراستي بفرنسا ثم أعود".

"لا، فردينان، إنك لن تعود أبدًا.. ثم إني لن أكون هنا أنا الأخرى".

ما كانت لتنخدع بما أقول.

حانت ساعة الرحيل. توجهنا ذات مساء صوب محطة القطار قبل الموعد الذي تعود فيه إلى المنزل بقليل. خلال النهار كنت قد ذهبت لأودع روبنسون. لم يكن سعيدًا هو الآخر بفراقي له. إنني لا أكف عن مفارقة الجميع. بينما

كنت أنتظر القطار مع مولّي على رصيف المحطة، مر بعض الرجال الذين تظاهروا بأنهم لم يعرفوها، لكنهم تهامسوا في ما بينهم بأشياء.

"ها أنت قد صرت بعيدًا منذ الآن، فردينان، ها أنت تقوم بما كنت ترغب في القيام به تمامًا، أليس كذلك؟ هذا هو المهم.. هذا وحده الذي يهم".

دخل القطار إلى المحطة. عندما رأيت الآلة لم أعد مطمئنًا تمامًا إلى مغامرتي. قبَّلت مولّي بكل ما كنت أملك من شجاعة وحيوية ما زالتا في جسدي. شعرت بالأسى، الأسى الحقيقي، للمرة الأولى، على العالم كله، على نفسي، عليها، على كل البشر.

ربما كان هذا هو ما نبحث عنه عبر الحياة، لا شيء غير هذا، أكبر حزن ممكن ليصير المرء هو ذاته قبل أن يموت.

مرت سنوات منذ ذلك الرحيل، ثم سنوات أخرى. كتبت كثيرًا إلى ديترويت فضلاً عن أماكن أخرى، إلى كل العناوين التي كنت أذكرها وإلى أي مكان يمكن أن تُعرف فيه مولّي، أن تُلاحق. لم أتلقَّ أي رد.

البيت مغلق الآن. هذا كل ما تمكنت من معرفته. مولّي الطيبة المحبوبة، أود، لو أنها استطاعت أن تقرأ ما كتبته لها، من مكان لا أعرفه، أن تعرف جيدًا أنني لم أتغير نحوها، أني ما زلت أحبها وإلى الأبد، على طريقتي، أود لو تعرف أنها تستطيع المجيء إلى هنا حين تريد لنتقاسم خبزي ومصيري الغامض الخفي. إن لم تعد جميلة، لا بأس من ذلك! سوف نرتب أمورنا! لقد احتفظت منها بالكثير جدًّا من الجمال داخلي، جمال شديد الحيوية، شديد الدفء لدرجة أنه يكفينا تمامًا نحن الاثنين ولمدة عشرين سنة مقبلة على الأقل، إلى أن نموت.

كان يلزمني بالتأكيد الكثير من الجنون لأفكر في الافتراق عن مولّي، جنون من نوع سافل وبارد عديم الحس. رغم كل ذلك، فقد دافعت عن روحي إلى

الآن، وإن جاء الموت، غدًا، ليأخذني، فلن أكون، بكل تأكيد، بالبرود نفسه، خبث، ثقل الآخرين تمامًا، لكل ذلك اللطف، كل تلك الأحلام التي منحتني إياها مولّي خلال تلك الأشهر القليلة التي قضيتها في أمريكا.

الفصل 23

المقطع العشرون

ليس المهم أن يعود المرء من "العالم الآخر". ثانيةً يجد المرء خيط الأيام هنا كما تركه، متسكعًا، لزجًا، واهنًا. ينتظرك.

ثانيةً، عدت لأطوف طوال أسابيع وشهور حول ميدان كليشي الذي كنت قد غادرت منه، وفي ما يجاوره أيضًا. أمارس مِهنًا تافهة في نواحي "باتينيول" لأعول نفسي. أشياء لا يمكن الإفصاح عنها! تحت المطر أو في قيظ السيارات، عندما حل يونيو، ذلك القيظ الذي يحرق الحلق والأنف من الداخل، كما كانت الحال لدى فورد تقريبًا كنت أراهم يمرون، يعاودون المرور، من باب التسلية، هؤلاء الناس المنطلقون إلى المسارح أو إلى الغابة، في المساء.

وحيد على نحو ما دائمًا، خلال ساعات الفراغ، كنت أصبّر نفسي، أتشاغل بالكتب، بالجرائد، فضلاً عن كل ما رأيته من قبل أيضًا. استأنفت دراستي، وبشق الأنفس اجتزت الامتحانات، مستمرًا في كسب عيشي في الوقت نفسه. أؤكد لكم أن العلم محفوظ جيدًا، الكلية خزانة مغلقة بإحكام. آنية بالجملة وقليل من المربى. عندما أنهيت رغم كل ذلك سنوات البلاء الأكاديمي الخمس أو الست، حصلت على لقبي الخلّاب الرنان. حينذاك مضيت لأبدأ مشواري المهني، أعلق لافتة عيادتي، في إحدى الضواحي، كما يليق بشخص مثلي، في "لاجارين– رانسي" هناك، خارج باريس، بعد بوابة "برانسيون" مباشرةً.

لم يكن لي أي مطلب ولا طموحات أيضًا، ليس أكثر من مجرد الرغبة في التنفس قليلاً والأكل أفضل قليلاً. بعد أن وضعت لافتتي على الباب، جلست أنتظر.

كان سكان الحي يأتون لرؤيتها، لافتتي، مرتابين. بل إنهم قد ذهبوا إلى قسم الشرطة ليسألوا عما إذا كنت طبيبًا حقيقيًّا. أُجيبوا بنعم، لقد سجل شهادته، إنه طبيب حقيقي. عندئذٍ تردد في رانسي بكاملها أن طبيبًا حقيقيًّا قد استقر فيها لتوه إضافة إلى الأطباء الآخرين. "لن يكسب فيها قوت يومه! يوجد بالفعل الكثير جدًّا من الأطباء هنا!" هكذا تنبأت بوابة المنزل على الفور، وكانت تلك ملاحظة صائبة تمامًا.

في الضواحي، تصلك الحياة في الصباح، بالترام، على وجه الخصوص منذ ساعات الصباح الأولى، تمر عبر شارع "مينوتور" الكثير منها، أفواج، مشحونة بالذاهلين المتأرجحين، الذاهبين إلى أعمالهم.

بل لقد بدا كأن الشبان كانوا سعداء بالذهاب إلى العمل. كانوا يعجلون من حركة المرور، يتعلقون على سلالم العربات، ضاحكين، هؤلاء الظرفاء. لا بد أن ترى ذلك. لكن عندما يعرف المرء كابينة التليفون في المطعم الصغير لمدة عشرين سنة، مثلاً، شديدة القذارة حتى يخالها المرء مراحيض، تذبل فيه الرغبة في المزاح بشأن الأشياء الجادة وحيال رانسي على وجه الخصوص. يدرك المرء ساعتها أين أُلقي به. تسيطر عليه البيوت، عطنة كما هي، بواجهاتها المفرطحة، بقلوبها الموالية لأصحابها. الذين لا نراهم أبدًا. فهم لا يجرؤون على الظهور. إنهم يرسلون بوكلائهم، الأنذال. ومع هذا يقال في الحي إن أصحاب العقارات أشخاص طيبون للغاية، عندما نقابلهم. لا يُلزم هذا بشيء.

النور في سماء رانسي، هو نفسه في سماء ديترويت، عصارة من الدخان تغطي الوادي بدءًا من "لوڤالوا". نفاية من الأبنية تربطها بالأرض أوحال

سوداء. المداخن، قصيرة وعالية، تبدو من بعيد شبيهة بالأوتاد الضخمة المغروسة في الوحل التي تُرى على شاطئ البحر، ونحن بداخلها.

في رانسي، يجب أن يمتلك المرء شجاعة سرطانات المياه أيضًا، خصوصًا عندما تتقدم به السن، وعندما يتأكد من أنه لن يخرج منها أبدًا.

في نهاية خط الترام، ها هو الجسر المغطى بالطين اللزج الذي يلقي بنفسه فوق نهر السين، ذلك المجرور الضخم الذي يكشف كل شيء. بامتداد ضفتين، يوم الأحد، وفي الليل، يتسلق الناس جانبيه ليتبوّلوا. شعور الرجال بأنفسهم أمام المياه التي تنساب تحتهم، يجعلهم ميالين إلى التأمل. إنهم يتبولون وسط إحساس بالأبدية، كأنهم بحارة. النساء لا يتأملن أبدًا. سواء كان هناك نهر أم لا. في الصباح يحمل الترام ناسه إذًا لينضغطوا في المترو. عند رؤيتهم يظن المرء أنهم يفرون جميعًا من تلك الجبهة، أن كارثة قد حلت بهم من ناحية "أرچنتوي"، أن بلادهم تحترق. بعد كل فجر، يحدث لهم هذا، يتشبثون جماعة بالأبواب، بدرابزينات القطارات. فوضى عارمة. مع هذا فلم يكن من يسعون إليه في باريس سوى أحد أصحاب الأعمال، ليس إلا، صاحب عمل ينقذك من الموت جوعًا، ويخافون جدًّا من فقدانه، الجبناء. مع أنه يجعلهم يعرقون لقاء راتبه هذا، عرقًا تفوح برائحته النتنة أجسادهم عشر سنوات، عشرين أو أكثر. ثمن باهظ.

في ذلك الحين يبدأ تبادل الشتائم في المترو، تدريب مفيد لتعويد اللسان. تظل النساء هن الأكثر تأففًا أيضًا من الشبان، وللاحتيال في سداد ثمن تذكرة واحدة، يعطلن الخط كله. صحيح أن هناك بعض الثملات من بين هؤلاء الراكبات، خصوصًا هاتيك اللاتي يهبطن في محطة السوق بالقرب من "سانت– وان"، أنصاف البرجوازيات. اللاتي كن يتساءلن في ما بينهن قبل الوصول بكثير عن سعر الجزر ليُظهرن أن لديهن ما يشترين به.

منضغطين كالقمامة في الصندوق الحديدي، يجتازون رانسي، تفوح منهم في الوقت نفسه رائحة قوية، خصوصًا عندما نكون في الصيف. عند الوصول إلى التحصينات، يتبادلون التهديدات، يتبادلون السباب مرة أخيرة ثم تنقطع الصلة بينهم، يبتلع المترو الجميع، نساءً ورجالاً، الحلل المبتلة تمامًا، أثواب النساء التي فقدت رونقها، الجوارب الحريرية، التهابات الرحم بعد الولادة، الأقدام المتسخة كجوارب الرجال، الياقات التي لا تبلى، ولا تلين.. كمواعيد الأقساط، حالات الإجهاض الجارية، أبطال الحرب، يتقطر كل هذا إلى السلم المقطرن المغسول بالفنيك وحتى آخره المظلم، مع تذكرة العودة التي تكلف وحدها ثمن رغيفين صغيرين من الخبز.

القلق الطويل البطيء من فصل مفاجئ، المتوقع دائمًا لمعتادي التأخر عن مواعيد العمل (مع شهادة مقتضبة) عندما يريد صاحب العمل تقليص نفقاته العامة. ذكريات "الأزمة" الملتصقة بجلودهم، ذكريات "أزمة" ما زالت شديدة القرب، من المرة الأخيرة التي فقدت فيها الوظيفة، ذكريات كل إعلانات الوظائف التي كان لا بد من قراءتها، خمسة قروش، خمسة قروش.. ثمن الجريدة.. انتظار، آمال، توقعات العثور على عمل.. يمكن لهذه الذكريات أن تخنق رجلاً، ملتفًّا بقدر ما يستطيع أن يكون في معطفه "الصالح لجميع الفصول".

تخفي المدينة بقدر ما تستطيع حشود كادحيها في مجاريها الكهربائية الطويلة. الذين لن يعودوا إلى السطح إلا يوم الأحد، حينذاك، عندما يكونون خارجها، فلا بد ألا يظهروا للعيان. يكفي أن تراهم يرفهون عن أنفسهم، ذات أحد، واحد فقط، ليزول عنك إلى الأبد الميل إلى المزاح. حول مداخل المترو، بالقرب من التحصينات، تتوطن، زاعقة، رائحة حروب طالت، رائحة بقايا القرى نصف المحترقة، التي لم تزُل تمامًا، ثورات أُجهضت، متاجر أفلست. جامعو الخرق في المنطقة الصناعية يحرقون منذ سنين الأكوام الصغيرة الرطبة نفسها في الخنادق المغطاة. إنهم همج تافهون جامعو الخرق هؤلاء المنقوعون في النبيذ

والضنى. كانوا يذهبون إلى المستوصف القريب ليسعلوا هناك، بدلاً من أن يلقوا بعربات الترام إلى زلاقات الحصون وأن يتبولوا بغزارة في مكاتب تحصيل النقود. لم يتبقَّ هناك دم. كفى أكاذيب. عندما تعود الحرب، المقبلة، سوف يغتنون مرة أخرى من بيع جلود الفئران، الكوكايين، وأقنعة الصفيح المتموج.

لممارسة الطب، وجدت لنفسي شقة صغيرة على حافة المنطقة الصناعية حيث كنت أستطيع أن أرى منحدرات الحصون والعامل المُسمّر أعلاها دائمًا، ناظرًا إلى اللاشيء، بذراعه الملفوفة في جبيرة قطنية بيضاء كبيرة، واحد من مصابي العمل لم يعد يعرف ماذا يفعل، أو فيم يفكر، ولم يكن يمتلك ما يكفي ليمضي كي يشرب ويمتلئ وعيًا.

كانت مولّي على حق تمامًا، بدأت أفهمها. الدراسة تغير المرء، تمنحه كبرياءً وزهوًا. لا بد من المرور بها للدخول في صميم الحياة. من قبل، كنا ندور حولها فقط. يظن المرء نفسه متحررًا لكنه يتخبط حقيقةً في الفراغ. نحلم بأكثر مما يجب. ننزلق على كل الكلمات دون أن ندرك معناها، ليس هذا هو المطلوب، ذلك ليس أكثر من نوايا، مظاهر. يلزم الرجل الحاسم شيء آخر، من خلال الطب، الذي لم أكن موهوبًا جدًّا فيه، ورغم كل ذلك، فقد اقتربت كثيرًا من البشر، الحيوانات، من كل شيء. الآن لم يعد هناك ما يمكن عمله إلا المضي صراحةً، إلى مكان العمل. الموت يطاردك؛ يجب أن نسرع ويجب أن نأكل أيضًا ونحن نقوم بالبحث ثم نفلت، فضلاً عن ذلك، من الحرب. هناك إذًا الكثير مما يجب القيام به. لم يكن ذلك بالأمر السهل.

في أثناء ذلك، وبخصوص المرضى، لم يكن يأتي الكثير منهم. "يلزمك بعض الوقت للانطلاق" هكذا كان يقال لي لطمأنتي. الآن، كان المريض هو أنا على وجه الخصوص.

كنت أرى أنه ليس هناك مكان أكثر إثارة للرثاء من رانسي– لاجارين، إلا في ما ندر، عندما لا يوجد زبائن. يمكنا أن نقول ذلك. لا يجب أن نفكر عندما نكون في هذه الأماكن، وأنا الذي جئت إلى هنا خصوصًا لأفكر بهدوء، بل ومن الجهة الأخرى من الأرض أيضًا! لقد واتاني الحظ. أنا المتغطرس التافه. جاءني ثقيلاً حالكًا.. ليس هناك ما يبعث على الضحك، ثم لم يفارقني بعد ذلك. العقل طاغية لا يرحم، لا نظير له.

أسفل البناية التي أسكن فيها، يقطن "بيزان" تاجر الأشياء المستعملة الذي كان يقول لي دائمًا عندما أتوقف أمام دكانه: "عليك أن تختار، يا دكتور! إما أن تراهن في سباق الخيل أو أن تتناول الأبريتيف، إما هذا أو ذاك! لا يمكننا أن نفعل كل شيء. أنا أفضِّل تناول الشراب! لا أحب المراهنة".

بالنسبة إليه، كان الأبريتيف هو المفضل، وكان ذلك هو كوكتيل الجينيان– كاسيس. لم يكن شريرًا في العادة، لكنه بعد الإفراط في الشراب لا يعود شديد اللطف. عندما كان يذهب لشراء مؤنته من "سوق البراغيث" كان يبقى خارج البلدة ثلاثة أيام، في "حملة"، كما كان يطلق على سفرته تلك، إلى أن يُعاد إلى رانسي. حينذاك، كان يلقي بنبوءته:

"المستقبل، أنا أرى كيف سيكون، سيكون مثل حفلة جنس جماعي لن تنتهي أبدًا.. تتخللها مشاهد سينمائية.. يكفي أن ترى كيف هي الحال الآن".

بل إنه في تلك الحالات كان بعيد النظر أيضًا: "كما أرى أنهم لن يستمروا في الشرب.. أنا الأخير، الذي سيشرب في المستقبل.. لابد أن أسرع.. أنا أدرى بعيوبي".

في شارعي، يسعل الجميع. يشغلهم ذلك. لكي ترى الشمس، عليك أن تصعد على الأقل إلى كنيسة القلب المقدس، بسبب الأدخنة.

من هناك، حيث تكون الإطلالة رائعة، ندرك جيدًا أن ما في قاع السهل، هو نحن، والبيوت التي نسكنها. لكن عندما نبحث عنها بالتفصيل، لا نعثر عليها، حتى منازلنا، لشدة قبحها، ولشدة قبح ما نراه أيضًا.

في القاع أيضًا، في مكان أبعد، يجري نهر السين، دبقًا، متعرجًا من جسر إلى آخر.

عندما يسكن المرء رانسي، لا يعود يدرك حتى إنه قد صار شخصًا حزينًا. لا تعود لديه الرغبة في عمل شيء مهم، هذا كل ما في الأمر. لفرط ما نقتصد في كل شيء، بسبب كل شيء، تموت فينا كل الرغبات.

طوال شهور كنت أقترض النقود من هنا ومن هناك. كان الناس في الحي شديدي الفقر، شديدي الحذر، لدرجة أنه كان لا بد أن يحل الليل حتى يقرروا استدعائي، أنا، الطبيب، رغم أجري المتواضع. هكذا طفت ليالي وليالي سعيًا وراء عشرة فرنكات وخمسة عشر فرنكًا عبر ساحات صغيرة لا قمر فيها.

في الصباح، يصبح الشارع كطبل كبير بسبب نفض السجاجيد.

في ذلك الصباح، قابلت "بيبير" فوق الرصيف، الذي كان يحرس مسكن خالته البوابة التي ذهبت لقضاء بعض الحاجات، هو الآخر كان يثير سحابة من الغبار فوق الرصيف بمكنسته، الأخ بيبير.

الشخص الذي لا يثير غباره في تلك الأماكن، في السابعة تقريبًا، يعد خنزيرًا حقيقيًّا في شارعه. نفض السجاجيد دليل على النظافة، البيت المعتنَى به. هذا يكفي. يمكن أن يفوح فم المرء برائحة خبيثة، لكنه يطمئن ويرتاح ضميره بمجرد أن ينفض سجاجيده أو يكنس رصيفه. كان بيبير يبتلع كل ما يثيره من غبار ثم كل الغبار الذي تبعث به طوابق العقار. غير أن بعض بقع الشمس كانت تصل إلى بلاط الشارع، لكن، كما نراها داخل الكنيسة، شاحبة ومخفضة، صوفية.

كان بيبير قد رآني قادمًا. كنت طبيب الحي، في الموضع الذي تتوقف فيه الحافلات. سحنة شديدة الاخضرار، تفاحة لن تنضج أبدًا، وجه بيبير. كان يحك جسده، وبعثت رؤيته فيّ أنا الآخر الرغبة في أن أحك جسدي. ذلك لأني أنا الآخر، حقيقةً، كنت قد التقطت بعض البراغيث، في أثناء الليل، من المرضى. كانت تقفز إلى معطفك طواعيةً لأنه أدفأ الأماكن المتاحة والأكثر رطوبة.

تخلى بيبير عن سجادته ليتمنى لي نهارًا طيبًا. من كل النوافذ شاهدونا نتبادل الحديث معًا.

ما دام كان من الواجب أن يحب المرء شيئًا ما، فإن المجازفة مع الأطفال تكون أقل منها مع الكبار، فلدينا على الأقل العذر في أن نأمل أن يكونوا أقل سوءًا منا نحن فيما بعد. لسنا ندري.

على وجهه الشاحب تراقصت ابتسامة الود الخالص الأبدية الصغيرة تلك، التي لم أستطع نسيانها مطلقًا. بهجة تكفي الكون كله.

قليل من الكائنات يتبقى له بعد أن يتجاوز العشرين قليل من تلك المودة السلسة، مودة الحيوانات. العالم ليس كما نظنه! هذا هو كل شيء. إذًا، تغيرت وجوهنا! وكيف! طالما خُدعنا! كل هذا السوء الذي صرنا إليه في لمح البصر! ها هو ما يتبقى على الوجه بعد مرور عشرين سنة! غلطة! وجهنا ليس إلا غلطة. قال بيبير: "إيه، دكتور! أليس صحيحًا ما قيل عن قتيل عُثر عليه بميدان (دي ڤيت)؟ وأنه كان مذبوحًا بشفرة الحلاقة؟ ألم تكن أنت طبيب المناوبة؟ أصحيح هذا؟"

"لا، لم أكن أنا طبيب المناوبة، بيبير، لم أكن أنا، كان الدكتور فروليشون".

"يا للخسارة، لأن خالتي قالت إنها كانت تتمنى أن تكون أنت.. لأنك كنت ستروي لها كل شيء".

"ليكن ذلك في المرة المقبلة، بيبير".

"كثيرًا ما يُقتل بعض الناس في هذه الجهة، أليس كذلك؟"

كدت أتجاوز الغبار الذي يثيره بيبير، لكن عربة الكنس التابعة للبلدية مرت، هادرة، بالقرب مني جدًّا، في تلك اللحظة نفسها، كإعصار هائل أهوج يندفع سيولاً ويغمر الشارع كله بسحابات أخرى من العُفار، لاذعة، أكثر كثافة. لم يعد أحد يرى أحدًا. كان بيبير يقفز من اليمين إلى اليسار، عاطسًا، زاعقًا، مبتهجًا. كان وجهه المتعب، شعره اللزج، ساقاه اللتان تشبهان ساقَي قرد نحيل، كل هذا كان يتراقص خلف عصا المكنسة.

عادت خالة بيبير من رحلة التسوق، وكانت قد احتست قبلاً كأسها المعتادة، يجب أن نقول أيضًا إنها كانت تستنشق قليلاً من الأيتير، عادة اكتسبتها عندما كانت تعمل لدى أحد الأطباء، وأصابها ألم شديد في ضروس العقل. الآن لم يعد يتبقى لها سوى سنتين أماميتين فقط، لكنها لا تغفل مطلقًا تنظيفهما بالفرشة.

"عندما يكون الشخص مثلي، قد عمل لدى أحد الأطباء، فإنه يعرف قواعد الصحة العامة". كانت تقدم استشارات طبية في الجوار، بل وحتى أبعد من ذلك حتى "بيزون".

كان مهمًّا بالنسبة إليَّ أن أعرف إذا ما صادف وفكرت خالة بيبير في شيء ما. لا. لم تكن تفكر في شيء. كانت تتكلم كثيرًا دون أن تفكر مطلقًا. عندما كنا وحدنا، دون فضوليين حولنا، كانت تسألني بدورها إحدى النصائح. من جهة ما كان ذلك يدعو للزهو.

"بيبير، يا دكتور، يجب أن أقول لك، لأنك طبيب، إنه سافل صغير.. إنه يستمني، لقد انتبهت إلى ذلك منذ شهرين، وسألت نفسي: مَن استطاع أن

يعلمه هذه القذارة؟ رغم أني قد أحسنت تربيته! لقد نهيته عن هذا.. لكنه يعود إليه دائمًا".

"قولي له إنه سوف يُجن بسبب ذلك. نصيحة تقليدية".

بيبير، الذي كان يسمعنا، لم يكن راضيًا.

"أنا لا أستمني، هذا غير صحيح، إنه الفتى جاجا الذي عرض عليَّ القيام بذلك".

"أرأيت؟ لقد كنت أشك فيهم" قالت الخالة، "في أسرة جاجا، أتعرف، هؤلاء الذين يقطنون في الخامس؟ إنهم فاسقون كلهم. فالجد، على ما يبدو كان يغازل مروضات الوحوش، أليس كذلك؟ بينما نحن هنا، قل لي يا دكتور: ألا تستطيع أن تصنع له شرابًا يمنعه من القيام بذلك؟"

تبعتها حتى مسكنها لكي أكتب لها دواء مضادًّا للرذيلة من أجل الفتى بيبير. كنت مجاملاً جدًّا مع كل الناس، وكنت أعرف ذلك جيدًا. لم يكن أحد يدفع لي. كنت أفحصهم مجانًا، من باب الفضول أولاً. كان ذلك خطأ. الناس يثأرون من الخدمات التي تسدى إليهم. استفادت خالة بيبير مثل الآخرين من تجردي المتعالي. بل إنها استغلت ذلك بدناءة. استسلمت، كذبت. جاريتهم. سيطر عليَّ المرضى المتباكون، يوم بعد آخر، أكثر فأكثر، ساقوني تحت رحمتهم. في الوقت نفسه، كانوا يكشفون لي عن كل ما كانوا يخفونه في حوانيت أرواحهم من قبح إلى قبح ولم يكونوا يظهرونه لأحد سواي. لن تقدَّر جهود الاستماع إلى هذه الفظائع بما يكفي أبدًا، لن أجازَى بما يكفي أبدًا. لكنها تنسل من بين أصابعك كأنها ثعابين لزجة.

سوف أبوح بكل شيء يومًا ما.. إذا استطعت أن أعيش زمنًا طويلاً كي أروي كل شيء.

"انتبهوا، أيها الأنذال، دعوني ألاطفكم خلال بضع سنوات أخرى. لا تقتلوني الآن. ذليل، أعزل كما أبدو في أعينكم، سأبوح بكل شيء. أؤكد لكم ذلك، سوف تلتوون وتلتفّون على أنفسكم ساعتها مرة واحدة مثل الديدان التي يسيل لعابها، التي كانت تأتي لتصب قذارتها في كوخي في إفريقيا، وسأجعلكم أكثر منها جبنًا ودناءة وخبثًا أيضًا، ربما أدى ذلك إلى هلاككم، أخيرًا".

"هل هو حلو المذاق؟" سألني بيبير بشأن الدواء.

لا تحلِّه له.. خصوصًا لا تحلِّه له. أوصتني الخالة. لا تُحلِّ الدواء لهذه الجيفة الحقيرة.. إنه لا يستحق أن يكون دواؤه حلوًا فضلاً عن أنه يسرق مني ما يكفي من السكر! إن فيه كل العيوب، كل الصفاقة! سوف تنتهي به الحال إلى قتل أمه.

"ليست لي أم" رد بيبير -الذي لم يفقد صوابه - على نحو قاطع.

"تبًّا" قالت الخالة حينذاك. "سوف أضربك علقة بمنفضة السجاد إذا رددت عليَّ!" ثم ها هي تمضي لتأتي بالمنفضة المعلقة على الحائط، لكن بيبير كان قد انسل بالفعل إلى الشارع. "فاسقة!" صاح في وسط الرواق. احمرت الخالة خجلاً وعادت نحوي. لحظة صمت، ثم تبادلنا الحديث.

"ربما كان عليك، يا دكتور، أن تذهب لرؤية السيدة التي تقطن الطابق المسروق في البناية رقم 4 شارع (ديه مينور).. إنها موظفة سابقة لدى أحد موثقي العقود، لقد حدثها البعض عنك.. وقد قلت لها إنك طبيب بالغ اللطف مع المرضى".

عرفت على الفور أنها تكذب عليَّ، الخالة. إن طبيبها المفضل هو فروليشون. إنها توصي به دائمًا، عندما تستطيع، أما أنا وعلى العكس، كانت تذمني في كل مناسبة. جلبت لي نزعتي الإنسانية كرهًا غريزيًّا من جانبها. إنها بهيمة، لا

يجب أن ننسى ذلك. غير أن فروليشون، الذي تعجب به، كان يجعلها تدفع نقدًا، وساعتها كانت تستشيرني، واقفة وبسرعة. في ما يتعلق بمسألة أنها قد أوصت بي، فلا بد أنها مهمة مجانية تمامًا أو عملية دنيئة ومثيرة للريبة. مع كل ذلك، كنت أفكر في بيبير وأنا أمضي إلى سبيلي. قلت لها:

"لا بد أن يخرج. إنه لا يخرج على نحو كافٍ هذا الصبي".

"أين تريد أن نذهب نحن الاثنين؟ لا يمكنني أن أذهب بعيدًا مع مسؤولياتي هنا".

"اذهبي معه على الأقل إلى المتنزه يوم الأحد".

"لكن هناك من الناس ومن الغبار في المتنزه أكثر من هنا.. والناس بعضهم فوق بعض".

كانت ملاحظتها في محلها، بحثت عن مكان آخر لأنصحها بالذهاب إليه.

بخجل، اقترحت المقابر.

مقبرة لاجارين– رانسي، إنها المكان الوحيد المتسع الذي يضم بعض الأشجار في المنطقة.

"عجبًا، هذا صحيح، لم أفكر فيها، قد يمكننا بالفعل أن نذهب إلى هناك!"

هنا بالضبط عاد بيبير.

"إيه، بيبير، هل يروقك الذهاب للتنزه في المقابر؟ لا بد أن أسأله، يا دكتور، لأن له طبعه العنيد أيضًا حتى في ما يتعلق بالنزهة، لا بد أن أنبهك".

بيبير تحديدًا لم يكن له أي رأي. لكن الفكرة راقت الخالة، وهذا يكفي. إنها ضعيفة أمام المقابر، الخالة، مثل كل أهل باريس. يبدو أنها، بخصوص تلك

المسألة، ستأخذ في التفكير. تزن ما للأمر وما عليه. منطقة التحصينات، سوقية بأكثر مما يحتمل.. في المتنزه، هناك الكثير جدًّا من الغبار حقًّا.. بينما المقابر، وهذا حقيقي، لا بأس بها.. فضلاً عن أن من يذهب إلى هناك يوم الأحد هم بالأحرى أناس محترمون حسنو السلوك.. وإضافة إلى ذلك، فإن ما يجعل الأمر مناسبًا ونافعًا، أنه يمكننا، في طريق العودة، قضاء حوائجنا إذا مررنا بشارع "لا ليبرتيه"، حيث ما زال هناك بعض الحوانيت التي تفتح يوم الأحد.

ثم قالت في الختام: "بيبير، اذهب لمرافقة الدكتور إلى منزل مدام هنرووي، شارع ديه مينور.. أنت تعرف جيدًا أين تسكن السيدة هنرووي، أليس كذلك يا بيبير؟"

كان بيبير يعرف كل شيء، شريطة أن يكون ذلك فرصة للقيام بنزهة قصيرة.

الفصل 24

المقطع الحادي والعشرون

بين شارع فنترو وساحة لينين لم تعد هناك إلا بنايات مؤجرة. لقد استولى المقاولون على كل ما تبقى من الريف تقريبًا، أرض الأرانب البرية، كما كان يطلق عليها. لقد تبقى القليل منها فقط صوب النهاية، عدة قطع من الأراضي البور، بعد مصباح الغاز الأخير.

محاصرًا هكذا، بين الأبنية، يتعطن بعض المنازل متينة البناء. أربع حجرات ومدفأة ضخمة في الرواق الموجود بالأسفل، لا تكاد تشعل فيها النار، حقيقة، لدواعي التوفير، ينفث الدخان في الجو الرطب. إنها بيوت "أصحاب الإيرادات"، من تبقى منهم. ما إن يدخل المرء بيوتهم حتى ينتابه السعال بسبب الدخان. إنهم ليسوا من أصحاب الإيرادات الأغنياء، هؤلاء الذين تبقوا هنا، لا، وخصوصًا آل هنرووي، حيث أُرسلت. لكنهم على أي حال كانوا يملكون شيئًا ما، وإن كان ضئيلاً. إضافة إلى رائحة الدخان، يشم المرء عند الدخول إلى منزل آل هنرووي رائحة دورات المياه واليخنة. كانوا قد سددوا لتوهم أقساط مسكنهم، مثّل ذلك مدخرات أكثر من خمسين سنة. ما إن يدخل المرء عندهما وما إن يراهما حتى يسأل نفسه ماذا حل بهما.. كليهما. حسنًا، ما كان غير طبيعي لدى آل هنرووي، أنهما لم ينفقا مطلقًا وطوال خمسين عامًا قرشًا واحدًا دون أن يتحسرا هما الاثنان على ذلك. كان امتلاكهما للمنزل لقاء ما دفعا من الروح والجسد، مثل الحلزون. لكن الحلزون، عن نفسه، يقوم بذلك دون أن يقصد.

لم يكن آل هنرووي يصدقان أنهما قد أفنيا حياتيهما لمجرد امتلاك منزل، وكان ذلك يدهشهما كما يندهش المساجين الذين أُطلق سراحهم للتو. لا بد أنهم

يبدون في هيئة مضحكة، هؤلاء الناس، عندما يجري إخراجهم من سجون النسيان.

كان الزوجان هنرووي، يفكران بالفعل، من قبل أن يتزوجا، في شراء منزل. كلٌّ على حدة أولاً، ثم معًا، بعد الزواج. كانا يرفضان أن يفكرا في شيء آخر طوال نصف قرن، وعندما كانت ظروف الحياة ترغمهما على التفكير في شيء آخر، في الحرب مثلاً، وعلى نحو خاص في ابنهما، كان ذلك يصيبهما بالجنون.

عندما انتقلا إلى مسكنهما، عروسين، ومع كل منهما مدخرات عشر سنوات مضت، لم يكن البيت قد اكتمل بعد تمامًا. كان لا يزال واقعًا وسط الحقول، مسكنهما. للوصول إليه، في الشتاء، كان لا بد لهما من انتعال قباقيب خشبية، كانا يتركانها عند بائع الفاكهة الموجود على ناصية شارع "لاريڤولت(36)" عند الذهاب إلى العمل في الصباح، في السادسة، بعد أن يذهبا إلى محطة الترام، على ظهر حصان، ثم التوجه إلى باريس، على بُعد ثلاثة كيلومترات من هنا، لقاء قرشين.

(36) Le coin de la Révolte، ليس هو شارع التمرد ولكن طريق التمرد في الجزء من مساره الذي كان يعبر ضاحية كليشي Clichy، وهو يتطابق اليوم مع جادتي دوامون Douaumont، وڤيكتور هوجو Victore – Hugo. (المترجم)

كان الحفاظ على نظام كهذا، طيلة حياة كاملة، دليلاً على حالة صحية طيبة. كانت صورتهما، المأخوذة في يوم زفافهما، معلقة فوق الفراش، في الطابق الأول. كما كانت غرفة نومهما مدفوعة الثمن، وكذلك الأثاث، وحتى منذ زمن طويل. وفضلاً عن ذلك، كانت الإيصالات كلها المُسددة منذ عشر سنين، عشرين، أربعين، مُشبكة معًا، موضوعة في الدرج الموجود أعلى الخزانة الصغيرة "الكومودينو"، أما دفتر الحسابات المكتملة حتى تاريخه فكان موجودًا بالأسفل، في قاعة الطعام، التي لا يتناول فيها أحد الطعام مطلقًا. لو

أراد أحد أن يرى كل هذا، فإن هنرووي سوف يعرضه عليه. في يوم السبت، يوازن الرجل الحسابات في قاعة الطعام. يتناول الزوجان هنرووي دائمًا الطعام في المطبخ.

شيئًا فشيئًا، عرفت كل هذا، منهما ثم من آخرين فضلاً عن خالة بيبير. وعندما عرفتهما أفضل، أخبراني بنفسيهما عن خوفهما الكبير، الذي لازمهما طوال عمريهما، الخوف من أن يقوم ابنهما، المشتغل بالتجارة، بصفقات خاسرة. طوال ثلاثين عامًا، كان ذلك الخاطر المزعج، يؤرقهما، كل ليلة تقريبًا، كثيرًا أو قليلاً. لقد ترسخ ذلك الفتى في تجارة الريش، تخيل كم تعرض سوق الريش لأزمات منذ ثلاثين سنة! ربما لم توجد مهنة أسوأ من تجارة الريش، وأقل استقرارًا.

هناك أعمال راكدة جدًّا لدرجة أن المرء لا يفكر حتى في اقتراض الأموال لتعويمها، لكن هناك أخرى يمكن دائمًا الاقتراض بشأنها على نحو أو آخر. عندما كانا يفكران في قرض كهذا، حتى الآن وقد سُدد ثمن المنزل وكل مشتملاته، كانا ينهضان من مقعديهما، ويتبادلان النظر في ارتباك. ماذا كانا يفعلان في موقف كهذا؟ كانا سيرفضان.

كانا قد قررا أن يرفضا أي استدانة منهما.. مراعاةً للمبادئ، ليحتفظا له بمال مدخر، بميراث ومنزل.. لابنهما، بالتركة. هكذا كانا يفكران. كان صبيًّا جادًّا بالتأكيد، ابنهما، لكن في عالم الأعمال، يمكن للمرء أن يجد نفسه متورطًا. لو سُئلت، أنا، لفعلت مثلهما تمامًا.

أمي أيضًا كانت تعمل بالتجارة، لم تجلب لنا تجارتها سوى قليل من الخبز وكثير من المتاعب. لذلك، لم أكن أنا أيضًا أحب التجارة. الخطر الذي يتعرض له هذا الابن، خطر القرض الذي يمكن أن يلجأ إليه في أسوأ الحالات في حال تعرضه لاستحقاق خطر، كنت أفهم ذلك، فورًا. لم يكن هناك داعٍ للتفسير. كان هنرووي، الوالد، كاتبًا صغيرًا لدى أحد موثقي العقود في شارع

سباستبول لمدة خمسين عامًا. لذلك، كان يعرف قصصًا عن تبديد الثروات! بل إنه قد روى لي بعض أشهرها. قصة والده شخصيًّا في البداية، بل إنه بسبب إفلاس والده لم يتمكن من الانخراط في مهنة التدريس، بعد حصوله على شهادة الثانوية، وأنه اضطر إلى أن يجد على الفور وظيفة في مجال الأعمال الكتابية. يتذكر المرء دومًا مثل هذه الأشياء.

وأخيرًا، بعد سداد ثمن مسكنهما، امتلكاه بالفعل وكل شيء، لم يعد هناك قرش واحد من الديون، لم يعد هناك ما يقلقهما، كليهما، بشأن تأمين المستقبل! حدث هذا في عامهما السادس والستين.

ها هو يشرع الآن تحديدًا في الشعور بضعف غريب، أو بالأحرى أنه كان يشعر منذ وقت طويل بهذا القدر من التعب، لكن من قبل، لم يكن يلقي له بالاً، بسبب المنزل الذي يجب سداد أقساطه. وعندما صارت من تلك الناحية المسألة منتهية، مفروغًا منها وموقعة بالفعل، بدأ في التفكير في توعكه الغريب. كانت تنتابه مثل نوبات دوار ثم صفير كصفير البخار في أذنيه الاثنتين.

في ذلك الوقت تقريبًا شرع في شراء الجريدة اليومية ما دام من الميسور دفع ثمنها من الآن فصاعدًا! وصادف أن كل ما كان يشعر به هنرووي في أذنيه كان مكتوبًا وموصوفًا في الجريدة. وعليه فقد اشترى الدواء الذي يوصي به الإعلان، لكن ذلك لم يغير شيئًا من معاناته، على العكس، بدا أن صفير أذنيه يزداد. ربما كان يزداد بمجرد التفكير فيه؟ رغم كل هذا فقد ذهبا معًا لاستشارة طبيب المستوصف. قال لهما الطبيب: "إنه الضغط الشرياني".

صدمته تلك العبارة، لكن الحقيقة أن ذلك الهاجس قد أتاه في حينه. لقد شغل باله كثيرًا طوال سنوات طويلة من أجل المنزل واستحقاقات الابن، لدرجة أن صار لديه فجأة مكان خالٍ في شبكة العذاب التي سيطرت علي جسده وروحه من أربعين سنة وقت سداد الاستحقاقات وبالحماس الدائم المذعور نفسه. أما الآن وقد حدثه الطبيب عن ضغطه الشرياني، فقد صار يسمعه،

ضغطه هذا، يدق فوق وسادته، في أعماق أذنه. بل إنه كان ينهض ليجس نبضه، ثم كان يجلس في مكانه، بلا حراك، بالقرب من فراشه، في جوف الليل، وقتًا طويلاً يقول لنفسه إن هذا هو موته، كان يخاف دائمًا من الحياة، الآن يربط خوفه بشيء آخر، بالموت، بضغطه، كما ربطه طوال أربعين سنة بخطر عدم القدرة على استيفاء دفع ثمن المنزل. كان تعيسًا دائمًا، بقدر ما، لكن كان عليه مع ذلك أن يسارع بالعثور على مبرر جديد مناسب ليكون تعيسًا، ليس ذلك من السهل كما يبدو للبعض. ليس المهم أن يقول المرء: "أنا تعيس". يجب أيضًا أن يثبت ذلك لنفسه، أن يقنع نفسه نهائيًّا. لم يكن يطلب أكثر من ذلك: أن يمنح الخوف الذي يعتريه مبررًا جيدًا، متينًا بالفعل، مقبولاً بالفعل. وفقًا للطبيب كان ضغطه اثنين وعشرين. إن الاثنين والعشرين شيء جديد بالاعتبار. لقد علّمه الطبيب أن يجد الطريق إلى موته.

أما الابن تاجر الريش العتيد، الذي يدور حوله كل هذا الضجيج، فلم يكن يُرى تقريبًا مطلقًا. مرة أو مرتين قرب ليلة رأس السنة. لا أكثر. لكن قد يمكنه الآن أن يأتي دائمًا على كل حال إلى هنا تاجر الريش! فلم يعد هناك شيء يمكن اقتراضه من بابا وماما. لذلك، لم يعد الابن يأتي إلى هنا تقريبًا.

أما السيدة هنرووي، فقد أنفقتُ وقتًا أطول لأتعرف إليها؛ لم تكن تعاني من أي قلق، حتى القلق بشأن موتها الذي لم تكن تتصور وقوعه. كانت تشكو من تقدم عمرها فقط، لكن دون أن تفكر في ذلك حقًّا، كي تفعل مثل الجميع، كما كانت تشكو أيضًا من ارتفاع أسعار المعيشة. كان واجبها الأساسي قد أُنجز. المنزل مسدد الثمن بالكامل. بل إنها من أجل الانتهاء من الكمبيالات الأخيرة بصورة أسرع، كانت قد أخذت في خياطة أزرار الصدريات لحساب أحد المحلات الكبرى. "كان العدد الذي يجب أن تحيكه لقاء مئة قرش عددًا مهولاً غير معقول!" ولتوريد إنتاجها بالباص، كانت هناك دائمًا مشكلات الدرجة الثانية، بل إنها قد تعرضت للضرب ذات مساء ما. كانت امرأة أجنبية، أول أجنبية تراها، الوحيدة التي كانت قد تكلمت معها، لتوبيخها.

في ما مضى كانت جدران المنزل لا تزال تحتفظ بجفافها، عندما كان الهواء لا يزال يحيط بها من كل جانب، لكن الآن وقد حاصرته البنايات السكنية العالية، بات كل شيء في بيتهما يقطر رطوبة، حتى الستائر التي تبقعت بالعفن.

بعد اقتناء المنزل، بدت السيدة هنرووي مبتسمة طيلة الشهر التالي، مثالية، متهللة كراهبة بعد تناول القربان المقدس (المناولة).

بل إنها كانت هي من اقترحت على هنرووي: "چول، أتعرف؟ ابتداءً من اليوم سوف نشتري الجريدة يوميًّا، يمكننا ذلك". هكذا. فكرت لتوها فيه، بدأت في النظر إليه، وحينذاك نظرت حولها ثم فكرت أخيرًا في أمه، حماتها.. السيدة هنرووي. هنا عادت فتاة جادة كما كانت، مرة واحدة، مثلما كانت قبل الانتهاء من سداد ثمن البيت. هكذا، مع ورود تلك الفكرة، بدأ كل شيء من جديد، لأنه ما زالت هناك نفقات يجب توفيرها بخصوص أم زوجها، بخصوص تلك المرأة العجوز، التي لم يكن الزوجان يتحدثان عنها كثيرًا، ولا إلى أي شخص في الخارج.

كان مسكنها في مؤخرة الحديقة، في ذلك المكان المسوَّر حيث تتكوم المكانس وأقفاص الدجاج القديمة وكل ظلال مباني الجوار. كانت تقطن بيتًا غير مرتفع لم تكن تخرج منه تقريبًا على الإطلاق. فضلاً عن أن مجرد إدخال الطعام إليها كان يثير متاعب لا تنتهي. لم تكن تسمح بدخول أي شخص إلى كوخها، ولا حتى ابنها. كانت تخاف أن تُقتل، كما كانت تقول.

عندما واتت زوجة الابن فكرة الشروع في البدء بمدخرات جديدة، تحدثت أولاً إلى زوجها، لتختبر نواياه، لترى إذا لم يكن من الممكن مثلاً إدخال العجوز لدى أخوات القديس ڤانسان(37)، راهبات يرعين تحديدًا العجائز المخرفات في ملجأهن. لم يُجب الابن بنعم أو لا. في ذلك الوقت، كان شيء آخر هو ما يشغل باله، تلك الأصوات التي لم تكن تتوقف في أذنيه. لطول ما فكر فيها، لفرط ما سمعها، اعتقد أنها كانت تمنعه من النوم، تلك الأصوات البغيضة.

الواقع أنه كان يصغي إليها بدلاً من أن ينام، صفير، طبول، خرير.. كان ذلك عذابًا جديدًا. انشغل به طيلة النهار والليل. كان لديه، في داخله، كل الأصوات.

(37) ملجأ أو مضيفة L'Hospice، القديس ڤانسان دو بول. (المترجم)

مع ذلك، شيئًا فشيئًا، بعض الشهور على هذا النحو، كان قلقه يتناقص ولم يتبقَّ منه ما يكفي للانشغال به وحده، فعاد ساعتها إلى سوق "سانت أوين" مع زوجته. كانا ينطلقان في الصباح ليمضيا هناك طيلة النهار، بسبب الحسابات والملاحظات التي كانا يتبادلانها بشأن أسعار الأشياء وما كان يمكن توفيره لو اشتريا هذا بدلاً من ذاك. نحو الحادية عشرة مساءً، في منزلهما، كان الخوف من تعرضهما للقتل يعتريهما من جديد. كان خوفًا معتادًا، لكن شعوره به كان أقل من زوجته. بالنسبة إليه كانت تلك الأصوات التي تتردد في أذنيه هي ما يتعلق بها، في نحو تلك الساعة، عندما يكون الشارع قد صار هادئًا تمامًا. كان يكرر لنفسه بأعلى صوت: "لن أنام أبدًا في هذه الأصوات!" ليزيد من عذاباته. "لا يمكنك تصور ذلك!"

لكنها لم تحاول قط أن تفهم ما يريد أن يقوله ولا أن تتخيل ما كان يزعجه في آلام أذنيه هذه. كانت تسأله: "هل تسمعني جيدًا رغم ذلك؟"

"نعم أسمعكِ". كان يرد.

"حسنًا، لا بأس إذًا. من الأفضل إذًا أن تفكر في أمك التي تكلفنا كثيرًا جدًّا وفي أن الغلاء يتزايد في كل يوم.. وأن مسكنها قد صار مصدرًا حقيقيًّا للعدوى".

كانت الخادمة تمضي عندهما ثلاث ساعات أسبوعيًّا للغسيل، كانت تلك الزيارة الوحيدة التي تلقياها خلال سنوات عديدة. كانت تساعد مدام هنرووي التي كانت تقول لها بأعلى صوت ممكن، في كل مرة كانتا تقلبان فيها الحشية، وذلك منذ عشر سنوات مضت: "نحن لا نحتفظ مطلقًا بأي نقود في

المنزل". هكذا، من باب الإيحاء والاحتياط، لإبعاد وإحباط اللصوص والقتلة المحتملين.

قبل الصعود، معًا، إلى غرفتهما، كانا يغلقان بعناية شديدة كل المخارج، كان أحدهما يراجع الآخر. فضلاً عن ذلك، كانا يمضيان ليلقيا نظرة على مسكن الأم، في مؤخرة الحديقة، ليريا إذا ما كان مصباحها الزيتي لا يزال مضاءً. كان ذلك دليلاً على أنها ما زالت على قيد الحياة. كانت تستهلك الكثير من الزيت! لم تكن تطفئه إطلاقًا، مصباحها هذا. كانت تخاف من القتلة أيضًا، وتخاف من أبنائها في الوقت نفسه. منذ عشرين عامًا وهي تعيش هناك، لم تفتح نوافذها قط، لا شتاءً ولا صيفًا، ولم تطفئ مصباحها كذلك قط.

كان ابنها يحتفظ لها بأموالها، بعض الإيرادات الضئيلة. كان يعتني بأمرها. كانت وجباتها توضع لها أمام الباب. النقود في أمان في حوزة الابن. كانت الأمور تجري طيبة على هذا النحو. لكنها كانت تشكو وتتبرم من كل هذه الترتيبات، وليس فقط من الترتيبات، لكن من كل شيء. عبر الباب، كانت تزجر كل من يقترب من غرفتها. كانت زوجة الابن تحاول أن تطيل معها الحديث: "ليس ذنبي أنكِ تتقدمين في العمر، أيتها الجدة، أنتِ تشعرين بآلام، مثل كل العجائز".

"العجوز هو أنتِ! أيتها السافلة! أيتها الفاجرة، أنتِ التي سوف تقضين عليَّ بأكاذيبك الحقيرة".

كانت السيدة هنرووي الأم تنكر شيخوختها بكل عنف. وعبر بابها، كانت تقاوم، بصلابة لا تلين، كل ويلات العالم. كانت ترفض الاتصال، والتنازلات وأقدار الحياة الخارجية، بوصفها غشًّا وخداعًا رخيصًا. لم تكن تريد أن تسمع شيئًا عن هذا كله. "إنها مجرد حيل. وأنتم مَن اخترعها!" كانت تصرخ في وجوههم.

ضد كل ما يدور خارج بيتها كانت تدافع عن نفسها بكل ضراوة، وكذلك ضد كل محاولات التقرب والتصالح أيضًا. كانت على يقين بأنها إذا فتحت بابها فإن القوى المعادية سوف تندفع داخل بيتها وتختطفها وسينتهي كل شيء إلى الأبد.

كانت تصرخ: "إنهم ماكرون، أبناء اليوم. إن لهم أعينًا في كل مكان حول رؤوسهم وأفواهًا تصل إلى فتحة الشرج وأفواهًا أخرى في كل مكان أيضًا، وكل هذا من أجل الكذب فقط.. إنهم هكذا".

كانت تتكلم باسترسال مندفع كما تعودت أن تتكلم في سوق دو تمبل بباريس، كبائعة أشياء مستعملة مع أمها في صباها الباكر.. كانت تجيء من زمن لم يكن فيه البسطاء قد تعلموا بعد الاستسلام للشيخوخة.

كانت تصرخ في وجه زوجة ابنها: "أريد أن أعمل، إن كنتِ لا تريدين أن تعطيني مالي! هل تسمعينني جيدًا أيتها المحتالة؟ أريد أن أعمل".

"لكنكِ لا تستطيعين الآن يا جدتي!"

"آه، أنا لا أستطيع! حاولي إذًا الدخول إلى جحري حتى نرى! سوف أريكِ إن لم أعد أستطيع".

ثم تُترك ثانيةً في حجرتها مشغولة بالدفاع عن نفسها. ومع كل ذلك، كانا يريدان بكل الوسائل أن يرياني العجوز، لقد استُدعيت من أجل ذلك، ولكي تستقبلنا، تطلّب الأمر حيلة هائلة. ومن جهة أخرى، وحتى لا أخفي شيئًا، لم أكن أرى بوضوح ماذا يريدان مني. لقد كانت البوابة، خالة بيبير، هي من كررت على مسامعهما أني كنت طبيبًا طيبًا بالفعل، ودودًا بالفعل، متساهلاً بالفعل.. كانا يريدان أن يعرفا إن كان باستطاعتي أن أبقيها هادئة بالعقاقير وحدها، عجوزهما المخرفة.. لكن ما كان يرغبان فيه أكثر، في الحقيقة (خصوصًا زوجة الابن) هو أن أحتجزها في أحد الملاجئ نهائيًّا.

بعدما دققنا الباب طوال أكثر من نصف ساعة، انتهت إلى فتحه دفعة واحدة ووجدتها أمامي، بعينيها المحاطتين بإفرازات وردية اللون. لكن نظرتها مع ذلك كانت تتراقص بالغة المرح فوق وجنتيها المجعدتين السمراوين، نظرة تسترعي انتباهك وتجعلك تنسى الباقي، بسبب البهجة الرقيقة التي تمنحها إياها رغمًا عنها والتي نسعى للاحتفاظ بها غريزيًّا داخلنا بعد ذلك، الشباب.

تلك النظرة الجذلة التي كانت تبعث الحياة في كل ما حولها، في الظل، بفرحة صبيانية، بحماس ضئيل لكنه نقي لم يعد في متناول أيدينا، صوتها الأجش، مبتهجًا، يصاحب الكلمات، عندما تصيح، عندما كانت تريد أن تتكلم مثل كل الناس، وتجعل العبارات والجمل حينذاك تتراقص وتحجل وكل شيء وترتد مفعمة بالحياة بصورة مضحكة تمامًا، كما كان الناس يستطيعون القيام بذلك بأصواتهم والأشياء المحيطة بهم في الوقت الذي صار فيه عدم القدرة على السرد والغناء بالتناوب، بمهارة كبيرة، يعد أمرًا غبيًّا، شائنًا، دليلاً على الجنون.

كان العمر قد كساها، كأنها شجرة عتيقة مرتعشة، بأغصان مبتهجة.

كانت السيدة هنرووي العجوز امرأة مرحة، ساخطة، شحيحة ولكنها مرحة، لم تترك هذه الفاقة التي تعيش فيها منذ عشرين عامًا أي أثر على روحها. على العكس، كانت تنقبض وتتوجس مما يأتي من الخارج، كما لو كان البرد والموت وكل ما يثر الخوف لن يأتيها إلا من هناك، وليس من الداخل. داخل مسكنها، لم يكن يبدو أنها تخشى شيئًا، كانت تبدو متأكدة تمامًا من نفسها، مثل تأكدها من شيء مفروغ منه، نهائيًّا.

وأنا، الذي سعيت إليها كثيرًا، روحي، حول العالم كله أيضًا.

"مجنونة" هذا ما قيل عنها، العجوز، إنه قول متسرع.. "مجنونة". إنها لم تكن قد بارحت غرفتها أكثر من ثلاث مرات خلال اثني عشر عامًا.. هذا كل ما في

الأمر.. ربما كانت لها أسبابها.. لم تكن لتخبرنا بها.. تلك الأسباب، لم تكن لتقول لنا إن الحياة لم تعد تلهمنا.

عادت زوجة الابن، ابنتها كما كانت تقول عن نفسها، إلى مشروعها.. مشروع احتجاز العجوز في أحد الملاجئ. سألتني: "ألا تظن أنها مجنونة يا دكتور؟ لم تعد هناك طريقة لإخراجها! سوف يفيدها الخروج، على أي حال، من وقت إلى آخر.. لكن بكل تأكيد سوف يفيدك الخروج يا جدتي! لا تقولي لا.. سوف يفيدك الخروج.. أؤكد لكِ ذلك". كانت العجوز تهز رأسها، صارمة، متمنعة، معاندة، في حين كانا يدعوانها إلى الخروج على نحو ما سبق.

"إنها لا تريد أن يعتني بها أحد.. إنها تفضل أن (تفعلها) في الأركان.. الجو بارد في حجرتها ولا توجد نار.. مستحيل أن تظل على هذه الحال.. هيا لا تخافوا.. أليس كذلك يا دكتور؟ إن ذلك مستحيل".

تظاهرت بأني لا أفهم. أما السيد هنرووي، عن نفسه، فقد ظل بالقرب من المدفأة، كان يفضِّل ألا يعرف تحديدًا ماذا راح يُدبر في الخفاء بين امراته، أمه وأنا.

غضبت العجوز من جديد.

"ردوا إليَّ إذًا كل أملك وبعدها سوف أذهب من هنا. لدي ما أعيش منه.. أنا.. ولن تسمعوا عني بعدها نهائيًّا".

"لديكِ ما تعيشين منه؟ لكن يا جدتي، إنكِ لن تعيشي بفرنكاتك الثلاثة آلاف سنويًّا، هيا.. ماذا بكِ؟ لقد زاد الغلاء منذ آخر مرة خرجتِ فيها. أليس كذلك يا دكتور؟ أليس من الأفضل أن تذهب إلى الراهبات كما قلنا؟ أليس من الأفضل أن تعتني بها الراهبات؟ إنهن في غاية اللطف.. الراهبات".

غير أن فكرة الراهبات هذه كانت تصيبها بالرعب. قالت ثائرة على الفور:

"عند الراهبات؟ عند الراهبات؟ إنني لم أذهب يومًا عند الراهبات قط. لمَ لا أذهب إذًا إلى كاهن الرعية ما دمتما فكرتما في هذا الأمر! أليس كذلك؟ إن لم يكن لديَّ ما يكفي من المال كما تقولين، فسوف أمضي إذًا لأعمل من جديد".

"تعملين؟ أيتها الجدة! لكن أين هذا؟ آه! دكتور! اسمع هذه الفكرة: تعمل! في سنها هذه! في قرابة الثمانين من عمرها! هذا جنون أيها الطبيب! من ذا الذي قد يرغب في تشغيلها؟ لا، جدتي، أنتِ مجنونة".

"مجنونة، لا أحد! في أي مكان.. لكنكِ موجودة بالفعل في مكان ما! أيتها الحقيرة!"

"استمع إليها، أيها الطبيب، ها هي تهذي الآن وتسبني. كيف تريد أن نبقي عليها هنا؟"

حينذاك استدارت لتواجهني، أنا، مصدر خطرها الجديد.

"ما يُدريه هو إذا ما كنت مجنونة؟ هل دخل إلى رأسي؟ هل دخل إلى رأسك؟ ألا يجب أن يدخل إلى رأسي حتى يعرف؟ اغربا عن وجهي إذًا أنتما الاثنين! اخرجا من بيتي.. أنتما تزعجانني بألعن مما يفعل شتاء ستة أشهر! لتذهبا إذًا لتريا ابني بدلاً من البقاء هنا تثرثران وتنفثان السم. إنه يحتاج إلى الطبيب أكثر مني، ابني المسكين! ابني الذي لم تعد له الآن أسنان والذي كانت له أجمل أسنان عندما كنت أنا أعتني به. هيا أقول، اغربا عن وجهي أنتما الاثنين!" وصفقت الباب خلفنا.

ظلت تراقبنا من خلف مصباحها الزيتي، ونحن نبتعد في الفناء. وبعد أن اجتزنا الفناء، صرنا بعيدين، أخذت في الضحك من جديد. لقد دافعت عن نفسها جيدًا.

عند عودتنا من تلك الغزوة المؤسفة، كان هنرووي لا يزال واقفًا بجانب المدفأة وظهره إلينا. في حين واصلت زوجته إزعاجي بأسئلة وفي الاتجاه نفسه دائمًا.. أي رأس صغير خبيث ماكر كان لزوجة الابن هذه؟ لم يكن مرفقاها يبتعدان كثيرًا عن جسدها عندما كانت تتكلم. لم تكن تومئ أو تشير. حرصت رغم هذا على ألا تذهب هذه الزيارة الطبية سدى مطلقًا، أن تفيد في شيء ما، تكاليف المعيشة تزداد بلا توقف.. معاش الحماة لم يعد كافيًا.. ثم إنهما لم يعودا يتحملان كما كانا في الماضي أن يخافا من أن تموت العجوز إهمالاً.. أن تشعل النار مثلاً في براغيثها وقاذوراتها.. بدلاً من أن تدخل ملجأ لائقًا جدًّا حيث سيُعتنَى بها جيدًا.

بما أنني تظاهرت بأني أوافقهما الرأي، فقد صار كلاهما أكثر لطفًا من ذي قبل.. وعدا بأن ينشرا في الحي لصالحي كثيرًا من عبارات المديح. إن أردت أن أساعدهما.. أن أشفق عليهما.. أن أخلصهما من العجوز.. التعيسة جدًّا هي الأخرى وسط الظروف التي تصر على البقاء فيها.

"وقد يمكن حتى أن نؤجر مسكنها" اقترح الزوج الذي استفاق فجأة.. كانت تلك هي الغلطة التي اقترفها لتوه بالحديث أمامي عن هذا الموضوع. تحت الطاولة، هرست الزوجة قدمه. ولم يفهم لماذا.

بينما كانا يتشاجران، تمثلَت في خاطري ورقة البنكنوت ذات الألف فرنك التي قد أستطيع الحصول عليها لمجرد تحرير شهادة الاحتجاز هذه. كانا يبدوان متمسكين بها إلى أقصى حد.. لا شك أن خالة بيبير جعلتهما يثقان بشأني وقالت لهما إنه لا يوجد في رانسي كلها طبيب في مثل بؤسي.. وإنهما سيفعلان بي ما يريدان.. ليس على رجل مثل فروليشون يمكن أن نعرض هذا! لقد كان رجلاً صالحًا فروليشون هذا!

كنت متشبعًا تمامًا بهذه الأفكار عندما جاءت العجوز لتقتحم الغرفة التي كنا نتآمر بها. كأنها كانت تشك فينا. أي مفاجأة! كانت تلم خِرق تنورتها على بطنها

وها هي قد راحت توبخنا على الفور، مشمرة، وأنا على وجه الخصوص. لم تكن قد جاءت من قلب فنائها إلا من أجل هذا.

سبتني مباشرةً: "سافل، يمكنك أن تغور! ارحل من هنا! لقد قلت لك هذا من قبل! لا داعي للبقاء. قلتُ لك إنني لن أذهب عند المجانين، ولا عند الراهبات أيضًا. عبثًا تحاول وعبثًا تكذب! لن تنالني، أيها المرتشي الحقير. سوف يموتان قبلي، الحقيران، سارقا المرأة العجوز.. وأنت أيضًا أيها النذل، سوف تذهب إلى السجن.. أؤكد لك وفي أقرب وقت أيضًا".

حقًّا، لم أكن محظوظًا. لمرة واحدة كان من الممكن أن أربح ألف فرنك في ضربة واحدة! انسحبت دون أن أقول شيئًا.

في الشارع كانت لا تزال منحنية فوق السور الواطئ لمجرد أن تسبني على البعد، في قلب الظلمة، التي لذت بها، كانت تصرخ: "سافل! وغد!" أي مطر هذا! كنت أهرول بين مصابيح الشارع، من واحد إلى آخر حتى وصلت إلى مبولة ميدان "ديه ڤيت". أول ملاذ.

الفصل 25

المقطع الثاني والعشرون

داخل المبنى الصغير القائم على قارعة الطريق، بارتفاع الساقين، وجدت بيبير تحديدًا. كان قد دخل ليحتمي فيه من المطر هو الآخر. كان قد رآني أهرول خارجًا من عند آل هنرووي. سألني: "هل جئت من عندهم؟ عليك الآن أن تصعد إلى قاطني الدور الخامس من البناية التي نسكن فيها، لترى ابنتهم" تلك الزبونة التي أشار إليها، كنت أعرفها جيدًا، بحوضها الواسع، بفخذيها الطويلين المخمليين.. بتلك الطواعية الحانية والرشاقة المحسوبة في لفتاتها، التي تكمل النساء المتوازنات جنسيًّا. كانت قد جاءت لتستشيرني عدة مرات منذ لازمتها آلام البطن. في الخامسة والعشرين، مع إجهاضها الثالث، كانت تعاني من بعض المضاعفات، وكانت أسرتها تسمي ذلك فقر دم (أنيميا).

كان لا بد أن تروا كم كانت صلبة، قوية البنية، مع ميل إلى المجامعة كما لا تحظى به إلا قلة من النساء. متحفظة السلوك، معتدلة المظهر والتعبير. لا تصرفات هستيرية. بل إنها كانت موهوبة جدًّا، تتغذى جيدًا، متوازنة جدًّا، بطلة حقيقية في مجالها، هذا كل شيء. بطلة رياضية جميلة للمتعة. لا ضير في ذلك. لم تكن تخالط الرجال المتزوجين.. ذوي الخبرة منهم فقط، رجالاً يعرفون كيف يميزون ويقدِّرون إبداعات الطبيعة الفاتنة ولا يعدون أي فاسقة صغيرة صفقة رابحة. كلا. بشرتها الكامدة، ابتسامتها الرقيقة، مشيتها، امتلاء ردفيها مهيب الحركة، جلب لها كل ذلك إعجابًا وتحمسًا عميقًا، مستحقًّا، من جانب بعض مديري المكاتب الذين يعرفون ماذا يريدون.

لكنهم، وبكل تأكيد، لم يكن بإمكانهم الانفصال عن زوجاتهم من أجل هذا، مديري المكاتب. بالعكس، كل ذلك سبب للبقاء سعداء في زيجاتهم. وعلى

ذلك، في كل مرة تكون فيها الفتاة حاملاً في شهرها الثالث، حدث هذا كثيرًا، كانت تذهب لزيارة "الداية". عندما تكون المرأة ذات طبيعة مزاجية خصوصًا ولا يكون في متناول يدها زوج مخدوع تنسب إليه حملها، فلا بد أن تأخذ الأمر بجدية.

واربت لي أمها باب الشقة باحتياطات تليق بعملية اغتيال. كانت تهمس، لكن بقوة جدًّا، وبحدة جدًّا، لدرجة أن همسها كان أسوأ من استنزال اللعنات.

"بماذا يمكن أن أكون قد أغضبت السماء، يا دكتور، حتى تكون لي ابنة مثلها! آه، إنك على الأقل لن تقول شيئًا لأحد في الحي، يا دكتور. إنني أعتمد عليك". لم تكف عن إثارة مخاوفها والطنطنة بما يمكن أن يظنه الجيران والجارات. كانت قلقة وغشيتها حالة من الحمق. تدوم مثل هذه الحالات طويلاً.

أتعود على عتمة الردهة، على رائحة الكراث المعد للحساء، على أوراق الحائط، على غصونها وأوراقها وزهورها الغبية، على صوتها المختنق. أخيرًا، مع لعثمات التعجب، وصلنا إلى سرير الابنة المريضة، واهنة، على حافة الخطر، أردت أن أفحصها، لكنها كانت تفقد كثيرًا من الدم، كانت "معجنة" كبرى لدرجة أنه لم يكن من الممكن رؤية أي شيء من مهبلها.. كانت هناك جلطات.. كنا نسمع صوت (بقبقة) الدم فائرًا بين فخذيها، مثلما كان في رقبة الـچنرال المقطوعة في الحرب. وضعت القطن السميك من جديد ورفعت الغطاء فقط.

لم تكن الأم تنظر إلى شيء، لم تكن تسمع إلا نفسها. ظلت تصيح "هذا يقتلني، دكتور! سأموت من الخزي!" لم أحاول مطلقًا أن أثنيها عما تفعل. لم أكن أدري ماذا أفعل. في غرفة الطعام الصغيرة المجاورة، كنا نرى الأب يذرعها طولاً فعرضًا. لا بد أنه لم يستعد بعد لاتخاذ التصرف المناسب لهذا الظرف.. ربما كان ينتظر أن تتضح الأمور قبل أن يختار لنفسه مسلكًا ما. ظل يدور في ما يشبه برازخ الجحيم. ينتقل البشر من ملهاة إلى أخرى، في أثناء

ذلك لا تكون المسرحية قد أَعدت، لا يميزون بعد ملامحها، لا يحددون الدور المناسب لهم، حينها، يقفون أمام الحدث، بلا حراك، الأذرع مدلاة، الغرائز مطوية كالمظلة، مخلخلين، متفككين، مرغمين على أن يكونوا أنفسهم، أي لا شيء. أبقارًا لا يضمها قطيع.

غير أن الأم، عن نفسها، لعبت الدور الأساسي، بين البنت وبيني. لينهار المسرح، إنها لا تبالي بذلك، لأنها كانت تشعر بأنها منسجمة، وطيبة وجميلة.

لم أكن أستطيع الاعتماد إلا على نفسي لأكبح جاذبيتها القذرة.

تجرأت على إبداء نصيحة نقل الفتاة في الحال إلى أحد المستشفيات لتُجرى لها جراحة عاجلة.

آه، يا ويلتي! لقد أتحتُ لها، في التو، أن ترد بأجمل ما تستطيع، الرد الذي كانت تنتظره.

"يا للعار! المستشفى! يا للعار يا دكتور! يا للعار! لم يكن ينقصنا إلا هذا! هذا يفوق الحد!"

لم يعد لديَّ ما أقوله، لذلك جلست وأصغيت إلى الأم وهي لا تزال تتخبط، بصخب أعلى، مرتبكة في ترهاتها المأساوية.

الإذلال بأكثر مما يحتمل، الحرج بأكثر مما يجب، يؤديان إلى الجمود الأبدي. يصبح العالم أثقل من أن يُحتمل. فليحدث ما يحدث. بينما كانت تستغيث السماء والجحيم وتستثيرهما، تنعى مصيبتها، أطرقت برأسي ومنحنيًا شاعرًا بالخيبة والذهول رأيت بركة صغيرة من الدماء تتكون تحت السرير. الفتاة، يرشح منها ببطء خيط رفيع، تتساقط قطرات الدم، قطرة، فقطرة، بانتظام واستمرار، تاك.. تاك! بين الفخذين فوطة تفيض باللون الأحمر. ومع كل ذلك، فقد سألت بصوت خجول إذا ما كانت المشيمة قد استُخرجت كاملة بالفعل.

كانت ذراعا الفتاة شاحبتين ومزرقتَي الطرفين، تتدليان من جهتَي الفراش، مستجديتين. عن سؤالي، ردت الأم بسيل من النواح المنفر. لكن اتخاذ موقف كان يفوق قدرتي بكثير على أي حال.

منذ وقت طويل جدًّا كانت فكرة سوء الطالع تسيطر عليَّ جدًّا، لم أكن أنام على نحو جيد ولم يعد لديَّ أي اهتمام على الإطلاق وسط هذه الحيرة بأن يحدث شيء بدلاً من آخر. جال بخاطري فقط أن الاستماع إلى هذه الأم الزاعقة جالسًا كان أفضل منه واقفًا. عندما يصبح المرء مستسلمًا تمامًا يكفي القليل لإرضائه.. وعلاوة على ذلك فأي قوة تلك التي لم تكن تلزمني لإيقاف تلك المرأة الجافلة العابسة في الوقت نفسه الذي كانت فيه "لم تعد تعرف كيف تنقذ شرف أسرتها". أي دور لعين عليَّ أن أقوم به! الذي كانت لا تزال تطالب به زاعقة! بعد كل إجهاض، لقد مررت بهذه التجربة، كانت تستخدم الأسلوب نفسه، متمرسة بالطبع على أن تقوم بذلك على نحو أفضل فأفضل في كل مرة قد يدوم ذلك بقدر ما تريد.

اليوم، بدت لي مستعدة لمضاعفة مردودها عشر مرات.

لا بد أنها أيضًا كانت امرأة جميلة، في زمانها، امرأة ناعمة مكتنزة، تخيلت ذلك وأنا أتطلع إليها، وإن كانت مع ذلك أكثر كلامًا، مبددة للطاقة، أكثر استعراضًا من الابنة التي كانت مودتها التي وضعتها فيها الطبيعة آية في النجاح والتوفيق. إن هذه الأشياء لم تدرس إلى الآن بالاهتمام الذي تستحقه. كانت الأم تدرك تفوق ابنتها الشهواني عليها شخصيًّا، وغيورًا كانت تدين على نحو فطري تمامًا، طريقتها في المضاجعة إلى أعماق لا تُنسى، والاستمتاع بها كما لا يعرف البشر.

على أي حال كان الجانب المسرحي للكارثة يثير حماسها. كانت تملأ بارتجافات صوتها المؤلمة عالمنا الصغير المنكمش الذي كنا آخذين في التخبط فيه معًا بسببها. لم يكن من الممكن أيضًا إبعادها. في حين كان عليَّ

أن أحاول ذلك. أن أفعل شيئًا ما.. كان ذلك واجبي، كما يقال. لكني كنت أشعر براحة كبيرة جدًّا جالسًا وبضيق شديد واقفًا.

كانت دارهم أكثر بهجة من دار آل هنرووي، في مثل قبحها لكنها أكثر ترفًا. كان جوها مريحًا. ليست كئيبة مثل الأخرى هناك، قبيحة فقط، ببساطة.

ذاهلاً من التعب، كانت نظراتي تطوف بأشياء الغرفة. أغراض بسيطة بلا قيمة ظلت دائمًا في ملكية الأسرة، خصوصًا غطاء المدفأة المخملي ذا الجلاجل الوردية الذي لم يعد متوافرًا بالمتاجر، هذا الفخار النابوليتاني غير المزجج، منضدة الحياكة ذات المرآة المشطوفة، التي كانت إحدى العمّات تمتلك منها اثنتين. لم أنبه الأم مطلقًا لبركة الدم التي كانت تتشكل تحت السرير، ولا لقطرات الدم التي كانت تتساقط بانتظام، لأنها كانت سوف تصرخ بأقوى مما كانت تفعل، ولم تكن لتسمعني فضلاً عن ذلك. لم تكن تكف أبدًا عن الشكوى وعن الاستنكار. لقد نذرت نفسها لذلك.

الأولى أن أسكت وأنظر إلى الخارج، مخمل المساء الرمادي يغطي الآن الشارع المواجه، منزلاً بمنزل، المنازل الصغرى أولاً وبعد ذلك الأخرى ثم تتغطى الكبرى في النهاية فضلاً عن الناس الذين يتحركون بينها، واهنين بصورة متزايدة، غامضين، مريبين، مترددين بين البقاء فوق رصيف ما أو الانتقال إلى آخر، قبل أن يمضوا ليغيبوا في الظلام.

على البعد، أبعد من التحصينات بكثير، صفوف وصفوف من المصابيح الكابية متناثرة بعرض الظلام تتلألأ، بين خضراء تومض، حمراء، ودائمًا هناك مراكب ومراكب أخرى، أسطول كامل جاء إلى هنا من كل مكان لينتظر، متأرجحًا، أن تنفتح خلف البرج، بوابات الليل الكبرى.

لو كانت هذه الأم قد تمهلت قليلاً لتلتقط أنفاسها، بل لو سمحت بفترة هدوء كافية، ربما أمكن على الأقل الاستسلام لفكرة التخلي عن كل شيء، لمحاولة

نسيان أن علينا أن نحيا. لكنها ظلت تلاحقني.

"ماذا لو أعطيتها حقنة شرجية، يا دكتور؟ ما رأيك؟" لم أجبها لا بنعم ولا بلا، لكني نصحت مرة أخرى، بما أني قد أعطيت الكلمة، بإرسالها مباشرةً إلى المستشفى. زعيق آخر، أكثر حدة من ذي قبل، أكثر إصرارًا وصريرًا، كان رد الأم، عبثًا أحاول.

بطيئًا، توجهت نحو الباب، بهدوء.

كان الظل يفصلنا الآن عن السرير.

لم أعد أتبين تقريبًا يدي الفتاة المطروحتين فوق أغطية الفراش بسبب اصفرارها المشترك.

عدت لأجس نبضها، الأكثر ضعفًا، الأكثر خفوتًا وهروبًا مما كان عليه منذ قليل. لم يعد تنفسها سوى شهقات متباعدة.

عن نفسي، كنت أسمع، دائمًا، الدم المتقاطر على الأرضية الخشبية لدقات ساعة، خافتة، تتباطأ شيئًا فشيئًا، تضعف شيئًا فشيئًا. لم يكن بالمقدور فعل أي شيء. تقدمتني الأم نحو الباب.

أوصتني خَجِلةً: "أهم شيء، يا دكتور، عدني ألا تقول شيئًا لأحد" ظلت ترجوني "أتقسم لي على ذلك؟"

وعدت بكل ما طُلب مني. مددت يدي. كان المبلغ عشرين فرنكًا. أغلقت الباب خلفي، قليلاً بقليل.

أسفل البناية، كانت خالة بيبير تنتظرني بسحنتها المناسبة للموقف. "ليست الأمور على ما يرام إذًا؟" سألتني مستفسرة. أدركت أنها قد ظلت هناك تنتظر، أسفل البناية، طوال نصف ساعة، لتقبض عمولتها المعتادة: فرنكين.

حتى لا أهرب منها. "وعند آل هنرووي إذًا، هل سارت الأمور جيدًا؟" أرادت أن تعرف. كانت تأمل الحصول على إكرامية عن هؤلاء أيضًا. قلت لها: "إنهم لم يدفعوا لي شيئًا. كان هذا حقيقًّا أيضًا. تحولت ابتسامة الخالة المعُدة سلفًا إلى تعبير رخو. كانت ترتاب في ما أقول.

"أليس من المؤسف على أي حال يا دكتور ألا يستطيع المرء الحصول على أتعابه؟ كيف تريد أن يحترمك الناس؟"

"في أيامنا هذه، يدفع الناس نقدًا وفورًا، أو لا يدفعون أبدًا". كان ما قالته صحيحًا أيضًا. مضيت منسلاً. قبل ذهابي كنت قد وضعت فاصوليا العشاء على النار لتنضج. حل الليل، هذا هو وقت الذهاب لشراء الحليب. في أثناء النهار، كان الناس يبتسمون عندما يصادفونني حاملاً زجاجتي. بالطبع، فلم تكن لديَّ خادمة.

من جهة أخرى تلكأ الشتاء في الرحيل، امتد طوال شهور وأسابيع أخرى. لم نكن قد تخلصنا بعد من الضباب والمطر، في أعماق الجميع.

لم ينقص المرضى، لكن لم يكن هناك الكثير ممن يستطيعون الدفع أو من يرغبون فيه. الطب غير مربح. عندما نقبض أتعابنا من الأغنياء نبدو كالخدم، وعندما نأخذها من الفقراء نكون كاللصوص تمامًا. "أتعاب؟".. يا له من تعبير! بئس الكلمة! فالمرضى لا يملكون بالفعل ما يكفي للطعام وللذهاب إلى السينما، وينبغي -فضلاً عن ذلك - أن نأخذ منهم أموالهم لنجعلها "أتعابًا"؟ خصوصًا في اللحظة نفسها التي يموتون فيها. أمر غير مريح. نستسلم. نتلطف. نغرق.

بنهاية شهر يناير، بعت أولاً صوان غرفة الطعام "البوفيه"، لإفساح المكان، هذا ما قلته في الحي، ولتحويل قاعة الطعام إلى صالة للتربية البدنية. مَن صدقني في هذا؟ في شهر فبراير ومن أجل سداد ضرائبي، بعت كذلك

دراجتي والفونوغراف الذي كانت مولّي قد أهدتني إياه عند رحيلي. كان يدير أسطوانة "لا هموم بعد اليوم!" بل إن لحنها ما زال يرن في رأسي. هذا كل ما تبقى لي. أما أسطواناتي، فقد احتفظ بها "بيزان" طويلاً في دكانه قبل أن يبيعها على أي حال في آخر الأمر.

حتى أتظاهر بأني أكثر ثراءً قلت حينها إنني سوف أبتاع سيارة مع قدوم الربيع، إنه ولهذا السبب كنت أتدبر مسبقًا بعض السيولة. حقيقة الأمر، أن الصفاقة كانت ما ينقصني لأمارس مهنة الطب على نحو جادّ. عندما كان أهل المريض يرافقونني إلى الباب، بعد أن أكون قد قدمت إليهم نصائحي وسلمتهم وصفة العلاج (الروشتة)، كنت أشرع في كم من التعليقات لمجرد إرجاء لحظة الدفع بضع دقائق أخرى. لم أكن أستطيع ممارسة العهر في مهنتي. كانوا يبدون بؤساء للغاية، منفرين للغاية، أغلب زبائني، وممتعضين للغاية أيضًا، لدرجة أني كنت أتساءل دائمًا أين سوف يجدون العشرين فرنكًا التي كان عليهم أن يدفعوها لي، وإذا ما كانوا سوف يقتلونني في المقابل. فمع كل هذا كنت لا أزال محتاجًا إلى العشرين فرنكًا. يا للعار. لم أكن لأتخلص أبدًا من حمرة الخجل.

"أتعاب!" هكذا يواصل زملاء المهنة تسمية هذا الشيء، غير مشمئزين، كما لو كانت الكلمة تعني شيئًا مفروغًا منه لا يحتاج إلى إيضاح.. عار! ذلك الذي لم أستطع أن أمنع نفسي من قوله وليست هناك وسيلة للخلاص منه. يبرر المرء لنفسه كل شيء، أعرف ذلك جيدًا. لكن ذلك لا يمنع أن يظل مَن يتقبل المئة مليم من الفقير ومن الشرير، وإلى الأبد، نذلاً حقيقيًّا! بل إنني تأكدت منذ ذلك الوقت، من أنني كنت نذلاً أيضًا مثل أي نذل آخر. ليس لأني أقمت حفلات عربدة وارتكبت الحماقات بملاليمهم المئة وفرنكاتهم العشرة. كلا! لطالما كان مالك البيت يقتطع منها النصيب الأكبر، لكن ذلك لا يعد عذرًا هو الآخر، على أي حال. كنا نود بالفعل أن يكون من بين الأعذار، لكنه ليس من بينها إلى الآن. صاحب البيت أشر من نفايات البشر. هذا كل ما في الأمر.

لكثرة ما عانيت من قلق ولفرط ما تعرضت لزخات المطر الموسمية الباردة، بدوت كأني أنا الآخر مصاب بالدرن. لا محالة. هذا ما يحدث عندما يكون علينا التخلي تقريبًا عن كل المُتع. من وقت إلى آخر، كنت أشتري بعض البيض من هنا ومن هناك، لكن نظامي الغذائي الأساسي كان يقوم إجمالاً على الخضراوات الجافة. إنها تستغرق وقتًا طويلاً لتنضج. كنت أمضي ساعات في المطبخ بإطلالة شاملة جميلة على الفناء الخلفي. الأفنية الخلفية، هي سجون نسيان كل تلك المنازل المتماثلة المتكررة. لقد أتيح لي ما يكفي من الوقت لأشاهد فنائي الخلفي الخاص، وخصوصًا لأستمع إليه.

هناك تأتي لتهوي، تفرقع، ترتد، صرخات ونداءات العشرين منزلاً المحيطة، حتى أصوات طيور البوابات الصغيرة، البائسة، التي كانت تتعفن مزقزقة تطلب الربيع الذي لن تراه أبدًا في أقفاصها، المعلقة بجوار المراحيض، المتجمعة دائمًا، المراحيض، هناك، في قلب الظل، بأبوابها المخلعة، المتأرجحة دومًا.

مئة من المخمورين، رجال، نساء، يسكنون هذه المباني قرميدية اللون، ويملؤون الصدى بمشاجراتهم المتبجحة، بشتائمهم الغامضة المتدفقة، بعد غداء يوم السبت على وجه الخصوص. إنها اللحظة الأهم في حياة الأسر هنا. يتحدى بعضهم بعضًا، بالصراخ، يشربون حتى الانتشاء، عليكم أن تروا كيف يتحكم بابا بالكرسي، كأنه فأس، وماما بأي خشبة كأنها سيف! الويل للضعفاء ساعتها! إنهم من يتلقون الضربات. كل من لا يستطيع الدفاع عن نفسه والرد تدفعه اللطمات والصفعات للالتصاق بالحائط: أطفال، كلاب أو قطط. ابتداءً من الكأس الثالثة من النبيذ، الأسود، الأسوأ، يبدأ الكلب في المعاناة. تُسحق رجله بضربة قوية من كعب الحذاء. سيعلمه هذا ألا يجوع في الوقت نفسه مع البشر. تعلو الضحكات لرؤيته يفر عاويًا ليختفي تحت السرير كالجريح. إنها الإشارة. لا شيء يثير النساء الثملات مثل صيحات ألم الحيوانات، لا تكون فحول الثيران في متناول اليد دائمًا. يندلع الجدال من جديد، انتقاميًّا، عاتيًا،

ملحًّا كنوبة جنون، الزوجة هي من يقود الهجوم، ترسل إلى الرجل بسلسلة لاذعة من دعوات النزال. بعد ذلك يكون الالتحام، تتهشم الأشياء الضعيفة. يلتقط الفناء الضجيج، يدور الصدى حول الظل. يعوي الأطفال في رعبهم. يكتشفون كل ما في بابا وماما! يجلبون العاصفة نحوهم بصراخهم.

أمضيت أيامًا كثيرة أنتظر أن يحدث ما كان يحدث من وقت إلى آخر في نهاية الحفلات العائلية.

ظل ذلك يجري في الطابق الثالث في البناية المجاورة، أمام نافذتي، لم أكن أستطيع أن أرى شيئًا، لكني كنت أسمع جيدًا.

هناك نهاية لكل شيء، لا تكون هي الموت دائمًا، كثيرًا ما يقع شيء آخر، ويكون أسوأ منه، خصوصًا مع الأطفال.

كان هؤلاء المستأجرون يسكنون هناك، في مستوى الفناء بالضبط، حيث يبدأ الظل في الانحسار. عندما يكونان بمفردهما، الأب والأم، في الأيام التي كان يقع فيها هذا، كانا يتناقشان طويلاً في البداية ثم يحل فجأة صمت طويل. هذا هو التمهيد، لدينا أولاً الفتاة الصغيرة التي كانت تؤمر بالحضور. كانت تعرف السبب من حضورها. تشرع على الفور في البكاء، إنها تعرف ما ينتظرها. بحسب صورتها، لا بد أنها كانت في حدود العاشرة من عمرها أو أكثر قليلاً. انتهيت بعد مرات عديدة إلى إدراك ما كان الاثنان يفعلان بها.

كانا يقيدانها أولاً، ويستغرق الأمر وقتًا طويلاً، كما لو كان إعدادًا لعملية جراحية. كان ذلك يثيرهما. "أيتها اللئيمة الصغيرة". يسبها الأب. "آه، أيتها السافلة الصغيرة!" تقول الأم. ثم يصرخان معًا: "سوف نربيكِ يا سافلة!"، يلومانها في الوقت نفسه على أشياء وأشياء، أشياء لا بد أنهما كانا يتخيلانها. لا بد أنهما كانا يقيدانها إلى قوائم السرير. في أثناء ذلك كانت الطفلة تشكو كفأر وقع في المصيدة. "عبثًا تحاولين أيتها الصغيرة الجميلة، اخرسي.. لن

تفلتي". تستأنف الأم الصراخ، ثم تصب عليها وابلاً من السباب، كما لو كانت تسب حصانًا. مستثارة تمامًا. ترد الصغيرة في وداعة: "اصمتي يا أمي! اصمتي! اضربيني يا أمي! لكن في صمت!" لا تفلت الصغيرة بالفعل، وتنال ما يشبه "علقة". كنت أظل أستمع حتى النهاية لأتأكد من أني لم أخطئ، لأتأكد من أن هذا ما كان يجري حقًّا. ما كنت لأستطيع أن أتناول وجبة الفاصوليا ما دام هذا يدور. لم أكن أستطيع أيضًا أن أغلق النافذة.. لم يكن بوسعي أن أقوم بشيء. ظللت أستمع فقط، كما كنت أفعل دائمًا، في كل مكان. مع ذلك كنت أظن أن استماعي إلى أمور كهذه كان يمدني ببعض القوى، قوى على المضي بعيدًا، قوى غريبة، وفي المرة المقبلة، أستطيع أن أستمع إلى أنّات أخرى لم أكن قد سمعتها بعد، أو واجهتني صعوبة في فهمها من قبل، لأنه يبدو أنه ما زالت هناك دائمًا في أعماق الآخرين أنّات أخرى لم نكن قد سمعناها من قبل ولا فهمناها من قبل.

عندما يكونان قد أبرحاها ضربًا إلى حد أنها لا تعود قادرة على الصياح، ابنتهما، كانت تصرخ قليلاً رغم هذا، في كل مرة كانت تتنفس فيها، مرة واحدة.

حينذاك، كنت أسمع الرجل، سعيدًا تمامًا، يقول في هذه اللحظة: "تعالي يا جميلتي! بسرعة! تعالي هنا".

هكذا كان يقول للأم، ثم يصطفق خلفهما الباب المجاور. ذات يوم، كانت هي من قالت له، لقد سمعتها: "آه! أحبك يا جوليان، كثيرًا، حتى أني لآكل برازك، حتى إن كنت تتبرز كمًّا هائلاً".

هكذا كانا يمارسان الحب، كما أخبرتني بوابة منزلهما، وكان هذا يجري في المطبخ، بجوار حوض الغسيل. بطريقة أخرى لم يكونا لينجحا في ذلك. بالتدريج، عرفت عنهما، من الشارع، كل هذه الأشياء. عندما كنت أقابلهم، الثلاثة معًا، لم يكن هناك ما يلفت النظر. كانوا يتنزهون كأسرة حقيقية. الأب، كنت قد اعتدت أن أراه أيضًا عندما كنت أمر أمام واجهة محله، على ناصية

شارع "بوانكاريه"، حيث كان يعمل كبيرًا للبائعين في مؤسسة "أحذية للأقدام الحساسة".

لم يكن فناؤنا يمنح في غالب الأحيان سوى شناعات صغيرة، خصوصًا في الصيف، حيث يصخب بالوعيد، بأصداء الصراخ، بأصوات الصفعات واللطمات، بالسقطات وبالشتائم الغامضة. لم تكن الشمس تصل إلى عمق الفناء قط. كان يبدو كأنه مطلي بالظلال الزرقاء، شديدة الكثافة وخصوصًا في الزوايا. كانت للبوابين مراحيضهم الصغيرة في الفناء تشبه خلايا النحل، في الليل، عندما يقومون للتبول، كانوا يصطدمون بصناديق القمامة، كان ذلك يطلق في الفناء ضجيجًا مدويًا.

من نافذة إلى أخرى، كان بعض الغسيل يحاول أن يجف.

بعد العشاء، كانت أحاديث سباق الخيل هي بالأحرى التي تتردد أصواتها، في المساءات التي لا تدور فيها المشاحنات الخشنة. لكن هذه الحروب الكلامية الرياضية كانت تنتهي هي الأخرى في الغالب نهايات سيئة، بصفعات ولطمات متنوعة ودائمًا ما ينتهي الأمر، خلف إحدى النوافذ، على الأقل، بالتضارب.

في الصيف تفوح أيضًا من كل شيء روائح قوية. لا يعود هناك هواء في الفناء، روائح ليس أكثر. رائحة القنّبيط هي التي تتغلب، بسهولة، على كل الروائح الأخرى. رأس قنبيط واحد يساوي عشرة مراحيض، حتى إن طفحت. هذا أمر مفروغ منه. كانت مراحيض الطابق الثاني كثيرًا ما تطفح. ساعتها كانت بوابة البناية رقم 8، الأم "سيزان" تأتي بخيزرانتها لتنبش فيها. كنت أراقبها وهي تجد في ذلك. هكذا انتهت بنا الحال إلى تبادل الحديث. قالت ذات مرة تنصحني: " أنا، لو كنت في مكانك، لخلصت النساء الحوامل، سرًّا، من أحمالهن.. عددهن كبير إلى حد لا يصدق.. وغاية مطلبهن أن يوفرن لك عملاً.. أنا، عن نفسي، أقولها لك! هذا أفضل دائمًا من مداواة الموظفين الصغار من دواليهم.. خصوصًا أن الدفع نقدًا".

كانت الأم سيزان تضمر احتقارًا أرستقراطيًّا، لا أعرف من أين جاءها، لكل من يعمل من البشر.

لا شيء يرضيهم أبدًا، هؤلاء السكان، كأنهم مساجين، لا بد أن ينكدوا حياة الجميع. إن مراحيضهم هي التي تُسد.. ويومًا آخر يتسرب لديهم الغاز.. إن خطاباتهم هي التي تُفض.. مشاكسون دائمًا، متماحكون دائمًا، دائمًا مزعجون، يا إلهي. بل إن هناك واحدًا قد بصق في مظروف قسط إيجاره.. أتصدق هذا؟ حتى عن تسليك المراحيض، كان على الأم سيزان أن تصرف النظر في أحيان كثيرة لشدة ما كان ذلك صعبًا. "إنني لا أعرف ماذا يضعون فيها، لكن أولاً لا يجب أن تتيبس. أنا أعرف هذا.. إنهم يخطرونك دائمًا بعد فوات الأوان. إنهم يفعلون ذلك عمدًا بالأساس! في البناية التي كنت أعمل بها من قبل كان لا بد من صهر ماسورة لشدة ما كان داخلها يابسًا صلبًا.. إنني لا أدري ماذا يمكن أن يأكلوا.. إنه ينتج الضعف".

الفصل 26

المقطع الثالث والعشرون

سيكون من الصعب انتشالي من فكرة أنه لم يكن بسبب روبنسون على وجه الخصوص إن كان ذلك قد عاودني. في البداية لم أُعر حالات الضيق التي تنتابني اهتمامًا كبيرًا. واصلت التسكع كيفما اتفق، منتقلاً من مريض إلى آخر، لكني صرت أيضًا أكثر اضطرابًا من ذي قبل، على نحو متزايد، مثلما كنت في نيويورك، وبدأت من جديد كذلك أنام بصورة أسوأ من المعتاد.

بوجهه الذي خربشه الألم تمامًا، بدا لي كحلم بغيض أعاده إليَّ ولم أستطع الخلاص منه منذ سنوات كثيرة خلت. رحت أهذي به متعلثمًا.

ها هو قد عاد ليحط هنا ثانيةً، أمامي. لم أكن لأتخلص منه. من المؤكد أنه قد بحث عني هنا. من المؤكد أني لم أكن قد حاولت السعي لرؤيته.. سيعود بلا شك مرة أخرى ولسوف يرغمني على التفكير في مشروعاته من جديد. فضلاً عن أن كل شيء كان يجعلني أفكر الآن في وجوده اللعين. حتى هؤلاء الناس الذين كنت أشاهدهم من النافذة، دون أن يشي مظهرهم بشيء، يسيرون في الشارع هكذا، كانوا يدفعونني إلى التفكير فيه، وهم يثرثرون عند زوايا الأبواب، والذين يصطدم بعضهم ببعض. أما أنا فكنت أعرف ما الذي يسعون إليه، ما الذي يخفونه خلف مظهرهم البريء، هؤلاء الناس. إنهم يريدون أن يَقتلوا وأن يُقتلوا، لا مرة واحدة، بالطبع، لكن شيئًا بشيء مثل روبنسون بكل ما يجدونه، أحزان قديمة، هموم جديدة، أحقاد ما زالت بلا مسمى عندما لا تكون الحرب صريحة مجردة تمامًا، وعندئذٍ يجري كل شيء بأسرع مما يحدث في العادة أيضًا.

لم أعد أجرؤ حتى على الخروج خوفًا من ملاقاته.

كان لا بد أن يطلبوني مرتين أو ثلاث مرات متتالية حتى أقرر أن أجيب دعوة المرضى. ولذلك، فعندما كنت أصل، يكونون، في غالب الأحيان، قد استدعوا بالفعل طبيبًا آخر. غدت الفوضى تعم روحي، كما تعم الحياة تمامًا. في شارع سان فانسان هذا الذي لم أكن قد ذهبت إليه حتى الآن سوى مرة واحدة، طُلبت لدى سكان الطابق الثالث في رقم 12. بل إنهم قد جاؤوا في طلبي بسيارة. تعرفت إليه على الفور، بوضوح، الجد، الذي راح يهمس، يمسح قدميه طويلاً في دواسة بابي. شخص مخالس، أشيب ومحني الظهر، من أجل حفيده كان يريدني أن أسرع.

كنت لا أزال أتذكر ابنته أيضًا، جيدًا، ابنة العجوز، فتاة لاهية هي الأخرى، ذابلة من الآن، غير أنها كانت قوية البنية وصموتًا. كانت تعود إلى أبويها، مرات عديدة، لتجهض. لم يكن يوجه إليها أي لوم تلك الفتاة. كان المراد فقط أن ينتهي بها الحال إلى الزواج في آخر الأمر، خصوصًا أن لديها الآن بالفعل صبيًّا صغيرًا في الثانية من عمره يعيش مع جديه.

لأهون سبب كان هذا الطفل يسقط مريضًا، وعندما يحدث ذلك، كان الجد، الجدة، الأم يبكون معًا، كثيرًا جدًّا، خصوصًا لأنه بلا أب شرعي. في تلك الأوقات يكون التأثر بالأوضاع العائلية الشاذة أكثر حدة. كان الجدان يعتقدان دون أن يعترفا بذلك تمامًا، أن الأطفال الطبيعيين يكونون أكثر هشاشةً وضعفًا من الآخرين وأكثر منهم عرضة للمرض.

على أي حال، فإن الأب، الذي نظنه على الأقل، كان قد رحل فعلاً إلى الأبد. كانوا قد تحدثوا إليه كثيرًا بشأن الزواج، ذلك الرجل، الأمر الذي انتهى إلى إزعاجه. لا بد أنه قد صار بعيدًا الآن، إن كان حيًّا إلى الآن. لم يكن أحد قد فهم شيئًا في ذلك الهجران، وخصوصًا الفتاة نفسها، لأنه كان يستمتع مع ذلك كثيرًا بمضاجعتها.

لذلك، منذ رحيل الوالد النزِق النَّفور كان الثلاثة يتأملون الطفل متباكين وهكذا استمرت الحال. كانت قد وهبت نفسها لذلك الرجل "جسدًا وروحًا" كما كانت تقول. كان لا بد لهذا أن يحدث، وبحسب ما كانت تقول كان يجب أن يكفي لتفسير كل شيء. كان الصغير قد خرج من جسدها مرة واحدة وتركها مجعدة الجلد تمامًا حول خاصرتيها. ترضي النفس بالكلام، أما الجسد فليس كذلك، إنه أكثر صعوبة، إنه يحتاج إلى عضلات، فالجسد شيء حقيقي دائمًا، ولهذا السبب فهو تقريبًا حزين على الدوام وتبعث رؤيته على التقزز. لقد رأيت، وهذا حقيقي أيضًا، قليلاً جدًّا من حالات الولادة التي تذهب هكذا بالنضارة والشباب مرة واحدة. لم يعد يتبقى لها، تلك الأم، إن جاز التعبير، سوى بعض المشاعر وروح. ما من أحد يريد أكثر من ذلك.

قبل هذه الولادة السرية كانت الأسرة تسكن في حي "في دو كالفير" (حياة العذاب) وذلك منذ سنوات كثيرة. إذا كانوا قد جاؤوا جميعًا لينفوا أنفسهم اختياريًّا برانسي، فلم يكن ذلك من باب التسلية، لكن للاختباء، لينساهم الناس، للاختفاء جميعًا.

بمجرد أن صار من المستحيل كتمان أمر هذا الحمل عن الجيران، قرروا مغادرة حيهم الباريسي لتجنب أي تعليقات خبيثة. تبديل السكن بدافع الشرف.

في رانسي، لم يكن اعتبار الجيران أمرًا لا بد منه، فضلاً عن أنهم لم يكونوا معروفين في رانسي، وفضلاً عن أن البلدية في تلك البلدة كانت تمارس سياسة بغيضة وباختصار فوضوية، سياسة جرى الحديث عنها في فرنسا بأسرها، سياسة أنذال. في وسط المنبوذين هذا لا يمكن تعليق أي أهمية على حكم الآخرين.

عاقبت الأسرة نفسها تلقائيًّا، قطعت كل علاقاتها مع الأقرباء وأصدقاء الماضي. بالنسبة إلى مأساة، كانت مأساة كاملة. لم يعد لديهم ما يخسرونه،

كما كانوا يقولون. انحطت مكانتهم. عندما يرغب المرء في الحفاظ على مكانته، يذهب إلى عامة الشعب. لم يوجهوا إلى أحد أي لوم. حاولوا فقط أن يكتشفوا عبر صولات تمرد صغيرة وعميقة ما الذي يمكن أن يكون القدر قد ثمل به يوم فعل بهم فعلة قذرة كهذه.

لم تشعر الابنة بالعيش في رانسي، إلا بعزاء وحيد، لكنه شديد الأهمية، وهو القدرة على الحديث بحرية إلى كل الناس بدءًا من الآن فصاعدًا عن "مسؤوليتها الجديدة". كان عشيقها، بهجرانها، قد أيقظ رغبة عميقة في طبيعتها المولعة بالبطولة والتفرد. بمجرد أن أطمأنت إلى أنها، لباقي أيامها، لن تلقى أبدًا مصيرًا مطابقًا قطعًا لمصير معظم نساء طبقتها ووسطها، وبقدرتها دائمًا على اللجوء إلى رواية قصة حياتها المقلوبة رأسًا على عقب منذ غرامياتها الأولى، توافقت مع المصيبة التي ألمّت بها، بابتهاج، وكانت نكبات الدهر إجمالاً مرحبًا بها على نحو مأساوي. كانت تتزين بصورة الفتاة الأم.

عندما دخلتُ إلى غرفة طعامهم، أنا والوالد، كانت هناك إضاءة تنم عن الشح، لم تكن تتجاوز أبدًا الألوان المتوسطة بين الفاتح والغامق، لم نكن نتبين الوجوه إلا بقدر ما نرى بقعًا شاحبة، أجسادًا بشريةً تردد بصورة مملة كلامًا يظل يتناثر في العتمة، المثقلة برائحة الفلفل القديم هذه التي يبعثها كل الأثاث العائلي.

فوق المائدة، في المنتصف، ممددًا على ظهره، استسلم الطفل ملفوفًا في أقماطه لعملية الفحص. في البداية ضغطت على جدار بطنه، بكثير من الحذر، بالتدريج، ابتداءً من السرة وحتى كيس الخصيتين، ثم فحصت صدره بالسماعة، باهتمام كبير جدًّا أيضًا.

كان قلبه يدق بإيقاع قِط صغير، على نحو خاطف وأهوج. ثم مل الطفل من أصابعي العابثة ومن تحركاتي وشرع في الصراخ كما يمكن القيام بذلك في

مثل هذه السن، على نحو غير معقول. كان ذلك فوق طاقتي. منذ عودة روبنسون، كنت قد وجدت نفسي وقد صرت غريبًا تمامًا في عقلي وجسدي، وتركت لديَّ صرخات هذا الصغير البريء انطباعًا كريهًا. يا له من صراخ، يا إلهي يا له من صراخ! لم أعد أحتمل.

لا بد أن فكرة أخرى أيضًا هي التي دفعتني بلا شك إلى تصرفي الأحمق. منهمكًا، لم أستطع منع نفسي من إطلاعهم على ما كنت أعانيه من ضغينة وتقزز منذ زمن طويل جدًّا، بصوت خافت تمامًا. قلت للصارخ الصغير: "ويحك، لا تتعجل هكذا، أيها الأبله الصغير، سيكون لديك الوقت دائمًا لتصرخ! سيتبقى أمامك الوقت، لا تخشَ شيئًا، أيها الحمار الصغير، وفر صحتك، سيتبقى بالتأكيد من الأسى والشقاء ما يكفي ليذيب عينيك ورأسك أيضًا والباقي من جسدك إذا لم تحترس!"

انتفضت الجدة قائلة:

"ماذا تقول يا دكتور؟"

كررت ببساطة: "سيتبقى منه أيضًا".

"ماذا؟ ماذا سوف يبقى؟" سألتنى مرعوبة.

"يجب أن تفهموا!" قلت لهم. "يجب أن تفهموا! تفسر لكم الأشياء بأكثر مما يجب، هذه هي المصيبة، حاولوا إذًا أن تفهموا! ابذلوا جهدًا!"

تساءلوا على الفور، ثلاثتهم: "يبقى من ماذا؟ ماذا يقول؟" ورمقتني الفتاة "ذات المسؤوليات" بنظرة غريبة، وشرعت هي الأخرى في إطلاق عويل طويل مدوٍّ. لقد وجدت لتوها فرصة طيبة نادرة للإصابة بنوبة.. لم تكن لتضيعها. إنها الحرب! وسوف أسحقك بقدمَي! ثم اختناقات! وحالات حول بشعة! لقد كنت محظوظًا.كان يجب أن تروا ذلك! "الطبيب! خذي منه

صغيري، يا أمي!" كانت تنقذ ابنها. قد لا أعرف السبب أبدًا، لكنها شرعت، لفرط ما كنت مهتاجة، في الكلام بلهجة أهل الباسك.

"إنه يقول أشياء مرعبة! ماما! إنه شيطان". انتزعوا الصغير من بين يدَي كما لو كانوا ينتزعونه من بين ألسنة اللهب. الجد الذي كان منذ قليل خجولاً للغاية ينتزع الآن من الحائط مقياس حرارته الضخم المصنوع من خشب الأكاجو، ترمومتر هائل الحجم، كما لو كان هراوة، وقادني عن بُعد نحو الباب، الذي صفق مصراعه خلفي، بعنف، بركلة قوية.

بطبيعة الحال، انتهزت الفرصة كي لا يسددوا لي قيمة زيارتي الطبية.

عندما وجدت نفسي ثانيةً في الشارع، لم أكن شديد الفخر بما وقع في التو. ليس كثيرًا من منظور سمعتي التي لا يمكن أن تكون أكثر سوءًا في الحي بأكثر مما جرى لها ودون أن أحتاج في ذلك إلى التدخل في الأمر، لكن بسبب روبنسون دائمًا الذي كنت آمل أن أتخلص منه عبر نوبة صراحة، وأن أستمد من الفضيحة الإرادية التصميم على عدم استقباله بعد ذلك، بقيامي بمثل تلك الحملة الشعواء القاسية على نفسي شخصيًّا.

هكذا، كنت قد قدرت: سوف أرى على سبيل التجربة حجم الفضيحة التي يمكن للمرء أن يُلحقها بنفسه مرة واحدة! غير أن المرء لا يموت مطلقًا بالفضيحة والعاطفة، إنه لا يدري إطلاقًا إلى أي حد سيكون مرغمًا على التمادي في الصراحة.. لا يدري ماذا يخفي الناس عنه بعد.. ما الذي سوف يظهرونه له أيضًا.. لو عاش طويلاً بما يكفي.. إذا توغل بعيدًا في هرائهم.. كان عليَّ أن أبدأ الأمر برمته من جديد.

الآن، كنت أنا أيضًا، أتعجل المرضى كي أختبئ. في طريق العودة، مررت أولاً بزقاق جيبيه (الفريسة) ثم بشارع فالنتين. مسافة لا بأس بها. الوقت متاح لتغيير الأفكار. توجهت ناحية الأضواء. في ميدان "ترانزيتوار"، قابلت "بريدون"

مُشعل المصابيح. تبادلنا حديثًا عابرًا. "أذاهب أنت إلى السينما يا دكتور؟" سألني الرجل. ألهمني الفكرة. وجدتها وجيهة.

بالحافلة نصل بأسرع من المترو. بعد هذا الفاصل المُهين سيكون من الأفضل أن أرحل عن رانسي، جديًّا، وإلى الأبد، إن استطعت. بقدر ما يمكث المرء في مكان ما، تبتذل الأشياء والناس، تهترئ وتروح تبعث روائحها الخبيثة عِندًا من أجلك وحدك.

الفصل 27

المقطع الرابع والعشرون

رغم كل شيء، فقد أحسنت صنعًا بالعودة إلى رانسي بدءًا من اليوم التالي، بسبب بيبير الذي سقط مريضًا في ذلك اليوم تحديدًا. كان الزميل فروليشون قد سافر في إجازة، ترددت الخالة أولاً ثم طلبت مع ذلك أن أعالج ابن أختها، بلا شك لأني كنت الأرخص من بين الأطباء الآخرين الذين كانت تعرفهم.

وقع ذلك بعد عيد الفصح. كان الجو قد بدأ في التحسن. كانت بشائر رياح الجنوب تهب على رانسي وهي أيضًا التي تحمل كل سناج المصانع إلى مصاريع النوافذ.

استمر مرض بيبير عدة أسابيع، كنت أذهب إليه خلالها مرتين يوميًّا لأعوده. كان أهل الحي ينتظرونني أمام مسكن البوابة متظاهرين بعدم الاكتراث، والجيران كذلك على عتبات بيوتهم. كان الأمر بمثابة تسلية لهم. كانوا يأتون من بعيد ليعرفوا إن كانت الحال تسير إلى الأسوأ أو أنها تتحسن. لم تكن الشمس التي تمر عبر كثير من الأشياء تترك على الشارع سوى ضوء خريفي وبعض الأسى والغيوم.

من النصائح، تلقيت الكثير بشأن بيبير. الحق أن الحي بأسره كان يهتم بحالته. عندما كنت أدخل إلى المسكن يسود صمت حرِج وعدائي إلى حد كبير، فادح الغباء على وجه الخصوص. كان المسكن مزدحمًا دائمًا بصديقات ثرثارات، المقربات من الخالة، ولذلك كان يفوح قويًّا بروائح النساء وبول الأرانب. كل راغب في طبيبه المفضل، الأكثر مهارة دائمًا، الأكثر علمًا. أما أنا فلم أكن أمثل سوى ميزة واحدة، باختصار، لكنها آنذاك كانت ميزة من الصعب

اغتفارها، ميزة أن تكون تقريبًا مجانيًّا، فهذا يضر بالمريض وبأسرته.. أن يكون الطبيب مجانيًّا، مهما كانت فقيرة، تلك الأسرة.

لم يكن بيبير قد وصل بعد إلى مرحلة الهذيان، لكنه لم يعد يرغب في الحركة مطلقًا. أخذ في فقدان الوزن يوميًّا. قليل من اللحم المصفر الرجراج ما زال يعلق بالجسد الذي كان يرتجف من أعلى إلى أسفل كلما دق قلبه. يكاد يظن المرء أن قلبه كان في كل مكان تحت جلده لشدة ما صار هزيلاً، بيبير، في خلال شهر أو أكثر من المرض. كان يرسل إليَّ بابتسامات رصينة عندما كنت أحضر لرؤيته. هكذا كان يتجاوز بمنتهى اللطف التاسعة والثلاثين مئوية ثم الأربعين ويظل هكذا طوال أيام ثم أسابيع، غارقًا في أفكاره.

انتهت الحال بخالة بيبير إلى الصمت وتركتنا وشأننا. كانت قد قالت كل ما تعرفه، لذلك كانت تمضي للتباكي، مرتبكة، في أركان مسكنها، واحدًا بعد الآخر. جاءها الشجن أخيرًا بانتهاء الكلمات، لم يكن يبدو عليها أنها تعرف ماذا تفعل بالشجن، حاولت أن تطرده، لكن شجنها كان يعود إليها في الحلق تصحبه دموع، فتبدأ من جديد. طغى عليها الحزن في كل شيء، وهكذا تمكنت من أن تكون أكثر قذارة مما كانت عليه في العادة وأدهشها ذلك: "يا إلهي! يا إلهي!" راحت تقول. وهذا كل ما في الأمر. كانت قد أنهكت نفسها تمامًا لفرط ما بكت، وتدلت ذراعاها وبقيت ذاهلة أمامي.

مع هذا كان يعاودها الحزن راجعًا بقوة أيضًا، فضلاً عن أنها قررت من جديد أن تنطلق ثانيةً في العويل. هكذا استمرت هذه الروحات والغدوات في حزنها عدة أسابيع. كان لا بد من التنبؤ بأن هذا المرض يتفاقم وينذر بالسوء. كان نوعًا خبيثًا من التيفود، لم يفلح ضده كل ما حاولت، الحمامات، الأمصال، التطعيم، حظر تناول الخمور.. لم يُجدِ شيء. عبثًا كافحت، كل شيء راح سدى. بيبير كان يمضي من بيننا، راحلاً على نحو لا يمكن رده، مبتسمًا. ظل متوازنًا في قمة الحمى وأنا مرتبك بالأسفل. بطبيعة الحال نصحت الخالة من

كل جهة وبإلحاح أيضًا بالتخلص مني بلا مواربة وأن تستدعي طبيبًا آخر على وجه السرعة، أكثر خبرة، أكثر جدية.

علقت حادثة الفتاة "ذات المسؤوليات" بذاكرة الناس في الجوار وعلقوا عليها كثيرًا جدًّا. تلذذ بترديدها سكان الحي.

لكن بما أن الأطباء الآخرين العالمين بطبيعة حالة بيبير المرضية قد تهربوا منه، فقد بقيت أنا في نهاية الأمر. وبعد أن آل إليَّ بيبير لم يكن أمامي سوى أن أستمر، كما تصور الزملاء صائبين.

لم يتبقَّ لي بعد من حيلة في واقع الأمر سوى الذهاب إلى الحانة من وقت إلى آخر للاتصال ببعض الممارسين الآخرين من هنا ومن هناك، البعيدين، الذين كنت أعرفهم على نحو أو آخر في باريس، في المستشفيات، لأسألهم عما كانوا ليفعلوه هم، هؤلاء المهرة، المعتبرين، أمام حالة تيفود مثل التي تنكد عيشي. قدّم إليَّ الجميع نصائح طيبة، ردًّا على سؤالي، نصائح طيبة عديمة الجدوى لكنني مع هذا قد شعرت بالرضا بسماعهم يجهدون أنفسهم هكذا وبالمجان على أي حال من أجل الصغير المجهول الذي كنت أشمله برعايتي. تنتهي بنا الحال إلى أن نفرح بالقليل، بأقل القليل من العزاء الذي تتفضل الحياة بالسماح لنا به.

بينما كنت أدقق في عملي هكذا، ظلت الخالة تتهاوى من اليمين إلى اليسار مع مخاطر الكراسي والسلالم، لم تكن تخرج من ذهولها إلا لتأكل.

لكنها، والحق يقال، لم تفلت أبدًا، على سبيل المثال، وجبة واحدة. من جهة أخرى لم يكن أحد ليتركها تهمل نفسها. كان جيرانها يهتمون بها، يسهرون على رعايتها. كانوا يطعمونها كثيرًا بين شهقة وأخرى. كانوا يؤكدون لها أن: "هذا يقوّي القلب".. حتى إنها أخذت تسمن.

في ما يتعلق برائحة "كرنب بروكسل"، الأقوى من مرض برائحة بيبير، فقد عربدت في المسكن عربدة حقيقية. كان الوقت موسمه وقد جاءت منه من كل صوب هدايا، من كرنب بروكسل، ناضجة تمامًا، ساخنة تمامًا. كانت تتقبلها بطيب خاطر قائلة: "هذا يمنحني القوة، حقًّا! كما يجعلني أتبول جيدًا!"

قبل أن يحل الليل، بسبب دقات الجرس، حتى تنام نومًا أخف من العادة ولتسمع الاستدعاء الأوّلي فورًا، كانت تتجرع كميات هائلة من القهوة، هكذا لا يوقظ السكان بيبير بدق الجرس مرتين أو ثلاث دقات متتالية. عند مروري أمام المنزل في المساء كنت أدخل أحيانًا لأرى إن لم يكن كل هذا قد انتهى.

سألتني الخالة مفترضة بصوتٍ عالٍ: "ألا تعتقد أن الشيح بالروم الذي أراد أن يشربه عند بائعة الفاكهة في يوم سباق الدراجات هو ما أصابه بهذا المرض؟" كانت تلك الفكرة تشغل بالها منذ البداية. الحمقاء.

"الشيح!" غمغم بيبير بصوت واهن، صدى ضائع في الحمى. فيمَ يفيد إقناعها؟ قمت مرة أخرى بالإجراءين المهنيين الوهميين أو الثلاثة عديمة القيمة المنتظَرة مني، ثم مضيت لأعود إلى الليل مرة أخرى، غير فخور، لأني مثل أمي، لم أستطع مطلقًا أن أشعر ببراءتي الكاملة مما يقع من مصائب.

في نحو اليوم السابع عشر قلت لنفسي إن من الأفضل على كل حال أن أذهب إلى معهد "جوزيف بيودوريه(38)"، لأسأل أطباءه عما يرونه في شأن حالة تيفود من هذا النوع، وأن أسألهم في الوقت نفسه مشورة بسيطة، بل وربما تطعيمًا يوصون به. هكذا أكون قد قمت بكل شيء، حاولت كل شيء، حتى الغرائب، وإذا مات بيبير، حسنًا! فربما لا يكون هناك ما أُلام عليه. وصلت إلى هناك، إلى المعهد في طرف باريس، خلف حي "لاڤيلت"، ذات صباح في الحادية عشرة تقريبًا. جعلوني أولاً أطوف عبر معامل ومعامل بحثًا عن أحد العلماء. لم يكن هناك أحد في تلك المعامل، حتى تلك الساعة، لا من العلماء ولا من غيرهم، لا شيء سوى أشياء متزاحمة، مبعثرة في فوضى عارمة،

جثث حيوانات مبقورة البطون، أعقاب سجائر، صنابير غاز مشروخة، برطمانات بداخلها فئران تعاني الاختناق، قرنيات أعين، مثانات مبعثرة، مقاعد محطمة، كتب والغبار أيضًا ودائمًا أعقاب سجائر، كانت رائحتها ورائحة مبولة عامة تسود المكان. ولأني كنت قد حضرت مبكرًا جدًّا، قررت أن أذهب للقيام بجولة، ما دمت هناك، حتى ضريح العالم الكبير چوزيف بيودوريه الموجود في أقبية المعهد نفسه وسط تماثيل الرخام والذهب. نزوة برجوازية بيزنطية رفيعة الذوق. عند الخروج من المدفن، يجري جمع التبرعات، بل إن الحارس راح يدمدم متذمرًا بسبب قطعة نقد بلجيكية دُست له خفية. بسبب بيوريه هذا، كان كثير من الشباب قد اختار منذ نصف قرن التوجه إلى مهنة البحث العلمي.. واتفق أن خاب منهم الكثير، بقدر ما يكون عند التخرج في معهد الكونسرفاتوار. من جهة أخرى، فبعد عدد معين من سنوات الإخفاق، ننتهي جميعًا إلى التشابه. في هاوية الفشل الأعظم، يتساوى الحاصل على مرتبة الشرف في الكلية مع صاحب "جائزة روما". المسألة تتعلق بحافلة لا نستقلها جميعًا في الوقت نفسه بالضبط. هذا كل ما في الأمر.

(38) تحريف لمعهد باستور Pasteur. يقع مقر معهد باستور في الدائرة الخامسة عشرة بباريس. (المترجم)

كان عليَّ أن أنتظر طويلاً أيضًا في حدائق المعهد، مزيج بين السجن والميدان العام، مروج، أزهار منسقة بعناية مزروعة بطول تلك الجدران المزخرفة بسوء نية.

على أي حال، انتهى الأمر بوصول عدد من الصبية من صغار العاملين، يحمل عدد منهم مؤنًا ابتاعها من السوق المجاورة في سلال شبكية كبيرة، ناضحين بالبؤس. بعد ذلك، اجتاز العلماء بدورهم البوابة، أكثر تباطؤًا أيضًا، وأكثر تحفظًا من مرؤوسيهم المتواضعين، في جماعات صغيرة متهامسة ونابتة اللحى. مضوا متفرقين بامتداد الأروقة متمسحين بالجدران. عودة تلاميذ قدامى شائبين، يحملون مظلاتهم، يخدرهم الروتين شديد الدقة والصرامة،

الاختبارات الكيماوية المقززة بصورة بائسة، ملتحمين من أجل رواتب هزيلة، طوال سنين شبابهم، في مطابخ الميكروبات اللعينة هذه، التي يسخنون فيها هذا "الطبيخ" الذي لا ينتهي من حَتات الخضار، حيوانات التجارب المخنوقة وبعض النفايات المهترئة الأخرى.

لم يعودوا هم أنفسهم في النهاية، سوى قوارض طاعنة في السن، مدجنة، بشعة، ترتدي المعاطف. لا يبتسم المجد في أيامنا هذه إلا للأغنياء فقط، علماء كانوا أم غير ذلك. أما دهماء مهنة البحث العلمي فلم يكن بوسعهم، للبقاء على قيد الحياة، سوى الاعتماد على خوفهم من فقدان وظائفهم في صندوق القمامة الساخن، ذائع الصيت، حسن التقسيم هذا. ظل لقب "عالم" رسميًّا هو ما يحرصون عليه عى نحو أساسي. لقب كان صيادلة المدينة يولونهم بفضله بعض الثقة للقيام بتحليل بول وبصاق العملاء، لقاء أجور تافهة للغاية على أي حال، إضافة مهينة إلى دخل العالِم.

بمجرد وصوله، كان الباحث المنهجي ينكب، بطريقة شعائرية لا تتغير، خلال عدة دقائق، على الأحشاء الصفراوية الفاسدة لأرنب الأسبوع الماضي، المعروض منهجيًّا بصفة دائمة، في أحد أركان القاعة، وعاء القذارة المقدس. عندما تصبح رائحته غير محتملة بالفعل، تجري التضحية بأرنب آخر، لكن ليس قبل ذلك، بسبب قواعد التوفير التي كان البروفيسور جونيسيه، الأمين الأول للمعهد، يتمسك بها في ذلك الوقت.

يتعرض بعض البقايا الحيوانية المهترئة، بسبب قواعد التوفير هذه، لتشوهات وتحللات وفترات عرض لا يمكن تصديقها. المسألة بكاملها مسألة تعوُّد. بعض فتيان المعامل المتمرسين جيدًا بإمكانه بكل سهولة طهو وجباتهم في نعش لا يزال يُستخدم لأن التحلل وروائحه الكريهة لم تعد تزعجهم كثيرًا. لقد تمكن المساعدون البسطاء في مجال البحث العلمي العظيم في هذا الخصوص حتى من تجاوز البروفيسور جونيسيه نفسه في أمور التوفير، مع وضاعته الشديدة، والتفوق عليه في مجال تخصصه، بالاستفادة من غاز أفرانه مثلاً

لكي يطهوا لأنفسهم الكثير من وجبات اليخني الشخصية والكثير أيضًا من أطباق التورلي بطيئة التحضير، والأكثر خطرًا كذلك. عندما ينتهي العلماء من إجراء فحصهم الذاهل لأمعاء "خنزير الهند" والأرنب التقليدية، يكونون قد وصلوا بهدوء إلى الفصل الثاني من مسرحية حياتهم العلمية اليومية، فصل السيجارة. محاولة لتحييد الروائح الكريهة المحيطة بهم، والضجر بدخان التبغ. من عُقب إلى عُقب يصل العلماء رغم كل هذا إلى نهاية يوم عملهم، في الخامسة تقريبًا. عندئذٍ يعاد وضع الأحشاء المتحللة على مهل في فرن التجفيف المتخلخل لتبقى دافئة. اعتاد أوكتاف ساعي المعمل أن يخفي الفاصوليا الرفيعة المطهوة الخاصة به في جريدة ما ليمررها على نحو أيسر أمام البواب دون عقاب. تمويهات. العشاء الجاهز الذي اعتاد أن يحمله إلى "جارجان". أما رئيسه العالم، فيدوِّن مرة أخرى ملاحظة قصيرة في زاوية دفتر التجارب، باستحياء، كأنها محل شك، ليتم الاطلاع عليها مستقبلاً، إجراء عديم الجدوى تمامًا، لكنه يبرر وجوده في المعهد والمميزات الهزيلة التي ينطوي عليها، عمل إلزامي كان عليه أن يقرر القيام به رغم كل شيء قريبًا أمام مجمع علمي ما متجرد تمامًا وغير مبالٍ.

يمضي العالم الحقيقي أكثر من عشرين عامًا في المتوسط ليحقق الاكتشاف الكبير، وهو الاقتناع بأن جنون البعض لا يصنع أبدًا سعادة الآخرين، وأن كل شخص في هذا العالم تزعجه أفكار جاره المسبقة.

الهذيان العلمي، الاستقرائي والمحايد بأكثر من غيره، هو في الوقت نفسه الأقل تحملاً من بين الجميع. لكن عندما نكون قد حصلنا على بعض الإمكانيات لنعول أنفسنا ولو بكثير من التقتير في مكان ما، بالاستعانة ببعض المظاهر الخادعة، فمن الواجب الاستمرار أو التسليم بحتمية الهلاك مثل خنزير التجارب. العادات تنتقل بالعدوى بأسرع مما تفعل الشجاعة، وخصوصًا عادة تناول الطعام.

كنت أبحث إذًا عن صاحبي بارابين في أرجاء المعهد، لأني كنت قد جئت من رانسي خصوصًا كي أراه. كان المقصود هو الاستمرار في بحثي. لم يكن هذا ليمضي دون صعوبة. حاولت مرات عديدة، مترددًا طويلاً بين كثير من الأروقة والأبواب.

لم يكن هذا الأعزب الأبدي يتنازل عن الغداء مطلقًا ولم يكن يتعشى كثيرًا، فقط مرتين أو ثلاثًا على الأكثر في الأسبوع، لكنه عندها كان يزدرد الكثير، على طريقة الطلاب الروس الذين كان قد أخذ عنهم كل عاداتهم الغربية.

مُنح بارابين هذا في وسطه التخصصي أعلى درجات الكفاءة. كل ما يتعلق بأمراض التيفود كان مألوفًا له، سواء كانت حيوانية أم آدمية. تعود شهرته إلى عشرين عامًا مضت، إلى الفترة التي ادعى فيها بعض المكتشفين العلميين الألمان ذات يوم أنهم قد نجحوا في عزل بعض البكتيريا العصوية التيفودية(39) الحية في الإفراز المهبلي لطفلة عمرها ثمانية عشر شهرًا. أحدث هذا ضجة كبيرة في نطاق الحقائق العلمية. محظوظًا، رد بارابين بأسرع ما يمكن باسم المعهد الوطني وتجاوز على الفور هذا الجرماني المتبجح بأن استزرع هو شخصيًّا، بارابين، في مَنِيّ جندي متقاعد في الثانية والسبعين من عمره، الجرثومة نفسها ولكن بصورة نقية.. صار شهيرًا على الفور. لم يعد يتبقى أمامه وحتى موته سوى أن يسوّد بانتظام بعض الأعمدة التي تصعب قراءتها في بعض الدوريات المتخصصة ليظل في مرتبة النجوم، وهو ما كان يقوم به على أي حال بلا مشقة منذ يوم الجرأة والحظ ذلك.

(39) الإيبرتينات، عصيات إيبرت، هي جراثيم التيفود، اكتُشفت عام 1881، بواسطة الألماني كارل إيبرت Karl Eberth. (المترجم)

ظل الجمهور العلمي الجاد في الوقت الحالي يثق به ويطمئن إليه. وكان هذا يعفي هذا الجمهور العلمي من قراءة ما يكتبه.

إن شرع هذا الجمهور في الانتقاد، فقد لا يكون هناك أي تقدم ممكن بعد ذلك. قد يمكث عامًا عند كل صفحة.

عندما وصلت أمام باب صومعته، كان سيرج بارابين يطوف بأركان المعمل باصقًا فيها لعابه المتدفق، يحمل وجهه امتعاضة متقززة للغاية حتى لتحملك على التأمل فيها. اعتاد بارابين أن يحلق لحيته من حين إلى آخر، لكنه ظل مع ذلك يحتفظ عند عوارض وجنتيه دائمًا بما يكفي من الزغب لإكسابه مظهر سجين هارب. كان يرتجف باستمرار أو على الأقل كان يبدو كذلك، على الرغم من أنه لم يكن يتخلى مطلقًا عن معطفه، الذي يحمل تشكيلة واسعة من البقع وخصوصًا بقع قشور الرأس التي كان يفرقها بعد ذلك بضربات خفيفة من أظفاره حولها، في حين كان يرد ناصية شعره، المتأرجحة دائمًا، على أنفه المضرج بالأخضر والوردي.

في أثناء فترات تدريبي في المدارس التطبيقية للكلية، كان بارابين قد أعطاني بعض دروس الميكروسكوب وأظهر نحوي في مناسبات عديدة اهتمامًا وعطفًا حقيقيًّا. رحت آمل ألا يكون بعد تلك الأوقات البعيدة الآن قد نسيني تمامًا، وأنه قد يكون قادرًا على أن يقدم إليَّ استشارة علاجية من مستوى رفيع لحالة بيبير التي كانت تشغلني حقًّا.

الحقيقة أني وجدت نفسي أرغب في منع بيبير من الموت بأكثر من رغبتي في إنقاذ حياة شخص بالغ. لا يستاء المرء مطلقًا بجدية لموت شخص بالغ، فهذا يعني شخصًا فظًّا أقل على سطح الأرض، بقرة أقل كما يقال، لكن بالنسبة إلى طفل يكون الأمر على أي حال أقل تأكيدًا.. فهناك المستقبل.

بعد أن أُحيط علمًا بالصعوبات التي تواجهني، قَبِل بكل طيب خاطر بمساعدتي وتوجيه طريقة علاجي المحفوفة بالمخاطر، غير أنه كان قد تعلم، خلال عشرين عامًا، أمورًا كثيرة جدًّا ومتباينة للغاية ومتعارضة في غالب الأحيان حول مسألة التيفود، حتى صار من العسير عليه جدًّا في الوقت

الحالي أن يكون بشأن هذا المرض المألوف جدًّا وطرق علاجه أي رأي واضح أو قاطع.

بادرني بالسؤال: "هل تؤمن، أنت، يا زميلي العزيز، بالأمصال؟ أتظنها ناجحة؟ ما رأيك فيها؟ والتطعيمات إذًا.. ما انطباعاتك عنها عمومًا؟ ألم يعد بعض العقول النابغة لا يريد الآن أن يسمع عنها شيئًا؟ التطعيمات.. هذه جرأة منهم، بكل تأكيد، يا زميلي، أنا أيضًا أرى ذلك.. لكن على أي حال، هل تعتقد ذلك؟ رغم كل شيء؟ ألا ترى أن هناك ثمة حقيقة في هذه السلبية؟ ما رأيك؟

كانت العبارات تنطلق في فمه بقفزات مبالغ فيها تتخللها سيول هادرة من حروف "الراء".

بينما كان كأسد بين افتراضات عاصفة ويائسة أخرى، كان جونيسيه، الذي كان لا يزال حيًّا في ذلك الوقت، الأمين العام اللامع، قد جاء ليمر تحت نوافذنا بالضبط، منضبطًا ومتعاليًا. بمجرد رؤيته، ازداد بارابين شحوبًا، لو كان من الممكن لذلك أن يحدث، وغيّر موضوع الحديث بعصبية، متعجلاً أن يبدي لي على الفور كل النفور الذي تبعثه فيه مجرد رؤيته اليومية المعتادة، جونيسيه هذا، الذي كان العالم كله يمجد قدره. وفي لحظة وصفه لي جونيسيه العظيم هذا بمزور ومهووس من أحط نوعية، كما نسب إليه أيضًا فوق ذلك جرائم وحشية غير منشورة وغير مسبوقة وسرية، كانت تكفي لملء سجن بكامله لمدة قرن.

لم أعد أستطيع أن أمنعه من أن يقدم إليَّ، بارابين، مئة وألف تفصيلة تنم عن البغض حول مهنة الباحث الهزلية هذه التي كان مرغمًا بالفعل، من أجل تأمين قوت يومه، على أن يخضع، لكراهية وحقد أكثر حدة وأكثر علمية بالفعل، من الأحقاد التي قد تصدر عن أشخاص آخرين موجودين في ظروف مشابهة في المكاتب والمحلات.

ظل يردد هذه الأقوال بصوتٍ عالٍ جدًّا، وكانت صراحته تدهشني.

كان ساعي معمله يستمع إلينا. كان هو الآخر قد أتم طبخته الصغيرة وراح يتحرك، مراعاةً للمظاهر، بين المواقد وأنابيب وعينات الاختبار، لكن ولطول ما تعود الصبي، سماع بارابين في درس لعناته اليومية هذه، إن جاز القول، فقد كان يعد هذه التعليقات، على ما فيها من فحش بالغ، تقليدية تمامًا، منمقة وعديمة الجدوى. بدا له بعض التجارب الشخصية التي كان الفتى يتابعها بكثير من الجدية، في أحد مواقد المعمل، بخلاف ما كان بارابين يقوله، مدهشًا، ومفيدًا علميًّا على نحو شهيّ. لم تكن نوبات هياج بارابين لتنجح مطلقًا في صرفه عنها. قبل أن يذهب، أغلق باب الموقد على ميكروباته الشخصية، كما لو كان يغلقه على بيت قربان، بكل رقة وحرص.

"هل رأيت معاوني، يا زميلي، هل رأيت معاوني الغبي؟" قال بارابين، بمجرد أن خرج. "حسنًا، ها هي ثلاثون عامًا إلا قليلاً وهو يكنس قمامتي ولا يسمع حوله إلا من يتحدث عن العلم وبكل غزارة وإخلاص، صدقني.. مع هذا، فبدلاً من أن يصيبه ذلك بالتقزز، فإنه الوحيد والوحيد فقط الذي انتهت به الحال الآن إلى الإيمان به هنا! لطول عبثه بمزارعي البكتيرية، فقد راح يراها رائعة! يتلمظ عند رؤيتها.. أقل تملقاتي له تُسكره! من جهة أخرى، أليس مثله مثل ما في كل المذاهب الدينية! أليس من زمن بعيد والكاهن يفكر في كل شيء ما عدا الرب، الذي لا يزال خادمه يؤمن به.. صلبًا كالحديد؟ إن هذا يبعث على التقيؤ حقًّا! ألا يبالغ معاوني الأحمق في سخافته حتى محاكاة بيودوريه جوزيف العظيم في حلته ولحيته الصغيرة! هل لاحظت ذلك؟ بيني وبينك، في هذه النقطة، فإن بيودوريه العظيم لا يختلف كثيرًا عن خادم معملي سوى في سمعته العالمية وحدّة نزواته.. بهوسه الغريب بغسل الزجاجات بالماء بمنتهى الإتقان، بمراقبة، عن قُرب لا يُصَدَّق، فقس بيوض العثة، لقد بدا لي دائمًا بشع السوقية عبقري التجارب العظيم هذا.. انزعوا قليلاً عن بيودوريه العظيم خسته المدهشة في مجال التوفير وحدثوني إذًا قليلاً عما يتبقى منه من

الصفات الجديرة بالإعجاب. إني أسألك.. ماذا يتبقى؟ وجه عدواني لبواب مشاكس وخبيث الطوية. ليس أكثر. فضلاً عن ذلك، فقد أثبت بالفعل، في الأكاديمية، سوء طباعه في أثناء السنوات العشرين التي أمضاها فيها، مكروهًا من الجميع تقريبًا، تشاجر خلالها مع الجميع تقريبًا وليس بالقدر القليل.. لقد كان عبقريًّا مصابًا بجنون العظمة.. هذا كل ما في الأمر".

بتروٍّ، راح بارابين بدوره يستعد لمغادرة المكان. ساعدته في أن يلف حول عنقه ما يشبه وشاحًا وفوق قشور شعره الدائمة على كتفيه أيضًا شيئًا يشبه الشال. حينذاك عاوده خاطر أني كنت قد جئت لرؤيته بخصوص شيء عاجل ومحدد تمامًا. "حقًّا، لقد نسيت مريضك، ورحت أزعجك بحكاياتي التافهة! اعذرني يا زميلي ولنعد فورًا إلى موضوعنا! لكن ماذا أقول لك فوق ما تعرفه أنت سلفًا! من بين كثير من النظريات المتذبذبة، التجارب القابلة للجدل، فإن المنطق يقتضي في الحقيقة ألا نفضل واحدة على أخرى! لتقم إذًا بأفضل ما تستطيعه.. هيا يا زميل! ما دام من الواجب أن تقوم بشيء ما، فلتقم به بأفضل ما يكون! من جهتي أنا، رغم كل شيء، يمكنني أن أؤكد لك، هنا في ما بيننا، أن داء التيفود هذا قد أدى إلى إثارة نفوري بما يفوق كل الحدود، بل حتى بما يفوق كل خيال! عندما تناولته بالبحث في شبابي، التيفود، لم نكن سوى بضعة باحثين تفرغوا لدراسة هذا الموضوع، كان بإمكاننا عمومًا أن نحصي أعدادنا بسهولة، نعرف مؤهلات كل منا.. أما الآن، ماذا أقول لك؟ يصلنا من لابونيا يا عزيزي! من البيرو! المزيد منهم كل يوم. يأتينا متخصصون من كل مكان! يصنعونهم بالجملة في اليابان! لقد رأيت العالم وقد أضحى في أقل من بضع سنوات مرتعًا حقيقيًّا لفوضي منشورات عالمية وغير معقولة حول الموضوع المتكرر نفسه. وقد ألزمت نفسي، حتى أحفظ فيه مكاني، وأدافع عنه كيفما استطعت طبعًا، بأن أقدم وأعيد تقديم مقالي الصغير نفسه من مؤتمر، من مجلة علمية إلى أخرى، وأُخضعه فقط نحو نهاية كل موسم لبعض التعديلات مبهمة الدلالة وغير المهمة، ثانوية تمامًا.. لكن صدقني مع ذلك أيها الزميل، أن التيفود، في أيامنا هذه، قد صار بمثل هوان وابتذال

الماندولين والبونجو. ابتذال مميت.. أؤكد لك! كلٌّ يريد أن يعزف عليه لحنًا بطريقته الخاصة. كلا. إني أود بالأحرى أن أعترف لك بهذا، إنني لم أعد ألمس في نفسي القدرة على تحمل مزيد من الإزعاج والنكد، ما أطلبه لإكمال حياتي هو ركن صغير لأبحاث هادئة تمامًا لا تجلب لي مزيدًا من الأعداء، ولا التلاميذ، وإنما ذلك الصيت المتواضع الذي لا يؤدي إلى الغيرة والذي يكفيني وأحتاج إليه بشدة. من بين حماقات أخرى، فكرت في دراسة التأثير المقارن للتدفئة المركزية على البواسير في بلاد الشمال وجنوب فرنسا. ما رأيك في هذا؟ في قواعد الصحة العامة؟ في نظم الحمية؟ إنها رائجة الآن، هذه الأمور! أليس كذلك؟ إن دراسة كهذه، تجري بطريقة مناسبة وتسير ببطء، سوف تصالحني مع الأكاديمية، أنا متأكد من ذلك، لأنها تضم غالبية من الشيوخ الذين لا يمكن أن تبقيهم مشكلات التدفئة والبواسير غير مبالين. انظر ماذا فعلوا من أجل السرطان الذي مسَّهم عن قرب! لتكرّمني الأكاديمية فيما بعد بإحدى جوائزها في علم الصحة العامة؟ ما يدريني؟ عشرة آلاف فرنك؟ ما رأيك؟ ها هو ما يسدد نفقات رحلة فينيسيا. هل تعرف؟ لقد زرت فينيسيا في شبابي، صديقي الشاب.. بلى لقد حدث! يشرف المرء فيها على الموت جوعًا كما يحدث في أي مكان آخر.. لكنه يتنفس فيها رائحة موت مترف.. ليس من السهل نسيانها فيما بعد.

في الشارع، كان علينا أن نعود أدراجنا بسرعة لنأتي له بحذائه المطاطي الذي كان قد نسيه في المعمل. بدا أننا متأخرون. ثم أسرعنا الخطى إلى مكان لم يكن قد أخبرني به.

عبر شارع ڤوچيرار الطويل، المفروش بالخضراوات والازدحامات، بلغنا الحافة القصوى لميدان تطوقه أشجار الكستناء ورجال الشرطة. انسللنا إلى القاعة الخلفية لمقهى صغير حيث جلس بارابين خلف زجاج نافذة، محتميًا بأستارها.

"لقد فات الأوان" قال متحسرًا، "لقد خرجن من قبل!"

"من؟"

"تلميذات المدرسة الثانوية الجميلات.. تعرف هناك فاتنات من بينهن.. إنني أعرف سيقانهن عن ظهر قلب. إنني لم أعد أطلب شيئًا آخر في آخر أيامي. هيا بنا! ليكن ذلك في يوم آخر".

وافترقنا صديقين حميمين حقًّا.

الفصل 28

المقطع الخامس والعشرون

كنت سعيدًا لأني لم أعد مضطرًا مطلقًا إلى العودة إلى رانسي. منذ ذلك الصباح نفسه الذي رحلت فيه من هناك كنت قد نسيت بالفعل تقريبًا همومي المعتادة.. كانت لا تزال مترسخة هناك في رانسي بقوة منعهتها من ملاحقتي. ربما كانت لتموت همومي هناك، إهمالاً، مثل بيبير، لو لم أكن قد عدت. كانت من هموم الضواحي. إلا أنه بالقرب من شارع بونابرت، عاودني الفكر، الحزين. مع أنه كان بالأحرى شارعًا يمنح المار فيه البهجة. كان هناك القليل من الشوارع التي تماثله حفاوةً وأناقة. لكن مع اقترابي من الأرصفة، اعتراني، على الرغم من كل شيء، الخوف. رحت أتسكع. لم أستطع أن أعقد العزم على عبور النهر. ليس كل الناس قيصر! من الناحية الأخرى، على الضفة الأخرى، كانت متاعبي ستبدأ. آثرت الانتظار هكذا في الجهة اليسرى حتى حلول الليل. قلت لنفسي، إنها دائمًا بضع ساعات مكتسبة من الشمس. راحت المياه تجيء مطبطبة بالقرب من الصيادين وجلست أراقبهم يقومون بذلك. الحقيقة أنني لم أكن مستعجلاً أنا الآخر، ليس أكثر منهم. كنت كمن وصل إلى اللحظة، أو ربما إلى العمر، الذي نعرف فيه جيدًا ما يفقده المرء في كل ساعة تمر. لكنا لم نحصل بعد على قوة الحكمة اللازمة للتوقف فجأة في طريق الوقت، فضلاً عن أننا لا نعرف أولاً ماذا نفعل أيضًا، لو توقفنا، دون جنون التقدم إلى الأمام الذي يستبد بنا والذي يعجب به المرء منذ بداية شبابه. إننا الآن أقل فخرًا بشبابنا، إننا لا نجرؤ أيضًا على الاعتراف على الملأ بأن شبابنا لم يكن إلا هذا، تحمسًا للشيخوخة.

يكتشف المرء كل ما في ماضيه من السخف، الخداع، السذاجة، أننا ربما كنا نرغب في التوقف فجأةً عن كوننا شبابًا، انتظار أن يبتعد الشباب عنا، انتظار أن يتجاوزنا، رؤيته يمضي، يبتعد، مشاهدة كل خيالاته، يمد يده في خوائه، رؤيته يمر ثانيةً أمامه، ثم يرى نفسه يمضي، أن يتأكد من أن شبابه قد مضى بالفعل وبهدوء! يمضي كلٌّ من ناحيته، وحيدًا، لينتقل ثانيةً برفق من الناحية الأخرى للوقت ليرى فعلاً كيف كان الناس والأشياء.

على حافة الرصيف، لم يكن الصيادون ينالون شيئًا، بل لم يبدوا أنهم مصرون كثيرًا على الحصول على بعض الأسماك. لا بد أن الأسماك كانت تعرفهم. ظلوا جميعًا هناك يتظاهرون بالانشغال. كانت شمس آخر نهار جميلة لا تزال تُبقي على شيء من الدفء حولنا، ملقيةً فوق سطح المياه بانعكاسات رقيقة ممتزجة بالأزرق والذهبي. من الرياح، جاء أبردها عبر الأشجار العالية من الجهة المواجهة، بشوشًا تمامًا كانت نسمات الرياح، منحنية عبر آلاف الأوراق، في هبات رقيقة ناعمة. كنا في أفضل حال. ساعتان كاملتان، ظللنا هكذا دون أن نلتقط شيئًا، دون أن نفعل شيئًا. من جهة أخرى، تحول نهر السين إلى العتمة وصار طرف الجسر أحمر تمامًا بتأثير الغسق. كانت جموع المارة عبر الرصيف قد نسيتنا هناك، نحن الآخرين، بين الضفة والماء.

خرج الليل من تحت القناطر، صعد بامتداد القصر(40) (اللوفر)، غطى الواجهة، النوافذ، واحدة بعد الأخرى، تلك التي كانت تشتعل أمام العتمة. ثم، أخذت النوافذ هي الأخرى في الانطفاء.

(40) القصر، المقصود به، قصر متحف اللوڤر. (المترجم)

لم يعد يتبقى علينا سوى الرحيل مرة أخرى.

راح باعة الكتب القديمة فوق الرصيف يغلقون صناديقهم. "هل تأتي؟" كانت المرأة تصرخ في زوجها من فوق الإفريز، الذي كان إلى جواري، والذي أخذ

في لملمة معداته، كرسيه القابل للطي وديدان الطعم. زمجر الرجل ودمدم كل الصيادين غضبًا من بعده وصعدوا مرة أخرى، وأنا أيضًا، إلى الأعلى، مزمجرين، مع الناس العابرين. تحدثت إلى زوجة الرجل، هكذا لا أقول لها شيئًا لطيفًا قبل أن يحل الليل في كل مكان. أرادت على الفور أن تبيعني كتابًا. كان كتابًا نسيت أن تعيده إلى صندوقها بحسب ما زعمت. "سيكون ذلك بسعر أقل، مقابل لا شيء تقريبًا. كتاب صغير قديم لـ مونتاني Montaigne"، كتاب أصيل مقابل فرنك واحد. أردت بالفعل أن أرضيها تلك السيدة، لقاء هذا القدر الهزيل من النقود. أخذت منها كتاب "مونتاني".

تحت الجسر، صار الماء ثقيلاً تمامًا. لم تعد لديَّ الرغبة مطلقًا في المضي قدمًا. عند مصاطب السور، في الشوارع الواسعة، تناولت قهوة مع الحليب وفتحت هذا الكتاب الذي باعتني المرأة إياه. عندما فتحته، وقعت على صفحة من خطاب كان قد كتبه إلى زوجته، مونتاني(41)هذا، بمناسبة أن ابنًا لهما كان قد مات لتوه. أثار هذا المقطع اهتمامي على الفور، ربما بسبب الروابط التي أقمتها مباشرةً مع بيبير. آه! يقول مونتاني، لزوجته تقريبًا.. هكذا: هيا، هوني عليكِ، زوجتي الغالية! يجب أن تُفرّجي عن نفسكِ.. سوف تتحسن الأمور. في الحياة تنصلح كل الأمور.. ثم من جهة أخرى، قال مواصلاً، لقد وجدت بالأمس تحديدًا في بعض أوراق قديمة لصديق لي خطابًا بعينه كان بلوتارك Plutarque قد أرسله هو الآخر إلى زوجته في ظروف مماثلة تمامًا لظروفنا.. وقد وجدته مكتوبًا بطريقة جميلة، خطابه، يا زوجتي الغالية، أنَّى أرسل إليكِ خطابه! إنه خطاب رائع! من جهة أخرى فأنا لا أريد أن أحرمكِ منها أكثر من ذلك، ستخبرينني بأنباء شفاء أحزانك. زوجتي الغالية.. إنني أرسل إليكِ الخطاب الرائع! إنه هنا مثل خطاب بلوتارك.. يمكنا أن نقول ذلك! إن لم يتوقف عن إثارة اهتمامك.. آه! كلا! اطلعي عليه يا زوجتي العزيزة! اقرئيه جيدًا! أريه للأصدقاء، ثم أعيدي قراءته ثانيةً! أنا الآن مطمئن تمامًا! أنا متأكد من أنه سوف يعيد ثقتك بنفسك! زوجك الطيب ميشيل.

(41) سنجد النص الأصلي لهذا الخطاب في طبعة La Pléiade. (المترجم)

قلت أنا لنفسي: "ها هو ما يمكن أن نطلق عليه عملاً رائعًا. لا بد أن زوجته كانت فخورًا بأن لها زوجًا طيبًا لا يساوره القلق مثل ميشيل". على أي حال، كانت تلك قضيتهم الخاصة هؤلاء الناس. قد يخطئ المرء دومًا عندما يتعلق الأمر بالحكم على قلوب الآخرين. ربما كانا حزينين فعلاً؟ حزن ذلك الوقت؟

لكن في ما يخص بيبير، فقد كان يومًا قاسيًا بالنسبة إليّ. لم يكن لي حظ مع بيبير، حيًّا أو ميتًا. بدا لي أن شيئًا لا يعود إليه فوق هذه الأرض، ولا حتى في خطاب مونتاني. ومن جهة أخرى، ربما كان الأمر كذلك بالنسبة إلى الجميع، بمجرد أن ندقق في الأمر، فلا شيء سوى الخواء. لم يكن هناك ما يقال، كنت قد غادرت رانسي منذ الصباح، وكان ينبغي أن أعود إليها، دون أن أحمل جديدًا. لم يكن لديَّ ما أقدمه إليه إطلاقًا ولا إلى الخالة هي الأخرى.

جولة قصيرة بميدان بلانش قبل العودة.

رأيت أناسًا بامتداد شارع لوبيك، بأكثر مما هو معتاد. وصعدت فيه أيضًا، كي أتفرج. في أحد أركان محل جزارة كان هناك حشد كبير. كان لا بد من التزاحم لرؤية ما كان يجري، في دائرة. كان هناك خنزير، سمين، ضخم.. كان يتأوه هو الآخر، وسط الدائرة، كرجل يجري إزعاجه، لكن بشدة. فضلاً عن ذلك، لم يتوقفوا عن إيذائه. راح الناس يلوون أذنيه لمجرد أن يسمعوه يصرخ. كان يتلوى ويضرب بقوائمه لشدة رغبته في الهروب، لفرط ما كانوا يجذبونه من حبله. راح آخرون يضايقونه والخنزير يصرخ أقوى من ذي قبل من شدة الألم، والناس يغرقون في الضحك أكثر.

لم يكن الخنزير السمين يعرف كيف يختبئ في كومة القش الصغيرة التي تُركت له والتي كان القش يتطاير عندما كان يزمجر عاديًّا وينفث فيه. لم يكن يعرف كيف ينجو من البشر. كان يدرك ذلك.. راح يبول في الوقت نفسه بقدر

ما يستطيع، ولم يجدِ ذلك نفعًا أيضًا. والعواء، الصراخ، راحا سدى، أيضًا. كان الناس يضحكون. خلفه، كان جزار الخنازير، في دكانه، يتبادل الغمزات والدعابات مع الزبائن، ويرسل إشارات بسكين كبيرة.

كان سعيدًا هو الآخر، كان قد اشترى الخنزير، وربطه في المحل كنوع من الدعاية. في زفاف ابنته لم يكن الرجل ليفرح بأكثر من ذلك.

كان المزيد من الناس يتوافدون دائمًا أمام المحل ليشاهدوا الخنزير يرتج منهارًا في ثنايا جلده الضخمة الوردية بعد كل مجهود يبذله من أجل الفرار. غير أن ذلك لم يكن كافيًا. جعلوا كلبًا مشاكسًا صغيرًا جدًّا يتسلق فوقه، راحوا يستفزونه للتقافز فوق ظهره وعضه مباشرةً في لحمه الغليظ المترهل. كانت الفرحة في أوجها حتى لم يعد بالوسع التقدم أو الاقتراب. جاء رجال الشرطة لتفريق الجموع.

عندما نصل في مثل هذه الأوقات إلى أعلى جسر "كولانكور" يمكننا أن نلمح في ما وراء بحيرة الليل الواسعة الجاثمة فوق المقبرة(42)، أوائل أضواء رانسي. إنها على الضفة الأخرى، رانسي. يجب أن تدور حول المقبرة بالكامل لتصل إليها. إنها بعيدة جدًّا! يبدو حينها أننا ندور حول الليل نفسه، لطول ما يجب أن نسير من خطى ومن وقت حول المقبرة لنصل إلى منطقة التحصينات.

(42) المقبرة Le cimetière، هناك مقبرة أخرى مجاورة، المقصود مقابر مونمارتر ومقبرة باريس بحي الباتينيول Batignolles. (المترجم)

ثم عند الوصول إلى الباب، بقرب بوابة الرسوم(43)، نمر ثانيةً أمام المكتب المتهالك حيث يقع خامدًا الموظف الصغير ممتقع اللون. تكون قريبة جدًّا إذًا. كلاب المنطقة موجودة حيث يقتضي واجب النباح تحت أحد مصابيح الغاز. توجد بعض الزهور، على أي حال، زهور البائعة التي تنتظر هناك دائمًا، الموتى

الذين يمرون من يوم إلى آخر، من ساعة إلى أخرى. المقبرة، واحدة أخرى، إلى جوارها، ثم شارع الثورة "لاريـڤولت"، إنه يصعد بكل مصابيحه، مستقيمًا، عريضًا، في قلب الليل تمامًا. ليس عليَّ سوى أن أسلكه، إلى اليسار. كان ذلك شارعي. لم يكن هناك حقًّا أحد يمكن أن تقابله. رغم كل هذا، كنت أتمنى أن أكون في مكان آخر وبعيد. كما وددت أيضًا لو كنت أنتعل خفًّا خفيفًا حتى لا يسمعني أحد على الإطلاق أعود إلى منزلي، مع أن الذنب لم يكن ذنبي في أن بيبير لم يتحسن مطلقًا. كنت قد بذلت ما في وسعي. ليس هناك ما يوجب لومي. لم يكن ذنبي إذا لم يكن بالإمكان فعل شيء حيال حالات كهذه. وصلت حتى أمام بيته، وأعتقد ذلك، أن أحدًا لم يلحظني. ثم، بعد أن صعدت إلى مسكني، دون أن أضيء المصابيح، نظرت من خلال شقوق الشيش، لأرى إذا ما كان هناك مَن لا يزالون يتحدثون أمام مسكن بيبير. كان بعض الزوار لا يزالون يخرجون من المنزل، غير أنهم لم يبدوا على مثل ما كانوا عليه بالأمس. راحت إحدى خادمات البيوت في الجوار، التي كنت أعرفها جيدًا، تبكي وهي خارجة من عنده. "يبدو حقًّا أن الأمر يسوء أكثر" قلت لنفسي. على كل حال، فالأمر بالتأكيد لا يتحسن.. قد يكون الأمر قد انتهى؟ قلت لنفسي. لأن هناك امرأة كانت تبكي الآن بالفعل. كان النهار قد انقضى.

(43) L’octroi، مكتب تحصيل الرسوم عند بوابة كليشي Porte de Clichy، أزيل عام 1918. (المترجم)

حاولت مع ذلك أن أتذكر إذا ما كانت لي يد في كل هذا. كان بيتي باردًا وهادئًا، مثل ليل صغير في أحد جوانب الليل الكبير، قُدّ خصوصًا من أجلي وحدي.

من وقت إلى آخر تصاعدت أصوات خطوات وصار الصدى يدخل غرفتي ويقوى تدريجيًّا، راح يطن، يخفت.. ثم ساد الصمت. نظرت مرة أخرى لأرى إذا ما كان شيء ما يجري في الخارج، في المنزل المقابل. لم يكن يجري شيء إلا في داخلي، يطرح عليَّ دائمًا السؤال نفسه.

انتهت بي الحال إلى النعاس والسؤال يدور في داخلي، في ليلي الخاص، هذا النعش، لشدة ما كنت متعبًا من السير ومن عدم الاهتداء إلى شيء.

الفصل 29

المقطع السادس والعشرون

الأحرى ألا يخدع المرء نفسه. لا يملك الناس ما يقولونه في ما بينهم، لا يتحدث أحد إلى الآخر عن أحزانه الشخصية، هذا أمر معروف. كلٌّ ملزم بنفسه، الأرض للجميع. إنهم يحاولون التخلص من حزنهم بإلقائه على الآخر، في لحظة العشق، لكن الأمر لا ينجح ويروح ما يحاولون سدى.. إنهم يحتفظون به كاملاً، حزنهم هذا، ثم يبدؤون من جديد، يحاولون مرة أخرى بيعه للآخر، استثماره. "جميلة أنتِ، آنستي" هذا ما يقولون. ثم تأخذهم الحياة من جديد، حتى المرة التالية التي سيلجأ فيها إلى الحيلة نفسها مرة أخرى. "كم أنتِ بارعة الجمال، آنستي!"

فضلاً عن أنهم يتباهون في أثناء ذلك بأنهم نجحوا في التخلص من أحزانهم، لكن الجميع يعرف جيدًا أن ذلك ليس حقيقيًّا إطلاقًا وأننا حقًّا نحتفظ بها لأنفسنا كاملة، أحزاننا. ولأن المرء يصبح بالتدريج أكثر قبحًا وإثارةً للنفور باستمراره في تلك اللعبة بالتقدم في العمر، فإنه لا يعود حتى قادرًا على إخفاء ألمه، إخفاقه، تنتهي به الحال إلى أن يحتل وجهه تمامًا ذلك الامتعاض البغيض الذي ينف عشرين عامًا، ثلاثين عامًا، وأكثر، ليصعد من بطنه إلى وجهه. وفي هذا ما يفيد، في هذا فقط، رجل، تكشيرة امتعاض، ينفق عمرًا كاملاً في تحضيرها، بل إنه لا يستطيع حتى إكمالها دومًا ولشدة ما هي ثقيلة ومعقدة تلك الامتعاضة التي يجب أن يُظهرها للتعبير عن روحه الحقيقية كاملة دون أن يفقد منها شيئًا.

أما امتعاضي أنا، فقد كنت آخذًا في إتقان رسمه بفواتير لم أتمكن من سدادها، مع أنها قليلة القيمة، إيجاري غير المحتمل، معطفي الخفيف جدًّا

بالنسبة إلى هذا الفصل من السنة، وبائع الفاكهة الذي كان يضحك مختلسًا النظر عندما يراني أحصي قروشي، مترددًا أمام جبن "البري"، محمرًّا خجلاً في الوقت الذي تبدأ فيه أسعار العنب في الارتفاع. ثم بسبب المرضى أيضًا الذين لم يرضِهم شيء قط. كما أن ضربة موت بيبير لم تعد عليَّ بخير هي الأخرى في جوار الحي. غير أن الخالة لم تلمني. لا يمكننا القول إنها كانت شريرة في ذلك الموقف، كلا.. بالأحرى، كان من جهة آل هنرووي، في مسكنهم، أن بدأتُ فجأة في جلب كثير من المتاعب وتصور المخاوف.

ذات يوم، غادرت الأم هنرووي العجوز، هكذا دونما إنذار، مسكنها، ابنها، كنتها، وقررت من نفسها أن تأتي لتزورني. كان ذلك تصرفًا ذكيًّا. ثم إنها في ذلك الوقت غالبًا ما كانت تأتي لتسألني إذا ما كنت أعتقد فعلاً أنها كانت مجنونة. كأن ذلك كان يسرّي عنها هذه العجوز، أن تأتي خصوصًا لتسألني عن هذا الموضوع. كانت تنتظرني في الغرفة التي كنت أستخدمها صالة للانتظار. ثلاثة كراسي ومنضدة ذات ثلاث قوائم.

وعندما عدت إلى بيتي في ذلك المساء، وجدتها في صالة الانتظار مشغولة بمواساة خالة بيبير وهي تروي لها عن كل من فقدتهم هي، العجوز هنرووي، من أقارب، في طريق حياتها، قبل الوصول إلى سنها هذه، بنات أخ أو أخت بالدستة، أعمام وأخوال من هنا ومن هناك، ووالد بعيد تمامًا من هناك، من منتصف القرن الماضي، وخالات أيضًا، فضلاً عن بناتها اللاتي رحلن في كل مكان هنا وهناك واللاتي لم تعد تعرف تمامًا لا أين ولا كيف، صرن غامضات للغاية، مبهمات للغاية، مشكوك في أمرهن للغاية، بناتها هي، حتى إنها بدت كأنها مرغمة على تخيلهن الآن بكثير من المشقة أيضًا بمجرد رغبتها في الحديث عنهن إلى الآخرين. لم يعودوا حتى ذكريات بالفعل أبناءها الفعليين. كانت تجر حول خاصرتيها العجوزين، شعبًا كاملاً من الموتى القدامى التافهين، أشباحًا بكماء منذ وقت طويل، أحزانًا غير منظورة كانت تحاول أن

تجعلها تتحرك مرة أخرى قليلاً رغم كل شيء، عندما وصلت، بكثير من المشقة، من أجل مواساة خالة بيبير.

ثم جاء روبنسون لرؤيتي هو الآخر. عرفتهم جميعًا ببعض. أصدقاء كنا.

بل إنه ابتداءً من ذلك اليوم، أتذكر ذلك من وقتها، تعوَّد روبنسون لقاءها في صالة انتظاري، الأم هنرووي العجوز. كانا يتحدثان معًا. في اليوم التالي، كان بيبير قد وُري التراب. "هل ستأتي؟" راحت الخالة تسأل كل مَن كانت تقابله. "سوف يسرني أن تأتي إلى هناك".

"بكل تأكيد سوف آتي". هكذا أجبت العجوز. يُرضي المرء في هذه اللحظات أن يكون مُحاطًا بالناس. لم يعد بالإمكان الإبقاء عليها في كوخها القذر. كانت قد صارت مُحبة للخروج.

شكرتها الخالة: "آه، حسنًا إذًا، نِعم الأمر لو جئتِ! وأنت يا سيدي، هل ستأتي أيضًا؟" سألت الخالة روبنسون.

"أنا، أنا أخاف من الجنازات، سيدتي، لا يجب أن تلوميني على ذلك." هكذا أجابها حتى يتهرب.

بعد ذلك تكلم كل واحد منهم مرة أخرى طويلاً عن نفسه فقط، بعنف تقريبًا، حتى السيدة هنرووي العجوز جدًّا، التي تدخلت في الحديث. كانوا يتحدثون جميعًا بصوتٍ عالٍ للغاية، كأننا في مستشفى المجانين.

حينئذٍ، قدمت لاستدعاء العجوز لأقودها إلى الغرفة المجاورة التي كنت أفحص فيها المرضى.

لم يكن لديَّ الكثير كي أقوله لها. كانت هي بالأحرى من راحت تسألني عن بعض الأمور. وعدتها ألا ألح في مسألة الشهادة. عدنا إلى الغرفة الأخرى لنجلس مع روبنسون والخالة وتحدثنا جميعًا مرة أخرى طوال ساعة كاملة

عن حالة بيبير التعسة. كان الجميع في الحي على الرأي نفسه بالفعل، أني قد أجهدتُ نفسي كثيرًا لإنقاذ حياة بيبير الصغير، وأن ما حدث كان قدرًا محتومًا ليس إلا، وأني عمومًا قد تصرفت على نحو طيب، وأن ذلك كان مفاجأة للجميع. أما الأم هنرووي، فعندما أُخبرت بسن الصبي، سبع سنوات، بدا عليها الشعور بالارتياح وبدت كأنها هادئة تمامًا. كان موت طفل صغير السن إلى هذا الحد يبدو لها مجرد حادث حقيقي طارئ، ليس كموت عادي، يمكنه أن يحملها على التفكير.

أخذ روبنسون يقول لنا مرة أخرى إن الأحماض كانت تحرق معدته ورئتيه، إنها كانت تخنقه وتجعله يبصق بصاقًا أسود تمامًا. لكن الأم هنرووي، عن نفسها، لم تكن تبصق، لم تكن قد عملت بالأحماض، ما راح روبنسون يرويه حول هذا الموضوع لم يكن يمكنه إذًا أن يثير اهتمامها. كانت قد جاءت فقط من أجل أن تكوّن رأيها بشأني تحديدًا. كانت تتفرس في وجهي شزرًا عندما كنت أتحدث، بحدقتَي عينيها الصغيرتين المزرقّتين، خفيفتَي الحركة، ولم تفت روبنسون أي جزئية ضئيلة من كل هذا القلق الدفين الكامن بيننا. كان الجو معتمًا في صالة انتظاري، وراح النزل الكبير القائم في الناحية الأخرى من الشارع يشحب كثيرًا قبل أن يغيب في الظلام. بعد ذلك لم يعد هناك غير أصواتنا نحن، بيننا، وكل ما بدت قريبة جدًّا من قوله هذه الأصوات، ولكنها لا تقوله أبدًا.

ما إن صرت بمفردي معه حتى حاولت أن أجعله يفهم أني لم تعد لديَّ أي رغبة في رؤيته مجددًا، روبنسون، غير أنه عاد مرة أخرى رغم ذلك نحو آخر الشهر ومن بعدها كل مساء تقريبًا. صحيح أن صدره لم يكن مطلقًا على ما يرام.

"لقد جاء السيد روبنسون ليسأل عنك مرة أخرى". ذكَّرتني البوابة التي كانت تهتم لأمره. "إنه لن ينجو.. أليس كذلك؟" أضافت. "كان لا يزال يسعل عندما أتى". كانت تعرف جيدًا أن حديثها عنه كان يزعجني.

صحيح أنه كان يسعل. "ما من سبيل"، هكذا كان يتنبأ، "شخصيًّا، لن أنجو أبدًا".

"انتظر الصيف المقبل أيضًا! قليل من الصبر! سوف ترى.. سينتهي ذلك من تلقاء نفسه".

باختصار، ما يقال في مثل هذه الحالات. لم يكن بوسعي أن أشفيه أنا، ما دام مستمرًّا في العمل في الأحماض.. مع ذلك كنت أحاول رفع معنوياته.

"من تلقاء نفسي، سوف أشفى؟ أنت مراهن جيد.. أنت! تظن أن من السهل التنفس كما أتنفس أنا.. أنني أود أن أراك وأنت مصاب بشيء مثلما أصبت به في صدري.. تخور قوى المرء بشيء مثل ما يفتك بصدري.. ها أنا أقول لك".

"أنت محبط، واهن القوى، تمر بأوقات عصيبة، لكن عندما سوف تتحسن.. حتى قليلاً، سوف ترى".

"أتحسن قليلاً؟ في القبر سوف أتحسن قليلاً! ربما كان الأفضل لي على نحو خاص أن أبقى في الحرب لو تعلق الأمر بالتحسن الحقيقي! العودة كانت مناسبة لك.. ليس لديك ما تعترض عليه!"

يتمسك البشر بذكرياتهم المزعجة، بكل تعاساتهم، ولا يمكن تخليصهم منها. يشغل ذلك أرواحهم. إنهم يثأرون من ظلم حاضرهم بشغل المستقبل داخلهم بالهراء. منصفون وجبناء، هكذا هم في الحياة تمامًا. هذه هي حقيقتهم.

لم أعد أجيبه بشيء. فأضمر لي لومًا.

"ها أنت ترى بوضوح أنك أيضًا من الرأي نفسه!"

حتى أتخلص من إزعاجه، مضيت لأحضر له شرابًا ما مضادًّا للسعال. ذلك لأن جيرانه كانوا يشكون من أنه لم يكن يتوقف عن السعال وأنهم لم يكونوا يستطيعون النوم. بينما كنت أمسك له القنينة، كان لا يزال يتساءل أين

استطاع التقاط عدوى هذا السعال الذي لا يتوقف. كان يطلب مني أيضًا في الوقت نفسه أن أحقنه بأملاح الذهب.

"إن مت بسبب الحقن، فلن أخسر شيئًا.. كما تعلم!"

غير أني رفضت، بالطبع، الشروع في طريقة علاج بطولية أيًّا كانت، كنت أريد، في المقام الأول، أن يرحل عني.

مجرد رؤيته يتسكع حولي هنا، كانت تُفقدني، شخصيًّا، أي حيوية أو حماس. كل آلام العالم قاسيتها من قبل حتى لا أستسلم لتيار فشلي وفاقتي، حتى لا أنقاد للرغبة في إغلاق بابي إلى الأبد، وكنت أردد عشرين مرة في اليوم: "ما جدوى ذلك؟" أما سماعه يندب علاوة على ذلك، فقد كان حقًّا أمرًا يفوق الاحتمال.

"أنت تفتقر إلى الجرأة يا روبنسون". انتهيت بأن قلت له ذلك.

عليك أن تتزوج، ربما أضفى ذلك عليك رغبة في الحياة. لو اتخذ زوجة، ربما خلصني ذلك منه قليلاً. على أثر ذلك، انصرف مغتاظًا. لم يكن يحب نصائحي، خصوصًا تلك الأخيرة. حتى إنه لم يجبني عن سؤالي بشأن مسألة الزواج هذه، كانت نصيحة، وهذا صحيح أيضًا، بالغة الحمق تلك التي نصحته بها.

ذات يوم أحد لم أكن أعمل فيه خرجنا معًا. على ناصية شارع مانينيم، ذهبنا لتناول، بشرفة أحد المقاهي، قدحين من الكاسيس ومن الجعة المخلوطة بخلاصة النعناع. لم نتكلم كثيرًا معًا، لم يكن لدينا الكثير لنقوله. أولاً، فيمَ تجدي الكلمات عندما يكون المرء قد اتخذ قراره؟ في التشاجر ليس أكثر. لا يمر كثير من الحافلات العامة يوم الأحد. من شرفة المقهى، كانت رؤية الشارع الكبير خاليًا تمامًا، هادئًا تمامًا هو الآخر، أمامنا، تكاد تكون ضربًا من المتعة. خلفنا، كان جرامافون المقهى.

سألني روبنسون: "هل تسمع؟" إنه يعزف ألحانًا أمريكية، جرامافونه، كنت أعرف هذه الألحان، أنا، إنها الألحان نفسها التي كانت تُعزف في ديترويت، عند مولّي.

خلال عامين أمضاهما هناك لم يكن قد انخرط كثيرًا في حياة الأمريكيين، فقط، بدا كأنه قد تعلق بنوعية موسيقاهم، التي يحاولون بها الإقلاع عن تعودهم المستحكم والألم المضني في القيام كل يوم بالشيء نفسه، والتي يتمايلون بها مع الحياة التي تخلو من أي معنى، قليلاً، عندما تُعزف. دبدبة، هنا، هناك.

لم ينتهِ من كأس الكاسيس بسبب التأمل في كل هذا. ثار قليل من الغبار وارتفع في كل مكان. حول بعض أشجار الدلب يتسكع بعض الأطفال الصغار المتسخين وبارزي البطون، منجذبين، هم أيضًا، إلى الأسطوانة التي تدور. في الحقيقة أن أحدًا لا يستطيع مجاراته في الموسيقى. لا يستطيع المرء شيئًا حيال قلبه، يمنحه المرء طواعيةً. يجب أن نسمع في صميم صور الموسيقى اللحن بلا أنغام، اللحن الموضوع من أجلنا لحن الموت.

من باب العناد، لا يزال بعض الحوانيت يفتح أبوابه يوم الأحد: تخرج بائعة (الشباشب) من دكانها، وتطوف، مثرثرة، من واجهة "فاترينة" حانوت مجاور إلى الأخرى، وخلف ساقيها تتكوم كيلوجرامات دواليها.

في كشك الجرائد، تتدلى صحف الصباح مترهلة، مصفرة بعض الشيء، منذ الآن. خرشوفة هائلة من الأخبار في طريقها إلى التلف. وبينما تغفو مسؤولة الكشك، يبول كلب، بسرعة، فوق الصحف.

حافلة فارغة تندفع مسرعة نحو مرآبها. حتى الأفكار تنتهي بها الحال إلى أن يكون لها يوم عطلتها، يوم أحدها، يكون المرء فيه أكثر فضولاً من المعتاد. يكون فيه فارغًا.. يعاني فيه منها، يكون فيه راضيًا. لا يكون لدينا فيه ما نثرثر

بشأنه، لأن شيئًا في الحقيقة لا يعود يقع لنا، نكون فيه مساكين جدًّا، وربما أتعبنا الحياة؟ سيحدث ذلك دوريًّا.

"ألا تجد شيئًا، أنت، قد يمكن أن أعمله، للخلاص من مهنتي المهلكة؟" باغتني خارجًا من أفكاره.

"أريد الخلاص من عملي هذا، هل تفهمني؟ لقد ضقت ذرعًا بالموت تعبًا كبغل.. أريد أن أذهب للتنزه أنا أيضًا.. ألا تعرف أناسًا قد يحتاجون، مصادفةً، إلى سائق؟ أنت على كل حال تعرف كثيرًا من الناس، أنت؟"

كانت تلك خواطر يوم أحد، أفكار رجل نبيل تلك التي تسلطت عليه. لم أجرؤ على إقناعه بصرف النظر عما يقوله، على التلميح له بأنه مع سحنة قاتل أجير مثل سحنته فإن أحدًا لم يكن ليعهد له بسيارته، بأنه سوف يحتفظ دائمًا بمظهر غريب للغاية، سواء كان يرتدي زى سائق أو دونه.

"باختصار، أنت رجل مُحبط" قال آنذاك مستنتجًا. "في رأيك إذًا أني لن أفلت أبدًا؟ لا فائدة إذًا حتى من المحاولة؟ في أمريكا لم أكن أمضي في طريقي بالسرعة الكافية، كما كنت تقول لي.. في إفريقيا كان القيظ هو ما يهلكني.. هنا لست ذكيًّا بما يكفي.. على أي حال كان هناك في كل مكان شيء ينقصني أو يوجد فيَّ بأكثر مما يجب.. لكني أدرك كل هذا، هذا لغو فارغ! آه! لو كنت أملك بعض المال! لوجدني الجميع لطيفًا للغاية هنا.. هناك.. وفي كل مكان.. حتى في أمريكا.. أليس حقيقيًّا ما أقوله هذا؟ وأنت شخصيًّا؟ لا ينقصنا سوى امتلاك منزل إيجار صغير مع ستة من المستأجرين الذين يدفعون جيدًا". "هذا صحيح حقًّا" أجبته.

لم يكن يصدق أنه قد توصل وحده إلى هذا الاستنتاج الأعظم. آنذاك تفرّس فيَّ على نحو غريب، كما لو كان قد اكتشف فيَّ فجأةً جانبًا غريبًا لا يصدَّق لرجل مثير للتقزز.

"أنت، عندما أفكر في الأمر، تمسك بزمام الأمور، أنت تبيع أكاذيبك للمُحتضرين، وبالنسبة إلى أي شيء آخر، فأنت لا تكترث.. لست منتقدًا، لست مراقبًا، لا شيء.. تصل عندما تشاء، ترحل عندما تشاء، أنت حر عمومًا.. تبدو رقيقًا لطيفًا لكنك فظ حقيقي في الواقع".

"لستَ منصفًا يا روبنسون!"

"عجبًا إذًا، لتجد لي والأمر كذلك شيئًا ما!"

كان مصرًّا بكل حزم على مشروعه بالانصراف عن مهنة الأحماض إلى غيرها.

عدنا عبر الشوارع الجانبية الصغيرة. باقتراب المساء، يظن المرء أن رانسي ما زالت قرية. توارب أبواب بيوت مزارعي البقول. الساحة الواسعة خالية. بيت الكلب أيضًا. ذات مساء، مثل مسائنا هذا، منذ زمن طويل، غادر الفلاحون منازلهم، طردتهم المدينة التي تجاوزت حدود باريس. لم يعد متبقيًا من ذلك العهد سوى محل أو محلين للبيع بالتجزئة، غير قابلين للبيع، متهالكين، وتغطيهما الآن نباتات "الوستارية" المتمددة المعترشة المرهقة المتهدلة بعرض الجدران الواطئة التي احمرَّ لونها بسبب الملصقات. الباب الحديدي المنزلق بين مزرابين لم يعد يحتمل مزيدًا من الصدأ. إنه ماضٍ لم يعد أحد يهتم به. إنه يمضي من تلقاء نفسه. مستأجرو أيامنا هذه يكونون بالفعل متعبين جدًّا في المساء حتى يمكنهم أولاً القيام بشيء أمام بيوتهم عندما يعودون إليها. إنهم سوف يتكدسون ببساطة كل زوجين معًا داخل ما تبقى من الصالات العامة ويتناولون الشراب. يحمل السقف آثار دوائر دخان الثريات المتأرجحة التي كانت معلقة إليه في ما مضى، الحي بأكله يرتعد دون أن يشكو على وقع الهدير الدائم الرتيب لآلات المصنع الجديد. تهوي قطع القرميد المغطاة بالطحالب من علٍ متدحرجة على أحجار بلاط الشوارع العالية المحدودبة التي لم يعد يوجد مثلها كثير سوى في "فرساي" وفي السجون العريقة.

رافقني روبنسون حتى متنزه البلدية الصغير، المحاط تمامًا بالمستودعات، حيث يأتي كل حرافيش الناحية لينسوا أنفسهم فوق المروج المعشبة القرعاء بين ملعب البولينج الذي يؤمه المخرفون، تمثال فينوس الناقص وتلة الرمل ليلهوا ويتبولوا.

أخذنا في الحديث مرة أخرى كيفما اتفق عن أشياء وأخرى. "إن ما ينقصني، لو تعلم، هو القدرة على تحمل الشراب" كانت تلك فكرته الراسخة. "عندما أشرب تنتابني تقلصات عضلية لا يمكن احتمالها. هذا أسوأ ما يقع لي!" ثم قدم إليَّ الدليل على الفور على أنه لم يتحمل حتى شراب الكاسيس الخفيف الذي تناولناه عصر ذلك اليوم، بسلسلة من التجشؤات.. "هكذا.. أرأيت؟"

أمام باب مسكنه فارقني. "قصر تيارات الهواء" كما أخبرني. ثم اختفى. لم أتخيل أن أراه ثانيةً في القريب العاجل.

خلال تلك الليلة، بدت أعمالي راغبةً في أن تُستأنف قليلاً على نحو صحيح.

في البناية التي يقع فيها مركز الشرطة وحدها، استُدعيت على عجل مرتين. في مساء الأحد، تكشف عن نفسها كل الزفرات، الانفعالات، اللهفات. يتنزه حب الذات على جسر يوم الأحد، ويثمل أيضًا. بعد نهار كامل من حرية الكحول، ها هم العبيد يترنحون قليلاً، من الصعب جعلهم يتماسكون، إنهم يشهقون، ينخرون، ينتفضون، يحمحمون ويلمعون سلاسلهم وأصفادهم.

في بناية قسم الشرطة وحدها، جرت في الوقت نفسه أحداث واقعتين مأساويتين. في الطابق الأولى تُوفي مريض بالسرطان، بينما وقعت في الطابق الثالث حالة إجهاض لم تنجح "الداية" في التصرف حيالها. راحت تلك القابلة توزع نصائح خرقاء على الجميع، وهي تقوم في الوقت نفسه بغسل المناشف بالماء واحدة بعد أخرى. وفضلاً عن ذلك، كانت بين كل حقنتين، تهرب من المرأة كي تذهب لتحقن الرجل المصاب بالسرطان في الأسفل،

مقابل عشرة فرنكات، بأنبوبة من زيت الكافور.. زيت كافور يا سيدي: بالنسبة إليها كان النهار مُجزيًا.

كانت كل أسر هذا المنزل قد أمضت نهار يوم أحدها وهي تضع ألبسة بيتية وقمصانًا، في مواجهة الأحداث ومدعومة جيدًا بأطعمة متبلة. فاحت رائحة الثوم وروائح أغرب منها أيضًا في الردهات والدرج. راحت الكلاب تتسلى بالتقافز حتى الدور السادس. أصرت البوابة على أن تتحقق بنفسها من كل شيء. كنا نصادفها في كل مكان. لم تكن تشرب سوى النبيذ الأبيض، بسبب أن النبيذ الأحمر كان يصيبها ببعض الأضرار.

راحت القابلة الضخمة التي ترتدي مِيدَعة فوق ثيابها تخرِج المسرحيتين المأساويتين، في الطابق الأول، في الثالث، متواثبة، متعرقة، نشوانة ومنتقمة. أغضبها حضوري. كانت هي التي تسيطر على جمهورها منذ الصباح، نجمة العرض.

عبثًا حاولت بذل ما في وسعي، لمسايرتها، أن ألفت إليَّ الأنظار بأقل ما يمكن، أن أجد كل ما تفعله حسنًا (في حين لم تكن تأتي في الحقيقة في عملها إلا بحماقات فظيعة)، كان مجيئي، حديثي، قد أصابها على الفور بالهلع. عبثًا حاولت. إن قابلة تعمل تحت إشرافك تبدو لطيفة بقدر ما يكون إصبع مِدُوْحَس. لا يعود المرء يدري أين يضعه حتى يصيبه بأقل ما يمكن من الألم. من المطبخ وحتى درجات السلم الأولى تدفقت أسر الجيران داخل المسكن مختلطة بأهل المنزل. وقد كان هناك كثير من الأهل. أشخاص ناحلون وآخرون يتميزون بالبدانة، متجمعون في زمر غافية تحت أنوار الثريات المعلقة. راح الوقت يتأخر وما زال آخرون يتوافدون، من الريف حيث يأوي الناس إلى الفراش أبكر مما يحدث في باريس. كان هؤلاء الأخيرون قد ضاقوا بما يجري ذرعًا. كل ما رويته لهم، لأصحاب مأساة الطابق الأول مثلهم مثل أصحاب مأساة الطابق الأعلى، أُسيء تفسيره.

لم تدم حالة احتضار الطابق الأول طويلاً. نِعم الأمر وفي الوقت نفسه بئس الأمر. في اللحظة نفسها التي صعدت فيها الشهقة الأخيرة، كان طبيبه المعتاد، الدكتور أومانون يصعد إليه، بمحض الصدفة، ليرى إذا ما كان مريضه قد مات وليقرّعني هو الآخر أو تقريبًا فعل ذلك، لأنه وجدني بجوار سريره. شرحت لأومانون آنذاك أني كنت الطبيب المناوب في البلدية يوم الأحد وأن وجودي كان طبيعيًّا تمامًا، وأني صعدت إلى الطابق الثالث بكل استحقاق.

كانت سيدة الطابق الثالث لا تزال تنزف من مؤخرتها.. لم يتبقَّ سوى القليل لتشرع هي الأخرى في الموت دون انتظار لأبعد من ذلك. دقيقة واحدة كي أحقنها وها أنا أهبط ثانيةً بالقرب من زبون أومانون. كان أمره قد انقضى بالفعل. وكان أومانون قد رحل لتوه. غير أنه كان قد قبض فرنكاتي العشرين على أي حال، ذلك النزل. يا لحظي. بناءً على ذلك لم أشأ التخلي عن موطئ القدم الذي اتخذته عند حالة الإجهاض. وعليه فقد صعدت إليها ثانيةً بسرعة.

أمام الفرج النازف، شرحت للأسرة أمورًا أخرى.. القابلة، بالتأكيد، لم تكن تشاركني وجهة النظر. يكاد يظن المرء أنها كانت تكسب مالها من مناقضة أقوالي. لكني كنت هنا، فليكن ما يكون، يجب ألا أكترث لها، سواء كانت راضية أم لا، لا أوهام بعد الآن! كانت أمامي مئة فرنك على الأقل إذا تمكنت من القيام بذلك وأبديت ثباتًا! مزيدًا من الهدوء ومن العلم. يا إلهي! تحمُّل هجوم التعليقات والملاحظات والأسئلة الطافحة بالنبيذ الأبيض التي راحت تتقاطع قاسية.. فوق رأسك البريء، كان ذلك عملاً، ولم يكن هينًا. عبر الزفرات والتجشؤات، كانت الأسرة تخبرني بما يدور بخاطرها. أما القابلة فكانت تنتظر من جهتها أن أتعثر في أثناء عملي، أن أهرب وأترك لها المئة فرنك. لكن يمكنها أن تمضي في أحلامها، القابلة! وإيجار منزلي إذًا؟ من سيسدده؟ حالة الولادة هذه تتعثر منذ الصباح، لا مانع عندي، المرأه تنزف، لا مانع عندي أيضًا، لكن الوليد لا يخرج، وعليَّ أن أتمكن من الصمود!

الآن وقد مات مريض السرطان الآخر بالأسفل، راح جمهور احتضاره يصعد خلسة إلى هنا. ما داموا في طريقهم لقضاء ليلة بلا نوم، ما داموا قد قاموا بهذه التضحية، فينبغي أن يستفيدوا من كل ما تجب مشاهدته من صور التسلية في الجوار. جاءت أسرة مريض الأسفل المتوفى لترى ما إذا كانت الأمور هنا سوف تنتهي بالسوء نفسه الذي آلت إليه عندهم. ميتان في الليلة نفسها، في المنزل نفسه، كانت تلك صدمة نفسية ستدوم مدى الحياة! بكل بساطة! من خلال أصوات جلاجلها الصغيرة، سمعت كلاب الجميع، تتواثب وتتسافر، على درجات السلم. صعدت هي الأخرى. ودخل أشخاص جاؤوا من بعيد، بأعداد تفوق قدرة المكان، وهم يتهامسون. مرة واحدة، كما تقول الأمهات، تتعلم الصبايا اليافعات "الحياة"، يتخذن أمام تلك المصيبة مظاهر حزن مجربة برقة. غريزة الأنثى في المواساة. قريب ما، كان يترصدهن منذ الصباح، وقع تمامًا في أسرهن. لم يعد يفارقهن. كان ذلك بالنسبة إليه تجليًا مدهشًا وسط المعاناة التي يعيشها. فقد الجميع احتشامهم. سوف يتزوج بواحدة من بينهن، ذلك القريب، لكنه كان يرغب في أن يرى سيقانهن أيضًا ما دام هنا، حتى يتمكن من الاختيار على نحو أفضل.

لم تكن عملية دفع الجنين هذه تتقدم. لا بد أن مضيق الرحم كان جافًّا، لم يعد زلقًا، كان ينزف فقط. كان هذا الجنين سيصير طفلها السادس. أين الزوج؟ استدعيته.

كان لا بد من العثور على الزوج لكي يمكن نقل زوجته إلى المستشفى. كانت إحدى قريباتها قد اقترحت عليَّ إرسالها إلى المستشفى. ربة أسرة كانت تريد على أي حال أن تذهب لتنام، بسبب أطفالها. لكن عندما جرى الحديث عن المستشفى، لم يعد أحد ساعتها متفقًا مع الآخر. كان البعض يرغب في المستشفى، وبدا الآخرون معارضين تمامًا له بسبب قواعد اللياقة وآداب السلوك. لم يكونوا يريدون حتى أن يجري الحديث عنه. بل لقد قيلت في هذا الخصوص بين الأقارب عبارات قاسية بعض الشيء لن تُنسى أبدًا. قيلت في

العائلة. كانت القابلة تحتقر الجميع. لكن بالنسبة إليَّ، كان الزوج هو من وددت أن يُعثر عليه لنستطيع استطلاع رأيه، حتى نستقر في النهاية على رأي أو آخر. ها هو الزوج الذي أخذ في الظهور من جماعة ما أكثر ترددًا أيضًا من كل الآخرين. مع هذا كان عليه تحديدًا أن يقرر. المستشفى؟ غير المستشفى؟ ماذا يريد؟ لم يكن يعرف. إنه يريد أن يرى. فليرَ إذًا. كشفت له ثقب زوجته حيث ترشح جلطات الدم ثم بقاليل الدم ثم زوجته بكاملها، فلينظر كما يريد. امرأته التي كانت تئن ككلب ضخم دهسته سيارة. باختصار لم يكن يعرف ماذا يريد. قُدم إليه قدح من النبيذ الأبيض ليقويه. جلس.

رغم ذلك لم تواتِه الفكرة. إنه رجل يمارس في النهار عملاً مضنيًا. الجميع يعرفه جيدًا في السوق وفي محطة القطار على وجه الخصوص حيث ينقل أجولة للمزارعين، منذ خمسة عشر عامًا، ولم تكن أشياء خفيفة، وإنما ضخمة ثقيلة. إنه رجل معروف. كان سرواله واسعًا غير محدد الملامح وسترته أيضًا. لم يتخلَّ عن سترته وبنطاله غير أنه لم يبدُ متمسكًا بهما إلى هذا الحد، سترته وبنطاله. بالأرض فقط وبالبقاء قائمًا مستقيمًا فوقها، كان يبدو متمسكًا، بقدميه الاثنتين اللتين كان يباعد بينهما كأنها توشك أن تتزلزل من تحته، بين لحظة وأخرى، الأرض. بيبير، كان يسمى.

انتظرناه. "ما رأيك أنت في هذا، بيبير؟" جاءه السؤال من كل جهة. حك جلده ثم مضى ليجلس، بيبير، بالقرب من رأس زوجته، كما لو كان يصعب عليه التعرف إليها، هي التي لم تكف عن إضافة كل هذه الآلام إلى العالم، ثم ذرف ما يعد دمعة، بيبير، ثم وقف ثانيةً. آنذاك طرح عليه السؤال نفسه مرة أخرى. أعددت بالفعل تذكرة لقبولها بالمستشفى. ناشده الجميع: "لتفكر إذًا في الأمر قليلاً، يا بيبير!" حاول الرجل بالفعل، لكنه أشار أنه لم يتوصل بعد إلى قرار. نهض وذهب مترنحًا إلى المطبخ حاملاً قدحه. لماذا ننتظره أكثر من ذلك؟ قد يمكن أن يدوم طول الليل تردد الزوج. تنبه إلى ذلك كل من حوله. الأحرى بي أن أذهب إلى مكان آخر.

بالنسبة إليَّ، كان الأمر مئة فرنك أفقدها، هذا كل ما في الأمر! لكن مع هذه القابلة وبأي حال كانت، كنت سأتعرض لبعض المتاعب.. كان ذلك متوقعًا. ومن جهة أخرى فلن أكون مع ذلك لأشرع في مناورات جراحية أمام الجميع، مرهقًا كما كنت! قلت لنفسي: "تبًّا! لنذهب من هنا! ليكن هذا في مرة مقبلة.. لنمتثل للأمر! دعوا الطبيعة وشأنها، هذه العاهرة!"

ما كدت أصل إلى سطح الدرج (البسطة)، حتى هبوا جميعًا في أثري وكان هو من نزل ورائي بسرعة. صاح بي: "إيه، دكتور، لا ترحل!"

"ماذا تريدني أن أفعل؟" أجبته.

"انتظر! سوف أرافقك يا دكتور.. أرجوك، سيدي الطبيب".

"حسنًا". قلت له وسمحت له آنذاك بمرافقتي إلى أسفل. ها نحن قد هبطنا. عند مرورنا بالطابق الأول، دخلت رغم ذلك كي أقول لأسرة مريض السرطان المتوفى إلى اللقاء. دلف معي الزوج إلى الغرفة، ثم خرجنا. في الشارع سار إلى جانبي خطوة بخطوة. كان البرد قارسًا في الخارج. صادفنا كلبًا صغيرًا كان يتدرب على مجاوبة كلاب الحي الأخرى بصرخات عواء طويلة. وكان جروًا عنيدًا محبًّا للنواح. منذ الآن كان ماهرًا في الصراخ والعويل. فيما بعد سيصير كلبًا حقيقيًّا.

"انظر، إنه صفار البيضة."، قال الزوج سعيدًا تمامًا بتعرفه إلى الكلب الصغير وبتغيير مجرى الحديث. "إن بنات صاحبة المغسلة بشارع (دي جونيس) هن من ربينه على زجاجة الرضاعة، (صفار البيضة)، هذا الإنجليزى! هل تعرفهن أنت بنات صاحب المغسلة؟"

"نعم". جاوبته.

بينما نحن لا نزال نسير، أخذ يصف لي الطرق الممكنة في تربية الكلاب على اللبن دون أن يكلفك ذلك غاليًا أكثر مما يجب. على أي حال، كان الرجل يحاول دائمًا البحث من وراء هذا الكلام عن رأي بشأن زوجته.

كانت إحدى الحانات لا تزال مفتوحة بالقرب من محطة المترو. "هل تدخل إليها يا دكتور؟ أنا أدعوك إلى قهوة".

لم أكن أنوي مضايقته. قلت: "لندخل!". "قهوتان بالحليب" وانتهزت الفرصة لأحدثه عن زوجته من جديد. جعله حديثي هذا شديد الجدية، لكن حمله على اتخاذ القرار، فذلك الذي لم أتوصل إليه قط. على طاولة الشرب (البار) تربعت باقة كبيرة من الورود. بمناسبة عيد ميلاد صاحب حانة "مارترودان"."إنها هدية من الأولاد". أخبرنا الرجل بنفسه. لهذا، تناولنا معه قدحًا من شراب الفرموت، في صحته. فوق "البار" أيضًا كان هناك نص قانون السُّكر وشهادة دراسية داخل إطار. أراد الزوج، بمجرد أن رأى هذا، أن يتلو عليه صاحب الحانة حتمًا أسماء بلديات مقاطعة "اللوار - آيه - شير"، لأنه كان وما زال يعرفها ويحفظها عن ظهر قلب. بعد ذلك، ادعى أن اسم الحانة لم يكن هو المدون في الشهادة ولكن الموجود بها كان اسمًا آخر، وحينذاك دب بينهما الخلاف فعاد ليجلس بجواري، الزوج. كان الشك قد استولى عليه تمامًا، حتى إنه لم يرني أغادر الحانة لشدة ما أغضبه الأمر.

لم أره ثانيةً أبدًا، الزوج. مطلقًا. عن نفسي، كنت محبطًا تمامًا بسبب كل ما جرى في هذا الأحد ومتعبًا جدًّا فوق ذلك.

في الشارع، لم أكد أقطع مئة متر حتى لمحت روبنسون الذي كان قادمًا نحوي محملاً بكل أشكال ألواح الخشب، صغيرة وكبيرة. رغم ظلام الليل، تعرفت إليه جيدًا. محرجًا من مقابلتي انسل مبتعدًا، لكني استوقفته.

قلت له: "أنت لم تذهب للنوم إذًا؟"

"مهلاً!" جاوبني.. "إني عائد من منطقة الإنشاءات".

"ماذا سوف تفعل بكل هذا الخشب الذي تحمله؟ إنشاءات أيضًا؟ نعش؟ لقد سرقته على الأقل.. أليس كذلك؟"

"كلا، عشة للأرانب".

"هل تربي الأرانب الآن؟"

"لا. إنها من أجل آل هنرووي".

"آل هنرووي؟ هل لديهم أرانب؟"

"نعم، ثلاثة، يريدون وضعها في الفناء الصغير، كما تعرف، هناك حيث تسكن العجوز".

"إذًا أنت تصنع أقفاصًا للأرانب في مثل هذه الساعة؟ إنه توقيت غريب".

"إنها فكرة زوجته".

"يا لها من فكرة غريبة! ماذا سوف تفعل بهذه الأرانب؟ أتبيعها ثانيةً؟ قبعات(44)؟"

(44) المقصود: قبعات ذوات قوالب معينة مصنوعة من لبات شعر الأرنب. (المترجم)

"عن هذا كما تعلم، اسألها عندما تراها مجددًا، أما أنا فحسبها أن تعطيني المئة فرنك".

رغم كل هذا، بدت لي مسألة العُشة هذه غريبة تمامًا، هكذا، في الليل. واصلت إلحاحي.

ساعتها غيَّر مجرى الحديث.

سألته مرة أخرى: "لكن كيف جئت إليهم؟ أنت لم تكن تعرفهم، آل هنرووي؟"

"إن العجوز هي التي قادتني إلى دارهم، في اليوم الذي قابلتها فيه عندك في العيادة.. إنها امرأة ثرثارة، تلك العجوز عندما تشرع في الكلام.. كما لا يمكنك أن تتخيل.. لا يمكن الخلاص منها.. من وقتها صارت مثل صديقة بالنسبة إليَّ ثم أصبحا صديقين لي هما أيضًا.. هناك بعض مَن أثير اهتمامهم كما تعرف".

"أنت لم تخبرني بشيء من كل هذا مطلقًا.. لكن بما أنك تذهب إليهما، فلا بد أنك تعرف إذا ما كانا سوف ينجحان في سعيهما لاحتجاز عجوزهما في أحد الملاجئ؟"

"كلا، إنهما لم يتمكنا من ذلك بحسب ما قيل لي".

بالنسبة إليه، كانت كل تلك المحادثة بغيضة بالفعل، لقد شعرت بذلك، لم يكن يعرف كيف يتخلص مني. لكن بقدر ما تهرب من الرد بقدر ما زاد إلحاحي على معرفة المزيد.

راح يردد بصورة غامضة: "الحياة قاسية على أي حال، ألا ترى ذلك؟ يجب القيام ببعض الحيل. أليس كذلك؟" لكنني أعدته إلى الموضوع مرة أخرى. كنت قد قررت ألا أسمح له بالتهرب.

"يقال إنه لديهما من المال أكثر مما يبدو عليهما، آل هنرووي؟ ما قولك أنت، أنت من تذهب الآن إلى دارهما؟"

"نعم، من الجائز جدًّا أن لديهما ذلك، لكن في كل الأحوال، فإنهما يرغبان فعلاً في التخلص من العجوز!"

في الكتمان والمخادعة، لم يكن مطلقًا ماهرًا جدًّا، روبنسون.

"إنه بسبب تكاليف الحياة، كما تعلم، التي تزداد ارتفاعًا أكثر فأكثر، كانا يرغبان بالفعل في التخلص منها. لقد أخبراني عفوًا أنك لم ترغب في الشهادة بأنها مجنونة، أنت بالذات؟ هل هذا صحيح؟"

ثم دون إلحاح بعد هذا السؤال سألني بشغف من أي جهة كنت قادمًا.

"هل كنت عائدًا من زيارة طبية، أنت؟"

رويت له جانبًا من مغامرتي مع الزوج الذي كنت قد فقدته لتوي في الطريق. أضحكه ذلك كثيرًا، لكن جعله يسعل في الوقت نفسه أيضًا.

انقبض على نفسه بشدة في الظلام ليسعل حتى لم أعد أراه تقريبًا، مع أنه كان قريبًا مني جدًّا، يداه فقط كنت لا أزال أراهما قليلاً، يداه المنضمتان برفق على بعضهما أمام فمه كزهرة كبيرة شاحبة، في الليل، ترتجفان. لم تكن آلامه لتنتهي. "إنها تيارات الهواء!" قال أخيرًا وقد أعياه السعال، عندما كنا قد وصلنا أمام منزله.

"نعم، هناك تيارات هواء في مسكني، كما توجد براغيث أيضًا! هل لديك أنت الآخر براغيث في بيتك؟"

كان لديَّ منها. أجبته: "حتمًا، أجلبها من عند المرضى".

"ألا ترى أنهم يفوحون برائحة البول، المرضى؟" سألني آنذاك.

"بلى، والعرق أيضًا".

"رغم كل هذا، فقد تمنيت كثيرًا لو كنت ممرضًا". قال ببطء بعد أن فكر مليًّا.

"لماذا؟"

"لأن البشر، كما ترى، عندما يكونون في صحة جيدة، يخيفونك، لاجدال في ذلك.. خصوصًا منذ الحرب.. أنا أعرف فيمَ يفكرون.. إنهم لا ينتبهون إلى ذلك دائمًا بأنفسهم.. أما أنا، فكنت أعرف فيم يفكرون.. عندما يكونون أصحاء، إنهم يفكرون في قتلك.. لكن عندما يكونون مرضى، فلا جدال في أنهم يكونون أقل خطرًا.. يجب أن تتوقع كل شيء، أؤكد لك، ما داموا واقفين على أقدامهم. أليس هذا صحيحًا؟"

"هذا صحيح بالتأكيد!" كنت مرغمًا على أن أقول ذلك.

"وماذا عنك، أليس من أجل هذا أيضًا صرت طبيبًا؟" سألني من جديد.

بالتفكير في الأمر، أدركت أنه ربما كان على صواب، روبنسون. غير أنه راح على الفور في السعال على نوبات متتابعة.

"إن قدميك مبتلّتان، ستصاب بذات الرئة بالدوران حول نفسك بالليل هكذا.. فلتعد إذًا إلى منزلك، اذهب لتنام" نصحته بذلك.

بالسعال على هذا النحو، بلا توقف، توترت أعصابه.

سعل ضاحكًا في أذني: "اسمع، إليك هذا الخبر، هاك واحدة ستصاب بنزلة أنفلونزا لعينة، الأم هنرووي العجوز".

"كيف هذا؟"

"سوف ترى!" قال لي.

"ماذا لفقوا؟"

"لا يمكنني أن أخبرك بأكثر من هذا.. سوف ترى".

"لتروِ لي هذا إذًا، يا روبنسون، هيا.. لا تخف أيها النذل، أنت تعرف جيدًا أني لا أفشي سر شيء مطلقًا".

الآن، وبغتة، استولت عليَّ الرغبة في أن يروي لي كل شيء، ربما ليثبت لي في الوقت نفسه أنه لم يكن من الواجب أن أحسبه خاضعًا وخائر العزيمة بقدر ما كان يبدو.

"هيا، تكلم إذًا، أنت تعرف جيدًا أني لا أتكلم مطلقًا" رحت أستثيره مرة أخرى بصوت شديد الخفوت.

كان ذلك هو التبرير اللازم له كي يبوح بما لديه.

"بشأن عدم الكلام، فهذا حقيقي بالفعل، أنت تكتم الأسرار جيدًا". قال مُسلمًا. ها هو ينطلق الآن، ويعترف جديًّا، أنت تطمع في هذا، إليك إذًا ما تريد.

كنا وحيدين تمامًا في شارع كوتومانس في تلك الساعة. قال مبادرًا: "هل تتذكر حكاية بائعي الجزر؟"

قبل كل شيء لم أكن أتذكر حكاية بائعي الجزر هذه.

قال مصرًّا: "أنت تعرفها جيدًا، هيا.. ماذا بك؟ أنت شخصيًّا من رواها لي".

"آه، نعم". وتذكرتها حينذاك مرة واحدة. "متسول شارع بروميير؟ ذلك الذي كان قد تلقى قذيفة في خصيته عندما ذهب ليسرق الأرانب؟"

"نعم، كما تعرف، عند بائع الفاكهة الموجود على رصيف آرجنتوي".

"هذا صحيح.. لقد فهمت الآن. ثم ماذا؟" قلت له لأني كنت لا أزال لا أرى العلاقة بين تلك الحكاية القديمة وحالة السيدة هنرووي العجوز.

لكنه لم يلبث أن وضع لي النقط فوق الحروف.

"ألا تفهم؟"

قلت له: "لا". لكن بعد قليل لم أعد أجرؤ على الفهم.

"حسنًا.. رغم أنك تستغرق وقتًا لتفهم".

"ذلك لأنك تبدو لي متورطًا على نحو غريب.. إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ملاحظة ذلك. إنكم لن تشرعوا الآن مع كل هذا في قتل السيدة هنرووي العجوز من أجل إرضاء زوجة الابن؟"

"أنا كما تعرف، قانع بصنع القفص الذي طلبوه مني.. أما بالنسبة إلى المفرقعات.. فإنهما من سيهتمان بذلك.. إن أرادا".

"كم أعطياك من أجل هذا؟"

"مئة فرنك من أجل الخشب فضلاً عن مئتين وخمسين فرنكًا للصنعة ثم ألفًا أخرى لمجرد كتمان سر (الحكاية).. وكما تعرف.. فهذه ليست سوى بداية.. إنها حكاية يمكن أن تكون، عندما نجيد روايتها، مثل دخل حقيقي! إيه، يا صغيري، هل تدرك ذلك؟"

في الواقع كنت أدرك ولم يفاجئني ذلك كثيرًا. أحزنني فقط، أكثر قليلاً عن ذي قبل. كل ما يقال في مثل هذه الحالات لإثناء الناس عما يعتزمونه يظل دائمًا تافهًا بلا معنى ولا جدوى. هل كانت الحياة كريمة معهم؟ شفقة مِمن وعلى ماذا كانوا ينتظرون إذًا؟ ومن أجل ماذا؟ من أجل آخرين؟ هل شوهد أحد يهبط إلى الجحيم ليحل فيه محل آخر؟ لم يحدث قط. رأيناه فقط يدفع الآخر إلى النزول. ليس أكثر.

باختصار، بدا لي الاستعداد للقتل الذي تسلط فجأة على روبنسون كأنه بالأحرى صورة للتطور على ما كنت لاحظته حتى الآن بين الأشخاص الآخرين، نصف الحاقدين دائمًا ونصف المتسامحين، المزعجين دومًا بعدم وضوح

ميولهم. الحقيقة أني بعد ملاحقة روبنسون في الليل، حتى ذلك المكان الذي كنا فيه، كنت قد تعلمت مع ذلك بعض الأمور.

غير أن ثمة خطرًا كان يلوح: القانون. لفتُّ نظره إلى ذلك: "إنه أمر خطِر.. القانون. لو ألقي القبض عليك، أنت بالذات، فلن تنجو منه بصحتك المتهالكة هذه.. سوف تظل في السجن.. لن تستطيع الصمود".

"سحقًا إذًا". أجابني، "لقد ضقت جدًّا بالطرق المشروعة التي يلجأ إليها الجميع.. يصبح المرء عجوزًا، ولا يزال ينتظر دوره ليضحك، وعندما يحين.. متمهلاً جدًّا إذا حان.. يكون قد هلك ودُفن منذ وقت طويل.. إن المهن الشريفة مسألة تخص الأبرياء السذج، كما يقال.. بدايةً أنت تعرف ذلك مثلما أعرفه".

"جائز.. لكن الآخرين، الضربات الموجعة، قد يقدم عليها الجميع إن لم تنطوِ على مخاطر.. والشرطة، كما تعلم، خبيثة مؤذية.. في الأمر ما له وما عليه. رحنا ندرس الموقف. لا أخالفك الرأي، لكن أنت تعرف، عندما تعمل كما أعمل، في الظروف والأوضاع التي أوجد فيها، عندما لا تستطيع النوم، عندما تسعل، تقوم بأعمال لا يرضى بها حصان.. فلا شيء يمكن أن يحدث لي الآن أسوأ.. هذا رأيي.. لا شيء".

لم أجرؤ على أن أقول له إنه كان إجمالاً على حق، بسبب ما قد يوجهه لي من لوم فيما بعد لو فشلت خطته الجديدة.

حتى يبهجني راح يعدد في النهاية بعض الدوافع والتبريرات حتى لا أقلق بشأن العجوز، لأنها أولاً وعلى كل حال، بأي طريقة كانت، لم يكن أمامها لتعيش طويلاً، طاعنة في السن جدًّا منذ الآن. أنا باختصار أرتّب مراسم رحيلها وهذا كل ما في الأمر.

مع ذلك فبالنسبة إلى حيلة خبيثة، فقد كانت رغم كل شيء حيلة خبيثة. كانت التفاصيل كلها متفقًا عليها مسبقًا بينه وبين الأولاد: بما أن العجوز كانت قد تعودت الخروج من مسكنها، فقد نراها ذات مساء وقد جاءت تحمل طعامًا للأرانب.. العبوة المتفجرة ستكون معدة بالطبع هناك.. سوف تنطلق لتصيبها في الوجه تمامًا.. ولأنها معروفة في الحي بأنها مجنونة من قبل، فإن الحادث لن يثير دهشة أحد.. سيقال إنها قد حُذرت كثيرًا من الذهاب مطلقًا إلى عشة الأرانب.. إنها قد خالفت التحذيرات.. وفي مثل سنها، فلن تفلت بالتأكيد من انفجار عبوة مثل التي أُعدت لها.. هكذا في صميم البطن.

ليس هناك ما يعترض عليه، لقد رويت أنا، حكاية جميلة، لروبنسون.

الفصل 30

المقطع السابع والعشرون

وعادت الموسيقى في العيد، تلك الموسيقى التي كنا نسمعها آتية من بعيد بقدر ما نتذكر منذ الوقت الذي كنا فيه صغارًا، تلك التي لم تتوقف مطلقًا هنا وهناك، في زوايا المدينة، في بعض أماكن الريف الوضيعة، في كل مكان يذهب إليه الفقراء ليجلسوا في آخر الأسبوع، ليعرفوا ما صاروا إليه. إنها الجنة! كما يقال لهم. ثم تُعزف الموسيقى من أجلهم، تارة هنا وتارة هناك، من موسم إلى آخر، إنها تصلصل، تطحن كل ما كان الأغنياء يرقصون عليه في السنة الماضية. إنها موسيقى الآلات التي تصدر عن الأحصنة الخشبية، السيارات التي ليست سيارات، جبال ليست روسية على الإطلاق ومنصة المصارع غير مفتول العضلات، الذي لم يكن آتيًا من مارسيليا، من السيدة التي لا لحية لها، من الساحر الذي تخونه زوجته، من الأرغن غير المصنوع من الذهب، خلف منصة التصويب ذات البيض الفارغ. إنه عيد خداع الناس في آخر الأسبوع.

ثم يذهب الناس ليشربوا الجعة عديمة الزبد! لكن الساقي، عن نفسه، كان يفوح حقًّا برائحة أنفاسه الكريهة تحت أيكة الأغصان الصناعية. وكان باقي قطع العملة التي يردها يضم عملات غريبة، غريبة تمامًا حتى إنها تظل تحت الفحص طوال أسابيع وأسابيع بعدها، وكان التخلص منها يجري بكثير من الصعوبة وعند التصدق بها. إنه العيد فلا عجب. يجب أن يكون المرء مسليًا عندما يستطيع، بين الجوع والسجن، وأن يقبل الأشياء كما تأتي. ما دمنا جالسين، فلا يجب أولاً أن نشكو. يظل ذلك مكسبًا في حد ذاته. منصة "رماية الأمم" ذاتها، رأيتها مرة أخرى، تلك التي كانت "لولا" قد لاحظت وجودها، قبل

سنوات كثيرة مضت الآن، في ممرات متنزه سان كلو. في الأعياد يرى المرء كل شيء مرة أخرى، الأعياد هي استعادة للبهجة والفرح. لا بد أن الناس قد عادوا للتنزه في ممشى متنزه سان كلو الرئيس، منذ ذلك الوقت. متنزهون. كانت الحرب قد انتهت تمامًا. بهذا الخصوص، هل كان صاحب منصة الرماية لا يزال الشخص نفسه؟ هل عاد هذا الرجل من الحرب؟ كل شيء يشغل بالي، يستهويني. تعرفت إلى أشخاص وألواح التصويب، ولكن إضافة إليها يصوب الناس الآن على شخوص للطائرات. من قبيل التجديد. التقدم. الموضة. منصة حفل الزفاف ما زالت موجودة هناك، الجنود أيضًا ودار البلدية والعلم الذي يعلوها. باختصار كل شيء ما زال موجودًا. بل حتى مع كثير من الأشياء التي لم تكن موجودة في ما مضى.

غير أن الناس يستمتعون في مضمار لعبة السيارات، بأكثر من ذلك بكثير، مبتكرات حديثة، بسبب ما يشبه حوادث الاصطدام والإصابات التي لا يتوقف التعرض لها وتلك الصدمات المروعة التي يصابون بها في الرأس والبطن. يتوافد إليه بلا انقطاع متفرجون ذاهلون ليتصادموا بعنف ويتساقطوا طوال الوقت، في فوضى تمزق طحالاتهم، في قاع السطول الخشبية. ثم لا يكون ممكنًا دفعهم إلى التوقف. لا يطلبون مطلقًا الخلاص مما هم فيه، البعض يصيبه الهذيان من جراء ذلك، كان لا بد من انتزاعهم من مصيبتهم هذه. لو أريد إزهاق أرواحهم علاوة على ذلك لقاء عشرين قرشًا، لاندفعوا إلى اللعبة. في الرابعة تقريبًا، كان على فرقة جوقة المغنين أن تلعب في وسط الساحة، بعناء شديد يجري تجميع أعضاء الفرقة، بسبب الحانات التي تتخاطف، بالتناوب، الموسيقيين. دائمًا ما يتخلف العازف الأخير. يجري انتظاره.. استدعاؤه. في أثناء انتظاره، إلى حين يعود، يُصاب المرء بالعطش، ها هما اثنان يختفيان مرة أخرى. كان عليهم بدء كل شيء من جديد.

الخنازير المتبلة، التي فسدت بسبب كثرة الغبار، كانت تتحول إلى ما يشبه الرفات وتصيب من يتناولها من الفائزين بعطش فظيع.

أما الأسر، فتنتظر الألعاب النارية كي تضيء لتنام. الانتظار أحد طقوس العيد أيضًا. في العتمة ترتجف ألف زجاجة فارغة مصدرةً في كل لحظة صلصلة أجراس صغيرة تحت المناضد. أقدام مهتزة راضية أو مخالفة. لا يعود أحد يسمع الموسيقى لطول ما عرفنا أنغامها، ولا أنين أصوات الأسطوانات ذات المحركات خلف الأكشاك الخشبية التي تتحرك فيها الأشياء التي يجب دفع فرنكين لمشاهدتها. يدق قلب المرء عندما يكون ثملاً قليلاً من التعب بامتداد صدغيه. بيم! بيم.. هكذا يدق، بقرب ما يشبه القطيفة السوداء المشدودة حول الرأس وفي أعماق الأذنين. هكذا يصل المرء إلى حد الانفجار يومًا ما. ليكن ما يكون! يومًا ما عندما تتلاقى حركة الداخل مع حركة الخارج وعندما تتبعثر حينها كل أفكارك وتمضي لتلهو أخيرًا مع النجوم.

يطرأ في خلال العيد الكثير من الدموع بسبب الأطفال الذين يُهرسون هنا وهناك بين الكراسي عن غير قصد، فضلاً عن هؤلاء الذين نروح نعلمهم الصمود أمام مقاومة رغباتهم، مقاومة متعهم الصغيرة والهائلة التي قد تمنعهم المزيد والمزيد من لفات الأحصنة الخشبية. تجب الاستفادة من العيد في تكوين الشخصية. لا يكون من السابق لأوانه مطلقًا القيام بذلك. لا يعرف هؤلاء الصغار الظرفاء بعد أن لكل شيء ثمنًا. إنهم يظنون أنه من باب اللطف فقط أن يحث هؤلاء الكبار، خلف مناضد بيعهم المنمقة، الزبائن على أن يمنحوا أنفسهم هذه الروائع التي يكدسونها والسيطرة عليها وحمايتها بابتسامات صارخة. الأطفال، إنهم لا يعرفون القانون. عن طريق الصفعات يلقنهم الأباء القانون ويحمونهم من المتع.

لا يوجد عيد حقيقي وذو معنى أيضًا وسري إلا للتجارة. في المساء، تنشرح صدور التجار، عندما يغادر كل المغفلين، الزبائن، تلك البهائم التي تحمل إليهم الربح، عندما يعود الصمت مرة أخرى إلى الساحة وينتهي الكلب الأخير من إفراغ قطرة البول الأخيرة في النهاية على منصة البلياردو الياباني. آنذاك

يمكن للحسابات أن تبدأ. إنها اللحظة التي يحصر فيها التجار قدراتهم وضحاياهم، مقدَّرَة بالنقود.

مساء الأحد الأخير من العيد جرحت خادمة حانة مارتروردان يدها، جرحًا عميقًا إلى حد كبير، عندما كانت تقطّع السجق.

قرب الساعات الأخيرة من الأمسية نفسها صار كل شيء حولنا واضحًا بما يكفي، كما لو كانت الأشياء قد ملت حقًّا من التسكع من إحدى ضفاف القدر إلى الأخرى، حائرة مترددة، وأخرجت كلها من الظل في الوقت نفسه وأخذت في محاورتي. غير أنه يجب الاحتراس من الأشياء والناس في مثل تلك الأوقات. يظن المرء أن الأشياء سوف تتكلم لكنها لا تقول شيئًا على الإطلاق، وفي الغالب يخفيها الليل مرة أخرى قبل أن نتمكن من إدراك ما كان عليها أن ترويه لنا. أنا على الأقل، هذه هي تجربتي.

على أي حال فقد شاهدت روبنسون أخيرًا في مقهى مارتروردان في تلك الأمسية نفسها، تحديدًا عندما ذهبت لتضميد جرح عاملة الحانة. إنني أتذكر الظروف تمامًا. بجوارنا راح بعض العرب يتناولون مشروباتهم، متناثرين في جماعات فوق المقاعد، ينتابهم النعاس. لم يكن يبدو عليهم الاهتمام بشيء مما يجري حولهم. تجنبت في حديثي إلى روبنسون أن أعيده ثانيةً إلى حوار ذلك المساء، عندما فاجأته حاملاً ألواح الخشب. كان جرح النادلة صعب التقطيب ولم أكن أرى بوضوح في مؤخرة المحل. منعني هذا من الكلام، تركيزي في ما أقوم به. بمجرد الانتهاء من مهتمي، جذبني روبنسون إلى ركن صغير وأصر من تلقاء نفسه على أن يؤكد لي أنه رتب أموره، وبات التنفيذ قريبًا. ها هو اعتراف أزعجني كثيرًا وكنت في غنى عنه بالفعل.

"قريبًا.. ماذا؟"

"تعرف جيدًا ما أقصد".

"ذلك الموضوع.. مرة أخرى".

"خمن كم يعرضون الآن؟" لم أكن لأهتم بتخمين ذلك. "عشرة آلاف! لمجرد أن أمسك لساني".

"هذا مبلغ كبير!"

"ها أنا قد تخلصت من الورطة.. بكل بساطة". أضاف روبنسون، "إنها تلك العشرة آلاف التي كنت أحتاج إليها دائمًا. عشرة آلاف البداية يا أخي.. أتدرك ذلك؟ أنا لم أحظَ يومًا والحق يقال بمهنة ما ولكن بعشرة آلاف فرنك!"

لا بد أنه قد بدأ منذ الآن في ابتزازهم.

تركني أدرك بنفسي كل ما كان سوف يستطيع القيام به أو الشروع فيه بهذه العشرة آلاف من الفرنكات.. أتاح لي الوقت لأمعن التفكير في الأمر، روبنسون، منتصبًا أمامي بامتداد الحائط، في العتمة. عالم جديد ينفتح أمامه. عشرة آلاف فرنك!

مع كل هذا، تساءلت، عندما فكرت في موضوعه مرة ثانية، لو لم أكن أواجه خطرًا شخصيًّا، لو لم أكن أنزلق إلى تواطؤ ما بعدم إبدائي استنكاري لمشروعه على الفور. ربما كان عليَّ حتى أن أبلغ عنه. بأخلاق الإنسانية، أنا لا أعبأ، تمامًا، مثلي مثل الآخرين على أي حال. ما حيلتي في ذلك؟ لكن هناك كل الأكاذيب الوضيعة وأشكال التصنع القذرة التي تطلقها العدالة عندما تقع جريمة ما لمجرد إلهاء دافعي الضرائب، هؤلاء الفاسدين.. آنذاك لا يعود المرء قادرًا على النجاة.. لقد عشت هذا.. بنفسي. بين مشكلة وأخرى، كنت لا أزال أفضل تلك التي لا تثير الضجة عن أي مشكلة تُنشر في الجرائد.

باختصار، كنت مدفوعًا بالفضول ومنزعجًا في الوقت نفسه. واصلاً إلى هذا الحد، كانت الشجاعة تنقصني مرة أخرى لتقصي حقيقة الأمور فعلاً. الآن

حيث يتعلق الأمر بفتح الأعين في ظلام الليل كنت بالأحرى أوثر أن أبقيها شبه مغلقة. غير أن روبنسون بدا مصرًّا على أن أفتحها، مصرًّا على إدراك الحقيقة.

من أجل بعض التغيير، مع مسايرتي له في الوقت نفسه، حولت مجرى الحديث إلى النساء. لم يكن يحبهن كثيرًا، روبنسون، النساء.

قال لي: "أنا، كما تعلم، في غنى عن النساء، بمؤخراتهن الجميلة، بأفخاذهن الممتلئة، بأفواههن التي تشبه القلوب وببطونهن التي ينمو فيها دائمًا شيء ما، تارة أولاد وأخرى أمراض.. ليس بابتساماتهن يدفع المرء قسط إيجاره! أليس كذلك؟ حتى أنا في كوخي هذا، لو كانت لديَّ امرأة، فمهما عرضت للمالك أردافها في الخامس عشر من الشهر فلن يجعله ذلك يخفض لي الإيجار".

كان الاستقلال عن الناس نقطة ضعف روبنسون. كان يقول ذلك بنفسه. غير أن صاحب حانة مارترودان كان قد ضاق بالفعل من حواراتنا الجانبية ومن مؤامرتنا الصغيرة في زوايا المقهى. قال آمرًا: "روبنسون، الأكواب! تبًّا لك. هل أنا من سوف يغسلها لك؟"

وثب روبنسون على الفور.

"أنا أقوم هنا، كما ترى، بعمل إضافي!" أخبرني ماضيًا.

كان العيد حقًّا. كان مارترودان يعاني الأمرين للانتهاء من إحصاء النقود في خزينته، كان هذا يزعجه. غادر العرب المكان، ما عدا الاثنين اللذين كانا لا يزالان يغفوان بالقرب من الباب.

"ماذا ينتظر هذان الاثنان؟" سألتُ.

"الخادمة!" جاوبني صاحب المقهى.

"أتسير الأعمال على ما يرام؟" سألته حينها لأقول شيئًا ما وحسب.

"لا بأس.. ولكن بصعوبة! اسمع يا دكتور، هاك متجر دفعت فيه ستين ورقة من فئة المئة نقدًا قبل الأزمة. لا بد طبعًا أن أستطيع أن أحصل منه على مئتين.. أتدرك هذا؟ صحيح أن لدَيَّ كثيرًا من الزبائن، لكنهم على وجه الخصوص من العرب.. ولهذا فإنهم لا يشربون.. هؤلاء الناس.. إنهم لم يتعودوا بعد.. كان من الواجب أن أحظى ببعض البولنديين. إنهم يشربون، البولنديين، يمكننا أن نقول ذلك.. في الآردين، حيث كنت من قبل، كان لديَّ كثير من البولنديين الذين كانوا يأتون من أفران الطلاء بالمينا، هذا يفسر كل شيء، أليس كذلك؟ كان ذلك ما يشعرهم بالحرارة، أفران الطلاء بالمينا! إننا نحتاج إلى هذا! الظمأ! وفي يوم السبت كان يجري كل شيء.. اللعنة! كان ذلك عملاً حقيقيًّا! كالرغبة في التسافد، يبدو أن الشرب محرم في شريعتهم، لكن التسافد مباح".

كان مارترودان يحتقرهم، هؤلاء العرب. "إنهم أنذال ليس أكثر! بل يبدو أنهم يفعلون ذلك مع خادمتي! إنهم مسعورون، أليس كذلك؟ يا لها من أفكار لعينة، أليس كذلك؟ دكتور إني أسألك؟"

كان صاحب مقهى مارترودان يضغط بأصابعه القصيرة الجيوب الصغيرة الرخوة التي كانت تحت عينيه. "كيف حال الكُلى؟" سألته عندما رأيته يقوم بذلك. كنت أعالجه من متاعب الكُلى. "إنك لم تعد تتناول الملح على الأقل؟"

"إنه الزلال مرة أخرى يا دكتور! لقد أجريت التحليل قبل الأمس عند الصيدلي.. أوه، إنني لا أكترث للموت، سواء بالزلال أو بشيء آخر، لكن ما يضجرني هو أن أعمل مثلما أعمل.. لقاء أرباح هزيلة".

كانت الخادمة قد انتهت من غسل أوانيها، لكن ضمادتها نظرًا إلى شدة ما لوثتها بقايا الطعام كان لا بد من استبدالها. قدمت إليَّ ورقة مالية من فئة

المئة قرش. لم أكن أرغب في قبولها، لكنها أصرت على أن تعطيني إياها، قروشها المئة. كانت الفتاة تسمى سيـڤرين.

قلت لها مبديًا ملاحظتي: "هل قصصتِ شعرك يا سيـڤرين؟"

"كان من اللازم! إنها الموضة!" قالت الفتاة. "وفضلاً عن ذلك فإن الشعر الطويل مع المطبخ هنا، يحتفظ بكل الروائح".

"ومؤخرتك تفوح برائحة أبشع بكثير". قاطعها مارترودان الذي أزعجته ثرثرتنا في أثناء إتمام حساباته. "مع أن ذلك لا يمنع زبائنك".

"نعم، لكن الأمر مختلف"، ردت سيـفرين بامتعاض شديد. "هناك روائح لكل أجزاء الجسم.. وأنت يا (ريّس)، أتود أن أخبرك شيئًا عما يفوح منك من روائح؟ ليس من جزء واحد من جسمك، بل منك كلك؟"

كانت قد غضبت بالفعل، سيفرين. لم يشأ مارترودان أن يسمع الباقي. عاد مرة أخرى إلى حساباته اللعينة مدمدمًا.

لم تستطع سيفرين التوصل إلى خلع خفَّي العمل وانتعال حذائها العادي من جديد بسبب قدميها المتورمتين من طيلة وقوفها في أثناء الخدمة، وعليه فقد ظلت تنتعلهما عندما همت بالانصراف.

بل إنها قالت في النهاية وبصوتٍ عالٍ:

"سوف أنام بهما عن طيب خاطر!"

"هيا، أطفئي الأنوار في الخلف!" أمرها مارترودان ثانيةً. "من الواضح أنكِ لستِ مَن يسدد لي فواتير الكهرباء!"

لم يكن مارتروادان قد انتهى من حساباته. كان قد خلع مئزرته ثم صديريته كي يحصي نقوده على نحو أفضل. ظل يعاني. من جوف الحانة غير المرئي كانت تصلنا قعقعة ارتطام صحون الفناجين، عمل روبنسون وغاسل الصحون الآخر. راح مارتروادان يخط أرقامًا كبيرة صبيانية بقلم أزرق كان ينسحق بين أصابعه الضخمة كأصابع القتلة. كانت الخادمة تغفو أمامنا، وجسدها المتخلع يملأ الكرسي. من وقت إلى آخر كانت تسترد في أثناء غفوتها بعض الوعي.

"آه! قدمَاي! آه! قدماي!" هكذا كانت تقول حينذاك ثم لا تلبث أن تعاود النعاس.

لكن مارتروادان أخذ في إيقاظها بصرخة عالية.

"إيه! سيـفرين! لتأخذيهم إذًا إلى الخارج تيوسك هؤلاء! لقد سئمت منكم.. اغربوا عن وجهي جميعًا، لقد حان الوقت".

أما العرب فلم يبدوا حقًّا متعجلين على الإطلاق رغم تأخر الوقت. أفاقت سيـفرين في النهاية. "صحيح، من الواجب أن أمضي".

قالت موافقة. "شكرًا يا (ريّس)!" اصطحبت معها العربيين، كليهما. تشارك الاثنان معًا ليدفعا لها.

"سوف أتولى أمرهما الليلة معًا" أوضحت لي عند رحيلها. "لأني لن أستطيع القيام بذلك يوم الأحد المقبل لأني ذاهبة إلى آرشير كي أرى ابني. أنت تعرف، فالسبت المقبل هو يوم عطلة المربية".

قام العربيان ليلحقا بها. لم يبدُ عليهما مظهر وقح على الإطلاق. رغم ذلك نظرت سيـفرين إليهما شزرًا بعض الشيء بسبب التعب. "أنا، أنا لا أشارك (الريّس) رأيه، أنا أفضِّل العرب عن نفسي! إنهم ليسوا أفظاظًا مثل البولنديين، العرب، لكنهم مولعون بالجنس.. لا جدال في ذلك، إنهم سوف

يقومون بكل ما يرغبون فيه، لا أظن أن ذلك سوف يمنعني من النوم! هيا، فلنسرع! نادتهم. إلى الأمام يا شباب!"

ها هم يمضون ثلاثتهم، تتقدمهم سيڤرين.. قليلاً. شوهدوا يعبرون الميدان الذي خمدت حركته، المزروع ببقايا العيد، أضاء مصباح الغاز الأخير القائم في طرق الميدان جماعتهم فابيضت لحظة وجيزة ثم ابتلعها الظلام. ظلت أصواتهم تُسمع قليلاً ثم لا شيء على الإطلاق. لم يعد هناك شيء.

غادرت الحانة بدوري دون أن أتحدث إلى روبنسون ثانيةً. تمنى لي صاحبها كثيرًا من الأشياء. كان أحد رجال الشرطة يجوب الشارع بخطى واسعة. كان مروره يجرح الصمت. تسبب ذلك في انتفاض تاجر هنا أو تاجر هناك مشوش الأفكار في حساباته، عدائي مثل كلب عقور. احتلت أسرة تتنزه كل الشارع زاعقة عند زاوية ميدان جان - جوريس، لم تكن تمضي قدمًا مطلقًا، تلك الأسرة، كانت تقف مترددة أمام أحد الأزقة مثل أسطول صيد صغير في ريح معاكسة. كان الأب يمضي مترنحًا من رصيف إلى آخر ولا يكاد ينتهي من التبول.

كان الليل قد استقر في داره.

الفصل 31

المقطع الثامن والعشرون

ما زلت أتذكر مساءً آخر يعود إلى تلك الفترة، بسبب الظروف. قبل كل شيء، بعد ساعة الغداء بقليل، سمعت جلبة كبيرة لصناديق قمامة تتقلقل. كان ذلك يحدث كثيرًا على درج بنايتي، أن تصدر صناديق القمامة ضجيجًا. فضلاً عن ذلك، سمعت أنّات امرأة، نواحًا.. واربت بابي المطل على بسطة السلم لكن دون أن أتحرك من مكاني.

عندما أغادر منزلي تلقائيًّا لحظة وقوع حادث ما ربما عدني البعض مجرد واحد من الجيران، وعندها قد تُعد معونتي الطبية مجانية. لو كانوا يحتاجون إليَّ، فليس عليهم سوى استدعائي حسب الأصول، وحينذاك سيكلفهم ذلك عشرين فرنكًا. البؤس يلازم إيثار الآخرين بلا رحمة وبكل دقة، وكانت أكثر مبادراتي لطفًا تتلقى أقصى العقوبات. وعليه فقد انتظرت أن يأتي أحد ليدق بابي، لكن أحدًا لم يأتِ. من باب التوفير دون شك.

لكن، عندما كدت أنهي حالة الانتظار ظهرت أمام بابي طفلة صغيرة، كانت تحاول قراءة الأسماء المكتوبة فوق أجراس الشقق.. في النهاية كنت أنا تحديدًا من جاءت تطلبه من قِبل السيدة هنرووي.

سألتها: "مَن المريض عندهم؟"

"إنه من أجل سيد ما جرح نفسه لديهم".

"سيد ما؟" فكرت على الفور في السيد هنرووي نفسه. "هل هو السيد هنرووي؟"

"لا.. هذا من أجل أحد الأصدقاء موجود عندهم".

"هل تعرفينه، أنتِ؟"

"لا. لم تكن الفتاه قد رأت هذا الصديق مطلقًا".

في الخارج، كان الجو باردًا، انطلقت مسرعًا، خلفي راحت الصبية تهرول.

"كيف حدث هذا؟"

"عن هذا، أنا لا أعرف شيئًا".

سرنا بمحاذاة متنزه صغير آخر، قطعة الأرض المسورة الأخيرة من غابة الأمس حيث كان يأتي، بحلول الليل، ضباب الشتاء العميق ليعلق بين الأشجار، ناعمًا، عذبًا ومتمهلاً. شوارع صغيرة واحد بعد آخر. بعد لحظات قليلة وصلنا أمام مسكنهم. قالت لي الفتاة "إلى اللقاء". كانت تخاف أن تقترب أكثر من ذلك. كانت زوجة الابن تنتظرني فوق الدرج الأمامي المسقوف. كان نور مصباحها الزيتي يتأرجح في الريح.

"من هنا، دكتور، من هنا!" نادتني من بعيد. سألتها على الفور: "أهو زوجك الذي جُرح؟"

"لتدخل بالله عليك!" قالت بغلظة مفاجئة، دون حتى أن تمهلني الوقت لأتروى. ثم وجدت نفسي أمام العجوز مباشرةً، التي راحت ابتداءً من الردهة تعوي وتهاجمني بوابل من الشتائم..

"آه، الأوغاد! آه! الأشقياء! دكتور! لقد أرادوا قتلي!"

كانت العملية قد فشلت إذًا.

"قتل؟" قلت كأنني مندهش تمامًا. "ولماذا إذًا؟"

"لأني لم أرد قط أن أموت بما يكفي من السرعة! بكل بساطة! وتبًّا لهم! بكل تأكيد لا.. لا أريد مطلقًا أن أموت!"

"أمي! أمي!" راحت الكنة تقاطعها. "لقد فقدتِ صوابكِ! أنتِ تروين للطبيب أشياء مريعة، رويدكِ يا أمي!"

"أشياء مريعة تلك التي أقولها أنا؟ حسنًا، أيتها السافلة، أنتِ تتمتعين بوقاحة لا مثيل لها، أنا فقدت صوابي، أنا، ما زال لديَّ ما يكفي من الصواب لإرسالكم جميعًا إلى المشنقة! وها أنا أؤكد لكم ذلك مرة أخرى".

"لكن من هو الجريح؟ أين هو؟"

"سوف تراه". قاطعتني العجوز. "إنه بالأعلى، إنه على فراشه، القاتل! بل إنه قد لوثه تمامًا، فراشه، أليس كذلك أيتها العاهرة؟ تلوثت تمامًا حشيتك القذرة بدمه الخبيث! وليست بدمي أنا! دمه الذي لا بد أنه كالغائط، دمه هذا! لن تنتهي أبدًا من غسيله. سيظل يفوح برائحته النتنة أزمنة وأزمنة دم القاتل، أؤكد لكِ! آه.. هناك من يذهبون إلى المسرح ليشعروا بالإثارة! لكني أؤكد لك أن المسرح هنا! إنه هنا، دكتور! اصعد إليه بسرعة! قد يكون قد مات هو الآخر هذا النذل عندما تصل! عندها لن يكون بإمكانك أن ترى شيئًا!"

كانت زوجة الابن تخشى أن تُسمع من الشارع، وأنذرتها بالتزام الصمت. ورغم هذه الظروف، لم تبدُ لي مرتبكة جدًّا، الكنة، وإنما مغتاظة جدًّا فقط لأن الأحداث قد جرت عكس المفترض تمامًا، لكنها لم تكن لتغيِّر فكرتها، بل كانت واثقة تمامًا بأنها على صواب، الكنة.

"لكن يا دكتور، اسمع ما تقول! أليس من المؤسف سماع هذا؟ أنا التي سعت على العكس دومًا لتُحسّن حياتها! أنت تعرف ذلك جيدًا. أنا من عرضت عليها طول الوقت أن تقيم بالمنزل لدى الراهبات".

كان فوق طاقة العجوز سماع الحديث عن الراهبات مرة أخرى. "إلى الجنة! نعم، كنتم جميعًا تريدون أن ترسلوني، أيتها العاهرة! آه.. أيتها الشقية! ومن أجل هذا أمرتموه أن يأتي إلى هنا أنتِ وزوجك، السافل الموجود بالأعلى! ليقتلني طبعًا، نعم، وليس من أجل إرسالي إلى الراهبات بكل تأكيد! لقد فشل في مهمته، نعم، يمكنكم أن تقولوا هذا لأنفسكم بكل وضوح، إن التدبير لم يكن محكمًا! هيا يا دكتور.. هيا لتراه في أي حالة سعى إلى أن يكون نذلك الموجود بالأعلى، وهو الذي فعل ذلك بنفسه أيضًا! لا، بل يجب أن نأمل أنه سوف يهلك بسببها! هيا يا دكتور، هيا لتراه ما دام ذلك لا يزال ممكنًا".

إذا لم تكن زوجة الابن تبدو منهارة فإن العجوز كانت أقل منها في ذلك. مع أنها كادت بالفعل تموت في محاولة الاغتيال، لكنها لم تكن ساخطة بقدر ما كانت تريد أن تبدو. تظاهُر خادع. كأن محاولة القتل الفاشلة قد أنعشتها بالأحرى، انتزعتها من عمرها هذا، ها هي حيوية دافقة قد عادت لتسري فيها! راحت تستمتع بانتصارها بفجور وأيضًا بلذة امتلاك وسيلة لتنكيد عيش زوجة ابنها العنيدة من الآن فصاعدًا وإلى الأبد. إنها تسيطر عليها الآن. لم تكن ترغب مطلقًا في أن أظل جاهلاً بتفاصيل محاولة الاغتيال الفاشلة ولا كيف سارت الأحداث.

واصلت موجهةً إليَّ الحديث، بالطريقة المنفعلة نفسها: "وفضلاً عن ذلك، كما تعلم، فإني قد قابلته عندك، هذا القاتل، كان هذا عندك سيدي الطبيب.. ورغم ذلك لم أثق به.. آه كم ارتبت فيه! هل تعرف ماذا عرض عليَّ أولاً؟ أن يقتلكِ أنتِ يا صغيرتي! أنتِ أيتها العاهرة! ولقاء مبلغ زهيد أيضًا! أؤكد لكِ ذلك! فضلاً عن أن اقترح ذلك على الجميع! هذا أمر معروف! أنتِ ترين إذًا أني أعرف مهنته جيدًا.. أجيرك هذا! أني مطلعة إذًا على الأمر! إنه يدعى روبنسون.. أليس هذا اسمه؟ أخبريني إذًا أن ذلك ليس اسمه. منذ أن رأيته هنا يدبر في الخفاء معكما أمرًا ما ساورتني الظنون.. لقد أحسنت صنعًا! أين قد أكون الآن إن لم أكن قد ارتبت فيه؟"

ثم روت لي العجوز مرة أخرى المزيد والمزيد عن كيف جرت الأحداث. بينما كان يربط المفرقعة خلف باب العشة ظل الأرنب يتحرك. في أثناء ذلك الوقت، كانت العجوز تتطلع إليه وهو يقوم بذلك من داخل كوخها، "من الصف الأمامي!" كما كانت تقول. بينما كان يجهز حيلته، انفجر اللغم بكل ما فيه من خُردُق في وجهه مباشرةً، في العينين رأسًا. "لا يكون المرء مرتاح البال عندما يغتال الناس. حتمًا". هذا ما خلصت إليه العجوز.

باختصار، كانت العملية عملاً أخرق وإخفاقًا كاملاً أُنجز برعونة. "لقد جعلناهم هكذا، البشر في أيامنا هذه! بكل إتقان! لقد عودناهم على ذلك! قالت العجوز مؤكدة. في أيامنا هذه يجب عليهم أن يقتلوا ليأكلوا! لم تعد تكفيهم سرقة خبزهم وحسب.. بل أن يقتلوا الجدات أيضًا! لم يُرَ هذا من قبل قط.. مطلقًا.. إنها نهاية العالم! لم يعد في أبدانهم شيء آخر سوى الشر! إنما أنتم غارقون حتى الأعناق في الشيطنة.. وها هو أعمى الآن صاحبكم هذا! أنتم تحملون جريرته إلى الأبد، تعولونه إلى الأبد.. أليس كذلك؟ ثم إنكم لن تكفوا معه عن تعلُّم كل صور اللؤم والسفالة".

لم تنبس زوجة الابن بكلمة، لكن لا بد أنها قد أوقفت الآن خطتها حتى تنجو بنفسها. لقد كانت امرأة لئيمة تجيد كبت غيظها. بينما كنا مستسلمين لأفكارنا أخذت العجوز في البحث عن ابنها عبر الغرف.

"ثم إنه صحيح يا دكتور أن لي ابنًا، أنا! أين هو إذًا هو الآخر؟ ماذا يدبر في الخفاء أكثر من ذلك؟"

ظلت تتأرجح عبر الردهة يهزها ضحك لا يتوقف.

عجوز، ضحكٌ بمثل هذه القوة، كان أمرًا لا يحدث كثيرًا إلا عند المجانين. يسأل المرء نفسه عن المصير الذي ينتظره. لكنها كانت مصممة على العثور على ابنها. كان قد فر إلى الشارع: "حسنًا! ليختبئ وليعيش طويلاً أيضًا! إنه

يستحق أن يكون مجبرًا على العيش مع الآخر أيضًا، ذلك الموجود بالأعلى، على الاستمرار في العيش معًا، مع ذلك الذي لن يعود يرى شيئًا! مجبر على أن يطعمه! ذلك الذي انفجر لغمه في وجهه تمامًا! لقد رأيت هذا أنا! رأيت كل شيء! هكذا! بووم! نعم لقد رأيت كل شيء أنا! وأن ذلك لم يكن أرنبًا، أؤكد لك! آه، اللعنة على كل شيء! أين هو ابني يا دكتور، أين هو؟ ألم تره؟ إنه نذل وضيع أيضًا هو الآخر ابني هذا الذي كان دومًا مخادعًا، أكثر شرًّا من الآخر، لكن الكراهية الآن هي التي انتهت بإخراجه من طبيعته القذرة، لقد حدث هذا بالفعل! إنها تستغرق وقتًا طويلاً لتظهر على حقيقتها مثل هذه الطبائع المخيفة كطبيعته! لكنها عندما تبدو على حقيقتها يكون العفن والانحلال الحقيقيان. لا جدال في هذا يا دكتور، هذا هو الواقع فعلاً، لا يجب أن يغيب عنك!" كانت لا تزال تسخر منا. أرادت أيضًا أن تثير دهشتي بتماسكها أمام هذه الأحداث وأن تفحمنا جميعًا مرة واحدة، أن تذلنا، باختصار.

احتفظت لنفسها بدور ينم عن اعتدادها بذاتها، دور راحت تستمد منه انفعالها. لا يكتفي المرء مطلقًا من السعادة، لا يكف مطلقًا عن الإحساس بالرضا عن نفسه، ما دام قادرًا على لعب دورها. مراثٍ، مخصصة للعجائز، على شاكلة ما قُدِّم إليها منذ عشرين عامًا، لن تظل العجوز هنرووي راغبة فيها بعد الآن. لم تكن لتتخلى عن هذا الدور أبدًا، غير المتوقع، القابل للتوسع، بعد أن أقبل بنفسه إليها. أن يكون المرء عجوزًا، فهذا يعني فوات فرصة العثور على دور حماسي متوقد ليلعبه، يعني السقوط في ذلك التراخي الممل، الذي لا ينتظر المرء فيه سوى الموت.

عادت الرغبة في الحياة إلى العجوز مرة أخرى، على نحو مفاجئ تمامًا، مع دور حماسي متقد له طعم الثأر. مرة واحدة لم تعد راغبة في الموت، بعد اليوم أبدًا. بهذه الرغبة في البقاء والصمود راحت تتألق، بهذا التأكيد القاطع، العثور على جذوة الحماس من جديد، حماس حقيقي في قلب الفاجعة.

راحت تستدفئ، لم تعد ترغب في الابتعاد عن جذوة النار الجديدة، أن تفارقنا. لزمن طويل، كانت قد توقفت تقريبًا عن الاعتقاد في ذلك. كانت الحال قد وصلت بها إلى أنها لم تعد تعرف ما عليها أن تقوم به كي لا تستسلم للموت في مؤخرة حديقتها الخرفاء، ثم فجأة ها هو إعصار هائل مؤلم الواقعية يطرأ عليها، محموم تمامًا.

الآن راحت الأم هنرووي تصرخ: "ميتة، ميتتي الخاصة، أريد أن أراها ميتة! هل تسمعني! لدي عينان لأراها بهما، أنا، هل تسمعني، ما زالت لديَّ عينان، أنا! أريد أن أمعن النظر إليها!"

لم تعد تريد أن تموت، أبدًا. كان ذلك واضحًا. صريحًا. لم تعد تصدق إمكانية موتها.

الفصل 32

المقطع التاسع والعشرون

من المعروف أن مثل هذه الأمور تظل دومًا صعبة الإصلاح، وأن إصلاحها دائمًا مكلفٌ للغاية. بدايةً لم يكونوا يعرفون حتى أين يمكن وضعه، روبنسون. في المستشفى؟ من الممكن أن يتسبب هذا في ألف قيل وقال بالتأكيد، ثرثرات هنا وهناك.. إرساله إلى دياره.. لا يجب التفكير في هذا أيضًا بسبب الحال التي آلت إليها سحنته. طائعين أم عكس ذلك، كان آل هنرووي مضطرين إلى الإبقاء عليه عندهم.

أما هو، فقد كان يشعر بالضيق، في فراشها الموجود بالغرفة العلوية. كان يشعر برعب حقيقي، رعب أن يُطرد أو أن يُلاحق. كان ذلك أمرًا مفهومًا. لقد كانت تلك واحدة من هذا النوع من الحكايات التي لا يمكن بحق روايتها لأحد. كانوا يحرصون على إبقاء مصاريع نوافذ الغرفة مغلقة بإحكام، لكن الناس، الجيران، أخذوا يمرون في الشارع بأكثر من المعتاد، لمجرد التطلع إلى المصاريع والسؤال عن أخبار الجريح. كانوا يُمنحون بعض هذه الأخبار، تُروَى لهم بعض الأكاذيب، لكن كيف يمكن منعهم من الاستغراب؟ ومن الثرثرة؟ ولهذا، أضافوا من عندهم مزيدًا من الأخبار والأكاذيب. كيف يمكن تفادي الافتراضات؟ لحسن الحظ أن النيابة العامة لم تكن قد تلقت بعد أي شكوى محددة. كان هذا في حد ذاته شيئًا مهمًّا. أما بالنسبة إلى وجهه، فقد أتدبر أمري. لم يطرأ على جرحه أي تلوث، رغم أنه كان واحدًا من أكثر الجروح تعرجًا وأشدها اتساخًا. أما بالنسبة إلى عينيه، فقد كنت أتوقع وجود بعض الندوب حتى في القرنية التي قد لا يمر الضوء من خلالها إلا بكل صعوبة، حتى إن تمكن من المرور مرة أخرى.

قد يمكن الوصول إلى طريقة لإصلاح نظره بطريقة أو بأخرى، لو كان قد تبقى له شيء قابل للإصلاح. كان علينا الآن أن نتدارك الأمر على وجه السرعة، وأن نتجنب على نحو خاص أن تنجح العجوز في توريطنا جميعًا بزعيقها اللعين أمام الجيران والفضوليين.. فمهما اشتهرت بجنونها، كان ذلك لا يفسر دائمًا كل شيء.

لو تدخلت الشرطة ولو مرة في مغامرتنا، لجرجرتنا إلى حيث لا نعلم أين. منع العجوز من أن تتصرف على نحو فاضح في فنائها الحقير أضحى الآن مهمة شائكة. كان على كلٍّ منا بدوره أن يحاول تهدئتها. لم يكن بمقدورنا أن نُظهر الخشونة نحوها، لكن الرقة لم تكن تفلح معها أيضًا دائمًا. كانت فكرة الانتقام تسيطر عليها الآن، راحت تبتزنا بالتهديد، بكل بساطة.

اعتدت المرور لرؤية روبنسون، مرتين يوميًّا على الأقل. تحت ضمادته كان يئن بمجرد سماعي أصعد الدرج. كان يتعذب، هذا صحيح، لكن ليس بقدر ما حاول أن يبديه لي. سيكون لديه ما يحزنه، كما توقعت، وأكثر بكثير أيضًا عندما سوف يدرك بالضبط ما آلت إليه عيناه.. بشأن المستقبل، ظلت على حالة المداورة والتهرب. كان جفناه يَخِزانه بشدة.. كان يظن أنه لم يعد يرى أمامه بسبب هذا الوخز.

أخذ آل هنرووي في العناية به وعلاجه بكل دقة طبعًا، وفق إرشاداتي. لا متاعب من هذه الناحية.

لم نعد نتكلم عن المحاولة. لم نعد نتكلم عن المستقبل أيضًا. في المساء، كنا نتبادل النظر جميعًا مثلاً بكل إمعان كلٌّ بدوره، وذلك في كل مرة وبإصرار شديد حتى خُيل إليَّ دومًا أننا كنا على وشك أن يقضي بعضنا على بعض نهائيًّا. بدا لي هذا المصير بعد التأمل فيه منطقيًّا ومناسبًا تمامًا. كان من الصعب عليَّ تخيل شكل الليالي في هذا المنزل.. لكني كنت أعود لأراهما في الصباح ونروح نستعيد معًا الناس والأشياء من حيث كنا تركناها ليلة البارحة. مع مدام

هنرووي كنا نغيّر ضمادات البرمنجانات ونوارب قليلاً شيش النافذة على سبيل الاختبار. عبثًا في كل مرة. لم يكن روبنسون يدرك حتى أننا قد واربنا -للتو - الشيش.

هكذا يدور الكون عبر الليل المُنذر للغاية، الصامت للغاية.

ثم يعود الابن ليلقاني كل صباح بعبارة ريفية قصيرة: "حسنًا يا دكتور.. ها نحن في أواخر أيام الصقيع!" يقول لافتًا نظري رافعًا عينيه إلى السماء صوب واجهة الأعمدة الصغيرة. كما لو كانت حالة الطقس تهم في شيء. تذهب زوجته لتحاول مرة أخرى التفاوض مع أم زوجها من خلال الباب الموصد، ولم تكن تنجح إلا في تأجيج غضبها.

بينما أبقيناه تحت الضمادات والأربطة، روى لي روبنسون كيف بدأ في الحياة.. بالتجارة. منذ الحادية عشرة، كان والداه قد ألحقاه بعمل لدى إسكافي شهير ليقضي حوائجه. بينما كان يقوم بتسليم "طلب" ذات يوم دعته إحدى الزبونات إلى تذوق متعة لم يعرفها حتى الآن إلا في مخيلته. لم يعد ثانيةً إلى صاحب العمل لشدة ما بدا له مسلكًا كريهًا منكرًا. كانت مضاجعة زبونة في ذلك الوقت الذي كان يتحدث عنه ما زالت فعلاً لا يمكن غفرانه. ترك لديه قميص تلك المرأة، على وجه الخصوص، من الموسلين الشفاف جدًّا، أثرًا هائلاً. بعد مرور ثلاثين عامًا، ما زال يتذكر ذلك القميص تمامًا. السيدة ذات الحفيف، في شقتها الغاصة بالوسائد وأستار الأبواب ذات الشراشيب، ذلك الجسد الوردي والمُعطّر، كان روبنسون الصغير قد حمل منها في حياته عناصر مقارنات يائسة لا تنتهي.

مع أن كثيرًا من الأمور قد جرى بعد ذلك، رأى بعض القارات، شهد حروبًا كاملة، لكنه لم يتماثل تمامًا للشفاء من تلك الرؤيا المثيرة. على أن ذلك كان يسرّي عنه، أن يعاود التفكير فيها، أن يصف لي مجازًا ما يشبه مسودة الشباب هذه، التي حظي بها مع الزبونة. "إبقاء العينين مغلقتين هكذا، أمر

يحمل على التفكير. المشاهد تتتابع.. يبدو أن المرء لديه سينما في رأسه" قال ملاحظًا. لم أجرؤ ساعتها على أن أقول له إنه سيجد أمامه الوقت كي يمل من سينماه الصغيرة. وبما أن كل الأفكار تفضي إلى الموت، فسوف تأتي لحظة ما لن يرى فيها سواه معه في سينماه.

بجوار منزل آل هنرووي تمامًا يعمل الآن مصنع صغير يضم محركًا ضخمًا. بسببه كنا نرتج في منزلهم من الصباح إلى المساء. ثم بعض المعامل الأخرى أيضًا على مسافة يسيرة بعده، تدق وتسحق بلا توقف أشياء لا تنتهي منها حتى في أثناء الليل. بهذا الشأن، كان هنرووي يقول مازحًا، وإن داخله مع ذلك شيء من القلق: "عندما ينهار الكوخ، لن نكون على ظهر الأرض أحياء!". "ستنتهي به الحال بالتأكيد إلى الانهيار!" صحيح أن السقف راح ينفرط منذ الآن بالفعل على الأرضية في صورة حُصالة ناعمة. حاول أحد المهندسين المعماريين عبثًا أن يطمئنهما.. بمجرد أن يتوقف المرء ليصغي إلى أصوات العالم الخارجي، يشعر الموجود عندهما كأنه في سفينه ما، سفينة تمضي من خوف إلى آخر. ركاب محبوسون يمضون وقتًا طويلاً في التخطيط لمشروعات أكثر تعاسة من الحياة وفي التوفير أيضًا، فضلاً عن الاحتراس من النهار ومن الليل أيضًا.

استمر هنرووي في الصعود إلى الغرفة بعد الغداء ليقرأ قليلاً على روبنسون، كما كنت قد طلبت منه. راحت الأيام تمر. أما قصة المرأة الرائعة التي امتلكها في أثناء فترة تدريبه على العمل، فقد رواها أيضًا لهنرووي، وانتهت هذه الحكاية بأن صارت طريقة للمزاح العام، بالنسبة إلى الجميع في المنزل. هكذا تتلاشى أسرارنا بمجرد أن نعرّضها للهواء ونُخرجها إلى العلن. في نفوسنا وعلى الأرض وربما في السماء ليس هناك ما يخيف إلا ما لم نقله بعد. لن نكون مطمئنين إلا عندما يكون كل شيء قد قيل، مرة واحدة أخيرة، آنذاك سوف نصمت أخيرًا ولن نخاف مجددًا أن نصمت. سوف يتم الأمر.

خلال بضعة الأسابيع القليلة التي استمر فيها تقيح أجفانه، أمكنني أن أرفِّه عنه بأحاديث فارغة بشأن عينيه وبشأن المستقبل. تارة كنت أدعي أن النافذة مغلقة بينما كانت مفتوحة على مصراعيها، وتارة أن الجو كان مظلمًا جدًّا في الخارج.

مع ذلك، بينما كنت أوليه ظهري ذات يوم تقدم بنفسه حتى النافذة ليتبين الأمر بنفسه، وقبل أن أتمكن من إيقافه كان قد أزاح الأربطة والضمادات من فوق عينيه. تردد لحظة طويلة. عن اليمين، ثم عن اليسار، تحسس قوائم النافذة، لم يكن يريد أن يصدق أولاً، ثم ورغم كل شيء كان عليه بالفعل أن يصدق. كان من الواجب حقًّا.

آنذاك صرخ في وجهي: "باردامو! باردامو! إنها مفتوحة! قلت لك إن النافذة مفتوحة!" لم أدرِ بمَ أجيبه.. بقيت واقفًا أمامه كالأبله. كان يتوسط النافذة مادًّا ذراعيه من الجهتين، في الهواء البارد. بالتأكيد لم يكن يرى شيئًا، لكنه كان يشعر بالهواء. حينذاك مد ذراعيه هكذا في ظلامه المقيم بقدر المستطاع، كما لو كان يريد أن يلمس النهاية. لم يكن يريد أن يصدق ذلك. ظلام دامس من نصيبه وحده. دفعته إلى فراشه ورويت له مزيدًا من ترهات التعازي، لكنه لم يكن ليصدقني بعد ذلك أبدًا. أخذ يبكي.. كان قد وصل إلى النهاية هو الآخر.. لم يعد بالوسع أن يقال له شيء.. هناك لحظة يكون المرء فيها وحيدًا تمامًا، عندما يصل إلى آخر كل ما يمكن أن يحدث له.. إنها نهاية العالم. الأسى نفسه، أساك الشخصي، لا يضمن لك بعدها شيئًا، ويجب حينها الرجوع إلى الخلف، وسط البشر، أي بشر كانوا. لا يكون المرء متطلبًا في مثل تلك اللحظات لأنه حتى من أجل البكاء يجب العودة إلى هناك حيث يبدأ كل شيء من جديد، يجب الرجوع إليهم.

سألت زوجة الابن في أثناء الغداء الذي أعقب ذلك المشهد: "إذًا، ماذا سوف تفعلون به عندما تتحسن حاله؟" اتفق يومها أنهما كانا قد طلبا مني البقاء لتناول الغداء معهما، في المطبخ. الحقيقة أنهما لم يكونا يعرفان –لا هو ولا

هي - كيف يمكن الخلاص من هذا الموقف. نفقة الإعاشة الواجب تكبدها كانت تخيفهما، خصوصًا هي، المطلعة بأفضل منه أيضًا على أسعار ترتيبات معيشة ذوي العاهات.. بل إنها كانت قد حاولت بالفعل القيام ببعض الإجراءات لدى مكتب المعونة الاجتماعية.. إجراءات تجنبا الحديث بشأنها معي.

ذات مساء، بعد زيارتي الثانية، حاول روبنسون أن يبقيني إلى جواره بالوسائل شتى، بغرض تأخير موعد انصرافي قليلاً.. لم ينتهِ من رواية كل ما استطاع استجماعه، ذكريات عن الأحداث والرحلات التي قمنا بها معًا، حتى تلك التي لم نحاول يومًا تذكرها بعد. تذكر أمورًا لم يُتح لنا الوقت بعد لتذكرها. في معزله، بدا العالم الذي جبنا أطرافه متدفقًا بكل أنواع الشكاوى، التصرفات اللطيفة، الملابس القديمة، الأصدقاء الذين فارقناهم، سوقًا حقيقية للانفعالات القديمة والعواطف غير الدارجة، افتتحها في رأسه الخالي من الأعين.

"سأقتل نفسي!" كان يبادرني عندما يبدو له ألمه قاسيًا بأكثر مما يُحتمل. لكنه تمكن رغم كل هذا من تحمُّل ألمه هذا إلى نقطة أبعد قليلاً مثل حمل ثقيل بالفعل بأكثر مما يجب بالنسبة إليه، عديم الجدوى إلى أقصى حد، ألم يحمله في طريق لا يجد فيه أحدًا ليخبره عنه ويحدِّثه بشأنه، لشدة ما كان ضخمًا ومتعدد الوجوه. لم يكن يستطيع أن يفسره، كان ألمًا يتجاوز حدود معرفته.

نذل كما كان، كنت أعرف ذلك، وهو أيضًا، بالطبيعة، كان يتوقع دائمًا أن نخف لإنقاذه من الحقيقة، لكني بدأت مع ذلك، من ناحية أخرى، في التساؤل، إن كان هناك في مكان ما، أشخاص أنذال حقًّا.. يبدو أنه من الممكن دائمًا العثور لأي رجل كان على شيء ما يكون مستعدًّا للموت من أجله وعلى الفور وبكل رضا أيضًا. لكن فرصته في الموت على نحو جميل لا تسنح دائمًا، الفرصة التي تروقه.. ولذلك يمضي ليموت بقدر ما يستطيع، في مكان ما.. إنه يظل على هذه الحالة الرجل الذي يحيا أشبه بأحمق زائد عن الحاجة وجبان في

نظر الجميع، غير مقتنع فقط، هذا كل شيء.. إن النذالة لا تكون إلا في الظاهر فقط.

لم يكن روبنسون مستعدًّا للموت في الفرصة التي أُتيحت له. ربما لو كانت قد سنحت له بطريقة أخرى، لراقه ذلك أكثر.

باختصار، على نحو ما، يشبه الموت زواجًا.

لم يرق له الموت بهذه الصورة مطلقًا، ليس أكثر. ليس هناك ما يؤاخَذ عليه.

كان من الواجب إذًا أن يذعن للقبول ببؤسه وحياته الراكدة.. لكنه الآن كان لا يزال مشغولاً تمامًا، مولعًا تمامًا بتلويث روحه ببؤسه وشقائه، بطريقة تثير الاشمئزاز. فيما بعد، سيدخل على بؤسه بعض النظام وحينها قد تبدأ حياة حقيقية جديدة. كان من الواجب طبعًا.

راح يذكِّرني وهو يرفو ويرتق أطراف الذكريات في ذلك المساء كيفما اتفق بعد الغداء: "لكن لو تعلم، فقد كنت، على الرغم من أني لم أحظَ يومًا بأية استعدادات جديرة بالذكر لتعلم اللغات، قد توصلت مع هذا إلى إدارة حديث قصير باللغة الإنجليزية، قرب نهاية فترة إقامتي في ديترويت.. لكني الآن قد نسيت كل شيء تقريبًا، كل شيء ما عدا جملة واحدة.. كلمتين.. تعاودانني طوال الوقت منذ ما أصابني في عينيّ: جنتلمِن فِرست! (السادة أولاً). إنها تقريبًا كل ما أستطيع قوله بالإنجليزية الآن، لست أدري لماذا.. من السهل تذكرها، هذا صحيح.. جنتلمِن فرست!" من باب المزاح، رحنا في محاولة لتغيير أفكاره نتحدث معًا الإنجليزية. أخذنا نردد ساعتها، لكن كثيرًا، "جنتلمن فرست"، بشأن كل شيء وبلا مناسبة كالحمقى. دعابة خاصة بنا وحدنا فقط. انتهت الحال إلى تعليمها لهنرووي نفسه، الذي كان يصعد إلى الغرفة أحيانًا كي يراقبنا.

أخذنا، ونحن نقلّب الذكريات، نتساءل ماذا يمكن أن يكون موجودًا بالفعل من كل هذا.. ما عرفناه معًا.. تساءلنا عما يمكن أن تكون قد صارت إليه مولّي، صديقتنا اللطيفة مولّي. لولا، عن نفسها، كنت أود أن أنساها، لكن على كل حال كنت أرغب بالفعل في معرفة أخبارهن كلهن رغم ذلك، أخبار ميوزين الصغيرة أيضًا إن كان لا بد من ذلك.. التي لا بد كانت تقطن الآن في باريس غير بعيد منا. كان من الضروري أن أقوم بما يشبه رحلات استكشافية على أي حال لأتنسم بعض أخبارها، ميوزين.. من بين كثير من الناس الذين كنت قد نسيت منهم الأسماء، العادات، العناوين، والذين كانت لفتاتهم اللطيفة وحتى ابتساماتهم، بعد كثير من سنوات الهموم، اشتهاء الطعام، لا بد قد تحولت إلى عبوس مُحزن، كما يتحول طعم الجبن القديم.. الذكريات نفسها لها أوقات صباها.. إنها تتحول بمجرد أن نتركها تهترئ، تتحول إلى أشباح منفرة ناضحة تمامًا بالأنانية والكبر والأكاذيب.. إنها تفسد كما يفسد التفاح. أخذنا إذًا نتباهى بشبابنا، استعدناه مستمتعين مرة بعد أخرى. ارتبنا فيه. أمي، بالمناسبة، لم أكن قد ذهبت لرؤية أمي منذ وقت طويل.. ثم إن تلك الزيارات إلى هناك لم تكن توافق جهازي العصبي.. في ما يتعلق بالحزن، كانت أمي أسوأ مني.. دائمًا في حانوتها الصغير، كانت تبدو كأنها جمعت حولها قدر ما استطاعت من خيبة الأمل بعد كثير وكثير من السنوات. عندما كنت أذهب لرؤيتها، كانت تقول لي: "هل تعرف أن العمة أورتنس قد ماتت منذ شهرين في كوتانس؟ ليتك تستطيع الذهاب إلى هناك. وكليمانتان، أنت تعرفه جيدًا، كليمانتان؟ مُشمّع الأرضيات الخشبية (الباركيه) الذي كان يلعب معك عندما كنت صغيرًا؟ حسنًا! أما هو، فقد التقط قبل الأمس من شارع أبو قير.. لم يكن قد تناول طعامًا منذ ثلاثة أيام".

أما طفولته هو، روبنسون، فلم يعد يعرف من أين يتناولها عندما يفكر فيها لشدة ما كانت معتادة، رتيبة، كئيبة. باستثناء قصة "الزبونة" لم يكن يجد فيها ولا في زواياها شيئًا لا يمكن أن يصيب باليأس إلى حد التقيؤ، كما لو كان يبحث في بيت لا توجد فيه إلا أشياء مقززة تفوح بروائح كريهة، مكانس،

علب، أدوات مائدة، صفعات.. السيد هنرووي لم يكن لديه ما يرويه بشأن طفولته إلى أن التحق بالجيش، سوى أنه في تلك الفترة كان قد حصل على صورته بشريط الترقية، وأن هذه الصورة ما زالت موجودة في الوقت الحالي في مكانها بالظبط فوق الخزانة ذات المرآة.

عندما غادرنا هنرووي نازلاً، أخذ روبنسون يطلعني على قلقه من ألا ينالها، حاليًا، فرنكاته العشرة آلاف الموعودة. "لا تعتمد عليها، فعلاً، بأكثر مما يجب!" قلت له بنفسي. كنت أوثر أن أهيئه لهذه الخيبة الأخرى.

بعض حبات الخردق (الرش) الصغيرة، ما تبقى من العبوة، أخذ يظهر ناتئًا على حواف جروحه. رحت أزيلها له من وقت إلى آخر، بعضًا منها كل يوم.. كان ذلك يؤلمه جدًّا، عندما كنت أعبث هكذا فوق مقلتيه تمامًا.

عبثًا حاولنا الاحتياط كما يجب، كان أهل الحي قد شرعوا في الثرثرة رغم ذلك، عشوائيًّا. لم يعرف روبنسون، لحسن الحظ، بانتشار بعض الأقاويل، ربما زاده ذلك مرضًا. بلا جدال كنا قد أُحِطنا بالشكوك. راحت جلبة الابنة هنرووي تقل شيئًا فشيئًا وهي تجوب المنزل في خفيها.

واصلين إلى منتصف الرصيف الصخري تمامًا، كان أقل شك فينا الآن يكفي لأن يطيح بنا جميعًا، ساعتها سيتصدع كل شيء، يتشقق، يرتطم بعنف، يذوب، يظهر على الضفة. روبنسون، الجدة، العبوة الناسفة، الأرنب، الأعين، الابن الذي لا يصدق، الكنة القاتلة، سوف نمضي لننطرح جميعًا هناك وسط أقذارنا، نبدي حياءنا الحقير أمام أعين الفضوليين المرتعشين لذة. لم أكن فخورًا بنفسي.. ليس لأني لم أقترف، عن نفسي، فعلاً إجراميًّا بصورة أكيدة.. كلا، لكني كنت أشعر على كل حال بأني مذنب.. كنت على وجه الخصوص مذنبًا لأني كنت أرغب في الحقيقة في أن يستمر كل هذا.. بل ولأني لم أعد حتى أرى ضررًا في أن نمضي جميعًا لنجول بعيدًا في الليل أكثر فأكثر.

أولاً، لم تعد هناك حتى الحاجة إلى الرغبة، كانت الأمور تمضي تلقائيًّا، وبسرعة أيضًا.

الفصل 33

المقطع الثلاثون

لا يحتاج الأغنياء إلى أن يقتلوا بأنفسهم ليأكلوا.. إنهم يحملون الناس على العمل، كما يقولون.. إنهم لا يرتكبون الشرور، الأغنياء.. إنهم يدفعون. يُبذل كل ما في الوسع لنيل رضاهم ويكون الجميع سعداء تمامًا. بينما تكون نساؤهم حسناوات، تكون نساء الفقراء مغرورات بلا داعٍ. إنها نتيجة تولدت عن قرون، بصرف النظر عن الأزياء والزينة. جميلات لطيفات، ممتلئات، جيدات التغذية، نظيفات. منذ قامت الحياة واستمرت لم تتوصل إلا إلى هذا.

أما عن الباقي، فعبثًا تُزهق أرواحنا، تنزلق، تزل أقدامنا، نسقط ثانيةً في الكحول الذي يحفظ الأحياء والموتى، لا نصل إلى شيء. لقد ثبت ذلك بالفعل. ومنذ قرون كثيرة تمكنّا من مشاهدة حيوانات تولد، تكد وتهلك أمامنا دون أن يقع لها هي الأخرى إطلاقًا أي شيء خارق سوى استئناف الإخفاق الممل نفسه بلا توقف من حيث كانت حيوانات أخرى قد تركته. غير أنه قد يكون علينا أن ندرك ما يجري.. موجات لا تنقطع من كائنات عديمة الجدوى تأتي من أعماق السنين لتموت أمام أعيننا طوال الوقت، ومع هذا نظل هنا، آملين في وقوع بعض الأمور.. غير صالحين حتى لتأمل الموت الذي نعيشه.

نساء الأغنياء حسنات التغذية، التزيُّن، الراحة، يصبحن جميلات. هذا حقيقي. ربما يكفي هذا.. لا يدري أحد.. سيكون ذلك على الأقل سببًا للوجود.

"النساء في أمريكا، ألا ترى أنهن كن أجمل من نساء هنا؟" كان يسألني عن أمور كهذه، روبنسون، منذ أن راح يقلّب ذكريات رحلاته. كانت له بعض التصرفات الغريبة، أخذ حتى في الحديث عن النساء.

صرت أراه الآن أقل من ذي قبل لأني في الوقت نفسه تقريبًا كنت قد عُينت طبيبًا معاينًا في أحد المستوصفات الصغيرة لمرضى الدرن من أهل الجوار. يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها، كان ذلك يعود عليَّ بثمانمئة فرنك شهريًّا. المرضى الذين ترددوا عليَّ كانوا بالأحرى من سكان المنطقة، تلك المنطقة التي تشبه قرية لا تستطيع مطلقًا التخلص من الوحل تمامًا، القابعة وسط أكوام القمامة والمحاطة بالدروب التي تهرب إليها من المدارس، بامتداد الأسيجة، الفتيات الصغيرات المستثارات اللاتي يسيل المخاط من أنوفهن، ليلتقطن من داعر آخر عشرين قرشًا، وبعض البطاطس المقلية وعدوى السيلان المخاطي. موطن للسينما الطليعية حيث تسمم الملابس الداخلية المتسخة الأشجار وحيث تُغمر كل نباتات الخس بالبول في أمسيات السبت. في مجال عملي، لم أقم خلال بضعة أشهر الممارسة المتخصصة تلك بأية معجزة، مع أن الحاجة إلى بعض المعجزات كانت ماسة. غير أن مرضاي لم يكونوا يحرصون على أن أحقق لهم المعجزات، بالعكس، كانوا يعتمدون على إصابتهم بالدرن لينتشلوا أنفسهم من حالة الفقر المطلق التي تخنقهم منذ الأزل إلى حالة الفقر النسبي التي تتيحها لهم المعاشات الحكومية الضئيلة للغاية. كانوا يجرجرون بصاقهم، المُحَمَّل، بقدر أو بآخر، (الإيجابي) بجراثيم المرضى، من إعفاء إلى آخر منذ أيام الحرب. يضمُرون من شدة الحمى المدعومة بقلة الطعام، كثرة القيء، كميات النبيذ الهائلة والعمل مع ذلك، يومًا كل ثلاثة أيام في الواقع.

الأمل في المعاش كان يسيطر عليهم جسدًا وروحًا.. ولسوف يأتيهم ذات يوم كالنعمة الإلهية، بشرط أن يمتلكوا القدرة على الانتظار قليلاً أيضًا قبل أن يهلكوا تمامًا. لا يعرف المرء معنى العودة وانتظار شيء ما، ما دمنا لم نلاحظ كم يمكنهم الانتظار والعودة، الفقراء الذين يأملون الحصول على معاش.

إنهم يمضون فترات بعد الظهر وأسابيع بكاملها في التمني، في مدخل وعلى عتبة مستوصفي البائس، ما دامت تمطر بالخارج، وفي تنشيط آمالهم في ما

يتعلق بالنسبة المئوية للجراثيم في عينات بصاقهم، رغباتهم في بصاق مسلول على نحو صريح، بصاق حقيقي، بصاق مجرثم بنسبة "مئة في المئة". لا يأتي في آمالهم الشفاء إلا بعد الحصول على المعاش بالفعل، من المؤكد أنهم يفكرون فيه، الشفاء، لكن بالكاد، لشدة ما كانت الرغبة في أن يكون الواحد منهم صاحب دخل، دخل ضئيل للغاية، في أي ظروف كانت، تسلب عقولهم تمامًا. لم يعد ممكنًا أن تجد فيهم شيئًا آخر بخلاف تلك الرغبة الملحة، الأخيرة، إلا رغبات ثانوية صغيرة، وأصبح موتهم ذاته بالمقارنة معها أمرًا ثانويًّا إلى حد كبير، مجازفة رياضية على أقصى تقدير. على أي حال ليس الموت إلا مسألة ساعات، بل دقائق، بينما الدخل، كالبؤس، يدوم طوال العمر. على نحو آخر يثمل الأغنياء ولا يمكنهم التوصل إلى فهم لوثات الأمان هذه.

أن يكون المرء ثريًّا، هذه نشوة أخرى، تعني أنه قادر على النسيان. بل من أجل هذا يصبح المرء غنيًّا، من أجل أن ينسى.

شيئًا فشيئًا فقدت عادة تعليل مرضاي، السيئة، باسترداد العافية. لم يكن يمكن لذلك أن يسعدهم كثيرًا، فكرة أن يكون الواحد منهم صحيح الجسد. وعلى كل حال فإن سلامة البدن ليست سوى أسوأ الفروض. الصحة تعين على العمل، وماذا بعد ذلك؟ لكن معاشًا من الدولة، حتى إن كان هزيلاً، شيء رائع، بلا قيد ولا شرط.

عندما لا نملك نقودًا نمنحها للفقراء، فمن الأفضل أن نصمت. عندما نكلمهم عن شيء آخر غير النقود، فإننا نخدعهم، نكذب عليهم طوال الوقت تقريبًا. الأغنياء، من السهل تسليتهم، بالمرايا وحدها مثلاً، ليتأملوا أنفسهم فيها، لأنه ليس هناك على الإطلاق أفضل من التطلع إلى الأغنياء وحدهم. من أجل إنعاشهم، الأغنياء، يجري رفعهم مرة كل عشر سنوات، درجة في وسام جوقة الشرف، كالنهود المترهلة، وهكذا يجدون ما يشغلهم طوال عشر سنوات مقبلة. هذا كل ما في الأمر. أما زبائني فهم أنانيون، فقراء، ماديون، منكمشون في مشروعات تقاعدهم التعسة، بالبصاق الدامي المُحمَّل بجراثيم

السل. ما عدا ذلك كان سواء بالنسبة إليهم بالفعل. حتى فصول السنة التي كانت سواء هي الأخرى. إنهم لا يشعرون بالفصول ولا يرغبون في أن يعرفوا عنها إلا ما يتعلق بالسعال والمرض، يعرفون أنه في الشتاء مثلاً، يصاب المرء بالزكام أكثر من فصل الصيف، ولكن في مقابل ذلك يبصق الواحد دمًا بسهولة في الربيع، وأنه في أثناء أيام الحر يمكن أن يصل المرء لفقدان ثلاثة كيلوجرامات من وزنه أسبوعيًّا. أحيانًا كنت أسمعهم يتحدثون في ما بينهم، بينما كانوا يظنونني في مكان آخر، في انتظار دورهم. كانوا يروون فظائع لا تنتهي نسبوها إليَّ وأكاذيب. لا بد أن ذمّهم لي بهذا الشكل كان يمنحهم الشجاعة، يضعهم في حالة غير معروفة من جرأة غامضة كانت ضرورية بالنسبة إليهم ليكونوا شيئًا فشيئًا أكثر قسوة، أكثر مقاومة وأشرارًا بالفعل، من أجل البقاء، الصمود. أن يغتابوا، ينمّوا، يسخروا، يتواعدوا، كان ذلك يريحهم، يجب أن تصدقوا. مع هذا، فقد قمت بما في وسعي لإرضائهم، بكل الوسائل، تبنيت قضيتهم، وحاولت أن أكون مفيدًا لهم، كنت أعطيهم الكثير من عقار الإيدور idore لأحاول أن أجعلهم يبصقون جراثيم أدرانهم القذرة، ولكن كل هذا دون النجاح مطلقًا في إيقاف أقاويلهم المسيئة أو تحييدها.

كانوا يظلون أمامي هنا، مبتسمين كالخدم حين أسألهم، غير أنهم لم يكونوا يحبونني، أولاً لأنني كنت أعالجهم، ثم لأنني لم أكن غنيًّا وكان علاجهم على يدي يعني أنهم يُعالجون مجانًا، ولم يكن ذلك يومًا مدعاة لفخر أي مريض حتى إن كان في انتظار المعاش. من وراء ظهري، لم تكن هناك سفالات لم يروجوها حول شخصي. لم أكن أمتلك سيارة أنا الآخر مثل معظم أطباء النواحي المجاورة، وكان هذا يعد نقصًا في رأيهم، أن أتنقل على قدمَي. ما إن يثاروا قليلاً، مرضاي، والزملاء في ذلك لا يختلفون، حتى يروحوا كما يبدو ينتقمون من كل مودتي، من أني كنت خدومًا للغاية، متفانيًا للغاية. كل هذا كان متسقًا. مع ذلك راح يمضي الوقت.

بينما كانت صالة الانتظار بعيادتي شبه خالية ذات مساء، دخل أحد القساوسة ليتحدث معي. لم أكن أعرفه من قبل هذا القس، وكدت أصرفه.. لم أكن أحب الكهنة، كانت لي أسبابى، خصوصًا منذ دُبرت لي واقعة الصعود إلى السفينة في سان تابيتا. لكن هذا الأخير، سعيت جاهدًا للتعرف إليه دونما جدوى، لأوبخه على أشياء محددة، لم أكن قد قابلته من قبل فعلاً بأي مكان.. ومع هذا فلا بد أنه كان يجول كثيرًا في أثناء الليل مثلي في رانسي Rancy، بما أنه كان من أهل الجوار. ربما إذًا كان يتجنبني عندما يخرج؟ دار ذلك في ذهني. على كل حال لا بد أنه قد نُبه إلى أني لا أحب القساوسة. بدا هذا من الطريقة المتعجلة المريبة التي بدأ بها حديثه الممل. إذًا، لم نكن قد تزاحمنا مطلقًا حول المرضى أنفسهم. كان يرعى إحدى الكنائس، هنا، في الجوار، منذ عشرين عامًا. من المؤمنين، كانت له جماهير غفيرة، لكن من يدفعون له لم يكونوا كُثرًا.. بالأحرى كان صاحبنا متسولاً. قرّب هذا بيننا. بدا لي المسرح الذي يغطيه رداءً غير عملي ولا مريح تمامًا للطواف في أوحال هذه المناطق. لفتُّ نظره إلى ذلك.. بل إنني شددت حتى على عدم ملاءمة هذا الرداء البالغة.

"يعتاد المرء ذلك!" كان هذا رده.

لم تمنعه وقاحة ملاحظتي من أن يكون أكثر ودًّا أيضًا. من المؤكد أن لديه شيئًا ما يطلبه مني. لم ترتفع نبرة صوته كثيرًا فوق وتيرة مناجاة ما، جاءته، تصورت ذلك على الأقل، من مهنته. بينما كان يتكلم حذرًا ومُمهدًا، حاولت أن أتمثل كل ما يقوم به هذا القس يوميًّا ليكسب قوت يومه، كثيرًا من التظاهر والرياء والوعود أيضًا، على شاكلة وعودي.. ثم تخيلته، من قبيل التسلية، عاريًا تمامًا أمام مذبحه.. هكذا يجب أن نعتاد تبديل أوضاع من يأتي لزيارتنا من البشر منذ الوهلة الأولى، إننا نفهم أسرع بكثير بعد ذلك، نكتشف على الفور في أي شخصية حقيقتها كدودة هائلة نَهمة. إنها وسيلة جيدة لتنشيط الخيال. هيبته الحقيرة تتبدد، تتبخر. عاريًا، لا يتبقى أمامكم إجمالاً إلا كيس

فارغ بائس مدّعٍ متبجح يجهد نفسه في هذرمة لا طائل منها على نحو أو آخر. لا يصمد شيء أمام هذا الاختبار. نستفيق على الفور. لا يتبقى سوى الأفكار، والأفكار لا تخيف مطلقًا. بها لا يضيع شيء، وينتظم كل شيء. يكون من الصعب أحيانًا تحمل هيبة رجل يرتدي ملابسه.. إنه يحمل روائح قذرة وأسرارًا وأمورًا خفية ملء ملابسه.

كانت أسنانه في حالة سيئة بالفعل، القس، زنخة، مسودة ومطوقة من أعلى بترسبات مخضرة، سيلان قيحي شديد باللثة. كنت سأحدِّثه عنه، ذلك التقيح، لكنه كان مشغولاً تمامًا برواية بعض الأمور لي. لم تكن الأشياء التي يرويها لي تتوقف عن صب اللعاب على بقايا جذور أسنانه النخرة تحت ضغوط لسان كنت أراقب كل حركاته. في كثير من المواضع الصغيرة جدًّا على أطرافه الدامية كان لسانه متسلخًا.

تعودت -بل وكنت أميل إلى - هذه الملاحظات المتعمقة والمدققة. عندما نتوقف مثلاً عند الطريقة التي تتكون وتُنطق بها الكلمات، لا تصمد عباراتنا كثيرًا أمام كارثة إطارها المطموس. إنه أكثر تعقيدًا ومشقة من التبرز، المجهود الميكانيكي الذي نبذله في الحديث. الفم، تلك الفتحة الأنبوبية من اللحم المتورم، التي تتشنج عند الصفير، يشهق، يكابد، ويُطلق كل أنواع الأصوات اللزجة عبر هذا الحاجز العفن من الأسنان المنخورة.. أي عقاب هذا! ومع هذا ما نلزم باتخاذه مثلاً أعلى. أمر صعب. وبما أننا لسنا سوى أسيجة تحوط أحشاء دافئة لم تتحلل جيدًا فسوف نواجه دائمًا صعوبات مع المشاعر. أن يكون المرء عاشقًا أمر بسيط، الصعب هو البقاء معًا. لا تسعى القذارة إلى البقاء ولا إلى التكاثر. هنا، حول هذه النقطة، نحن أتعس من "الغائط"، هذا السعار الذي يجب أن نحافظ عليه في حالتنا يمثل عذابًا يفوق الخيال.

الحقيقة أننا لا نهيم بشيء أكثر روعة من سمعتنا. كل تعاستنا ناجمة عن أننا يجب أن نظل جان jean، بيير pierre، أو جاستون Gaston، مهما كان الثمن في أثناء كل ضروب السنين. جسدنا هذا، المتنكر في صورة جزيئات قلقة

ومبتذلة، يتمرد طوال الوقت على مهزلة البقاء البشعة هذه. إنها تريد أن تمضي لتتلاشى، جزيئاتنا، بأسرع ما يمكن، في أنحاء الكون هذه الكائنات اللطيفة! إنها تعاني من كونها "نحن" فقط، المخدوعين باللا نهاية. قد تنفجر لو كانت لدينا الشجاعة، لكننا نتصدع فقط من يوم إلى آخر. عذابنا الغالي محبوس هنا، في ذراتنا، حتى في جلدنا، مع كبريائنا.

نظرًا إلى أني التزمت الصمت، ذاهلاً باستحضار تلك الحقائق البيولوجية المخزية، ظن القس أنه يسيطر عليَّ، واستغل ذلك حتى ليصبح لطيفًا تجاهي، بل حتى أليفًا مقربًا. كان بالتأكيد قد استعلم عني مسبقًا. باحتياطات لا حصر لها تطرق إلى الموضوع سيئ النية المتعلق بسمعتي الطبية في نواحي الجوار. ألمح إلى أنها يمكن أن تكون أفضل، سمعتي، لو كنت قد تصرفت بطريقة مغايرة تمامًا عندما استقررت، وذلك منذ الأشهر الأولى لممارستي العمل في رانسي. "المرضى، عزيزى الطبيب، علينا ألا ننسى ذلك مطلقًا، من ناحية المبدأ، محافظون.. إنهم يخشون، يمكن تصور ذلك بسهولة، أن يخسروا الأرض والسماء".

وفقًا لما يراه، كان عليَّ إذًا أن أقترب من الكنيسة منذ بداياتي. كان هذا استنتاجه ذا الطابع الروحي والعملي أيضًا. الفكرة لم تكن سيئة. احترزت جيدًا من مقاطعته، لكن كنت أنتظر بصبر أن يصل إلى صميم الغرض من زيارته.

كطقس حزين مواتٍ للمناجاة لم يكن من الممكن تمني طقس أفضل من الطقس الذي يسود في الخارج. كان الطقس رديئًا على نحو بالغ البرودة والإلحاح، حتى ليظن الخارج إليه أنه لن يرى بقية العالم بعد ذلك أبدًا، حتى ليظن أن العالم قد ذاب، ضَجِرًا.

كانت ممرضتي قد تمكنت أخيرًا من ملء بطاقاتها، كل بطاقاتها، حتى الأخيرة. لم يعد لديها أي مبرر على الإطلاق لتظل جالسة هنا لتسمعنا. وعليه

فقد رحلت، لكن ممتعضة تمامًا وصافقة الباب خلفها، وسط هبة مطر غاضبة.

الفصل 34

المقطع الحادي والثلاثون

في أثناء هذا اللقاء، عرَّفني القس بنفسه، كان يدعى الأب بروتيست Protiste. من فترة سكوت مقصودة إلى أخرى أخبرني أنه قد اتخذ منذ بعض الوقت بالفعل وبالاتفاق مع زوجة الابن هنرووي بعض الإجراءات بغرض تسكين العجوز وروبنسون، كليهما معًا، في إحدى الجمعيات الدينية، شريطة أن تكون غير مُكلفة. وأنهم كانوا لا يزالون يبحثون.

بالتطلع إليه جيدًا ربما أمكن أن يُعد، عند الضرورة، الأب بروتيست، بسبب طريقته كبائع، كالباعة الآخرين، بل حتى ربما رئيس قسم في أحد المتاجر، مبتلاً، ممتقعًا، مجففًا مئة مرة. كان بالفعل واحدًا من الدهماء بوضاعة تلميحاته.. برائحة أنفاسه أيضًا. إنني لا أخطئ كثيرًا في روائح الفم. لقد كان رجلاً يأكل بأسرع مما يجب ويحتسي النبيذ الأبيض.

كانت الكنة هنرووي، كما روى لي، في البداية، قد جاءت لرؤيته في مقره الرهباني ذاته بعد محاولة الاعتداء بقليل، لينقذهما من الورطة اللعينة التي زجا بنفسيهما فيها. بدا لي وهو يقص عليَّ هذا باحثًا عن بعض الأعذار، التفسيرات، كان يشعر بما يشبه الخجل من ذلك التواطؤ. بالنسبة إليَّ، لم يكن الأمر يستحق التصنع بالفعل. الأمور مفهومة وواضحة. لقد جاء ليرانا ثانيةً في الليل. هذا كل ما في الأمر. على كل حال ليذهب القس إلى الجحيم! كان ما يشبه جرأة حقيرة قد استبد به أيضًا، شيئًا فشيئًا، مع الحصول على النقود. سحقًا! لأن عيادتي مثل كل شيء كانت غارقة في الصمت، ولأن الليل راح يُطبق على المنطقة، خفض القس حينذاك نبرة صوته تمامًا كي يبوح لي وحدي بأسراره. لكنه مع ذلك راح عبثًا يهمس، بدا لي كل ما رواه رغم كل

شيء مهولاً، غير مُحتمل، بلا شك بسبب الهدوء الذي يلفنا والذي بدا كأنه معبأ بالصدى. في داخلي أنا وحدي ربما؟ اسكتْ! كنت أود أن أهمس بها في أذنه طوال الوقت، في أثناء هنيهات الصمت بين العبارات التي كان يلقيها. بل إن شفتاي راحتا ترتعدان قليلاً من الخوف، وفي نهاية عباراته كنت أتوقف عن التفكير في ذلك.

الآن وقد انضم إلينا في محنتنا لم يعد يعرف تمامًا، القس، ماذا يفعل للتوغل على أثرنا نحن الأربعة في الظلام. مجموعة صغيرة. كان يريد أن يعرف كم كنا متورطين بالفعل في تلك المغامرة؟ أين كنا ذاهبين؟ ليتمكن، هو أيضًا، من الإمساك بأيدي الأصدقاء الجدد نحو تلك الغاية التي كان من الواجب علينا الوصول إليها كلنا معًا وإلا فلن نبلغها أبدًا. كان الآن في الرحلة نفسها. سوف يتعلم السير في الظلام، القس، مثلنا، مثل الآخرين. إنه ما زال يتعثر. راح يسألني كيف كان عليه أن يتصرف حتى لا يقع. كان عليه ألا يأتي إذا كان خائفًا! سوف نصل إلى النهاية معًا، وساعتها سنعرف ما كنا نبحث عنه في المغامرة. هكذا هي الحياة، شيء من النور يموت في الظلام.

ثم، قد لا نعرف أبدًا، لن نجد شيئًا، هذا هو الموت.

المهم الآن كان التقدم فعلاً بحذر. من جهة أخرى، فمن حيث كنا، لم يعد بوسعنا الرجوع. لم يكن هذا خيارًا. كانت عدالتهم الظالمة بقوانينها في كل مكان، في ناصية كل ممشى. كانت هنرووي زوجة الابن تمسك بيد العجوز وابنها وأنا أمسك بأيديهم وبيد روبنسون أيضًا. كنا جميعًا معًا. هذا هو. شرحت للقس كل هذا على الفور. ولقد استوعب هذا الأمر.

سواء شئنا ذلك أم أبيناه، فحيثما كنا الآن، لن يكون في صالحنا أن يباغتنا المارة وأن يكشفوا أمرنا. هذا ما قلته للقس وشدّدت عليه جيدًا. إذا قابلنا أحدًا فيجب أن نبدو كمن يتنزهون، دون أن يظهر علينا شيء. هذه هي التعليمات. أن نظل طبيعيين تمامًا. كان القس إذًا يعرف كل شيء الآن، يدرك

كل شيء. بدوره شدّ على يدي بقوة. لا بد أنه كان خائفًا أيضًا هو الآخر. إنها البدايات. راح يتردد، بل إنه كان يتلعثم كرجل بريء. لم يعد هناك طريق ولا ضوء هناك حيث كنا، لا شيء سوى ضروب من الحيطة والحذر بدلاً منها، وكنا نتجاوزها ولم نعد نثق بها كثيرًا أيضًا. الكلمات التي تقال ليطمئن المرء نفسه في مثل هذه الحالات لا تجد من يتلقاها. لا يردد رجع الصدى شيئًا، كنا قد خرجنا عن المجتمع. الخوف لا يقول نعم أو لا.. إنه يستولي على كل ما نقول، على كل ما يدور بخاطرنا، كل شيء.

لا يفيد حتى أن نحملق في الظلام في مثل هذه الحالة. إنه الخوف من الضياع وهذا كل شيء. استولى الليل على كل شيء وعلى الأنظار نفسها. إنه ينهكنا. مع ذلك يجب أن نتماسك بالأيدي وإلا وقعنا. لم يعد أهل النهار يفهموننا. إننا منفصلون عنهم بكل الخوف، وسوف نظل منسحقين تحت وطأته حتى اللحظة التي ينتهي فيها على نحو أو آخر، وحينذاك يمكننا أخيرًا الانضمام إليهم هؤلاء الأنذال الذين يمثلون عالمًا بأسره سواء في الموت أو في الحياة.

لم يكن أمام القس في الوقت الحاضر إلا أن يساعدنا وأن يسرع بالتعلُّم، كان هذا عمله. ثم إنه فضلاً عن ذلك قد جاء من أجل ذلك فقط، أن يبذل قصارى جهده في إيجاد مأوى للأم هنرووي في البداية، وبسرعة، ولروبنسون أيضًا، في الوقت نفسه، لدى الراهبات في الريف. بدا له ممكنًا ولي أيضًا من جانب آخر، ذلك التدبير. لكن كان لا بد من الانتظار شهورًا من أجل مكان شاغر، ولم يعد بوسعنا الانتظار. كفى.

كانت الكنة على حق فعلاً، الأسرع سيكون الأفضل. فليرحلا عنها! فلنتخلص منهما! وعليه فقد تلمّس بروتيست تدبيرًا آخر.. وافقت عليه في الحال، ذلك التدبير، وبدا لي عبقريًّا للغاية، فضلاً عن أنه أولاً كان يتضمن عمولة لكلينا، القس وأنا. كان لا بد لهذا الترتيب أن يُنجَز على الفور تقريبًا، وكان عليَّ أن ألعب فيه دوري المحدد. الدور الذي كان يقوم على إقناع روبنسون بالذهاب

إلى جنوب فرنسا وعلى نصحه بصورة ما وبطريقة ودية تمامًا بالطبع، لكنها مع ذلك ملحة وعاجلة.

غير عالم بباطن وظاهر ذلك الترتيب، الذي تحدث عنه القس، كان لا بد لي ربما أن أبدي تحفظاتي، أن أوفّر لصديقي بعض الضمانات على سبيل المثال.. لأنه في النهاية، كان عند التفكير فيه جيدًا، ترتيبًا غريبًا ذلك الذي يعرضه علينا الأب بروتيست. لكننا كنا جميعًا متعجلين للغاية بسبب الظروف، لدرجة أن النقطة الرئيسة كانت ألا يطول الأمر. وعدت بكل ما يريدونه، مساندتي والحفاظ على السر. بدا بروتيست هذا معتادًا تمامًا على الظروف الشائكة من هذا النوع ورحت أشعر أنه سوف يسهل لي كثيرًا من الأمور.

من أين نبدأ أولاً؟ كان علينا أن نرتب رحيلاً سريًّا إلى الجنوب. ماذا سيكون رأي روبنسون في الجنوب؟ وفضلاً عن ذلك الرحيل مع العجوز، التي كاد أن يقتلها فعلاً.. سألح عليه.. هذا هو المهم! كان لا بد أن يذهب إلى هناك ولشتى الأسباب، لم يكن بعضها وجيهًا، لكنها كانت قوية جميعًا.

كمهنة غريبة، كانت بالفعل غريبة تلك التي وجدناها لروبنسون وللعجوز في الجنوب. كانت في "تولوز" Toulouse. إنها مدينة جميلة تولوز! فضلاً عن ذلك فسوف نزور المدينة! سوف نذهب لرؤيتها هناك! كان مقدرًا أن أذهب إلى تولوز بمجرد أن يستقرا هناك، في بيتهما وفي عملهما وفي كل شيء.

ومن جهة أخرى أزعجني قليلاً، عندما فكرت في الأمر، أن يرحل روبنسون بمثل هذه السرعة وفي الوقت نفسه أسعدني الأمر كثيرًا، خصوصًا لأني ولمرة وحيدة كنت سأجد فيه مكسبًا صغيرًا حقيقيًّا. سوف يمنحونني ألف فرنك. أمر متفق عليه أيضًا. لم يكن عليَّ سوى أن أحمّس روبنسون للذهاب إلى الجنوب من خلال تأكيدي له أنه ليس هناك مناخ أفضل لجِراح عينيه من مناخ الجنوب، وأنه سيكون هناك بأفضل ما يمكن، وباختصار أنه كان محظوظًا

بالفعل بالنجاة من هذه الورطة بمثل تلك الكلفة الزهيدة للغاية. كانت تلك هي وسيلة حمله على اتخاذ القرار.

بعد خمس دقائق من اجترار الأفكار على هذا النحو، كنت أنا نفسي قد امتلأت قناعةً وعلى أتم الاستعداد لمقابلة حاسمة. يجب طرق الحديد عندما يكون ساخنًا، كانت تلك وجهة نظري. على أي حال، لن يكون هناك أسوأ حالاً من هنا. بدت لي الفكرة التي واتت بروتيست عند التمعن فيها، بالتأكيد، معقولة تمامًا. هؤلاء القساوسة، إنهم يعرفون على أي حال كيف يكتمون أفظع الفضائح.

ليست هناك تجارة أكثر خبثًا من أخرى، إليكم ما عُرض على روبنسون وعلى العجوز في النهاية. كان ضربًا من أقبية المومياوات، إن كنت قد فهمت جيدًا. يُمكن زيارة ذلك القبو، الموجود أسفل إحدى الكنائس، لقاء تبرع صغير من السائحين. وهو مشروع تجاري حقيقي، كما أكد لي بروتيست. كنت تقريبًا واثقًا بهذا وسرعان ما انتابني شيء من الغيرة. ليس من المألوف أن يستطيع المرء حمل الموتى على العمل.

أغلقت المستوصف وها نحن في طريقنا إلى دار آل هنرووي، حازمين أمرنا، أنا والقس، عبر الدروب الموحلة. كشيء مدهش، كان الأمر مدهشًا. ألف فرنك متوقعة! كنت قد غيّرت رأيي بشأن القس. عندما وصلنا إلى الدار وجدنا الزوجين هنرووي بالقرب من روبنسون في غرفة الطابق الأول.. لكن في أي حال كان روبنسون آنذاك!

"هذا أنت" قال في غاية الانفعال، بمجرد أن سمعني أصعد إليهم. "أشعر أن شيئًا ما سوف يحدث.. صحيح؟" سألني لاهثًا.

ها هو ثانيةً غارقًا في دموعه حتى من قبل أن أتمكن من إجابته بكلمة واحدة. أومأ لي الآخران، آل هنرووي، بينما كان يستغيث مستنجدًا. قلت لنفسي "أي

ورطة لعينة؟ إنهما متعجلان بأكثر مما يجب، الآخران.. دائمًا متعجلان بأكثر مما يجب! هل كاشفاه بالأمر هكذا بلا تأثر؟ ودونما تمهيد؟ دون أن ينتظراني؟"

لحسن الحظ، استطعت أن أعيد صياغة المسألة برمتها، إن جاز التعبير، بكلمات أخرى. لم يكن روبنسون يطلب أكثر من هذا هو الآخر، مظهرًا جديدًا للأشياء نفسها. كان ذلك كافيًا. في الردهة لم يكن القس يجرؤ على الدخول إلى الحجرة، كان يترنح من الهلع. "تفضل بالدخول!" دعته زوجه الابن، أخيرًا. "لتدخل إذًا! لست دخيلاً على الإطلاق، سيدي القس! أنت تفاجئ أسرة بائسة في مصيبتها.. هذا كل ما في الأمر. الطبيب والراهب. ألا يكون الأمر كذلك دائمًا في الأوقات المؤلمة من الحياة؟"

راحت تتشدق بالكلام. كانت آمال جديدة للخروج من الفقر ومن ظلام الليل هي التي جعلتها شاعرة على طريقتها، تلك الفظة قاسية القلب.

كان القس الذي أعيته الحيلة قد فقد كل إمكاناته وراح يتلعثم مبقيًا على مسافة معينة بينه وبين المريض. انتقلت لعثمته المتأثرة حينذاك إلى روبنسون الذي خرج عن طوره ثانيةً وراح يصرخ: "إنهم يخدعونني! إنهم يخدعونني جميعهم!"

مجرد ثرثرات كما ترى، وحول المظاهر فقط أيضًا. عواطف. الشيء نفسه دائمًا. لكن ذلك استفزني شخصيًّا ومنحني بعض الغلظة. جذبت الابنة هنرووي إلى أحد أركان الغرفة وعرضت عليها الصفقة بكل صراحة، وخيرتها بين القبول والرفض لأني كنت أرى بوضوح أن الشخص الوحيد المتداخل في الأمر والقادر على إخراجهم من هذه الورطة كان لا يزال هي فقط، في نهاية الأمر. قلت للابنة: "دفعة على الحساب. والآن فورًا عربوني!" حين تنعدم الثقة ليس هناك مبرر للتحرج كما يقال. فهمت المقصود.. أطبقت راحة يدي ساعتها على ورقة نقدية من ذوات الألف فرنك كاملة، وبعدها ورقة إضافية

أخرى حتى أطمئن. أجبرتها على ذلك بسلطة الأمر الواقع. ثم شرعت حينذاك في حث روبنسون على حسم أمره ما دمت وصلت إلى تلك النقطة. كان لا بد أن يتقبل فكرة رحيله إلى الجنوب.

الخيانة، كما يقال، كلمة يسهل قولها. لكن لا بد أيضًا من انتهاز الفرصة. إنها تشبه فتح نافذة في سجن، الخيانة، الناس كلهم يتوقون إليها، لكن القادرين عليها قلة نادرة.

الفصل 35

المقطع الثاني والثلاثون

بعد أن غادر روبنسون من رانسي، اعتقدت فعلاً أن الحياة سوف تنطلق، سيكون لديَّ مثلاً قليل من المرضى أكثر من المعتاد، لكن لا شيء على الإطلاق. أولاً حلت البطالة، الأزمة في الضواحي وكان هذا هو الأسوأ. ثم إن الطقس، رغم أننا في الشتاء، أخذ يدفأ ويجف، في حين كان البرد والرطوبة هما ما يلزمنا نحن لممارسة الطب.. ما من أوبئة أيضًا.. باختصار موسم معاكس، محبط تمامًا.

بل إنني رأيت زملاء يمضون ليقوموا بزيارتهم مشيًا، ليس هناك ما يضاف، بمظهر من يستمتع بالنزهة، لكنهم في الحقيقة كانوا ممتعضين للغاية وكانوا لا يفعلون ذلك حتى لا يخرجوا بسياراتهم، لدواعي التوفير فقط. أما أنا، فلم يكن لديَّ للخروج سوى معطف واحد واقٍ من المطر. أكان لهذا السبب أنني أصبت بزكام مُزمن؟ أم أنني قد تعودت فعلاً ألا آكل إلا القليل جدًّا؟ كل شيء جائز. هل هي الحمّى قد عاودتني؟ أخيرًا، وعلى أي حال، فعقب دور برد بسيط، قبل مقدم الربيع تمامًا، أخذت أسعل بلا توقف، كنت مريضًا على نحو مزعج. كارثة. صار النهوض، في بعض الصباحات، مستحيلاً بالنسبة إليَّ. كانت خالة بيبير Bebert تمر أمام باب منزلي.. استدعيتها.. صعدت، أرسلتها على الفور لتحصّل مبلغًا بسيطًا كان أحدهم لا يزال يدين به لي في الحي. المبلغ الوحيد، الأخير.. هذا المبلغ الذي حُصِّل نصفه فقط سوف يكفيني عشرة أيام، كنت خلالها طريح الفراش.

يتاح للمرء الوقت للتفكير خلال عشرة أيام من الرقاد. بمجرد أن أجد نفسي بحال أفضل سوف أرحل عن رانسي. كان هذا ما قررته. فضلاً عن شهرين

متأخرين من إيجار البيت.. الوداع إذًا لقطع الأثاث الأربع! دون أن أخبر أحدًا بالطبع، سوف أتسلل، بكل هدوء، ولن يراني أحد ثانيةً مطلقًا في لاجارين - رانسي. سوف أمضي دون أن أترك أثرًا ولا عنوانًا. عندما يلاحقك وحش الفقر، الغبي، ما جدوى الاعتراض؟ الأفضل ألا تقول شيئًا ثم تلوذ بالفرار.

كان بوسعي، بشهادتي، أن أستقر في أي مكان شئت، هذا صحيح.. لكن في أي مكان آخر لن يكون الوضع لا أفضل حالاً ولا أسوأ.. سيكون المكان أفضل في البدايات، بالتأكيد، لأنه لا بد دائمًا من شيء من الوقت حتى يتمكن الناس من معرفتك جيدًا، حتى يتوصلوا إلى طريقة الإساءة إليك ويشرعوا في تنفيذها. ما داموا لا يزالون يبحثون عن الموضع الذي يكون من الأسهل فيه إيذاؤك، يكون لدى المرء شيء من الطمأنينة، لكن بمجرد أن يتوصلوا إلى الطريقة تصير حينذاك كل الأماكن متشابهة من جديد. باختصار، إن أمتع الأوقات هي تلك المهلة القصيرة التي يكون المرء فيها غير معروف للناس في كل الأماكن الجديدة. بعدها تبدأ المنغصات نفسها. إنها طبيعتهم. المهم ألا ننتظر أطول مما يجب حتى يعرف، الأصحاب، جيدًا نقطة ضعفك. يجب سحق البق قبل أن يجد شقوقه. أليس ذلك صحيحًا؟

أما في ما يخص المرضى، الزبائن، فلم أكن لأنخدع بشأنهم إطلاقًا.. إنهم لن يكونوا في حي آخر لا أقل جشعًا، ولا أقل غباءً، ولا أقل جبنًا من زبائن هذا الحي. النبيذ نفسه، السينما نفسها، الثرثرة الرياضية نفسها، الخضوع المتحمس نفسه للاحتياجات الطبيعية، الفم والفرج، كانت تعود هناك كما هو الحال هنا إلى الجمع البليد القذر، المترنح من كذبة لأخرى، المتبجح دائمًا، المساوم، سيئ النية، العدواني بين نوبتَي ذعر.

لكن بما أن المريض كثيرًا ما يتقلب من جنب إلى آخر في فراشه، وفي الحياة، فيحق لنا طبعًا نحن أيضًا أن نتقلب من جانب إلى آخر، إنه كل ما نستطيع أن نقوم به وكل ما وجدناه من وسائل الدفاع ضد القدر. يجب ألا نأمل نسيان آلامنا في أي مكان على الطريق. إنه مثل امرأة بشعة، الألم،

تزوجناها.. ربما كان من الأفضل أيضًا أن ينتهي الأمر بحبها قليلاً بدلاً من أن ننهك أنفسنا في قتالها طوال العمر، ما دام من المفروغ منه أننا لا نقدر على القضاء عليها؟

على كل حال فقد تسللت بهدوء شديد من شقتي، بالطابق المسروق، في رانسي. كانوا متحلقين حول النبيذ الرخيص والكستناء (أبو فروة) في مسكن بوابة منزلي عندما مررت أمامه، للمرة الأخيرة. لم يرني أحد ولم يسمعني أحد. كانت البوابة تتهرش، وانحنى، هو، فوق الموقد، وقد يبسه الدفء، كان قد شرب كثيرًا حتى إن اللون البنفسجي كان يملأ عينيه.

بالنسبة إلى هؤلاء الناس، كنت أنزلق إلى المجهول كما لو كنت أمضي في نفق لا نهاية له. من الأفضل أن ينقص عدد من يعرفونك ثلاثة أشخاص وبالتالي ينقص عدد من يراقبونك ويسعون إلى الإضرار بك، ثلاثة لن يعرفوا على الإطلاق ما آلت إليه حالي.. ثلاثة، لأني أحسب ابنتهما ايضًا، صغيرتهما تيريز Thérése التي كانت تجرح نفسها إلى أن تتقيح دماملها، لفرط ما كانت تحك جلدها بلا توقف تحت وخز البق والبراغيث. صحيح أن المرء كان يتعرض كثيرًا للوخز عندهم، بوابي منزلي، حتى ليظن المرء عند دخوله إلى مسكنهم أنه يتوغل شيئًا فشيئًا في فرشة.

كان إصبع نور الغاز الطويل في المدخل، المبهر ذو الفحيح، يتكئ على المارة على حافة الرصيف ويحولهم، بغتة، إلى أشباح حائرة وثملة، في الإطار المظلم للباب. يمضون بعد ذلك باحثين عن شيء من النضارة، هؤلاء المارة، أمام النوافذ الأخرى وأعمدة الإنارة ثم يضيعون آخر الأمر مثلي في الليل، حزانى ومترهلين.

بل لم يعد المرء مضطرًا إلى التعرف إليهم، المارة. مع ذلك كان يطيب لي أن أوقفهم عن طوافهم الشارد، ثانية واحدة، مجرد الوقت الذي أخبرهم فيه للمرة الأخيرة أنني سأمضي لأختفي في الجحيم، أنني سوف أرحل، لكن

بعيدًا جدًّا، أنني أحتقرهم تمامًا وأنه لن يعود بوسعهم أن يؤذوني في شيء لا هؤلاء ولا هؤلاء، ولا حتى أن يحاولوا القيام بشيء.

عندما وصلت إلى جادة الحرية boulevard de la liberté، كانت عربات نقل الخضار تتجه صعدًا مترجرجة نحو باريس. تابعت طريقها. باختصار، كنت تقريبيًا قد غادرت رانسي تمامًا. لم يكن الجو دافئًا جدًّا هو الآخر. آنذاك وحتى أدفئ نفسي، غيرت اتجاه سيري قليلاً حتى مسكن خالة بيبير Bebert. كان مصباحها يثقب العتمة في آخر الردهة. "لإنهاء الأمر، قلت لنفسي، كان لا بد طبعًا أن أقول لها (إلى اللقاء)، خالة بيبير".

كانت جالسة هناك كعادتها فوق كرسيها، بين روائح مسكنها، والموقد الصغير يدفئ كل هذا ووجهها العجوز الآن مهيأ دائمًا للبكاء منذ أن توفي بيبير، وعلى الحائط، فوق علبة أدوات الخياطة، صورة مدرسية كبيرة لبيبير، مرتديًا مريوله والبيريه والصليب. كانت تكبيرًا لصورة صغيرة حصلت عليها كجائزة من أحد أنواع القهوة. أيقظتها.

"مرحبًا أيها الطبيب" قالت منتفضة. إنني لا زلت أذكر جيدًا ما قالته لي. "إنك تبدو كأنك مريض!" قالت ملاحظة على الفور. "لتجلس إذًا.. أنا أيضًا لست على ما يرام".

"ها أنا أقوم بجولة قصيرة". قلت لها لأسيطر على انفعالاتي.

"الوقت متأخر جدًّا للقيام بجولة صغيرة، خصوصًا لو كنت ذاهبًا إلى ميدان كليشي.. الشارع بارد تعصف به الرياح في هذا الوقت!"

ساعتها نهضت وراحت تتعثر هنا وهناك لتعد لنا مشروبًا كحوليًّا ساخنًا (جروج Grog)، وعلى الفور أخذت في الحديث عن كل شيء في الوقت نفسه وعن آل هنرووي وعن بيبير بالطبع.

لمنعها من الحديث عن بيبير، ليس هناك ما يمكن القيام به، مع أنه كان يحزنها ويؤلمها وأنها كانت تعرف ذلك أيضًا. رحت أستمع إليها دون أن أقاطعها بعد ذلك مطلقًا، كنت كالمخدَّر. أخذت تحاول أن تحملني على تذكر كل الصفات الطيبة التي كان بيبير يحظى بها وراحت تستعرضها متباهية بكثير من العناء، لأنه لم يكن من الواجب إغفال شيء من مزايا بيبير، ثم تبدأ من جديد، ثم عندما يمضي كل شيء على ما يرام وتكون قد روت لي بالفعل كل ظروف تربيته على زجاجة الرضاعة، كانت تعود لتجد لبيبير ميزة صغيرة أخرى كان لا بد على أي حال أن توضع إلى جوار صفاته الطيبة الأخرى، حينذاك كانت تستعيد القصة بكاملها منذ البداية، غير أنها كانت تنسى بعضها رغم ذلك ثم تكون مجبرة آخر الأمر على النهنهة قليلاً، من العجز. أخذت تشرد من الإعياء، وراحت تغفو على وقع نحيبها. لم تعد لديها القدرة بالفعل في تلك العتمة على استعادة ذكرى بيبير العزيز الذي كانت تحبه كثيرًا.كان العدم دائمًا قريبًا منها وفيها شخصيًّا بقدر ما من قبل. قليل من الشراب (الجُروج) والتعب وقُضي الأمر، راحت تغط في نعاسها كطائرة صغيرة بعيدة تحملها السحب. لم يعد لها أحد على الأرض.

بينما كانت منهارة هكذا وسط تلك الروائح رأيت أن أذهب، وفكرت في أني لن أرى خالة بيبير ثانيةً أبدًا بكل تأكيد، دار بذهني أن بيبير قد رحل بالفعل، بلا تكلف وإلى الأبد، وأنها سوف ترحل هي الأخرى، الخالة، لتلحق به بعد وقت ليس بالطويل. أولاً كان قلبها مريضًا، وهرمًا تمامًا.. كان يدفع الدم في شرايينها بقدر ما يستطيع.. كان يجد صعوبة في الارتفاع داخل الأوردة. سوف تمضي أولاً إلى المقبرة الكبيرة المجاورة، حيث يكون الموتى كحشد منتظر. في ذلك المكان كانت تذهب مع بيبير كي يلهو قبل أن يسقط مريضًا، في المقبرة.

ثم سوف ينتهي الأمر تمامًا بعد ذلك. سوف يأتي من يعيد طلاء مسكنها وسوف يمكن القول إننا سوف نلحق ببعضنا جميعًا مثل كرات اللعب

(البلياردو) التي ترتجف على حافة الثقب، التي تتمنّع وتتصنّع قبل السقوط فيه.

إنها ترحل عنيفة وصاخبة هي الأخرى، تلك الكرات، ولا تذهب أبدًا إلى أي مكان، في النهاية. ولا نحن أيضًا، والأرض كلها لا تنفع إلا في هذا، إلا في حملنا على التلاقي جميعًا. حاليًا، لم تكن الخالة بعيدة جدًّا عن هذا الأمر، لم تعد لديها، تقريبًا، أي حيوية. لا يمكن أن نتلاقى ما دمنا على قيد الحياة. هناك كثير جدًّا من الألوان التي تشتت انتباهك وتلهيك، وكثير جدًّا من الناس الذين يتحركون من حولك. إننا لا نتلاقى إلا في الصمت، بعد فوات الأوان، مثل الموتى. أنا أيضًا لا أريد أن أتحرك ثانيةً وأن أذهب من هنا إلى مكان آخر. عبثًا حاولت، عبثًا ما عرفت.. ما كنت لأستطيع البقاء معها في هذا المكان.

شهادتي تبدو بارزة في جيبي، بأكثر مما تفعل نقودي وبطاقة هويتي. أمام مخفر الشرطة، كان فرد الحراسة ينتظر تبديل منتصف الليل ويبصق أيضًا بقدر ما يستطيع. تبادلنا تحية المساء.

بعد الشيء الذي تتوارى أنواره الموجود على ناصية الشارع، الخاص بالبنزين، يوجد مكتب تحصيل الرسوم وموظفوه ممتقعو اللون في أقفاصهم الزجاجية. لم تعد مركبات الترام تسير. كان ذلك هو الوقت المناسب للحديث إليهم عن الوجود، موظفي التحصيل، عن العيش الذي يزداد صعوبةً باستمرار، يزداد غلاءً. كان هناك اثنان، شاب وعجوز، تملأ القشور شعريهما، منكبين على كشوف ضخمة هكذا. نلمح عبر الزجاج أحواض السفن الكبيرة في ظل التحصينات التي ترتفع عالية في الليل لترقب السفن عن بُعد كبير، سفن وقور للغاية، لدرجة أننا لن نرى أبدًا سفنًا مثلها. هذا مؤكد. إننا كنا ننتظرها.

ثرثرنا إذًا معًا لبرهة ليست بالقصيرة، مع موظفي التحصيل، بل إننا تناولنا أيضًا قدحًا من القهوة التي كانت موضوعة لتسخن فوق الموقد الصغير. سألاني، من باب المزاح، إذا ما كنت ذاهبًا مثلاً في إجازة، هكذا، في الليل،

و"صُرتي" الصغيرة في يدي. أجبتهما: "هذا صحيح". من غير المجدي أن تشرح لهما، موظفي التحصيل، أمورًا غير معتادة. لم يكن بوسعهما مساعدتي على الفهم. مغتاظًا من ملاحظتهما استبدت بي الرغبة، رغم كل ذلك، في أن أكون مشوقًا، في أن أُدهِشهما على أي حال، فشرعت في الحديث واقفًا وبسرعة، هكذا، عن حملة عام 1918، تلك التي جاءت بالقوازق تحديدًا إلى المكان نفسه الذي كنا فيه، إلى منطقة لاباريير La Barriere، في أعقاب نابليون العظيم.

بطبيعة الحال، كنت قد استدعيت تلك الواقعة بشيء من الصلافة أقنعت هذين الحقيرين عبر بضع كلمات بتفوقي الثقافي، وبتبحري العلمي التلقائي الواسع، ها أنا أنطلق ثانيةً وقد استعدت هدوئي باتجاه ساحة كليشي، عبر الشارع الواسع الصاعد إليه.

سوف تلاحظون أن هناك دائمًا اثنتين من بائعات الهوى تنتظران عند ناصية شارع دي دام (السيدات) Des Dams. إنهما تتوليان هذه الساعات القليلة الناضبة الفاصلة بين قلب الليل والفجر الجديد. بفضلهما تتواصل الحياة عبر الظلال. إنهما تقومان بتحقيق التواصل بحقيبتَي أيديهما المكتظة بأوراق الوصفات الطبية، بمناديل تُستخدم في أغراض شتى وصور الأطفال في الريف. عندما يقترب المرء منهما في العتمة، عليه أن يحترس، لأن هاتين السيدتين لا تنتميان إلى عالم الواقع إلا بالكاد، لفرط ما كانتا متخصصتين، لم يتبق لهما من الحياة إلا ما يلزم فقط للرد على العبارتين أو الثلاث التي تلخص كل ما يمكن عمله معهما. إنهما أرواح حشرات محشورة في أحذية نصفية مزررة.

لا يجب أن تقول شيئًا، بالكاد الاقتراب منهما. إنهما سيئتا الطبع. كانت بيني وبينهما مسافة. أخذت في الركض وسط قضبان الترام. كان الشارع طويلاً.

في نهاية الشارع هناك تمثال الماريشال مونسي Moncey(45) الذي يحمي ساحة كليشي منذ عام 1816 دائمًا من الذكريات ومن النسيان، من اللاشيء على الإطلاق، بتاج من اللآلئ غير الثمينة. وصلت بالقرب منه ركضًا أنا الآخر بتأخير مقداره 112 عامًا عبر جادة خالية تمامًا. لم يعد هناك روس، لا معارك، لا قوازق، لا جنود، لم يعد هناك شيء في الساحة سوى حافة قاعدة تمثال لا بد أن يؤخذ من تحت التاج. فضلاً عن نار مجمرة صغيرة وثلاثة من المرتجفين حولها الذين احولّت نظراتهم في الدخان خبيث الرائحة. لم أكن في غاية الارتياح.

(45) تمثال الماريشال مونسي، النصب التذكاري للماريشال مونسي، أقيم عام 1869، في وسط ميدان كليشي، مجموعة برونزية قائمة فوق قاعدة. يمثل هذا الصرح الدفاع عن باريس بقيادة مونسي ضد القوازق عام 1814. (المترجم)

ينطلق بعض الحافلات مسرعًا بقدر ما يستطيع نحو مخارج المدينة.

في الحالات الطارئة يتذكر المرء الشوارع الكبيرة كأماكن أقل برودة من الأخرى. لم يعد عقلي يعمل إلا بقوة الإرادة بسبب الحمى. مأخوذًا بمشروب الخالة الكحولي الساخن -(الجُرُوج) - اندفعت في الشارع هابطًا أمام الرياح التي تكون أقل برودةً عندما نستقبلها بظهورنا. بالقرب من محطة مترو سان - جورج Sanit-George كانت هناك امرأة عجوز تضع قلنسوة تبكي مصير ابنتها الصغيرة المريضة بالمستشفى، مريضة بالالتهاب السحائي كما تقول. استغلت ذلك لتجمع بعض الصدقات. لم يواتها الحظ.

لم أعطها سوى بعض الكلمات. حدثتها أنا أيضًا عن الفتى بيبير وعن فتاة صغيرة أخرى كنت أعالجها في المدينة وماتت في أثناء دراستي، بالالتهاب السحائي، هي الأخرى. دام احتضارها ثلاثة أسابيع، فضلاً عن ذلك لم يعد من الممكن حتى إيقافها بعد أن انتهى كل شيء.

يؤكد هذا أن المرء لا يمكن أن يعيش دون متعة حتى ثانية واحدة، وأنه من الصعب جدًّا أن تشعر فعلاً بالحزن. هكذا هي الحياة.

افترقنا، أنا والعجوز الحزينة أمام محلات جاليري لافيت. كان عليها أن تنزل حمولات الجزر صوب سوق الخضر (ليه هال - Les Halles). راحت تتبع طريق عربات الخُضر، مثلي، الطريق نفسه.

غير أن ملهى "التارابو Le tarapout" اجتذبني. كان منتصبًا في الشارع كقرص حلوى كبير من النور، والناس تأتي إليه من كل مكان مسرعة كالديدان. مسبقًا يخرج الناس من الظلام المحيط محملقي الأعين تمامًا، كي يأتوا ليملؤوها بالصور. إنها لا تتوقف، النشوة. إنهم الناس أنفسهم كما هم في مترو الصباح. لكن هنا أمام التارابو يكونون سعداء، مثل نيويورك يحكون جلود بطونهم أمام الخزينة، يُخرجون قليلاً من المال ثم ها هم يندفعون على الفور، مصممين تمامًا، في ثقوب الضوء وقد ملأتهم البهجة. كأن النور قد عرّانا، لشدة ما كان يغمر الناس، الحركات، الأشياء، كثيرًا من أكاليل الزهر والمصابيح أيضًا. لم يكن من الممكن التحدث عن موضوع شخصي في هذا المدخل، الذي بدا كأنه نقيض الليل تمامًا.

توجهت ساعتها إلى مقهى صغير مجاور.

مشدوه جدًّا أنا الآخر، نظرت إلى المائدة المجاورة لي، وها هو بارابين Parapine، أستاذي القديم، بقشور شعره وكل ما فيه، يتناول قدحًا من "البيرة". تلاقينا ثانيةً. كنا سعيدين. طرأت على حياته تغييرات كبيرة، كما أخبرني، احتاج إلى عشر دقائق ليرويها لي. لم يكن الأمر طريفًا. في المعهد، كان البروفيسور جونيسيه Jaunisset قد صار شريرًا للغاية تجاهه، كان يضطهده بشدة لدرجة أنه كان لا بد لبارابين أن يغادر المكان، أن يستقيل ويترك معمله فضلاً عن أن أمهات فتيات المدرسة الثانوية الصغيرات يحضرن

بدورهن لانتظاره أمام باب المعهد والاعتداء عليه. مشكلات. تحقيقات. مضايقات.

في اللحظة الأخيرة، عن طريق إعلان ملتبس في إحدى الدوريات الطبية، كان قد تمكن بالكاد من التعلق ثانيةً بمصدر صغير آخر لتوفير أسباب العيش. وظيفة بلا أهمية، بالطبع، لكنها مع ذلك شيء غير مرهق وفي صميم اختصاصه. كان الأمر يتعلق بالتطبيق البارع المراوغ لبعض نظريات البروفيسور باريتون Baryton الحديثة حول تطوير مهارات وتفتح الحمقى الصغار بواسطة السينما. خطوة رائعة للأمام في اللا شعور. في المدينة، لم يكن الحديث يجري إلا عن هذا. كان الأمر عصريًّا.

كان بارابين يرافق هؤلاء العملاء غير العاديين إلى ملهى التارابو الحديث. كان يمر ليأخذهم من مصحة باريتون الحديثة بالضاحية ثم يرافقهم ثانيةً بعد العرض مترعين بالخيالات والرؤى، سعداء، سالمين وأكثر عصرية أيضًا. هذا كل ما في الأمر. بمجرد جلوسهم أمام شاشة العرض لا تعود هناك حاجة إلى الانشغال بهم. جمهور مثالي. الكل سعداء. الفيلم نفسه الذي يُعرض عشر مرات متتالية كان يسحرهم. ليست لديهم ذاكرة. كانوا يستمتعون بالمفاجأة على الدوام. كانت أسرهم راضية، قريرة العين. بارابين هو الآخر. أنا أيضًا. رحنا نضحك من فرط الارتياح ومن شُرب أقداح وأقداح من "البيرة" احتفالاً بعملية إعادة تكوين بارابين ماديًّا على المستوى العصري. لن نغادر المقهى إلا في الثانية صباحًا بعد العرض الأخير في "التارابو"، كان ذلك مقررًا، لإحضار صغاره البلهاء وتجميعهم وإعادتهم بسرعة بالسيارة إلى مصحة الدكتور باريتون في ضاحية فيني-سور - سين Vigny-Sur-Seine. ورطة.

بما أننا كنا سعيدين، أنا وهو، بالتلاقي من جديد فقد رحنا نتحدث لا لشيء إلا متعة أن يروي كل منا للآخر بعض الطرائف والخيالات، أولاً حول الأسفار التي قام بها كلٌّ منا، وأخيرًا حول نابليون، هكذا، الذي جاء ذكره في مجرى الحديث بمناسبة الجنرال مونسي وتمثاله في ميدان كليشي. يصبح كل شيء مصدرًا

للمتعة بمجرد أن يكون هدفنا مجرد أن نكون على وفاق معًا، لأننا نظن آنذاك أننا قد تحررنا أخيرًا. ينسى المرء حياته، أي الأشياء التي تتعلق بالنقود.

من موضوع إلى آخر، وجدنا حتى عن نابليون أمورًا مضحكة حكاها أحدنا للآخر. بارابين، كان يعرف جيدًا تاريخ نابليون. أخبرني أن ذلك كان يستهويه في ما مضى، في بولندا بولونيا Pologne، عندما كان لا يزال طالبًا بالمدرسة الثانوية. كان مهذبًا، بارابين، ليس مثلي.

هكذا روى لي، بهذا الشأن، أن جنرالات نابليون، في أثناء الانسحاب من روسيا، قد لاقوا عنتًا شديدًا لمنعه من الذهاب إلى فارصوفي Varsovie للانفراد مرة أخيرة عظمى بحبيبة قلبه البولندية. هكذا كان نابليون، حتى وسط أقسى الهزائم والنكبات، غير جاد إجمالاً. حتى هو، نسر جوزفين! تحركه الشهوة، إنه أوان أن نقول ذلك رغم كل شيء. عبثًا نحاول على أي حال ها هنا نميل إلى الاستماع والمزاح وهو طبع لدينا جميعًا. هذا أكثر ما يحزن في الأمر. لا يفكر المرء إلا في ذلك! في المهد، في المقهى، فوق العرش، في المرحاض.. في كل مكان! في أي مكان! عندما تكون رجلاً! نابليون أم لا! زوجًا مخدوعًا أم لا! المتعة أولاً! ليهلك الأربعمئة ألف جندي الغارقون في الأوهام وفي مياه نهر بريزنيا حتى ريش قبعاتهم! هكذا هي الحياة! هكذا ينتهي كل شيء! استهتار! مل الطاغية من المسرحية التي يقوم بها قبل الجمهور بكثير. يمضي لممارسة الحب عندما لا يعود بمقدوره أن يمنح النشوة والأوهام للجمهور. آنذاك يكون أمره قد انتهى! يتخلى عنه القدر في غمضة عين! لم يكن لوم المتحمسين بسبب أنه قادهم إلى المذبحة إلا.. هذا لا يهم! من المؤكد أنهم سوف يغفرون له! لكنهم يلومونه لأنه أصبح فجأة مملاً، الأمر الذي لا يغتفر. لا تحتمل الجدية إلا في الخداع. لا تتوقف الأوبئة إلا في الوقت الذي تعاف فيه الميكروبات سمومها. روبسبيير Robespierre أُعدم بالمقصلة لأنه كان يردد دائمًا الشيء نفسه، لم يصمد نابليون، في ما يخصه، لأكثر من عامين من تضخم جوقة الشرف. كان ذلك مصدر عذابه،

ذلك الأهوج، أن يكون مضطرًا إلى أن يمنح نصف أوروبا الراسخة المستقرة الرغبة في المغامرة. مهمة مستحيلة. هلك بسببها.

في حين كان من الممكن ابتياعها، السينما، أجيرة أحلامنا الصغيرة هذه، الحصول عليها لمدة ساعة أو ساعتين، كبائعة الهوى.

فضلاً عن ذلك، هناك الفنانون الإضافيون، الذين وضعناهم، في أيامنا هذه، في كل مكان من باب الاحتياط لشدة ما نشعر بالملل، حتى داخل البيوت التي وُضع فيها بعض الفنانين بارتعاشاتهم المتدفقة في كل مكان وإخلاصهم المتقطر عبر الطوابق فترتج منه الأبواب. الأمر لمن سيرتعش أكثر وبأكبر قدر من الصفاقة والنعومة، ويستسلم بشدة أكثر من الرفيق. المراحيض تُزيَّن اليوم مثلها مثل السخانات وجبل الرحمة أيضًا، كل هذا من أجل الترفيه عنكم، تسليتكم، دفعكم إلى الخلاص من أقداركم.

الحياة فقط، لمجرد الحياة، أي سجن مظلم هذا! الحياة فصل دراسي ناظره هو الضجر، إنه هنا طوال الوقت ليترصدكم على كل حال. يجب أن يبدو المرء مشغولاً، مهما تكلف الأمر، بشيء مثير للاهتمام وإلا وصل إليك والتهم رأسك. الحياة، التي ليست سوى أربع وعشرين ساعة من الليل والنهار، لا تطاق. اليوم الذي لا يجب أن يكون سوى متعة ممتدة غير محتملة تقريبًا، طوعًا أو كرهًا، يجب أن يكون يومنا مضاجعة طويلة مملة.

هكذا تصلك أفكار كريهة بينما تصيبك الحاجة بالذهول، عندما تنسحق في كل ثانية من عمرك رغبةً في ألف شيء آخر ومن جهة أخرى.

كان روبنسون صبيًّا مشغول البال بالمطلق (الله) أيضًا، على طريقته، قبل أن يجري له ما جرى، لكنه الآن قد تلقى جزاءه. على الأقل كما أعتقد.

انتهزت فرصة وجودنا في المقهى، هادئين، لأقص أنا الآخر على بارابين كل ما وقع لي منذ افتراقنا. كان يدرك الأمور، بارابين، حتى أموري الخاصة،

واعترفت له بأني دمرت لتوي حياتي المهنية الطبية بمغادرتي رانسي بطريقة غريبة.

هكذا يجب أن نقول. ثم لم يكن هناك ما يدعو إلى المزاح. أما بالنسبة إلى العودة إلى رانسي، فلا يجب أن أفكر في الأمر، نظرًا إلى الظروف. وافقني على ذلك بارابين ذاته.

بينما كنا نتبادل الحديث سعيدين تمامًا على هذا النحو، أو باختصار نتبادل الاعترافات، إذا بموعد استراحة التارابو يحين ويصل موسيقيو السينما كلهم معًا إلى المقهى فجأة. تناول الجميع كأسًا من الشراب على الفور. بارابين، كان الموسيقيون يعرفونه جيدًا.

من موضوع إلى آخر، عرفت منهم أنهم يبحثون عن مؤدٍّ لدور أحد الباشاوات لفترة التمثيل الصامت في فترة توقف العرض. دور صامت. كان من يؤدي دور "الباشا" قد رحل، دون أن يقول شيئًا. دور لطيف جيد الأجر رغم أنه في مشهد قصير.. لا يتطلب جهودًا.. من جهة أخرى، لا تنسوا ذلك، سأكون محاطًا، على نحو مثير، بسرب رائع من الراقصات الإنجليزيات، بآلاف العضلات المتحركة الهائجة والمنضبطة.. كان موافقًا تمامًا لذوقي واحتياجاتي.

أظهرت الود واللياقة وانتظرت عروضًا من (الريجيسير) -المدير التنفيذي للمسرح - قدمت نفسي باختصار. وبما أن الساعة كانت متأخرة جدًّا ولم يكن لديهم الوقت للذهاب إلى بوابة سان - مارتان بحثًا عن ممثل صامت آخر، فقد قنع (الريجيسير) بوجودي تحت يديه. جنّبه ذلك القيام بمشاوير البحث. وأنا أيضًا. أخضعني بالكاد لاختبار بسيط، وبناءً عليه اعتمدني على الفور. اصطحبوني معهم.. شريطة ألا أكون أعرج لم يطلبوا مني أكثر من ذلك، بالتحديد.

نفذت إلى تلك الطوابق تحت الأرضية الأنيقة الدافئة مبطنة الجدران لسينما التاربوا tarapout. خلية حقيقية من المقصورات المُعطرة تروِّح فيها الإنجليزيات، في انتظار العرض، عن أنفسهن وهن يتبادلن السباب، وفي جماعات متداخلة. متدفقًا بالحيوية لعثوري مرة أخرى على مصدر للعيش، أسرعت على الفور بالتواصل مع هاتيك الزميلات والشابات والمنطلقات. من جهة أخرى رحبت الفتيات بانضمامي إلى جماعتهن بألطف ما يمكن. ملائكة. ملائكة متبسطة. من المديح أيضًا ألا يكون المرء مجبرًا على الاعتراف بذنوبه، ولا محتقرًا، هذه هي إنجلترا.

إيرادات ضخمة يحققها التاربو. حتى في الكواليس كان كل شيء فاخرًا، مرفهًا، رغدًا، الأفخاذ، الأضواء، الصابون، السندويتشات. كان موضوع العرض المسرحي الخفيف الذي نظهر فيه ينتمي على ما أعتقد إلى تركستان. كان ذريعة لرقصات عبثية ولهز الأرداف على وقع الموسيقى ودقات الطبول الصاخبة.

كان دوري موجزًا لكنه أساسي. منتفخًا بالذهب والفضة، عانيت أولاً بعض الصعوبة في الجلوس مستقرًا وسط هذا الكم من الدعامات وحوامل المصابيح غير المستقرة، غير أني تعودت الأمر.. عندما توصلت إلى ذلك، لم يعد عليَّ سوى أن أستسلم للاستغراق في أحلامي تحت الأضواء الكاشفة (المناوير) اللبنية البراقة.

طوال أكثر من ربع ساعة تتخبط عشرون راقصة مسرح لندنية في الألحان والباخوسيات العنيفة النزقة لإقناعي -بحسب زعمهن - بحقيقة مفاتنهن. لم أكن أحتاج إلى كل هذا، وجال بخاطري أن تكرار هذا الأداء خمس مرات يوميًّا كان أكثر مما تحتمل النساء، ودون أن يضعفن أيضًا، من مرة إلى أخرى، إطلاقًا، يدرن بأردافهن بلا هوادة بحزم هذا الجنس المضجر بعض الشيء، بهذه الاستمرارية العنيدة للسفن المسافرة، مقدمات السفن في عنائها الذي لا ينتهي بامتداد المحيطات.

الفصل 36

المقطع الثالث والثلاثون

لا داعي للتخبط والمقاومة، فالانتظار يكفي، بما أنه لا بد للكل من أن ينتهي بالموت في الشارع. الواقع أنه وحده ما يُهم. إنه ينتظرنا. سيكون علينا أن ننزل إلى الشارع، أن نحزم أمرنا، ليس واحدًا، ولا اثنين، ولا ثلاثة من بيننا، ولكن كلنا، نحن هنا أمامه نتمنع ونتصنع، لكن المحتوم سوف يقع.

في البيوت، لا يصلح شيء. بمجرد أن يغلق باب على رجل ما، يبدأ في التفسخ على الفور وكل ما يحمله يتفسخ هو الآخر وتنبعث منه الرائحة. يصيبه الهرم في مكانه، جسدًا وروحًا. إنه يفسد، يتعفن. لو كان البشر يفوحون بالروائح الخبيثة، فلأننا نستحق ذلك. لا بد من الاهتمام بهم! إخراجهم، طردهم، كشفهم. كل الأشياء المنتنة موجودة في الغرفة، تحاول أن تتجمل ومع ذلك فهي تبعث بالروائح الكريهة.

بمناسبة الحديث عن العائلات، كنت أعرف صيدلانيًّا بجادة سانت - وان Saint-Ouen، كان لديه ملصق طريف وسط معروضاته، إعلان لطيف: ثلاثة فرنكات العلبة لتطهير العائلة كلها! صفقة رابحة! نتجشأ! نتغوط معًا، بين الأهل. نتبادل الكراهية بأقصى ما نستطيع، هذا هو البيت الحقيقي، لكن أحدًا لا يعلن ذلك، لأنه على أي حال أقل كلفة من الذهاب للإقامة في فندق.

الفندق، لنتحدث عنه، إنه أكثر إثارةً للقلق، ليس متكلفًا مُدعيًا مثل الشقة الخاصة، يكون المرء فيه أقل إحساسًا بالمسؤولية، بالذنب. لا يشعر جنس البشر بالطمأنينة مطلقًا، وللنزول إلى يوم الحشر الذي سوف يجري في

الشارع، وبكل تأكيد يكون المرء أقرب في الفندق. بإمكانها أن تأتي، الملائكة، النافخة في الأبواق، سنكون أول الواصلين، نحن نزلاء الفنادق.

يحاول المرء ألا يلفت إليه النظر بأكثر مما يجب في الفندق. الأمر لا يستحق ذلك. الآن بمجرد أن يتبادل المرء الشتائم بصوت أعلى قليلاً أو يكرر ذلك كثيرًا، تسوء الأمور، وينكشف أمره. في النهاية يجرؤ المرء بالكاد على التبول في مغسلة الأيدي بالحجرة، لأن كل شيء يُسمع بوضوح من حجرة إلى أخرى. حتمًا ينتهي بنا الأمر إلى اكتساب العادات الحميدة، مثل ضباط البحرية العسكرية. من لحظة إلى أخرى، يمكن لكل شيء أن يأخذ في الارتجاج من الأرض إلى السماء، نحن مستعدون، إننا لا نعير الأمر أي اهتمام نحن الآخرون ما دمنا نغفر لبعضنا بالفعل عشر مرات يوميًّا لمجرد أننا نتلاقى معًا في أروقة الفندق.

في المرحاض، عليكم تعوُّد التعرف إلى رائحة كل واحد من جيرانكم في الطابق نفسه، أمر سهل. في غرفة مفروشة، من الصعب أن يخدع المرء نفسه. ليس للنزلاء ما يتباهون به. إنهم يرتحلون عبر الحياة بهدوء من يوم إلى آخر دون أن يلفتوا إليهم الأنظار في الفندق، كما لو كانوا في سفينة متهالكة بعض الشيء ثم امتلأت ثقوبًا وهم يدركون ذلك.

الفندق الذي قصدته لأقيم فيه كان يجتذب على نحو خاص طلبة الأرياف. كانت رائحة أعقاب السجائر (القديمة) ووجبات الفطور تُشتَم فيه بدءًا من أولى درجات السلم. في الليل، كنا نهتدي إليه من بعيد بسبب نور المصباح الغائم المعلق فوق بابه والحروف الذهبية المهشمة المتدلية منه تحت الشرفة كأنها طقم أسنان قديم هائل الحجم. مكان خرافي للسكن ترهقه الحيل والألاعيب الحقيرة.

من غرف إلى غرف عبر الرواق كنا نتبادل الزيارات. بعد سنوات من محاولاتي البائسة في الحياة العملية، أو المغامرات كما يقال، كنت قد عدت

إليهم ثانيةً، الطلاب.

كانت رغباتهم هي نفسها لم تتغير، قوية وزنخة، ليست أقل أو أكثر تفاهة من ذي قبل، أيام فارقتهم. تغير الأشخاص لكن الأفكار لم تتغير. هؤلاء وهؤلاء ما زالوا يمضون، كما كانت الحال دائمًا، ليمضغوا على نحو أو آخر كتب الطب، شذرات من الكيمياء، كبسولات من القانون وبعض علوم الأحياء الحيوانية كاملة، في أوقات منتظمة تقريبًا، في الجهة الأخرى من الحي. لم تحرك الحرب عند مرورها عليهم مرور الكرام أي شيء فيهم على الإطلاق، وعندما شاركناهم أحلامهم، من باب المشاركة الوجدانية، ساقونا مباشرةً إلى جيلهم الأربعيني. هكذا منحوا أنفسهم عشرين عامًا أمامهم، مئتين وأربعين شهرًا من التدبير والتوفير الدائم الشديد ليصنعوا لأنفسهم سعادة ما، نجاحًا ما.

كانت رؤية تقليدية ساذجة صارخة الألوان تلك التي تمثل لهم السعادة وكذلك النجاح في الوقت نفسه، لكنها تدريجية ودقيقة. إنه يرون أنفسهم في المربع الأخير، محاطين بأسرة قليلة العدد لكنها بلا نظير ومتكلفة إلى حد الجنون. ومع ذلك فربما لم ينظروا مطلقًا، إن جاز القول، إليها، أسرهم. لا داعي لذلك. إنها تصلح لكل شيء في ما عدا النظر إليها، الأسرة. إنها قبل كل شيء قوة الأب، سعادته، في معانقة أسرته دون أن ينظر إليها مطلقًا، شاعريته.

في ما يتعلق بالممارسات الجديدة، ربما ذهبوا إلى مدينة نيس بالسيارة مع الزوجة التي مهَّرها أهلها، ولربما اعتمدوا استخدام الشيكات في التحويلات البنكية. في ما يتعلق بالجوانب المشينة للنفس البشرية، ربما اصطحبوا الزوجة بلا شك أيضًا ذات مساء إلى الماخور bobinard. ليس أكثر. بقية العالم تظل حبيسة في الجرائد اليومية وفي حراسة الشرطة.

الإقامة في الفندق العذري تجعلهم يشعرون الآن بشيء من الخجل ومن السهل إثارتهم، زملائى في الفندق. الفتى البرجوازي، الطالب، يشعر في الفندق أنه في فترة عقاب، ما دام من المفهوم أنه لا يزال غير قادر على

تحقيق بعض المدخرات فإنه يدعي البوهيمية ليفقد وعيه ومزيدًا من البوهيمية، هذا اليأس المتمثل في القهوة بالحليب.

قرب أوائل الشهر كنا نمر بأزمة جنسية قصيرة وحقيقية، يرتج منها الفندق بكامله. يأخذ النزلاء في غسل أقدامهم. يجري الاستعداد لجولة غرامية. وصول الحوالات المالية من الريف كان يحفزنا ويدفعنا إلى ذلك. ربما ما كان بمقدوري أن أنال المضاجعات نفسها من جهتي في التاربو مع صديقات الرقص الإنجليزيات وبالمجان أيضًا، لكن عند التفكير في ذلك بإمعان كنت أعزف عن هذه الإمكانية السهلة بسبب المشكلات وأصدقائي من القوادين الغيورين البائسين المتسكعين دومًا في الكواليس خلف الراقصات.

لأننا كنا نقرأ عددًا من الجرائد الفاحشة في فندقنا، عرفنا منها حيلاً وطرقًا وبعض العناوين لممارسة الجنس في باريس! يجب الاعتراف بأنها كانت مسلية، مبهجة تلك العناوين. انقدنا، حتى أنا الذي عرف زقاق بريزنيا Bérésinas وقام ببعض الرحلات، والذي صادف كثيرًا من التعقيدات والمضاعفات في مسائل تتعلق بالجنس، لم يبدُ لي مطلقًا أن الجانب السري الجماعي قد خبا تمامًا. في ما يتعلق بالمؤخرة، يتبقى دومًا فينا قدر ضئيل من الفضول الاحتياطي. يدعي المرء أن الجنس لن يعلمكم شيئًا بعد الآن، أنه لم تعد لديه دقيقة واحدة ليضيعها في شأنه، ومع ذلك يبدأ من جديد مرة أخرى لمجرد أن يقف على حقيقة الأمر وأن القلب صار خليًّا بالفعل، ويتعلم مع كل هذا شيئًا جديدًا بشأنه ويكون هذا كافيًا لإعادتكم إلى حالة التفاؤل.

يتمالك المرء نفسه، يفكر بجلاء أكثر من ذي قبل، يعاوده الأمل حينذاك في ما لم يعد يأمل فيه مطلقًا، ويعود حتمًا إليه، إلى الجنس، مقابل الثمن نفسه. باختصار لكل الأعمار هناك ثمة ما يُكتشَف في مهبل ما. ذات بعد ظهر، أنا أروي لكم ما جرى، خرجنا، ثلاثة من النزلاء، من الفندق، سعيًا وراء مغامرة عاطفية في متناول اليد. كان الأمر سريعًا بفضل علاقات بومون Pomone الذي كان يدير مكتبًا لكل ما يمكن أن يرغب فيه الشخص في مسائل

التسويات والاتفاقيات الغرامية، في حي الباتينول Batignolles حيث يقطن. كان دفتر بومون يزخر بإغراءات من كل الأسعار، كان مبعوث العناية الآلهية هذا يعمل، دون أي بذخ كان، في أعماق فناء صغير في منزل ضيق سيئ الإضاءة لدرجة أن المرء كان يحتاج، كي يجد طريقه فيه، إلى القدر نفسه من الحساسية والتقدير الذي يحتاجه في مبولة عامة غير معروفة له. العديد من الستائر المسدلة التي يجب إزاحتها تثير فيك القلق قبل الوصول إلى هذا القواد، الجالس دومًا في عتمة مصطنعة تناسب الاعترافات.

بسبب تلك العتمة، لم أتفحصه مطلقًا، كما أريد، حقًّا، بومون هذا، ورغم أننا تبادلنا الحديث طويلاً معًا، بل وتعاونّا معًا خلال وقت ما وأنه قدم لي صنوفًا من العروض والإغراءات وباح لي بأسرار أخرى خطيرة من كل الأنواع، فسوف أكون عاجزًا عن التعرف إليه اليوم إن التقيته في الجحيم.

أتذكر فقط أن الهواة المنسلين خفيةً الذين ينتظرون دورهم في المقابلة في صالونه كانوا يتصرفون على نحو لائق جدًّا، لا تباسط بينهم، علينا أن نقول ذلك، بل هناك تحفظ، كما لو كنا في عيادة طبيب أسنان لم يكن يحب الضجة مطلقًا، ولا الضوء أيضًا.

كنت قد تعرفت إلى بومون بفضل أحد طلاب الطب. كان الطالب يتردد على مكتبه ليحقق لنفسه دخلاً عارضًا صغيرًا، بفضل "شيئه"، كان ذلك المحظوظ مخصوصًا بقضيب هائل. كان يستدعي الطالب ليحيي بهذه الآلة المشهورة سهرات لطيفة حميمية جدًّا في الضواحي. على نحو خاص، كانت النساء، هاتيك اللاتي كن لا يعتقدن أن من الممكن أن يمتلك رجل ما "واحدًا كبيرًا كهذا"، يحتفين به كثيرًا. هذيان وخيالات فتيات صغيرات تجاوزهن الأمر. في سجلات الشرطة كان طالبنا يظهر تحت اسم شهرة رهيب: بالتازار Balthazar.

بصعوبة تقوم المحادثات بين الزبائن المنتظرين. الألم يمتد وينتشر، بينما تستحي المتعة والحاجة.

شئنا أم أبينا، من الخطايا أن يكون المرء زانيًا وفقيرًا في الوقت نفسه. عندما أحيط بومون علمًا بحالي وماضيَّ الطبي، لم يعد يستطيع أن يمنع نفسه من البوح بعذابه المضني. رذيلة ما كانت تستنزف قواه.. تعوّدها من خلال ملامسة "نفسه" باستمرار تحت منضدته الخاصة في أثناء المحادثات التي يجريها مع عملائه، من الباحثين، من المشغولين بتلك المسافة ما بين الفرج والشرج. "إنها مهنتي، كما تعرف! ليس من السهل أن أمنع نفسي.. مع كل ما يأتون ليرووه لي هؤلاء الأوغاد". باختصار، كان الزبائن يدفعونه إلى الإفراط، مثل هؤلاء الجزارين الممتلئين شحمًا الذين يميلون دومًا إلى الإفراط في تناول اللحوم. فضلاً عن ذلك، فأنا أعتقد بالفعل أن أحشاءه السفلى كانت مستثارة باستمرار بسبب حمى خبيثة تأتيه من الرئتين.

على كل حال، فقد أودى به السل الرئوي بعدها بعدة سنوات. ثرثرة العميلات المدعيات التي لا نهاية لها كانت تستنزفه أيضًا بصورة أخرى، مخادعات على الدوام، مبتكرات لكثير من الأكاذيب والحكايات المتكلفة عن اللا شيء وعن مؤخراتهن التي، بناءً على أقوالهن، لا يمكن العثور على مثيلاتها بتقليب أركان العالم الأربعة.

أما الرجال فلا بد أن يقدم إليهم سيدات راضيات معجبات لإطفاء نزواتهم المشبوبة. إنهم لا ينالون منه أكثر مما يناله الآن زبائن الحب المتبادل، مثل عملاء مدام إيروت Herote. في بريد صباحي واحد يصل إلى وكالة بومون من رسائل الحب غير المُشبع ما يكفي لإطفاء نيران حروب كل هذا العالم. لكن الحقيقة أن كل هذا الطوفان العاطفي لا يتجاوز المؤخرات مطلقًا. تلك هي المصيبة.

كانت طاولته تختفي تحت هذا الركام المختلط المقرف من رسائل الغرام التافهة المتأججة شوقًا. لرغبتي في معرفة المزيد عن الموضوع قررت أن أشارك لبعض الوقت هذه المعجنة البريدية الكبرى. شرعنا في العمل، كما علمني، تبعًا لأنواع العواطف، كما هي الحال في ترتيب ربطات العنق وتصنيف الأمراض، حالات الهوس أولاً في جانب ثم المغرمون بتعذيب أنفسهم (المازوخيون) والفاسقون الفاجرون في جانب آخر، المغرمون بالسياط من هنا، والمحبون لـ"نمط المربية" في مكان آخر وهكذا بالنسبة إلى الكل. لم يطل الوقت حتى انقلبت التسلية إلى مشقة وسخرة. لقد طُردنا من الجنة عن صواب.. يمكننا أن نقول ذلك فعلاً! كان بومون موافقًا على هذا الرأي أيضًا، بومون بيديه الرطبتين وعادته الرذيلة التي لا تنتهي التي كانت تجلب له في الوقت نفسه اللذة والندم. بعد عدة شهور كنت أعرف ما يكفي عن نشاطه وشخصه، فباعدت بين زياراتي.

في التارابو استمر القوم في رؤيتي مناسبًا جدًّا، هادئًا جدًّا، ممثلاً صامتًا دقيقًا ومنضبطًا، لكن بعد عدة أسابيع من الهدوء عاودني سوء الحظ من جهة غريبة وكنت مضطرًا بالفعل، بغتة مرة أخرى، إلى ترك التمثيل الصامت لأواصل طريقي اللعين.

باختصار لم تكن الأوقات التي قضيتها في التارابو، عندما أتأملها عن بُعد، سوى ما يشبه محطة رسو محرمة ومخاتلة. على سبيل المثال كنت دائمًا أرتدي الثياب الأنيقة، أقر بذلك، طوال هذه الأشهر الأربعة، تارة كنت أميرًا، مرتين قائدًا رومانيًّا، طيارًا في يوم آخر، وكنت أتقاضى راتبي بسخاء وانتظام. تناولت في التارابو من الطعام ما يكفي سنوات. حياة أصحاب الإيرادات دون إيرادات. خيانة! كارثة! ذات مساء قلبوا فقرتنا رأسًا على عقب لا أدري لأي سبب. العرض الجديد كان يمثل أرصفة لندن النهرية. على الفور، ساورتني الشكوك، كان على راقصاتنا الإنجليزيات أن يغنين فيه، هكذا، نشازًا وزعمًا على ضفاف نهر التاميز Tamise، ليلاً، أما أنا فكنت ألعب دور رجل الشرطة.

دور صامت تمامًا، أطوف فيه من اليمين إلى اليسار أمام حاجز الرصيف. فجأة، عندما نسيت أمرها، صارت أغنيتهن أكثر قوة من الحياة، بل إنها جعلت المصير ينقلب في الصميم إلى البؤس.

آنذاك وبينما استرسلن في الغناء، لم أعد أستطيع التفكير في أي شيء آخر سوى كل بؤس هذا العالم التعس وفي بؤس عالمي بوجه خاص، الذي أعادته، ليطفو على قلبي كسمك التونة، هاتيك العاهرات، بأغنيتهن. غير أني كنت أعتقد أني قد هضمت، تحملت، نسيت الأقسى والأصعب! لكنها كانت أسوأ من كل الأغنيات، كانت أغنيتهن أغنية مرحة لم تحقق المراد منها. ومع هذه الأغنية، راحت رفيقاتي يتمايلن وهن سادرات في الغناء، في محاولة لإنجاح الأغنية. ساعتها أدركنا جيدًا، يمكننا أن نقول ذلك، كان الأمر كما لو كنا نتمدد على البؤس، على الشدائد.. ما من خطأ! نجول كالبغايا في الضباب وفي الأنين! تقطر الأغنية بالشكوى والنحيب، دقيقة بدقيقة يشيخ المرء والراقصات منها. الديكور أيضًا راح يقطر بالذعر الأكبر. ومع ذلك استمرت الرفيقات في الغناء والتراقص. لم يبدُ عليهن أنهن يدركن كل الأثر السيئ لتلك المصيبة علينا جميعًا التي تسببت فيها أغنيتهن.. رحن يشكين من حياتهن كلها وهن يتقافزن، يتضاحكن، بإيقاع منتظم.. عندما يأتي الأمر من مثل هذا البعد، بهذا التأكيد، لا يمكن للمرء أن يخطئ، ولا أن يقاوم. في كل مكان كنا نشعر بالبؤس، رغم الترف والبذخ الباديين في الصالة، علينا، على الديكور، ورغم ذلك راح يفيض ويغطي الأرض كلها بعصارته. من ناحية الفن، كن بالفعل فنانات.. يتصاعد البؤس وسوء الحظ منهن، دون أن يرغبن في إيقافه أو حتى فهمه. أعينهن فقط كانت تفيض بالحزن، والأعين وحدها لا تكفي. كن يتغنين بعبـث وفوضى الوجود والحياة ولا يفهمن. كن يحسبن أن هذا أيضًا هو الحب، ومن أجل الحب فقط، لم نكن قد علمناهن الباقي هاتيك الصغيرات. على حد قولهن، كن يتغنين بشجن صغير عابر! كما أسمين ذلك! عندما يكون المرء شابًّا وغير مدرك للأمور فإنه يعد كل شيء من أشجان الحب.

أينما ذهبت.. حيثما نظرت

فمن أجلك أنت فقط.. أنت

من أجلك أنت فقط.. أنت.

هكذا كن ينشدن.

إنها عادة الشبان الغريبة بوضع البشرية كلها في مؤخرة ما، واحدة فقط، الحلم المقدس، جنون الحب. سوف يعرفن -ربما فيما بعد - أين ينتهي كل هذا، عندما يذهب عنهن اللون الوردي تمامًا، عندما يتملكهن النحس وسوء الحظ الشديد لبلادهن اللعينة، الراقصات الست عشرة كلهن، بأفخاذهن الثقيلة كأفخاذ الفرس، بنهودهن المتواثبة.. على كل حال، كان البؤس عالقًا بأعناقهن، بأجسادهن، هاتيك الجميلات، ولن يفلتن منه. إنه عالق بالبطون، بالأنفاس، إنه مسلط عليهن من قبل بكل موجات أصواتهن الرفيعة والنشاز أيضًا.

لقد كان البؤس في الداخل.. لا ملابس مسرح، لا زينات براقة، لا أضواء، لا ابتسامات لخداعه، لإيهامه، بشأن ضحاياه، إنه يعثر عليهم حيثما يختبئون، إنه يتسلى فقط بحملهم على التغني في انتظار دورهم، بكل حماقات الأمل. هذا يحركه وينشطه، ثم إنه يدغدغه ويثيره، البؤس.

هكذا كانت عقوبتنا، العظمى، مجرد تسلية.

سحقًا إذًا لمن يتغنى بأغنيات الحب! الحب هو الشقاء ولا شيء غيره أيضًا، الشقاء دائمًا، الذي يأتي ليصب أكاذيبه في أفواهنا، الهراء، هذا كل ما في الأمر. إنه موجود في كل مكان، هذا اللعين، لا يجب إثارته، شقاء المرء، ولا حتى تصنُّع ذلك.. لا تظاهر مع البؤس. ثلاث مرات يوميًّا، كن يعدن القيام بهذا،

مع ذلك، رفيقاتي الإنجليزيات، أمام الديكور وعلى وقع ألحان الأكورديون. حتمًا كان لا بد أن ينتهي الأمر نهاية سيئة جدًّا.

لم أكترث بما يقمن به لكن يمكنني أن أقول إني توقعت وقوعها، الكارثة.

في البداية، سقطت إحدى الفتيات مريضة. الموت للجميلات اللاتي يستثرن المصائب! ليهلكن بسببها وهذا أفضل! بالمناسبة، لا يجب التوقف عند زوايا الشوارع خلف عازفي الأكورديون، فغالبًا ما يصاب المرء هناك بالعدوى، نوبة الصراحة. جاءت فتاة بولندية إذًا لتحل محل المريضة، في فقرتهن. راحت البولندية تسعد هي الأخرى، في أثناء ذلك. كانت فارعة القوام، قوية وشاحبة اللون. على الفور صار بعضنا موضع ثقة بعض. في خلال ساعتين تعرفت إلى كل ما يمس روحها، وفي ما يتعلق بالجسد انتظرت قليلاً. كان هوس هذه البولندية الغريب هو تشويه جهازها العصبي بعلاقات حب عابر مستحيلة. كان من المحتم أن تندمج في أغنية الإنجليزيات بكل سهولة، بحزنها، بأوجاعها وكل ما فيها. كانت أغنيتهن تبدأ بلحن خفيف لا يبدو موحيًا بشيء، مثل كل الألحان المعدة للرقص، ثم ها هو يُميل قلوبنا لفرط ما يُحزننا كما لو كنا سوف نفقد عند سماعه الرغبة في الحياة، إلى هذا الحد كان حقيقيًّا أن الكل لا يؤدي إلى شيء، الشباب وكل شيء، حينذاك ينكب المرء فعلاً على الكلمات وبعد أن تكون الأغنية قد انتهت ومضى لحن كلماتها بعيدًا ليرقد في مرقده الحقيقي، مرقده الخاص، الحقيقي فعلاً، مرقد الحفرة المناسبة لينتهي من الأمر. دورتان من الكلام المكرر نفسه، وينتاب المرء على الفور ما يشبه شوقه إلى بلاد الموت الهانئة هذه، في البلاد العذبة دومًا وسريعة النسيان كالضباب. باختصار كانت لهن أصوات من ضباب.

رحنا نستعيد جميعًا بصوت واحد مرثاة العذاب، على هؤلاء الذين ما زالوا هنا، يتسكعون أحياءً، الذين ينتظرون بامتداد أرصفة الأنهار والمرافئ، على كل أرصفة العالم، ينتظرون أن تنتهي الحياة من مرورها، وهم يقومون ببعض الحيل، وهم يبيعون أشياء وبرتقالاً إلى الأشباح الأخرى وأسرارًا ونقودًا زائفة،

بعضهم من رجال الشرطة، فُساق، مكتئبون، يروون حكايات وأشياء غير معروفة، وسط ضباب الصبر هذا الذي لن ينتهي أبدًا.

تانيا، كانت تُسمى زميلة العمل البولندية. كانت حياتها مضطربة حاليًا، عرفت ذلك، بسبب موظف صغير أربعيني يعمل في أحد البنوك كانت قد تعرفت إليه منذ أيام إقامتها في برلين. كانت تود الرجوع إليها، إلى برلينه، وتبادله الحب رغم كل شيء وبأي ثمن. حتى تعود لتلاقيه هناك، كانت ستفعل أي شيء.

راحت تطارد وكلاء المسارح، هؤلاء الواعدين بتعاقدات عمل، في أعماق جحورهم المبتلة بالبول. كانوا يقرصون فخذيها، هؤلاء الأوغاد، في انتظار ردود لا تصل مطلقًا. لكنها لم تكن تكاد تلحظ تحركات أيديهم لشدة ما كان حبها البعيد يمتلك عليها كل جوارحها. وفي ظروف كهذه لا يمر أسبوع واحد دون أن تطرأ فجأة كارثة كبرى. منذ أسابيع وشهور كانت تعبئ القدر بالإغراءات، كأنها تحشو مدفعًا.

أودت الأنفلونزا بحياة عشيقها المدهش الخارق. علمنا بالفاجعة مساء أحد أيام السبت. بمجرد أن تلقت الخبر، سحبتني خلفها، شعساء الشعر، مذعورة، وانقضت على محطة الشمال. لم يكن هذا شيئًا حتى الآن، لكن في نوبة جنونها، كانت تطالب أمام شباك التذاكر، بالوصول إلى برلين في الوقت المناسب لحضور مراسم الدفن. كنا بحاجة إلى اثنين من نظار المحطة لإقناعها بالعدول عن تلك الفكرة، لإفهامها أن أوان ذلك قد فات بالفعل.

في الحالة التي وضعت نفسها فيها لم يكن من الممكن التفكير في التخلي عنها. ومن وجهة أخرى كانت لا تزال تتمسك بمأساتها الفاجعة وتحرص أكثر على إظهار ذلك لي في عز نوبة هذيانها. يا لها من فرصة! قصص الحب التي يقف البؤس دونها، والمسافات البعيدة، تكون مثل علاقات البحارة الغرامية، رائعة وغير قابلة للنقد بلا جدال.

أولاً، عندما لا تتاح فرصة التلاقي كثيرًا، لا يمكن أن يقوم الشجار، هذا في حد ذاته مكسب كبير. وبما أن الحياة ليست سوى هذيان ممتلئ بالأكاذيب إلى حد التورم، فكلما ابتعدنا أكثر أمكن حشوه بأكاذيب جديدة وأصبح المرء سعيدًا راضيًا.. هذا أمر طبيعي ثم إنه مقبول وقانوني. الحقيقة غير صالحة للأكل.

من السهل الآن على سبيل المثال أن تُروَى لنا أمور بشأن المسيح. هل كان يذهب إلى المرحاض أمام كل الناس، السيد المسيح؟ يُخيل إليَّ أن حيلته لم تكن لتدوم طويلاً لو كان قد تغوط أمام الناس. القليل جدًّا من الوجود، هذا هو المهم، خصوصًا في ما يتعلق بالحب.

بعد أن تأكدنا تمامًا أنا وتانيا أنه لم تعد هناك قطارات محتملة إلى برلين، استعضنا عن ذلك بالبرقيات. في مكتب بريد البورصة، كتبنا برقية طويلة جدًّا، لكن واجهتنا صعوبة في إرسالها، لم نعد نعرف البتة إلى من نرسلها.. لم نعد نعرف في برلين شخصًا آخر بخلاف المتوفى. ابتداءً من تلك اللحظة لم يعد لدينا إلا بعض الكلمات علينا أن نتبادلها بشأن الوفاة. أفادتنا تلك الكلمات في الدوران مرتين أو ثلاث مرات أخرى حول مبنى البورصة، وبما أنه كان من الواجب أن نسكّن الألم على أي حال، فقد صعدنا ببطء صوب حي مونمارتر ونحن نتلعثم ونغمغم بالأشجان.

ابتداءً من شارع لوبيك Lopic بدأنا في مقابلة بعض الأشخاص الذين جاؤوا بحثًا عن البهجة في أعلى المدينة. كانوا يسرعون الخطى. لدى وصولهم إلى كنيسة القلب المقدس، يأخذون في النظر إلى أسفل، يتطلعون إلى الليل الذي يصنع تلك الفجوة الهائلة المخيفة بكل البيوت المكدسة في أعماقها.

في الساحة الصغيرة، في المقهى الذي بدا لنا، وفقًا للمظاهر الخارجية، الأقل كلفة، دخلنا نحن الاثنين. بدافع المواساة وتعبيرًا عن الامتنان سمحت لي تانيا بتقبيلها أينما أردت. كانت تحب الشراب أيضًا. على المقاعد من حولنا راح الآن بعض المحتفلين السكارى بعض الشيء في النعاس. أخذت الساعة التي

تعلو الكنيسة الصغيرة تدق ساعات وساعات أخرى إلى ما لا نهاية. كنا قد وصلنا لتونا إلى آخر العالم، تدريجيًّا، كان ذلك يتضح. لم يعد بالمقدور المضي إلى أبعد من ذلك، لأن بعد ذلك لم يكن هناك إلا الموتى.

إنهم يبدؤون عند ميدان "دوترتر" du tertre، المجاور، الموتى. كنا في موضع يمكننا من رصد أماكنهم، كانوا يمرون فوق محلات دوفايل Du fayel(46) بالضبط، بالتالي نحو الشرق.

(46) متاجر دو فايل Les galleries Du fayel، كان قصر دو فايل في العشرينات واحدًا من المتاجر الكبرى بباريس وكان يقع بالدائرة الثامنة عشرة. (المترجم)

لكن مع كل ذلك كان لا بد من معرفة كيفية التعرف إليهم، أي من الداخل، الأعين شبه مغلقة، لأن أدغال أضواء الإعلانات الضخمة تعوق كثيرًا، حتى عبر السحب، اكتشافهم، الموتى. معهم، هؤلاء الموتى، أدركت على الفور أنهم قد أخذوا بيبير، بل إننا تبادلنا إيماءة لطيفة نحن الاثنين مع بيبير ثم أيضًا، غير بعيد عنه، مع الفتاة الشاحبة تمامًا، المجهضة أخيرًا، فتاة رانسي، مفرغة جيدًا هذه المرة من كل أحشائها.

كان هناك أيضًا كثير من مرضاي القدامى هنا وهناك وبعض المريضات اللاتي لم أعد أتذكرهن مطلقًا، ومزيد من الآخرين، الزنجي في سحابة بيضاء، وحيدًا، ذلك الذي ضُرب بالسياط ضربة زائدة، هناك، عرفته أيام توبو topo والأب جرابا إذًا ملازم الغابة العذراء العجوز هذا! كان هذان الاثنان يخطران ببالي من وقت إلى آخر، الملازم العجوز والزنجي الذي تعرض للتعذيب، كما فكرت كذلك في صاحبى الإسباني، ذلك القس، كان قد جاء مع الموتى تلك الليلة من أجل صلوات السماء، وكان صليبه الذهبي يعوقه كثيرًا عن التحليق من سماء إلى أخرى. لقد اشتبك مع صليبه في السحب، أكثرها قذارةً وأكثرها صُفرةً، وتباعًا رحت أتعرف أيضًا إلى كثير من الراحلين، راحلين آخرين،

غيرهم باستمرار.. كانوا كُثرًا لدرجة الشعور بالخجل فعلاً، لأن المرء لم يكن لديه الوقت للتطلع إليهم بينما كانوا يعيشون حياتهم هناك إلى جواره، طوال سنوات.

حقًّا لا يملك المرء مطلقًا ما يكفي من الوقت، إلا للتفكير في نفسه فقط.

على كل حال فإن كل هؤلاء الأوغاد قد صاروا ملائكةً دون أن أنتبه إلى ذلك! الآن هناك كثير من السحب المحمّلة بالملائكة، غريبي الأطوار وغير اللائقين يطوفون فوق المدينة! بحثت بينهم عن مولّي، كان هذا هو الوقت المناسب، صديقتي اللطيفة، صديقتي الوحيدة، لكنها لم تكن قد جاءت معهم.. لا بد أنها تحظى بسماء صغيرة لها وحدها فقط، بالقرب من القدير، لفرط ما كانت دائمًا لطيفة. مولّي.. أسعدني ألا أجدها مع هؤلاء الأوغاد، لأنهم كانوا بالفعل من أراذل الموتى، هؤلاء الذين رأيتهم، ليسوا سوى رعاع، حثالة وزمرة من الأشباح التي جُمِّعت ذلك المساء فوق المدينة، خصوصًا من المقبرة(47) المجاورة التي كانت تأتي منها -وما زالت تأتي منها - أشباح، ليست من النخبة. مع أنها مقبرة صغيرة، بل وحتي بعض قتلى الكوميونة، يقطرون دمًا ويفتحون أفواههم على آخرها كأنهم ما زالوا يصرخون ولم يعد بوسعهم القيام بذلك.. كان أعضاء الكوميونة ينتظرون، مع الآخرين، ينتظرون الكونت لابيروز(48) La pe’rouse، لابيرو الجُزر، الذي كان يقودهم جميعًا للتجمع.. لم يكن ينتهي من التأهب، بسبب ساقه الخشبية المثبتة على نحو موارب، والتي كان يجد دائمًا صعوبة في وضعها أولاً، ثم أيضًا بسبب منظاره الكبير الذي يجب أن يجدوه له.

(47) مقبرة صغيرة، لأعضاء كوميونة باريس وهي نفسها مقبرة "سان بايير دو كالفير Saint Pierre du Calvaire" لم يكن من الممكن أن يدفن بها أي من ضحايا الكوميونة لأنها كانت مغلقة منذ عام 1823. لكنها كانت قد استقبلت، في قبر جماعي، جثامين قرابة ألف جندي فرنسي، روسي وألماني قُتلوا في

1814. "لفظ Communard" هل استُخدم هنا استخدامًا حديثًا للدلالة على سكان هذا القبر الجماعي؟ (المترجم)

(48) لا بيروز La Perouse، لا تضم هذه المقبرة ضريح هذا البحار الذي غرق في المحيط الهادي 1788. (المترجم)

لم يعد يرغب في الخروج وسط الغيوم دون أن يضعه حول عنقه، منظاره الأثير، منظار مغامراته الشهير، لعبة أطفال حقيقية، تلك التي تجعلكم ترون الناس والأشياء عن بُعد من خلال طرفها الصغير أبعد دائمًا، وبالحتم، مرغوبين أكثر تِباعًا، على الرغم من الاقتراب منهم. لم يتمكن بعض القوازق المدفونون بالقرب من ملهى "الطاحونة" Le Moulin من اقتلاع أنفسهم من قبورهم(49). راحوا يجدون في ذلك وكان الأمر مروعًا، لكنهم كانوا قد حاولوا كثيرًا من قبل.. كانوا يسقطون دائمًا من جديد في أعماق القبور، كانوا لا يزالون سكارى منذ عام 1820. لكن زخة مطر مفاجئة جعلتهم، مع كل هذا، ينطلقون هم الآخرون، منتعشين أخيرًا، بعيدًا فوق المدينة. تبعثروا هنا وهناك في طوافهم الليلي وبرقشوا الليل باصطخابهم وحركاتهم النزقة من سحابة إلى أخرى.. الأوبرا تجتذبهم على نحو خاص، على ما يبدو، بلوحة إعلاناتها الضخمة المتلألئة في الوسط.. كانت تنطلق منها أرواح الموتى ليقفزوا إلى الناحية الأخرى من السماء مهتاجين للغاية، وكثيرين جدًّا لدرجة أنهم يغشون أبصاركم. أراد لابيروز وقد تجهز بعتاده أخيرًا أن يرفعوه عموديًّا عند الدقة الأخيرة للساعة الرابعة، أن يساعدوه، أن يلبسوه ثيابه كما يجب. جالسًا، ممتطيًا جواده أخيرًا، ظل مع كل هذا يشير ويومئ ويتخبط. بينما كان يغلق أزرار سترته هزته دقة الساعة الرابعة التي فاجأته. خلف لابيروز، كانت هجمة السماء الكبرى. تدهور شنيع، من أركان الدنيا الأربعة جاءت أشباح دوّارة، كل أرواح الموتى في كل الملاحم.. كانوا يتتابعون، يتحدون بعضهم ويحتشدون قرونًا ضد أخرى. ظل الشمال مثقلاً وقتًا طويلاً بهذا الخليط البشع. انكشف

الأفق مائلاً إلى الزرقة وطلع النهار أخيرًا من ثقب كبير أوجدوه مخترقين الليل كي يمضوا هاربين.

(49) إننا لا ندري إن كان بعض القوازق قد هلكوا بالقرب من ملهى الطاحونة Moulin de la Galette، لكن ما هو مؤكد أن هضبة مونمارت Montmarte، في عام 1814، كانت مسرحًا لمعارك كبرى للاستيلاء على باريس بواسطة الجيوش المتحالفة. (المترجم)

بعد هذا، يصبح من الصعب تمامًا العثور عليهم ثانيةً. لا بد من معرفة كيفية تجاوز الزمن.

تمكن رؤيتهم ناحية إنجلترا عندما يصل المرء إلى هناك، غير أن الضباب في تلك الجهة يكون كثيفًا جدًّا طوال الوقت، مصمتًا للغاية لدرجة أنه يشبه أشرعة حقيقية يصعد بعضها قبالة بعض، من الأرض إلى أعالي السماء وإلى الأبد. مع ذلك يمكن للمرء التوصل إلى رؤيتهم، لكن ليس خلال مدة طويلة على الإطلاق بسبب الريح التي تقرب دائمًا عواصف جديدة وأبخرة من عرض البحر.

المرأة العظيمة الموجودة هناك، التي تحرس الجزيرة، كانت هي الأخيرة. رأسها ما زال أكثر ارتفاعًا من أعلى غيوم الأبخرة. لم يعد يتبقى حيًّا أحد سواها في الجزيرة. شعرها الأحمر يعلو كل شيء، لا يزال يذهِّب السحب قليلاً، إنه كل ما يتبقى من الشمس.

إنها تحاول أن تُعد لنفسها الشاي كما يقال.

يجب بالطبع أن تحاول ما دامت موجودة هناك إلى الأبد. إنها لن تنتهي أبدًا من غليه، شايها هذا، بسبب الضباب الذي أصبح متكاثفًا جدًّا وخارقًا بأكثر مما يُحتمَل. في هيكل سفينة كانت تستخدمها كإبريق، أجمل، أكبر السفن، السفينة الأخيرة التي تمكنت من العثور عليها في "ساوثامبتون"

Southampton، تسخّن شايها، أمواج ومزيد من الأمواج.. إنها تتململ.. تقلّب كل شيء بمجداف هائل الحجم.. ذلك يشغل وقتها.

إنها لا تتطلع إلى شيء آخر، جادة كما هي إلى الأبد ومنكبة على ما تقوم به.

مرت دورة الطواف الليلي فوقها تمامًا لكنها أيضًا لم تحرك ساكنًا، لقد اعتادت أن تأتي كل أشباح القارة لتختفي هنا.. انتهى الأمر.

إنها تلاعب، هذا يكفيها، النار التي تحت الرماد، بين غابتين ميتتين، بأصابعها.

إنها تحاول أن تحييها، وكل شيء ملكها الآن، لكن شايها لن يغلي أبدًا.

لم تعد هناك حياة للنار.

لم تعد في العالم حياة لأحد إلا قدر قليل لا يزال لها ومات تقريبًا كل شيء.

الفصل 37

المقطع الرابع والثلاثون

أيقظتني ثانيةً في الغرفة التي انتهت بنا الحال إلى الذهاب للرقاد فيها. كنا في العاشرة صباحًا. لكي أتخلص منها قلت لها كاذبًا إني أشعر بأني لست على ما يرام وأنني سوف أبقى قليلاً في الفراش.

استأنفت الحياة مسارها. تظاهرت بأنها تصدقني. بمجرد أن نزلت، مشيت أنا الآخر. الحقيقة، كان لديَّ ما أفعله. كانت ضجة ليلة الأمس تلك قد خلّفت لي طعمًا غريبًا يشبه الندم. عادت ذكرى روبنسون تكدرني.. صحيح أني قد تركته لمصيره هذا الرجل، والأسوأ من ذلك أيضًا، في رعاية الأب بروتيست، رئيس الدير. ليس هناك ما يقال فوق ذلك. من المؤكد أني سمعت كل شيء كان يجري هناك، في تولوز، على أحسن ما يرام، وأن العجوز هنرووي كانت قد صارت ودودًا تمامًا تجاهه. لكن في بعض الأحيان، أليس كذلك، لا نسمع فقط إلا ما نرغب في سماعه وأفضل ما يناسبنا.. هذه الدلالات الملتبسة لا تدل في الحقيقة على أي شيء.

قلقًا وممتلئًا بالفضول، توجهت نحو رانسي، سعيًا وراء بعض الأخبار، لكن أخبار صحيحة، دقيقة. للذهاب إلى هناك كان لا بد من المرور بشارع باتينيول حيث يسكن بومون. كان ذلك طريقي. عندما وصلت قرب منزله دهشت كثيرًا عندما لمحته بنفسه على ناصية شارعه، بومون، كأنه يقتفي أثر رجل قصير، عن بُعد. بالنسبة إليه، بومون الذي كان لا يخرج من منزله مطلقًا، لا بد أن ذلك كان حدثًا حقيقيًّا. تعرفت إليه أيضًا، الرجل الذي كان يلاحقه، كان أحد الزبائن، السِيد(50) Le Cid، الذي كان يسمي نفسه كذلك في المراسلات

الخاصة. لكننا علمنا أيضًا عن طريق بعض المصادر السرية أنه كان يعمل في مكتب البريد، صاحبنا هذا.

(50) بطل مسرحية شعرية كتبها بيير كورني وتك عرضها للمرة الأولى في 5 يناير 1637 بباريس. (المترجم)

منذ عدة سنوات راح يطارد بومون بإلحاح كي يكتشف له رفيقة مهذبة حسنة التربية، حلمه الوحيد. غير أن الآنسات اللاتي قُدمن إليه لم يكنَّ قط مهذبات بما يكفي لإرضاء ذوقه. كن يرتكبن بعض الأخطاء، كما كان يدعي، وعليه لم يفلح الأمر. عندما نفكر في الأمر جيدًا نجد أن هناك فئتين كبيرتين من العشيقات، هاتيك اللواتي يمتلكن "أفكارًا متحررة" وهاتيك اللواتي تلقين "تعليمًا كاثوليكيًّا سليمًا". طريقتان أمام البائسات ليشعرن بالتفوق، طريقتان أيضًا لاستثارة الحيارى والظامئين، طريقة لبس الشال الصغير الذي يغطي الشعر والكتفين، وطريقة "قصة الشعر الصبيانية".

شهرًا بعد شهر كانت كل مدخرات "السيد Le Cid" قد أُنفقت في عمليات البحث هذه. مع بومون كان قد وصل حاليًا إلى حد الإفلاس وفقدان الأمل أيضًا. فيما بعد، علمت أن "السيد Le Cid" قد انتحر في تلك الليلة ذاتها في قطعة أرض مهجورة. فضلاً عن ذلك، كان الشك قد ساورني، بمجرد أن رأيت بومون يخرج من منزله، أن شيئًا غير مألوف يجري. هكذا تعقبتهم وقتًا طويلاً عبر شوارع هذا الحي الذي سوف يفقد محلاته بامتداد الشوارع، بل وحتى ألوانه، واحدًا بعد الآخر وينتهي هكذا ببعض الحانات المؤقتة عند حدود مكاتب التحصيل بالضبط. عندما لا يكون المرء في عجلة من أمره فإنه يضيع بسهولة في هذه الشوارع، متحيرًا ومضطربًا أولاً من كآبة ولا مبالاة هذا المكان الزائدة عن الحد. لو امتلك المرء قليلاً من النقود لاستقل على الفور سيارة أجرة ليهرب منه لشدة ما يشعر به من ضجر. من نقابلهم من بشر يجرجرون قدرًا ثقيلاً جدًّا لدرجة تُشعرك بالانزعاج من أجلهم.

خلف النوافذ مسدلة الستائر بدا الأمر كأن بعض أصحاب الدخول الصغيرة قد تركوا مصابيح غازهم مفتوحة. لا نستطيع حيال ذلك عمل أي شيء. سحقًا! نقول، وهذا ليس بالكثير.

فضلاً عن ذلك لم يكن هناك حتى مقعد يُجلس عليه. في كل مكان ليس هناك سوى اللونين البني والرمادي فقط. عندما تمطر السماء، فإنها تمطر من كل مكان أيضًا، من الأمام ومن الجانب ويصبح الشارع حينذاك زلقًا كظهر سمكة سمينة يتوسطه خط المطر. لا يمكن حتى القول إن هذا الحي تضربه الفوضى والانحراف، إنه بالأحرى يشبه سجنًا، سجنًا مُعتنى به جيدًا، سجنًا لا يحتاج إلى أبواب.

بتجوالي على ذلك النحو انتهت بي الحال إلى فقدان بومون وصاحبه المنتحر بعد شارع دي ڤينجرييه des Vinaigries(51) مباشرةً. كذلك كنت قد اقتربت جدًّا من رانسي - لاجارين لدرجة أني لم أستطِع أن أمنع نفسي من المضي لإلقاء نظرة من أعلى أسوار التحصينات.

(51) شارع دي ڤينجرييه، الشارع الباريسي الذي يحمل هذا الاسم لا يقع بالقرب من شارع دي باتينيول! (المترجم)

عن بُعد تبدو رانسي - لاجارين جذابة، لا يمكن قول عكس كذلك، بسبب أشجار المقبرة الكبرى. يوشك المرء أن ينخدع ويكاد يقسم إنها غابة بولونيا.

عندما نريد حتمًا أن نعرف أخبار شخص ما، علينا أن نذهب لنسأل عنها من يعرفون. على أي حال قلت لنفسي ساعتها إنني لن أخسر شيئًا بقيامي بزيارة قصيرة إلى آل هنرووي. لا بد أنهم يعرفون كيف تجري الأمور في تولوز. كان هذا بالفعل العمل الأخرق الذي ارتكبته. لا يأخذ المرء حذره. لا يدرك المرء أنه قد وصل إلى هناك مع أنه يكون هناك بالفعل وفي القلب منها، نواحي الليل اللعينة. حينذاك لا بد أن تنزل بك على الفور نكبة ما.. يكفي

أتفه الأسباب، ومن جهة أخرى لا يجب قبل كل شيء السعي لرؤية بعض الأشخاص ثانيةً.. لن يمكن الخلاص منهم بعدها.

من منعطفات إلى أخرى وجدت نفسي كأني منقاد ثانيةً بحكم العادة على بُعد خطوات من المسكن، مسكن آل هنرووي. كنت مندهشًا من رؤيته في المكان نفسه. أخذ المطر يهطل. لم يعد هناك أحد في الشارع سواي، ولم أعد أجرؤ على المضي قدمًا، بل إنني كدت أعود أدراجي بسهولة عندما انفتح باب المبيت مواربًا، بما يكفي فقط لكي تشير إليَّ الفتاة بالقدوم. هي بالتأكيد، كانت ترى كل شيء. كانت قد لمحتني أتسكع فوق الرصيف المقابل. لم أعد وقتها حريصًا على الاقتراب لكنها ألحت، بل إنها قد نادتني باسمي.

"دكتور.. لتأتِ إذًا بسرعة!"

هكذا نادتني بلهجة آمرة.. خفت أن ألفت إليَّ الأنظار، لذلك أسرعت حينها بالصعود حتى درج مدخلها الصغير، والوجود من جديد في الرواق الصغير ذي المدفأة ورؤية كل ما بالداخل، ولو أن ذلك قد أعاد إليَّ شعورًا غريبًا بالقلق. بعد ذلك راحت تروي لي أن زوجها كان مريضًا جدًّا منذ شهرين، بل وأن حالته تسوء أكثر فأكثر.

الحذر، بالطبع، على الفور.

"وروبنسون؟" سألتها مبادرًا.

في البداية تهربت من سؤالي، ثم رضخت آخر الأمر. "إنهما على ما يرام، كلاهما.. انطلت حيلتهما وسارت الأمور جيدًا في تولوز". انتهت بالرد، لكن هكذا، سريعًا.. ودون أن تضيف المزيد اجتذبتني من جديد إلى موضوع زوجها المريض.. أرادت أن أمضي من فوري لأهتم بحالة زوجها دون أن أضيع دقيقة واحدة أخرى. "إني مخلص للغاية.. إنني أعرفه جيدًا، زوجها.. وكذا.. إنه لا يثق

بأحد غيري.. إنه لم يعد يريد أن يرى طبيبًا آخر.. إنهما لم يعودا يعرفان عنواني". باختصار: هراء متكلف.

أما أنا، فكان لديَّ كثير من الأسباب لأتخوف من أن تكون لمرض زوجها هذا أسباب غريبة. لقد تقاضيت من قبل أجرًا للتعرف إلى السيدة وإلى عادات المنزل أيضًا. مع كل هذا دفعني فضول لعين إلى الصعود إلى الغرفة.

كان راقدًا بالمصادفة في الفراش نفسه الذي كنت قد عالجت فيه روبنسون بعد الحادث الذي تعرّض له قبل عدة شهور.

خلال عدة شهور تتغير أي حجرة، حتى عندما لا نغير فيها أي شيء.. مهما كانت الأشياء عتيقة جدًّا، متهالكة جدًّا، فإنها لا تزال تجد، لا ندري من أين، القدرة على التقدم في السن. كان كل شيء قد تغير الآن من حولنا.. ليست أشياء المكان، بالتأكيد، لكن الأشياء في حد ذاتها، جذريًّا، لا تكون هي نفسها عندما نراها مرة أخرى. الأشياء كأنها تمتلك، على ما يبدو، قدرة أكثر على التأثير فينا واختراقنا بحزن أكبر وبعمق أكثر أيضًا، برفق أكثر من ذي قبل، النوبات في ذلك الموت الذي يتشكل داخلنا ببطء، بلطف، يومًا بعد يوم، بخسة وحِياله نتدرب كل يوم على الدفاع عن أنفسنا أقل قليلاً من البارحة. من مرة إلى أخرى، نراها تلين، تتغضن فينا شخصيًّا الحياة والكائنات والأشياء معها، التي كنا قد تركناها تافهة، ثمينة، مخيفة أحيانًا. بينما كنا نهرول بطول المدينة وعرضها وراء متعتنا أو قوت يومنا طبع الخوف من التخلص منها كل هذا بتجاعيده.

قريبًا لن يكون هناك سوى أشخاص وأشياء مسالمة، مزرية، تدعو إلى الرثاء، مجردين من السلاح تحيط بماضينا من كل الجهات، مجرد أخطاء صارت بكماء.

تركتنا المرأة وحدنا، أنا والزوج. لم يكن الزوج نضرًا. لم يعد لديه الكثير من الدورة الدموية في جسده. كان المرض يمسك به من القلب.

"سوف أموت" راح يردد، بكل بساطة أيضًا.

كي أجد نفسي في مواقف من هذا النوع، كنت أحظى بحظ واسع.. رحت أسمعه يدق، قلبه، لمجرد أن أقوم بشيء ما في هذا الظرف، التصرفات القليلة المتوقعة من طبيب. كان قلبه يركض، يمكن أن نقول ذلك، خلف أضلاعه، حبيسًا، يعدو وراء الحياة، بغير انتظام، عبثًا راح ينتفض، إنه لن يستردها، الحياة. لقد قُضي الأمر. بعد قليل، لفرط ما تعثر وكبا، سوف يسقط قلبه في هاوية التفسخ والانحلال، ريانًا تمامًا، داميًا ومطموسًا كرمانة عجوز معصورة. هكذا سوف نرى قلبه الرخو المترهل، فوق رخام المنضدة، مشقوقًا بالسكين بعد التشريح، بعد عدة أيام. لأن كل هذا سوف ينتهي بعملية تشريح قانونية مثيرة. توقعت ذلك، بما أن كل سكان الحي سوف يروون أشياء مثيرة لاذعة بشأن تلك الميتة التي لا يرونها عادية أيضًا، بعد الميتة الأخرى.

كانوا يترصدون زوجته، عند المنعطف في الحي، بالثرثرات المتراكمة التي لم تؤتِ أكلها عن القضية السابقة التي لم تفلح.. سيكون ذلك فيما بعد. أما الآن فلم يعد الزوج يعرف كيف يصمد، ولا كيف يموت. كان بالفعل كمن انسحب قليلاً من الحياة، لكنه لم يتمكن مع كل هذا من التخلص من رئتيه. راح يطرد الهواء، وكان الهواء يعود. كان يود لو يستسلم، لكن كان لا بد مع ذلك أن يعيش، حتى النهاية. كان أمرًا مريعًا، يصيبه بالحول.

"لم أعد أشعر بقدمَيّ". يقول متأوهًا. "أشعر بالبرد حتى الركبتين". كان يريد أن يلمسهما، قدميه، لكن ذلك لم يعد بمقدوره.

بالنسبة إلى الشرب، لم يكن يستطيع أيضًا. كان الأمر قد انتهى تقريبًا. عندما ناولته المشروب المغلي الذي أعدته زوجته، رحت أتساءل ماذا عساها استطاعت أن تضع فيه. لم يكن ذلك المشروب طيب الرائحة، غير أن الرائحة لا تعد دليلاً، عشبة الناردين نفسها التي تُستخدم في تحضير هذا المشروب تفوح برائحة شنيعة في حد ذاتها. فضلاً عن أنه عندما يصل الأمر إلى حد الاختناق، كما كان الزوج يختنق، لا تعود هناك أهمية تُذكر لكون المشروب غريب الرائحة. غير أنه كان يجهد نفسه جدًّا، كان يكد كثيرًا، بكل ما تبقت له من عضلات تحت الجلد، لكي يتمكن من التحمل ومن التنفس أكثر من ذلك. كان يقاوم الحياة بقدر ما كان يقاوم الموت. سيكون من الإنصاف لو ينفجر المرء في مثل هذه الحالات. عندما تبدأ الطبيعة في عدم الاكتراث لا تصبح هناك نهايات على ما يبدو. وراء الباب كانت زوجته تنصت إلى الفحص الذي أقوم به لزوجها، يبدو أني كنت أعرفها جيدًا، زوجته. باغتّها، على حين غفلة، وأنا أصيح "كويك! كويك!" كما يفعل الأطفال في لعبهم. لم تمتعض لذلك على الإطلاق، بل إنها توجهت نحوي حينذاك لتهمس في أذني.

"يجب"، غمغمت، "أن تجعله يخلع طاقم أسنانه.. لا بد أنه يضايقه في التنفس طاقمه هكذا". في الواقع أني، عن نفسي، كنت أوافق على أن يخلع طاقم أسنانه.

لكني نصحتها: "لكن لتقولي له ذلك بنفسك ما دام الأمر كذلك". كانت مهمة محرجة في حالته هذه.

"آه! لماذا؟" سألتها مندهشًا.

"إنه يضعه منذ ثلاثين عامًا ولم يحدثني بشأنه مطلقًا".

"هل يمكن أن نتركه له إذًا؟" اقترحت عليها ما دام كان معتادًا أن يتنفس به.

"أوه Oh لا! سألوم نفسي على ذلك!" أجابتني وفي صوتها ما يشبه تأثرًا ما.

رجعت ساعتها إلى الحجرة بهدوء. سمعني الزوج أعود إلى جواره.. سره أني قد عدت. بين حالات الاختناق التي راح يغص بها ظل يتحدث إليَّ، بل إنه حاول أن يكون ودودًا بعض الشيء معي. سألني عن أخباري، إذا ما كنت قد وجدت زبائن آخرين.. "نعم، نعم" كنت أجيبه عن كل هذه الأسئلة. لإيضاح كل التفاصيل له، سيكون الأمر مضجرًا ومعقدًا بأكثر من اللازم. لم يكن الوقت مناسبًا. مستترة بمصراع الباب، راحت زوجته تشير إليَّ بأن أطلب ثانيةً منه أن يخلع طاقم أسنانه. حينذاك اقتربت من أذنه، ونصحته بصوت منخفض أن يخلعه. أي غلطة! "لقد رميته في المرحاض". قال ساعتها بعينين أكثر فزعًا عن ذي قبل. محاولة للتدلل باختصار. ثم أطلق حشرجة طويلة بعد ذلك.

يتفنن المرء بما يجده. وعن نفسه وبسبب طاقم أسنانه كان قد كلف نفسه جهدًا جماليًّا طوال حياته بكاملها.

إنها لحظة الاعترافات. كم تمنيت أن يستغلها ليدلي لي برأيه في كل ما جرى بخصوص أمه. لكنه لم يعد يستطيع.. راح يهذي.. أخذ لعابه يسيل بكثرة. النهاية. من المستحيل أن تخرج منه جملة. مسحت له فمه وهبطت مرة أخرى. في ردهة الطابق السفلي لم تكن زوجته راضية على الإطلاق ووبختني تقريبًا بسبب طاقم الأسنان، كأني كنت المذنب. خطأي.

"إنه من الذهب يا دكتور.. أنا أعرف ذلك! أنا أعرف كم دفع فيه.. لم تعد تُصنع أطقم أسنان كهذه. هذا أمر يطول شرحه". "لا مانع عندي من الصعود ثانيةً لأحاول مرة أخرى". اقترحت عليها لشدة ما كنت أشعر بالحرج. لكن شريطة أن تكون معي حينذاك!

في تلك المرة لم يكد الزوج يتعرف إلينا. قليلاً فقط. عندما اقتربنا منه، كان يتأوه متحشرجًا بأقل من الأول، كأنه أراد أن يسمع كل ما نقوله معًا، زوجته وأنا.

لم أذهب إلى المأتم. لم تجرَ عملية تشريح كما تخوفت بعض الشيء، لكن هذا لم يمنع خصامنا نحن الاثنين إلى الأبد، أنا والأرملة هنرووي، بسبب طاقم الأسنان.

الفصل 38

المقطع الخامس والثلاثون

الشباب دائمًا متلهفون جدًّا على المضي لممارسة الحب، حتى يسروا عن أنفسهم، فإنهم يهرعون إلى الإمساك بكل ما يوهمون به، لدرجة حتى أنهم لا يتروون البتة في ما يتعلق بالأحاسيس. إنهم يشبهون قليلاً هؤلاء المسافرين الذين يذهبون لالتهام كل ما يُقدَّم إليهم في مقصف المحطة، بين صفيرين يطلقهما قطارهم. على أن يزودوا، الشباب، بهاتين الأغنيتين الصغيرتين أو الأغنيات الثلاث التي تصلح لإنعاش الحديث تمهيدًا لإتمام المضاجعة، يكفي هذا، وها هم أولاء سعداء تمامًا. من السهل إرضاؤهم، الشباب، إنهم يستمتعون كما يريدون، هذا صحيح!

يفضي الشباب كله إلى الشاطئ الرائع، على حافة الماء، هناك حيث تبدو النساء وقد تحررن أخيرًا، هناك حيث يكن جميلات للغاية لدرجة أنهن لا يحتجن حتى إلى وهم أحلامنا.

من المؤكد إذًا أن المرء يجد صعوبة في العودة، متى حل الشتاء، في أن يقول لنفسه إن الأمر قد انتهى، أن يعترف بذلك. مع ذلك سيظل المرء في البرد، الشيخوخة، يراوده الأمل دائمًا. هذا أمر مفهوم. سفلة نحن. لا يجب أن نضمر الحقد لأحد. المتعة والسعادة قبل كل شيء. هذا رأيي حقًّا. وفضلاً عن ذلك عندما يأخذ المرء في التواري عن الآخرين، يكون ذلك علامة على أنه يخاف أن يلهو معهم. ذلك في حد ذاته هوس. يجب أن نعرف لماذا نصر على عدم الشفاء من الوحدة والعزلة. شخص آخر كنت قد قابلته في المستشفى في أثناء الحرب، عريفًا كان، كان قد حدثني من قبل قليلاً عن تلك المشاعر. خسارة أني لم أره البتة ثانيةً ذلك الفتى! "الأرض ميتة". قال لي. "نحن

الآخرون لسنا سوى دود فوقها، دود يزحف فوق جثتها الضخمة المقززة، نلتهم أحشاءها طوال الوقت ولا شيء سوى سمومها.. عبثًا تحاول معنا نحن الآخرين. إننا فاسدون تمامًا منذ الميلاد. هكذا نحن".

لم يمنع ذلك أنه كان من الواجب اقتياده ذات مساء صوب أبراج أسوار الحصن، ذلك المفكر، ذلك هو الدليل على أنه كان لا يزال صالحًا لأن يكون أحد المعدمين رميًا بالرصاص. بل كان هناك عنصران من الدرك لاصطحابه، أحدهما طويل والآخر قصير. إنني أتذكر ذلك جيدًا. قيل عنه في المحكمة العسكرية إنه كان فوضويًّا.

بعد عدة سنوات عندما نعاود التفكير في الأمر يحدث أن يرغب المرء فعلاً في استرجاع الكلمات التي قالها بعض الناس والناس أنفسهم كي نسألهم ماذا أرادوا أن يقولوا لنا.. غير أنهم قد رحلوا بالفعل. لم نكن قد حصلنا على ما يكفي من التعليم حتى نفهمهم.. نريد أن نعرف، هكذا، إذا ما كانوا لم يغيروا آراءهم أحيانًا فيما بعد ذلك.. لكن الأوان قد فات بالفعل منذ زمن.. لقد قُضي الأمر! لم يعد أحد يعرف عنهم شيئًا. لا بد إذًا أن يواصل المرء طريقه وحيدًا، في ظلام الليل. لقد فقدنا رفاقنا الحقيقيين. لكن السؤال المناسب لم يكن قد طُرح عليهم، السؤال الصحيح، عندما كان الوقت مناسبًا. إلى جانبهم لم نكن نعرف. رجال تائهون. أولاً نحن دائمًا متأخرون. كل هذا محض حسرات لا تقوم بأود العائلة.

على أي حال ولحسن الحظ كان القس بروتيست على الأقل قد جاء لملاقاتي ذات يوم حتى نتقاسم المردود الذي عاد إلينا من عملية مدفن الأم هنرووي. أنا الذي لم يعد حتى يعتمد في هذا الموضوع على القس. بدا الأمر كأنه قد هبط عليَّ من السماء.. ألف وخمسمئة فرنك قد عادت إلى كلٍّ منا! وفي الوقت نفسه، كان يحمل أخبارًا سارة عن روبنسون. عيناه، على ما يبدو، تحسنتا كثيرًا.. بل إن جفونه لم تعد تتقيح.. ثم إن الكل هناك يطالبون بي. وعدتهم أن أذهب لرؤيتهم على أي حال.

بروتيست نفسه ألح في ذلك.

وفقًا لما رواه لي أيضًا، فهمت أن روبنسون سوف يتزوج قريبًا بابنة بائعة الشموع الطويلة الخاصة بالكنيسة المجاورة لقبو الأم هنرووي، الكنيسة التي تعتمد عليها مومياوات الأم هنرووي. كاد هذا الزواج يتم تقريبًا.

ساقنا كل هذا حتمًا إلى الحديث قليلاً عن وفاة السيد هنرووي، لكن دون تركيز، وعاد الحديث على نحو ألطف حول مستقبل روبنسون ثم حول مدينة تولوز هذه نفسها، التي لم أكن أعرفها البتة، والتي كان "جرابا" قد حدثني عنها في ما مضى، ثم عن نوعية تلك التجارة التي كانا يمارسانها هناك مع العجوز، وأخيرًا حول الفتاة التي سوف يتزوجها روبنسون. باختصار تحدثنا قليلاً عن كل الموضوعات وبشأن كل شيء رحنا نثرثر.. ألف وخمسمئة فرنك! جعلني ذلك متسامحًا و-إن جاز القول - متفائلاً. وجدت أن كل المشروعات التي رواها لي عن روبنسون معتدلة تمامًا، معقولة وصائبة تمامًا وملائمة جدًّا للظروف.. كان الأمر يستقيم. على الأقل بدا لي ذلك. بعد ذلك شرعنا في الحديث طويلاً عن الأعمار أنا والقس. كنا قد تجاوزنا الثلاثين منذ زمن بعيد الآن. إنها تبتعد في الماضي ثلاثينات أعمارنا على ضفاف قاسية عنيدة وغير مأسوف عليها كثيرًا. بل لم يكن هناك داعٍ للالتفات للتعرف إليها تلك الضفاف. إننا لم نفقد شيئًا مهمًّا بالتقدم في العمر. "لا بد أن يكون المرء وضيعًا حقًّا على أي حال" قلت مستنتجًا، "حتى يتحسر على سنة بعينها أكثر من السنوات الأخرى! أما نحن، سيدي القس، فيمكن أن نشيخ بمرح وحماس، وبصراحة أيضًا! هل كان الأمس غريبًا إلى هذا الحد؟ والسنة الأخرى الماضية؟ كيف تراها؟ عَلاَم نتحسر؟ إنني أسألك.. الشباب؟ نحن لم ننعم بأي شباب".

"صحيح أنهم يستعيدون شبابهم بالأحرى في داخلهم، الفقراء، كلما تقدموا في العمر وقرب النهاية، شريطة أن يكونوا قد حاولوا في الطريق التخلي عن كل الكذب والخوف والرغبة المشينة في الخضوع والطاعة التي اكتسبوها منذ

الميلاد، باختصار يصبحون أقل إثارة للاشمئزاز منهم في البداية. سائر ما يوجد فوق الأرض ليس من أجلهم! لا يهمهم! مهمتهم الخاصة، الوحيدة، هي التخلص من خضوعهم، أن يتقيؤوه. لو توصلوا إلى ذلك قبل أن يهلكوا تمامًا يمكنهم حينذاك أن يدّعوا أنهم لم يعيشوا عبثًا".

كنت بالفعل في حالة نفسية طيبة.. كانت الألف وخمسئة فرنك هذه قد أشعلت قريحتي، فواصلت حديثي: "إن الشباب الحقيقي، الوحيد، حضرة القس، هو حب كل الناس بلا تمييز، وحده هو الشباب الحقيقي، وحده فقط هو الفتيّ والجديد. والآن، أتعرف الكثير منهم، سيدي القس، من الشباب الذين حققوا توازنهم على هذا النحو؟ أنا لا أعرف أحدًا منهم. إنني لا أرى في أي مكان سوى حماقات قديمة ومريعة تختمر في الأبدان الشابة إلى حد ما، وكلما ازداد تخمرها هذه الحماقات الدنيئة، زاد تنكيدها لعيش الشباب، زاد آنذاك ادعاؤهم بأنهم ما زالوا شبابًا على نحو يدعو إلى الدهشة! لكن هذا ليس صحيحًا، إنه محض لغو - مائع. إنهم شباب فقط على غرار الدمامل بسبب القيح المؤلم داخلها الذي يملؤها".

أزعج الأمر بروتيست، أزعجه أن أحدثه بهذه الطريقة.. حتى لا أضايقه مدة أطول من ذلك، غيرت موضوع الحديث، خصوصًا أنه صار للتو لطيفًا مراعيًا لجانبي، بل مبعوث العناية الإلهية.. من الصعب تمامًا أن يمنع المرء نفسه من الرجوع عن رأيه في موضوع كان يضايقه بقدر ما كان ذلك الموضوع يضايقني. ما إن يعيش المرء بمفرده، حتى يصير مكبلاً بموضوع حياته كلها. يرهقه هذا ويصيبه بالخبل. للتخلص من ذلك نحاول أن نرش منه قليلاً على كل من يأتي لرؤيتنا ويصيبهم هذا بالضجر منا. أن يكون المرء وحيدًا يعد هذا تدريبًا على الموت. "سيكون من الواجب أن نموت. قلت له ثانيةً. موتًا طويلاً أكثر طولاً من موت كلب، وسوف يستغرق احتضارنا ألف دقيقة، وسوف تكون كل دقيقة مع ذلك بكرًا جديدة ومحفوفة بما يكفي من الانقباض وضيق النفس لتنسيك ألف مرة كل ما استطعت أن تنعم به من متعة في ممارسة

الحب ألف عام من قبل.. السعادة فوق الأرض هي أن تموت بطيب خاطر، في أثناء ممارسة المتعة.. عدا ذلك لا يهم على الإطلاق، ومن الخوف لا نجرؤ على الاعتراف بذلك، هذه هي المهارة".

عندما سمعني بروتيست أهذي شاردًا بهذه الطريقة، دار بذهنه أني قد انتكست مؤخرًا بكل تأكيد. ربما كان على صواب وأني كنت مخطئًا تمامًا في كل الأمور. في عزلتي، باحثًا عن عقاب ما للأنانية الكونية، كنت في الواقع أداعب قدرتي على الابتكار، ذهبت أبحث عنه، ذلك العقاب، حتى العدم! إننا نمزح عندما تصبح فرص الخروج نادرة، بسبب قلة النقود، وأكثر منها أيضًا فرص الخلاص من النفس وممارسة الحب.

لا مانع عندي ألا أكون مصيبًا تمامًا في مضايقة بروتيست بفلسفاتي المناقضة لمعتقداته الدينية، لكن يجب أن تقول إنه كان مع ذلك يكن في كامل شخصه ميلاً صغيرًا دنيئًا إلى الاستعلاء لا بد أنه كان يثير أعصاب كثير من الناس. وفقًا لرأيه الخاص، كان البشر جميعًا في ما يشبه صالة انتظار أبدية موجودة على الأرض، يحملون أرقامًا. رقمه الخاص كان ممتازًا بكل تأكيد ويتيح له الذهاب إلى الجنة. أما الباقي فلم يكن يبالي به.

اعتقادات كهذه أمر لا يُحتمل. وفي مقابل ذلك، عندما عرض عليَّ، في ذلك المساء نفسه، أن يقدم إليَّ سلفًا المبلغ الذي أحتاج إليه للسفر إلى تولوز، فقد توقفت كليًّا عن إزعاجه ومعارضته. خوفي الشديد من الاضطرار إلى مقابلة تانيا في التارابو ومعها شبح حبيبها حملني على قبول دعوته دون مزيد من النقاش. قلت لنفسي إن الأمر يتعلق على أي حال بأسبوع أو أسبوعين من العيش الرغيد! لدى الشيطان كل الحيل لإغوائك! إننا لن نفرغ أبدًا من معرفتها. إذا عاش المرء طويلاً بما يكفي فلن يعرف إلى أين يذهب ليبدأ حياة سعيدة من جديد. لقد وضعنا في كل مكان أجنة سعادة مجهضة، تنشر رائحة خبيثة في كل أركان الأرض ولن يصير بإمكاننا حتى أن نتنفس. الأجنة المجهضة الحقيقية تلك التي توجد في المتاحف، هناك من يصاب بالغثيان

لمجرد رؤيتها وتجعلهم على وشك التقيؤ. ومن محاولاتنا الخاصة المقززة جدًّا أيضًا، لكي نكون سعداء، ما يصيب بالمرض لفرط ما كانت فاشلة، وقبل أن نموت نهائيًّا من جرائها بسنوات طويلة.

إن لم ننسها فلن يصبح بإمكاننا الاحتمال لشدة ما نعاني من الضعف. دون النظر إلى الجهد المبذول للوصول إلى هناك، إلى حيث كنا، حتى نجعلها مثيرة، آمالنا، سعادتنا المنحطة، حماستنا، أكاذيبنا.. أترغب في ذلك، هاك ما يكفي! وأموالنا إذًا؟ ومعها تصرفاتنا وعاداتنا التافهة أيضًا، وأحقاب بقدر ما نريد.. وأشياء أقسمنا عليها وأقسمنا بها وظننا أن الآخرين لم يقولوها بعد، ولم يقسموا بها قبل أن تملأ منا الروح والفم، وعطور ومداعبات وإيماءات وإشارات، باختصار كل شيء، لينتهي الأمر بنا إلى إخفاء كل هذا بقدر ما نستطيع، حتى لا نتحدث عنه، خجلاً وخوفًا من أن يعاودنا كالقيء. ليس الجد والإصرار إذًا هما ما ينقصنا، كلا، إن ما ينقصنا بالأحرى أن نكون في الطريق الحقيقي الذي يفضي إلى الموت الهادئ.

كان الذهاب إلى تولوز باختصار حماقة أخرى. عند التفكير مليًّا ساورني شك كبير. لم تكن لي إذًا أي أعذار. لكن مجاراة روبنسون على هذا النحو في مغامراته جعلتني أستطيب الأمور الغريبة المشبوهة. في نيويورك من قبل عندما لم يعد بمقدوري النوم كانت قد بدأت تؤرقني مسألة معرفة إذا ما كان بإمكاني أن أرافق روبنسون إلى أبعد وأبعد. إننا نغوص، في البدء نفزع في الليل، لكننا مع ذلك نريد أن نفهم وحينذاك لا نغادر القاع. غير أن هناك كثيرًا جدًّا من الأمور التي يجب أن نستوعبها في الوقت نفسه، أكثر من اللازم. الحياة قصيرة بالفعل أكثر مما يجب. لا نريد أن نظلم أحدًا. تنتابنا الوساوس، نتردد في الحكم على كل هذا مرة واحدة ونخاف على نحو خاص من أن يكون علينا أن نموت في أثناء هذا التردد، لأننا حينذاك نكون قد جئنا إلى الدنيا عبثًا تمامًا. أسوأ السيئات.

لا بد أن نسرع، لا يجب أن يفوت المرء فرصة موته. المرض، البؤس الذي يبدد لكم الساعات، السنوات، الأرق الذي يلطخ لكم باللون الرمادي أيامًا وأسابيع بكاملها، والسرطان الذي ربما يصعد الآن فينا، دقيقًا وداميًا من الشرج.

نقول لأنفسنا لن يكون لدينا متسع من الوقت أبدًا! بصرف النظر عن الحرب المتأهبة دومًا هي الأخرى، في ظل ضجر البشر الآثم، للصعود من القبو الذي يحبس فيه الفقراء أنفسهم. هل يقتل ما يكفي من الفقراء؟ هذا ليس مؤكدًا.. هل هذا بيت القصيد؟ أربما كان من الواجب ذبح كل من لا يفهم؟ وأن يولد آخرون منهم، فقراء جدد، وهكذا دائمًا حتى يأتي منهم من يدركون اللعبة الساخرة، المزحة كاملة.. كما تُحش المروج الخضراء حتى الوقت الذي يكون فيه العشب حقًّا غضًّا، طيب الرائحة.

عندما وصلت فجأة إلى تولوز، وجدت نفسي أمام المحطة مترددًا إلى حد كبير. قنينة جعة صغيرة في المقصف وها أنا مع ذلك أطوف عبر الشوارع. من الممتع أن نجول في المدن التي لا نعرفها! إنه الزمان والمكان الذي يمكن أن تفترض فيه أن الناس الذين تلاقيهم كلهم طيبون. إنها لحظة الحلم. يُمكن الاستفادة من هذا الحلم كي نمضي لنضيع بعض الوقت في الحديقة العامة. على أن المرء يبدو، متى تجاوز عمرًا معينًا، إن لم تكن لديه أسباب عائلية محترمة، مثل بارابين، كأنه يسعى وراء الفتيات الصغيرات في الحديقة العامة، يجب الاحتراس. الأفضل هو الحلواني الموجود قبل تجاوز بوابة الحديقة تمامًا، المحل الأنيق الموجود على الناصية المتقن تمامًا كأنه ديكور عش للهو بالعصافير الصغيرة التي تزين المرايا ذات الحواف المشطوفة العريضة. يرى المرء نفسه فيه ملتهمًا ملبس اللوز إلى ما لا نهاية، بسبب انعكاسات الصور. إنه مثوى الملائكة المقربين. فتيات المحل يثرثرن خلسة بشأن حكاياتهن الغرامية مثل هذه: "آنذاك، قلت له إنه يستطيع أن يأتي

لاصطحابي يوم الأحد.. عمتي التي استمعت إلى ما دار جعلت من الأمر مشكلة كبيرة خوفًا من أبي".

"ولكن ألم يتزوج أبوكِ ثانيةً؟" قالت الصديقة مقاطعة.

"وما عساه أن يغير في الأمر أن يكون قد تزوج ثانيةً؟ على أي حال إن له الحق بالتأكيد أن يعرف مع من تخرج ابنته".

كان ذلك أيضًا هو رأي فتاة المتجر الأخرى نفسه. وعليه اندلع جدل حماسي متقد بين كل البائعات. كنت أحاول عبثًا في ركني، حتى لا أزعجهن، أن أكثر دون أن أقاطعهن، من التهام الفطائر بالقشدة وكعك الفاكهة، على أمل أن يتوصلن بأسرع ما يمكن إلى حل هذه المشكلات العويصة المتعلقة بحقوق الصدارة العائلية. لم يتوصلن إلى شيء. كان عجزهن النظري يحصرهن في دائرة الحقد دون أي تحديد. كانت أرواحهن منهكة، فتيات المحل، من مخالفة المنطق، من الغرور، ومن الجهل، كن يعانين من ذلك وهن يتراشقن هامسات السباب.

ظللت رغم كل هذا مأخوذًا ببؤسهن البذيء. انقضضت على حلوى البابا، لم أعد أحصي قطع البابا التي ألتهمها، ولا فتيات المتجر أيضًا. رحت أرجو ألا أضطر إلى مغادرة المكان قبل أن يتوصلن إلى نتيجة ما.. غير أن الانفعال قد أصابهن بالصمم وسرعان ما صرن بكماوات أيضًا من حولي.

حقد ناضب، ضائقات الصدر، رحن يتمالكن أنفسهن محتميات بمنضدة الحلوى، وكل منهن صامدة عصية، متنكدة وجافة تجتر وتتوعد بـ"إرجاء هذا" بمرارة متزايدة أيضًا، بأن تلقي في الفرصة التالية وبأسرع من هذه المرة الحماقات الغاضبة والجارحة التي قد يعرفنها بشأن زميلة العمل. فرصة لن تتأخر من ناحية أخرى عن المجيء، فرصة سوف يسعين إلى خلقها.. نثارات من حجج لا طائل من ورائها. انتهيت إلى الجلوس حتى يدوخنني أكثر بضجيج

الكلمات الذي لا ينقطع، نوايا الأفكار كما يحدث على حافة شاطئ ما حيث لا تتمكن أمواج العواطف الصغيرة من الانتظام مطلقًا.

هنا وهناك، نسمع، ننتظر، نأمل، في القطار، في المقهى، في الشارع، في الصالون، عند البوابة، نسمع، ننتظر أن ينظم الشر أموره كما في الحرب، لكنه يتململ فقط ولا يحدث شيء، مطلقًا، لا من جهتهن، الفتيات البائسات، ولا من جهة الآخرين أيضًا. لا يأتي أحد لمساعدتنا. ثرثرة فارغة هائلة تمتد كئيبة ورتيبة فوق الحياة كسراب باعث على اليأس الشديد. بادرت سيدتان بالدخول فانقطع السحر الغامض للحديث العقيم الممتد بيني وبين فتيات المحل. أصبحت الزبونتان محل الاهتمام الفوري لطاقم العمل بكامله. اندفعن لتلقي طلباتهما وتلبية أدنى رغباتهما. هنا وهناك، راحتا تختاران، تنقران الكعك وفطائر الفاكهة التي ستأخذانها معهما. وقت الدفع كانتا لا تزالان تبعثران عبارات المجاملة، ثم راحتا زعمًا تتهاديان قطع الحلوى المورقة اللذيذة التي تُلتهَم في "الحال".

بلطف كبير رفضت إحداهما، شارحةً سرًّا وبإسهاب، للسيدات الأخريات، المهتمات للغاية، أن طبيبها قد منعها من الآن فصاعدًا من تناول كافة أنواع السكريات، وأنه شخص رائع، طبيبها، وأنه قد اجترح معجزات في معالجة حالات الإمساك في المدينة وخارجها، وأنه من بين حالات أخرى، كان يعالجها الآن، من حالة احتباس للبراز، كانت تعاني منها منذ أكثر من عشر سنوات، بفضل نظام غذائي استثنائي تمامًا، وكذلك بفضل دواء مدهش لا يعرفه أحد سواه. لم يكن في نية السيدات أن يسمحن مطلقًا بتفوق أحد عليهن بسهولة في الأمور المتعلقة بحالات الإمساك. إنهن يعانين أكثر من أي شخص آخر من الإمساك. قاومن. كن يحتجن إلى أدلة. أضافت السيدة المشكوك في صحة أقوالها فقط أنها تطلق الآن "ريحًا عند ذهابها إلى المرحاض، صاخبًا كأنه أصوات ألعاب نارية حقيقية.. وأنه بسبب برازها الجديد، ذي القوام تام التكوين، المتماسك جدًّا، كان لا بد لها من مضاعفة الاحتياطات.. أحيانًا كان

البراز الجديد المدهش صلبًا قاسيًا للغاية لدرجة أنها كانت تشعر منه بألم مروع في إستها.. تمزقات.. أنها كانت مضطرة آنذاك إلى استعمال الفازلين قبل الذهاب إلى المرحاض". كان ذلك أمرًا لا يمكن دحضه.

هكذا خرجت هؤلاء السيدات مقتنعات مسترسلات دائمًا في حديثهن اللطيف، تصحبهن حتى عتبة محل حلويات "العصافير الصغيرة" كل ابتسامات مَن بالمحل.

بدت لي الحديقة العامة المواجهة مناسبة لمحطة للتأمل واستجماع النفس، الوقت اللازم لاستعادة صفاء الذهن قبل الانطلاق للبحث عن صديقي روبنسون.

في الحدائق العامة الريفية تظل المقاعد طوال الوقت خالية تقريبًا في أثناء فترات الصباح في أيام الأسبوع العادية، على حافة الآكام الغاصة بأعواد البوص وزهور الأقحوان. بالقرب من الممرات المرصوفة بالحصى، على مياه حبيسة بكل صرامة، قارب من الزنك، محاط بطبقة رقيقة من الرماد، مربوط إلى الشاطئ بحبله العفن. كان الزورق الصغير يبحر يوم الأحد، كان ذلك معلنًا في اللافتة وثمن الدورة في البحيرة أيضًا: "فرنكان".

كم من السنوات؟ من الطلاب؟ من الأشباح وأرواح الموتى؟

في كل أركان الحدائق العامة، هناك الكثير من أكداس التوابيت المنسية المزدانة بالمثل العليا، خمائل الوعود ومناديل مليئة بكل ما يخطر على البال. لا شيء يستدعي الاهتمام.

مع ذلك، كفى للاستغراق في أحلام اليقظة! قلت لنفسي هيا بنا نبحث عن روبنسون وكنيسته، كنيسة سانت - إيبونيم(52)Sanite-Eponime، وعن ذلك القبو الذي يحرس فيه المومياوات مع العجوز. لقد جئت لرؤية كل هذا، لا بد أن أصمم على ذلك.

(52) كنيسة سانت إيبونيم، هناك بالفعل بطلة غالية gauloise، تدعى إيبونين Eponine. تمردت هي وزوجها ضد الرومان وجرى إعدامهما عام 79 بعد الميلاد. وهنا يتلاعب سيلين بلفظة Éponyme التي تعني الشخص الذي ينسب إلى اسمه المكان أو الحدث. (المترجم)

مستقلاً أحد الحناطير أخذت ساعتها في اللف والدوران والاندفاع بسرعة، في جوف شوارع المدينة القديمة المعتمة، حيث يظل نور النهار محشورًا بين أسقف البيوت. كنا نسوق ضجيج عجلات مدوٍّ خلف ذلك الحصان بحوافره الضخمة، من مجاري مياه إلى جسور صغيرة. منذ وقت طويل جدًّا لم تحرق مدن في منطقة الجنوب. إنها لم تبدُ مطلقًا قديمة إلى هذا الحد. لم تعد الحروب تذهب إلى هناك.

وصلنا أمام كنيسة القديسة إيبونيم عندما كانت الساعة تدق معلنة انتصاف النهار. كان القبو لا يزال بعيدًا بعض الشيء يعلوه نصب يمثل الصليب. أرشدت إلى مكانه في الوسط تمامًا من حديقة صغيرة قاحلة جدًّا. كان الدخول إلى هذا السرداب يجري عبر ما يشبه كوة موصدة. من بعيد لمحت حارسة المدفن، فتاة شابة.. سألتها على الفور عن أخبار صديقي روبنسون. كانت تلك الفتاة منهمكة في إغلاق الباب من جديد.. أجابتني بابتسامة ودود للغاية، وعن روبنسون وافتني على الفور بأخبار طيبة.

في نور تلك الظهيرة، من الموضع الذي كنا فيه، صار كل شيء حولنا ورديًّا وراحت الأحجار النخرة تصعد إلى السماء بامتداد الكنيسة، كأنها على وشك المضي لتنصهر في الهواء آخر الأمر هي الأخرى.

لا بد أنها كانت في العشرين من عمرها تقريبًا، رفيقة روبنسون، الساقان مكتنزتان تمامًا ومشدودتان وجذع جميل رشيق بكامله، يعلوه رأس صغير، دقيق التقاطيع، مرسوم بعناية، العينان شديدتا السواد وربما الاحتراس، بأكثر مما يلائم ذوقي. لم تكن من النوع الحالم على الإطلاق. كانت هي من يكتب

خطابات روبنسون، تلك التي تلقيتها. تقدمتني بمشيتها الدقيقة نحو المدفن.. القدمان والكاحل مرسومة بعناية وكذلك مفاصل امرأة تعرف جيدًا كيف تستمتع ولا بد أنها تتقوس بوضوح في الوقت المناسب. يدان قصيرتان، تمسكان جيدًا، يدا عاملة طموح. ضربة صغيرة خاطفة لإدارة المفتاح. كانت الحرارة تتراقص حولنا وترتعش فوق الطريق. تكلمنا عن هذا وذاك ثم ما إن انفتح الباب حتى قررت مع ذلك أن تجعلني أزور المدفن، رغم أنها ساعة الغداء. بدأت في استعادة شيء من الطيش واللامبالاة. توغلنا في الطراوة المتزايدة خلف مصباحها. أصبح الجو لطيفًا بالفعل. تظاهرت بالتعثر بين درجتين من درجات السلم حتى أمسك ثانية بذراعها، دفعنا ذلك لتبادل المزاح، وعندما وصلنا إلى الأرض الصلبة المعبدة بالأسفل، قبَّلتها قليلاً حول العنق. اعترضت في البداية، لكن ليس كثيرًا.

بعد لحظة قصيرة من التودد والعاطفة، تلويت حول بطنها كدودة غرام حقيقية. شبقين رحنا نبلل الشفاه ونعيد تبليلها حتى يصفو حديث الأرواح بيننا. بإحدى يدَيَّ تحسست مرتقيًا ببطء فخذيها المقوسين، كان ذلك ممتعًا ومصباحها موضوعًا على الأرض لأني كنت أستطيع في الوقت نفسه أن أرى التضاريس المتململة بامتداد الفخذ. وضع جدير بالتقدير. آه! لا يجب أن نفقد شيئًا من تلك اللحظات! يزيغ البصر من الشهوة! لكننا نعوض خيرًا.

أي إغراء! أي اندفاع عفوي! أي بهجة مفاجئة! استؤنف الحديث بلهجة ثقة جديدة وبساطة. أعضاؤنا الحميمة قبل كل شيء. لقد وفرنا للتو على أنفسنا عشر سنوات.

"أترشدين الزائرين كثيرًا؟" سألتها بكل ذهول ورعونة. لكن تابعت على الفور مستدركًا: إنها بالتأكيد والدتك التي تبيع الشموع في الكنيسة المجاورة، أليس كذلك؟ لقد حدَّثني القس بروتيست عنها أيضًا.

"إنني أحل محل السيدة هنرووي في أثناء فترة الغداء فقط". أجابتني. "بعد الظهر أعمل في إحدى دور الأزياء.. شارع المسرح.. هل مررت أمام المسرح عند مجيئك؟"

طمأنتني على روبنسون مرة أخرى، إنه يتحسن تمامًا، بل إن اختصاصي الأعين يعتقد أنه سوف يرى قريبًا بما يكفي للسير بمفرده في الشارع.. بل إنه قد حاول ذلك بالفعل. كان كل هذا فألاً طيبًا. أما الأم هنرووي فقد أظهرت من جانبها رضاها التام عن المدفن. عائق وحيد، في المنزل الذي كانوا يسكنون فيه كان البق يمنع الجميع من النوم، خصوصًا في الليالي العاصفة. حينذاك كانوا يحرقون الكبريت. ويبدو أن روبنسون كان يتحدث عني كثيرًا، بعبارات إطراء أيضًا. من حديث إلى آخر وصلنا إلى قصة وملابسات الزواج.

صحيح أنني مع كل هذا لم أكن قد سألتها بعد عن اسمها. كانت تسمى ماديلون Madelon. وقد وُلدت في أثناء الحرب. كان مشروع زواجهما، على كل حال، يناسبني كثيرًا. ماديلون، كان اسمًا يسهل تذكُّره. من المؤكد أنها كانت تعرف ما هي مقبلة عليه بزواجها من روبنسون.. خلاصة القول إنه ورغم التحسن سيظل عاجزًا.. فضلاً عن أنها كانت تعتقد أن عينيه فقط هما المصابتان، لكن الأعصاب أيضًا قد أصابها التلف والروح المعنوية، فما بالك والباقي إذًا! كدت أخبرها بذلك، أحذرها.. الأحاديث المتعلقة بالزواج، لم أعرف مطلقًا كيف أديرها، ولا كيف أتخلص منها.

لأغير موضوع الحديث أبديت اهتمامًا كبيرًا مفاجئًا بالأشياء الموجودة بالمدفن، وبما أني قد جئت من مكان بعيد جدًّا لرؤيته، المدفن، فقد كان ذلك الوقت المناسب لأشغل نفسي/ لأهتم به.

بمساعدة مصباحها الصغير، أخرجناها آنذاك، أنا وماديلون، من الظل، تلك الجثث، من الجدار، واحدة إثر أخرى. لا بد أن ذلك كان يمنح السائحين ما يحملهم على التأمل. متراصين لصق الحائط مثل من يُعدمون رميًا بالرصاص،

كان هؤلاء الموتى القدامى.. لم يعودوا تمامًا من جلد ولا من عظم ولا مرتدين أي ملابس كانوا.. ولكن قليل من كل هذا معًا فقط.. في حالة شديدة القذارة وتملؤها الثقوب في كل مكان.. والزمن الذي يلاحق جلودهم منذ قرون لم يكن ليفارقهم أبدًا.. إنه لا يزال يفتت منهم أطراف الوجوه من هنا ومن هناك، ذلك الزمن.. إنه يوسّع ثقوبهم جميعًا، بل إنه لا يزال يوجد لهم حبائل من جلود البشرة التي نسيها الموت خلف الغضاريف. كانت بطونهم قد أُفرغت من كل شيء، غير أن ذلك قد ترك لهم الآن ما يشبه طاقة صغيرة من الظل في مكان السرة.

قالت لي ماديلون إن هؤلاء الموتى قد انتظروا أكثر من خمسمئة عام في مقبرة من الجير الحي حتى ينتهي بهم الأمر إلى هذه الحالة. لم يكن بوسعنا القول إنهم كانوا جثثًا، بالنسبة إليهم كانت مرحلة الجثث قد انتهت منذ زمن بعيد. لقد وصلوا إلى حدود حالة الرفات، بكل هدوء وبطء.

من الكبار والصغار كان هناك في ذلك القبو ستة وعشرون إجمالاً. الذين كانت غاية مطلبهم أن ينتسبوا إلى الأبدية. إنهم ما زالوا موضع الاهتمام. نساء يضعن قلنسوات جاثمة فوق الجماجم، أحدب عملاق، بل وحتى طفل منتهي تمامًا هو الآخر يضع حول عنقه الصغير اليابس ما يشبه "مريولة" من الدانتيل، تصوروا هذا، وطرفًا صغيرًا من قماطه.

تربح الأم هنرووي كثيرًا من النقود من فتات العصور هذه.. عندما يجول في خاطري أنني قد عرفتها شخصيًّا وهي في مثل حالة هذه الأشباح تقريبًا.. هكذا مررت ببطء أمامهم جميعًا أنا وماديلون. واحدة إثر أخرى دخلت رؤوسهم، إن جاز القول، صامتة دائرة الضوء الساطع للمصباح. لم يكن ما تبقى لهم في قاع محاجر أعينهم هو ظلام الليل فعلاً، بل النظر تقريبًا ولكن بوداعة أكثر، مثلما يكون لأصحاب اليقين. ما يبعث على الضيق كان بالأحرى رائحة الغبار المنبعثة منهم، تلك التي تمسك بك من طرف أنفك.

لم تكن الأم هنرووي لتضيع زيارة واحدة من زيارات السائحين. كانت تحمل الموتى على العمل كما لو كانت في سيرك.كانوا يجلبون لها مئة فرنك يوميًّا في ذروة الموسم المزدهر.

"إنهم لا يبدون تعساء.. أليس كذلك؟" راحت ماديلون تسألني. كان السؤال نمطيًّا.

لم يكن الموت يعني لها شيئًا، هذه الفتاة اللطيفة. لقد وُلدت في أثناء الحرب، زمن الموت الطائش. أنا، عن نفسي كنت أعرف كيف يموت المرء. تعلمت. يجعلك هذا تعاني كثيرًا. يمكن أن نروي للسائحين أن هؤلاء الموتى أنفسهم سعداء.

ليس لديهم ما يعترضون عليه. بل ن الأم هنرووي كانت تربت على بطونهم عندما يكون قد تبقى لهم فوقها ما يكفي من الجلد الرقيق، وكان ذلك يُحدث أصواتًا "بُوم، بُوم".

لكن ذلك لم يكن هو الآخر دليلاً على أن كل شيء على ما يرام.

وأخيرًا عدنا، أنا وماديلون، إلى شؤوننا. كان من الصحيح تمامًا إذًا أن روبنسون راح يتحسن. لم أكن أطلب أكثر من هذا. بدت مصممة على فكرة زواجهما، العشيقة.. لا بد أنها تشعر بالضجر بشدة في تولوز. كانت فرص مقابلة شاب سافر كثيرًا مثل روبنسون نادرة فيها، تولوز، كان روبنسون عن نفسه، يعرف الكثير من الحكايات! حقيقية وغير حقيقية أيضًا. من ناحية أخرى قد حدثها طويلاً عن أمريكا والبلاد الاستوائية. كان مثاليًّا.

أنا أيضًا كنت هناك في أمريكا وفي البلاد الاستوائية، وكنت أعرف أيضًا بعض الحكايات. كنت أنوي أن أرويها.. بل إننا لطول ما سافرنا معًا أنا وروبنسون صرنا صديقين. انطفأ المصباح.. أعدنا إشعاله عشر مرات بينما كنا نوفق بين

الماضي والمستقبل. منعتني من مداعبة نهديها الحساسين بأكثر كثيرًا مما يجب.

على أي حال بما أن الأم هنرووي كانت على وشك العودة من الغداء بين دقيقة وأخرى، كان لا بد أن نصعد ثانيةً إلى ضوء النهار عبر الدرج الصغير المنتصب شديد الانحدار، الواهي، المتقلقل والوعر كأنه سلم متحرك. لفت ذلك نظري.

الفصل 39

المقطع السادس والثلاثون

بسبب ذلك السلم اللعين الواهي للغاية والمخاتل للغاية، لم يكن روبنسون ينزل كثيرًا إلى قبو المومياوات. حقيقة الأمر أنه كان بالأحرى يظل أمام الباب ليخدع السائحين قليلاً بكلامه وليتدرب أيضًا علي التقاط بعض الضوء، من هنا وهناك، عبر عينيه.

في باطن الأرض، القبو، خلال ذلك الوقت كانت تتدبر أمر نفسها، الأم هنرووي. في الحقيقة كانت تعمل من أجل شخصين، الأم هنرووي، مع المومياوات.

كانت تضفي شيئًا من البهجة على زيارة السائحين بحديث قصير عن موتاها المغلفين بالجلد الرقيق العتيق. "إنها ليست مقززة علي الإطلاق، سادتي، سيداتي، بما أنها قد حُفظت في الجير، كما ترون، ومنذ أكثر من خمسة قرون، هذه المومياوات.. تشكيلتنا لا مثيل لها في العالم.. لقد زال عنها اللحم بطبيعة الحال.. الجلد وحده هو ما تبقى لها بعد ذلك، لكنه مدبوغ.. إنها عارية، لكنها محتشمة.. إنكم تلاحظون أن طفلاً صغيرًا قد دُفن في الوقت نفسه مع أمه.. إنه أيضًا في حالة حفظ جيدة جدًّا، الطفل الصغير.. ثم مومياء هذا الرجل الطويل هناك بقميصها والدانتيل الذي ما زال كما هو عليها.. إنه يحتفظ بكامل أسنانه.. كما تلاحظون".

ثم تروح تربت على صدورهم كلهم ثانيةً كي تنهي الجولة، فيصدر عنها أصوات كدق الطبول.

"كما ترون، سيداتي، سادتي، إن هذه المومياء لم تتبقَ لها سوى عين واحدة، يابسة تمامًا، واللسان الذي صار كأنه من الجلد أيضًا!" وتأخذ في شدِّه.

"إنها تُخرج لسانها لكن هذا لا يثير الاشمئزاز.. يمكنكم أن تدفعوا ما تريدون عند ذهابكم، سيداتي، سادتي، لكن العادة أن يُدفع فرنكان عن كل شخص ونصف ذلك بالنسبة إلى الأطفال.. بإمكانكم أن تلمسوها قبل خروجكم لتتأكدوا بأنفسكم، لكن لا تشدوها بقوة.. أوصيكم بذلك.. إنها من أوهى ما يكون".

بمجرد وصولها، كانت الأم هنرووي قد نوت زيادة أسعارها، كانت مسألة تتعلق بالتفاهم مع الأسقفية. لكن الأمر لم يجرِ بهذه السهولة بسبب خوري كنيسة "أبونيم" الذي كان يريد أن يقتطع ثلث الإيراد لنفسه فقط، ثم بسبب روبنسون الذي كان يعترض باستمرار لأنها لم تكن تمنحه ما يكفي من الأرباح، كما كان يعتقد.

"لقد خُدعت وتم اصطيادي". قال مبديًا رأيه. "خُدعت كفأر.. مرة أخرى.. لست محظوظًا! مع ذلك فيا لها من حيلة بارعة قبوها هذا! إنها تجني منه ملء جيوبها أؤكد لك ذلك".

"لكنك لم تسهم في هذا الأمر بأي نقود". قلت معترضًا حتى يهدأ ويتفهم الأمر. "ثم إنك تتغذى جيدًا.. ويعتني بك الجميع".

غير أنه كان عنيدًا كنحلة طنانة، صاحبنا روبنسون، كانت له طبيعة رجل مضطهد فعلاً. لم يرد أن يفهم، أن يذعن.

"الخلاصة، لقد نجوت على نحو لا بأس به إطلاقًا من ورطة لعينة ومشينة، أؤكد لك. لا تتذمر! كنت ستذهب مباشرةً إلى السجن في كايين cayenne لو لم تكن قد وُجهت إلى هنا.. وها أنت متروك وشأنك مرتاح البال لا يزعجك أحد. ثم إنك عثرت فوق هذا على صديقتك ماديلون اللطيفة التي ترغب فيك

بشدة بكل ما تعانيه من مرض. ممَ قد جئت تشكو إذًا؟ خصوصًا أن عينيك تتحسنان الآن؟"

"يبدو كأنك تقول إنني لا أعرف تمامًا مما أشكو، أليس كذلك؟" جاوبني آنذاك. "لكني مع ذلك أشعر أنه يجب أن أشكو وأتذمر.. هذا ما أشعر به.. لم يعد يتبقى لي غير هذا.. سأقول لك.. إنه الشيء الوحيد المسموح لي به، لست أنت ولا غيرك مضطرًا إلى الإنصات إليَّ".

الواقع أنه لم يكن يتوقف عن النواح بمجرد أن نكون بمفردنا. وصل الأمر بنا إلى التخوف من لحظات البوح والمناجاة هذه. رحت أتطلع إليه بعينيه اللتين تطرفان، ولا تزالان ترشحان قليلاً في الشمس، وقلت لنفسي إن روبنسون على كل حال لم يكن يومًا شخصًا ودودًا. هناك حيوانات جُبلت على هذا، عبثًا تحاول أن تكون بريئة وتعيسة وكل هذا، هذا معروف، ورغم ذلك نبغضها.. ينقصها شيء ما.

"كان من الممكن أن تهلك في السجن". أعدت الكرَّة بقصد أن أحمله على التفكير ثانيةً.

"لكني قد دخلت السجن، أنا.. إنه ليس أسوأ مما أنا فيه الآن.. أنت لا تعرف".

لم يكن قد أخبرني أنه قد دخل السجن. لا بد أن هذا قد حدث قبل أن نتلاقى، قبيل الحرب. أصّر على رأيه وقال مختتمًا: "ليست هناك سوى حرية واحدة، أنا الذي يقول لك، ليست إلا واحدة: حرية أن ترى بوضوح قبل كل شيء، وبعدها أن تملك ملء جيوبك مالاً، الباقي هراء لا طائل من ورائه".

"ماذا تقصد إذًا من وراء هذا في النهاية؟" قلت له. عندما يُجبَر، روبنسون، على أن يقرر، يعلن موقفه، يبدي رأيه، يعترف جديًّا، تخور عزيمته. غير أنها تكون اللحظة التي قد يكون الأمر فيها مشوقًا.

بينما تكون ماديلون قد ذهبت في أثناء النهار إلى مشغلها وتروح الأم هنرووي تعرض نفاياتها على الزبائن، كنا نذهب، نحن، إلى المقهى القابع تحت الأشجار. ها هو ركن كان يحبه كثيرًا، روبنسون، المقهى تحت الأشجار. (تكرار؟) على الأرجح بسبب الضجة التي كانت تُحدثها العصافير فوق رأسه تمامًا. كم كان هناك كثير من العصافير! خصوصًا نحو الساعة الخامسة عندما تعود إلى أعشاشها، مستثارة بفعل الصيف. كانت تهب على الميدان ساعتها كعاصفة. بل يُروى بهذا الشأن أن حلاقًا، كان حانوته يمتد بطول الحديقة، قد صار مجنونًا بسببها، لمجرد سماعها تزقزق كلها معًا لسنوات طويلة. صحيح أننا ساعتها لا نسمع أنفسنا عندما نتحدث، مع ذلك فقد كان المكان بهيجًا كما كان روبنسون يرى.

"لو أنها فقط كانت تمنحني باستمرار أربعة قروش عن كل زائر، لأرضاني ذلك!"

كان يعود إلى أشجانه مرة أخرى كل ربع ساعة تقريبًا. في غضون ذلك، كانت نضارة الأزمنة الماضية تبدو مع ذلك كأنها تعاوده، بعض الحكايات أيضًا، من بينها، حكايات شركة لابوردوريير في إفريقيا، التي كنا رغم ذلك قد عرفناها جيدًا نحن الاثنان، وحكايات مثيرة لم يكن قد رواها لي من قبل مطلقًا. لم يجرؤ ربما. لقد كان متحفظًا في الحقيقة إلى حد كبير، بل متكتمًا.

في ما يتعلق بالماضي، كانت مولّي على وجه الخصوص هي التي أتذكرها، أنا، جيدًا، عندما يخامرني شعور طيب، مثل صدى ساعة بعيدة تدق، وعندما يمر في خاطري شيء لطيف، على الفو، كنت أفكر فيها.

على كل حال عندما تطلق الأنانية سراحنا، عندما يكون وقت الخلاص منها قد حان، لا يحتفظ المرء في قلبه، في ما يتعلق بالذكرى، إلا بذكرى بعض النساء اللاتي كن يحببن الرجال حقًّا، ولو بقدر يسير، ليس واحدًا منهم فقط، حتى لو كان أنت شخصيًّا، وإنما كل الرجال.

عند عودتنا من المقهى في المساء، لا نكون قد حققنا شيئًا مثل ضباط الصف المتقاعدين.

في أثناء الموسم لا يكف السياح عن التوافد. يأخذون في التسكع في القبو.. وكانت الأم هنرووي تنجح في إضحاكهم. كان الكاهن ينزعج قليلاً بالطبع من تلك الدعابات، لكن بما أنه كان يقبض أكثر من حصته، فلم يكن ينطق حرفًا، وفضلاً عن ذلك فإن الرجل بدايةً لم يكن يفقه شيئًا في ما يتعلق بالفكاهة. غير أنها كانت تستحق عناء أن تُرى وتُسمع، الأم هنرووي، وسط أجداثها. نيابةً عنكم، كانت تحدق في وجوههم، هي التي لم تكن تخاف الموت، والتي كانت بالفعل متغضنة للغاية، منكمشة، ممصوصة للغاية، هي نفسها، لدرجة أنها كانت تشبه واحدة من مومياواتها بفانوسها عندما تأتي لتثرثر بالقرب تمامًا مما يُعد وجوهها.

عندما نرجع إلى المنزل، ونتجمع لوجبة العشاء، كنا نواصل الجدال بشأن الإيراد، من جهة أخرى كانت الأم هنرووي تدعوني "طبيبها ابن آوى الصغير" بسبب الأحداث التي وقعت بيننا في رانسي. لكن كل هذا كان يدور في إطار المزاح بكل تأكيد. بينما كانت ماديلون تكدح في المطبخ.

لم يكن ذلك المسكن الذي نقيم فيه يتلقى إلا قليلاً من الضوء، أحد الملاحق التابعة للكنيسة، شديد الضيق، مزيجًا مزدحمًا من الدعائم الخشبية الصغيرة والأركان والزوايا المغبرة.

لفتت العجوز أنظار الجميع قائلة: "مع كل هذا، فرغم أن الظلام، إن جاز القول، جاثم هنا طول الوقت، بإمكان المرء مع كل هذا أن يعثر على فراشه وجيبه وفوق هذا فمه، وهذا يكفي ويزيد!"

بعد موت ابنها، لم تكن قد اغتمت طويلاً. "لقد كان دائمًا فتى هزيلاً واهنًا" أخبرتني ذات مساء بشأنه. "وأنا كما ترى التي تجاوزت السادسة والسبعين

من عمري لم أشكُ مع ذلك من شيء قط.. أما هو فقد كان دائم الشكوى، هكذا كان دأبه، مثل صاحبك روبنسون تمامًا.. حتى أعطيك مثلاً.. سلم القبو، مثلاً يُعد مُتعِبًا، أليس كذلك؟ هل تعرفه؟ إنه يرهقني بالتأكيد، لكن هناك أيامًا يعود لي فيها بما يصل إلى فرنكين عن كل درجة.. لقد حسبتها.. والآن فلقاء هذا السعر، قد أصعد، أنا، لو أريد مني، إلى السماء!"

كانت تضع لنا كثيرًا من التوابل في طعام العشاء، ماديلون هذه، ومن الطماطم أيضًا، ومن النبيذ الوردي. كان ذلك ممتعًا جدًّا. حتى روبنسون تعوّد شرب النبيذ لطول ما أقام في الجنوب. كان قد أخبرني بكل شيء، روبنسون، بكل ما جرى منذ وصوله إلى تولوز. لم أعد أصغي إليه. باختصار خيَّب أملي وصار يثير اشمئزازي قليلاً. "أنت برجوازي. انتهى الأمر بيننا إلى إخباره بذلك (لأن هذه الصفة كانت بالنسبة إليَّ أسوأ إهانة في ذلك الوقت). في النهاية، أنت لا تفكر إلا في النقود فقط.. عندما يرتد إليك بصرك ثانيةً ستعرف أنك قد صرت أسوأ من الآخرين!"

لم يكن التوبيخ يسبب له ضيقًا، بل يبدو أنه كان بالأحرى يشد من عزمه ويجدد حماسه، فضلاً عن أنه كان على يقين من صحة مزاعمي. قلت لنفسي إن هذا الفتي أصبح الآن مستقر الأوضاع، لا يجب أن أقلق بشأنه بعد الآن.. إن امرأة جميلة عنيفة بعض الشيء وشبقة بعض الشيء، بلا جدال، يمكنها أن تغير رجلاً منا إلى حد استحالة التعرف إليه ثانيةً. قلت لنفسي ثانيةً إن روبنسون الذي ظننته طويلاً فتى جسورًا مغامرًا، لم يكن سوى قواد غير محترف، سواء كان زوجًا مخدوعًا أم لا، كفيفًا أم لا.. تلك هي الحقيقة.

فوق ذلك، كانت الأم هنرووي قد أصابته على الفور بعدوى هوس التوفير وبعدها ماديلون برغبتها في الزواج. لقد بلغ السيل الزبى، انتهى أمره، خصوصًا أنه بات يستطيب الوجود إلى جوار رفيقته الصغيرة. كنت أعرف عن ذلك شيئًا ما. سيكون من الكذب أولاً أن أدعي أنني لم أكن أغار منه قليلاً، لن يكون هذا صحيحًا. من وقت إلى آخر قبل الغداء، كنا نتقابل أنا وماديلون،

لحظات قصيرة، في غرفتها. غير أنه لم يكن من السهل تدبير هذه المقابلات. لم نقل عن هذا شيئًا.. كنا في غاية التكتم والحذر.

لا يجب أن نذهب إلى تصور أنها، بسبب هذا، لم تكن تحب روبنسون. لم تكن لهذا أي علاقة بذاك. لكنه، روبنسون، كان يستخف بالخطبة، وعليه، كانت هي الأخرى بطبيعة الحال تستخف بمسائل الإخلاص والوفاء. كانت تلك وجهة النظر المأخوذ بها بينهما. المهم في هذه الأمور هو التفاهم. كان قد أسرّ إليَّ مرة أنه لن يقربها قبل الزواج. هذه وجهة نظره. له الأبدية إذًا ولي أنا الواقع الحالي. فضلاً عن ذلك كان قد حدثني عن مشروع آخر كان يفكر فيه للاستقرار مع ماديلون في مطعم صغير والتخلي عن العجوز هنرووي. إنه يأخذ كل شيء بجدية على ما يبدو.

"إنها فتاة لطيفة، ستروق للزبائن. هكذا كان يتوقع في أفضل أوقاته. ثم إنك قد تذوقت طعامها، أليس كذلك؟ لا يجاريها أحد في أمور الطهو!"

بل إنه كان يأمل أن يتمكن من اقتراض رأس المال الأساسي الصغير من الأم هنرووي. عن نفسي، كنت أتمنى ذلك، غير أني توقعت أن يجد صعوبة شديدة في إقناعها. "أرى الدنيا تحلو في عينيك" قلت منبهًا، هكذا بقصد تهدئته وحمله على التروي قليلاً. فجأة راح يبكي وينعتني بالمقزز.

الخلاصة أنه لا يجب أن أُحبِط أحدًا، واعترفت على الفور بأني كنت مخطئًا وبأن الكآبة كانت في الحقيقة هي التي أفسدت حياتي، أنا. الشيء الذي كان روبنسون يتقن القيام به، قبل الحرب، هو الحفر على النحاس، لكنه لم يعد يرغب في أن يلمسه من جديد، مهما كلف الأمر. هو وشأنه.

"إن الهواء الطلق هو ما أحتاج إليه برئتَي هاتين، كما تعرف، فضلاً عن أن عينَي لن تكونا، بدايةً، أبدًا كما كانتا من قبل". بوجه ما لم يكن مخطئًا هو الآخر.

ما من تجاوب. عندما مررنا معًا عبر الشوارع العامرة بالمارة، كان الناس يلتفتون وراءهم تحسرًا عليه، الرجل الكفيف.. إنهم يشفقون، الناس، على العجزة والمكفوفين، ويمكن أن نقول إن لديهم مخزونًا من الحب. شعرت بذلك من قبل، مرات كثيرة، الحب الاحتياطي. هناك الكثير منه. لا يمكننا قول العكس. لكن من المؤسف أنهم يموتون وهم قساة القلوب جدًّا مع كل هذا القدر من الحب المدخَر، الناس. إنه لا يظهر في العلن، هذا كل ما في الأمر. إنه أسير داخلهم، ويظل داخلهم، لا ينفعهم في شيء. إنهم يهلكون بسبب الحب داخلهم.

بعد العشاء تأخذ ماديلون في العناية به، حبيبها ليون leon، "ليونها" كما كانت تدعوه. تقرأ له الجريدة. صار الآن مولعًا بالسياسة، وكانت صحف الجنوب تطفح بالسياسة واللون الجامح منها على نحو خاص.

في المساء، من حولنا، كان البيت يغوص في تفاهات التاريخ، إنها الساعة، بعد العشاء، التي يسوي فيها البق خلافاته، والوقت المناسب أيضًا لأن نجرب عليه، البق، تأثير مبيد سائل كنت أود أن أتنازل عنه لأحد الصيادلة فيما بعد لقاء ربح بسيط. تركيبة بسيطة. كانت تلك اللعبة تستهويها، الأم هنرووي، وأخذت تساعدني في تجاربي. كنا ننتقل معًا من عش إلى عش، نذهب إلى الشقوق، الزوايا، نرش أسرابها بمحلول أملاح السلفات الذي ابتكرته، فتعج بالحركة وتروح تتبدد تحت ضوء الشمعة التي كانت الأم هنرووي تمسك بها لي بكل انتباه.

رحنا نتحدث عن رانسي ونحن منهمكان في العمل. مجرد التفكير في ذلك المكان كان يصيبني بالمغص، ربما أبقاني ذلك في تولوز طوال ما تبقى من العمل. الحقيقة أنني لم أعد أطلب أكثر من ذلك، فالعيش مضمون وأوقات الفراغ. النعيم كامل لكن كان عليَّ مع ذلك أن أفكر في العودة وفي العمل. الوقت يمضي ومنحة الكاهن أيضًا، والمدخرات كذلك.

قبل الرحيل، أردت أن ألقن ماديلون بعض الدروس وأن أقدم إليها بعض النصائح. من الأفضل بلا شك أن نمنح النقود عندما نستطيع وعندما نرغب في عمل الخير.. لكن من الممكن أن يكون مفيدًا أيضًا أن يحتاط المرء وأن يكون على بينة تمامًا من أمره، وعلى نحو خاص بكل ما نجازف به عندما نضاجع النساء يمينًا ويسارًا. هذا ما قلته لنفسي، خصوصًا أنها بالنسبة إلى الأمراض كانت تخيفني قليلاً، ماديلون. يقظة، بكل تأكيد، لكنها كانت أجهل ما يكون بكل ما يتعلق بالميكروبات. وعليه فقد انطلقت في شروح تفصيلية تمامًا بشأن ما يجب عليها مراعاته بدقة قبل الاستجابة لأي مجاملات.

لو كان مُحمرًّا.. لو كانت هناك قطرة بالطرف.. باختصار أمور تقليدية على المرء أن يعرفها جيدًا فضلاً عن أنها مفيدة وضرورية للغاية. بعد أن أنصتت إليَّ جيدًا، تركتني أتحدث طويلاً، احتجت، مراعاةً للظواهر.. بل إنها قامت بما يشبه حملة شعواء على شخصي. كم كانت جادة.. قالت إنه عار عليّ أن أقول ذلك.. إنني قد كوَّنت عنها رأيًا فظيعًا.. إن ذلك ليس بسبب أنها كانت معي.. إنني كنت أحتقرها.. إن الرجال كلهم فاسدون، خبثاء.

باختصار، كل ما تقوله كل النساء في مثل هذه الحالات.

كان يجب أن أتوقع ذلك. مجرد ساتر حماية. الأمر الأساسي بالنسبة إليَّ أنها استمعت جيدًا إلى نصائحي ووعت الجوهري منها. الباقي ليست له أي أهمية. بعد أن فهمتني جيدًا، كان ما أحزنها في الواقع، هو الاعتقاد بأن من الممكن أن يصاب المرء بكل ما قلته لها من خلال العاطفة والمتعة فقط. عبثًا حاولت أن أُفهِمها أن هذه هي الطبيعة، كانت تراني مقززًا بقدر ما كانت الطبيعة، كان ذلك يُشعرها بالإهانة. لم ألح بعدها إلا لكي أحدثها مرة أخرى قليلاً عن الواقيات الذكرية المريحة والسهلة للغاية. أخيرًا، كي نلعب دور العلماء النفسيين، حاولنا قليلاً تحليل شخصية روبنسون. "إنه ليس غيورًا على وجه التحديد"، قالت لي ساعتها. "لكنه يمر أحيانًا بلحظات عصيبة".

"حسنًا! لا بأس". أجبتها، وشرعت في تحديد شخصية روبنسون كأنني كنت أعرفها، غير أني أدركت سريعًا أنني لم أكن أعرفه كثيرًا، روبنسون، إلا من خلال بعض المظاهر الخشنة في طبعه. ليس أكثر.

مدهش ما نعانيه من صعوبة في تخيل ما يمكن أن يجعل شخصًا ما محببًا على نحو ما إلى الآخرين.. ومع ذلك نود أن نساعده، أن نكون متجاوبين معه، ونتلعثم.. أمر يثير الشفقة، بدءًا من الكلمات الأولى.. نتخبط.

في أيامنا هذه، ليس من المناسب لعب دور "لابروبير(53)".

(53) Jean de _ La Bruyere.

ــ چان دو لابروبير مفكر أخلاقي فرنسي (1654 ــ 1696).(المترجم)

فكل اللاشعور يفر من أمامك بمجرد أن تقترب.

الفصل 40

المقطع السابع والثلاثون

في الوقت الذي كدت أمضي فيه لشراء بطاقة السفر، تمسكوا ثانيةً ببقائي لأسبوع أكثر مما كان متفقًا عليه. بقصد أن يصحبوني لرؤية ضواحي مدينة تولوز، ضفاف النهر عليلة الهواء التي حدثوني عنها كثيرًا، وليجعلوني أزور على وجه الخصوص كروم العنب الرائعة هذه، التي يبدو كل من في المدينة فخورًا وسعيدًا بها، كما لو كان كل الناس بالفعل يملكونها. لم يكن من الواجب أن أمضي هكذا، ولم أزر إلا أجداث الأم هنرووي فقط. هذا غير ممكن! باختصار، عادات متكلفة.

كنت رخوًا تجاه كل هذا اللطف. لم أجرؤ كثيرًا على الإصرار على البقاء بسبب صداقتي مع ماديلون المذكورة، صداقة أصبحت خطرة بعض الشيء. لقد بدأت العجوز ترتاب في وجود شيء ما بيننا. إحراج.

غير أن العجوز لم تكن مضطرة إلى مرافقتنا في هذه النزهة. أولاً، لم تكن ترغب في إغلاق قبوها ولو حتى ليوم واحد. قبلت إذًا بالبقاء، ها نحن قد انطلقنا صباح أحد أيام الأحد إلى الريف. روبنسون، كنا نمسك بذراعيه وهو بيننا نحن الاثنين.

في المحطة، اشترينا بطاقات للدرجة الثانية. مع ذلك كانت رائحة السجق تفوح بقوة في المقصورة مثلما تكون في الدرجة الثالثة. في بلدة تسمى سان جان Saint _Jean نزلنا من القطار. بدا على ماديلون أنها تعرف المنطقة فضلاً عن أنها قد صادفت على الفور بعض المعارف القادمين من كل مكان. بدا أن نهارًا صيفيًّا رائعًا يعلن عن نفسه، يمكن أن نقول ذلك. بينما

كنا نتنزه، كان لا بد أن نصف لروبنسون كل ما نرى. "هنا توجد حديقة، هناك جسر وفوقه رجل يصطاد بالصنارة.. لا يمسك الصياد بشيء.. انتبه إلى راكب الدراجة". كانت رائحة البطاطس المقلية مثلاً ترشده جيدًا.

بل إنه شخصيًّا كان من قادنا نحو المتجر الذي كانت البطاطس المقلية تباع فيه لقاء عشرة قروش للعبوة. لقد عرفته دائمًا محبًّا للبطاطس المقلية، مثلي أنا على كل حال. الميل إلى البطاطس المقلية، طبع باريسي. أما ماديلون فكانت تفضِّل "الفرموت" Le Vermouth دون ثلج وخالصًا.

في الجنوب لا تكون الأنهار على هواها. تبدو كأنها تعاني، إنها دائمًا في طريقها إلى الجفاف. تلال، شمس، صيادون، أسماك، مراكب، قنوات صغيرة، مغاسل، كروم عنب، صفصاف باكٍ، الكل يريدها ويحتاج إليها، الكل يطالب بحصته منها. نطلب منها من الماء بأكثر مما تستطيع، وعليه لا يتبقى منه الكثير في حوض النهر. نظنه في بعض الأماكن بالأحرى دربًا تغمره المياه وليس نهرًا حقيقيًّا. بما أننا قد أتينا من أجل المتعة كان لا بد أن نسرع بالإحساس بها. بمجرد انتهائنا من البطاطس المقلية، رأينا أن جولة قصيرة بالقارب، قبل الغداء، ستروّح عنا، أنا مُجدفًا، بالطبع، وكلاهما قبالتي، اليد في اليد، روبنسون وماديلون.

ها نحن نمضي مع التيار، كما يقال، نحك القاع من هنا ومن هناك، تطلق هي صرخات صغيرة، هو غير مطمئن جدًّا هو الآخر. ذباب ثم مزيد من الذباب. حشرات "فرس النبي" التي تراقب النهر بأعينها الكبيرة الواسعة في كل مكان وضربات صغيرة واهنة من ذيولها الفزعة. حرارة مذهلة، تجعل كل الأسطح تنفث البخار. رحنا ننساب فوقه بدءًا من التيارات العكسية المسطحة الطويلة للنهر حتى الأفرع الجافة. بمحاذاة ضفاف وعرة لاهبة كنا نمر، بحثًا عن نفحة من الظل نلتقطها كيفما اتفق خلف بعض الأشجار التي لم تملأها الشمس ثقوبًا.

الحديث يزيد أيضًا من درجة الحرارة، إن كان من الممكن أن تزيد. لم نجرؤ كذلك على البوح بأننا لسنا على ما يرام.

روبنسون، كان ذلك طبيعيًّا، كان أول من سئم الملاحة.

اقترحت حينذاك أن نمضي لنرسو أمام المطعم. لم نكن وحدنا الذين راودتنا هذه الفكرة نفسها. الواقع أن كل صيادي تلك القناة كانوا قد استقروا هناك بالفعل، في المطعم، قبلنا، حريصين على تناول الأبريتيف (شراب فاتح الشهية). متمترسين خلف أقداحهم. لم يكن روبنسون يجرؤ على سؤالي عما إذا ما كان مكلفًا ذلك المقهى الذي اخترته، لكني أرحته على الفور من هذا القلق مؤكدًا له أن كل الأسعار معلنة بوضوح وأنها كلها معقولة جدًّا. كان هذا صحيحًا. أما عن صديقته ماديلون، فما عاد يطلق يدها.

يمكنني الآن أن أقول إننا قد دفعنا في ذلك المطعم كما لو كنا قد أكلنا، غير أننا كنا قد حاولنا فقط. من الأفضل ألا نتحدث عن الأطباق التي قُدمت إلينا. بقيت هناك كما هي.

لقضاء فترة بعد الظهر، بعد ذلك، كان تنظيم مباراة صيد مع روبنسون أمرًا معقدًا للغاية، ولعلنا سببنا له بعض الشجن لأنه لم يكن يستطيع أن يرى حتى فلينة صنارته.

لكني، من ناحية أخرى، كنت ساعتها متعبًا من التجديف، من بعد محنة الصبح وحدها. حسبي هذا. لم يعد لديَّ حماس وخبرة الأنهار الإفريقية. هرمت ولم تعد سني مناسبة لذلك، كما لم تعد مناسبة لكل شيء.

مع ذلك، ولتغيير ما كنا نفعله، أكدت لهما ساعتها أن نزهة قصيرة على الأقدام، بكل بساطة، بامتداد الضفة، سوف تفيدنا جدًّا، على الأقل حتى هذه الحشائش العالية التي نراها على بُعد أقل من كيلومتر واحد، قريبًا من ستار أشجار الحور.

ها نحن قد انطلقنا ثانيةً، أنا وروبنسون، يتأبط كل منا ذراع الآخر، أما ماديلون، فكانت تسبقنا ببضع خطوات.

كان ذلك أكثر ملائمة للمضي قدمًا وسط الحشائش. عند أحد منعطفات النهر سمعنا صوت "أكورديون". من صندل نهري كان الصوت يأتينا، صندل أنيق مربوط في ذلك الموضع من النهر. استوقفت الموسيقى روبنسون. أمر مفهوم تمامًا في حالته، فضلاً عن أنه كان دائمًا يميل إلى الموسيقى. سعداء كلنا آنذاك لعثورنا على شيء يبهجه، روبنسون، عسكرنا في تلك الرقعة المعشبة نفسها، الأقل غبارًا من ضفة النهر المنحدرة المجاورة. ما رأيناه لم يكن صندلاً عاديًّا.. كان نظيفًا أنيقًا، صندلاً خاصًّا بالسكنى فقط، وليس للشحن، تكسو الزهور سطحه بالكامل، بل كان هناك بيت صغير جميل للغاية من أجل الكلب. وصفنا الصندل لروبنسون. أراد أن يعرف كل شيء عنه.

"إنني أود، أنا أيضًا، أن أسكن في مركب نظيف تمامًا مثل هذا". قال حينذاك. "وأنتِ؟" راح يسأل ماديلون.

"هيا. لقد فهمتك جيدًا. كف عن هذا!" أجابت الفتاة. "لكنها فكرة تكلف غاليًا تلك التي تراودك يا ليون!"

"أنتِ متأكدة من أنه يكلف أكثر بكثير من بناية سكنية بالإيجار".

بناءً عليه أخذنا، نحن الثلاثة، في التفكير حول الثمن الذي يمكن بالفعل أن يساويه صندل على هذه الشاكلة، ولم نخلص من تقديراتنا بشيء.. تمسك كلٌّ منا بالرقم الذي يراه. العادة التي جبلنا عليها، نحن الآخرون، في معرفة قيمة كل شيء.. خلال ذلك الوقت كانت ألحان الأكورديون رقيقة ناعمة بل وكذلك كلمات أغنية مصاحبة.

أخيرًا اتفقنا أنه لا بد أن يساوي بحالته هذه على الأقل مئة ألف فرنك تقريبًا، الصندل. سعر يبعث على الأحلام.

أغلقي عينيك الجميلتين(54)، لأن ساعاتك قصيرة.. في البلد الرائع.. في بلد الأحلام الوادع.

(54) "Freme tes jolis yeux" عنوان لموسيقى ڤالس (كلمات ف.توما V.Thomas و ر.دو بوكسوي R.de Buxeuil، نشرت عام 1913). من غناء بيرت سيلـف Berthe Sylva. (المترجم)

هذا ما كانوا يتغنون به في الداخل، أصوات رجال ونساء متمازجة، نشاز بعض الشيء، لكنها مع هذا شجية تمامًا بسبب المكان. كانت تلائم حرارة الجو والريف، والوقت الذي كنا فيه والنهر أيضًا.

أخذ روبنسون يصر على تقدير الآلاف والمئات. كان يرى أن الصندل، كما وُصف له، يساوي أكثر بكثير.. لأنه مغطى بلوح زجاجي ملون يتيح رؤية أوضح داخله وحليات نحاسية في كل مكان، ترف وفخامة.. باختصار.

"ليون، أنت تجهد نفسك" راحت ماديلون تحاول تهدئته، "لتستلقِ بالأحرى فوق هذا العشب الكثيف ولتسترِح قليلاً.. مئة ألف وخمسمئة ألف، أنت لا تملكها ولا أنا أيضًا، أليس كذلك؟ إذًا لا يستحق الأمر حقًّا أن تهتاج".

غير أنه كان مستلقيًا بالفعل وكان مستثارًا على أي حال بشأن السعر، وأراد بكل الوسائل أن يعاين بنفسه وأن يحاول رؤيته، ذلك الصندل، الذي يساوي هذا الثمن الباهظ جدًّا.

"هل له محرك؟" أخذ يسأل. لم نكن نعرف، نحن.

ذهبت لأنظر في الخلف بما أنه ألح في طلبه، لمجرد أن أرضيه، كي أتحقق من وجود أنبوب محرك صغير.

أغلقي عينيكِ الجميلتين، لأن الحياة ليست سوى حلم.

الحب ليس إلا سرابًا.

لتغلقي عينيكِ الجميلتين.

هكذا واصلوا الغناء، الناس داخل الصندل. أما نحن، فقد سقطنا، آخر الأمر، إعياءً.. لقد أصابونا بالضجر والرغبة في النعاس.

في لحظة ما قفز الكلب الإسباني خارجًا من بيته الصغير، وجاء ينبح فوق معبر الركاب وفي اتجاهنا. أيقظنا منتفضين وزجرناه نحن بدورنا، الكلب الإسباني، لأنه أخاف روبنسون.

حينذاك خرج من باب صغير إلى سطح الصندل شخص بدا أنه صاحبه. لم يكن يريد أن يصرخ أحد في كلبه، وتبادلنا حديثًا أوضح فيه قصده! لكن عندما أدرك أن روبنسون كان، إن جاز التعبير، كفيفًا هدأ ذلك من روعه فجأة، ذلك الرجل، لا وبل وجد أنه كان أحمق بالفعل.

رجع عن نيته في تأنيبنا، بل إنه سمح لنفسه، حتى تنصلح الأمور، بأن يصف نفسه قليلاً بالفظاظة.. على سبيل التعويض رجانا أن نأتي لتناول القهوة في بيته، في صندله، لأن اليوم عيد ميلاده، كما أضاف. لم يعد يرغب في أن نبقى نحن أيضًا هنا في الشمس، لنحترق، وهذا وذاك.. وأن الأمر جاء في أوانه بالضبط لأنهم كانوا ثلاثة عشر شخصًا حول المائدة. كان مالك الصندل رجلاً في مقتبل العمر، غريب الأطوار. كان يحب المراكب كما أوضح لنا ثانيةً.. أدركنا ذلك على الفور. غير أن زوجته كانت تخاف البحر، وعليه فقد رسوا هنا، إن جاز التعبير، فوق الحصى، في بيته، في صندله.. بدا أنهما راضيان على نحو كبير باستقبالنا. زوجته أولاً، امرأة رائعة تعزف على الأكورديون كملاك. من جهة أخرى كانت دعوتنا لتناول القهوة أمرًا لطيفًا على كل حال! ربما كنا أي شيء، حثالة! باختصار كان ذلك دليل ثقة واطمئنان من جانبهما.. على الفور أدركنا أننا لا يجب أن نخجلهما، مضيفينا الظريفين.. خصوصًا أمام ضيوفهما.

لروبنسون كثير من العيوب، لكنه كان، في العادة، فتى حساسًا.. أدرك في داخله، من مجرد صوتيهما، أن علينا أن نحتشم وأن نتوقف عن إفلات البذاءات. بالتأكيد، لم نكن نرتدي ثيابًا أنيقة لكنها مع ذلك كانت نظيفة لائقة إلى حد كبير. تفحصته عن قرب أكثر، صاحب المركب، لا بد أنه كان في الثلاثين تقريبًا، شعره جميل، أسمر جذاب ويرتدي حلة كاملة لطيفة تشبه حلل البحارة لكنها اكثر إتقانًا وأناقة. أما زوجته الجميلة فكانت لها بالفعل عينان مخمليتان حقًّا.

كانت مائدة غدائهما قد انتهت للتو. كانت البقايا وافرة. لم نرفض الحلوى، كلا! وكذلك نبيذ "البورتو" الذي يتناسب معها. منذ وقت طويل لم أكن قد استمعت إلى أصوات بمثل هذا الرقي والنبل، أنا. إن لهم طريقة خاصة في الحديث، أبناء الطبقة الراقية، تصيبك بالرعب، فما بالك بي، أنا المرعوب دومًا، بكل بساطة، خصوصًا نساؤهم، مع أنه ليس إلا عبارات ركيكة متكلفة، لكنها تخرج ساعتها لامعة مصقولة كقطع الأثاث القديم. تصيبك بالرعب، عباراتهم، رغم أنها عادية لا تخيف. نخشى الانزلاق فوقها، لمجرد تجاوبنا معهم. وحتى عندما يتخذون نبرات الرعاع ليغنوا بعض أغنيات الفقراء، من باب التسلية، فإنهم يحتفظون بتلك الطريقة المميزة في النطق التي تصيب بالارتياب والنفور، لهجة تحوي داخلها ما يشبه سوطًا صغيرًا، كما يجب أن يكون هناك واحد دائمًا عند الحديث إلى الخدم. أمر مثير، غير أن ذلك يغرينا في الوقت نفسه برفع ثياب نسائهم لمجرد أن نراها تذوب، كرامتهم هذه كما يزعمون.

بصوت خافت رحت أشرح لروبنسون الطريقة المؤسس بها المكان من حولنا، أثاث قديم فقط. ذكرني ذلك قليلاً بمتجر أمي، لكن أكثر نظافةً وبترتيب أفضل بالتأكيد. متجر أمي كان يفوح برائحة الفلفل القديم.

فضلاً عن ذلك كانت لوحات صاحب المركب معلقة في كل مكان على الحوائط الفاصلة. رسامًا كان الرجل. كانت زوجته هي من أوضحت لي ذلك وبكثير من التكلف أيضًا. الزوجة، كانت تحبه، زوجها. كان صاحب المركب

فنانًا، عضوًا جميلاً، شعر رائع، إيرادات جيدة، كل ما يلزم كي يكون المرء سعيدًا راضيًا، والأكورديون فوق ذلك، أصدقاء، تأملات وأحلام يقظة على سطح المركب، فوق المياه القليلة التي تراوح مكانها، سعيدان لأنهما لن يرحلا أبدًا.. لديهما كل هذا في بيتهما مع كل ما في الدنيا من حلاوة وطراوة رائعة ما بين أستار النوافذ ونسيم المروحة الكهربائية والأمان السابغ.

بما أننا قد جئنا، فلا بد لنا من التجاوب مع الحضور. مشروبات مثلجة وفراولة بالقشدة في البداية، الحلوى المفضلة عندي.

تلوَّت ماديلون لتناول المزيد منه. كانت هي الأخرى قد امتدت إليها الآن سلوكيات المجتمع الراقي. كان الرجال يجدونها ظريفة، ماديلون، والد الزوجة على وجه الخصوص، ميسور جدًّا، وبدا بالغ السعادة بوجودها إلى جواره، ماديلون، وبذل ما في وسعه حينذاك لينال رضاها. جاب المائدة طولاً وعرضًا ليحضر مزيدًا من الحلوى، لها وحدها فقط، ولطخت بها حتى أرنبة أنفها، القشدة. بحسب ما دار من حديث كان والد الزوجة أرملاً. من المؤكد أنه قد نسي ذلك. أكثرت ماديلون من تناول المشروبات المسكرة الغنية بالكحول. كانت الحُلة التي يرتديها روبنسون وحُلتي أنا أيضًا تنضحان بآثار القدم وتعاقب الفصول تلو الفصول، لكن في الملاذ الآمن الذي كنا نوجد فيه، ربما لم يكن ذلك واضحًا للعيان. مع هذا فقد شعرت بشيء من المهانة وسط الآخرين، المرفهين جدًّا في كل شيء، متأنقين مثل أمريكيين مغتسلين بكل عناية مهندمين تمامًا كأنهم على وشك المشاركة في مسابقة الأناقة. لم تعد ماديلون، ثملةً، تحسن التصرف بصورة لائقة. راحت تروي، وهي تشير بجانب وجهها الصغير إلى اللوحات، بعض الحماقات السخيفة، وعادت، المضيفة التي أدركت ذلك قليلاً، إلى العزف على الأكورديون ثانيةً لإعادة الأمور إلى نصابها، فيما راح الجميع يغني ونحن الثلاثة أيضًا في السر لكن بنشاز وعلى نحو منسق، الأغنية نفسها التي سمعناها من قبل في الخارج، وبعدها أغنية أخرى.

وجد روبنسون طريقة ليشرع في الحديث مع رجل عجوز بدا أنه على دراية تامة بزراعة الكاكاو. موضوع مشوّق. رجال المستعمرات، رجلان من رجال المستعمرات. "عندما كنت في إفريقيا"، سمعت باندهاش كبير روبنسون يقول بثبات، "عندما كنت مهندسًا زراعيًّا في شركة لابورديير"، قال مكررًا، "كنت أشرك سكان القرية بكاملها في الحصاد.. إلخ" لم يكن بوسعه أن يراني وعلى ذلك أطلق لنفسه العنان.. بقدر المستطاع.. ذكريات منتحلة.. أبهرت الرجل العجوز.. محض أكاذيب! كل ما كان يستطيع أن يجده ليضع نفسه في مستوى الرجل العجوز الخبير. روبنسون الذي كان دائمًا متحفظًا في كلامه، أزعجني بل وأحزنني أن يشرد ويهذي بهذه الصورة.

أجلسوه، من باب التكريم، في باطن أريكة كبيرة غارقة في العطر، كأس من الخمر الفاخرة في يده اليمنى، بينما راح بيده الأخرى يستحضر بإشارات واسعة عظمة الغابات البكر وأهوال الأعاصير الاستوائية.

كان قد انطلق.. بالفعل انطلق.. آلسيد كان سيمرح كثيرًا لو استطاع أن يكون هنا هو الآخر. في ركن صغير. آه يا آلسيد التعس!

لا جدال في ذلك، من حيث الراحة، كنا مرتاحين في مركبهم خصوصًا أن ريحًا لطيفة بدأت تهب من النهر وأخذت الستائر المقصبة تتطاير في أطر النوافذ كرايات مبتهجة.

أخيرًا. أعيد تقديم المثلجات (الجيلاتي) ثم الشمبانيا مرة أخرى. كان عيد ميلاده، صاحب المركب، الذي كرر ذلك مئة مرة.

أخذ على نفسه، لمرة، أن يسعد الجميع وحتى المارة في الطريق.

أن يبهجنا مرة. طوال ساعة، ساعتين، ثلاث ربما، سيتصالح الجميع تحت سقفه، سيكون الجميع أصدقاء، المعروفون من قِبل صاحب المركب والآخرون وحتى الأغراب، وحتى نحن الثلاثة الذين التقطنا من ضفة النهر،

لعدم توافر الأفضل، حتى لا يظلوا ثلاثة عشر نفرًا حول المائدة. كدت أشرع في الترنيم بأغنيتي المفضلة المرحة، لكني تراجعت، فخورًا بغتة بأكثر مما يجب، واعيًا بما أفعل. هكذا لعلي وجدت أن من المناسب أن أكشف لهم، لأقدم مبررًا لدعوتي رغم كل شيء، أنهم قد دعوا لتوهم أحد أبرز أطباء منطقة باريس وضواحيها، ممثلاً في شخصي!

لم يكن بوسعهم أن يظنوا ذلك هؤلاء الناس بحسب هندامي بكل تأكيد! ونظرًا إلى تواضع حال رفيقاي أيضًا، لكنهم بمجرد معرفتهم بمكانتي، أظهروا غبطتهم، تشرفهم بوجودي، وأخذ كل واحد منهم، على الفور، في إطلاعي على متاعبه الجسدية الخاصة. انتهزت هذه الفرصة للتقرب من ابنة أحد المقاولين، صبية متينة البنيان من أقربائهم كانت تعاني تحديدًا من حالة آرتكاريا وتجشؤات حامضية تنتابها لأتفه سبب.

عندما لا يكون المرء معتادًا على أطايب المائدة والرفاهية، فإنها تصيبك بالدوخة بكل سهولة. الحقيقة لا تطلب إلا التخلي عنك. إننا نحتاج دائمًا إلى القليل جدًّا منها حتى نتحرر! لا نتمسك بحقيقتنا. وسط هذه الوفرة المفاجئة من المتع يستولي عليك هذيان جنون العظمة المريح بكل سهولة. رحت أنا الآخر أشرد وأهذي، وأنا أتحدث في الوقت نفسه إلى قريبته الشابة عن الآرتيكاريا. إننا نتخلص من المهانة اليومية بأن نحاول مثل روبنسون التجاوب مع الحاضرين من علية القوم، بالأكاذيب، عملة الفقراء هذه. إننا نخجل جميعًا من أجسامنا سيئة المظهر، من هياكلنا التي يشوبها النقص. لم أستطِع أن أقرر إظهار حقيقتي لهم، كانت مخجلة مثل مؤخرتي. كان لا بد أن أترك انطباعًا جيدًا مهما كلف الأمر.

عن أسئلتهم أخذت أجيب بما تجود به القريحة مثل روبنسون منذ قليل مع الرجل العجوز. داخلني الزهو أنا الآخر.. مرضاي الكثر.. إرهاق العمل.. صديقي روبنسون.. المهندس، الذي استضافني في داره الريفية الأنيقة بتولوز.

فضلاً عن أن المدعو، بدايةً، عندما يكون قد أكل وشرب جيدًا، يكون سهل الإقناع. لحسن الحظ! لا شيء يدوم.

كان روبنسون قد تقدمني بنجاح أكاذيبه المرتجلة الخاطف، لم يكن اللحاق به يتطلب إلا مجهودًا صغيرًا للغاية.

بسبب النظارة السوداء التي كان يضعها، لم يكن الناس يستطيعون اكتشاف حالة عينية جيدًا.. روبنسون. رحنا نفيض في إرجاع حظه التعس إلى الحرب. منذ ذاك تحسنت وضعيتنا، ارتفعنا اجتماعيًّا ثم وطنيًّا إلى مستواهم، مضيفينا، المندهشين في البداية بعض الشيء من نزوة الزوج، الرسام، الذي كان وضعه كفنان محب للحياة الاجتماعية يضطره مع كل هذا من وقت إلى آخر إلى إتيان بعض التصرفات الغريبة.. لقد أخذ، المدعوون، يجدوننا نحن الثلاثة حقًّا ودودين بالفعل وظرفاء إلى أقصى حد.

بوصفها مخطوبة، ربما لم تقم ماديلون بدورها بالقدر اللازم من الاحتشام، أثارت كل الحاضرين، بما في ذلك النساء، إلى الحد الذي تساءلت فيه عما إذا كان كل ذلك سوف ينتهي إلى حفلة جنس جماعي. كلا. تدريجيًّا انسلت خيوط النوايا أفسدها الجهد المتعجل لتجاوز مرحلة الكلام. لم يحدث شيء.

ظللنا متعلقين بالعبارات والوسائد، مذهولين تمامًا بالمحاولة المشتركة لإسعاد أنفسنا، على نحو أعمق، بحماس وصدق أكثر وأيضًا بقدر أكبر قليلاً، بعضنا البعض، الجسد المشبع ريان، بالروح فقط، محاولتنا للقيام بكل ما يمكننا لنحصل في الوقت الراهن على كل متع الدنيا، كل الأشياء الرائعة التي نعرفها في أنفسنا وفي العالم من حولنا، حتى يستطيع أن يأخذ من يجاورنا في آخر الأمر في الاستفادة منها هو الآخر، وأن يعترف لنا، من يجاورنا، بأن ذلك هو الشعور المدهش الذي كان يسعى وراءه، وأنه لم تكن تنقصه إلا تلك المتعة من جانبنا منذ كثير وكثير من السنوات، ليكون في آخر الأمر سعيدًا تمامًا، وإلى الأبد! لأننا قد كشفنا له أخيرًا عن مبرر وجوده! وأن عليه أن

يمضي ليخبر الجميع بذلك الآن، أنه قد وجد مبرر وجوده! وأن نشرب كأسًا أخرى معًا للاحتفال بتلك اللذة وتمجيدها، وأن تستمر الحال على هذا النحو دائمًا! ألا نبدل بعد الآن أبدًا حالة السحر التي نحياها! وخصوصًا ألا نعود أبدًا إلى هذه الأوقات البغيضة، إلى الأزمنة الخالية من المعجزات، إلى الأزمنة التي سبقت تعارفنا وتلاقينا معًا بهذا الشكل الرائع. كلنا معًا من الآن فصاعدًا! أخيرًا! إلى الأبد.

صاحب البيت، عن نفسه، لم يستطع أن يتمالك نفسه من إبطال هذا السحر.

كان للرجل هوسه بالتحدث عن فنه، الذي كان يشغل باله حقًّا بكل قوة، كان يحدثنا عنه، عن لوحاته بأية مناسبة، بكل الوسائل. هكذا وبسبب حماقته المتكررة التي لا تكل، وعلى الرغم من أننا كنا مخمورين، عادت الرتابة السخيفة لتظهر بيننا ثقيلة ساحقة. شاعرًا بالهزيمة مسبقًا، رحت أكيل له بعض عبارات الثناء المحسوسة قوية التعبير المتألقة الجزلة، صاحب الدار، عبارات تسعد الفنانين. كان هذا هو ما يحتاج إليه. ما إن تلقاها، عبارات مديحي، بدا كأنه قد جامع امرأة.

ترك نفسه ينسل نحو إحدى الأرائك منتفخة الحافة ثم غفا في الحال تقريبًا، بكل دعة، سعيدًا بالتأكيد.

في أثناء ذلك الوقت كان المدعوون لا يزال بعضهم يحدق في ملامح وجوه بعض بنظرات رصاصية ثقيلة ومنبهرة على نحو تبادليّ، متأرجحين بين النعاس الذي لا يمكن مقاومته تقريبًا وملذات عملية هضم تنتمي إلى عالم المعجزات.

من ناحيتي ادخرت هذه الرغبة في النعاس وأرجأتها إلى الليل. المخاوف المتبقية عن النهار كثيرًا جدًّا ما تطرد النعاس، وعندما يكون المرء محظوظًا

بتكوين، بينما نستطيع ذلك، مخزون ضئيل من السعادة فلا بد أن يكون أحمق بالفعل ليهدره في إغفاءات سابقة لأوانها لا طائل منها.

كل شيء لليل! هذا هو شعاري! يجب أن نفكر في الليل طول الوقت. فضلاً عن ذلك فإننا أولاً سوف نبقى للعشاء، كان هذا وقت إعادة إثارة شهيتنا من جديد.

انتهزنا فرصة حالة الذهول السائدة لننسل خارجين. نفذنا نحن الثلاثة عملية خروج حذرة، رصينة تمامًا، متجنبين المدعوين الغافين المتناثرين بلطف حول أكورديون صاحبة الدار. أخذت عينا صاحبة البيت التي لطفتها الموسيقى تطرفان بحثًا عن الخيال.

"إلى اللقاء بعد قليل". قالت لنا، عندما مررنا بالقرب منها، وانتهت ابتسامتها في حلم.

لم نبتعد كثيرًا، نحن الثلاثة، فقط حتى ذلك الموضع الذي اكتشفته والذي ينعطف فيه النهر، بين صفين من أشجار الحور، أشجار حور سامقة مدببة الرؤوس جدًّا. في هذا الموقع كنا نكشف الوادي كله بل وحتى كنا نرى على البُعد تلك المدينة الصغيرة في باطنه، ملتفة حول برج ناقوس الكنيسة المغروس كمسمار في دولاب السماء.

"في أي ساعة سنجد قطارًا لنعود فيه؟" قالتماديلون على الفور وقد انتابها القلق.

"لا تقلقي!" طمأنتها. "سوف يوصلوننا بالسيارة، لقد اتفقنا على ذلك، أخبرنا بذلك صاحب الدار.. إن لديهم واحدة".

لم تلح ماديلون بعدها. ظلت سابحة في أفكارها من فرط السعادة. نهار رائع فعلاً.

"وعيناك يا ليون، كيف حالهما الآن؟" سألته آنذاك.

"إنهما تتحسنان كثيرًا. إنني لا أريد أن أخبرك بالمزيد لأنني لست متأكدًا، لكنني أعتقد فعلاً أنني بالعين اليسرى خصوصًا قد أخذت أستطيع حتى عد الزجاجات فوق المائدة.. لقد شربت كثيرًا منها، هل لاحظت ذلك؟ وكان ذلك أمرًا ممتعًا".

"اليسار، إنه ناحية القلب". علقت ماديلون في مرح. كانت سعيدة تمامًا، كان هذا أمرًا مفهومًا، من أجل عينيه، روبنسون.

"قبّلني إذًا حتى أقبّلك!" عرضت عليه. بدأت عن نفسي أشعر بأني زائد عن الحاجة في ظل هذه المشاعر المتدفقة بينهما. ومع ذلك صعُب عليَّ الابتعاد عنهما، ولأني لم أعد أعرف جيدًا من أين أمضي. تظاهرت بأني ذاهب لقضاء حاجة خلف الشجرة التي كانت بعيدة قليلاً، وبقيت هناك خلف الشجرة بانتظار أن ينتهيا من أمرهما. كان رقيقًا مرهفًا ما راح كلاهما يروي للآخر. كنت أسمعهما. حوارات غرام من أتفه ما يكون، مع هذا يبدو الأمر غريبًا دائمًا بعض الشيء عندما نعرف الناس. فضلاً عن ذلك لم أكن قد سمعتهما يقولان أشياء كهذه من قبل قط.

"أتحبني حقًّا بالفعل؟" أخذت تسأله.

"بقدر ما أحب عينَيّ أحبكِ". أجابها.

"ليس هينًا ما قلته للتو يا ليون! لكنك لم ترني بعد يا ليون؟ ربما بعد أن تراني بعينيك أنت وليس فقط من خلال أعين الآخرين، لن تعود تحبني بالقدر نفسه؟ في ذلك الوقت، سترى النساء الأخريات ثانيةً وقد تأخذ في حبهن جميعًا؟ مثل أصحابك؟"

تلك الملاحظة التي أبدتها له، في الخفاء، كانت موجهة إليَّ.. ما كنت لأخطئ في ذلك.. كانت تظنني بعيدًا ساعتها وأني لن أستطيع سماعها.. وعليه وجهت إليَّ ضربة قوية.. لم تضيّع وقتها.. أما هو، الصديق، فقد أخذ يعترض. "عجبًا والله!" قال لها. ثم إن كل ذلك لم يكن سوى افتراضات! محض افتراءات.

"أنا، يا ماديلون، كلا مطلقًا!" راح يدافع عن نفسه. "لست على شاكلته، أنا! ما الذي يجعلكِ تظنين أنني مثله؟ أبعدما كنتِ لطيفة مثلما كنتِ معي؟ أنا رجل مخلص، أنا لست نذلاً! حبي للأبد، كما قلت لكِ، إن كلمتي واحدة لا تتغير، حب للأبد، أنتِ جميلة، أعرف ذلك مسبقًا، لكنكِ ستكونين أكثر جمالاً بالفعل عندما أراكِ بعينَي.. رويدك! أراضية أنتِ الآن؟ هلا تتوقفين عن البكاء؟ ليس بوسعي على أي حال أن أقول لكِ أكثر من هذا!"

"لطيف ما قلته، يا ليون!" أجابته حينذاك وهي تأوي بكلّيتها إلى صدره. كانا منصرفين إلى تبادل العهود، لم يعد من الممكن إيقافهما، لم تكن السماء واسعة بما يكفي.

"أود أن تكوني دائمًا سعيدة معي". قال لها، بمنتهى الرفق بعدها. "ألا تكوني مضطرة إلى عمل أي شيء وأن يكون لديكِ مع هذا كل ما يلزمكِ".

"آه! كم أنت طيب القلب يا ليون الحبيب، أنت أطيب مما كنت أتصور أيضًا.. أنت رجل رقيق! مخلص!"

"وأنتِ كل شيء".

"ذلك لأني أهيم بكِ، يا هرتي الجميلة".

ثم أخذا يتحمسان أكثر، بالملامسات. ثم كأنه من أجل إبقائي بعيدًا عن سعادتهما البالغة، راحا يلعبان لعبة حقيرة قديمة.

أولاً، قالت الفتاة: "الطبيب، صديقك، رجل لطيف أليس كذلك؟" أعادت الكرَّة كأنها لا تطيق وجودي.

"إنه لطيف. إنني لا أريد أن أقول شيئًا ضده، بما أنه صديق لك، لكنه يبدو مع ذلك رجلاً فظًّا مع النساء.. إنني لا أريد أن أتقوّل عليه بالسوء، إذ أنني أعتقد أنه يحبك كثيرًا بلا أدنى شك.. لكنه على أي حال ليس من النوع الذي يروقني.. سأقول لك.. ألن يضايقك هذا على الأقل؟" كلا، لا شيء يضايقه، ليون. "على أي حال، يبدو لي أنه، الدكتور، كأنه مولع بالنساء أكثر مما يجب.. مثل النساء قليلاً، أتفهمني؟ ألا ترى ذلك أنت؟ يبدو كأنه ينقض عليهن دائمًا! يقضي وطره الخبيث ثم يمضي..ألا ترى ذلك، أنت؟ إنه كذلك؟"

كان يرى ذلك، الوغد، يرى كل ما كانت تريده، بل إنه كان يرى أن ما تقوله صحيح وباعث على الضحك. مضحك إلى أقصى حد. أخذ يشجعها على الاستمرار في لغوها حتى أُصيب بالفواق.

"نعم، ما لاحظتِه بشأنه حقيقي تمامًا، يا ماديلون، إنه ليس رجلاً شريرًا فردينان، لكن في ما يتعلق بالرقة واللباقة فليس هذا من شيمته، يمكن أن نقول ذلك، فضلاً عن أن ذلك ينطبق أيضًا على الوفاء! إنني متأكد من ذلك".

"لا بد أنك تعرف بعض عشيقاته، أليس كذلك؟ اعترف يا ليون".

إنها تستقي المعلومات، تلك اللعينة.

"كثيرًا بقدر ما يعرف!" أجابها بثبات، "لكن كما تعلمين.. فهو أولاً.. فردينان ليس متشددًا".

كان لا بد من الخروج بنتيجة ما من هذا الكلام. تكفلت ماديلون بذلك.

"الأطباء، هذا معروف جيدًا، فاسقون كلهم.. في غالب الأحيان.. لكن بالنسبة إليه، صدقني، فأنا أعتقد أنه فريد من نوعه".

لم تقولي أبدًا أصدق من هذا. قال مؤيدًا لها، صديقي الوفي، صديقي السعيد، ثم واصل: "إلى الحد الذي اعتقدت فيه كثيرًا، لشدة ما كان نهمًا في ذلك، أنه يتعاطى المخدرات.. إضافة إلى أنه كان يتمتع بواحد من هذه الأطراف، آه لو رأيتِ هذا، هذه الضخامة! شيء غير طبيعي".

"آه، آه". قالت ماديلون، مرتبكة، على الفور، محاولة تذكر طرفي. "أتعتقد إذًا أنه قد يكون مصابًا ببعض الأمراض، أخبرني؟" كانت قلقة جدًّا، أحزنتها فجأة هذه المعلومات الجنسية الخاصة.

"عن هذا، أنا لا أعرف شيئًا، عله كان مضطرًا إلى الاعتراف، على مضض، لا يمكنني أن أؤكد شيئًا.. هناك ثمة احتمالات مع الطريقة التي يعيش بها".

"مع هذا، فأنت على حق، لا بد أنه يتعاطى المخدرات.. ولا بد أنه لهذا السبب يكون أحيانًا شديد الغرابة".

أخذ رأسها الصغير يعمل، رأس ماديلون، فجأة.

أضافت: "في المستقبل لا بد أن يحترس المرء منه قليلاً".

"أنتِ لستِ خائفة منه على أي حال؟" سألها. "إنه لا يمثل شيئًا بالنسبة إليكِ، على الأقل؟ إنه لم يراودكِ عن نفسك إطلاقًا.. أليس كذلك؟"

"آه، لم يحدث هذا.. ماذا بك، ما كنت لأقبل! لكن المرء لا يعرف البتة ما يمكن أن يخطر بباله.. افترض مثلاً أن تنتابه نوبة ما.. هؤلاء الأشخاص تنتابهم النوبات، مع المخدرات! على أي حال فلست أنا من قد يهتم لأمره".

"ولا أنا أيضًا، الآن وقد تحدثنا عن الموضوع".

وافقها روبنسون في ما تقول. وبناءً عليه، عادا ثانيةً إلى الرقة والمداعبات.

"حبيبي اللطيف.. الرقيق" راحت تهدهده.

"هرتي الصغيرة. هرتي الصغيرة". كان يجيبها. ثم جاءت لحظات صمت بينهما تخللتها لحظات عواصف من القبل المستعرة.

"أخبريني سريعًا بأنكِ تحبينني بقدر ما تستطيعين، من المرات، بينما أقبِّلكِ حتى الكتف.. كانت تبدأ عند العنق، تلك اللعبة اللطيفة".

"كم أشعر بالحرارة!" صاحت متعجبة وهي تلهث.. "إنني أختنق! امنحني بعض الهواء! دعني أتنفس". لكنه لم يدعها تلتقط أنفاسها. عاود ما كان يقوم به. أنا، مستلقيًا فوق العشب بالجوار، حاولت أن أرى ما سوف يجري.

أمسك بحلمتَي ثدييها بين شفتيه وراح يلهو بهما.

في النهاية، ألعاب حب صغيرة، احمرّيت من جرائها أنا أيضًا تمامًا، ومن جراء كثير من الأحاسيس، ومندهشًا فوق ذلك تمامًا من فضولي وتطفلي.

"نحن الاثنان سوف نكون في غاية السعادة، هيا قل لي يا ليون. أخبرني أنك متأكد تمامًا من أننا سنكون سعيدين".

كانت تلك هي الاستراحة. ثم مزيد من مشروعات مستقلبية لا تنتهي أبدًا كأنها لإعادة بناء عالم بأسره، لكنه عالم وللعجب لهما وحدهما فقط. أنا بوجه خاص لم أكن فيه على الإطلاق. يكاد يظن المرء أنهما قد لا ينتهيان أبدًا من محاولاًت التخلص مني، إبعاد ذكراي البغيضة عن طريق علاقتهما الحميمة.

"منذ وقت طويل، وأنتما صديقان، أنت وفردينان؟" كان يزعجها هذا الأمر.

"سنوات، نعم.. هنا وهناك". أجابها. "التقينا أول الأمر صدفة، في أسفارنا.. إنه شخص يحب أن يرى بلادًا مختلفة.. أنا أيضًا، بوجه ما، ما بيننا يشبه ما بين اثنين قطعا معًا بعض الطريق.. منذ وقت طويل.. هل تفهمين؟"

هكذا أرجع حياتنا إلى أتفه الأسباب وأكثرها ابتذالاً.

"حسنًا! ستتوقف مسألة أنكما صديقان إلى هذا الحد، يا حبيبي! وابتداءً من الآن أيضًا!" أجابته بمنتهى الحسم، باقتضاب ووضوح.. "سيتوقف هذا! أليس كذلك، يا قطي الجميل، ألن يتوقف هذا؟ معي أنا وحدي ستقطع طريقك الآن.. هل فهمتني؟ أليس كذلك أيها الوسيم؟"

"أتغارين منه إذًا؟" سألها مع هذا متحيرًا بعض الشيء، ذلك المعتوه.

"كلا! لست أغار منه، لكني أحبك أكثر من اللازم كما ترى، يا ليون الحبيب، أود لو تكون لي بالكامل.. لا أريد أن يقاسمني فيك أحد.. وفضلاً عن ذلك فإنه بدايةً لم يعد صاحبًا مناسبًا لك الآن وأنا أحبك، ليوني العزيز.. إنه شخص رذيل، فاسق للغاية.. هل تفهم هذا؟ قل لي إنك تهيم بي عشقًا يا ليون! وإنك تفهمني".

"أنا أعبدك".

"حسنًا".

الفصل 41

المقطع الثامن والثلاثون

عدنا إلى تولوز في الليلة نفسها.

بعدها بيومين وقع الحادث. كان عليَّ مع ذلك أن أرحل، وبينما كنت منصرفًا إلى الانتهاء من إعداد حقيبتي للذهاب إلى محطة القطار إذا بي أسمع شخصًا يصيح بشيء من أمام المنزل.

أصغيت.. كان لا بد أن أسرع بالنزول على الفور إلى القبو.. لم أرَ الشخص الذي كان يناديني بهذه الطريقة، لكن من نبرة صوته بدا أن الأمر لا بد عاجل بشدة.. كان من الضروري أن أتوجه إلى هناك فورًا.

"أما من دقيقة واحدة إذًا؟ هل هناك حريق؟" أجبت، أنا، حتى أتفادى التعثر في أثناء نزولي.. لا بد أننا كنا في نحو السابعة، قبل العشاء مباشرةً. بالنسبة إلى مراسم الوداع، كان من الواجب أن نقوم بها في محطة القطار، كنا متفقين على ذلك. كان ذلك يناسب الجميع لأن العجوز كانت مضطرة إلى التأخر قليلاً في العودة إلى المنزل في ذلك المساء، تحديدًا، بسبب رحلة كانت تنتظرها في القبو.

"تعالَ سريعًا أيها الطبيب!" ألح الشخص الواقف في الشارع ثانيةً.. "لقد وقع في التو مكروه للسيدة هنرووي!"

"حسنًا! حسنًا!" رددت.. "أنا ذاهب إلى هناك فورًا! مفهوم.. أنا نازل!"

لكن امنحني بعض الوقت حتى أتمالك نفسي قليلاً: "على كل حال اسبقني". أضفت. "قل لهم إنني سأصل خلفك.. إنني أركض.. مجرد الوقت الذي أرتدي فيه بنطالي".

"لكن الأمر عاجل تمامًا!" ألح عليَّ ثانيةً ذلك الشخص.. "لقد فقدت وعيها، ها أنا أكررها لك! لقد كسرت عظمة في رأسها على ما يبدو. لقد سقطت بين درجات سلم قبوها.. سقطت إلى أسفل.. بغتة.. مرة واحدة".

"حسنًا، لا بأس!" قلت لنفسي وأنا أستمع إلى هذه القصة الطريفة، ولم أعد أحتاج إلى التفكير في الأمر ثانيةً مطولاً. انسللت، مباشرةً، إلى المحطة. كنت قد اتخذت قراري.

لقد فزت به، قطار السابعة والربع، رغم ذلك، لكن في اللحظة الأخيرة وبالكاد.

لم نتبادل تحيات الوداع.

الفصل 42

المقطع التاسع والثلاثون

بارابين، كان هو من وجد أولاً، عندما رآني، أن وجهي كان ممتقعًا.

"لا بد أنك قد أتعبت نفسك كثيرًا هناك في تولوز" قال ملاحظًا، مرتابًا، كما هو دائمًا.

صحيح أننا قد مررنا ببعض الانفعالات العاطفية هناك في تولوز، لكن على أي حال، ليس من الواجب أن أشكو، بما أنني قد نجوت، على الأقل كنت آمل ذلك، من المتاعب الحقيقية، بالفرار من هناك في الوقت الحرج.

كشفت له إذًا عن تفاصيل المغامرة كما أوضحت له في الوقت نفسه شكوكي، بارابين. لكنه لم يكن مقتنعًا بأني قد تصرفت بكثير من البراعة في تلك الحالة.. غير أننا لم نجد الوقت الكافي لمناقشة الأمر جيدًا لأن مسالة إيجاد عمل لي أصبحت حينذاك شديدة الإلحاح لدرجة أنه كان من الضروري الالتفات إليها. لم يكن هناك وقت إذًا لنفقده في التعليقات والتفاسير. لم يتبقَ لي سوى مئة وخمسين فرنكًا من المدخرات كما أني لم أعد أعرف كثيرًا من الآن فصاعدًا أين أمضي لأجد مكانًا أستقر فيه. إلى التارابو؟ ما عادوا يستخدمون عمالاً. إنها الأزمة. العودة إلى لاجارين - رانسي إذًا؟ تذوق مرارة التعامل مع الزبائن ثانيةً؟

فكرت في ذلك جيدًا خلال لحظة، رغم كل شيء، لكن كملاذ أخير فقط وعلى مضض بالفعل. لا يخبو شيء كما تخبو نار مقدسة.

كان هو، بارابين، من مدّ لي أخيرًا يد المساعدة الحقيقية بوظيفة صغيرة وجدها لي في مصحة للأمراض العقلية، التي يعمل بها، تحديدًا ومنذ عدة شهور الآن.

كانت الأمور لا تزال على ما يرام بما يكفي. في هذه الدار، لم يكن بارابين مكلفًا فقط بمساعدة المختلين في السينما، لكنه كان يهتم فضلاً عن ذلك بأمور العلاج بالشرارات الكهربية. في ساعات محددة، مرتين أسبوعيًّا، كان يطلق عواصف مغناطيسية حقيقية فوق رؤوس المكتئبين المجتمعين خصوصًا لذلك في غرفة محكمة الإغلاق ومظلمة تمامًا. شكل من أشكال الرياضة الذهنية، إجمالاً وتحقيقًا لفكرة الدكتور باريتون اللامعة، رب عمله، الذي كان من جانب آخر شحيحًا للغاية، هذا المخادع، الذي قبل بتوظيفي لقاء راتب هزيل للغاية، ولكن بعقد وبنود وشروط طويلة مسهبة، كلها في صالحه بالطبع. خلاصة القول "رب عمل حقيقي".

في مصحته العقلية لم نكن نتقاضى أجورًا تُذكر، هذا صحيح، لكن في المقابل كنا نأكل على نحو مُرضٍ وننام نومًا مريحًا تمامًا.

وكان بوسعنا أيضًا أن نضاجع الممرضات. كان أمرًا مسموحًا به ومفهومًا ضمنًا. باريتون، صاحب الدار، لم يجد في وسائل الترفيه هذه ما يوجب التعليق، بل إنه قد لاحظ أن تلك التسهيلات الجنسية كانت تربط العاملين بالمؤسسة التي يعملون بها. لم يكن غبيًّا، لم يكن متشددًا.

وفضلاً عن ذلك لم يكن هذا أولاً وقت طرح أسئلة ووضع شروط عندما يكون المرء قد مُنح للتو شريحة سخية من لحم البقر، جاءت في وقتها تمامًا، بل أكثر من ذلك.

عندما أفكر في الأمر مليًّا، لم أكن أتوصل جيدًا إلى إدراك السبب الذي جعل بارابين يكرس لي فجأة كل هذا الاهتمام الإيجابي. كان سلوكه نحوي يقلقني.

كنت أكن له مشاعر أخوية.. مع ذلك كان تجميل الأمر نوعًا من المبالغة.. لا بد أنه كان أكثر تعقيدًا أيضًا. لكن كل شيء جائز الحدوث.

كنا نتلاقى على مائدة الغداء، هذا هو العُرف، متجمعين كلنا حول باريتون، رب عملنا اختصاصي الأمراض العقلية المحنك، ذقن مدببة، فخذان قصيرتان مكتنزتان، بالغ اللطف، عندما يجري تحييد المسائل المالية، موضوع كان يثبت بشأنه، في كل مرة تتوافر له فيها الحجة وتتاح له الفرصة، أنه شخص مقزز تمامًا.

في ما يتعلق بالمعكرونة وبأنبذة بوردو اللاذعة، كان يغدق علينا، يمكننا قول ذلك، بستان كروم كامل آل إليه بالميراث، هكذا أوضح لنا. الويل لنا! لم يكن سوى كرم محلي متواضع، أؤكد لكم ذلك.

لم يكن مستشفاه في فيني - سور - سين يخلو من الرواد كثيرًا. كان يُطلَق عليه اسم "مصحة" في النشرات والكتب، بسبب حديقة واسعة تحيط به، حيث يتنزه مهاويسنا في أيام الصيف.

كانوا يجولون فيه وقد بدا مظهرهم غريبًا وهم يحاولون الحفاظ على توازن رؤوسهم الصعب فوق أكتافهم، المجانين، كأنهم كانوا يخافون باستمرار من انسكاب محتوياتها فوق الأرض إن تعثروا في مشيهم. داخل الرؤوس تتلاطم كل ضروب الأفكار المتقافزة والغريبة التي كانوا يتشبثون بها بمنتهى القوة.

لم يكونوا يحدثوننا عن كنوزهم الذهنية، المجانين، إلا بكثير من الالتفافات المذعورة أو مظاهر التنازل والتفضل، على طريقة كبار رجال الإدارة المدققين النافذين جدًّا. حتى لقاء إمبراطورية لم يكونوا ليخرجونها من رؤوسهم هؤلاء الناس، كنوزهم الذهنية. المجنون، ليس إلا الأفكار العادية لرجل ما لكنها حبيسة الرأس بكل إحكام.

لا يمر العالم برأسه، هذا يكفي. يصبح مثل بحيرة بلا نهر، الرأس المغلق، عدوى.

يتزود باريتون بالمعكرونة والخضراوات من باريس وبالجملة. لهذا لعلنا لم نكن محبوبين كثيرًا من تجار فيني - سور - سين. بل إنهم لم يكونوا يطيقوننا، يمكننا أن نقول ذلك. لكن تلك العداوة لم تكن لتنال من شهيتنا. على المائدة، في بداية فترة تدريبي، كان باريتون يستخلص النتائج من أحاديثنا غير المترابطة. لكن لأنه أمضى حياته وسط المختلين عقليًّا يكسب عيشه من الاتجار بهم، يشاركهم طعامهم، يتصدى بقدر ما يستطيع لحماقاتهم ويحيِّد تأثيرها، فلم يكن هناك شيء يبدو له أكثر إزعاجًا من أن يضطر أحيانًا إلى الحديث عن عادتهم الغريبة وهوسهم في أثناء وجبات الطعام. "لا يجب أن يؤتَى على ذكرهم في أحاديث العقلاء، العاديين!" كان يؤكد مدافعًا عن رأيه على نحو حاسم، في ما يخصه كان يكتفي بهذا القدر من قواعد علوم الصحة النفسية.

عن نفسه، كان باريتون يحب الحديث، وبطريقة تكاد تنم عن القلق، يحب أن يكون الحديث مسليًا ومطمئنًا بصورة خاص ورصينًا بالطبع. لم يكن يحب البتة أن يطيل الحديث عن المعتوهين.

كان لديه نفور غريزي منهم يكفيه للأبد. وفي مقابل ذلك كانت حكايات أسفارنا تسلبه عقله.. لم نكن نمنحه منها ما يكفي مطلقًا.

منذ وصولي، أُعفي جزئيًّا من ثرثرته، بارابين.

لقد جئت في الوقت المناسب تمامًا لتسلية رب عملنا في أثناء تناول الطعام. عرضت له خلال ذلك كل رحلاتي، مروية بإسهاب، منسقة بالطبع، متخذة، كما ينبغي، شكلاً أدبيًّا، مضحكًا.

عندما يأكل، يصدر باريتون، بلسانه وفمه، كثيرًا من الضجة. تجلس ابنته دائمًا إلى يمينه. ورغم سنواتها العشر كانت تبدو منذ الآن كمن فقدت نضارتها إلى الأبد.. ابنته إيميه Aimee.

شيء ما.. لا حياة فيه، لون رمادي لا شفاء منه، كان يحجب إيميه عن أنظارنا، كما لو كان بعض السحب الخبيثة الصغيرة يمر باستمرار أمام وجهها.

بين بارابين وباريتون تطرأ أحيانًا بعض المشاحنات الصغيرة. إلا أن باريتون لا يُكن لأحد أي ضغينة ما دام لا يجري التدخل في أرباح مؤسسته. كانت حساباته تمثل، لزمن طويل، الجانب المقدس الوحيد في حياته.

ذات يوم، في الوقت الذي كان لا يزال يتحدث إليه فيه، أخبره، بارابين، بكل صراحة ونحن جالسون إلى المائدة أنه يفتقر إلى الأخلاق.

في البداية، كدرت خاطره هذه الملاحظة، باريتون. واستقامت كل الأمور بعد ذلك. لا يغضب المرء لسبب تافه كهذا. عندما كنت أروي له قصص رحلاتي، لم يكن باريتون يشعر بتأثيرات عاطفية مثيرة للخيال فقط، بل كان يشعر بأنه يحقق بعض المدخرات أيضًا. "عندما نسمعك، لا تعود بنا حاجة إلى الذهاب لرؤيتها، هذه البلاد، لشدة ما تصفها جيدًا يا فردينان!" لم يكن بوسعه أن يفكر في توجيه كلمة إطراء أرق من هذه. لا نستقبل في مصحته إلا المختلين الذين يمكن مراقبتهم بسهولة ولا يقبل مطلقًا المجانين شديدي الخطر والقتلة صراحةً. لم تكن مصحته مكانًا كئيبًا على الإطلاق. قليل من الأسيجة الحديدية، بضع معازل ضيقة فقط.

الشخص الأكثر إثارة للقلق، ربما من بين كل النزلاء أيضًا، كانت الصغيرة إيميه ابنته. لم تكن تعد من بين المرضى تلك الطفلة، غير أن البيئة التي تحيا فيها قد تسلطت عليها.

من وقت إلى آخر، كانت بعض الصرخات تصلنا حتى في قاعة الطعام، لكن سبب تلك الصرخات كان دائمًا تافهًا إلى حد كبير.

فضلاً عن أنها لم تكن تستمر طويلاً. لاحظنا أيضًا بعض نوبات هياج طويلة ومفاجئة كانت تهز من وقت إلى آخر جماعات المرضى، بلا سبب، في أثناء جولاتهم التي لا تنتهي، بين مضخة الماء، الخمائل وأحواض زهور البيجونيا الكثيفة. دون مشاكل عويصة ومخاوف وأهوال، كان كل ذلك ينتهي بحمامات دافئة وقوارير من أدوية شراب تحتوي على خلاصة الأفيون.

أحيانًا يأتي المجانين إلى نوافذ قاعات الطعام المطلة على الشارع ليصرخوا وليستثيروا الجيران، لكن الرعب كان يظل بالأحرى داخلهم. كانوا يراعونه ويحافظون عليه، رعبهم، بصورة شخصية، من كل محاولاتنا العلاجية.

كانت هذه المقاومة تستهويهم.

عندما أفكر الآن في كل المجانين الذين عرفتهم في مصحة الأب باريتون، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الشك في وجود أي منجزات حقيقية أخرى لطبائعنا الخفية العميقة غير الحرب والمرض، هذين الكابوسين اللذين لا ينتهيان مطلقًا.

المشقة الكبرى في الحياة بالاختصار، ربما ليست سوى ذلك الجهد الخائب الذي نبذله لنظل عشرين عامًا، أربعين عامًا، وأكثر، عقلاء، منطقيين، حتى لا يكون الواحد منا ببساطة نفسه إلى حد كبير، أي خبيثًا، بشعًا، أخرق. كابوس أن نضطر دائمًا إلى إظهار الإنسان الدوني الناقص الكسيح الذي أعطتنا إياه الطبيعة في صورة مثل أعلى عالمي، إنسان راقٍ متفوق من الصباح إلى المساء.

من المرضى، كان لدينا بالمصحة، من كل المستويات يقيم الأكثر ثراءً في غرف مبطنة بإتقان على طراز لويس الخامس عشر، إلى هؤلاء، كان باريتون

يقوم كل يوم بزيارته المعتادة باهظة الكلفة. كانوا ينتظرونها. من وقت إلى آخر، كان باريتون يتلقى صفعتين بارعتين، مذهلتين حقًّا، تم التفكير طويلاً قبل الإقدام عليهما. على الفور كان يقيد ذلك في الحساب تحت بند "علاج خاص".

إلى المائدة، يظل بارابين على تحفظه، ليس لأن نجاحاتي الخطابية أمام باريتون كانت تزعجه على الإطلاق، بالعكس، كان يبدو بالأحرى أقل انشغالاً وهمًّا مما كان عليه في الماضي، أيام الميكروبات، وأخيرًا، راضيًا تقريبًا. يجب أن نشير إلى أنه كان يشعر بخوف هائل بسبب مشكلاته مع القاصرات. ظل بسببها يعاني بعض الارتباك تجاه النساء. في ساعات الفراغ، يروح يحوم حول مروج المصحة، هو الآخر، تمامًا مثل أي مريض، عندما كنت أمر بالقرب منه، كان يوجه نحوي ابتسامات لطيفة، غير أنها كانت حائرة، غامضة للغاية، باهتة للغاية، لدرجة أن المرء يظنها ابتسامات وداع.

بقبولنا نحن الاثنين في طاقم عمله الفني حقق باريتون مكسبًا طيبًا، لأننا لم نقدم إليه إخلاصنا وتفانينا الدائم فقط لكننا وفرنا له أيضًا مصدرًا للتسلية، وكذلك أصداء هذه المغامرات التي حُرِمَ منها وكان يشتهي القيام بها. لذلك كان كثيرًا ما يسره أن يعرب لنا عن رضاه. لكنه كان يُظهر أحيانًا بعض التحفظات في ما يخص بارابين.

مع بارابين، لم يكن مطلقًا على سجيته "إن بارابين.. لو تعلم يا فردينان.. قال لي سرًّا، روسي الأصل!" واقع أن يكون المرء روسيًّا، بالنسبة إلى باريتون، كان أمرًا تصويريًّا، بِنويًّا، تشكُليًّا، لا يمكن غفرانه، بقدر ما يكون وصف شخص بأنه "مصاب بمرض السكري" أو " زنجي وضيع". منطلقًا في هذا الموضوع الذي ظل يثقل على روحه منذ شهور طويلة، شرع في حضوري ولصالحي الخاص في إجهاد عقله للغاية.. لم أكن أعرفه جيدًا باريتون. ذهبنا معًا وقتها إلى متجر التبغ في البلدة لنبتاع بعض السجائر.

"بارابين، كما تعلم يا فردينان، فتى، فتى أراه في غاية الذكاء، هذا أمر مفروغ منه.. لكنه مع ذلك يحظى بذكاء استبدادي نوعي تمامًا هذا الفتى! ألا ترى ذلك يا فردينان؟ (كان ينطق كلمة تمامًا على هذا النحو.. entieremeng). إنه، أولاً، صبي لا يريد أن يتكيّف مع الأوضاع.. إننا نلاحظ هذا عليه فورًا..

بل إنه حتى لا يشعر بالارتياح في عمله. بل إنه حتى لا يشعر بالارتياح في هذا العالم! لتعترف بذلك! إنه مخطئ في هذا مخطئ تمامًا! بما أن الوضع لا يعجبه.. هذا هو الدليل.. خذ عندك، أنا، انظرْ كم أتكيّف يا فردينان! (قالها وهو يربت على عظمة القص في صدره). لو أخذت الأرض مثلاً غدًا في الدوران في الاتجاه الآخر.. ماذا أفعل حينذاك؟ سوف أتكيّف مع الوضع، يا فردينان! وفي الحال أيضًا! وهل تعرف كيف، يا فردينان؟ سوف أنام عميقًا لمدة اثنتي عشرة ساعة إضافية! هذا كل ما في الأمر! ليس أكثر، وهوب! المسألة بهذه البساطة. هكذا سيجري الأمر! سأكون قد تكيّفت! أما صاحبك بارابين، عن نفسه، فهل تعرف ماذا سوف يفعل في مغامرة كهذه؟ سوف يجتر بسببها مشروعات وهمومًا لمدة مئة سنة قادمة أيضًا! أنا متاكد من هذا أؤكد لك هذا! أليس هذا صحيحًا؟ سيطير النعاس من عينيه بمجرد أن تأخذ الأرض في الدوران في الاتجاه المعاكس! سوف يرى في ذلك ظلمًا خاصًّا لا أدري ما هو! كثيرًا جدًّا من الظلم! هذا هو هوسه على كل حال، الظلم! لقد حدثني كثيرًا جدًّا عنه، عن الظلم في الوقت الذي كان لا يزال يتنازل فيه بالتحدث إليَّ.. ثم هل تعتقد أنه سوف يكتفي بالتباكي؟ لن يكون ذلك إلا شرًّا غير مكتمل! لكن لا يا سيدي! سوف يبحث على الفور عن طريقة لنسفها، الأرض! حتى ينتقم لنفسه يا فردينان! الأسوأ في ذلك، سأقول لك ما هو الأسوأ، يا فردينان! لكن هذا بيني وبينك فقط.. الأسوأ أنه سوف يجدها، تلك الطريقة! نعم كما أقول لك! آه! اسمع يا فردينان وحاول أن تعي جيدًا ما سوف أكشف لك عنه.. هناك مجانين عاديون.. بسطاء، ثم هناك مجانين غير ذلك، أولئك الذين تؤرقهم فكرة الحضارة المتسلطة عليهم.. يفزعني أن أظن أن بارابين يجب أن يوضع في عداد هؤلاء! هل تعرف ماذا قال لي ذات يوم؟"

"كلا يا سيدي".

"حسنًا، لقد قال لي: (بين القضيب والرياضيات يا سيد باريتون، لا يوجد شيء! لا شيء! إنه الفراغ!) ثم إليك هذا أيضًا! هل تعرف ماذا ينتظر ليكلمني من جديد؟"

"كلا، يا سيد باريتون، لا، لا أعرف عن ذلك شيئًا على الإطلاق".

"إنه لم يخبرك بهذا إذًا؟"

"كلا، ليس بعد".

"حسنًا إذًا، عن نفسي، أنا، قد أخبرني بذلك.. إنه ينتظر قدوم عصر الرياضيات! بكل بساطة! إنه مصمم كل التصميم! كيف ترى هذه الطريقة الوقحة التي يتصرف بها نحوي؟ أنا الأكبر منه سنًّا؟ رئيسه في العمل".

كان لا بد لي أن أضحك قليلاً حتى تنتهي بيننا لحظة الخيال المغالَى فيه هذه. لكن باريتون لم يعد يحتمل التفاهات. بل إنه قد وجد الطريقة للسخط على كثير من الأشياء الأخرى..

"آه! يا فردينان! إنني أرى أن كل هذا لا يبدو مهمًّا بالنسبة إليك.. عبارات بريئة، ترهات مبالغ فيها من بين ترهات أخرى كثيرة.. هذا هو ما يبدو أنك استنتجته.. ليس أكثر من هذا.. أليس كذلك؟ أيا فردينان المتهور! دعني على العكس أحذرك بكل قوة من هذه الهفوات، التافهة في الظاهر فقط! أقول لك صراحةً إنك مخطئ تمامًا! مخطئ تمامًا! مخطئ ألف مرة في الواقع! إنني خلال مشواري المهني، لعلك تثق بأني قد سمعت تقريبًا كل ما يمكن سماعه هنا وفي أي مكان آخر بشأن ألوان الهذيان الهادئة والحادة العنيفة! لم يفتني منها شيء! أنت تثق بما أقول، أليس كذلك يا فردينان؟ ثم إني لا أترك الانطباع أيضًا بأني أميل إلى إشاعة القلق، لا بد أنك قد لاحظت ذلك بكل

تأكيد، فردينان.. لست ميالاً إلى المبالغات؟ لا، أليس كذلك؟ إن تأثير كلمة ما، بل وحتى الكثير من الكلمات بل وحتى عبارات وخطب بكاملها لا تكفي للوقوف أمام تقديري! أنا بسيط النشأة إلى حد كبير وبحسب طبيعتي ولا يمكن أن يُنكر عليَّ هذا، أن أكون واحدًا من هؤلاء البشر المكبوتين إلى حد كبير جدًّا الذين لا تخيفهم الكلمات مطلقًا.. إذًا، يا فردينان، بعد تحليل نزيه، في ما يتعلق ببارابين، أجد نفسي مضطرًا إلى أن آخذ حذري! إلى الإعراب عن أكثر التحفظات صراحةً.. إن تهوره وغرابة أطواره لا تشبه أيًّا من تلك التجاوزات غير المضرة والشائعة.. إن غرابته تنتمي على ما بدا لي إلى أحد أشكال التفرد النادرة والمخيفة، واحدة من هذه النزوات المعدية بسهولة: الاجتماعية والسائدة باختصار! قد لا تكون المسألة هي الجنون بالفعل إلى الآن في ما يتعلق بحالة صديقك.. كلا! ربما لا يكون الأمر سوى اعتقاد مبالغ فيه.. لأني خبير في ما يتعلق بصور الجنون المعدي.. ليس هناك أكثر من الاعتقاد المبالغ فيه! لقد عرفت عددًا كبيرًا منهم، أنا الذي أحدِّثك يا فردينان، من أشكال هؤلاء المقتنعين ومن مصادر متعددة الوجوه أيضًا! وقد بدا لي أن هؤلاء الذين يتحدثون عن العدالة، آخر الأمر، كانوا الأكثر هوسًا وسعارًا! في البداية أثار اهتمامي قليلاً محبو العدالة هؤلاء، أعترف بذلك.. أما الآن فهم يثيرون ضيقي، إنهم يغيظونني إلى أقصى حد هؤلاء المهووسون..أليس هذا هو رأيك؟ إننا نكتشف لدى البشر لست أدري أي إمكانية للتحول على هذا النحو الذي يرعبني وذلك عن كل البشر، هل تفهمني؟ لاحظ ذلك يا فردينان! عند الجميع! كما هو الحال بالنسبة إلى الكحول أو الجنس.. الاستعداد الفطري نفسه.. المصير المحتوم نفسه.. منتشر إلى أقصى حد.. هل تضحك يا فردينان؟ أنت تخيفني بدورك الآن! أنت الضعيف! سريع التأثر! المتقلب! يا فردينان المحفوف بالمخاطر! عندما أتذكر أني قد ظننتك رجلاً جادًّا، أنا! لا تنسَ أني رجل عجوز، يا فردينان، يمكن أن أمنح نفسي ترف الاستخفاف بالمستقبل! سيكون هذا جائزًا لي! أما بالنسبة إليك!"

مبدئيًّا، كنت دائمًا وفي كل الأمور، متفقًا مع رأي رئيسي في العمل. لم أكن قد أحرزت أي تقدم عملي مهم خلال حياتي النكدة المتعبة، لكني قد تعلمت مع ذلك المبادئ الصحيحة لآداب السلوك ومراسم العبودية. بفضل هذه الاستعدادات، أصبحنا على الفور، أنا وباريتون، صديقين بالفعل حتى ننتهي من الأمر، لم أكن معارضًا قط، أنا، ولم أكن آكل كثيرًا على المائدة.

باختصار كنت مساعدًا لطيفًا، اقتصاديًّا تمامًا، لا أطمح إلى قرش واحد، لا أمثل أي خطر.

الفصل 43

المقطع الأربعون

تقع ڤيني - سور - سينْ بين هويسين، بين منحدريها الاثنين العاريين من الخضرة، قرية تنمو وتنسلخ عن ضاحيتها. سوف تستولي عليها باريس.

كل شهر، تفقد البلدة حديقة. تبرقشها الإعلانات، من مدخلها بالخطوط والألوان كالباليه الروسي. أصبحت ابنة المحضر تعرف طرق إعداد "الكوكتيلات". لم يعد هناك سوى الترام الذي يصر على أن يصير تاريخيًّا، لن يرحل عنها دون ثورة، الناس قلقون، الأطفال منذ الآن، لم تعد لهم لهجة آبائهم نفسها. يجد المرء نفسه كأنه محرج عندما يتذكر أنه لا يزال ينتمي إلى بلدة سنْ - ايه - واز seine _et _ oise. المعجزة في طريقها إلى التحقق. اختفت آخر حديقة صغيرة بوصول لافال laval إلى الحكم ورفعت خادمات البيوت أسعارهن بمقدار عشرين قرشًا للساعة منذ بداية موسم الإجازات. أُعلن عن وجود سمسار لسباقات الخيل (مكتب مراهنات). موظفة تحصيل البريد تشتري روايات الشذوذ وتتخيل منها أحداثًا أكثر واقعية بكثير. يتأفف القس عندما يُستدعَى ويقدم إلى المهتدين نصائح في البورصة. نهر السين قُضي على أسماكه وتأمرك بين صف مزدوج من القلابات الجرّارات. الكسّاحات التي تبدو بمحاذاة الضفتين كطاقم أسنان مرعب من نفايات الحديد والعفن. دخل ثلاثة من مهندسي المساحة السجن مؤخرًا. الأمور تنتظم.

لم يفت باريتون هذا التحول العقاري. تأسف بمرارة لأنه لم يفطن، قبل عشرين عامًا من الآن إلى شراء مزيد من قطع الأراضي الأخرى في الوادي

المجاور، حين كان ملاك الأراضي لا يزالون يرجون منك شراءها لقاء أربعة قروش للمتر المربع، كالفطائر غير الطازجة.

انقضى زمن الحياة الرخية. لحسن الحظ ما زال معهده للعلاج النفسي يقاوم على نحو سلمي. مع ذلك لم يسلم الأمر من بعض العناء. العائلات النهمة والمتعطشة لا تكف عن استصراخه مطالبة بالمزيد وباستمرار بأحدث النظم العلاجية، أكثرها كهربائيةً، أكثرها غموضًا، أكثرها في كل شيء.. وخصوصًا أكثر الآلات عصرية، أعظم الأجهزة وأكثرها تأثيرًا في النفس وفي الحال أيضًا، وكان عليه أن يبدأ التنفيذ فورًا مخافة أن تتجاوزه منافسة تلك الدور المتشابهة الكامنة في الغابات المجاورة في آنيير، في باسي، في مونترتو، المترصدة هي الأخرى بكل معتوهي الدرجة الأولى.

بادر باريتون، مسترشدًا ببارابين، بالخضوع لذوق العصر، بأفضل الأسعار دون أدنى شك وبشراء المُخفَّض، المستعمَل، الخاضع للتصفية، لكن دون أن يتوقف، مستعينًا بالآلات الحديثة، كهربائية، غازية، هيدروليكية، عن الظهور بمظهر الأفضل تجهيزًا ليتمكن من ملاحقة نزوات النزلاء التافهين والأثرياء المحظوظين. كان يئن من كونه مضطرًا إلى مظاهر ترف لا طائل منها.. من كونه مجبرًا على استرضاء حتى المجانين..

"في الوقت الذي افتتحتُ فيه مصحتي، أسرَّ لي ذات يوم، كاشفًا عن أسفه، كان ذلك قبل المعرض بالضبط، يا فردينان، المعرض الكبير.. لم نكن، نحن اختصاصيو الأمراض العقلية، نشكِّل إلا عددًا محدودًا جدًّا من الأطباء الممارسين، وكنا أقل فضولاً وتطفلاً وأقل انحطاطًا من أيامنا هذه، أرجوك أن تصدق هذا! لم يكن أحد من بيننا يحاول آنذاك أن يكون مجنونًا بقدر العميل المريض.. لم يكن العالم قد وصل بعد إلى الهذيان تحت ذريعة العلاج على نحو أفضل، إنها صرعة داعرة لاحظ ذلك، مثل كل ما يأتينا من الخارج تقريبًا.

في أيام بداياتي كان الأطباء الفرنسيون حينها لا يزالون يحترمون أنفسهم! يا فردينان. لم يكونوا يظنون أنهم سوف يضطرون إلى الهذيان في الوقت نفسه مثل مرضاهم.. بقصد مسايرتهم بلا شك؟ ما أدراني أنا؟ بقصد إرضائهم؟ إلى أين سوف يوصلنا هذا؟ دعني أسألك.. إلى أين؟ لفرط ما كنا أكثر دهاءً، أكثر سقمًا، أكثر فسادًا أو انحرافًا من المضطهدين الأكثر اختلالاً في مصحاتنا، لفرط ما تقلبنا بما يشبه عنجهية جديدة حقيرة في كل صور العته التي يقدمونها إلينا، إلى أين نمضي؟ هل بإمكانك أن تطمئنني يا فردينان، على مصير عقلنا وصوابنا؟ وحتى على مصير مجرد التفكير السليم؟ بهذه الوتيرة ماذا سوف يتبقى لنا من التفكير السليم؟ لا شيء؟ هذا أمر متوقع.. لا شيء على الإطلاق! يمكنني أن أتنبأ لك بهذا.. هذا بديهي.

أولاً يا فردينان ألا ينتهي الأمر بالجميع إلى التساوي في ظل وجود عقل عصري فعلاً؟ لم يعد هناك أبيض! كما لم يعد هناك أسود أيضًا! كل شيء يهترئ وتنسل خيوطه! هذا هو الجنس الجديد! إنها الموضة الجديدة! لماذا لم نصبح بناءً على ذلك نحن أنفسنا مجانين؟ في الحال! كبداية! ونفخر بذلك أيضًا نجاهر بالفوضى الروحية الكبرى! نقوم بالدعاية لجنوننا! من يستطيع أن يوقفنا؟ إنني أسألك يا فردينان. أهي بعض المبادئ الإنسانية السامية وعديمة الجدوى؟ أي أوهام حياء تافهة أيضًا؟ أليس كذلك؟ خُذْ عندك، يحدث، عندما أستمع إلى بعض زملائنا، ولاحظ ذلك يا فردينان، أن هؤلاء الزملاء من بين أكثر من يحظون بالتقدير والاعتبار، أكثر المرغوبين من المرضى العملاء، الجهات والمجامع العلمية، يحدث أن أسأل نفسي إلى أين يقودوننا! كان هذا جهنميًّا في الحقيقة! إن هؤلاء المجانين الهائجين يحيرونني، يقلقونني، يشيطنونني وعلى محو خاص يثيرون اشمئزازي! مجرد سماعهم وهم ينقلون إلينا خلال أحد هذه المؤتمرات العصرية نتائج أبحاثهم الواسعة، كان يصيبني بالذعر يا فردينان، ذعر يسحب الدم من الوجه! يخونني صوابي لمجرد سماعهم.. ممسوسين، فاسقين، مضللين، مراوغين، يدفعنا، صفوة الطب النفسي الحديث المنتقاة هؤلاء، بتحليلاتهم (السوبرشعورية) بكل بساطة إلى

المهالك! في يوم ما، إذا لم تتخذوا موقفًا يا فردينان، أنتم الأطباء الشبان، سوف نموت، افهمني جيدًا، نموت! لفرط ما ضخموا ذواتنا، صعّدونا وشغلوا عقولنا، في الناحية الأخرى من العقل، في الناحية الجهنمية، هذه، في الناحية التي لا يعود المرء منها! على أي حال! إنهم يبدون الآن، هؤلاء المهرة المتفوقون، الأشرار، كأنهم محبوسون في قبو الملاعين، لفرط ما يستمنون عقولهم ليل نهار!

إنني أؤكد ليل نهار لأنك تعلم يا فردينان أنهم لم يعودوا يتوقفون حتى في الليل عن الزنا بأنفسهم طوال أحلامهم هؤلاء الأوغاد السفلة! ليس هناك ما يضاف! ها أنا أحفر داخلك! وأوسع لك العقل! أُرهقه! ثم لا يعود، حولهم، إلا ما يشبه عصيدة مقززة من النفايات العضوية، خبيصة من أعراض الهذيان المتداخلة المهشمة التي ترشح وتقطر منهم من كل مكان.. أيدينا ملأى بما تبقى من الروح والعقل، يصبح المرء ملطخًا بها، مضحكًا، مستهترًا، كريه الرائحة.

سينهار كل شيء، يا فردينان، كل شيء ينهار، أنا أتنبأ لك بهذا، أنا باريتون العجوز، وليس بعد وقت طويل أيضًا! وسوف ترى ذلك بنفسك يا فردينان، التشتت والفوضى العظيمة! لأنك ما زلت شابًّا! سوف ترى ذلك! آه! أبشرك فيها بأفراح عامة! سوف تدخلون جميعًا فيها على الجار! هوب! في نوبة جنون مفاجئة! إضافية! نوبة زائدة! وهيا! إلى الأمام، إلى المجنون! أخيرًا! سوف تتحرون (تنتحرون؟) كما تقولون! لقد راودكم ذلك كثيرًا منذ وقت طويل بأكثر مما يجب من حيث الجرأة، سيكون ذلك ضربًا من الجرأة! لكن عندما تصيرون عند المجنون أصدقائي الأعزاء! أؤكد لكم أنكم سوف تبقون هناك!

لتعِ هذا جيدًا يا فردينان، ما يُعد بداية النهاية لكل شيء هو اختلال التوازن! الطريقة التي بدأت بها مرحلة الفوضى العظمى، الانحلال العظيم، أنا في موقع يمكنني من إخبارك بهذا.. لقد بدأت بخضوع معايير الاعتدال للأهواء! بالمبالغات والتطرفات الأجنبية! لا يعود هناك توازن، معيار ثابت، لا تعود هناك

قدرة! كان ذلك مقدرًا! إلى العدم إذًا هذا العلم بأسره؟ لمَ لا؟ الكل؟ اتفقنا؟ فضلاً عن أننا لا نمضي إلى ذلك سيرًا، نحن نركض إليه، إنه اندفاع حقيقي! لقد رأيته أنا يا فردينان، العقل، يتخلى شيئًا فشيئًا عن توازنه ثم ينحل ويذوب في محاولته الكبرى لتحقيق رغبات رؤيوية شديدة الغموض، لقد بدأ هذا نحو عام 1900.. إنه تاريخ مهم! ابتداءً من ذلك الوقت لم يعد هناك في العالم على نحو عام وفي علم الصحة النفسية على نحو خاص سوى تسابق محموم إلى من يصبح أكثر انحرافًا، أكثر شهوانيةً، أكثر أصالةً وإبداعًا، أكثر إثارةً للاشمئزاز، أكثر ابتكارًا وعبقريةً خلاقة، كما يقولون، من زميله العزيز!

يا له من خليط غريب! تسابق إلى من يكرس نفسه للوحش بأسرع ما يمكن، إلى الحيوان عديم الرحمة، النخوة، بهيمة بلا قلب، بلا رادع! سوف يلتهمنا جميعًا ذلك الوحش، يا فردينان، هذا مؤكد ونحن نستحقه! الوحش؟ وحش عنيد مغرور يمضي كيفما شاء! حروبه وأحاديثه الخبيثة أخذت تشتعل نحونا منذ الآن ومن كل الجهات! ها نحن في قلب الطوفان! بكل بساطة! آه كنا نشعر بالملل على ما يبدو في حالة الوعي! لن نشعر بالملل ثانيةً! بدأنا باللواط، من باب التغيير.. وحينذاك بدأنا على الفور في الشعور بها، (الانطباعات) (الإحساسات الداخلية).. كالنساء!

هل ما زال من الضروري على أي حال، في وضعنا الحالي، أن نربك أنفسنا بمصطلح منطقي مراوغ؟ بالطبع لا! سيكون المنطق بالأحرى ضربًا من الإزعاج في وجود علماء نفسيين مهرة ومدققين إلى أقصى حد كما يشكلهم عصرنا هذا، تقدميين بالفعل.. إنك لن تدعي بسبب يا فردينان أني أحتقر النساء! بالطبع لا! أنت تعرف ذلك جيدًا! غير أني لا أحب انطباعاتهن! أنا شخصيًّا حيوان ذو خصيتين يا فردينان وعندما أمسك بحقيقة ما، أجد صعوبة كبيرة في إفلاتها من يدي.. اسمع، منذ عدة أيام وقعت لي بهذا الشأن حادثة طريفة.. طُلب مني أن أستقبل أحد الكُتَّاب.. كان يهذي، هذا الكاتب.. هل تعرف ما كان يصرخ به منذ أكثر من شهر؟ (إننا نُقتَل! نحن نُصَفى!) هكذا راح

يصرخ علينا في أنحاء الدار.. كان قد انتقل إلى الجانب الآخر من العقل، من الصواب! لكن ذلك لأنه كان لا يزال تحديدًا يعاني كل آلام الدنيا حتى يتخلص من بوله.. تقلص مزمن كان يسممه بالبول، يسد مثانته.. لم أكن أتوقف عن جسه وتحسس مثانته، لم أتوقف عن تخليصه من البول قطرة بقطرة.. كانت الأسرة تصر على أن ما أصابه كان ناتجًا رغم كل شيء عن عبقريته.. حاولت بلا جدوى أن أوضح لها، الأسرة، أن المثانة بالأحرى هي ما كانت مصابة عند كاتبهم، لكنهم لم يكونوا ليتراجعوا عن رأيهم.. بالنسبة إليهم، أنه قد أنهار في لحظة عبقرية مفرطة وهذا كل ما في الأمر.. كان لا بد أن أوافقهم الرأي في نهاية الأمر. أنت تعرف يا فردينان ماذا تعني أسرة ما.. أليس كذلك؟ من المستحيل أن تجعل أسرة تفهم أن رجلاً ما، قريبًا لها أم لا، ليس على كل حال إلا حالة انحلال وتعفن مؤجل.. إنها سترفض أن تدفع من أجل تعفن مؤجل..

منذ أكثر من عشرين عامًا لم يكف باريتون مطلقًا عن إرضائها في أباطيلها المتكلفة صعبة الإرضاء، العائلات. كانت تنكد عيشه، هذه العائلات. صبور ومتزن للغاية كما أعرفه، كان يكتم مع ذلك في قلبه بقايا بغض قديم زنخ بالفعل حيال عائلات المرضى.. في الوقت الذي كنت أعيش فيه إلى جواره، كان مرهقًا وراح يسعى سرًّا وبكل إصرار على تحرير نفسه، على التخلص نهائيًّا من استبداد العائلات، بطريقة أو بأخرى.. لكل منا أسبابه للخلاص من بؤسه الخاص ولتحقيق ذلك يسلك كل منا، تبعًا للظروف، طريقًا مبتكرًا. محظوظون من كان الماخور يكفيهم!"

بارابين، في ما يتعلق به، كان يبدو راضيًا باختياره طريق الصمت. أما باريتون، ولم أدرك ذلك إلا فيما بعد، كان يسأل نفسه حقًّا إنْ كان سوف يتمكن يومًا من التخلص من العائلات، من استبدادهم، من آلاف التفاهات البغيضة لعلم الصحة النفسية الغذائي، من وضعه إجمالاً.

كان يتوق بشدة إلى أمور جديدة تمامًا ومختلفة، لدرجة أنه كان في الحقيقة جاهزًا للهروب والفرار، من هذا، جاءت بلا شك أحاديثه الانتقادية الطويلة التي لا يقاطعه فيها أحد.. كان حبه لذاته يذوي تحت وطأة رتابة الأعمال الروتينية. لم يعد بمقدوره أن يسمو بشيء، كان يريد أن يمضي من هناك فقط، أن يحمل جسده إلى مكان آخر. لم تكن لباريتون مهارة الموسيقِي، كان لا بد له إذًا أن يطيح كدبّ بكل شيء حتى ينتهي من الأمر.

سوف يتحرر، هو الذي يظن نفسه منطقيًّا، عن طريق فضيحة مؤسفة تمامًا. سأحاول أن أروي لكم فيما بعد، على مهل، بأية طريقة جرت الأمور.

في ما يخصني أنا، كانت مهنة مساعد في مصحته تبدو، في الوقت الحاضر، مقبولة تمامًا.

مهام العلاج الروتينية لم تكن شاقة في شيء، مع ذلك كان من الطبيعي أن ينتابني، من وقت إلى آخر، انحراف مزاج بسيط عندما أتحدث مثلاً مع النزلاء لوقت أطول مما يجب، يسحبني آنذاك ما يشبه دوارًا كما لو كان النزلاء قد اصطحبوني، معهم، بعيدًا عن ضفتي المعتادة، دون أن يبدو عليهم ذلك، من عبارة عادية إلى أخرى، بكلمات بريئة، حتى قلب هذيانهم. لبرهة قصيرة رحت أتساءل عن كيفية الخلاص، وإن لم أكن بالصدفة قد سُجنت مع جنونهم إلى الأبد، دون أن أقصد ذلك.

كنت أقف على ضفة الحمقى الخطرة، على حافتهم إنْ جاز القول، لفرط ما كنت ودودًا معهم دائمًا، كطبيعتي. لم أكن أترنح، لكني كنت أشعر بالخطر طول الوقت، كما لو كانوا قد اجتذبوني بمكر إلى أحياء مدينتهم المجهولة. مدينة كانت شوارعها تصير رخوة أكثر فأكثر كلما توغلنا بين بيوتهم مطموسة المعالم، النوافذ المتداعية وغير المغلقة جيدًا، على هذه الضجة المريبة الغامضة. الأبواب، الأرض غير الثابتة.. مع هذا تأخذك الرغبة في المضي أبعد قليلاً لتعرف ما إذا كنتَ قادرًا، مع ذلك، على العثور ثانيةً على صوابك، بين

الأنقاض. بسرعة يتحول الصواب إلى عيب، مثل المرح والنعاس لدى المصابين بوهن الأعصاب. لا يصير بمقدورنا التفكير إلا في صوابنا. يتوقف كل شيء بعد ذلك. ينتهي المزاح.

هكذا إذًا كان كل شيء يمضي من شكوك إلى شكوك، إلى تاريخ الرابع من مايو. تاريخ مشهود يوم الرابع من مايو هذا. بالصدفة شعرت بأني مرتاح للغاية في ذلك اليوم لدرجة أن الأمر بدا كمعجرة. النبض عند 78. كما تكون الحال عقب وجبة غداء شهية. عندما أخذ كل شيء آنذاك في الدوران! حاولت التشبث بأي شيء. سادت حالة من القلق. صارت للناس وجوه غريبة.

بدا لي أن وجوههم صارت خشنة البشرة محببة كحبات الليمون، وأنهم قد صاروا أكثر خبثًا وعدائية من ذي قبل. ربما لكوني صعدت إلى أعلى مما يجب، بتهور أكثر مما يجب إلى أعلى مستويات اللياقة الصحية، فقد سقطت ثانيةً أمام المرآة، أتطلع إلى وجهي وأنا أشيخ، بشغف. يتوقف المرء عن حساب عدد خيباته، متاعبه عندما تقبل هذه الأيام القذرة اللعينة المتراكمة بين الأنف والعينين. يوجد منها في هذا المكان وحده، ما يكفي كثيرًا من الرجال لعدة سنوات. يوجد منها أكثر مما يحتمل بالفعل بالنسبة إلى رجل واحد.

بوجه عام، شعرت فجأة بأني كنت أفضّل في تلك اللحظة، العودة إلى "التارابو". خصوصًا أن بارابين كان قد توقف عن التحدث إليَّ، أنا الآخر. لكني من جهة التارابو كنت شخصًا محروقًا. من الصعب ألا يكون للمرء سوى رئيسه في العمل وحده مصدرًا لكل أسباب الراحة المادية والروحية، خصوصًا عندما يكون عالمًا نفسانيًّا وعندما لا يعود المرء متأكدًا تمامًا من عقله شخصيًّا. لا بد من التحمل. الإمساك عن الكلام. بقي لنا أن نتحدث عن النساء معًا، كان ذلك موضوعًا لطيفًا ولا يمثل خطرًا وبفضله كان لا يزال بوسعي أن آمل التسرية عنه من حين إلى آخر. بل إنه بهذا الخصوص كان يشهد لي ببعض الخبرة، كفاءة تافهة مقززة.

لم يكن مضرًّا على الإطلاق أن ينظر باريتون إليَّ إجمالاً بشيء من الازدراء. يجد أي صاحب عمل نفسه دائمًا مطمئنًّا بعض الشيء عندما يكون طاقم عامليه موصومًا بالعار. يجب على العبد أن يكون مهما كلف الأمر حقيرًا بعض الشيء.. بل بقدر كبير. مجموعة من العيوب الصغيرة الأخلاقية والعضوية تبرر المصير الذي يثقل كاهله. هكذا تدور الأرض على نحو أفضل بما أن كل شخص يجد نفسه عليها في المكان الذي يستحقه.

الشخص الذي يُستخدم لا بد أنْ يكون سافلاً، منحطًّا، منذورًا للسقوط، هذا يخفف الألم، خصوصًا أنه كان شحيحًا تمامًا في ما يدفعه لنا من رواتب، باريتون. في حالات البخل الحادة هذه يظل أرباب العمل مرتابين وقلقين قليلاً. فاشلاً، فاجرًا، منحرفًا، متفانيًا، كل شيء يتفسر، يتبرر، ينسجم، هذا هو الأمر باختصار. لم يكن ليسوء باريتون أن أكون مطلوبًا قليلاً من الشرطة. هذا ما يجعل المرء متفانيًا.

كنت قد تخليت على أي حال، منذ زمن طويل، عن كل صور الاعتزاز بالنفس. كان هذا الشعور يبدو دائمًا أسمى جدًّا من وضعي، وألف مرة باهظ الكلفة جدًّا بالنسبة إلى مواردي. كان يناسبني تمامًا أن أُضحي به نهائيًّا.

يكفيني الآن أن أظل على حالي في توازن، غذائي وبدني، يمكن احتماله. لم يعد الباقي يهمني على الإطلاق. غير أني كنت أجد صعوبة كبيرة في اجتياز بعض الليالي، خصوصًا عندما كانت ذكريات ما جرى في تولوز تأتي لتوقظني طوال ساعات بكاملها.

كنت أتخيل حينذاك، لم أكن أستطيع منع نفسي، كل العواقب المأساوية لسقوط الأم هنرووي في حفرة مومياواتها، وكان الخوف يصعد من أحشائي، يدرك قلبي ويقبض عليه، خافقًا، حتى يحملني ذلك إلى القفز بكاملي من السرير لأذرع غرفتي في اتجاه ثم في الآخر حتى أعماق العتمة وحتى الصباح. خلال هذه النوبات ينتابني اليأس من استعادة ما يكفي أبدًا من

اللامبالاة كي أتمكن من أن أغفو ثانيةً. إذًا، لا تصدقوا على الفور أبدًا شقاء البشر. لتسألوهم فقط لو كانوا لا يزالون يستطيعون النوم؟ إذا كانت الإجابة "نعم"، فكل شيء إذًا على ما يرام. هذا يكفي.

لم يعد يحدث لي أن أنام ملء جفوني مطلقًا. كأني قد فقدت عادة هذه الطمأنينة، الطمأنينة التي لا بد من وجودها، إلى ما لا نهاية بالفعل لينام المرء منا ملء جفونه حقًّا وسط البشر. على الأقل كنت بحاجة إلى مرض ما، حمى ما، كارثة محددة حتى أستطيع أن أستعيدها ثانيةً، هذه اللامبالاة، حتى يمكنني إيقاف تأثير مخاوفي الخاصة واستعادة السكينة الحمقاء والمقدسة. الأيام المحتملة الوحيدة التي كنت أستطيع تذكرها خلال سنوات كثيرة، كانت أيامًا معدودة انتابتني فيها إنفلونزا ثقيلة الحمى.

لم يكن باريتون يسألني عن صحتي مطلقًا. من جانب آخر كان يتفادى الاهتمام بصحته أيضًا. "يشكِّل العلم والحياة أنماطًا من الاختلاط والتمازج وخيمة العواقب، يا فردينان! تجنب دائمًا الاعتناء بصحتك، صدقني.. كل سؤال يُطرح عن الجسد يصبح مصدرًا للضرر.. بداية قلق ما، هاجس ما". هكذا كانت قواعده البيولوجية التبسيطية والمفضلة. باختصار كان يتذاكى. "يكفيني جدًّا ما أعرفه!" كان يردد كثيرًا أيضًا. قاصدًا أن يبهرني.

لم يكن يحدثني مطلقًا عن النقود، لكن ذلك كي يفكر فيها أكثر، على نحو أكثر حميمية.

مشكلات روبنسون مع أسرة هنرووي، غير المفهومة بما يكفي إلى الآن، كانت تثقل ضميري وقد حاولت كثيرًا أن أروي أطرافًا وأحداثًا منها لباريتون، لكن ذلك لم يكن يستهويه إطلاقًا. كان يفضل حكاياتي الإفريقية، خصوصًا تلك الحكايات المتعلقة بالزملاء الذين كنت قد التقيت بهم في كل مكان تقريبًا، بالممارسات الطبية غير العادية لهؤلاء الزملاء، ممارسات غريبة أو مريبة.

في المصحة، كنا نمر من وقت إلى آخر بحالة استنفار بسبب ابنته الصغيرة، إيميه Aimee. فجأة، في وقت الغداء، لا نجدها لا في الحديقة، ولا في حجرتها. من جانبي كنت أتوقع أن نجدها ذات مساء، ممزقة إربًا خلف أريكة ما. مع معتوهينا المتجولين في كل مكان، يمكن أن يقع لها أسوأ الحوادث. على أي حال كانت الفتاة قد نجت بالكاد من الاغتصاب، العديد من المرات من قبل. وحينذاك يكون هناك صراخ، استحمام، توضيحات لا نهاية لها. عبثًا حاولنا أن ننهاها عن المرور ببعض الدروب متكاثفة الأشجار بأكثر مما يجب، كانت تعود إليها تلك الطفلة، بطرائق لا يمكن منعها، إلى تلك الزوايا الضيقة. لم يكن أبوها يتوانى في كل مرة عن ضربها على إليتيها وبصورة مبرحة لا تُنسى. لم يكن ذلك يغير في الأمر شيئًا.. عبثًا يفعل. أظن أنها كانت تحب الموضوع برمته.

عندما نقابلهم، عندما نتجاوزهم عبر ردهات المصحة، كان علينا، نحن، طاقم العاملين، أن نظل دائمًا على حذر بعض الشيء. لدى المعتوهين، يكون القتل أسهل بكثير مما هو عند الناس العاديين. هكذا أصبح ما يشبه عادة لدينا، عندما نقابلهم، أن نقف وظهورنا إلى الحائط، مستعدين دائمًا لاستقبالهم بركلة قوية أسفل بطونهم، عند أول حركة منهم. إنهم يترصدوننا، ثم يمرون. باستثناء الجنون، كنا متفاهمين تمامًا.

كان باريتون يأسف لأن أيًّا منا لم يكن يعرف لعب الشطرنج. كان من الضروري أن أشرع في تعلم هذه اللعبة لمجرد أن أرضيه فقط.

في أثناء النهار، يتميز باريتون بنشاط مزعج وتافه، يجعل الحياة من حوله مرهقة للغاية. كل صباح تصدر عنه فكرة صغيرة جديدة عملية على نحو سطحي. استبدال أفرخ الورق القابلة للطي بورق المراحيض الملفوف في بكرات. أجبرنا على الانشغال بالتفكير فيه طوال أسبوع بكامله، أهدرناه في قرارات متناقضة. أخيرًا تقرر انتظار شهر التصفيات للقيام بجولة في المتاجر.

بعد هذا طرأ فجأة هم تافه آخر، مشكلة الصدريات الصوفية.. هل كان من الواجب ارتداؤها تحت.. أم فوق القمصان؟ ثم طريقة تناول كبريتات الصودا؟ كان بارابين يتهرب بصمت عنيد من هذه المجادلات المتدنية فكريًّا.

مدفوعًا بالسأم، انتهت بي الحال إلى أن أروي لباريتون مغامرات أكثر بكثير مما انطوت عليه يومًا رحلاتي وأسفاري كلها، كنت مستنزفًا! بدوره كان هو من شغل أخيرًا الحديث الشاغر كليةً بعباراته، مقترحاته، وفترات سكوته المقصودة القصيرة. لم أتخلص بعد من الورطة. الإنهاك هو ما جعله ينال مني. ثم إني لم أكن أحظى، مثل بارابين، بلا مبالاة مطلقة حتى أستطيع المقاومة. بالعكس، كان لا بد أن أجيبه على الرغم مني. لم يعد بوسعي منع نفسي من النقاش، الذي لا ينتهي، بشأن المزايا المقارنة لمشروب الكاكاو وللقهوة بالحليب.. كان يذهلني بغبائه.

استعدنا هذا ثانيةً بلا سبب، دوالي الساقين– السفلية، السعة المثلى للتيار الكهربي، التهابات الأنسجة الخلوية في منطقة الكوع.. كنت قد وصلت إلى التعتعة تبعًا لتعليماته وتوجيهاته وميوله تمامًا، بلا سبب، مثل تقني حقيقي. كان يرافقني، يتقدمني في هذه النزهة المخرفة إلى أقصى حد، باريتون، أشبعني من الحديث إلى الأبد. كان بارابين يضحك في سره، وهو يسمعنا ننتقل وسط نقاشاتنا التافهة بشأن طول المعكرونة، بينما يرش بلعابه نبيذ رب العمل (البوردو) على غطاء المائدة بالكامل.

لكن سلامًا على ذكرى السيد باريتون، هذا النذل! لقد انتهت بي الحال مع ذلك إلى دفعه إلى الاختفاء. وقد تطلب ذلك مني كثيرًا من العبقرية!

من بين المريضات اللاتي عُهد إليَّ على نحو أكثر خصوصية برعايتهن، سببت لي أكثرهن هذيانًا وثرثرةً وجع رأس فظيع.

حماماتهن من هنا.. مراقباتهن من هناك.. شهواتهن الصغيرة، سوء معاملاتهن، فتحات أجسادهن المهمة التي يجب الحفاظ عليها نظيفة دائمًا.. كانت إحدى النزيلات الشابات كثيرًا ما تجلب لي انتقادات من جانب رب العمل. كانت تخرب الحديقة باقتلاع الزهور، كان هذا هوسها، ولم أكن أنا أحب ذلك، ملاحظات رب العمل الناقدة..

"الخطيبة" كنا نسميها، أرجنتينية، من الناحية الجسدية ليست سيئة على الإطلاق، لكن من الناحية المعنوية، لم تكن لديها إلا فكرة واحدة، فكرة أن تتزوج أبيها. هكذا أجهزت على كل زهور الأحواض واحدة إثر أخرى حتى تشبكها في "طرحتها" البيضاء الكبيرة التي كانت تضعها ليل نهار، في كل مكان. حالة كانت العائلة، المتعصبة دينيًّا، تخجل منها أشد الخجل. كانوا يخفونها عن الناس، ابنتهم وهاجسها معها. بحسب ما يقول باريتون، كانت الفتاة قد خضعت لتناقضات تربية متوترة جدًّا، قاسية جدًّا، ولأخلاقيات مطلقة مفروضة هي التي، إنْ جاز التعبير، انفجرت داخل رأسها.

عند الغسق، كنا نُدخل كل نزلائنا بعد أن ننادي عليهم طويلاً، ثم نمر أيضًا بالغرف لنمنعهم خصوصًا هؤلاء المهتاجين من ملامسة أنفسهم بشطط أكثر من اللازم قبل أن يهدؤوا ويناموا. من المهم في مساء السبت أن نخفف من غلوائهم وأن ننتبه لذلك جيدًا، لأن من المسيء جدًّا لسمعة الدار أن يجدهم أقرباؤهم عندما يجيئون يوم الأحد وقد شحبوا إلى حد البياض من الاستمناء.

ذكَّرني كل هذا بتجربة بيبير Bebert والشراب المُصَفى. في ڤينيvigny كنت أعطيه كميات هائلة من ذلك الشراب. كنت أحتفظ بالتركيبة. انتهت بي الحال إلى الثقة به.

كانت بوابة المصحة تمارس تجارة صغيرة في "الملبس"، مع زوجها، كان رجلاً قويًّا بالفعل، كنا نستعين به من وقت إلى آخر، في الحالات الصعبة.

هكذا تمضي الأمور والشهور، بصورة لطيفة إلى حد كبير إجمالاً، ولعله لم يكن عليَّ كثيرًا أن أشكو لو لم يكن باريتون قد تخيل فجأة فكرة لوذعية أخرى جديدة.

منذ وقت طويل، بلا شك، راح الرجل يتساءل إن لم يكن باستطاعته أحيانًا أن يستغلني أكثر من ذلك وعلى نحو أفضل أيضًا لقاء الثمن نفسه. الآن، كان قد انتهى إلى العثور على الإجابة.

ذات يوم، بعد الغداء أخرجها إلى النور فكرته هذه. في البداية قدم لنا صحفة كبيرة مليئة عن آخرها بحلواي المفضلة، الفراولة بالقشدة. بدا لي ذلك على الفور مريبًا. واقع الأمر، أنني ما كدت أنتهي من التهام حبة الفراولة الأخيرة حتى بادرني بلهجة آمرة..

"فردينان". قال لي بهذه الطريقة، "لقد سألت نفسي إن كنت ستوافق على إعطاء بعض دروس الإنجليزية لابنتي الصغيرة إيميه؟ ما رأيك في هذا؟ أنا أعرف أن لديك لكنة رائعة.. وفي الإنجليزية.. اللكنة هي النقطة الرئيسة.. أليس كذلك؟ ثم إنك ودون تملق فأنت، يا فردينان، اللطف والمجاملة ذاتهما".

"طبعًا بكل تأكيد يا سيد باريتون". أجبته، مأخوذًا على حين غرة.

وجرى الاتفاق دون إضاعة للوقت، أن أعطي لإيميه، ابتداءً من صباح الغد، درسها الأول في الإنجليزية، وستتلوه دروس أخرى، وهكذا دواليك، طوال عدة أسابيع.

كان ابتداءً من دروس الإنجليزية هذه أن دخلنا جميعًا في فترة مضطربة تمام الاضطراب ملتبسة، تلاحقت خلالها الأحداث بإيقاع لم يعد مطلقًا إيقاع الحياة العادية.

أصر باريتون على حضور الدروس التي كنت أعطيها لابنته. ورغم كل اهتمامي القلق، لم تكن الصغيرة إيميه البائسة تفهم الإنجليزية كثيرًا، على الإطلاق إن أردنا الحق. في الحقيقة لم تكن إيميه التعسة تحرص كثيرًا على معرفة ماذا كانت تعني كل هذه الكلمات الجديدة فعلاً. بل إنها كانت تسأل نفسها ماذا كنا نريد نحن جميعًا بالإصرار، خبثاء، بهذه الطريقة، على أن تحفظ حقًّا معانيها. لم تكن تبكي، لكن ذلك كان وشيكًا.

لعلها كانت تفضِّل، إيميه، أن ندعها تتدبر أمرها بهدوء بالقدر القليل من الفرنسية الذي كانت تعرفه بالفعل، والذي كانت جوانبه الصعبة والسهلة تكفيها على نحو كبير لتستغرق حياتها بالكامل.

غير أن أباها، عن نفسه، لم يفهم الأمر على هذا النحو إطلاقًا. "عليكِ أن تصبحي فتاة عصرية يا صغيرتي العزيزة إيميه، كان يستحثها، بلا ملل، بقصد أن يواسيها.. لقد عانيت كثيرًا، أنا، والدك، لأني لم أكن أعرف من الإنجليزية ما يكفي لأتدبر أموري كما يجب مع الزبائن الأجانب.. هيا، لا تبكي ابنتي العزيزة! اسمعي بالأحرى السيد باردمو الصبور للغاية، الودود للغاية، وعندما تصبحين بدوركِ قادرة على إخراج حروف theـ ذا. بلسانكِ، كما يُريكِ، سوف أشتري لكِ -وهذا وعد - دراجة جميلة مطلية بالنيكل بالكامل. قالها مشددًا على مقاطع (مطلية بالنيكل)".

لكنها لم تكن ترغب في نطق "the" ولا "enough" أيضًا، الصغيرة إيميه، على الإطلاق.. كان والدها، رب العمل هو من ينطق بدلاً منها كلمات the ورف Rough خشن، ثم أحرز أيضًا كثيرًا من التقدم في نطق كلمات أخرى على الرغم من لكنة أهل بوردو المتأصلة فيه، وعلى الرغم من هوسه بالمنطق المزعج في تعلم الإنجليزية، طوال شهر، شهرين على هذا النحو. بقدر ما كان يتطور، لدى الأب، الولع بتعلم الإنجليزية، راحت فرصة إيميه في التمكن من الحروف المتحركة تقل شيئًا فشيئًا. استحوذ عليَّ باريتون بالكامل. بل إنه أخذ يحتكرني، لم يعد يفلتني، كان يمتص كل ما أعرفه من الإنجليزية. ولأن غرفنا

كانت متجاورة، كان بمقدوري أن أسمعه منذ الصباح، بينما كان يرتدي ثيابه ويحوّل منذ الآن حياته الخاصة إلى الإنجليزية، القهوة سوداء the coffe is black.. قميصي أبيض My shirt is white.. الحديقة خضراء The garden is green... كيف حالك اليوم يا باردمو؟ How are you today Bardamu?، كان يصيح عبر الحاجز الفاصل بين حجرتينا. وسرعان ما استطاب أكثر صور اللغة إيجازًا.

مع هذا الانحراف، كان لا بد أن يأخذنا إلى بعيد جدًّا.. ما إن اتصل بالأدب الرفيع، كان من المستحيل أن نتوقف.. بعد ثمانية أشهر من التقدم غير العادي إلى هذا الحد، كان قد توصل تقريبًا إلى إعادة تشكيل نفسه بالكامل على الصعيد الأنجلو - ساكسوني. وهكذا توصل في الوقت نفسه إلى إثارة اشمئزازي منه بالكامل، مرتين متتاليتين.

شيئًا فشيئًا وصلنا إلى إبقاء الصغيرة إيميه تقريبًا خارج نطاق أحاديثنا، وبناءً على ذلك أكثر اطمئنانًا وهدوءًا.

عادت، وادعة، شاردة الفكر، دون أن تقول شيئًا. إنها لم تتعلم الإنجليزية. هذا كل ما في الأمر! وكان هذا هو المهم بالنسبة إلى باريتون!

عاد الشتاء. حل عيد الميلاد. أُعلن في وكالات السفر عن بطاقات سفر ذهابًا وعودة بأسعار مخفضة إلى إنجلترا.. في أثناء مرورنا في الشوارع الكبيرة مع بارابين، عند مرافقته إلى السينما، كنت قد لاحظتها هذه الإعلانات.. بل إنني قد دخلت إحدى الوكالات للاستعلام عن الأسعار.

ثم على المائدة، من بين أمور أخرى، قلت لباريتون كلمتين عن الموضوع. في البداية لم يبدُ عليه أن معلوماتي قد أثارت اهتمامه. ترك الأمر يمر. بل إنني كنت قد تيقنت من أنه قد نسيه تمامًا عندما شرع بنفسه ذات مساء يحدثني عنه ثانيةً ليرجوني أن أُحضر له عندما تسنح الفرصة النشرات الدعائية.

بين جلسات الأدب الإنجليزي التي نعقدها كنا كثيرًا ما نلعب البلياردو الياباني أو لعبة Le bouchon _ في إحدى غرف العزل، تكون هذه الغرف معززة جيدًا بالقضبان الحديدية، وتقع فوق مسكن البوابة تمامًا.

كان باريتون يبرع في ألعاب الخفة. وكان بارابين يتحداه باستمرار في القدرة على احتساء كؤوس "الأبريتيف" ويخسر رهانه باستمرار أيضًا. كنا نمضي في صالة الألعاب الصغيرة المرتجلة هذه أمسيات بكاملها، خصوصًا في أثناء الشتاء، عندما تمطر، حتى لا نتلف "صالونات" رب العمل الفخمة. أحيانًا كنا نضع أحد النزلاء المهتاجين تحت المراقبة في صالة الألعاب المُصغرة هذه نفسها، لكن ذلك كان نادرًا حقًّا.

بينما كانا يتنافسان في المهارة والخفة، بارابين وباريتون، فوق السجادة أو فوق الأرضية في لعبة "البوشون"،(55) كنت أسلي نفسي، إن أمكن أن أعبر بهذه الصورة، بمحاولة الإحساس بالمشاعر نفسها التي يعانيها سجين في زنزانته. كإحساس، كنت أفتقد هذا. بالإرادة يمكن للمرء أن يصل إلى إبداء الود للقليل من الأشخاص الذين يمرون بشوارع الضاحية. في آخر النهار نرثي للحركة الخفيفة التي تبعثها مركبات الترام وهي تعيد الموظفين من باريس، في كتل طائعة سهلة القياد. عند أول منعطف بعد البقال تكون فوضاهم قد انتهت بالفعل. يمضون لينسكبوا بهدوء في الليل، بالكاد يتاح لنا الوقت لإحصائهم. لكن باريتون نادرًا ما كان يتركني أستغرق في أحلام اليقظة كما يحلو لي. في ذروة مباراة "البوشون" كان يفاجئني أيضًا بأسئلة غريبة.

(55) Bouchon، البوشون لعبة تقوم على إسقاط القطع النقدية الموضوعة على سدادة قنينة بواسطة حجر صغير أو حلقة معدنية مستديرة ومسطحة. (المترجم)

"كيف تقول كلمة (مستحيل) بالإنجليزية يا فردينان؟" كان يسأل بالإنجليزية.

باختصار لم يكن الرجل يمل إطلاقًا من إحراز التقدم. كان مشدودًا بكل حماقته إلى الكمال. بل لم يكن يريد أن يسمع البتة كلمة "تقريبًا" أو عن أي تساهل. لحسن الحظ، أن أزمة طارئة ما خلصتني من ذلك.

كلما تقدمنا في قراءة تاريخ إنجلترا رأيته يفقد قليلاً من رباطة الجأش، ثم أخيرًا أفضل ما يتميز به من تفاؤل. عندما تناولنا شعراء العصر الإليزابيثي طرأت على عقله وشخصه فجأة تغيرات كبرى غير ملموسة. تحملت في البداية بعض العناء في إقناع نفسي لكني كنت مضطرًا بالفعل، آخر المطاف، مثل الجميع، إلى تقبله على نحو ما صار إليه، باريتون، المثير للرثاء، حقًّا. تيقظه الواضح والشديد حقًّا في ما مضي، راح يتطاير الآن منجذبًا إلى تهويمات خيالية لا تنتهي. وشيئًا فشيئًا جاء دوره ليظل طوال ساعات بكاملها، في مؤسسته ذاتها، هنا، أمامنا، هائمًا في أحلام يقظته، بعيدًا منذ الآن.. رغم أنه أثار نفوري زمنًا طويلاً وعلى نحو قاطع فإني قد شعرت ببعض تأنيب الضمير لرؤيته يتفتت هكذا، باريتون. خلت نفسي مسؤولاً بعض الشيء عن هذا التدهور.. لم يكن اضطرابه الروحي غريبًا تمامًا عني.. إلى حد أني كنت قد اقترحت عليه يومًا إيقاف دروس تمارييننا الأدبية بحجة أن فترة توقف قصيرة سوف توفر لنا الراحة والفرصة لتجديد مصادرنا الوثائقية.. لم تخدعه هذه الحيلة الواهية وواجهني على الفور برفض ظل بالطبع لطيفًا لكنه قاطع تمامًا.. كان الرجل ينوي أن يتابع معي بلا توقف اكتشاف إنجلترا الروحية.. على نحو ما كان قد أخذ على نفسه.. لم يكن لديّ ما أرد به عليه.. استسلمت. بل إنه كان يخشى ألا يتبقى له من ساعات العمر ما يكفي بعد ذلك كي يتوصل إلى مراده بالكامل.. كان لا بد باختصار وعلى الرغم من أني توقعت بالفعل الأسوأ، أن أتابع معه كيفما اتفق هذا الاغتراب الأكاديمي والمحزن.

الحقيقة أن باريتون لم يعد الشخص نفسه على الإطلاق. حولنا راح الأشخاص والأشياء، غريبة الطباع وأكثر بطئًا، تفقد أهميتها بالفعل، وحتى الألوان التي عرفناها عليها أخذت تكتسب رقة حالمة ملتبسة تمامًا..

لم يعد باريتون يبدي إلا اهتمامًا عابرًا وفاترًا أكثر فأكثر بالتفاصيل الإدارية لمصحته، رغم أنها نتاج عمله، التي، كان طوال أكثر من ثلاثين عامًا مولعًا بها.. حرفيًّا. راح يعتمد كليةً على بارابين في الاهتمام بتنسيق الخدمات الإدارية. الارتباك المتزايد في معتقداته وقناعاته الذي كان لا يزال يحاول بحياء إخفاءه عنا أصبح بعد قليل واضحًا لنا، ماديًّا، غير قابل للدحض.

جوستاف ماندامور Gustave Mandamour رجل الشرطة الذي كنا نعرفه في ڤيني لاستخدامه في المواقف المهمة للدار، والذي كان بالفعل الشخص الأقل فطنة من بين كثير من الآخرين من النوع نفسه الذين أتيح لي أن أقابلهم، سألني ذات يوم، في تلك الفترة، إن لم يكن رب العمل يتلقى أحيانًا أخبارًا بالغة السوء.. طمأنته بأقصى ما استطعت لكن دون أن أنجح في إقناعه.

لم تعد كل هذه الأقاويل تثير اهتمام باريتون. صار كل ما يعنيه ألا يتم إزعاجه وحسب تحت أي ذريعة.. في بداية دراساتنا كنا قد طالعنا سريعًا بأكثر مما يجب، كما أراد، كتاب "تاريخ إنجلترا" الرائع، لماكولاي Macaulay، مؤلَّف أساسي يقع في ستة عشر جزءًا. وقد عاودنا، بأمر منه، قراءة هذا المرجع الشهير في ظروف نفسية مقلقة تمامًا. فصلاً بعد آخر.

بدا لي على نحو متزايد أن باريتون مصاب بعدوى التأمل على نحو خبيث. عندما وصلنا إلى ذلك المقطع، الأشد قسوة، حيث كان مونماوث Monmouth المُطَالِب بالعرش قد رسا لتوه على شواطئ كنت Kent الضبابية.. في الوقت الذي أخذت فيه مغامرته تنقلب هباءً.. الوقت الذي لم يعد فيه مونماوث المطالب بالعرش يعرف جيدًا بماذا يطالب.. ما الذي يريد أن يفعله.. ما جاء ليفعله.. الوقت الذي بدأ فيه يقول في نفسه إنه كان يود أن يمضي من هنا، لكن إلى أين لم يعد يدري لا إلى أين ولا كيف يمضي.. عندما تنتصب أمامه الهزيمة.. في شحوب الصباح.. عندما يغيّب البحر آخر سفنه.. عندما يأخذ مونماوث في التفكير للمرة الأولى.. لم يتوصل باريتون هو الآخر، في ما كان

يخصه، شاعرًا بالضآلة، إلى اتخاذ قراراته الخاصة.. كان يقرأ ويعيد قراءة هذه الفقرة ويتمتم بها لنفسه أيضًا مرة بعد أخرى.. منهكًا، كان يطبق الكتاب ويجيء ليتمدد بالقرب منا.

طويلاً، كان يستعيد، بعينين نصف مغمضتين، النص بكامله، من الذاكرة، ثم بلكنته الإنجليزية، الأفضل من بين كل اللهجات (البوردولية) التي أتحتُ له الخيار من بينها، يعود فيتلوه علينا..

في مغامرة مونماوث، عندما يقوم كل السخف المثير للشفقة لطبيعتنا الصبيانية والمأساوية بفك أزرار ثيابه -إن جاز التعبير - أمام الأبدية، كان الدوار يأخذ بباريتون هو الآخر، ولأنه لم يعد يتعلق بقدرنا العادي الآن سوى بخيط واحد فقد مات.. منذ تلك اللحظة، ويمكنني أن أقول ذلك واثقًا، إنه لم يعد واحدًا منا.. لم يعد قادرًا على الاستمرار.

في نهاية تلك الأمسية، طلب مني أن ألحق به في مكتبه الإداري.. بالتأكيد، كنت أتوقع في وضعنا الحالي أن يبلغني بقرار فوقي ما، بفصلي على الفور مثلاً.. حسنًا! يحدث لي أحيانًا أن أباغت بحظ مواتٍ ولكن على نحو نادر جدًّا حتى إنني لا أستطيع ساعتها أن أمنع نفسي من ذرف بعض الدموع.. أراد باريتون أن يعتبر دليل تأثري حزنًا وأسى وأخذ بناءً على ذلك بدوره في مواساتي..

"هل سوف تذهب حتى الشك في كلامي، فردينان، لو أكدت لك أني احتجت إلى ما هو أكثر وأفضل من الشجاعة حتى أقرر مغادرة هذه الدار؟ أنا الشخص الذي تعرف عاداته المستقرة جدًّا، أنا الذي أصبحت الآن تقريبًا رجلاً عجوزًا باختصار والذي لم تكن مسيرته المهنية كلها سوى بحث وتدقيق عميق لا ينتهي، وشديدة الارتياب في كثير من محاولات الإيقاع بها سواء كانت متمهلة أو سريعة؟ أيعقل هذا؟ كيف وصلت، في خلال عدة شهور بالكاد إلى الكفر بكل هذا؟ ومع ذلك فها أنا جسدًا وروحًا في هذه الحالة من التجرد، من

النبل.. فردينان! يا هلا Hurrah! كما تقولون بالإنجليزية! لم يعد ماضيَّ يعني لي شيئًا بالفعل! سوف أولد من جديد فردينان! بكل بساطة! أنا راحل! آوه، إن دموعك، صديقي الطيب، لن تستطيع أن تخفف حالة النفور النهائي القاطع التي أشعر بها تجاه كل ما أبقاني هنا طوال الكثير والكثير من سنوات تفهة لا مذاق لها! لم أعد أتحمّل! كفى يا فردينان! أنا راحل أؤكد لك! أهرب! أعتق روحي! بالتأكيد أنا أتمزق! أعرف ذلك! أنزف! أرى ذلك! حسنًا والآن يا فردينان، فلن تستطيع أن تجعلني أرجع عن رأيي، إطلاقًا، يا فردينان.. إطلاقًا! هل تسمعني؟ حتى لو كنت قد أسقطتُ هنا، عينًا، في مكان ما في هذا الوحل، لن أعود أبدًا لالتقاطها! إذًا! لقد أخبرتك بكل شيء! فهل تشك الآن في صدق كلامي؟"

لم أعد أشك في أي شيء على الإطلاق. فقد كان بالفعل قادرًا على كل شيء باريتون. فضلاً عن أني كنت أعتقد أن معارضتي له في ظل الحالة التي وضع نفسه فيها ربما كانت كارثية على حالته العقلية. تركت له مهلة قصيرة، ثم حاولت رغم ذلك أيضًا أن أثنيه قليلاً، جازفت بحياتي في محاولة أخيرة لإرجاعه إلينا.. بتأثير أدلة وحجج وبراهين محرفة قليلاً.. جانبية دون مغالاة..

"لتكف عن هذا إذًا، فردينان، أرجوك، عن الأمل في أن أرى نفسي راجعًا عن قراري! إنه نهائي أقول لك! بعدم عودتك إلى الخوض في هذا بعد الآن، سترضيني كل الرضا.. للمرة الأخيرة، يا فردينان، أتريد أن ترضيني؟ في عمري هذا، تصبح الدعوات الربانية نادرة تمامًا.. أليس كذلك.. تلك حقيقة.. لكن لا يمكن الفكاك منها".

كانت تلك كلماته، تقريبًا الأخيرة التي نطق بها أنقلها كما هي.

"ربما، عزيزي السيد باريتون، جرؤت مع ذلك على مقاطعته ثانيةً، ربما أن مثل هذه الإجازات المرتجلة التي تستعد للقيام بها لن تشكل في آخر الأمر إلا حدثًا عاطفيًّا بعض الشيء، إلهاءً مرحبًا به، فترة استراحة مفيدة، في

المسيرة الشاقة بعض الشيء بكل تأكيد لحياتك المهنية. ربما بعد أن تتذوق حياة أخرى.. أكثر بهجة، أقل منهجية ورتابة مبتذلة من التي نعيشها هنا، ربما تعود إلينا، بكل بساطة، سعيدًا من رحلتك، مكتفيًا من الأمور الطارئة وغير المتوقعة.. سوف تستعيد حينذاك، على نحو طبيعي تمامًا، مكانك على رأسنا.. فخورًا بخبراتك الحديثة.. متجددًا باختصار، وبلا شك، ابتداءً من ذلك فصاعدًا، متسامحًا تمامًا وراضيًا عن الرتابات اليومية لعملنا الروتيني البائس.. عجوزًا باختصار! هذا إذا سمحت لي أن أعبّر على هذا النحو يا سيد باريتون؟"

"يا له من مداهن فردينان هذا! لا يزال يجد الوسيلة لينال مني في كبريائي كرجل، المرهفة بل والمتشددة. ها أنا أكتشف ذلك رغم كثير من الإعياء والسأم والمحن السابقة.. كلا يا فردينان!كل المهارة واللباقة التي تبديها لن تستطيع، في لحظة ما، أن تلطِّف كل ما يستقر في أعماق إرادتنا ذاتها، المعادي والمؤلم بصورة بغيضة.

من جهة أخرى يا فردينان، فإن وقت التردد والتراجع قد انقضى! إنني، أعترف بذلك، أجاهر به، فردينان، مستنزفًا، مرهقًا، مهزومًا! بأربعين عامًا من الدهاء الحقير، الخسة الأريبة! كفى فالأمر فاق الاحتمال الآن! ما أريد الإقدام عليه؟ أتريد أن تعرف ما هو؟ يمكنني بالطبع أن أخبرك به، صديقي الأسمى، أنت الذي أردت أن تشاطر على نحو متجرد، رائع، أشجان وهموم عجوز حائر مهزوم.. إنني أود، يا فردينان، أن أمضي لأهلك روحي كما يمضي المرء بعيدًا ليتخلص من كلبه الأجرب، كلبه خبيث الرائحة، بعيدًا جدًّا، الرفيق الذي يثير اشمئزازه ونفوره، قبل أن يموت.. آخر المطاف وحيدًا تمامًا.. مطمئن البال.. بنفسه".

"لكن يا عزيزي السيد باريتون، إن هذا اليأس الشديد الذي كشفت لي فجأة عن متطلباته التي لا تلين لم يتراءَ لي يومًا، إنني مندهش من هذا، في أي وقت في كلامك! بل على العكس فإن ملاحظاتك اليومية لا تزال تبدو لي اليوم أيضًا في محلها تمامًا.. كل مبادراتك النشطة والمثمرة دائمًا.. تدخلاتك

الطبية الصائبة والمنهجية تمامًا.. عبثًا بحثت خلال أعمالك اليومية عن إحدى علامات هذا اليأس، هذه الحيرة.. الحقيقة أني لم ألاحظ شيئًا مشابهًا".

لكن وللمرة الأولى منذ عرفته لم يشعر باريتون بأي سرور عند تلقيه مجاملاتي. بل إنه أثناني بلطف عن مواصلة الحديث بهذه الوتيرة المادحة..

"كلا، عزيزي فردينان، أؤكد لك، هذه الأدلة القاطعة على محبتك تأتي لتخفف بالتأكيد وبطريقة غير مأمولة اللحظات الأخيرة لوجودي هنا، إلا أن كل اهتمامك وعطفك لن يستطيع أن يجعلها محتملةً فقط ذكرى ذلك الماضي الذي يرهقني والذي تنضح به هذه الأمكنة.. إنني أريد بأي ثمن وتحت أي ظروف أن أبتعد.. هل تفهمني؟"

"لكن هذه الدار نفسها، يا سيد باريتون، ماذا سوف نفعله بها، من الآن فصاعدًا؟ هل فكرت في هذا؟"

"طبعًا، بالتأكيد، فكرت في هذا يا فردينان.. ستتولى أنت الإدارة خلال كل الوقت الذي سيستمر فيه غيابي وهذا كل ما في الأمر! ألم تحتفظ دائمًا بعلاقات طيبة مع عملائنا؟ إذًا سوف تُقبل إدارتك للمصحة بسهولة.. سيكون كل شيء على ما يرام، سترى ذلك، فردينان.. أما بارابين، فهو، نظرًا إلى أنه لا يطيق الحديث، سوف يهتم بالآلات والأجهزة وبالمعمل.. إنه خبير بهذه الأمور! هكذا يكون كل شيء قد انتظم بحكمة.. فضلاً عن أني قد توقفت عن الاعتقاد بأن وجود البعض شيء لا غنى عنه.. من هذه الناحية أيضًا، كما ترى، يا صديقي، فإني قد تغيرت بالفعل".

في الواقع، كان من الصعب التعرف إليه الآن.

بلا شك إن هذا الاحتمال قد دفعه إلى التفكير طويلاً وعلى نحو مرهق. ارتبك، هنا، أمامي، وبينما كان يفكر في الأمر، راح يشحب..

إيميه، ابنته، هذه الفتاة البريئة، كانت وسط كل هذا على وشك التعرض لمصير قاسٍ حقًّا. كان قد عهد برعايتها إلى واحدة من قريباتها، غير معروفة في الحقيقة، في الريف. هكذا، بعد أن سويت كل الأمور الخاصة جيدًا، لم يعد يتبقى لنا، بارابين وأنا إلا أن نبذل كل ما في وسعنا لإدارة كل مصالحه وأملاكه. ليقلع القارب إذًا بلا ربان!

كنت أستطيع أن أسمح لنفسي بعد هذه المكاشفات، كما بدا لي، أن أسأله، رب العمل، من أي جهة كان ينوي أن ينطلق نحو أرجاء مغامرته.

"إلى إنجلترا يا فردينان!" أجابني بلا تردد.

بدا لي كل ما وقع لنا في وقت قصير جدًّا كهذا بالتأكيد عسيرًا على الاستيعاب، لكن كان لا بد مع ذلك أن نتكيف مع هذا المصير الجديد على وجه السرعة.

بدءًا من صباح اليوم التالي، ساعدناه، بارابين وأنا، في إعداد متاع السفر. جواز السفر بكل صفحاته الصغيرة وتأشيراته كان يدهشه بعض الشيء. لم يكن قد امتلك من قبل جواز سفر. ولما كان لا بد من هذا، أراد أن يحصل على بعض الجوازات الأخرى كبدائل للمستقبل. تمكنّا من إقناعه باستحالة ذلك.

لمرة أخيرة ارتبك حول مسألة الياقات الصلبة أو اللينة التي يجب عليه أن يحملها في سفرته وكم واحدة من كل نوع؟ أخذتنا هذه المشكلة، التي لم تُحل، إلى موعد قيام القطار. قفزنا نحن الثلاثة في آخر ترام متجه إلى باريس. لم يكن باريتون يحمل إلا حقيبة سفر خفيفة، قاصدًا أن يظل في أي مكان يذهب إليه وفي كل الظروف، نشيطًا وخفيف الحركة بالفعل.

فوق الرصيف أثار مشاعره الارتفاع المهيب لسلالم القطارات الدولية. تردد في صعود تلك الدرجات العالية العظيمة. أمام العربة راح يتأمل كأنه على

عتبة نصب تذكاري. ساعدناه قليلاً. بعد أن قطع تذاكر للدرجة الثانية، قال لنا بشأن ذلك ملاحظة أخيرة، مقارنة، عملية، وباسمة. "تذاكر الدرجة الأولى ليست أفضل" قال لنا.

مددنا إليه أيادينا. حان موعد الإقلاع. انطلقت صافرة القطار مؤذنة بالرحيل الذي جرى في ضجة هائلة، في قعقعة كارثية، في الدقيقة المحددة بالضبط. تشوهت بسببها تحيات وداعنا على نحو فظيع.

"إلى اللقاء يا أبنائي!" أتيح له بالكاد الوقت لكي يقول ذلك ثم انفكت يده، مُنتزَعة من أيدينا..

كانت تلوح هناك في الدخان، يده، مرفوعة وسط الضجيج، منذ الآن فوق الليل، عبر القضبان، مبتعدة باستمرار، بيضاء.

الفصل 44

المقطع الحادي والأربعون

من ناحية، لم نتأسف عليه، لكن مع هذا أوجد هذا الرحيل فراغًا هائلاً في المصحة.

أولاً أحزنتنا الطريقة التي رحل بها. رحنا نتساءل ماذا يمكن أن يحدث لنا بعد ضربة كهذه.

لكن لم يكن لدينا الوقت لنتساءل عن ذلك طويلاً، ولا حتى كي نشتاق إليه أيضًا. بعد عدة أيام بالكاد من مرافقته إلى محطة القطار، باريتون، إذا بإعلان عن زيارة لي في المكتب، لي أنا على نحو خاص تمامًا. القس بروتيست. أخبرته حينذاك ببعض الأخبار، وبعض الأنباء المفرحة، وبالطريقة المذهلة على نحو خاص التي تخلى بها عنا جميعًا باريتون كي يمضي للتجوال في بلاد الشمال! أخذت الدهشة بروتيست عندما علم بذلك، ثم بعد أن استوعب الأمر في النهاية لم يعد يرى في ذلك التغيير إلا الفائدة التي يمكنني، أنا، الخروج بها من وضع مماثل. "إن ثقة رئيسك تبدو لي أكثر أشكال الترقية إثارةً للزهو، يا عزيزي الطبيب!" راح يكرر هذا على نحو ممل إلى ما لا نهاية.

حاولت عبثًا تهدئته، لم يعد، وقد أخذته شهوة الكلام، يحيد عن طريقته وعن التنبؤ لي بأروع مستقبل، حياة مهنية طبية متألقة كما كان يقول. لم يعد بوسعي إيقافه.

بكثير من العناء عدنا مع كل ذلك إلى الأمور الجادة، إلى مدينة تولوز هذه بالتحديد، التي جاء منها هو، بروتيست، عشية الأمس. من المفروغ منه أني

تركته يروي لي بدوره كل ما يعرفه. بل إنني مثلت دور المذهول، المشدوه، عندما أخبرني بالحادثة التي وقعت للعجوز.

"كيف؟ كيف؟" قاطعته أنا. "هل ماتت؟ لكن متى إذًا قد جرى هذا؟ هيا أخبرني".

من موضوع إلى آخر، كان لا بد طبعًا أن يعترف.

دون أن يخبرني على نحو قاطع أن روبنسون كان هو من دفع العجوز، في درجها الضيق، غير أنه لم يمنعني مع هذا من افتراض ذلك.. لم يكن لديها متسع من الوقت لتقول "أوف"! على ما يبدو! كان كل منا يفهم الآخر.. كان عملاً نظيفًا، متقنًا.. في المرة الثانية التي حاول فيها، لم يخطئها.. العجوز.

لحسن الحظ أنه كان لا يزال يعد في نظر سكان أهل الحي، في تولوز، روبنسون، كفيفًا تمامًا، لم يمضِ أحد إذًا بالبحث عن أكثر من حادث، مأساوي جدًّا بكل تأكيد، لكنه مع كل ذلك قابل للتفسير بمجرد أن نفكر قليلاً في كل شيء، في الظروف، في عمر المرأة العجوز، وأيضًا كل ما حدث قرب آخر النهار، الإرهاق.. عن نفسي لم ألح في معرفة المزيد في الوقت الحاضر. كنت قد تلقيت بالفعل هكذا أكثر مما يكفي من الأسرار.

مع ذلك، وجدت صعوبة في حمله على تغيير الحديث، القس بروتيست. كانت حكايته تشغله. كان يعود إليها مجددًا ودائمًا آملاً دون شك في أن أفضح نفسي، أن أتورط على ما يبدو.. كنا في الظهيرة.. فليفعل ما يحلو له.. مع هذا فقد صرف النظر آنذاك عن الموضوع واكتفى بالحديث معي عن روبنسون، عن صحته.. عن عينيه.. ومن هذه الناحية، كان يتحسن كثيرًا.. لكن الروح المعنوية كانت هي المنخفضة لديه دائمًا.

الروح المعنوية في الحقيقة، لم تعد على ما يرام إطلاقًا! وهذا رغم الرعاية والاهتمام، والعاطفة التي لم تتوقف المرأتان عن إغداقها عليه.. وفي المقابل

لم يكن هو يتوقف عن التبرم والشكوى من حظه ومن الحياة.

عن نفسي، لم يدهشني البتة سماع القس يقول كل هذا. كنت أعرف روبنسون. أعرف الميول الفظة الجاحدة للمعروف والسوداوية التي يتمتع بها. لكني كنت أحترس أكثر بكثير من القس أيضًا.. بينما راح يكلمني لزمت الصمت. لم ينل إذًا شيئًا لقاء أسراره.

صديقك، أيها الطبيب، على الرغم من حياة مادية صارت الآن مريحة، رخية، ومن ناحية أخرى آفاق زواج سعيد آتٍ، يخيب كل آمالنا، لا بد أن أعترف لك بهذا.. ألا تراه مأخوذًا بهذه الرغبة الخبيثة في الفرار، هذا الميل المنحرف الذي عرفته عنه في أوقات أخرى؟ ما رأيك أنت في هذه التصرفات، عزيزي الطبيب؟

هناك، لم يكن روبنسون يفكر باختصار إلا في التخلي عن كل شيء، إن كنت قد فهمت جيدًا، انزعجت الخطيبة والأم في البداية من ذلك، ثم عانتا جراء ذلك كل الأسى الذي يمكن تصوره، هذا ما كان القس بروتيست قد جاء ليرويه لي. من المؤكد أن كل هذا كان مقلقًا حقًّا، ومن جانبي، فقد عقدت العزم على الصمت، على عدم التدخل في الأمر بعد ذلك، بأي ثمن، في الشؤون التافهة لهذه الأسرة.. لقاء فاشل، افترقت أنا والقس بروتيست عند موقف الترام، ببرود كبير إجمالاً. بالعودة إلى المصحة لم أكن مرتاح البال.

بعد هذه الزيارة بقليل جدًّا، تلقينا من إنجلترا أول أخبار باريتون. بعض البطاقات البريدية. كان يتمنى لنا جميعًا "صحة جيدة وحظًّا سعيدًا". كتب لنا أيضًا بضعة سطور غير ذات أهمية، من هنا ومن هناك. من بطاقة بلا نص مكتوب، علمنا أنه قد انتقل إلى النرويج وبعد عدة أسابيع وصلتنا برقية لتطمئننا قليلاً: "رحلة بحرية طيبة!" من كوبنهاجن.

كما توقعنا، جرى تفسير غياب صاحب العمل على نحو خبيث تمامًا في ڤيني Vigny نفسها وفي الجوار. كان من الأفضل لمستقبل المصحة ألا نقدّم من الآن فصاعدًا عن أسباب هذا التغيب سوى الحد الأدنى من التفسيرات، سواء أمام مرضانا أو للزملاء في الجوار.

انقضت بعد ذلك شهور، شهور حذر كبير، باهتة، ساكنة، انتهت بنا الحال إلى أن نتجنب كليةً حتى إثارة ذكرى باريتون في ما بيننا. من جانب آخر كانت ذكراه تصيبنا جميعًا بما يشبه الخجل قليلاً.

ثم عاد الصيف. لم نستطع البقاء طيلة الوقت في الحديقة منصرفين إلى مراقبة المرضى. حتى نثبت لأنفسنا أننا كنا رغم كل شيء أحرارًا بعض الشيء جازفنا بالذهاب حتى شاطئ السـيــن، بقصد التنزه.

بعد كثبان الردم في الضفة الأخرى، يبدأ سهل جانفلييه الكبير Gennevilliers، امتداد رائع بالفعل من الأبيض والرمادي حيث ترتسم المداخن فيه جانبيًّا بدقة وسط الغبار والضباب. بالقرب من المرفأ تمامًا تنتصب حانة البحارة، تحرس مدخل القناة. يأتي التيار الأصفر ليندفع نحو الهويس.

كنا نشاهد هذا ونحن مطلون على أسفل طوال ساعات، وإلى جوارنا، ما يشبه المستنقع الطويل أيضًا الذي كانت رائحته المخادعة تصل إلى طريق السيارات. لكن المرء يعتاد. لم يعد لهذا الوحل أي لون لفرط ما كان قديمًا وكالحًا بتأثير الفيضانات. في ليالي الصقيع، يصير أحيانًا لطيفًا وادعًا، الوحل، عندما تتحول السماء، وردية، إلى العاطفة. وهناك فوق الجسر كنا نأتي لنستمع إلى موسيقى الأكورديون، المتصاعدة من الصنادل النهرية، بينما تنتظر أمام البوابة، أن ينقضي الليل حتى تنتقل إلى النهر. على نحو خاص كانت تلك الصنادل الهابطة من بلجيكا موسيقية، كانت تفيض بالألوان من كل مكان، أخضر وأصفر، ومُلئت كي تجف ملء الأحبال وكذلك قمصان نسائية داخلية بلون التوت كانت الريح تملؤها كلما هبت فتنتفخ.

في مقهى البحارة الصغير، كنت آتي كثيرًا وبمفردي أيضًا، في الساعة الراكدة التي تلي وجبة الغداء، عندما يكون قط صاحب الحانة هادئًا مستكينًا للغاية، بين الجدران الأربعة، كأنه محبوس في سماء صغيرة من الخزف الأزرق اللامع صُنعت من أجله وحده فقط.

هناك، كنت أنا أيضًا، غافيًا في بداية بعد ظهيرة ما، أنتظر، منسيًّا تمامًا على ما أعتقد، أن تمر.

رأيت شخصًا قادمًا من بعيد، صاعدًا عبر الطريق. لم يتح لي أن أتردد طويلاً. ما إن ظهر فوق الجسر حتى تعرفت إليه بالفعل. كان صاحبي روبنسون بذاته. لا احتمال للخطأ! "لقد جاء إلى هنا ليبحث عني.. لا بد أن القس قد أعطاه عنواني! لا بد أن أتخلص منه سريعًا!" هكذا قلت لنفسي على الفور.

في الحال وجدت أنه من المؤسف أن أُزعَج في الوقت نفسه الذي بدأت فيه أكوّن لنفسي من جديد حبًّا صغيرًا واعتزازًا بذاتي.

يرتاب الناس فيمن يأتيهم من الطريق، وهم على صواب. ها هو إذًا قد وصل قريبًا جدًّا من الحانة. خرجت. بدا مندهشًا لرؤيتي.

"من أين تأتي ثانيةً؟" سألته متجهمًا. "من لاجارين La Garenne". أجابني

"حسنًا لا بأس! هل أكلت؟" سألته.

لم يكن يبدو عليه كثيرًا أنه قد تناول طعامًا، لكنه لم يرغب في أن يُظهر المجاعة فور لحظة وصوله. "ها أنت تتسكع من جديد إذًا؟" أضفت. لأني أستطيع أن أقول ذلك الآن، لم أكن مسرورًا على الإطلاق برؤيته من جديد. لم يشرح ذلك صدري بأي صورة.

وصل بارابين أيضًا قادمًا من ناحية القناة، لمقابلتي. جاء في وقته. كان مرهقًا بارابين لأن مناوباته بالمصحة كانت كثيرة إلى هذا الحد. صحيح أني كنت

أتصرف وفق ما يحلو لي قليلاً مع نوبات الخدمة. في البداية، في ما يتعلق بالوضع، ربما كنا على استعداد، أنا أو هو، لأن نضحي بشيء ما، في سبيل معرفة متى بالضبط سوف يعود صاحبنا باريتون. رحنا نأمل أن يحدث هذا عن قريب، أن ينتهي من جولاته حتى يستعيد مصحته المرهقة ويديرها بنفسه. بالنسبة إلينا كان الأمر يفوق الاحتمال.

لم نكن أشخاصًا طموحين، لا أنا ولا هو، ولم نكن كلانا يأبه لإمكانيات المستقبل. على أي حال كان هذا خطأ.

لا بد أيضًا من إنصاف بارابين، وذلك لأنه لم يطرح البتة أي أسئلة حول الإدارة التجارية للمصحة، حول الطريقة التي أتعامل بها مع النزلاء وذويهم، لكني كنت أخبره مع هذا، رغمًا عنه إنْ جاز التعبير، وحينذاك كنت أتحدث وحدي دون أن يتدخل. في حالة روبنسون، كان من الضروري أن أحيطه علمًا.

"لقد حدثتك من قبل عن روبنسون أليس كذلك؟" سألته كمدخل للحديث عنه. "أنت تعرف جيدًا صديقي من زمن الحرب؟ هل تذكرت؟"

كان قد سمعني أحكي مئة مرة حكايات الحرب وحكايات إفريقيا أيضًا وبمئة طريقة مختلفة. كانت تلك عادتي.

"حسنًا"، واصلت الحديث، "ها هو الآن روبنسون يعود ثانيةً بلحمه وشحمه من تولوز، كي يرانا.. سوف نتناول العشاء معًا بالدار". الحقيقة أني عندما أقدمت هكذا على ذكر اسم الدار قد شعرت بشيء من الحرج. كان ما قمت به نوعًا من التطفل. للمناسبة، كان يلزمني امتلاك سلطة لينة، ملزمة، كانت تنقصني كليةً. ثم إن روبنسون نفسه لم يسهل عليَّ الأمور. على الطريق الذي يعود بنا إلى البلدة، بدا منذ الآن فضوليًّا للغاية وقلقًا، خصوصًا بشأن بارابين الذي كان وجهه الطويل والشاحب إلى جوارنا يثير فضوله ويحيره. كان قد ظن أولاً أنه

كان معتوهًا هو الآخر، بارابين. منذ أن عرف أين نقيم في ڤيني Vigny راح يرى مجانين في كل مكان. طمأنته.

"وأنت، سألته، هل وجدت على الأقل عملاً أيًّا كان منذ عودتك؟"

"سأبحث عن واحد". اكتفى بهذا في رده.

"لكن هل شفيت عيناك تمامًا؟ هل ترى بهما الآن جيدًا؟"

"نعم، أرى بهما كما في السابق تقريبًا".

"إذًا، أنت راضٍ تمامًا؟" سألته.

كلا، لم يكن راضيًا. لديه شيء آخر لا بد من القيام به غير الرضا. تجنبت أن أكلمه عن ماديلون على الفور. كان هذا موضوعًا ظل بالغ الحساسية بيننا. أمضينا وقتًا طيبًا أمام أقداح الشراب الفاتح للشهية –الأبريتيف. انتهزت هذه الفرصة لأحيطه علمًا بكثير من الأمور بشأن المصحة وبعض التفاصيل الأخرى أيضًا. لم أستطِع مطلقًا أن أمنع نفسي من الثرثرة بلا روية. باختصار لم أختلف كثيرًا عن باريتون. انتهى العشاء في جو ودي. بعد ذلك، لم أكن أستطيع مع كل هذا أن أطرده، على علاته، بلا مأوى.. روبنسون - ليون. قررت على الفور أن ننصب له مؤقتًا في قاعة الطعام سريرًا بسيطًا صغيرًا. لم يدل بارابين برأي قط. "ليون.. انظرْ!" قلت له، "إليك ما يكفل لك سكنًا ما دمت لم تجد بعد مكانًا". "شكرًا" أجابني بكل بساطة، ومنذ هذه اللحظة، كل صباح، كان يذهب بالترام إلى باريس على زعمه بحثًا عن وظيفة مندوب شركة ما، ممثلاً تجاريًّا.

كان قد مل العمل في المصانع، كما كان يقول، كان يريد أن "يمثل". ربما أجهد نفسه من أجل الحصول على تمثيل تجاري ما، على المرء أن يكون منصفًا، لكنه على كل حال لم يعثر في نهاية المطاف على شيء.

ذات مساء عاد من باريس قبل موعده المعتاد. كنت لا أزال بالحديقة، منصرفًا إلى مراقبة ضفاف البركة الكبيرة. جاء لرؤيتي هناك ليقول لي كلمتين.

"اسمعْ!" هكذا بدأ.

"إني أسمعك". أجبته.

"ألا تستطيع أن توفر لي عملاً صغيرًا هنا، في المكان نفسه؟ لم أجد شيئًا في الخارج".

"هل بحثت جيدًا؟"

"نعم، لقد بحثت جيدًا".

"عمل في الدار هو ما تريده؟ لكن لتقوم بماذا؟ أنت لم تجد إذًا عملاً صغيرًا في باريس؟ أتريد أن نستعلم من أجلك، أنا وبارابين، لدى من نعرفهم؟"

أشعره بالحرج أن أقترح عليه التدخل بخصوص عمله.

"ليست المسألة أني لم أعثر بتاتًا على عمل، واصل كلامه ساعتها. ربما يمكن العثور على عمل ما.. عمل صغير.. طبعًا.. لكنك سوف تعي الأمر.. لا بد من أن أبدو مختل العقل.. الأمر عاجل وضروري.. أن أبدو مختل العقل..

"حسنًا"، قلت له حينذاك أنا، "ولا تخبرني بالمزيد!"

"بلى، بلى يا فردينان، على العكس، لا بد أن أقول لك بالطبع المزيد.. لا بد أن تفهمني جيدًا.. ثم إنك أولاً ولأني أعرفك، فأنت بطيء الفهم ومتردد في اتخاذ القرار".

"هيا إذًا"، قلت له، "مستسلمًا، تفضل.. احكِ".

"لو لم أبدُ مخبولاً، سوف تسوء الأمور، أؤكد لك.. سوف يتأزم الوضع.. إنها قادرة على التسبب في إلقاء القبض عليَّ.. أتفهمني الآن؟"

"هل يتعلق الأمر بماديلون؟"

"نعم، بالتأكيد، يتعلق بها الأمر!"

"شيء لطيف!"

"يمكن أن تقول ذلك".

"أنتما متخاصمان تمامًا إذًا؟"

"كما ترى".

"اقتربْ من هنا، إنْ كنت تريد أن تخبرني ببعض التفاصيل!" قاطعته ساعتها، وجذبته منتحيًا به جانبًا. سيكون ذلك أحوط بسبب المجانين.. فبمقدورهم أيضًا إدراك بعض الأمور وأن يرووا بشأنها كذلك أشياء أكثر غرابة. رغم كل جنونهم.

صعدنا إلى إحدى غرف العزل، وما إن دخلنا إليها لم يطل الأمر حتى راح يعيد عليَّ بناء المسألة برمتها، خصوصًا أني كنت مطلعًا من قبل على قدراته ولأن القس بروتيست تركني أيضًا أفترض الباقي.

في المحاولة الثانية، لم يفشل في المهمة. لم يعد من الممكن الزعم بأنه قد ارتبك مرة أخرى! إلا هذا! مطلقًا. لا جدال.

"أتفهم، إن العجوز، راحت تطاردني أكثر فأكثر.. خصوصًا منذ الوقت الذي بدأت فيه عيناي تتحسنان، أي عندما بدأت أستطيع السير بمفردي في الشارع.. ابتداءً من ذلك الوقت رأيت من جديد بعض الأشياء.. ورأيتها ثانيةً هي أيضًا، العجوز.. بل لم أعد أرى سواها! كنت أجدها طيلة الوقت أمامي!

كأنها سدت منافذ الكون أمامي، حجبت عني الوجود! أعتقد بالفعل أنها كانت تقوم بذلك عمدًا، أن توجد أمامي.. لمجرد أن تزعجني.. لا يمكن تفسير الأمر بطريقة أخرى! وفضلاً عن ذلك ففي المنزل الذي كنا نقيم فيه كلنا، أنت تعرفه طبعًا ذلك المنزل، لم يكن من السهل تجنب الشجار، أليس كذلك؟ لقد رأيت كم كان ضيقًا! كان بعضنا يركب فوق بعض! لا يمكن أن نقول خلاف هذا!"

"ودرجات سلم القبو، لم تكن ثابتة بقوة. أليس كذلك؟"

كنت قد لاحظت بنفسي كم كان السلم خطرًا عندما زرت القبو للمرة الأولى مع ماديلون، وأنها كانت ترتج بالفعل وتتقلقل، درجات السلم.

"لا، بالنسبة إلى هذا كان الأمر تقريبًا منتهيًا تمامًا. أقر بذلك، بلا تردد وبكل صراحة".

"والناس هناك؟" سألته مجددًا. "الجيران، القساوسة، الصحافيون.. ألم يُبدوا ملاحظاتهم الصغيرة، هؤلاء الناس، عندما وقع هذا؟"

"لا، صدقني.. ومن جهة أخرى، لم يظنوني قادرًا على ذلك.. كانوا يرونني جبانًا.. رجلاً كفيفًا.. أتفهم؟"

"في النهاية، بالنسبة إلى هذا الموضوع يمكنك أن تعد نفسك محظوظًا، لأنه بخلاف ذلك؟ وماديلون؟ ما كان دورها في اللعبة؟ هل كانت مشاركة فيها أيضًا؟"

"ليس تمامًا.. لكن مع هذا فقد شاركت قليلاً، حتمًا، بما أن القبو، كما تعرف، كان مقررًا أن يعود لنا بالكامل نحن الاثنين بعد وفاة العجوز.. دُبِّر الأمر على هذا النحو.. كان مقررًا أن نستقر فيه نحن الاثنين".

"لماذا إذًا لم تسر بعد ذلك علاقتكما الغرامية على ما يرام؟"

"آه، هذا، كما تعرف، مسألة معقدة يصعب تفسيرها".

"ألم تعد ترغب فيك؟"

"بلى، بالعكس، كانت ترغب فيَّ بشدة، بل إنها ظلت شديدة الرغبة في مسألة الزواج إلى أبعد الحدود.. أمها أيضًا كانت ترغب في ذلك وبأقوى مما سبق، وأن يتم ذلك بسرعة بسبب مومياوات الأم هنرووي التي كانت ستؤول إلينا ولأننا منذ ذلك فصاعدًا سيكون لدينا ما يكفي لنعيش نحن الثلاثة في رغد هانئين".

"ماذا وقع بينكم إذًا؟"

"حسنًا، كنت أود، عن نفسي، أن يدعوني وشأني! بكل بساطة.. الأم والابنة".

"اسمع يا ليون". قاطعته على الفور عند سماعي تلك الكلمات.

"اسمعني.. إنها ليست جادة هي الأخرى قصتك العجيبة هذه.. ضع نفسك في مكانهما، ماديلون وأمها.. هل ستكون راضيًا، أنت، في مكانهما؟ كيف؟ عندما وصلت إلى هناك كانت لديك بالكاد أحذية، لا وظيفة، لا شيء، لم تكن تتوقف عن التذمر طول النهار، من أن العجوز تحتفظ بكل نقودك وهذا.. وذاك.. لقد رحلت، أنت الذي دفعتها بالأحرى إلى الرحيل.. ثم تعود مع هذا لتتصنع العبوس وتكرر تصرفاتك التافهة.. ضع نفسك في مكانهما، هاتين السيدتين، ضع نفسك مكانهما قليلاً. هذا أمر لا يطاق! أنت تستحق ذلك مئة مرة، أن ترسلك، المرأتان، إلى السجن! أود أيضًا أن أقول لك هذا!"

هكذا تحدثت إليه.. إلى روبنسون.. أنا.

"محتمل"، أجابني ساعتها، "صاعًا بصاع، لكنك تحاول عبثًا أن تكون طبيبًا ومثقفًا جدًّا وكل شيء، فأنت لا تفهم شيئا في طبيعتي".

"اخرس يا ليون واسمعْ!" انتهت بي الحال إلى أن أقول له وكي أنهي الحديث. "اسكتْ أيها التعس الحقير، بطبيعتك هذه! أنت تتكلم كشخص مجنون! إنني آسف حقًّا أن يكون باريتون مسافرًا حاليًا إلى أقصى أنحاء الجحيم، وإلا لكان قد تولى علاجك بنفسه! هذا أفضل ما قد نستطيع عمله من أجلك على كل حال! ربما يجب أن تُحتجز أولاً! هل تسمعني! أن تُحتجز! ربما اهتم بها باريتون، طبيعتك!"

"لو كنت قد عانيت ما عانيته، ومررت بما مررت به"، قال ثائرًا عند سماعي، "لكنت قد صرت مجنونًا بالفعل أنت أيضًا دون شك! أؤكد لك ذلك! وربما أسوأ مني أيضًا! أنت المتخاذل كما أعرفك!" وعلى ذلك راح يوبخني مرتجلاً بطلاقة تمامًا كما لو كان صاحب سلطة عليّ.

رحت أتطلع إليه ممعنًا في حين كان يوبخني. كنت قد تعودت أن أُعامل بقسوة هكذا من طرف المرضى، المجانين. لم يعد هذا يزعجني.

كان قد نَحِفَ كثيرًا منذ أيام تولوز فضلاً عن أن شيئًا ما لم أكن قد عهدته فيه من قبل بدا كأنه قد رُكِّبَ على وجهه كأنه صورة، على ملامحه ذاتها، صورة مسكونة بالنسيان، يلفها الصمت.

في حكايات تولوز، كان هناك أيضًا شيء آخر، أقل أهمية بطبيعة الحال، لم يكن قد استطاع هضمه، لكن عندما يعيد التفكير فيه كان الغضب يعاوده مع كل هذا، ذلك أنه كان مضطرًا إلى رشوة حشد كبير من الوسطاء بلا طائل. لم يهضم فكرة أنه أُرغم على دفع عمولات يمينًا ويسارًا، في ساعة استعادة القبو، إلى القس، إلى مؤجِّرة الكراسي، إلى دار البلدية، إلى الكهنة المعاونين وإلى كثير غيرهم أيضًا، وكل هذا بلا جدوى في النهاية. كان ذلك يكدر خاطره عندما يعاود الحديث عنه. "سرقة" كان يسمي هذه التصرفات.

"وماذا بعد، هل تزوجتما في نهاية المطاف؟" سألته، كي أنهي الحديث.

"بل كلا قلت لك! لم أعد أرغب فيها!"

"ومع هذا فقد كانت فتاة لا بأس بها الصغيرة ماديلون؟ لا يمكنك ادعاء العكس؟"

"ليس هذا هو بيت القصيد".

"بل بكل تأكيد نعم هذا هو بيت القصيد. بما أنكما كنتما حُرين كما قلت لي.. لو كنتما راغبين حتمًا في مغادرة تولوز، كان بإمكانكما بالتأكيد ترك القبو تحت إدارة أمها خلال بعض الوقت.. ثم ستعودان فيما بعد".

"في ما يتعلق بالهيئة، البنية الجسدية"، قال مستأنفًا، "ويمكنك أن تقول ذلك، فقد كانت بالفعل لطيفة، أعترف بذلك، باختصار، لقد نقلت إليّ معلومات صحيحة، خصوصًا أني تصورتُ أن الأمر كان مقصودًا فعندما أبصرتُ ثانيةً للمرة الأولى، كانت هي أول منْ رأيت.. إنْ جاز التعبير، في مرآة.. هل تتخيل؟ في النور! كان شهران قد مرا تقريبًا على سقوط العجوز.. عاد إليَّ البصر، كدفعة واحدة، واقعًا عليها، ماديلون، بينما كنت أحاول أن أرى وجهها.. دفقة من النور.. هل تفهمني؟"

"ألم يكن ذلك شيئًا سارًّا؟"

"بلى لقد كان شيئًا سارًّا لكن هناك أشياء أخرى غير ذلك".

"وقد هربت مع كل هذا".

"نعم، لكني سأوضح لك ما دمت تريد أن تفهم، لقد كانت هي أولاً مَنْ أَخذت تجدني غريبًا.. تجد أني لم أعد متحمسًا.. أني لم أعُدْ ودودًا.. أمور مصطنعة، تباهٍ.."

"ربما كان تأنيب الضمير هو ما يشغل بالك".

"تأنيب الضمير؟"

"لست أدري.. أنا..."

"لتُسَمِّ ذلك كيفما شئت، لكني لم أكن في حالة نفسية طيبة.. هذا كل ما في الأمر.. ومع هذا فأنا لا أعتقد أن المسألة تتعلق بتأنيب الضمير".

"أنت مجنون إذًا؟"

"لا بد أنه بالأحرى ذلك، مجنون.. ها هي ساعة على الأقل وأنا أحاول أن أخبرك بذلك، أنني مجنون.. لتعترف أنك أبطأت في فهم هذا".

"حسنًا! لا بأس!" أجبته. "سنقول إنك مجنون، بما أنك ترى أن هذا هو الأحوط".

"خيرًا ستفعل"، قال مُلِحًّا مرة أخرى، "لأني لا أضمن شيئًا في ما يتعلق بها.. إنها قادرة بالفعل على الاعتراف بكل شيء قبل أن يمضي وقت طويل".

كان ما يحاول عرضه عليَّ يشبه على ما يبدو نصيحة ما، ولم أكن أرغب في نصيحته. لم ترق لي مطلقًا هذه الطريقة بسبب التعقيدات التي كانت على وشك أن تبدأ من جديد.

"أنت تظن أنها سوف تعترف؟" سألته مجددًا حتى أتأكد.. "لكنها كانت مع ذلك متواطئة معك بقدر ما؟ لا بد أن ذلك سيحملها على التفكير وقتًا ما قبل أن تبدأ في الثرثرة؟"

"التفكير؟" قال منتفضًا حينذاك عندما سمعني. "من الواضح جدًّا أنك لا تعرفها". أَضحكَه أن يسمعني أقول ذلك. "لكنها لن تتردد ثانيةً واحدة! كما أقول لك! لو كنت قد خالطتها مثلي، ما ارتبت في هذا! أكرر لك.. إنها امرأة عاشقة! أنت لم تعاشر مطلقًا نسوة عاشقات؟ عندما تكون المرأة عاشقة، تكون مجنونة، المسألة بسيطة! إنها مجنونة! وهي مغرمة بي ومجنونة بي! ألا

تلاحظ؟ هل تفهم؟ وعليه فكل ما هو مجنون يثيرها! المسألة بسيطة للغاية! هذا لا يعوقها! على العكس!"

لم أستطِع أن أقول له إنه قد أدهشني مع ذلك قليلاً، إنها قد وصلت في خلال بضعة أشهر إلى هذه الدرجة من الجنون، ماديلون، لأني مع كل هذا، كنت قد عرفتها بنفسي قليلاً، ماديلون، كانت لديَّ فكرتي الخاصة بشأنها، لكني لم أكن أستطيع الجهر بها.

بحسب الطريقة التي كانت تتدبر بها أمورها في تولوز وكما وعندما سمعتها عندما كنت خلف شجرة الحور يوم الصندل، كان من الصعب أن أتصور أنها يمكن أن تغير تصرفاتها وتوجهاتها إلى هذا الحد في فترة وجيزة كهذه.. كانت قد بدت لي ماهرة في تدبر أمورها أكثر منها مأساوية، متحررة باعتدال وراضية تمامًا بالاستقرار ومع بعض المشكلات الصغيرة وخداعها الصغير في أي مكان يمكن أن ينطلي فيه ذلك.

لكن في الوقت الحالي، وحيثما كنا، لم يعد لديَّ ما أقوله. لم يكن عليَّ إلا أن أتغاضى عن الأمر.

"حسنًا! طبعًا! لا بأس!" قلت في النهاية. "وأمها إذًا؟ لا بد أنها أثارت بعض الضجة هي الأخرى.. الأم، عندما أدركت أنك سوف تفر بجلدك إلى غير رجعة؟"

"لا شك في ذلك! بل إنها ظلت تردد طول النهار أن لي طبيعة خنزير، ولاحظ، هذا، في الوقت نفسه الذي كنت أحتاج فيه، بالعكس، إلى أن يتحدث الناس معي بكل رفق! يا للحظ! باختصار لم يعد من الممكن البقاء مع الأم هي الأخرى، حتى إني اقترحت على ماديلون أن أترك لهما الاثنتين القبو، بينما أذهب أنا من جهتي للقيام بجولة، أسافر وحدي، لرؤية بعض نواحي البلاد من جديد.

(سوف تذهب معي)، قالت ساعتها محتجة. (إنني خطيبتك أليس كذلك؟ سوف تذهب معي، يا ليون، أو لن تذهب على الإطلاق! ثم إنك أولاً)، قالت مشددة، (لم تشفَ بعد بما يكفي).

(بلى، لقد شفيت ولسوف أمضي بمفردي!) أجبتها أنا. لم أخرج سالمًا. لم ينتهِ النقاش.

(أي زوجة ترافق زوجها دائمًا!) قالت الأم. (ما عليكما إلا أن تتزوجا!) كانت تساندها لمجرد أن تثيرني.

بسماع هذه الحيل، عن نفسي، كان ذلك يؤلمني. أنت تعرفني! كأنني احتجت إلى امرأة كي أمضي إلى الحرب! وللنجاة منها! وفي إفريقيا، أكانت معي نساء هناك؟ وفي أمريكا، هل كانت لديَّ امرأة؟ على كل حال كان سماعهما تتجادلان هكذا بشأن ذلك طوال ساعات يصيبني بألم في بطني! المغص! مع هذا فأنا أعرف جيدًا فيم تفيد النساء! أنت أيضًا أليس كذلك؟ لا تفيد في شيء! لقد سافرت كثيرًا، وحدي! ذات مساء، في آخر المطاف، عندما أخرجتاني عن طوري بالفعل بأحاديثهما الفارغة انتهت بي الحال إلى أن قذفت في وجهها دفعة واحدة، الأم، بكل ما أظنه فيها!

(لستِ سوى عجوز بلهاء). قلت لها.. (أنتِ اكثر حماقة أيضًا من الأم هنرووي! لو كنتِ قد عرفتِ أكثر قليلاً من الناس والبلاد كما عرفت أنا فلن تنطلقي بمثل هذه السرعة إلى إسداء النصائح إلى كل الدنيا ولن تتعلمي الحياة يومًا باستمرارك في التقاط أعقاب شموع الدهن في ركن كنيستك المتهالكة! لتخرجي إذًا أنتِ أيضًا قليلاً سيفيدك هذا! اذهبي إذًا لتتنزهي قليلاً أيتها القمامة القديمة! سينعشك هذا! سيكون أمامك وقت أقل لإقامة الصلوات، وستفوح منكِ على نحو أقل رائحة البقر.

هكذا كيف عاملتها، أنا، أمها! أجيبك بأني ومنذ وقت طويل كان يشغل بالي أن أوبخها وأنها فضلاً عن ذلك كانت تحتاج إلى هذا بشدة، بخسة.. لكن في النهاية سيكون بالأحرى أنا من أفاده هذا.. كأنه خلصني من الوضع.. لكن ربما قلنا أيضًا إنها، تلك البغلة، لم تكن تنتظر إلا هذه اللحظة، اللحظة التي كشفت فيها عن مكنون قلبي، حتى توسعني شتمًا بكل ما تعرفه من صفات النذالة! راحت ترغي وتزبد بها آنذاك بل وبأكثر من اللازم. لص! تنبل! لا تملك ولو مهنة، بعد قليل سيكون عام قد مضى ونحن نطعمك، ابنتي وأنا! فاشل! لا تصلح لشيء! قواد! أتسمع هذا من هنا؟ مشادة عائلية حقيقية.. ثم كأنها فكرت بإمعان فضلاً عن أنها قالت ذلك بصوت أكثر انخفاضًا، لكنها لو تعرف قالت ذلك من كل قلبها (قاتل! قاتل!) هكذا نعتتني. أوهن هذا عزيمتي قليلاً. انتابتني قشعريرة.

عندما سمعت الابنة ذلك اعتراها ما يشبه الخوف من أن أقتل أمها في التو. ألقت بنفسها بيننا. أغلقت بيدها فم أمها. حسنًا فعلت. لقد كانتا متفقتين إذًا البغلتان! قلت لنفسي. كان هذا واضحًا على أي حال. انسحبتُ.. لم يعد الوقت مواتيًا لتبادل الإساءات.. ثم إنني لم أكن لأعبأ على أي حال باتفاقهما في الرأي.. قد تظن أنهما بعد أن فرّجتا عن نفسيهما تمامًا، كانتا ستدعانني الآن وشأني؟ أتظن.. أنت واهم! كلا طبعًا! أنت تعرفهما.. أجلت الفتاة هذا. كان قلبها يشتعل بالنار فضلاً عن مؤخرتها.. عاودها الهياج بأعنف من ذي قبل.

(أنا أحبك يا ليون، أنت ترى جيدًا أني أحبك، يا ليون).

لم تكن تعرف إلا هذه الطريقة، كلمة (أحبك) هذه. كما لو كانت تحمل الإجابة عن كل شيء.

(أما زلتِ تحبينه؟) استأنفت الأم لذعاتها عندما سمعتها. (لكن ألا ترين إذًا أنه ليس سوى وغد حقير؟ تافه؟ الآن وقد استعاد عينيه، بفضل رعايتنا، سوف يجني عليكِ يا ابنتي! أنا التي تؤكد لكِ هذا! أنا أمك!)

لإنهاء المشهد، انخرط الجميع في البكاء، حتى أنا لأني لم أرغب في تأزيم الموقف مع هاتين السافلتين بأكثر مما ينبغي رغم كل شيء.

خرجت (من الموقف) إذًا سالمًا، لكن ما قيل بيننا من أمور كان أكثر بكثير من أن يحتمل حتى يمكن لمواجهتنا الشخصية أن تصمد طويلاً. ومع هذا فقد طال الأمر عدة أسابيع انقضت في التشاجر بشأن هذا وذاك، فضلاً عن مراقبة بعضنا البعض بالنهار والليل وخصوصًا في الليل.

لم نستطع أن نقرر الانفصال لكن العاطفة لم تعد موجودة.

كان لدينا بعض المخاوف التي ظلت على نحو ما تربطنا معًا.

(هل تحب امرأة أخرى إذًا؟) راحت ماديلون تسألني من وقت إلى آخر.

(كلا بالطبع، لا تخافي!) حاولت أن أطمئنها، أنا. (كلا طبعًا!). مع هذا كان من الواضح أنها لا تصدقني. بالنسبة إليها كان لا بد للمرء أن يحب أحدًا في الحياة ولم يكن هناك سبيل للخلاص من ذلك.

(أخبريني)، جاوبتها أنا، (ماذا يمكن أن أفعله بامراة أخرى؟) لكن هذا كان هوسها، الحب. لم أعد أعرف ماذا أقول لها حتى أهدئها. راحت تفتش عن أشياء لم أكن قد سمعت بمثلها من قبل.

لم أكن لأظن أنها تخفي أشياء كهذه في رأسها.

(لقد سلبتني قلبي، يا ليون!) أخذت تتهمني، وبجدية فوق ذلك. (أتريد أن ترحل؟) راحت تهددني. (لترحلْ! لكني أنبهك إلى أني سأموت كمدًا يا ليون!) أنا سأكون السبب في هلاكها حزنًا؟ أليس كذلك؟ إني أسألك. (كلا لا تخافي لن تموتي!) كنت أطمئنها. (أولاً أنا لم أسلبكِ شيئًا! بل إنكِ حتى لم تحبلي مني بطفل. ماذا بكِ! فكري في الأمر! لم أنقل إليكِ أمراضًا أيضًا؟ لا؟ ماذا إذًا؟ إنني أريد فقط أن أرحل من هنا، هذا كل ما في الأمر! كأني ذاهب في إجازة.

المسألة في غاية البساطة، على كل حال.. حاولي أن تكوني منطقية). وكلما حاولت أكثر أن أجعلها تتفهم وجهة نظري قل إعجابها ورضاها عن وجهة نظري هذه. باختصار لم نعد نتفاهم مطلقًا.

أصبحت كالمهووسة بفكرة أني يمكن أن أعني حقًّا ما أقول، أن الأمر لم يكن سوى حقيقي، بسيط وصادق.

فضلاً عن أنها تظن أنك أنت من كان يدفعني إلى الهروب.. عندما رأت حينذاك أنها لن تمسك بي بحملي على الخجل من مشاعري حاولت أن تحتجزني بطريقة أخرى.

(لا تظن يا ليون)، قالت لي ساعتها، (أني أتمسك بك، بسبب أعمال القبو! النقود، أنت تعرف أنها لا تهمني في الحقيقة.. كل ما أريده، يا ليون، أن أظل معك.. أن أكون سعيدة.. هذا كل ما في الموضوع.. هذا طبيعي تمامًا.. لا أريد أن تهجرني.. صعب جدًّا أن يفترق الناس بعد أن تحابوا كما تحاببنا نحن الاثنين.. أقسمْ لي على الأقل إنك لن ترحل لمدة طويلة، يا ليون؟)

هكذا استمرت نوبة غضبها طوال أسابيع. يمكننا القول إنها كانت مغرمة ومزعجة بالفعل.. كل ليلة كانت تعود إلى هوسها بالحب. في النهاية، وافقت مع كل هذا على أن نترك القبو في رعاية أمها، بشرط أن نرحل معًا للبحث عن عمل في باريس.. دائمًا معًا! يا لها من شخص غريب الأطوار! كانت تريد أن تتفهم أي شيء، ما عدا أن أمضي وحيدًا، أنا من جهتي وهي من جهتها.. بالنسبة إلى هذا كانت المحاولة عبثًا. كلما بدت آنذاك مصرة على رأيها أمرضتني أكثر.. حتمًا.

"لم يكن هناك داعٍ لمحاولة ردها إلى الصواب. أدركت هذا لفرط ما كان ذلك وقتًا مهدرًا حقًّا، أو رأيًا مسبقًا وأنه كان يجعلها بالأحرى أكثر جنونًا. كان لا بد إذًا أن أشرع بالفعل في اختراع بعض الحيل حتى أتخلص من حبها كما كانت

تقول.. من هنا راودتني فكرة أن أخيفها بأن أخبرها بأني كنت من وقت إلى آخر أصبح مجنونًا قليلاً، وأن ذلك كان يعتريني في نوبات.. بلا إنذار. نظرت إليَّ شذرًا، بعين مرتابة.. لم تكن تعرف حقًّا إن لم تكن تلك تلفيقة جديدة.. لكن ومع كل هذا وبسبب المغامرات التي كنت قد رويتها لها من قبل، فضلاً عن الحرب التي أثرت فيَّ، ثم العملية الأخيرة خصوصًا مع الأم هنرووي فضلاً أيضًا عن أن الطريقة الغريبة التي تغيرت بها فجأة معها قد حملتها على أي حال على التفكير في الأمر.

طوال أكثر من أسبوع راحت تفكر، وتركتني في سلام.. لا بد أنها قد أسرَّت إلى أمها بكلمتين عن نوبات جنوني.. على أي حال كان إصرارهما على إبقائي أقل.

(لقد نجح الأمر). قلت لنفسي، (سيكون الأمر على ما يرام!) ها أنا حر. كنت أرى نفسي ساعتها أنسل مطمئنًا، سرًّا، صوب باريس، بلا خسائر! لكن مهلاً! إذا بي أريد أن أجوّد، أن أتقن الدور جدًّا.. أتأنق في العمل.. ظننت أني قد وجدت الطريقة المثلى لأثبت لهما بصورة نهائية أن الأمر كان صحيحًا بالفعل.. أني أصير أكثر ما يكون هناك من خبل عندما تحين نوبات جنوني.. (تحسسي!) قلت لماديلون ذات مساء. (تحسسي مؤخرة رأسي، النتوء! أتشعرين بالندبة فوقه، إنه ورم كبير.. أليس كذلك؟)

عندما تحسست جيدًا حدبتي الصغيرة خلف رأسي، حرك ذلك مشاعرها كما لا يمكنني أن أصف لك.. لكن على سبيل المثال أثارها ذلك أكثر أيضًا، لم يثر نفورها على الإطلاق! (هنا، في هذا الموضع جُرِحْتُ في الفلاندر. هنا ثقبوا رأسي) رحت أكرر في إلحاح.

(آه! يا ليون!) انتفضت آنذاك عندما تلمست النتوء، (إني أسألك الصفح، أتوسل إليك أن تسامحني، يا ليوني العزيز.. لقد ظللت حتى الآن مرتابة فيك، لكني أسألك الآن الصفح من أعماق قلبي! أنا أدرك الآن! لقد كنت آثمة معك!

بلى! بلى! يا ليون لقد كنت شنيعة! لن أكون بعد اليوم قاسية معك! أقسم لك على هذا! إنني أريد أن أكفر عن خطيئتي! الآن على الفور! لا تمنعني من التكفير عن خطيئتي، ليون، اتفقنا؟ سأعيد إليك سعادتك! سوف أعتني بك جيدًا، هنا منذ اليوم! سأكون رقيقة جدًّا! سوف ترى يا ليون! سوف أتفهم وضعك تمامًا حتى إنك لن تستطيع الاستغناء عني بعد ذلك! إنني أمنحك إياه ثانيةً قلبي كله، أنا ملكك.. بالكامل! كل حياتي يا ليون أهبها لك. لكن قل لي إنك تغفر لي على الأقل، أتوافق، يا ليون؟")

لم أكن قد قلت لها شيئًا كهذا أنا، لا شيء. كانت هي من قالت كل شيء، إذًا، كان من السهل أن تجيب بنفسها على نفسها.. كيف كان يجب التصرف حتى تتوقف.. أخبرني؟

كان تحسسها لحدبتي وندبة جرحي قد أسكرها بالحب دفعة واحدة! أرادت ثانيةً أن تأخذ رأسي بين يديها، ألا تفلته أبدًا، وأن تسعدني إلى الأبد، سواء أردت أم لم أُرد! بدءًا من هذا المشهد لم يعد للأم الحق في الكلام لتوبيخي. لم تكن ماديلون تدع أمها تتكلم. لم تكن تعرفها أنت، أرادت أن تحميني منها تمامًا!

كان لا بد لهذا أن ينتهي! كنت أفضّل بالطبع أن نفترق كأصدقاء أصفياء.. لكن الأمر لم يكن يستحق حتى المحاولة.. لم تعد تتمالك نفسها من فرط الحب وكانت مصدومة. ذات صباح، بينما كانتا قد خرجتا للتسوق هي وماديلون، تصرفتُ كما تصرفتَ أنت، صُرة صغيرة، وانسحبت في هدوء.. لا يمكنك أن تقول بعد هذا إنني لم أتحلَّ بما يكفي من الصبر؟ لكني أكرر لك أنه لم يعد من الممكن القيام بشيء حيال ذلك.. الآن.. أنت تعرف كل شيء.. عندما أقول لك إنها قادرة على كل شيء هذه الصغيرة وإنها تستطيع بكل تأكيد المجيء لتلاحقني هنا من لحظة إلى أخرى، لا يجب إذًا أن تأتي أنت لتؤكد لي أني أتوهم أشياء! أنا أعرف جيدًا ما أقول! أنا أعرفها! وفي رأيي أننا سوف نكون أكثر اطمئنانًا وراحة بال لو وجدتني بالفعل مُحتَجَزًا مع المجانين.. هكذا

سأكون على راحتي أكثر لأمثل دور من لم يعد يفقه شيئًا.. هذا ما يجب القيام به، معها.. عدم الفهم".

لو كان كل ما جاء روبنسون ليرويه لي كان قبل شهرين أو ثلاثة، ربما كان الأمر قد أثار اهتمامي، لكنني كنت كأنني قد شخت مرة واحدة.

في الحقيقة، كنت قد أصبحت أكثر فأكثر مثل باريتون، صرت لا أكترث. كل ما رواه لي روبنسون عن مغامرته في تولوز لم يعد يمثل لي خطرًا حيًّا بالفعل، حاولت عبثًا أن أستثير نفسي بشأن حالته، كانت حالته تفوح برائحة العفونة. عبثًا نقول وندعي، فالعالم يغادرنا بالفعل قبل أن نرحل عنه إلى غير رجعة بكثير.

الأشياء التي نتمسك بها أكثر ما يكون، نقرر ذات يوم أن نتحدث عنها أقل.. فأقل، باجتهاد، عندما يجب بذل الجهد.

لا يعود المرء يتحمل كثيرًا أن يستمع إلى نفسه دائمًا يتحدث.. نقتضب.. نزهد في الحديث.. منذ ثلاثين عامًا وهو يتحدث.. لا نتمسك كثيرًا بأن نكون على صواب. تفارقنا الرغبة في الاحتفاظ حتى بالمكان الصغير الذي نحجزه لأنفسنا في عالم المسرات.. يصيبنا السأم.. يكفي من الآن فصاعدًا أن نأكل قليلاً، أن نصطنع لأنفسنا شيئًا من الدفء وأن ننام بأقصى ما نستطيع، في طريقنا إلى اللاشيء. لاستعادة الاهتمام كان لا بد أن نجد مظاهر خادعة جديدة نتخذها أمام الآخرين.. لكننا لا نعود نمتلك القدرة على تغيير أدوارنا. نغمغم. نبحث، نبحث لأنفسنا عن مزيد من الحيل والأعذار لنظل هنا مع الرفاق، لكن الموت بدوره حاضر هنا أيضًا، يفوح برائحته الكريهة، إلى جوارنا، دائمًا الآن وأقل غموضًا من لعبة ورق. لكن الأحزان الصغيرة تظل غالية على نفوسنا، مثل الأسى الذي نشعر به لأن الوقت لم يُتحْ لنا لنزور العم العجوز في ضاحية بوا - كولمب Bois_colomes عندما كان لا يزال على قيد الحياة، الذي خبت إلى الأبد أغنيته الصغيرة ذات مساء في شهر فبراير. هذا هو كل ما

احتفظنا به من الحياة. هذه الحسرة الصغيرة المريرة للغاية، أما الباقي فقد تقيأناه بالفعل بصورة أو بأخرى، خلال مشوار الحياة، بكثير من الجهود والتعب. لا يعود المرء سوى مصباح صغير للذكريات على ناصية شارع لم يعد يمر فيه الآن أحد تقريبًا.

إن كان لا بد من الضجر، فإن الأقل إرهاقًا، أن نقوم بهذا وفق عادات منتظمة. كنت أحرص على أن ينام الجميع في العاشرة مساءً، في المصحة، كنت أنا من يطفئ الكهرباء. كانت الأمور تمضي تلقائيًّا.

من ناحية أخرى لم نتكبد تكاليف ومشقة الابتكار. كان نظام باريتون "الحمقى في السينما" يشغلنا بما فيه الكفاية. المدخرات المالية، لم تعد المصحة تحقق الكثير منها. فالتبذير، قلنا لأنفسنا، قد يحمل رب الدار على العودة لأن ذلك كان يصيبه بانقباض النفس.

اشترينا أكورديون حتى يستطيع روبنسون أن يحمل مرضانا على الرقص في الحديقة خلال الصيف. كان من الصعب أن نشغل أوقاتهم في ڤيني، المرضى، ليلاً ونهارًا. لم يكن بمقدورنا أن نرسلهم طول الوقت إلى الكنيسة؛ كانوا يشعرون بالضجر جدًّا هناك.

من تولوز، لم نعد نتلقى أي خبر، لم يعد القس بروتيست هو الآخر يأتي لرؤيتي مطلقًا. انتظمت الحياة في المصحة رتيبة، خاطفة. نفسيًّا، لم نكن على راحتنا كثيرًا. كان هناك كثير جدًّا من الأشباح، هنا وهناك.

انقضت عدة شهور. راح روبنسون يسترد العافية. في عيد الفصح، اهتاج مرضانا قليلاً، مرت بعض السيدات في فساتين فاتحة اللون أمام حدائقنا ورحن يُعدن المرور. ربيع قبل الأوان. رائحة البروم (أملاح البروم) تملأ الجو.

في ملهى التارابو، كان طاقم العاملين منذ أيام تمثيلي الصامت فيه قد تغير كثيرًا من المرات. انسلت الإنجليزيات الصغيرات إلى بعيد.. بعيد، أخبروني،

إلى أستراليا. لن نراهن ثانيةً بعد الآن..

منذ حكايتي مع تانيا، كانت الكواليس ممنوعة عليَّ. لم ألح.

أخذنا في كتابة بعض الخطابات إلى كل مكان وخصوصًا إلى قنصليات بلاد الشمال، لنحصل على بعض الدلائل على مرور باريتون المحتمل بها. لم نتلقَ من تلك القنصليات أي إجابة مفيدة.

راح بارابين يؤدي عمله التقني بتروٍّ وصمت إلى جانبي. منذ أربعة وعشرين شهرًا لم يكن قد نطق إجمالاً بأكثر من عشرين جملة فقط. كان عليَّ أن أقرر وحدي تقريبًا بعض الترتيبات المادية والإدارية الصغيرة التي يتطلبها الوضع اليومي للعمل. حدث أن ارتكبت بعض الأخطاء، لم يكن بارابين يلومني عليها إطلاقًا. بفضل اللامبالاة، كنا نتفق معًا. من جانب آخر كان توافد كافٍ من المرضي يؤمِّن الجانب المادي لمؤسستنا. بعد سداد الإيجار وحقوق الموردين كان يتبقى لنا ما نعيش منه بسعة، كانت تكاليف أكل وسكن إيميه تُسَدَّد بانتظام إلى قريبتها، بالطبع.

كنت أرى روبنسون أقل قلقًا بكثير الآن عما كان عليه وقت وصوله. كان قد استعاد عافيته وثلاثة كيلوجرامات. بدا أنه ما دام هناك بعض المرضى في العائلات، فإنهم سيكونون سعداء تمامًا بوجودنا، مرتاحين تمامًا لأننا كنا على مقربة من العاصمة. حديقتنا وحدها كانت تستحق الرحلة. كان الناس يأتون من باريس خصوصًا للتطلع إليها في إعجاب، أحواض زهورنا وخمائل ورودنا في ذروة فصل الصيف.

وقد كان في خلال أحد أيام الأحد هذه في شهر يونيو أن بدا لي أني قد تعرفت إلى ماديلون، للمرة الأولى، وسط جماعة من المتنزهين، متسمرة للحظة قصيرة، أمام بوابتنا بالضبط.

في البداية لم أرد أن أنقل شيئًا عن هذا الظهور إلى روبنسون، حتى لا أخيفه، ثم مع كل هذا، بعد أن فكرت جيدًا، بعد مرور عدة أيام، أوصيته ألا يبتعد منذ الآن فصاعدًا، على الأقل لفترة قصيرة، في جولاته الغامضة هذه في الجوار. أقلقته هذه النصيحة. غير أنه لم يلح في معرفة المزيد.

قرب نهاية شهر يوليو تلقينا من باريتون بعض البطاقات البريدية، من فنلندا هذه المرة. أسعدنا ذلك، لكنه لم يحدِّثنا البتة عن عودته، تمنى لنا مرة أخرى "حظًّا سعيدًا" وكثيرًا من الأشياء الودية.

انقضى شهران ثم شهور أخرى.. تساقط غبار الصيف على الطرقات ثانيةً. أثار أحد مرضانا قبيل عيد جميع القديسين، فضيحة صغيرة، أمام مصحتنا. لم يتحمل هذا المريض، الذي كان في ما مضى في غاية الوداعة واللياقة، الاحتفال والتحمس للموت الذي تنطوي عليه ذكرى عيد القديسين. لم نستطع منعه في الوقت المناسب من الصراخ عبر نافذته بأنه لم يعد يريد أن يموت مطلقًا.. لم يتوقف المتنزهون عن أن يروا ذلك مضحكًا تمامًا.. في الوقت الذي طرأت فيه فجأة تلك المشادة انتابني من جديد، لكن هذه المرة بصورة أكثر تحديدًا من المرة السابقة، الشعور البغيض جدًّا بالتعرف إلى ماديلون في الصف الأول من مجموعة من المتنزهين، في المكان نفسه بالضبط، أمام البوابة.

خلال الليلة التي تلت ذلك أيقظني الانقباض، حاولت أن أنسى ما رأيته، لكن كل جهودي لنسيان الأمر راحت عبثًا. كان من الأفضل ألا أحاول النعاس ثانيةً.

منذ وقت طويل لم أكن قد عدت إلى رانسي. ما دام لا بد أن يدهمني كابوس ما، أخذت أسأل نفسي إن لم يكن من الأفضل أن أذهب لأقوم بجولة في تلك الناحية التي تأتي منها كل المصائب، عاجلاً أم آجلاً.. كنت قد تركت خلفي هناك بعض الكوابيس.. إن محاولة استباقها، يمكن أن تعد عند الضرورة نوعًا من الحيطة.. للوصول إلى رانسي، عند القدوم من ڤيني، كان أقصر الطرق،

هو محاذاة رصيف النهر حتى جسر چانفيليه Genvilliers، ذلك الواقف منبسطًا بفظاظة فوق مياه السين. ضباب النهر بطيء الحركة يتمزق فوق سطح المياه، ينضغط، يعبر، يترنح ويذهب ليتساقط ثانيةً في الناحية الأخرى من حاجز الجسر حول أعمدة الإنارة. مصنع الجرارات الضخم يختبئ في قطعة كبيرة من الليل. نوافذه مشرعة عن نار كابية تحرقه من الداخل ولا تخمد أبدًا. بعد اجتياز المصنع، يكون المرء وحيدًا فوق الرصيف.. لكنه لن يخطئ الطريق.. وبناءً على ما يشعر به من التعب يدرك شيئًا فشيئًا أنه قد وصل.

يكفي آنذاك أن يستدير ثانيةً إلى اليسار عبر شارع ديه بورانيرDes Boranaires ولا تعد رانسي ساعتها بعيدة عنه بالفعل. ليس من الصعب الاهتداء إليها بسبب مصباح المزلقان بلونيه الأخضر والأحمر المضاء على الدوام.

حتى في منتصف الليل كنت سأذهب، أنا، إلى هناك، مغمض العينين إلى مسكن آل هنرووي. لطالما ذهبت إلى هناك كثيرًا، في ما مضى.

غير أني، عندما وصلت أمام البيت في تلك الليلة، أخذت في التفكير مليًّا في الأمر بدلاً من أن أمضي قُدمًا.

إنها تسكن وحدها الآن في المنزل، زوجة الابن. هذا ما فكرت فيه.. لقد ماتوا جميعًا، كلهم.. لا بد أنها كانت تعرف، أو على الأقل ارتابت في الطريقة التي لقيت بها العجوز حتفها في تولوز.. أي وقع قد يكون ذلك قد تركه عليها؟

كان مصباح الشارع يبيّض مظلة مدخل البيت فوق سلم الدرج الخارجي كأنه يكسوها بالجليد. وقفتُ هناك، في زاوية الشارع، أتطلع إلى المنزل، طويلاً. كان بإمكاني طبعًا أن أمضي لأدق الجرس. لا بد أنها كانت ستفتح لي. على

أي حال، لم نكن متخاصمين معًا. كان البرد قارسًا في البقعة التي توقفت فيها..

لا يزال الشارع ينتهي بحفرة موحلة، كما كان على أيامي. وُعِدَ السكان ببعض الإصلاحات، لم يُشرَع في القيام بها.. لم يعد يمر أحد من هناك.

ليس لأني تخوّفت منها، من الابنة هنرووي. كلا. لكن مرة واحدة، هناك، لم تعد لدي رغبة في رؤيتها ثانيةً. لقد أخطأت بالسعي إلى رؤيتها من جديد. هناك، أمام منزلها، اكتشفت بغتة أنها لم يعد لديها ما تخبرني به.. بل سيكون من المزعج جدًّا أن تكلمني الآن، هذا كل ما في الأمر. ها هو ما صرنا إليه أنا وهي.

كنت قد وصلت الآن إلى أبعد منها، في الليل، بل أبعد من العجوز هنرووي التي ماتت.. لم نعد جميعًا معًا.. كنا قد افترقنا إلى الأبد.. ليس بالموت فقط، لكن بالحياة أيضًا.. جرى هذا بحكم الواقع.. كل واحد ملزم بنفسه! رحت أقول لنفسي.. ثم رحلتُ ثانيةً من جهتي، صوب ڤيني.

لم يكن لديها من المعرفة ما يكفي حتى تجاريني في الوقت الحاضر، الابنة هنرووي.. من الحزم والإرادة هذا.. نعم، كان لديها منها.. لكن لا تعليم! كانت تلك هي العقدة. لا تعليم. التعليم شيء رئيس! إذًا لم يعد بوسعها أن تفهمني، ولا أن تفهم ما يجري من حولنا، مهما استطاعت أن تكون فظة وعنيدة.. لم يكن يكفي.. لا بد أيضًا من الجرأة والمعرفة للمضي إلى أبعد من الآخرين.. سلكت شارع دي سانزيون des Sanzillons للعودة نحو نهر السن ثم قطعت زقاق فاسو vassou. انتهت حالة الاضطراب وأصبحت راضيًا تقريبًا! فخورًا لأني أدركت أن الإلحاح من جانب الكنة هنرووي لم يعد يستحق العناء، انتهت بي الحال إلى أن فقدتها في الطريق، تلك اللعينة! يا لها من امرأة! كنا قد مِلنا إلى بعضنا البعض على طريقتنا.. تفاهمنا من قبل جيدًا أنا والابنة هنرووي.. زمنًا طويلاً.. لكن الآن.. لم تعد منحطة بما يكفي بالنسبة إلي، لم تستطع أن

تنحدر.. تلحق بي.. لم تكن لها لا المعرفة ولا القدرة.. في الحياة لا يرتقي المرء، إنه ينحدر. لم تعد قادرة. لم يعد بوسعها الانحدار إلى حيث كنت أنا.. بالنسبة إليها كان هناك كثير من الليل من حولي.. أكثر مما يجب.

عندما مررت أمام البناية التي كانت خالة بيبير بوابة لها، راودتني أيضًا الرغبة في الدخول، لمجرد أن أرى هؤلاء الذين يشغلون الآن مسكنها، هناك حيث كنت قد عالجت بيبير Bebert وحيث كان قد رحل. ربما كانت صورته في ثياب المدرسة لا تزال معلقة فوق الفراش.. لكن الوقت كان متأخرًا بأكثر مما يجب لإيقاظ الناس.

مررت دون أن أدع أحدًا يتعرف إليَّ.

إلى أبعد قليلاً، في حي لاليبرتيه (الحرية) La liberte، رأيت حانوت بيزان Bezin تاجر الأشياء المستعملة لا يزال مضاءً.. لم أكن أتوقع ذلك.. لكن بمجرد مصباح غاز صغير فقط وسط معروضاته.

بيزان، عن نفسه، كان يعرف كل أمور وأخبار سكان الحي بحكم تردده على المقاصف والحانات وكان معروفًا جدًّا ابتداءً من سوق البراغيث وحتي بوابة مايو "بورت مايو" La porte Maillot.

ربما استطاع أن يروي لي بعضًا منها، تلك الحكايات، لو كان لا يزال مستيقظًا. دفعت باب الحانوت. دق جرسه المعلق، لكن لم يجبني أحد. كنت أعرف.

إنه ينام في مؤخرة الحانوت، في حجرة طعامه إن أردنا الحق.. هناك، كان هو أيضًا، في العتمة، رأسه على المائدة، بين يديه، جالسًا بانحراف بقرب العشاء البارد الذي كان ينتظره، العدس. كان قد شرع في الأكل. استولى عليه النعاس على الفور عندما عاد. كان يغط بصوتٍ عالٍ. كان قد شرب كثيرًا أيضًا، هذا صحيح. إنني أتذكر ذلك اليوم جيدًا، أحد أيام الخميس، يوم سوق

"الليلاهLes Lails ".. كان معه من الأشياء المستعملة ملء (بشكير) كبير لا يزال مفروشًا فوق الأرض تحت قدميه.

كنت أراه دائمًا فتى طيبًا، بيزان، ليس أكثر خسةً من غيره، لا جدال في هذا، كثير المجاملة، لين العريكة، غير متشدد.

لم أكن لأشرع في إيقاظه بدافع الفضول، من أجل أسئلتي التافهة.. وعليه فقد غادرت المكان ثانيةً بعد أن أغلقت صنبور الغاز.

كان يجد صعوبة في الصمود، بكل تأكيد، في تجارته هذه، لكنه على الأقل، لم يكن يجد صعوبة في أن ينام.

مع ذلك فقد رجعت حزينًا صوب ڤيني، مفكرًا في أن كل هؤلاء الأشخاص، هذه البيوت، هذه الأشياء القذرة والكالحة لم يعد لحديثها أي وقع مباشر في قلبي مطلقًا كما كانت الحال في ما مضى، وأني بكل ما أستطيع أن أبدو عليه من المكر والمخاتلة، ربما لم يعد لديَّ ما يكفي من القوة أيضًا، كنت أشعر بذلك جيدًا، كي أمضي أنا الآخر بعيدًا، أنا، هكذا، وحدي.

الفصل 45

المقطع الثاني والأربعون

بالنسبة إلى وجبات الطعام، حافظنا على عادات أيام باريتون، أي أننا كنا نتلاقى جميعًا حول المائدة، لكن بالأحرى الآن في قاعة البلياردو فوق مسكن البوابة. كان ذلك أكثر ألفة من قاعة الطعام الحقيقية حيث تتبعثر الذكريات غير الطريفة للمحادثات الإنجليزية. فضلاً عن ذلك، كان هناك أيضًا الكثير جدًّا من قطع الأثاث الراقي جدًّا بالنسبة إلينا في قاعة الطعام، طراز (1900) الحقيقي مع لوحات من الزجاج الملون لبنيّ اللون (الأوبال).

من قاعة البلياردو، كنا نستطيع أن نرى كل ما يجري في الشارع. يمكن لهذا أن يكون مفيدًا. كنا نقضي في تلك الحجرة أيام آحاد بكاملها. في ما يتعلق بالمدعوين كنا نستقبل أحيانًا على العشاء بعض الأطباء من الجوار، من هنا ومن هناك، لكن ضيفنا المعتاد كان بالأحرى جوستاف Gustave رجل شرطة المرور. كان الرجل، يمكن أن نقول ذلك، مواظبًا. كنا قد تعارفنا هكذا عبر النافذة، عند رؤيته يوم الأحد، يقوم بخدمته، عند تقاطع الطريق في مدخل البلدة. كانت السيارات تزعجه. تبادلنا في البداية بضع كلمات ثم أصبحنا من يوم أحد إلى آخر معارف تمامًا. وقد أتيحت لي في المدينة، فرصة معالجة ولديه الاثنين، واحدًا بعد الآخر، من الحصبة والحمى النكافية.

كان رفيقًا مخلصًا لنا، جوستاف ماندامور Gustave Mandamour، كما يُسمى، من مقاطعة كانتال Cantal. بالنسبة إلى الحديث كان الرجل مُتعِبًا بعض الشيء، لأنه كان يجد بعض الصعوبة في نطق بعض الكلمات. كان يجدها بسهولة، لكنه لم يكن يُخرجها من فمه، كانت بالأحرى تظل عالقة في فمه، تصدر أصواتًا.

ذات ليلة، هكذا دون ترتيب، دعاه روبنسون إلى صالة البلياردو، مازحًا على ما أعتقد. لكن طبيعته كانت مواصلة الأمور، وعليه صار يأتي دائمًا منذ ذلك اليوم، صاحبنا جوستاف في الموعد نفسه، كل مساء، في الثامنة. كان يجد نفسه سعيدًا معنا، جوستاف، أفضل من المقهى، كما يقول لنا بنفسه، بسبب المناقشات السياسية التي كثيرًا ما كانت تحتدم بين رواده. لم نكن نحن نتناقش مطلقًا في السياسة. في حالة جوستاف كانت السياسة حساسة بما يكفي. في المقهى صادفته بعض المشكلات بسبب هذا. من ناحية المبدأ، لم يكن له أن يتحدث في شؤون السياسة، خصوصًا عندما يكون قد شرب قليلاً، وهو ما يحدث له كثيرًا. بل إنه كان معروفًا بكثرة الشراب، بينما كان عندنا آمنًا من كل الوجوه. كان يقر بذلك هو نفسه. نحن لم نكن نعاقر الشراب. كان بوسعه أن يكون على سجيته في الدار، لم تكن لذلك أي عوقب وخيمة. بثقة كان يأتي.

عندما كنا نفكر، بارابين وأنا، في الموقف الذي خرجنا منه وفي الموقف الذي ألنا إليه عند باريتون، لم يكن لنا أن نشكو، لكنا أخطأنا كثيرًا لو قمنا بذلك، لأننا باختصار أصبنا حظًّا يشبه المعجزة وحصلنا على كل ما كنا نحتاج إليه سواء من ناحية الاحترام والتقدير أو من ناحية الرفاهية المادية.

غير أني، كنت أظن دومًا أن المعجزة لن تدوم. كان لي ماضٍ دبق مقزز وها هو يعاودني الآن كتجشؤات القدر. من قبل وفي بدايات عملي بـڤيني Vigny، كنت قد تلقيت ثلاثة خطابات مجهولة المصدر بدت لي غامضة ومُهدِّدة إلى أبعد الحدود. ثم بعد ذلك، ثلاثة خطابات أخرى كانت كلها جارحة. صحيح أننا كنا نتلقى كثيرًا منها في ڤيني، خطابات مجهولة، ولم نكن نعيرها اهتمامًا أكثر في العادة. كانت تأتي في الغالب من مرضى سابقين كانت عقد الاضطهاد تعاودهم في بيوتهم لتقلقهم وتشغل خواطرهم.

لكن هذه الخطابات الأخيرة، كان أسلوبها يقلقني أكثر، لم تكن تشبه الأخرى، كانت الاتهامات التي تحملها واضحة فضلاً عن أنها لم تكن تتعلق إلا بي

وبروبنسون فقط. باختصار، اتُّهِمنا بأننا نعيش كزوج وزوجة. كان افتراضًا خسيسًا. في البداية شعرت بالحرج في أن أحدثه بشأنها ثم قررت مع كل هذا أن أقوم بذلك لأنني لم أكن أتوقف عن تلقي رسائل جديدة من النوع نفسه. حينذاك رحنا نبحث معًا عمن يمكن أن يبعث بها إلينا. حصرنا كل الأشخاص المحتملين من بين معارفنا المشتركين. لم نجد أحدًا. من ناحية أخرى كاتهام، لم يكن ذلك يقوم على أي أساس. بالنسبة إليَّ، لم تكن المثلية من ذوقي فضلاً عن أن روبنسون كان لا يكترث كثيرًا بأمور الجنس، من جهة أو أخرى. لو كان هناك شيء يشغله، فإنه بكل تأكيد لن يكون حكايات المؤخرات. لا بد على الأقل أن المرسل امرأة غيور حتى يمكنها تصور قذارات كهذه.

باختصار لم نكن نعرف امرأة أخرى غير ماديلون قادرة على المجيء لتلاحقنا حتى ڤيني باختلاقات بمثل هذه القذارة والضعة.

لم أكن أهتم بأن تستمر في كتابة سفالاتها، لكني كنت أتخوّف من أن تأتي، ساخطة لأن أحدًا لا يرد عليها، لتلاحقنا بنفسها شخصيًّا، يومًا أو آخر، وأن تثير فضيحة في المصحة. كان لا بد من توقع الأسوأ.

هكذا أمضينا عدة أسابيع كنا ننتفض خلالها كلما رن الجرس. كنت أتوقع زيارة من ماديلون، أو أسوأ أيضًا، من النيابة العامة.

في كل مرة كان الشرطي ماندامور يأتي فيها لمباراة البلياردو مبكرًا عن موعده المعتاد بقليل، كنت أتساءل إن لم يكن يحمل في جيب حزامه أمر استدعاء، لكنه كان لا يزال في تلك الفترة أكثر ما يكون ودًّا ومراعاة، ماندامور. فيما بعد فقط، أخذ في التغير هو الآخر بطريقة ملحوظة. في ذلك الوقت، راح يخسر أيضًا كل يوم تقريبًا في كل الألعاب بهدوء واطمئنان. لو كان قد غيّر من طباعه، فقد كان ذلك على أي حال بسببنا.

ذات مساء، على سبيل العلم بالشيء، سألته لماذا لا يتمكن مطلقًا من الفوز في ألعاب الورق، لم أكن محقًّا في الواقع في سؤال ماندامور عن ذلك، لكنه الهوس بمعرفة السبب؟ والكيفية؟ خصوصًا أننا لم نكن نلعب من أجل المال! وبينما كنا نتناقش بشأن سوء حظه، اقتربت منه وتفحصته جيدًا، لاحظت أنه كان مصابًا إلى حد كبير حقًّا بطول النظر. في الحقيقة، في الإضاءة التي كنا نوجد فيها، لم يكن يميز إلا بصعوبة بين علامات الأوراق، الترفِل (السباتي) والكارو (الديناري). لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر.

خلصته من آثار العلة التي يعاني منها بإهدائه نظارة طبية جميلة. في البداية كان سعيدًا للغاية بتجربتها، نظارته، لكن ذلك لم يستمر. فبما أنه صار يلعب على نحو أفضل، بسبب نظارته الطبية، صار يخسر أقل من ذي قبل وأدخل في رأسه فكرة ألا يخسر بعد ذلك أبدًا. كان ذلك مستحيلاً، حينذاك بدأ يغش. وعندما كان يحدث له أن يخسر رغم محاولات غشه كان يستاء ويقاطعنا طوال ساعات بكاملها. باختصار صار غير محتمل.

شعرت بالأسف، كان يغضب لأقل سبب، جوستاف، وفضلاً عن هذا، كان يحاول بدوره أن يضايقنا، أن يصيبنا بالقلق وبالهم أيضًا. كان ينتقم عندما يخسر، بطريقة خاصة.. غير أنه لم يكن بسبب النقود، أؤكد لكم، كنا نلعب، من أجل التسلية فقط، والشهرة. لكنه كان يغضب مع ذلك ويثور جنونه.

هكذا ذات مساء لازمه فيه سوء الحظ وقال لنا متهيئًا للذهاب: "أيها السادة سوف أنبهكم إلى أن تحترسوا، مع الأشخاص الذين تخالطونهم، لو كنت مكانكم أنا لأخذت حذري! هناك امرأة سمراء من بين أخريات تمر منذ عدة أيام أمام مصحتكم! أكثر بكثير مما يجب في رأيي! إن لها أسبابها! لن يدهشني غير أن يكون لديها بشأن أحدكما ما يجعلها تسعى إلى التفاهم معه!"

هكذا إذًا ألقى إلينا بالخبر، الجهنمي، الأخ ماندامور، قبل أن يغادر. لم يخطئ في مسعاه الصغير، وقع كلامه! مع كل هذا فقد تمالكت نفسي على الفور.

"حسنًا، شكرًا يا جوستاف" جاوبته بكل هدوء.. إنني لا أرى مَنْ يمكن أن تكون الشابة السمراء التي تتحدث عنها؟ ليس لأي من مريضاتنا السابقات ما يدعوها، بحسب ما أعرف، إلى الشكوى من علاجنا.. لا بد أن المسألة تتعلق دون شك أيضًا بتائهة مسكينة ضلت طريقها.. سوف نهتدي إليها.. على كل حال فأنت على صواب، من الأفضل دائمًا أن نعرف ما يدور حولنا.. مرة أخرى شكرًا يا جوستاف لأنك نبهتنا.. وليلة طيبة!

روبنسون تحت وقع ما جرى، لم يعد باستطاعته النهوض من كرسيه. بعد أن ذهب الشرطي، دققنا النظر في ما نقله لنا لتوه من خبر، من كل الوجوه. كان من الممكن طبعًا، رغم كل شيء، أن تكون امرأة أخرى غير ماديلون.. كان كثير من الأخريات يأتين هكذا بلا سبب ليحمن تحت نوافذ المصحة.. لكن مع كل هذا كان هناك افتراض جاد أن تكون هي وكان هذا الشك يكفي ليغمرنا بالرعب. لو كانت هي، فما نواياها الجديدة؟ ثم من أين استطاعت أولاً أن تعيش كل هذه الشهور في باريس؟ لو كان لا بد لها في النهاية أن تعود شخصيًّا، فيجب أن نتدارك الأمر، نتخذ احتياطاتنا، على الفور.

"اسمع يا روبنسون"، قلت متدخلاً ساعتها، "حدد موقفك، هذه لحظة اتخاذ القرار، ولا تتراجع عنه أبدًا.. ماذا تريد أن تفعل؟ أترغب في العودة معها إلى تولوز؟"

"كلا! أقول لك. كلا ثم كلا!" هكذا كان رده، كان حاسمًا.

"حسنًا"، قلت له حينذاك. "لكن في هذه الحالة، لو كان صحيحًا أنك لم تعد تريد أن تعود معها، فالأفضل، من وجهة نظري، قد يكون أن تسافر ثانيةً، كي تكسب عيشك لوقت ما على الأقل في الخارج. بهذه الطريقة ستتخلص منها بكل تأكيد.. إنها لن تلحق بك هناك. أليس كذلك؟ ما زلت شابًّا.. عدت قويًّا معافى.. مستريحًا هادئ البال.. سنعطيك بعض المال ونتمنى لك سفرًا

سعيدًا! هذا هو رأيي! أو فضلاً عن ذلك فأنت تدرك أن الوضع هنا لا يناسبك كثيرًا.. إنه لا يمكن أن يستمر إلى الأبد.. أليس كذلك؟"

لو كان قد أصغى إليَّ، لو كان قد غادر في تلك اللحظة، لناسبني ذلك، أسعدني، لكنه لم يستسلم.

"أتهزأ بي، يا فردينان أم ماذا؟" أجابني.. هذا لا يليق في مثل عمري.. تطلع إليَّ جيدًا هيا لا تخف! لم يعد يريد أن يمضي من هنا. كان باختصار قد ملَّ من الترحال.

"إنني لا أريد أن أذهب إلى أبعد من هنا" ظل يكرر "عبثًا تحاول أن تقول.. عبثًا تحاول أن تفعل.. لن أرحل عن هنا".

هكذا قابل مودتي. غير أني واصلت الإلحاح.

"وإن وشت بك ماديلون، فرضًا، بسبب موضوع الأم هنرووي؟ أنت الذي قلت لي بنفسك، إنها قادرة على ذلك".

"فليكن ما يكون آنذاك!" أجابني. "لتفعل ما تريد".

كان شيئًا جديدًا، كلمات كهذه على لسانه، لأن الإيمان بالقضاء والقدر في ما مضى، لم يكن من شيمته.

"لتذهبْ، على الأقل، لتبحث عن عمل بسيط في الجوار، في أحد المصانع، هكذا لن تكون مضطرًا إلى الوجود طوال النهار معنا.. وإذا جاء أحد للبحث عنك، سيكون لدينا الوقت لتنبيهك".

في هذا الشأن، كان بارابين متفقًا معي في الرأي تمامًا، بل وبالمناسبة تحدث ثانيةً معنا قليلاً. لا بد إذًا أن ما جرى بيننا قد بدا له خطيرًا وملحًّا تمامًا. كان لا بد لنا حينذاك أن نبذل قصارى جهدنا لنحصل له على عمل ما، لنخفي أمره،

روبنسون. من بين معارفنا، كان لدينا أحد رجال الصناعة في بعض نواحي الجوار، صانع هياكل سيارات كان يدين لنا ببعض العرفان بسبب بعض الخدمات الصغيرة شديدة الحساسية، أُسديت إليه في أوقات بالغة الحرج. وافق الرجل على أخذ روبنسون على سبيل التجربة في أعمال الطلاء اليدوية. كان عملاً دقيقًا، غير شاق وبأجر طيب.

"ليون"، قلنا له صبيحة اليوم الذي يبدأ فيه العمل، "لا تتصرف بغباء في عملك الجديد، لا تكشف أمر نفسك بسبب أفكارك التافهة.. لتصل في الميعاد المقرر.. لا تغادر قبل الآخرين.. ألقِ على الجميع تحية الصباح. باختصار تأدب وتصرف باتزان. أنت في معمل محترم كما أننا قد أوصينا بك."

لكن ها هو يكشف مع هذا عن نفسه على الفور ولم يكن ذلك بسببه، بسبب أحد الوشاة في ورشة مجاورة كان قد رآه يعاود الدخول إلى المكتب الخاص بصاحب العمل. كان هذا كافيًا. تقرير. روح شريرة. مخبر.

عاد إلينا روبنسون ثانيةً إذًا، بلا عمل، بعد عدة أيام. قدر محتوم!

فضلاً عن أنه أخذ يسعل من جديد في اليوم نفسه تقريبًا. فحصنا صدره بالسماعة ووجدنا سلسلة كاملة من أصوات الحشرجة على مستوى الرئة اليمنى بالكامل. لم يعد له سوى أن يلزم الغرفة.

وقع هذا ذات مساء يوم سبت قبل العشاء بالضبط، وسأل عني شخصيًّا شخص ما في قاعة استقبال الزائرين.

سيدة ما، أخبروني.

كانت هي، وكانت تضع قبعة صغيرة من طراز (مركيزة) وقفازين. أتذكر ذلك جيدًا. لا حاجة إلى تمهيد، جاءت في الوقت المناسب. اعترفتُ لها بكل شيء.

"ماديلون"، بادرتها، "لو كان ليون هو من ترغبين في رؤيته، فأنا أود بالأولى أن أنبهك على الفور، لأنه لا داعي للإلحاح، يمكنكِ أن تعودي من حيث جئتِ.. إنه مريض بالرئتين وبالرأس.. وعلى نحو خطر إلى حد كبير فوق ذلك.. لا يمكنكِ أن تريه.. وعدا ذلك فليس لديه ما يقوله لكِ".

"ولا حتى لي أنا؟" قالت بإصرار.

"لا، ولا حتى أنتِ.. خصوصًا لكِ أنتِ". قلتُ مضيقًا.

ظننت أنها ستنقض من جديد. كلا. راحت تميل فقط برأسها، هنا أمامي، من اليمين إلى اليسار، مزمومة الشفتين وبعينيها أخذت تحاول أن تعثر عليَّ ثانيةً حيث كانت قد تركتني في ذكرياتها. لكني لم أعد هناك، كنت قد انتقلت، أنا أيضًا في الذكرى. في الحالة التي كنا فيها، كان يمكن لرجل، رجل قوي البنية، أن يخيفني، لكن منها هي، لم يكن لديّ ما أخشاه. كانت أضعف مني، كما يُقال. منذ الأزل كانت الرغبة تتملكني، الرغبة في دق رأس ما، استولى عليها الغضب إلى هذا الحد حتى أرى كيف تنقلب هذه الرؤوس الغاضبة في مثل هذه الحالات. هذا أو شيك بمبلغ محترم، هو ما يلزم لنرى مرة واحدة تحول كل الانفعالات التي تمور في الرأس للتو. الأمر مشوّق كمناورة رائعة بالشراع فوق مياه بحر هائج. ينحني الشخص بكامله أمام ريح جديدة. كنت أريد أن أرى هذا.

منذ عشرين عامًا على الأقل، كانت هذه الرغبة تطاردني. في الشارع، في المقهى، في كل مكان يتشاجر فيه الناس العدوانيون بصورة أو بأخرى، بتفاهة أو صلافة. لكني لم أكن لأجرؤ يومًا خوفًا من الصفعات وخصوصًا من الخجل الذي يستتبع ذلك. لكن الفرصة، هذه، لمرة واحدة كانت رائعة.

"ألن تذهبي إلى حال سبيلك؟" قلت لها لمجرد إثارتها أكثر قليلاً، لإيصالها إلى قمة الغضب.

لم تعد قادرة على التعرف إليَّ، في الشخص الذي يكلمها بهذه الطريقة. أخذت تبتسم، مثيرة للغيظ إلى أقصى ما يمكن، كما لو كانت تراني مضحكًا وتافهًا بالفعل.

طراخ! طراخ! كِلتُ لها صفعتين تدوخان حمارًا.

ذهبت لتسقط بطولها فوق الأريكة الوردية الكبيرة المواجهة لها، الملاصقة للحائط، رأسها بين يديها. كانت تتنفس بسرعة، وتئن ككلب صغير مضروب بشدة. ثم كأنها فكرت في الأمر مليًّا ونهضت بغتة من جديد، بمنتهى الرشاقة، متمايلة بمرونة واجتازت الباب دون حتى أن تدير رأسها. لم أكن قد رأيت شيئًا. يجب أن نبدأ كل شيء من جديد.

الفصل 46

المقطع الثالث والأربعون

لكن كل محاولاتنا راحت عبثًا، كان لديها من الدهاء أكثر منا جميعًا مجتمعين. الدليل أنها رأته ثانيةً صاحبها روبنسون، وكيفما أرادت هي أيضًا.. أول من اهتدى إليهما معًا، كان بارابين، كانا على شرفة أحد المقاهي المواجهة لمحطة قطارات الشرق.

كنت أشك بالفعل في أنهما كانا يتلاقيان، لكني لم أعد أرغب في أن أبدو مهتمًّا بعلاقتهما على الإطلاق. لأنها باختصار كانت لا تعنيني. كان يقوم بعمله في المصحة، في خدمة المصابين بالشلل، بنحو لا بأس به على الإطلاق، عمل منفر إلى أقصى حد، ينظفهم من الأوساخ، يجفف أجسادهم بالإسفنجة، يغير ملابسهم، يطعمهم. لم يكن لنا أن نطلب منه أن يقوم بأكثر من ذلك.

إن كان يستغل بعض ساعات بعد الظهر التي كنت أرسله فيها إلى باريس للقيام ببعض المشتريات ليقابل عشيقته ماديلون، فهذا شأنه. على أي حال فنحن لم نرها ثانيةً مطلقًا في"ڤيني - سور - سين"، ماديلون، منذ الصفعة. لكني أظن أنها لا بد قد روت له عني منذ ذلك الحين بعض الشناعات!

بل إنني لم أعد أتحدث إلى روبنسون عن تولوز، كما لو أن شيئًا لم يحدث مطلقًا. انقضت على تلك الوتيرة ستة أشهر، طوعًا أو كرهًا، ثم طرأ فجأة نقص في عدد أفراد طاقم العمل وصرنا في احتياج عاجل إلى ممرضة على دراية جيدة بالتدليك، كانت ممرضتنا قد رحلت دون سابق إنذار كي تتزوج.

تقدم عدد كبير من الفتيات الجميلات لهذه الوظيفة، حتى إننا لم نصادف سوى الحيرة في الاختيار من بين كثير من هذه المخلوقات قوية البنية من كل الجنسيات اللاتي تدفقت على ڤيني منذ ظهر إعلاننا. في نهاية المطاف، وقع اختيارنا على فتاة سلوفاكية تسمى صوفي sophie، كان جسدها وهيئتها المرنة والرقيقة في الوقت نفسه، حالة صحية رائعة، قد بدت لنا، يجب الاعتراف بذلك، لا تقاوم.

لم تكن هذه الـ"صوفي" تعرف إلا قليلاً من الكلمات باللغة الفرنسية، لكني عن نفسي كنت مستعدًّا، كان هذا بالفعل أقل ما يجب من مظاهر المجاملة، لتلقينها بعض الدروس دون إبطاء. شعرت عند التواصل المبهج معها بتجدد الميل إلى التدريس. غير أن باريتون كان معارضًا تمامًا لهذا وبذل قصاراه لتنفيري منه. ما من سبيل للتوبة! لكن أي نضارة أيضًا! أي حيوية! أي تكوين عضلي وأي ذرائع! لدنة بضة! عصبية! مدهشة إلى أقصى حد! لم يعُق هذه الحسناء الفاتنة أي من مظاهر الحياء الحقيقية أو الزائفة تلك التي تربك كثيرًا محادثات الأوروبيين المُغرقين في غربيّتهم. بالنسبة إليَّ وللإيجاز، لم أتوقف عن التطلع إليها في إعجاب. من عضلات إلى عضلات، قسمت جسدها، إلى مجموعات تشريحية.. إلى سفوح عضلية.. إلى مناطق.. هذه الطاقة الحبيسة والطليقة في آنٍ واحد، موزعة في حزم هاربة وراضية بالتناوب عند اللمس، لم يكن من الممكن أن أملّ من متابعتها.. تحت البشرة المخملية، المشدودة، المرتخية، المعجزة.

عصر هذه المباهج الحية، الانسجامات الكبرى التي لا جدال فيها، الفسيولوجية، المقارنة. لا يزال منتظرًا.. الجسد، معبود تعبث به يداي المزريتان المرتبكتان خجلاً.. يدا الرجل الشريف، هذا الراهب المجهول.. إذًا بالموت أولاً وكلمات.. ملوثًا بخِسّة عميقة من الرموز والشعارات ومبطنًا حتى اللب بفضلات نفايات فنية يمضي الرجل المهذب المرموق ليقضي وطره.. وليحدث بعد ذلك ما يحدث! يا لها من صفقة رابحة! بنيّة لا تهتاج على أي حال

إلا على الذكريات.. لدينا الذكريات، يمكننا أن نشتريها على نحو نهائي تلك الذكريات الجميلة والرائعة.. أما الحياة فهي أكثر تعقيدًا، حياة الصور الآدمية بصفة خاصة. مغامرة بغيضة بشعة! ليس هناك أكثر منها خيبة أمل. بجوار هذه النقيصة في الأشكال الآدمية المثالية، لا يعدو الكوكايين أن يكون تسلية لنظّار المحطات.

لكن لنعد إلى صاحبتنا صوفي! كان مجرد وجودها في مصحتنا العابسة، المذعورة والمريبة يشبه الجسارة.

بعد انقضاء بعض الوقت من الحياة المشتركة، كنا بكل تأكيد سعداء دائمًا بأن تكون من ضمن ممرضاتنا، لكننا لم نستطع منع أنفسنا مع ذلك من التخوف من أن تبدأ يومًا في المساس بمجموعة محاذيرنا واحتياطاتنا التي لا تنتهي أو أن تدرك فجأة بكل بساطة ذات يوم حقيقتنا البائسة.

كانت لا تزال تجهل مدى استسلامنا واتكالنا العفن، صوفي! عصبة من الفاشلين كنا. كنا ننظر إليها معجبين، متدفقة بالحياة بالقرب منا، مجرد نهوضها، فقط لا غير، قدومها إلى مائدتنا، مغادرتها ثانيةً.. كانت تأسر قلوبنا.

في كل مرة كانت تقوم فيها بهذه الحركات شديدة البساطة، كنا نشعر بالاندهاش والفرح. كنا نحقق ما يشبه تقدمًا في الشاعرية بمجرد التطلع إليها في إعجاب لأنها كانت جميلة إلى هذا الحد ولأنها أكثر منا بكثير غفلةً وعدم تبصر.. كان إيقاع حياتها ينشأ عن مصادر أخرى غير مصادرنا.. تلك الزاحفة دومًا، سائلة اللعاب، مطموسة المعالم.

تلك الطاقة المبتهجة، المنضبطة، والناعمة في الوقت نفسه التي تحركها من قمة رأسها إلى كعبيها، كانت تقلقنا على نحو ساحر، لكنها كانت تقلقنا، نعم هذه هي الكلمة الصحيحة.

إذا كانت الغريزة تستفيد من هذه البهجة، فإن معرفتنا الشكسة بأمور هذا العالم كانت بالأحرى تستاء منها، المعرفة بالحقيقة دائمًا هنا في أعماقنا الوجلة، لائذة بقبو الوجود، خاضعة للأسوأ بحكم العادة، بحكم التجربة.

كانت لصوفي تلك المشية المجنَّحة، المرنة والدقيقة التي نجدها، شائعة للغاية، معتادة عند نساء أمريكا، مشية كائنات المستقبل العظمى التي تحملها الحياة طموحًا ورشيقة أيضًا إلى طرق جديدة للمغامرة.. سفينة ذات ثلاثة صوارٍ من البهجة الناعمة، في طريقها إلى اللانهائي.

بارابين الذي لم يكن مع ذلك من أكثر الناس شاعرية في مسائل الجاذبية هذه كان يبتسم لنفسه بمجرد أن تخرج. كان مجرد النظر إليها ينعش الروح.. خصوصًا روحي أنا، كي أكون منصفًا، التي ظلت تتلهف عليها.

بقصد مفاجأتها، لأجعلها تفقد شيئًا من هذا الزهو، من هذا الذي يشبه السطوة والسحر الذي مارسته عليَّ، صوفي، بقصد الحط منها، باختصار، لتهذيبها على مستوانا الإنساني الحقير، كنت أتسلل إلى غرفتها في أثناء نومها.

حينذاك كانت صوفي تعرض مشهدًا مختلفًا تمامًا، مشهدًا مألوفًا.. ومع كل هذا كان مدهشًا ومطمئنًا أيضًا بلا زينة ولا استعراض، تقريبًا بلا أغطية، في وسط الفراش ومواربة الفخذين، الأجزاء العارية ندية، منبسطة، كاشفة عن التعب..

كانت تجدّ في مطاردة النعاس في أعماق جسدها، راحت تغط من جرائها. كانت تلك اللحظة الوحيدة التي وجدتها فيها بالفعل في متناولي. لا سحر بعد الآن.. لا شعوذة. لا هزْل بعد الآن. لم يتبقَّ سوى الجد. كانت تكد في ما وراء الوجود، لتجتذب إليها الحياة ثانيةً.. نهمة كانت في مثل هذه اللحظات بل ثملة لفرط ما استعادت منها. لا بد من رؤيتها بعد "حفلات" النوم هذه، وهي لا تزال منتفخة تمامًا وتحت بشرتها الوردية لا تكف أعضاؤها عن الانتشاء. كانت

مضحكة، غريبة آنذاك ومثيرة للسخرية مثل الجميع. ثم تروح تتمايل من السعادة لبضع دقائق أخرى وبعدها ينطرح عليها ثانيةً كل نور النهار، ثم كأن سحابة ثقيلة للغاية قد مرت، كانت تستعيد بهية، متحررة، انطلاقها.

يمكن أن يُضاجع كل هذا. من الممتع أن يلامس المرء هذه اللحظة التي تصبح المادة فيها هي الحياة. نصعد حتى السهل الممتد إلى اللانهائية الذي ينفتح أمام البشر. نصرخ آه! ثم آه! نستمتع بقدر الإمكان فوقها كأنها صحراء شاسعة.

من بيننا، أصدقاؤها أكثر منا أرباب عملها، كنتُ، على ما أعتقد الأقرب إليها. فعلى سبيل المثال كانت تخونني باستمرار، يمكننا أن نقول ذلك، مع ممرض جناح المهتاجين، رجل مطافئ سابق، من أجل صالحي كما أفهمتني، حتى لا ترهقني، بسبب ما ينتظرني من أعمال ذهنية كانت لا تتفق كثيرًا مع نوبات مزاجها العاطفي. من أجل صالحي تمامًا. كانت تخدعني حرصًا على صحتي. ليس ثمة ما يقال.

في النهاية لم يكن كل ذلك يمنحني إلا السعادة، غير أن حكايةماديلون ظلت تثقل على ضميري. انتهت بي الحال ذات يوم إلى أن أروي لصوفي كل شيء لأعرف رأيها في ذلك. حررني ذلك قليلاً، أن أروي لها همومي. كنت قد مللت، كان هذا حقيقيًّا، من المشادات التي لا تنتهي أبدًا والضغائن الطارئة بسبب علاقتهما الغرامية التعسة، وكانت صوفي متفقة معي في الرأي تمامًا بهذا الخصوص.

أصدقاء كما كنا معًا، روبنسون وأنا، كانت ترى، صوفي، أننا لا بد من أن نتصالح، بمنتهى البساطة، بمنتهى اللطف وبأسرع ما يمكن. كانت نصيحة صادرة عن قلب طيب. هناك كثير من القلوب الطيبة على هذا النحو في أوروبا الوسطى. لكنها لم تكن على دراية تامة بطباع وردود أفعال الناس هنا.

وبأطيب ما يكون من النوايا راحت تنصحني بعكس ما يجب.. أدركتُ أنها قد أخطأت التقدير، لكن بعد فوات الأوان.

"عليك أن تراها ثانيةً، ماديلون، قالت تنصحني، لا بد أنها فتاة لطيفة في حقيقة الأمر، بحسب ما ترويه لي.. لكنك استثرتها وكنت فظًّا ومنفرًا تمامًا معها! أنت تدين لها بالاعتذار بل وحتى بهدية جميلة لتجعلها تنسى تلك الإساءة". هكذا كانت تجري الأمور في بلادها. باختصار راحت تنصحني ببعض المساعي الرقيقة والمجاملة، لكن غير العملية.

عملت بنصائحها، خصوصًا لأني لمحت في آخر كل هذه التصرفات المتكلفة، هذه المقاربات الدبلوماسية، هذه المباهاة، مباراة رباعية صغيرة ممكنة ستكون حينذاك مسلية إلى أبعد الحدود، وحتى مجددة للعواطف. لقد صارت صداقتي، أسجل ذلك بكل أسى، تحت ضغط العمر والأحداث، جنسية الطابع على نحو مستتر. خيانة. ساعدتني صوفي، في ذلك الوقت، دون أن ترغب في هذا، على الخيانة. كانت غريبة الأطوار قليلاً، بأكثر مما يجب، حتى لا تحب الأخطار، صوفي. طبيعة رائعة، لم تكن بروتستانتية بقرش واحد ولم تكن تسعى لتقليل فرص الحياة في شيء، ولم تكن من حيث المبدأ تحاذر منها. على شاكلتي تمامًا. بل كانت تذهب أيضًا إلى أبعد مني. كانت تتفهم ضرورة التغيير في الترفيه الجنسي. استعداد للمغامرات نادر الوجود، يجب أن نتفق على هذا، بين النساء. حقًّا، لقد أحسنَّا الاختيار.

لعلها كانت ترغب، وكنت أرى ذلك طبيعيًّا بالفعل، في أن يكون بإمكاني أن أقدم إليها بعض التفاصيل عن تكوينها الجسدي، ماديلون. كانت تخشى أن تبدو خرقاء بالنسبة إلى فتاة فرنسية، في العلاقات الحميمة، خصوصًا بسبب الشهرة الكبيرة التي تكونت للفرنسيات في الخارج باعتبارهن فنانات في المجال. أما عن تحمّلها لروبنسون علاوة على ذلك، فقد كان بغرض إرضائي فقط أن وافقت عليه. لم يكن يثيرها مطلقًا، روبنسون، كما أخبرتني، لكن إجمالاً، كنا متوافقين تمامًا. كان هذا هو المهم. حسنًا.

انتظرت قليلاً، حتى تحين فرصة مناسبة لمفاتحة روبنسون في مسألة التصالح العام. ذات صباح بينما كان في مكتب الإدارة المالية يعيد نسخ الملاحظات الطبية في السجل الكبير، بدا لي الوقت مناسبًا لمحاولتي وقاطعته لأسأله بكل بساطة عن رأيه في خطوة من جانبي تجاه ماديلون بغرض نسيان الماضي القريب القاسي.. وإن لم يكن بمقدوري بالمناسبة نفسها أن أعرِّفها بصوفي، صديقتي الجديدة.. ثم أخيرًا، إن لم يكن يعتقد أن الوقت قد حان لنتفاهم كلنا معًا على نحو ودي نهائيًّا.

في البداية، تردد قليلاً، لاحظت ذلك جيدًا ثم أجابني لكن بلا حماس في ذلك الوقت، بأنه لا يرى مانعًا.. في الحقيقة، ظننت أن ماديلون كانت قد أخبرته بأني سأحاول أن أراها ثانيةً بعد قليل بذريعة أو بأخرى. أما بخصوص صفعة اليوم الذي جاءت فيه إلى ڤيني، فلم أتفوه بكلمة.

لم أكن أستطيع أن أجازف بأن أتعرض للتوبيخ هنا وأن أجعله ينعتني بالخسة والفظاظة على الملأ، لأنه على كل حال ورغم أننا صديقان منذ مدة طويلة، كان يعمل تحت إمرتي رغم كل شيء في هذه الدار. السلطة أولاً.

كان من المناسب القيام بتلك الخطوة في شهر يناير. قررنا، لأنه كان من الأسهل، أن نلتقي جميعًا في باريس ذات يوم أحد، أن نذهب بعد ذلك إلى السينما معًا وربما قضينا أولاً بعض الوقت في ملاهي الباتينول Les Batignolles، كبداية، لو لم يكن الجو قارس البرودة في الأماكن المكشوفة. كان هو قد وعدها بأن يأخذها إلى ملاهي الباتينول. كانت مولعة بالاحتفالات التي تقام في الأسواق والأعياد، ماديلون، كما أخبرني. جاء ذلك في أوانه! للمرة الأولى التي سوف نتلاقى فيها ثانيةً، سيكون من الأفضل، أن يحدث هذا بمناسبة أحد الأعياد.

الفصل 47

المقطع الرابع والأربعون

يمكن أن نقول إننا أخذنا يومها ملء أعيننا! وملء الرؤوس أيضًا! بيم وبوم! بوم مرة أخرى! منْ يدفعك لتستدير! منْ يجرفك في طريقه! منْ يصرخ هنا ومنْ يصيح غاضبًا هناك! وها نحن جميعًا في هذه المعمعة، غارقين في الأضواء، الضجيج وكل شيء! إلى الأمام، لنبدي المهارة، الجسارة، المرح، زيم! متدثرًا في معطفه، كان كل واحد يحاول أن يُظهر أفضل ما فيه، أن يبدو فطنًا أريبًا، ورصينًا مع ذلك بعض الشيء، ليظهر للناس أنه كان يلهو في العادة في أماكن أخرى، أكثر كلفة من هذه الأماكن.. بكثير، <<Expensive>> كما يقال بالإنجليزية.

بدونا دهاة بارعين، مرحين مضحكين، رغم رياح الشتاء، المذلة هي الأخرى وهذا الخوف المحبط من أن نكون أسخياء بأكثر مما يجب في أمور اللهو والاضطرار إلى الندم على ذلك في اليوم التالى، بل ربما طوال أسبوع بالكامل.

من لعبة الخيول الخشبية الدوّارة تتصاعد الموسيقى صاخبة كالتجشؤ. لا تستطيع اللعبة الدوّارة أن تقذف بلحن فالس فاوست Faust، لكنها تقوم بكل ما في وسعها. كان "فالسها" يهبط إليها ثم يتصاعد ثانيةً منها حول السقف الدائري الذي يدور ويجول بكعكاته الضوئية الألف المصنوعة من اللمبات. لم يكن الجو مريحًا. كان الأرغن يعاني من الموسيقى في أنبوب بطنه. أتريد قطعة من النوجا؟ أم تفضل النيشان؟ كما تحب وتشتهي!

من بيننا، في التصويب، كانت ماديلون، بقبعتها المرفوعة على الجبهة، الأكثر براعة. "انظرْ! قالت لروبنسون. إنني لا أرتعش! مع أننا قد شربنا كثيرًا". هذا لأريكم صورة طبق الأصل من لهجة الحديث. خرجنا آنذاك من المطعم. "إصابة أخرى!" لقد ربحتها زجاجة الشمبانيا، ماديلون. "بنج وبونج! إصابة!" راهنتها أنا ساعتها رهانًا كبيرًا، على أنها لن تلحق بي في مضمار سباق السيارات. "موافقة، لنرَ!" أجابتني بحماس. "لكلٍّ سيارته!" وهوب! كنت سعيدًا لأنها قبلت. كانت تلك وسيلة لاقترابي منها. صوفي لم تكن غيورًا. كان لها أسبابها.

صعد آنذاك روبنسون مع ماديلون إلى إحدى العربات في الخلف، وأنا في عربة أخرى في الأمام مع صوفي، وجّهنا لبعضنا سلسلة عنيفة من الاصطدامات! سوف أبعج عربتك! سوف أضعضعك! لكنني أدركتُ على الفور أنها لم تكن تحب ذلك، أن يدفعها أحد، ماديلون! هو الآخر كان كذلك.. ليون، لم يعد يحب ذلك. يمكننا أن نقول إنه لم يكن مرتاحًا معنا. عندما كنا نتمسك بالحاجز في أثناء مرورنا عَرَضًا، كان بعض البحارة الصغار يأخذون في تحسس أجسادنا عنوة، رجالاً ونساءً ويغروننا ببعض العروض. كنا نرتعد. ندافع عن أنفسنا. نضحك. من كل مكان جاء المتحرشون ومع الموسيقى أيضًا وباندفاع وحماس وبإيقاع منتظم! كنا نتلقى في هذه المقاعد ذات العجلات صدمات وارتجاجات لدرجة أنه في كل مرة يرتطم بعضنا ببعض تكاد أعيننا أن تخرج من محاجرها. هذا هو المرح وإلا فماذا؟ العنف مع المزاح! كل درجات المتعة! كنت أود أن أتصالح فعلاً مع ماديلون قبل أن نغادر الملاهي. ألححت في ذلك، لكنها لم تستجب مطلقًا لمراودتي. لا، بالتأكيد. بل إنها استاءت مني وأظهرت تبرمها. كانت تمنعني من الاقتراب منها. بقيت حائرًا مرتبكًا. عاودتها نزواتها المتقلبة. كنت أتوقع أفضل من هذا. فضلاً عن ذلك كانت، من الناحية البدنية، أيضًا قد تغيرت في كل شيء.

لاحظت أنها مقارنةً بصوفي كانت تخسر، أنها كامدة بلا حياة. الرقة واللطف كانا يوافقانها أكثر، لكن يبدو أنها تعرف الآن أمورًا شديدة الأهمية. أغاظني هذا. كنت لأصفعها ثانيةً عن طيب خاطر، لأرى ما إذا كانت سترجع عن غيها، أو أن تخبرني بما تعرفه من أمور مهمة وخفية، شخصيًّا. لكن لا بد من الابتسام! نحن في العيد، مكان للاحتفال وليس للتباكي! لا بد أن نحتفل!

لقد وجدتْ عملاً لدى إحدى قريباتها، أو هكذا أخبرت صوفي، بعد ذلك، في أثناء سيرنا. شارع دوروشيه du Rocher، خالة أو عمة تعمل في صناعة (الكورسيهات) -مشدات البطن. لا بد أن نصدقها.

لم يكن من الصعب، بدءًا من هذه اللحظة، إدراك أن الأمر بخصوص التصالح كان مواجهة فاشلة. وبالنسبة إلى ترتيبي أيضًا، كان فاشلاً. بل إنه كان إخفاقًا وإفلاسًا كاملاً.

لقد أخطأت بالسعي إلى رؤيتها ثانيةً. صوفي، عن نفسها، كانت لا تزال لا تعرف الموقف جيدًا. لم تشعر أننا قد عقّدنا الأمور مجددًا بتلاقينا.. كان على روبنسون أن يخبرني، أن ينبهني، لأنها كانت متحجرة إلى هذا الحد.. خسارة! حسنًا! لنكملْ! لنكملْ! دائمًا ومع كل هذا! إلى الأمام هيا إلى لعبة "الكاتربلير - أو الجرارة" كما يسمونها. أنا الذي اقترحت، أنا الذي سيدفع، بقصد محاولة الاقتراب مرة أخرى من ماديلون. غير أنها كانت تتهرب باستمرار، تتجنبني، استغلت الزحام لتصعد إلى مقعد آخر، في المقدمة، مع روبنسون، لقد خُدعت. أمواج ودوامات الظلمة تصيبنا بالذهول. عبثًا كنت تحاول، استنتجت ذلك بيني وبين نفسي بصوت خافت، أنا. أخيرًا وافقتني صوفي الرأي. أدركتْ أني كنت في كل ذلك ضحية خيالي الشبق مرة أخرى. "كما ترين! إنها تشعر بالغيظ! أظن أنه من الأفضل أن ندعهما وشأنهما في الوقت الحالي.. نحن، يمكننا ربما أن نمضي لنقوم بجولة في الشابانيه La Chabanais قبل العودة". كان هذا اقتراحًا يروق صوفي كثيرًا، لأنها كانت قد سمعت مرارًا عن الشابانيه عندما كانت لا تزال تعيش في براج وأن غاية مطلبها الآن أن تجرب ملهى

الشابانيه حتى يمكنها أن تحكم بنفسها. لكننا قدرنا، طبقًا للمبلغ الذي كنا نحمله، أنه سيكون باهظ الكلفة جدًّا. وعليه، كان من الواجب أن نهتم ثانيةً بالملاهي.

لا بد أن مشادة دارت بين روبنسون وماديلون عندما كنا في لعبة "الكاتربلير". لقد هبطا منزعجين تمامًا، كلاهما، من لعبة الفروسية هذه. من الواضح أنها كانت في هذه الأمسية متعكرة المزاج. لتهدئة الأمور وإصلاح ذات البين اقترحت عليهما تسلية تتطلب الاهتمام والتركيز، مسابقة اصطياد الزجاجات من أعناقها بالأطواق. أخذت ماديلون تلعب عابسة الوجه. لكنها مع ذلك فازت علينا جميعًا بقدر ما شاءت. كانت تصل بطوقها فوق السدادة مباشرةً وتدخله على الفور من عنقها ليستقر عليها! هنا! تك! يتم الأمر. لم يكن البائع يصدق نفسه. كجائزة قدم إليها البائع نصف لتر من نبيذ "Grand _Duc de Malvoson جران دوق دو مالفوازون". هذا يعني كم كانت بارعة، إلا أنها لم تكن مع هذا راضية "إنها لن تشربه" أخبرتنا على الفور.. "لأنه نبيذ رديء". كان روبنسون والحال كذلك هو من نزع سدادة الزجاجة ليشربها. هوب! رفعها إلى فمه كالبوق أيضًا حتى أفرغها! كان ذلك غريبًا من جانبه، لأنه لم يكن يشرب إن جاز التعبير مطلقًا.

مررنا بعد ذلك أمام منصة التصويب، عرس الزنك، بان! بان! تصفيق! نسوّي خلافاتنا بإطلاق الرصاصات الصلبة عليها. من المؤسف أني كنت أفتقد المهارة.. إنني أغبطه، روبنسون. كان يتغلب عليَّ في أي لعبة هو الآخر. لكن مهارته لم تكن تحمله على الابتسام. يبدوان كأنهما قد اقتيدا إلى سخرة حقيقية بالفعل. لا سبيل إلى إنعاشهما، إلى إبهاجهما وفك عبوسهما. "إننا في الملاهي.. لا!" قلت صارخًا، للمرة الأولى وقد أعيتني الحيل وأوشكت ابتكاراتي على النفاد.

لكن سيان عندهما كان الأمر، أن أثيرهما وأن أكرر هذه العبارات على مسامعهما. لم يكونا يصغيان إليَّ. "والشباب إذًا؟" رحت أسألهما. "ماذا تقولان

به؟ هل توقف الشبان عن الاستمتاع؟ ماذا قد أقول أنا، الذي يكبركما بعشرة أعوام؟ يا عزيزتي!" تطلعا إليَّ ساعتها، ماديلون وهو، كما لو كانا أمام مدمن مخدرات يهذي، مسموم بالغاز، سائل اللعاب، وأن الأمر لم يكن يستحق حتى عناء الرد عليَّ.. كأنه لم يعد هناك داعٍ حتى لمحاولة التحدث إليَّ، أنني لم أعد أدرك بالتأكيد ما يمكنهما أن يشرحا لي.. لن أدرك شيئًا في أي شيء.. ربما كانا على حق؟ قلت لنفسي آنذاك ونظرت مفعمًا بالقلق، إلى المارة الآخرين، من حولنا.

لكنهم كانوا يقومون بكل ما يجب، الناس الآخرون حتى يستمتعوا، لم يكونوا هنا ليجتروا أشجانًا صغيرة مثلنا. كلا على الإطلاق! كانوا يستمتعون بالعيد، الناس الآخرون! لقاء فرنك واحد هنا! هناك لقاء خمسين سنتيمًا (قرشًا)! يستمتعون بالأضواء.. بالأكاذيب، بالموسيقى وبالحلوى.. يتحركون مهتاجين كالذباب ومعهم فوق ذلك يرقاتهم الصغيرة بين أيديهم، مصفرة تمامًا، أطفال شاحبون، يكادون يختفون من شدة شحوبهم في الضوء الغامر. شيء من اللون الوردي فقط حول أنوفهم كان ما تبقى لهؤلاء الأطفال، في مواضع التقبيل والرشح.

من بين كل المنصات، تعرفت على الفور لدى مرورنا على منصة "رماية الأمم"، ذكرى، لم أُظهر شيئًا للآخرين. ها هي خمسة عشر عامًا قد مرت. قلت لنفسي، لنفسي فقط. ها هي خمسة عشر عامًا قد مرت للتو.. مدة طويلة! فقدنا فيها رفاقًا في الطريق! لقد ظننت بالفعل أنها لن تنجو أبدًا بنفسها من الوحل الذي علقت فيه هناك في سان كلو، منصة "رماية الأمم"، لكنها كانت قد أُصلِحَت جيدًا، باختصار صارت الآن كالجديدة تمامًا، مزودة بالموسيقى وكل شيء. لا جدال. داخلها، يرمي الناس شخوص التصويت بالخردق بغزارة. إنها تعمل باستمرار، منصات التنشين. كانت لعبة البيضة قد عادت إلى هنا هي الأخرى، لتتقافز، في الوسط، مثلي، بعد لا شيء تقريبًا. فرنكان، كان سعر البطاقة. تجاوزناها. كنا نشعر ببرد شديد يمنع من محاولة

تجربتها، الأفضل أن نمشي. لكن ذلك لم يكن لأن قطع العملة كانت تنقصنا، كان لا يزال لدينا ملء الجيوب منها، قطع العملة النقدية إلى حد أنها كانت تصدر أصواتًا في أثناء سيرنا، موسيقى الجيوب اللطيفة الخافتة.

ربما حاولت أي شيء كان، في ذلك الوقت، حتى تتغير الأفكار، لكن أحدًا لم يساهم في الأمر، لو كان بارابين معنا، لكان الأمر أسوأ بالتأكيد، كئيبًا كما يكون بمجرد أن يوجد معنا بعض الناس. لحسن الحظ أنه ظل هناك ليعتني بشؤون المصحة بالنسبة إليَّ، فقد تأسفت كثيرًا على حضوري. مع كل هذا أخذت ماديلون حينذاك تضحك، غير أن ضحكها لم يكن مضحكًا على الإطلاق. إلى جوارها راح روبنسون يضحك استهزاءً حتى لا يفعل شيئًا آخر. بغتة، شرعت صوفي في إلقاء النكات علينا. الطامة الكبرى.

لأننا ساعتها كنا نمر أمام كوخ المصور الفوتوجرافي، لاحظ الفنان ترددنا. لم تكن لدينا، نحن، الرغبة في الظهور في صوره، لكن ها نحن مع ذلك واقفين معروضين أمام آلته لكثرة ما ترددنا أمام بابه. انصعنا لأوامره المتخلفة البطيئة، هناك، فوق الجسر الكرتوني الذي لا بد أنه قد بناه بنفسه، لسفينته المفترضة "فرنسا الجميلة". كان الاسم مكتوبًا على أحزمة النجاة الزائفة. ظللنا على هذا الوضع وقتًا لا بأس به ننظر إلى الأمام في خط مستقيم، نتطلع إلى المستقبل في تحدٍّ. راح زبائن آخرون ينتظرون بفارغ الصبر أن نهبط من جسر السفينة ومنذ الآن كانوا يثأرون لأنفسهم من الانتظار برمينا بالقبح، وفوق ذلك فقد أخبرونا برأيهم وبكل صراحة وبأعلى صوت.

استغلوا أننا لم نكن نستطيع أن نتحرك من مكاننا. لكن ماديلون، التي لم تكن تشعر بالخوف، أخذت في المقابل تسبّهم بكل ما في لهجة أهل الجنوب من حيوية. سمع ذلك بوضوح. كرد عليهم، كان ذلك ردًّا قويًّا.

وهج المغنسيوم. انزعجنا وأجفلنا جميعًا. كل واحد منا صورة. كنا أكثر قبحًا من ذي قبل. إنها تمطر الآن عبر سقف الكوخ المصنوع من القماش. في الأسفل،

أقدامنا لم تعد تتحمّل، من التعب، متجمدة تمامًا. كشفتنا الريح في حين كنا نقف متظاهرين أمام المصور، ثقوب في كل مكان، حتى كاد المعطف منها أن يكون في النهاية بلا وجود، بلا جدوى.

لا بد أن نبدأ من جديد في التجوال بين الأكواخ. لم أجرؤ على اقتراح العودة إلى ڤيني. كان الوقت باكرًا للغاية. استغل أرغن لعبة الخيول الخشبية الدوّارة العاطفي أننا كنا نرتجف من البرد بالفعل ليجعلنا نرتجف أكثر قليلاً بالضغط على أعصابنا. إنه فشل العالم بأسره الذي كانت تسخر منه، آلة الأرغن. تصرخ من هذا، بأعلى صوت حتى الفوضى، حتى التشتت، عبر مزاميرها فضية اللون، سوف يمضي اللحن ليموت في الليل المجاور، بين الشوارع المبتلة بالبول، الهابطة من التلال.

شغّالات إقليم برتاني الصغيرات يسعلن أكثر بكثير من الشتاء الماضي، بمجرد وصولهن إلى باريس، هذا صحيح. أفخاذهن الرخامية المعرقة بالأخضر والأزرق هي ما تُزين، بقدر ما يستطعن، سروج الأحصنة الخشبية. فتيان مقاطعة "لاوفرني" هم من يدفعون لهن أثمان الدورات، أصحاب وظائف حذرون، لا يباشرونهن إلا بالواقيات الذكرية، كان ذلك معروفًا. لا يريدون أن يقعوا في الفخ مرتين. كن يتلوين، الشغالات، انتظارًا للحب في ضجيج موسيقى لعبة الخيول الدوارة الغثة. يعتريهن شيء من الحزن، يشعرن ببعض الغثيان، لكنهن يستعرضن أنفسهن مع ذلك في درجة برودة تبلغ السادسة مئوية، لأنها اللحظة الأهم، لحظة اختبار شبابهن على العاشق الذي لا بد منه والذي ربما كان موجودًا هنا الآن، صريع الفؤاد بالفعل، مندسًّا وسط مُغفلي هذا الجمع المرتعد من البرد. إنه لا يتجاسر على "الحب".. مع هذا فإن كل شيء جائز الحدوث.. كما في السينما والسعادة معه.

دعيه يهيم بكِ ليلة واحدة ولن يتخلى عنكِ بعد ذلك أبدًا ابن صاحب الأراضي هذا.. لقد التقينا، هذا يكفي. فضلاً عن أنه فتى طيب، فضلاً عن أنه وسيم، فضلاً عن أنه غني.

في الكشك المجاور، بالقرب من محطة المترو، لا تبالي البائعة، عن نفسها، بالمستقبل، تحك عينيها المصابتين بالرمد المزمن وتقيّحها على مهل بأظفارها. إنها متعة بالفعل، مبهمة ومجانية.

ها هي ستة أعوام ظلت فيها تؤلمها تلك العينان وظلت الرغبة في حكهما تُشعرها بذلك الألم الممتع أكثر فأكثر.

المتنزهون المتكدسون، يجمعهم البرد القارس، يتدافعون ليندمج بعضهم مع بعض حول كشك اليانصيب. دون أن يتمكنوا من ذلك. مجمرة نار من المؤخرات. فيهرولون بسرعة يتقافزون ليشعروا ببعض الدفء في الحلقة البشرية التي يشكلها الناس المقابلون لهم، أمام العجل ذي الرأسين.

مُحتَمِيًا بالمبولة العمومية، يحدد فتى يافع تترصده البطالة ثمن خدماته لزوجين ريفيين جعلهما الانفعال يحمران. يدرك شرطي الآداب اللعبة جيدًا، غير أنه لم يكترث للأمر، معلوماته الخاصة تتعلق في الوقت الراهن بمخرج مقهى "ميزو". منذ أسبوع وهو يراقب مقهى ميزو. لا يمكن أن يجري الموضوع إلا في دكان التبغ أو الحانوت الخلفي لصاحب المكتبة الفاسق. وعلى كل حال فالمسألة مُبلَّغ عنها منذ وقت طويل. واحد من هذين الاثنين يتدبر، بحسب ما يقال، قاصرات ممن يبدين كبائعات الزهور. مزيد من الرسائل مجهولة المصدر. بائع الكستناء(56) في ركن الشارع يمدّه هو الآخر ببعض المعلومات. مجبر على ذلك على كل حال. كل ما I, t,r الرصيف يعد ملكًا للشرطة.

(56) Le Maron، المقصود بها هنا بائع الكستناء الساخنة "وردت في النص الأصلي بهذا اللفظ". (المترجم)

ما يشبه صوت المدفع الرشاش الذي يُسمع غاضبًا مسعورًا في جو هذه الناحية، في رشقات متتابعة، ليس إلا الدراجة النارية الخاصة بالشخص الذي

يدير لعبة. "أسطوانة الموت". "هارب" كما يقال، لكن ذلك غير مؤكد. على كل حال، فقد اخترق خيمته مرتين قبل الآن، بدراجته، هنا بالتحديد، ثم من قبل عامين في تولوز. ليهلك إذًا مرة واحدة أخيرة ودراجته معه! ليحطمها للمرة الأخيرة رأسه وعموده الفقري ولنتوقف عن الحديث عنه إلى الأبد! الاستماع إليه قد يجعل المرء شريرًا. والترام أيضًا من جهة أخرى، فكما هو بناقوسه، قد دهس رغم هذا عجوزين من بيساتر Bicetre، بالقرب من الثكنات، في أقل من شهرين. الباص بعكس ذلك، هادئ ووديع. يصل بهدوء إلى ميدان بيجال، بكثير من الاحتياطات، مترنحًا بالأحرى، مع دقات نفيره (بوقه)، مقطوع الأنفاس، بركابه الأربعة داخله، محتاطين تمامًا ومتمهلين في الخروج منه كأطفال جوقة الإنشاد في الكنيسة.

من منصات عرض بضائع إلى جماعات متجمهرة، من دوارة خيول خشبية إلى كشك يانصيب، لفرط ما جولنا، كنا قد وصلنا إلى نهاية الملاهي، في ذلك الفراغ المتسع المظلم تمامًا حيث تذهب الأسر للتبول.. لنرجع أدراجنا إذًا! في طريقنا للرجوع تناولنا بعض الكستناء حتى نشعر بالظمأ. لكن ما شعرنا به هو الألم في الفم، وليس الظمأ. ووجدنا كذلك دودة في الكستناء، صغيرة. ماديلون، كانت هي من وقعت عليها، كأنه أمر مقصود. بل إنه بدءًا من تلك اللحظة أخذت المسائل بيننا في التدهور تمامًا، حتى الآن كنا لا نزال متماسكين بعض الشيء، لكن واقعة الكستناء هذه قد أخرجتها حتمًا عن طورها.

في اللحظة التي ذهبت فيها إلى الجدول لتبصق الدودة، قال لها ليون فوق ذلك شيئًا ما كأنما ليمنعها، لم أعد أعرف ماذا، ولا ما الذي أخذه بغتة، لكن الطريقة التي ذهبت بها لتبصق لم ترق أبدًا وعلى نحو مفاجئ لليون. سألها ببلاهة شديدة إن كانت قد وجدت داخلها بذرة؟ ولم يكن هذا أيضًا سؤالاً يجب أن يوجّهه إليها.. وإذا بصوفي هي الأخرى تجد وسيلة للتدخل في نقاشهما، لم تكن تعرف لماذا يتشاجران.. كانت تريد أن تعرف.

ضايقهما حينذاك أكثر، أن تقاطعهما صوفي، الأجنبية، حتمًا. في اللحظة نفسها، مرت بيننا جماعة صاخبة من الفتيان وفرّقت بعضنا عن بعض. كانت جماعة من الفتيان الذين يمارسون في الحقيقة اصطياد الزبائن لكن بإيماءات وزمامير وكل أشكال صرخات الفزع. عندما استطعنا أن نتلاقى من جديد كانا لا يزالان يتشاجران، روبنسون وماديلون.

"ها هي حانت بالفعل، كما ظننت، ساعة العودة.. لو تُركا هنا معًا بضع دقائق أخرى، سوف يتسببان لنا في فضيحة هنا في قلب الملاهي نفسها.. لدينا منها ما يكفي اليوم!" فشل كل شيء، لا بد من الاعتراف بذلك. أتريد أن نغادر؟ اقترحت عليه.

نظر إليَّ ساعتها كالمندهش. غير أن ذلك قد بدا لي القرار الأصوب، الأعقل والأنسب أيضًا. "ألم تكتفيا بعد إذًا من الاحتفال هكذا؟" سألت مضيفًا. أومأ إليَّ حينها بأن من الأفضل أن أسأل ماديلون أولاً عن رأيها. عن نفسي كنت أود أن أسأل ماديلون عن رأيها، لكني لم أجد ذلك تصرفًا ذكيًّا.

"لكننا سوف نأخذها معنا، ماديلون!" انتهيت بأن قلت له.

"تأخذها، أين إذًا تريد أن (تأخذها)؟" سألني.

"أين.. إلى ڤيني طبعًا، ماذا بك؟" أجبته.

كانت هذه هي الغلطة! واحدة أخرى. لم يكن بمقدوري أن أرجع عن قولي، كنت قد تكلمت ووقع المحظور. أكملت كلامي. "ليست الغرف ما ينقصنا.. لا تخفْ! قد يمكننا فضلاً عن ذلك أن نتناول كلنا معًا عشاءً خفيفًا، قبل أن نمضي لنخلد إلى النوم.. سيكون ذلك أكثر بهجة على أي حال من هنا حيث نتجمد حرفيًا من البرد منذ ساعتين! لن يكون ذلك صعبًا". لم تجب ماديلون بشيء على اقتراحاتي. بل إنها لم تنظر حتى إليَّ بينما كنت أتحدث، لكنها لم تُضيع مع ذلك كلمة واحدة مما قلته لتوي. باختصار، ما قد قيل، قد قيل بالفعل.

عندما ابتعدتُ قليلاً عن الجمع، اقتربت مني خلسة، لتسألني إذا لم تكن دعوتي لها إلى ڤيني حيلة جديدة أردتُ أن ألعبها عليها. لم أجب بشيء. لا يمكن التفاهم مع امرأة غيور كما كانت هي. في الغالب سيكون ذلك أيضًا ذريعة لمشكلات لا نهاية لها. فضلاً عن أني لم أكن أعرف على وجه التحديد ممن وممَّ كانت تغار. في الغالب سيكون من الصعب تحديد هذه المشاعر التي تتولد عن الغيرة. كانت بالإجمال تغار من كل شيء على ما أتصور، مثل كل الناس.

صوفي لم تعد تعرف كثيرًا كيف تتصرف، لكنها واصلت الإصرار على أن تجعل من نفسها شخصًا ودودًا. بل إنها أمسكت بماديلون من ذراعها، لكن ماديلون كانت حانقة جدًّا بالفعل وسعيدة فوق ذلك بثورة غضبها حتى تستسلم لأثر مثل هذه المبادرات اللطيفة وتخفف من غلواء هياجها. انسللنا بكثير من المشقة وسط الحشد لنصل إلى الترام، بميدان كليشي. في اللحظة نفسها التي كدنا فيها أن ندرك الترام، انفجرت سحابة فوق الميدان، وراح المطر يهطل في شلالات. تدفقت السماء.

في لحظة واحدة استُولي عنوة على كل عربات الأجرة "إنك لن تجلب لي العار ثانيةً أمام الناس؟ قل يا ليون؟ أليس كذلك؟" سمعت ماديلون تسأله بصوت خفيض، إلى جوارنا تمامًا. لم يفلح الأمر. "لقد مللت بالفعل، إذًا، من رؤيتي؟ قل لي إنك قد سئمت؟ قالت مستأنفة. لتعترف بذلك إذًا؟ مع أنك لا تراني كثيرًا! لكنك تفضل أن تكون معهما بمفردك.. أليس كذلك أم ماذا؟ إنكم ترقدون جميعًا معًا، أراهن على هذا، عندما لا أكون هنا؟ اعترف بأنك تؤثر أن تكون معهما على أن تكون معي! لتعترف بذلك، قل ذلك حتى أسمعك". ثم ظلت صامتة بعد ذلك، راح وجهها ينغلق في عبوس حول أنفها الذي أخذ يرتفع ساحبًا فمها معه. رحنا ننتظر فوق الرصيف. "أنت ترى كيف يعاملني أصدقاؤك؟ قل يا ليون؟" أخذت تكرر.

لكن ليون عن نفسه، ويجب أن ننصفه في ذلك، لم يجبها، لم يسعَ إلى استفزازها، أخذ ينظر إلى الجهة الأخرى، إلى الواجهات والشارع العريض والسيارات.

غير أن ليون كان في ساعات غضبه شخصًا عنيفًا. عندما رأت أن مثل تلك التهديدات لا تجدي، أخذت تؤنبه بطريقة أخرى، ثم برقة أخذت تكرر عليه، بينما كانت تنتظر ردة فعله. "إنني أحبك جدًّا، يا ليوني العزيز، قل هل تسمعني؟ أنا أحبك كثيرًا.. أتدرك ما فعلته من أجلك على الأقل؟ ربما لم يكن هناك داعٍ لمجيئي اليوم؟ ألم تحبني ولو قليلاً يا ليون؟ مستحيل أنك لا تحبني على الإطلاق.. إن لك قلبًا كبيرًا، قل يا ليون، إنك تشعر نحوي مع كل ذلك بشيء من العاطفة؟ لماذا إذًا لا تكترث لحبي؟ لقد حلمنا نحن الاثنان حلمًا رائعًا معًا.. مع ذلك كم أنت قاسٍ معي! لقد استهنت به، حلمي، يا ليون! لقد دنسته! يمكنك أن تقول إنك حطمت خيالي، مثلي الأعلي.. أنت تريد إذًا أن أكفر بالحب.. قل؟ والآن، تريد أن أرحل من هنا وإلى الأبد إذًا؟ أهذا هو بالفعل ما تريده؟" راحت تسأله عن كل هذا بينما كان المطر يسقط عبر أستار المقهى.

تساقطت قطراته وسط الناس. الحقيقة أنها كانت بالفعل كما حذرني من قبل. لم يكن قد اختلق شيئًا، في ما يتعلق بطبيعتها الحقيقية. لم أستطِع أن أتخيل أنهما قد وصلا بمثل هذه السرعة إلى مواقف عاطفية بهذه الحدة، لكن الأمر كان كذلك.

نظرًا إلى أن السيارات وكل حركة السير كانت تصدر كثيرًا من الضجيج حولنا، انتهزتُ تلك الفرصة لأهمس مع ذلك بكلمة صغيرة في أذن روبنسون بشأن الموقف، لنحاول أن ننفصل عنها الآن، وأن نتخلص منها بأسرع ما يمكن، بما أن الموضوع قد فشل، وأن نتملص بهدوء قبل أن تنقلب كل الأمور إلى الأسوأ ونتخاصم حتى الموت. كان هذا هو ما أخشاه. "أتريد أن أنتحل لك عذرًا، أنا؟" همست له. "وأن ينسل من جهتنا كلٌّ منا هاربًا؟"

"لا تفعل هذا خصوصًا!" أجابني. "لا تفعل هذا! إنها كفيلة بأن تصاب بنوبة هنا، في هذا المكان ذاته، ولن يعود بمقدورنا إيقافها!" لم ألح.

على كل حال، ربما كان يَسره أنْ يُوبِّخَ على رؤوس الأشهاد، روبنسون، وفضلاً أيضًا عن أنه كان يعرفها أفضل مني. ولأن المطر كان يوشك على الانقطاع فقد عثرنا على إحدى سيارات الأجرة (تاكسي). اندفعنا نحوها وصعدنا إليها وجلسنا بعضنا مقابل بعض. في البداية لم نتبادل أي حديث. هوة كبيرة تفصل بيننا، مشاعر سلبية كبيرة، بجانب أني كنت عن نفسي قد ارتكبت حتى الآن ما يكفي من الهفوات. كان بوسعي أن أنتظر قليلاً قبل أن أشرع ثانيةً في ارتكاب أخطاء جديدة.

أخذت أنا وليون المقعدين القابلين للطي في المقدمة واحتلت السيدتان الأريكة الخلفية للسيارة. في أمسيات العيد، يكون طريق آرجنتوي Argenteuil مزدحمًا للغاية، خصوصًا حتى البوابة. بعد ذلك أيضًا علينا أن نضع في الحسبان أكثر من ساعة للوصول إلى ڤيني بسبب كثرة السيارات.. ليس من السهل البقاء ساعة دون أن نقول شيئًا، وجهًا لوجه، نتبادل النظر إلى بعضنا، خصوصًا عندما يكون الجو معتمًا ويكون بعضنا قلقًا قليلاً بسبب البعض الآخر.

مع هذا، فلو كنا قد بقينا هكذا، ممتعضين، لكان كل واحد ملزم بنفسه، لم يكن شيء ليحدث. لا يزال هذا رأيي اليوم عندما أعيد النظر في الأمر.

باختصار كان بسببي أنا أن عاودنا الحديث معًا واستؤنف الشجار على الفور وبأعنف من ذي قبل. مع الكلام لا يحترس المرء مطلقًا بما يكفي، تبدو الكلمات بريئة، لا تبدو خطرة بكل تأكيد، إنها بالأحرى رياح خفيفة، أصوات بلا أهمية تصدر من الفم، لا هي حارة، ولا هي باردة، يلتقطها بسهولة، بمجرد وصولها عبر الأذن ذلك الهم الرمادي الرخو الكبير في المخ. لا يحترس المرء منها هذه الكلمات، فتقع الكارثة.

من الكلمات، هناك ما يختبئ وسط الكلمات الأخرى، كما يكون في الحصى. لا يعرفها المرء على نحو خاص ثم ها هي تجعلك مع ذلك ترتعد طيلة العمر الذي تحياه، وبكامله، وفي ضعفه وفي قوته.. حينذاك يكون الفزع.. انهيار جبل الجليد.. يُبقي المرء هناك كالمشنوق، معلقًا فوق العواطف والانفعالات.. إنها عاصفة جاءت، عاصفة مرت، قوية بأكثر مما يجب بالنسبة إليك، شديدة العنف حتى إن المرء قد لا يصدق أبدًا إمكانية وقوعها بسبب المشاعر وحدها.. وبناءً عليه، فإننا لا نحاذر أبدًا بما يكفي من الكلمة، هذا هو ما توصلت إليه. لكن لأروي لكم أولاً وقائع ما دار.. سلكت سيارة الأجرة طريق الترام.. ببطء، بسبب الإصلاحات.. "ررون.. وررون" راحت تصدر تلك الأصوات. كل مئة متر، مسرب للمياه.. لكن هذا لم يكن يكفيني والترام أمامنا، لأني كنت دائمًا ثرثارًا وطفوليًّا، فقد فرغ صبري.. لم تكن محتملة بالنسبة إليَّ تلك المشية الجنائزية الصغيرة وهذا التردد وعدم الوضوح في كل شيء.. أسرعت بكسر طوق الصمت لأحاول أن أعرف ما يمكن أن يجري في الخلف. رحت أراقب، أو بالأحرى أحاول أن أراقب، بما أننا لم نعد تقريبًا نرى شيئًا داخل العربة، في ركنها الأيسر، في مؤخرة السيارة، ماديلون. كانت تبقي على رأسها ملتفتًا نحو الخارج، نحو المشاهد الريفية، نحو الليل إن أردنا الحق. لاحظتُ ممتعضًا أنها لا تزال دائمًا على عنادها الشديد. مزعج، مكايد حقيقي، كنت أنا أيضًا، على كل حال. ناديتها، لمجرد أن أحملها على أن تدير وجهها ناحيتي.

"لتخبرينا إذًا يا ماديلون!" سألتها. "ألديكِ مشروع للهو لا تجرئين على البوح به لنا؟ أتريدين أن نتوقف في مكان ما قبل العودة؟ لتخبرينا به فورًا؟"

"اللهو! اللهو!" أجابتني كأنها قد أهينت. "إنكم لا تفكرون مطلقًا إلا في هذا.. أنتم! في اللهو!" ومرة واحدة، أطلقت سلسلة من الزفرات، العميقة، المؤثرة جدًّا التي نادرًا ما سمعت مثلها.

"إنني أقوم بما في وسعي!" أجبتها. "إنه يوم الأحد".

"وأنت يا ليون؟" سألته حينذاك. "أنت، هل تقوم أيضًا بكل ما في وسعك؟ قل". كان السؤال مباشرًا.

"أعتقد ذلك!" أجابها.

كنتُ أنظرُ إليهما، الاثنين، في اللحظة نفسها التي كنا نمر فيها أمام بعض مصابيح الشارع. شعرت بالغضب. حينها كانت ماديلون تميل نحوه كأنما لتقبِّله. كان مقررًا علينا فعلاً في تلك الليلة ألا نترك هفوة واحدةً دون أن نرتكبها.

مضى التاكسي من جديد بطيئًا للغاية بسبب سيارات النقل الكبيرة، المصطفة في كل مكان أمامنا. كان يضايقه بالفعل أن يُقبَّل، ولقد أبعدها عنه بغلظة حقًّا، ينبغي أن نقول ذلك. بكل تأكيد، لم يكن ذلك وديًّا كتصرف من جانبه، خصوصًا أنه قد جرى أمامنا نحن الآخرين.

عندما وصلنا إلى نهاية جادة كليشي، إلى البوابة، كان الليل قد حل تمامًا بالفعل، أضيئت الحوانيت. تحت جسر السكة الحديدية، الذي يُرجّع الصدى دائمًا بقوة شديدة، سمعتها رغم ذلك تعاود سؤاله مرة أخرى: "ألا تريد أن تُقبّلني يا ليون؟" وكالعادة لم يكن يجيبها بشيء. بغتة، التفتت نحوي وانتهرتني مباشرةً. كانت الإهانة ما لا يمكنها تحمّله.

"ماذا فعلتَ به مجددًا، بليون، ليصير قاسيًا إلى هذا الحد؟ أتجرؤ إذًا على إخباري بذلك على الفور؟ أي أكاذيب رويتها له مجددًا؟" هكذا كيف راحت تستفزني.

"لا شيء على الإطلاق!" أجبتها. "لم أقل له أي شيء مطلقًا! إنني لا أشغل نفسي بمشاجرتكما!"

والأهم في تلك النقطة، أن ذلك كان صحيحًا، أني لم أكن قد قلت له شيئًا، ليون، بشأنها. لقد كان حرًّا، كان ذلك شأنه الخاص، أن يبقى معها أو أن ينفصل عنها. لم يكن ذلك يعنيني، غير أنه لم يكن هناك داعٍ لمحاولة إقناعها، فهي لم تعد متمالكة لصوابها، وعدنا إلى الصمت من جديد متواجهين في التاكسي، لكن الجو ظل محملاً للغاية بالشِحان والملاعنة لدرجة أنه لم يكن من الممكن للحال أن تصمد طويلاً. كانت قد اتخذت لمخاطبتي واحدًا من تلك الأصوات الرفيعة التي لم أكن قد عرفتها عنها بعد، صوتًا رتيبًا أيضًا كصوت شخص مصمم تمامًا. منسحبة للخلف كما كانت جالسة في ركن التاكسي، لم يعد باستطاعتي تقريبًا أن أرى إيماءاتها وضايقني هذا كثيرًا.

في أثناء ذلك الوقت، كانت صوفي تمسك بيدي. لم تعد تعرف أين تلقي بنفسها، في هذا الموقف، الفتاة المسكينة.

عندما كنا قد تجاوزنا لتونا حي "سانت ـ وان Saint _Ouen" كانت ماديلون هي من بدأ ثانيةً جلسة التأنيب التي كانت تدخرها لليون وعلى نحو مسعور، بإسهاب جنوني، طارحةً عليه من جديد أسئلة لا تنتهي أبدًا وبصوتٍ عالٍ الآن بشأن حنانها وإخلاصها. بالنسبة إلينا نحن الاثنين، صوفي وأنا، كان ذلك محرجًا إلى أقصى حد. لكنها كانت غاضبة جدًّا عليه لدرجة أنه كان سيان تمامًا عندها أن نسمعها، على العكس راقها ذلك. بالطبع لم يكن تصرفًا ذكيًّا أيضًا من جانبي أن تُحشَرَ معنا في هذا الصندوق، فقد كان يردد الصوت وكان ذلك يمدها بالرغبة، بطبيعتها هذه، في أن تلعب أمامنا المشهد الأعظم، مرة أخرى كانت مبادرة حمقاء حقًّا مني حكاية التاكسي هذه.

أما ليون، فلم يعد يستجيب لشيء. فأولاً كان مرهقًا بسبب السهرة التي أمضيناها للتو معًا ثم لأنه كان يحتاج دائمًا إلى قليل من النعاس، فقد كان يعاني من مرض النوم.

"لتهدآ، ماذا بكما!" وجدت السبيل مع ذلك إلى جعلها تصغي إليَّ، "سوف تتفاهمان معًا عندما نصل.. لديكما متسع من الوقت!"

"نصل! نصل!" أجابتني ساعتها بنبرة لا يمكن تخيلها. "نصل؟ أقول لكم إننا لن نصل أبدًا! ثم إنني قد مللت بدايةً من كل أساليبك الحقيرة! راحت تواصل سعارها، إنني فتاة شريفة. أنا.. يا قطيع الخنازير.. لقد حاولتم بلا جدوى الاستهزاء بي.. لستم أهلاً لفهمي! أنتم جميعًا بقدر ما أنتم عليه فاسدون فعلاً، فاسدون تمامًا فلا تستطيعون أن تفهموني! كل ما هو نقي وكل ما هو جميل، لم تعودوا قادرين على فهمه!"

باختصار، أخذت تطعن في كرامتنا وهلم جرًّا ورحتُ عبثًا أحاول أن أبقى في مكاني بالضبط فوق مقعدي القابل للطي، وبأفضل ما يمكنني، وألا أنبس بعدها بأية زفرة حتى لا أثيرها أكثر، ومع كل نقلة لتغيير سرعة التاكسي، كانت تبدأ مع ذلك نوبة هياج جديدة. في مثل هذه الأوقات يكفي أي شيء ليقع الأسوأ، وبدا الأمر كأنها لم تكن تستمتع بشيء إلا بإتعاسنا، لم يعد بوسعها أن تمتنع في الحال عن المضي إلى الحد الأقصى في طبيعتها.

واصلت تهديدنا: "ولا تظنوا أن الأمر سيمر هكذا! وأنكم سوف تستطيعون التخلص من الفتاة سرًّا! آه! كلا إذًا! أود بالأحرى أن أؤكد لكم ذلك على الفور! لا، لن يمر الأمر كما تحبون! سفلة كما أنتم جميعًا.. لقد تسببتم في شقائي! سوف أوقظكم أنا من أوهامكم، سفلة، أوغاد، بقدر ما كنتم!"

إثر ذلك، مالت نحو روبنسون وأمسكته من معطفه وأخذت تهزه بذراعيها. أما هو، فلم يفعل شيئًا ليخلص نفسه. لم أكن أنوي التدخل. بل كان من الممكن أن يظن المرء أن ذلك يسره، روبنسون، أن يراها تهتاج أكثر قليلاً عليه. أخذ يضحك استهزاءً، لم يكن ذلك طبيعيًّا، كان يهتز فوق المقعد كدمية متحركة في حين كانت توبخه، منكس الرأس مرتخي العنق.

في اللحظة التي كدت فيها أن أقوم بإشارة لوم لإيقاف هذه البذاءات، تمردت وثارت في وجهي معترفة بما كان يثقل صدرها منذ وقت طويل.. لقد حان دوري، يمكنني أن أقول ذلك! وأمام الجميع. "لتبقَ أنت ساكتًا إذًا، أيها الداعر". قالت بلا سبب. "إن ما بيني وبين ليون مسألة لا تعنيك! معاملتك السيئة، يا سيدي، لم أعد أريدها! هل تسمعني! يا هذا! لم أعد أريدها! إذا رفعت مرةً واحدةً يدك عليَّ، فسوف تُعلّمك ماديلو، كيف يجب أن تتصرف في هذه الحياة! كيف تخدع الرفاق ثم تصفع نساءهم! إنه وقح هذا النذل! ألا تشعر إذًا بالخجل؟"

بسماعه هذه الحقائق، بدا ليون كأنه قد أفاق قليلاً. لم يعد يضحك مستخفًّا، بل إني رحت أتساءل عما إذا لم نكن على وشك أن نستفز بعضنا، نتضارب، لكن لم يكن لدينا أولاً المكان حتى نتقاتل، ونحن أربعة داخل التاكسي كما كنا. طمأنني هذا. كان المكان ضيقًا للغاية. خصوصًا أننا كنا نسير بسرعة كبيرة إلى حدٍّ ما الآن فوق بلاط الشوارع المحاذية لنهر السين، وأننا كنا نهتز داخل العربة بأكثر مما يجب بالفعل، حتى يمكننا أن نتحرك.

"تعالَ يا ليون!" أمرته حينذاك! "تعالَ لأطلب منك للمرة الأخيرة! هل تسمعني؟ تعالَ ودعك منهم! ألا تسمع ما أقوله لك؟" تمثيلية حقيقية.

"لتوقفْه. لا تخفْ، أوقفْ التاكسي يا ليون! أوقفْه أو سأوقفه أنا بنفسي!"

لكن ليون، عن نفسه، لم يتحرك مطلقًا من مقعده. كان مسمّرًا إليه.

"ألا تريد أن تأتي إذًا؟" عادت تسأله من جديد، "ألا تريد أن تأتي؟"

في ما يخصني، كانت قد نبهتني إلى أنه من الأفضل أن أظل بعيدًا، "في حالي". كنت قد أخذت حصتي. "ألا تجيء؟" قالت مكررةً. واصلت سيارة الأجرة سيرها بسرعة، كان الطريق خاليًا أمامنا الآن وكنا أيضًا نرتج داخلها ونصخب أكثر من ذي قبل بكثير. كالطرود، من وقت إلى آخر.

"حسنًا"، قالت قاطعةً، بما أنه لم يكن يجيبها بشيء. "طيب! لا بأس! أنت الذي أردت ذلك بنفسك! غدًا! تسمعني، ليس أبعد من غدٍ سوف أذهب أنا، إلى مأمور الشرطة، وسوف أشرح له، للمأمور، كيف سقطت في سلمها الأم هنرووي! هل تسمعني، الآن، أخبرني يا ليون؟ هل أنت راضٍ الآن؟ ألم تعد تدعي الصمم؟ إما أن تأتي معي الآن وفورًا أو سوف أذهب لرؤيته غدًا صباحًا! ماذا إذًا، أتريد أن تأتي معي، أم لا تريد؟ أفصحْ عما تنويه!" كتهديد، كان ذلك صريحًا قاطعًا.

آنذاك، قرر رغم كل شيء أن يجيبها قليلاً.

"لكنكِ ضالعة في ذلك أنتِ أيضًا، يا إله السماوات!" قال لها. "لا يمكنكِ إنكار ذلك".

لدى سماعه يجيبها كذلك، لم تهدأ على الإطلاق، على العكس. "أنا لا أبالي بالفعل!" قالت في ردها. "أن أكون متورطة في الأمر! أتريد أن تقول إننا سنذهب إلى السجن نحن الاثنين؟ إني كنت شريكتك في الجرم؟ أهذا الذي تود أن تقول؟ لكني لا أتمنى غير ذلك".

وإثر هذا أخذت تضحك مستهزئة، كمن أصيبت بالهستيريا، كأنها لم تكن قد عرفت مطلقًا شيئًا أكثر إبهاجًا.

"لكن هذا هو غاية ما أتمنى كما أكرر لك! إنما يروقني السجن كما أقول لك! لا تظن أنني سوف أجبن بسبب سجنك هذا! سأذهب إلى هناك، إلى السجن، بقدر ما يريدون، أنا! لكنك ستذهب حينذاك أنت أيضًا أيها الفظ الغادر. أليس كذلك؟ إنك لن تخدعني على الأقل بعد ذلك طويلاً. هيا قل! إني ملك يمينك، حسنًا! لكنك ملكي أنت الآخر! لم يكن عليك إلا أن تبقى معي هناك! أنا لم أعرف إلا حبًّا واحدًا، أنا، يا سيدي! أنا لست عاهرة!"

كانت تتحدانا أنا وصوفي في الوقت نفسه، حينما كانت تقول هذا. كانت تقصد بما تقوله المقارنة بيننا وبينها في الإخلاص، الاحترام.

رغم كل شيء كنا لا نزال نسير ولم يكن قد قرر مطلقًا أن يأمر سائق التاكسي بالتوقف.

"ألا تأتي إذًا؟ أنت تفضّل الذهاب إلى سجن الأشغال الشاقة؟ حسنًا! ألا يهمك مطلقًا أن أشي بك؟ ألا تبالي بأني أحبك؟ لا تبالي بذلك أيضًا! أليس كذلك؟ ألا تكترث لمستقبلي؟ أنت لا تأبه لشيء على الإطلاق في الأساس. أليس كذلك؟ لتعترف بهذا!"

"نعم، بوجه ما"، أجابها.. "أنتِ محقة.. لكن مسألة عدم الاكتراث هذه لا تتعلق بكِ بأكثر مما تتعلق بواحدة أخرى.. لا تذهبي خصوصًا إلى اعتبار هذا إهانة لكِ! أنتِ في الحقيقة فتاة لطيفة، أنتِ.. لكني لم أعد أرغب في أن يحبني أحد.. هذا يثير نفوري!"

لم تكن تتوقع أن يقال لها شيئًا كهذا، صراحةً وجهًا لوجه، هنا، ولشدة ما فوجئت بذلك لم تعد تعرف تحديدًا من أين تستأنف الشجار الذي كانت قد بدأته. كانت مرتبكة إلى حد كبير، لكنها تمالكت نفسها على أي حال. "آه، هذا يصيبك بالنفور! كيف يصيبك بالنفور؟ ماذا تقصد؟ أفصح عن قصدك إذًا أيها الجاحد اللعين".

"كلا! لستِ أنتِ من يصيبني بالنفور، كل شيء يسبب لي هذا، يقززني!" أجابها. "لم تعد لدي الرغبة.. لا يجب أن تبغضيني بسبب ذلك".

"ماذا، ماذا تقول؟ كرره قليلاً! أنا وكل شيء؟ كانت تحاول أن تفهم. أنا وكل شيء؟ لتفسر لي ذلك إذًا؟ ماذا يعني هذا؟ أنا وكل شيء؟ لا تكلمني بالصينية! قل لي هذا، هنا، بالفرنسية، أمامهم، لماذا تشمئز الآن مني؟ ألا تنتصب الآن إذًا مثل الآخرين عندما تمارس الحب، أيها النذل الكبير؟ أنت لا

تنتصب الآن إذًا، أليس كذلك؟ أتجرؤ أن تعترف بهذا هنا أمام الجميع؟ بأنك لا تنتصب؟"

رغم غضبها المجنون كانت الطريقة التي تدافع بها عن نفسها وملاحظاتها تبعث قليلاً على الضحك. لكن الوقت لم يتح لي لأضحك طويلاً، لأنها عاودت معي الكرَّة. "وهو، عندما كنا هناك"، قالت، "ألم يلتذ في كل مرة استطاع فيها أن يمسك بي في ركن ما! هذا النذل! هذا المتحرش، ليجرؤ إذًا أن يأتي ويقول لي العكس؟ لكن لتقولوا كلكم هذا، قولوا إنكم تريدون التغيير! لتعترفوا بذلك! إن الجديد هو ما ينقصكم! الجنس الجماعي! ولمَ لا مع العذراء أيضًا؟ زمرة منحلين، قطيع خنازير! لماذا تبحثون عن أعذار! إنكم مقرفون وهذا كل ما في الأمر! فقط لم تعد لديكم جرأة الاعتراف بفجوركم! إنه يخيفكم فجوركم هذا!"

وساعتها كان روبنسون هو من تكفل بالرد عليها. كان هو الآخر قد غضب أخيرًا، وأخذ يزعق الآن بقوة مثلها.

"بلى!" أجابها. "لديّ الشجاعة! وبالتأكيد أكثر منكِ! لكن إذا أردتِ معرفة كل شيء.. كل شيء على الإطلاق.. حسنًا إذًا، فإن كل شيء، هو ما يقززني، ويثير اشمئزازي الآن! لستِ أنتِ فقط! كل شيء! الحب بصفة خاصة! حبك بقدر حب الآخرين.. الحيل العاطفية التي تودين القيام بها، أتريدين أن أخبركِ أنا ماذا تشبه؟ إنها تشبه ممارسة الحب في المراحيض! أتفهمينني الآن؟ وكل العواطف التي سوف تبحثين عنها لأظل ملتصقًا بكِ، لها وقع الإهانة بالنسبة إليَّ إن أردتِ معرفة كل شيء.. وفوق ذلك فإنكِ لا تشُكين حتى في ذلك لأنكِ امرأة قذرة، أنتِ من تثيرين الاشمئزاز، لأنكِ لا تدركين ذلك.. بل ولا تظنين كذلك أنكِ امرأة مقززة! يكفيكِ أن ترددي كل ما يهذي به الآخرون.. تجدين هذا صحيحًا.. يكفيكِ هذا لأن الآخرين أخبروكِ أنه ليس هناك أفضل من الحب وأنه سينجح مع الجميع ودائمًا.. حسنًا أنا لا أبالي بحبهم جميعًا.. كل الناس! هل تسمعينني؟ لم يعد ذلك يفلح معي يا ابنتي.. حبهم القذر هذا! لقد جئتِ في

الوقت غير المناسب! وصلتِ بعد فوات الأوان! لم يعد الأمر ينجح، هذا كل ما في الموضوع! ولهذا تستشيطين غضبًا! ومع هذا فأنتِ تصرين على ممارسة الحب وسط كل ما يجري؟ وسط كل ما نرى؟ أم أنكِ لا ترين شيئًا؟ إنني أعتقد أنكِ بالأحرى لا تكترثين! تدعين أنكِ عاطفية بينما أنتِ فظة لا نظير لها.. تريدين أن تأكلي من اللحم الفاسد مغلفًا بصلصة الرقة التي تدعينها؟ أينطلي هذا إذًا؟ ليس عليَّ أنا! إذا كنتِ لا تشمين فنعم الأمر لكِ! لا بد أن أنفكِ مسدود! يجب أن يكون المرء مخبولاً مثلكم جميعًا حتى لا يثير ذلك اشمئزازكم.. أتسعين إلى معرفة ماذا يوجد بيني وبينكِ؟ حسنًا.. بينكِ وبيني هناك الحياة بكاملها.. ألا يكفيكِ هذا أحيانًا؟"

"لكن بيتي نظيف، شريف، أنا". قالت ثائرة.. "يمكن أن يكون المرء فقيرًا ونزيهًا مع ذلك.. يا رب السماوات! متى رأيت أن بيتي لم يكن نظيفًا؟ أهذا ما تقصده بإهانتي؟ إن مؤخرتي نظيفة أنا، يا سيدي! ربما لا يمكنك أنت أن تقول كذلك! ولا حتى عن قدميك أبدًا!"

لكني لم أقل ذلك قط يا ماديلون! لم أقل شيئًا مثل هذا إطلاقًا! إن داركِ ليست نظيفة؟ أترين جيدًا أنكِ لا تفقهين شيئًا!" كان هذا كل ما وجده ليرد عليها كي يهدئ من خاطرها.

"تقول إنك لم تقل شيئا إذًا؟ لم تقل شيئًا؟ اسمعوه الآن من كان يشتمني بأحط الألفاظ ومن لا يزال يدعي أنه لم يقل شيئًا! لكن لا بد أن يُقتَل حتى لا يعود بوسعه أن يكذب أكثر من ذلك! السجن لا يكفي لخنزير مثله! قواد حقير فاسد! هذا لا يكفي! إن المقصلة هي ما يحتاج إليه!"

لم تعد تريد أن تهدأ. لم نعد نفهم شيئًا من شجارهما في التاكسي. لم نكن نسمع إلا كلمات بذيئة في الضجة التي راحت تُحدثها العربة، قرع الإطارات في المطر وفي الريح التي أخذت تنقض على أبواب السيارة في زوابع. من التهديدات تبقى الكثير بيننا. "شيء مخزٍ" راحت تكرر مرارًا. لم تعد قادرة

على الحديث عن شيء آخر.. "شيء مخزٍ!" ثم لجأت إلى اللعبة الكبرى: "هل تأتي؟" قالت له. "هل تأتي يا ليون؟ واحد؟ هل تأتي.. أنت؟ اثنان؟" انتظرت قليلاً. "ثلاثة؟ ألا تأتي إذًا؟"

"لا!" رد عليها، دون أن يتحرك قيد أنملة. بل إنه أضاف: "لتفعلي ما يحلو لكِ!"

كانت هذه هي إجابته.

لا بد أنها تراجعت في مقعدها قليلاً، في أقصى عمق التاكسي، لا بد أنها كانت تقبض على المسدس بكلتا يديها لأن النار عندما انطلقت بدت كأنها خرجت من بطنها مباشرةً، ثم وفي الوقت نفسه تقريبًا طلقتان، مرتين متتاليتين.. وامتلأ جو التاكسي بالدخان اللاذع.

مع ذلك كنا لا نزال نسير. كنت أنا من وقع عليه روبنسون، من الجنب، على نحو متقطع، مغمغمًا. "هوب! هوب!" لم يكن يتوقف عن الأنين "هوب! هوب!" كان السائق قد سمعه بكل تأكيد.

في البداية لم يخفف من سرعته إلا قليلاً، ليدرك ما يدور حوله. ثم توقف في النهاية أمام أحد مصابيح الغاز تمامًا.

بمجرد أن فتح الباب، دفعته ماديلون بعنف، وألقت بنفسها خارج العربة. اندفعت هابطة كومة الردم المنحدرة بسرعة. انسلت هاربة في ظلام الحقل المليء بالوحل. عبثًا رحت أناديها، كانت قد ابتعدت بالفعل.

لم أعد أعرف تمامًا ماذا أفعل بالضبط مع الجريح. نقله إلى باريس كان بوجه ما عمليًّا أكثر.. لكننا لم نكن بعيدين عن مصحتنا.. لم يكن سكان البلدة ليفهموا هذه المناورة.. أجلسناه إذًا أنا وصوفي بين المعاطف وحشرناه في الركن نفسه الذي اتخذته ماديلون لتطلق النار. "على مهل!" أوصيت السائق.

لكنه راح يسير مع ذلك بسرعة كبيرة جدًّا، كان متعجلاً. جعلته الاهتزازات يتأوه أكثر.

عندما وصلنا أمام الدار، لم يرد السائق حتى أن يدلنا على اسمه، كان قلقًا بسبب المشكلات التي كانت الشهادة سوف تجرها إليه مع الشرطة.

أخذ يدعي أيضًا أن هناك بالتأكيد بقعًا من الدم على الوسائد. كان يريد الرجوع على الفور دون انتظار، لكني كنت قد التقطت رقم سيارته.

في البطن، كان قد تلقى رصاصتين، روبنسون، ربما ثلاثة. كنت لا أزال أعرف كم بالضبط.

كانت قد صوبت أمامها مباشرةً، لقد رأيت ذلك. لم تكن تنزف، الجروح. بيني وبين صوفي ورغم أننا كنا نمسك به، راح يهتز كثيرًا، كان رأسه يترنح. كان يتكلم، لكن كان من الصعب فهم ما يقول. كان قد أخذ يهذي بالفعل.

"هوب! هوب!" واصل الغمغمة. كان لديه الوقت ليموت قبل أن نصل.

كان الشارع قد رُصف مؤخرًا. عندما صرنا أمام بابنا، أرسلتُ البوابة لتستدعي بارابين من غرفته، بسرعة. نزل على الفور ومعه وبمعاونة أحد الممرضين استطعنا الصعود بروبنسون إلى فراشه. بعد أن خلعنا عنه ملابسه استطعنا فحصه وتحسس جدار البطن، كان الجدار متوترًا بالفعل إلى حد كبير تحت أصابعنا، إلى حد الاختلاج بل وباهتًا في بعض المواضع. وجدت ثقبين الواحد فوق الآخر، لم أجد الثالث، لا بد أن إحدى الرصاصات قد ضلت طريقها.

لو كنت في مكانه، ليون، لفضّلت لنفسي نزيفًا داخليًّا، فهو يغمر البطن، يحدث ذلك بسرعة. ليمتلئ الصفاق (الغشاء البريتوني) وينتهي الأمر. بينما مع التهاب الغشاء البريتوني، فالتلوث هو المتوقع، وسوف يطول الأمر.

كان لا يزال بوسعنا أن نتساءل عما كان سيفعل، لينتهي. أخذ بطنه ينتفخ، آنذاك كان ينظر إلينا، ليون، شاخص البصر تمامًا، يتأوه، لكن ليس كثيرًا. حلت عليه حالة ما تشبه السكينة. لقد رأيته من قبل مريضًا للغاية، وفي مواضع مختلفة كثيرة، لكن في هذه المرة كانت مسألة كل ما فيها جديد، التنفس، الزفرات، العينان وكل شيء. بدا أننا لن نستبقيه، من دقيقة إلى أخرى كان يمضي عنا. راح جبينه يتصبب عرقًا بقطرات كبيرة للغاية حتى بدا كأنه يبكي بكل ملامح وجهه. في مثل هذه اللحظات، يكون من المحرج قليلاً أن يكون المرء قد صار بائسًا وقاسيًا إلى حد ما صار إليه. نفتقر تقريبًا إلى كل ما نحتاج إليه لمساعدة شخص ما على الموت. لم يعد لدينا في داخلنا كثيرًا إلا أشياء مفيدة للحياة اليومية، حياة الدعة، حياتنا الشخصية فقط، الغلظة. في الطريق، فقدنا الثقة.

أما الشفقة التي تبقت لنا فقد طاردناها، أبعدناها، بعناية، إلى أقصى أعماق الجسد كحبة دواء كريهة. دفعناها إلى طرف الأمعاء مع البراز. إنها في مكانها المناسب هناك كما ندعي.

ظللت واقفًا، أمام ليون، راثيًا لحاله، ولم أكن قد شعرت مطلقًا من قبل بمثل هذا الحرج والضيق. غير قادر على مساعدته.. لم يكن يشعر بوجودي.. كان يعاني.. لا بد أنه كان يبحث عن فردينان آخر، أكبر مني بكثير، بالتأكيد، ليموت، بالأحرى ليساعده على الموت، برفق أكثر. كان يبذل جهودًا ليدرك ما إذا كان العالم قد أحرز تقدمًا في مجال ما. كان البائس الأعظم يقوم بعملية جرد في وعيه.. إذا كان البشر قد تغيروا قليلاً، إلى الأفضل، في أثناء حياته، إذا لم يكن قد ظلمهم أحيانًا دون أن يقصد.. لكن لم يكن هناك غيري، أنا تحديدًا، أنا وحدي، إلى جواره، فردينان حقيقي بالفعل يفتقر إلى ما يجعل رجلاً أكبر من حياته البسيطة، يحب الحياة للآخرين. من هذا، هذا الحب، لم يكن لديّ شيء، أو القليل جدًّا حقًّا لدرجة أنه لم يكن هناك داعٍ لإظهاره. لم أكن كبيرًا مثل الموت أنا. كنت أصغر بكثير. لم تكن لديَّ الفكرة الإنسانية العظمى. بل إنني

على ما أظن كنت لا أشعر، بسهولة أكثر، بالأسى من أجل كلب يصارع الموت أكثر من شعوري بذلك من أجل روبنسون، لأن الكلب حيوان بسيط، غير شرير، بينما كان هو –روبنسون - خبيثًا، داهية بعض الشيء، رغم كل شيء. أنا أيضًا كنت شريرًا، ماكرًا، كنا جميعًا أشرارًا ماكرين.. فقد الباقي في أثناء مسيرة الحياة وحتى تقطيبات الوجه التي يمكن أيضًا أن تجدي نفعًا بالقرب من المحتضرين، كنت قد فقدتها، كنت قد فقدت كل شيء فعلاً في أثناء مشوار الحياة، لم أكن أجد شيئًا مما يحتاج إليه المرء كي يموت، لا شيء إلا ألاعيب ماكرة. كانت عاطفتي مثل بيت لا نذهب إليه إلا في الإجازات. بالكاد مسكونًا. وفضلاً عن ذلك أيضًا فإن المحتضر يكون مُتطلبًا صعب الإرضاء. الاحتضار لا يكفي. يجب أن يستمتع في الوقت نفسه الذي نصارع فيه الموت، مع الشهقات الأخيرة لا بد أيضًا من الاستمتاع، في الدرك الأسفل من الحياة، والبولينا ملء الشرايين.

لا يتوقف المحتضرون عن التباكي لأنهم لم يعودوا يستمتعون حقًّا.. يطالبون.. يعترضون. إنها مسرحية الشقاء التي تسعى إلى أن تمر من الحياة إلى داخل الموت نفسه.

استعاد بعض حواسه عندما حقنه بارابين بحقنة المورفين. بل إنه روى لنا ساعتها بعض الأمور المتعلقة بما حدث مؤخرًا.

"من الأفضل أن ينتهي الأمر هكذا" قال، وأضاف بعدها "إنه لا يؤلم بقدر ما كنت أظن.." عندما سأله بارابين في أي موضع تحديدًا كان يشعر بالألم، رأينا بوضوح أنه كان آنذاك قد غاب قليلاً عن وعيه، لكنه كان حريصًا أيضًا رغم كل شيء على أن يقول لنا أشياء أخرى.. أخذت القوة تنقصه ثم القدرات. راح يبكي، راح يختنق ثم أخذ يضحك على الفور بعدها. لم يكن مريضًا عاديًّا، لم نكن نعرف كيف نتصرف أمامه.

بدا الأمر كأنه كان يحاول الآن أن يساعدنا نحن على الحياة. كأنه كان يحاول أن يبحث لنا عن أسباب للرضا حتى نبقى على قيد الحياة. كان يمسكنا بيديه. كلٌّ منا بيد. قبَّلته. لم يعد هناك غير هذا يمكن أن نفعله في مثل هذه الحالات، دون أن يخدع بعضنا بعضًا. انتظرنا. لم يقل بعد ذلك شيئًا. بعدها بقليل، ربما ساعة، ليس أكثر، كان النزيف هو من اتخذ القرار، لكن هذه المرة غزيرًا، داخليًّا، كثيفًا. حمله إلى العالم الآخر.

أخذ قلبه يخفق أسرع فأسرع ثم بأسرع ما يمكن. كان قلبه يجري خلف دمه، مستنفذًا هناك، هزيلاً منذ الآن، في نهاية أطراف الشرايين، مرتعدًا عند أطراف الأصابع. صعد الشحوب إليه من العنق واحتل وجهه بالكامل. مات مختنقًا. مضى دفعة واحدة كأنه كان يتهيأ للوثوب، وهو يشدنا نحن الاثنين، من ذراعينا.

ثم رجع ثانيةً هناك، أمامنا، في التو تقريبًا، متشنجًا، أخذ آنذاك في اكتساب ثقله بالكامل كرجل ميت.

نهضنا، أنا وبارابين، خلصنا نفسينا من يديه. بقيت معلقة في الهواء، يداه، متصلبتين تمامًا، مرفوعتين، صفراوين وزرقاوين تمامًا تحت المصباح.

في الغرفة، كان روبنسون يبدو الآن كشخص غريب، قادم من بلد مخيف، شخص لم يعد أحد يجرؤ على التحدث إليه.

الفصل 48

المقطع الخامس والأربعون

ظل محتفظًا بهدوئه وصوابه، بارابين. وجد طريقة ليرسل من يستدعي رجلاً من قسم الشرطة. بالتحديد كان جوستاف، صاحبنا جوستاف، الذي كان مناوبًا بالمخفر بعد انتهائه من المرور.

"ها هي مصيبة أخرى" قال جوستاف بمجرد أن دخل الغرفة ورآه.

ثم جلس بعد ذلك على مقربة ليلتقط أنفاسه قليلاً وليشرب جرعة على مائدة الممرضين التي لم تكن قد رُفعت بعد. "بما أنها جريمة فمن الأفضل أن نحمله إلى المركز" اقترح ثم أضاف ملاحظًا: "لقد كان فتى طيبًا روبنسون، لم يكن ليؤذي ذبابة، إنني أتساءل لماذا قتلته؟" ثم شرب جرعة أخرى. لم يكن عليه أن يفعل. كان لا يتحمل الشراب. لكنه كان يحب الخمر. كانت تلك نقطة ضعفه.

أحضرنا نقالة من أعلى، أنا وهو، من المخزن. كان الوقت متاخرًا الآن فعلاً لإزعاج العاملين، قررنا نقل الجثمان إلى المركز بأنفسنا. كان المخفر بعيدًا في الجهة الأخرى من البلدة، بعد المزلقان، المبنى الأخير.

هكذا شرعنا في السير. كان بارابين يمسك بالنقالة من الأمام. جوستاف ماندامور من الطرف الآخر. غير أنهما لم يكونا يمشيان في خط مستقيم لا هذا ولا ذاك. بل كان لا بد أن ترشدهما صوفي قليلاً في نزول الدرج الصغير. لاحظت في تلك اللحظة أنها لم تكن تبدو متأثرةً جدًّا، مع أن الحادث قد وقع بالقرب منها تمامًا بل وقريبًا جدًّا لدرجة أنها كانت من الممكن أن تتلقى

إحدى الرصاصات في حين كانت المجنونة الأخرى تطلق النار. لكن صوفي، وكنت قد لاحظت ذلك في مناسبات أخرى، كانت تحتاج إلى بعض الوقت لتشرع في التأثر بالعواطف. ليس لأنها كانت فاترة المشاعر، لأن ذلك كان ينتابها بالأحرى كالإعصار، لكنها كانت تحتاج إلى بعض الوقت.

كنت أريد أن أتبعهم مسافة صغيرة أخرى لأتأكد جيدًا من أنه قد انتهى تمامًا. لكن بدلاً من أن أتبعهم بالفعل مع نقالتهم كما كان عليَّ أن أفعل، رحت بالأحرى أتنقل من اليمين إلى اليسار على طول الطريق ثم في آخر الأمر، بعد أن تجاوزت المدرسة الكبيرة الواقعة بجانب المزلقان، انسللت عبر درب صغير يهبط بين الأسيجة أولاً ثم ينحدر مباشرةً نحو نهر السين.

من فوق الأسوار الحديدية الشبكية رأيتهم يبتعدون بنقالتهم، بدوا كأنهم سوف يختنقون وسط أوشحة الضباب المنعقدة ببطء خلفهم. عند الرصيف، أخذت المياه تدفع بقوة ومشقة الصنادل النهرية المتجمعة بعكس اتجاه الفيضان. من سهل چانفيليه لا يزال يصل الكثير من البرد في هبات ممتدة على التيارات العكسية للنهر فتجعلها تلمع بين قناطر الجسور.

هناك بعيدًا بعيدًا، كان البحر. لكن لم يعد لديَّ ما أتخيله عن البحر. كان لديَّ ما أعمله بخلاف ذلك. بلا جدوى كنت أحاول أن أضيع حتى لا أعود أجد نفسي في مواجهة حياتي ثانيةً، ببساطة كنت أجدها أمامي في كل مكان. كنت أستعيد نفسي. بالنسبة إليَّ، كان عهد التجوال والارتحال قد انتهى، ولّى إلى غير رجعة. الدور على الآخرين.. من جديد صار العالم مغلقًا! لقد وصلنا إلى النهاية، نحن! كما يحدث في العيد! الشعور بالأسى ليس كل شيء، لا بد أن نكون قادرين على استئناف الموسيقى، على المضي للبحث عن مزيد من الأسى.. لكن ليقم بذلك الآخرون! إنه الشباب الذي نطالب به ثانيةً هكذا دون أن يبدو علينا.. دون أن نشعر بالحرج. أولاً لم أعد مستعدًّا لتحمل المزيد أيضًا! غير أني لم أكن حتى قد مضيت بعيدًا هكذا في الحياة مثل روبنسون. في النهاية، لم أكن قد نجحت. لم تكن لديّ فكرة واحدة راسخة بالفعل مثل

الفكرة التي واتته كي يزيل عن روحه الصدأ، كي يتحرر. فكرة أكبر أيضًا من رأسي المرهق، أكبر من كل الخوف الموجود داخله، فكرة جميلة، رائعة، ومريحة تمامًا للموت.. كم من الأعمار كان يلزمني أنا حتى أكوّن أنا الآخر فكرة أقوى من كل الأفكار الأخرى قاطبةً. كان الاعتراض مستحيلاً! كان المسعى فاشلاً! كانت أفكاري تجول في رأسي تفصل بينها فراغات واسعة، كانت مثل شموع صغيرة منكسرة وwامضة ترتعد أضواؤها طول الحياة وسط عالم بغيض لا يطاق بالفعل.

ربما كانت الأمور تسير أفضل قليلاً منذ عشرين عامًا، لا يمكن الادعاء بأني لم أكن أحرز بعض بدايات التقدم، لكنني في النهاية لم يكن من المتوقع أن أتوصل أبدًا، مثل روبنسون، إلى ملء رأسي بفكرة واحدة، لكن بفكرة رائعة أقوى تمامًا من الموت وأن تنتهي بي الحال بفكرتي وحدها إلى أن أفيض في كل مكان سرورًا، لا مبالاة وشجاعة. بطل يفيض بالحياة.

سيكون لديّ آنذاك كثير من الشجاعة. بل إنني سأقطر بالشجاعة في كل مكان ولن تعود الحياة نفسها إلا فكرة شاملة للشجاعة تسيّر كل شيء، البشر والأشياء من الأرض حتى السماء. الحب، سنحظى منه بالكثير جدًّا، بالمناسبة نفسها، علاوة على ذلك، لدرجة أن الموت سيبقى حبيسًا داخله مع الرقة، مرتاحًا للغاية في دخيلته، دافئًا للغاية حتى إنه سيتمتع بذلك في آخر المطاف ذلك اللعين، حتى إنه لن ينتهي من التسلي بالحب هو الآخر، مع الجميع.

هذا ما سيكون جميلاً! سيكون ناجحًا! رحت أضحك وحدي فوق الرصيف وأنا أفكر في كل ما كان يجب أن أقوم به أنا فعلاً من ألاعيب وأشياء حتى أتمكن من الامتلاء هكذا بقرارات لا تنتهي.. مسخ حقيقي للمثل الأعلى! هي الحمى بعد كل اعتبار.

منذ ساعة على الأقل والرفاق يبحثون عني! خصوصًا أنهم قد رأوا بوضوح أني لم أكن في حالة طيبة على الإطلاق عند مغادرتهم.. كان جوستاف ماندامور أول من اهتدى إلى مكاني تحت مصباحي الغازي. "إيه يا دكتور!" ناداني. يمكننا أن نقول إنه كان صاحب صوت فذ، ماندامور.

"من هنا، أنت مطلوب لدى المأمور! للإدلاء بأقوالك!"

"أتعرف أيها الطبيب".. أضاف، لكن همسًا في أذني آنذاك، "أنت تبدو شاحبًا مرهقًا حقًّا!"

سار إلى جانبي. بل إنه أخذ بيدي ليساعدني على السير. كان يحبني كثيرًا جوستاف. لم أوجّه إليه مطلقًا أي لوم بشأن الشراب. كنت أتفهم كل شيء، بينما كان بارابين، عن نفسه، قاسيًا بعض الشيء. من وقت إلى آخر كان يوبخه، يُشعره بالخجل بسبب تعاطي الخمر. لقد قام جوستاف بأشياء كثيرة من أجلي. بل إنه كان معجبًا بشخصي. لقد أخبرني بذلك. لم يكن يعرف لماذا. ولا أنا أيضًا. لكنه كان معجبًا بي. كان الوحيد.

انعطفنا عبر شارعين أو ثلاثة معًا حتى رأينا عمود نور المخفر. لم يعد ممكنًا أن نضل الطريق. كان التقرير الذي عليه كتابته هو ما يزعجه. لم يجرؤ على أن يقول لي ذلك. كان قد جعل الجميع يوقع أسفل التقرير من قبل، لكن مع هذا كان لا يزال ينقصه كثير من الأشياء، تقريره.

كان لجوستاف رأس ضخم، مثلي، وكنت أستطيع حتى أن أضع قبعته الرسمية، ليس هناك ما يضاف، غير أنه كان ينسى التفاصيل بسهولة. لم تكن الأفكار أيضًا تواتيه بسهولة، كان يعاني بشدة للتعبير عما يريد وأكثر بكثير كي يكتب. كان من الممكن لبارابين أن يعاونه في كتابة التقرير، لكنه لم يكن قد رأى شيئًا من ظروف الفاجعة، بارابين. كان لا بد أن يُلفِّق ولم يكن مأمور الشرطة ليقبل بأن يُلفَّق في التقارير، لم يكن يريد إلا الحقيقة كما كان يقول.

بينما كنت أصعد سلم المخفر الصغير، أخذت أرتعد. لم يكن بوسعي أن أروي له شيئًا مهمًّا أنا الآخر، للمأمور، لم أكن بالفعل في حالة طيبة.

جثمان روبنسون، كانوا قد أسجوه هناك، أمام صفوف ملفات المركز الضخمة.

مطبوعات متناثرة في كل مكان حول المقاعد وأعقاب سجائر قديمة وعبارات "الموت لرجال الشرطة" لم تُمح جيدًا عن الجدران.

"هل ضللت الطريق أيها الطبيب؟" سألني السكرتير، عندما وصلت في نهاية المطاف، بكل ود على أي حال. كنا جميعًا في غاية الإرهاق، حتى إننا قد تلعثمنا جميعًا بعض الشيء، كلٌّ بدوره عند الإدلاء بالشهادة.

أخيرًا، جرى الاتفاق على مدى الرصاصات ومساراتها، ظلت رصاصة بذاتها محشورة في العمود الفقري. لم يُعثر عليها. سوف يُدفن بها. بُحِثَ عن الأخريات. كانت الرصاصات الأخرى مغروسة في التاكسي. كان مسدسًا قويًّا.

جاءت صوفي لملاقاتنا، كانت قد ذهبت لتحضر معطفها. أخذت تقبِّلني وتضمني إليها، كما لو كنت سأموت بدوري أو سوف أطير. "لكني لن أرحل!" بذلت كل جهدي في تكرار ذلك عليها. "إنني لن أرحل، لا تخافي يا صوفي!" لم يكن من الممكن طمأنتها.

أخذنا في النقاش، حول النقالة، مع سكرتير المأمور الذي كان قد رأى، كما قال لنا، الكثير من الجرائم ومن غير الجرائم ومن الكوارث أيضًا، بل إنه أراد أن يروي لنا في الوقت نفسه كل تجاربه. لم نعد نجرؤ على الانصراف حتى لا نكدر خاطره. كان الرجل ودودًا بأكثر مما يجب. كان يسره أن يتحدث لمرة واحدة مع مثقفين، ليس مع حثالة. حتى لا نضايقه وقتها، رحنا نتلكأ في مركزه.

لم يكن مع بارابين معطف واقٍ من المطر. كان استماع جوستاف لنا يدغدغ عقله. بقي فاغر الفم من جراء ذلك، وعنقه الضخم مشدودًا كأنه يطلق النار على سيارة ما. لم أكن قد سمعت بارابين ينطق بهذا القدر من الكلمات منذ سنوات طويلة، منذ أيام دراستي، في الحقيقة. كل ما جرى في ذلك اليوم، كان يصيبه بالدوار. كأنه ثمل. مع كل هذا، قررنا العودة إلى الدار.

اصطحبنا ماندامور معنا وصوفي أيضًا التي ظلت تحتضنني من وقت إلى آخر والتي كان لديها من طاقات القلق والعاطفة أيضًا ملء الجسد، والقلب، وفي كل مكان ومن النوع النبيل الأحمق. كنت ممتلئًا بقوتها. كان ذلك يشعرني بالضيق. لم تكن قوتي وكنت أحتاج إلى قوتي الخاصة كي أمضي لأموت على نحو رائع يومًا ما، مثل ليون، لم يكن أمامي وقت أضيعه في التقطيب والعبوس. إلى العمل! ظللت أقول لنفسي. لكن ذلك لم يحدث.

لم تُرِدْ حتى أن أرجع لألقي على الجثمان نظرة أخيرة. مضيت إذًا دون أن ألتفت ورائي. "أغلق الباب" كان هذا مكتوبًا. كان بارابين يشعر بالظمأ. بسبب كثرة الكلام بالتأكيد. من التحدث بأكثر مما يجب بالنسبة إليه. عند مرورنا أمام حانة القناة، دققنا على مصراع الباب لبرهة ليست بالقصيرة. ذكرني هذا بطريق نوارسور في أثناء الحرب. الوميض الخافت نفسه فوق الباب الذي يوشك أن ينطفئ. في النهاية، جاء صاحب الحانة، شخصيًّا، ليفتح لنا. لم يكن على علم بما جرى. نحن الذين أخبرناه بكل شيء وخبر الفاجعة أيضًا. "مأساة غرامية" كما سماها جوستاف.

كانت حانة القناة تفتح أبوابها قبل الفجر مباشرةً من أجل الملاحين. يبدأ الهويس في الدوران على محوره ببطء قرب نهاية الليل. وبعد ذلك يكون المشهد بكامله هو ما يستعيد صحوه ويشرع في العمل. على مهل شديد تنفصل الضفتان عن النهر، ترتفعان، ترتفعان من جانبي الماء. من العتمة يخرج العمل. نبدأ مرة أخرى في رؤية كل شيء، شديد البساطة، شديد القسوة، الرافعات هنا، أسيجة البوص المحيطة بالورش من هناك وبعيدًا على

الطريق ها هم الرجال يعودون من أماكن أكثر بُعدًا. إنهم يدلفون إلى النهار الغائم في كتل صغيرة مرتعدة. بدايةً يضعون من النور ملء وجوههم وهم يمرون أمام مطلع النهار. يتقدمون. لا نرى منهم بوضوح إلا وجوههم الشاحبة والبسيطة، الباقي لا يزال غارقًا في الظلام، في الليل. سيكون من الضروري أن يموتوا جميعًا يومًا ما. ماذا سوف يفعلون؟

كانوا يصعدون نحو الجسر. بعد ذلك، يغيبون شيئًا فشيئًا في السهل ويأتي منهم دائمًا آخرون، رجال، أكثر منهم شحوبًا، بقدر ما يطلع النهر من كل مكان. فيمَ يفكرون؟

كان صاحب المقهى يريد أن يعرف كل شيء عن الكارثة، ملابساتها، يود أن نروي له كل شيء.

ڤوديسكال Vaudescal، كان اسم صاحب الحانة، شاب قوي من الشمال، نظيف الملابس تمامًا.

حكى له جوستاف آنذاك ما أراد وأكثر.

على نحو مملّ راح جوستاف يروي لنا ملابسات الحادث، لم يكن هذا مع ذلك هو المهم، رحنا نتوه ثانيةً وسط الكلمات. فضلاً عن ذلك، نظرًا إلى أنه كان ثملاً، كان يبدأ من جديد. لكنه آنذاك لم يعد لديه حقًّا ما يقوله، لا شيء. مع ذلك رحت أستمع إليه بالفعل قليلاً، بكل أناة، كأنه نعاس، لكن حينذاك كان الآخرون هم من اعترض عليه وقد أغضبه ذلك جدًّا.

في سورة جنونه مضى فوجّه ضربة قوية إلى الموقد (المدفأة) الصغير. انهار كل شيء، تبعثر كل شيء رأسًا على عقب: الماسورة، الشبكة الحديدية وجمرات الفحم المشتعلة. كان قويًّا، ماندامور، مثل أربعة رجال.

ثم أخذته، فوق ذلك، الرغبة في أن يرينا رقصة النار الحقيقية! خلع حذاءه وأخذ يثب وسط الجذوات المشتعلة.

مع صاحب الحانة، كانت لهما معًا مشكلة بشأن "ماكينة قمار" غير مدموغة.. كان ڤوديكسال، مراوغًا محتالاً، كان لا بد من الاحتراس منه، بقمصانه النظيفة جدًّا جدًّا دائمًا، كان لا بد للمرء أن يشك في كونه أمينًا بالفعل. حقود وواشٍ. هناك الكثير من أمثاله على أرصفة الموانى.

ارتاب بارابين في أنه يسعى إلى الإيقاع به، بماندامور، ليتسبب في عزله، مستغلاً أنه قد ثمل.

منعه، بنفسه، من القيام بها، رقصته هذه، رقصة النار، ووبخه ليُشعره بالعار. دفعناه، ماندامور، إلى أقصى طرف الطاولة. تهاوى هناك، في النهاية، هادئًا تمامًا، بين الزفرات الحارة الهائلة والروائح. أخذه النعاس.

من بعيد، أطلقت السفينة القاطرة صفيرها، تجاوز نداؤها الجسر، ثم قنطرة، فأخرى، الهويس، جسرًا آخر، بعيدًا، أبعد.. أخذ ينادي إليه كل صنادل النهر، كلها، والمدينة بأسرها، والسماء والريف، ونحن أنفسنا، اصطحب معه كل شيء، نهر السين أيضًا، كل شيء، لينتهي كل شيء.

تمت.

الفصل 49

الفهرس

النهاية - الفصل 50